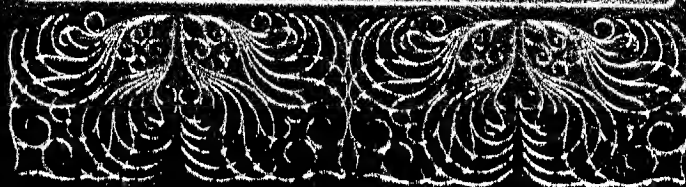


سعيد حوى

رحم الله تعالى



الكتاب في السير

وغيرها

السير النبوية



كتاب

السير النبوية

الاستيفاء في السنة

وفهمها

السيرة النبوية

كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة

للمنشر

دار السالار للطباعة والنشر والتوزيع

لصاحبها

عبد القادر محمود البكار

١٢٠ شارع الأزهر _ ص. ب. ١٦١ الغربية
ت: ٩٣٢٨٢٠ : ٢٧٤١٥٧٨ فاكس ٢٧٤١٧٥٠

الطبعة الثالثة

١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

سَعِيدُ حَوَّى

السِّيَرُ فِي السُّنَنِ

وَفَفَحَها

المجلد الأول
القسم الأول
السيرة النبوية

دَارُ السَّلَامِ

الطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه
رَبَّنَا اقْبَلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

راجع لهذا القسم ورقته

فضيلة أخينا الشيخ

عبد الحميد الأصب

حفظه الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ النَّاشِرِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ومن تبع سنتهم وعمل بهديهم إلى يوم الدين .

فقد روى الإمام مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال : « تَرَكْتُ فِيكُمْ أُمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا مَسَكْتُمُ بِهِمَا : كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ » فلقد يسر الله لنا أن قدمنا للأمة الإسلامية تفسير كتاب الله (الأساس في التفسير) وهو يعتبر القسم الأول من سلسلة الأساس في المنهج وأرجو أن نكون وفقنا في ذلك وما نحن والحمد لله تقدم لأمتنا الغالية (التي لم تعرف قدر نفسها) الكتاب الأول من القسم الثاني من سلسلة الأساس في المنهج والمكون من خمس كتب .

والتي تمثل الأساس في السنة وفقهها ، وهذا القسم له ما للتفسير من الأهمية ، وخاصة في هذا العصر الذي كثرت فيه الصيحات للأخذ بالقرآن دون السنة وهذا عن جهل أحياناً وعن علم وتخطيط ومكر أحياناً أخرى وقد اتخذت هذه الدعوات أشكالاً شتى ، تارة بالطعن فيها وتارة بطبع الكتب وتوزيعها وتارة بالتشكيك في حجيتها ونصوصها وتارة في صحة نقلها وتارة بالطعن في روايتها كما تفعل بعض الفرق الضالة . وهذا الاتجاه قديم يعود للقرن الهجري الأول فقد أخرج البيهقي بسنده عن شبيب بن أبي فضالة المكي أن عمران بن حصين رضي الله عنه ذكر الشفاعة فقال رجل من القوم : يا أبا نجيد إنكم تحدثون بأحاديث لم نجد لها أصلاً في القرآن ففضب عمران وقال للرجل : فرأت القرآن ؟ قال : نعم . قال فهل وجدت فيه صلاة العشاء أربعاً وصلاة المغرب ثلاثاً والغداة - أي الصبح - ركعتين والظهر أربعاً والعصر أربعاً ؟ قال لا . قال : فَعَمَّنْ أَخَذْتُمْ ذَلِكَ ؟ أَلَسْتُمْ عِنَّا أَخَذْتُمُوهُ وَأَخَذْنَاهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إلخ الحديث ، وفي نهاية الحديث يقول عمران بن حصين رضي الله عنه ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ . قال عمران : فقد أخذنا عن رسول الله ﷺ أشياء ليس لكم بها علم .

بل إن الرسول ﷺ قد أخبرنا عن أمثال هؤلاء المشككين في السنة النبوية وحذر

منهم فقد روى الإمام أحمد وأبو داود بسند صحيح عن المقدم بن معد يكرب (رضي الله عنه) قال ﷺ : « ألا إني أُوتيتُ الكتابَ ومثلته معه ، ألا إني أُوتيتُ القرآنَ ومثلته معه ، ألا يوشِكُ رجلٌ شعبانَ على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه وإن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله » . وصدق رسول الله ﷺ . ويقول الله تبارك وتعالى ﴿ من يُطِيعِ الرسولَ فقد أطاعَ الله ﴾ .

وأقول : الحمد لله الذي حفظ لنا القرآن الكريم وسنة نبيه ﷺ ، والشائع أن الآيه الكريمة ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ هي للقرآن فقط ، وإن كان هذا على أرجح الأقوال إلا أن حفظ السنة النبوية من لوازم حفظ الشريعة ، وقد اختارها الله تعالى ديناً لعباده إلى قيام الساعة ، وختم بها الشرائع ، فكان من لوازم التدبير الإلهي أن تحفظ هذه الشريعة الغراء ولن يتحقق ذلك الحفظ إلا بحفظ أصليها العظيمين الكتاب والسنة .

وقد انفردت هذه الأمة عن باقي الأمم بأنها حفظت نصوص دينها حفظاً دقيقاً كاملاً لا مثيل له لتبقى زاد الأمم ومصدر هدايتها إلى قيام الساعة .

إلا أن فهم هذه النصوص هي التي محل اجتهاد وتقديماً للناس بأسلوب يناسب العصور على تتابعها ، والتركيز على ما يهم كل جيل من الأجيال وتلمس حاجاته ومراعاة مدى استيعابه وفهمه ، وحل مشاكله . فهذا هو الذي نحن بحاجة إليه في عصرنا ، فكان هذا الكتاب ، الذي نأمل من الله تبارك وتعالى أن يسد ثغرة في وجه المشككين بالسنة .

وأكرر دعوة وجهتها للقارئ الكريم على صفحات المقدمة في الأساس في التفسير أن لا يألو جهداً في توجيه النصح لنا لكي نتدارك ذلك في الطبقات القادمة إن شاء الله سواء ذلك للمؤلف حفظه الله أو للناسر مباشرة فنكون له من الشاكرين ، ورحم الله علاق هذه الأمة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما قال : رحم الله امرأ أهدى إلي عيوبي .

وفي الختام اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك .

الناشر

عبد القادر العبد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تستطيع أن تقول إذا قرأت هذا الكتاب أنك
 كدت تحيط بمعاني السنة النبوية ، لأنه حوى
 الهدى النبوي الذي روته أمهات كتب السنة :
 صحيح البخاري ومسلم ، والسنن الخمسة : لأبي
 داود والنسائي والترمذي وابن ماجه
 والدارمي ، وموطأ الإمام مالك ، ومسانيد :
 الإمام أحمد وأبي يعلى الموصلي وأبي بكر البزار ،
 وصحيح ابن خزيمة وابن حبان ، ومعجم
 الطبراني الثلاثة ومستدرک الحاكم وما تيسر جمعه
 من غير هذه الكتب من صحيح السنة وحسنها .

مقدمة
الأساس في السنة وفهمها
وفيها

أولاً : تعريف بهذا الكتاب
ثانياً : التعريف بأصول هذا الكتاب وتصنيفها

أولاً : تعريف بهذا الكتاب

تمهيد

أقبلت على الدعوة الإسلامية - بفضل الله - في سن مبكرة من حياتي ، وكانت المكتبة الإسلامية الحديثة فقيرة ، وكان من أبرز الكتاب الذين تصادفنا كتبهم في تلك الأيام الشيخ محمد الغزالي - أطال الله بقاءه - وكان مما قرأت له كتاب فقه السيرة ، وكان مما قاله في هذا الكتاب :

إن القرآن روح الإسلام ومادته ، وفي آياته الحكمة شريح دستوره وبُسِطَتْ دعوته ، وقد تكفل الله بحفظه فصيننت به حقيقة الدين ، وكتب لها الخلود أبد الأبد ، وكان الرجل الذي اصطفاه الله لإبلاغ آياته وحمل رسالته (قرآناً) حياً يسعى بين الناس ، كان مثلاً لما صوره القرآن من إيمان وإحبات ، وسعي وجهاد ، وحق وقوة ، وفقه وبيان ، فلا جرم أن قوله وفعله وتقريره وأخلاقه وأحكامه ، ونواحي حياته كلها تعد ركناً في الدين ، وشريعة للمؤمنين .

إن الله اختاره ليتحدث باسمه ويبلغ عنه ، فمن أولى منه بفهم مراد الله فيما قال ؟ ومن أولى منه بتحديد المسلك الذي يتواءم مع دلالات القرآن القريبة والبعيدة ؟ إن تطبيق القانون لا يقل خطراً عن صياغته ، وللقانون نص وروح ، وعند علاج الأحداث المختلفة لتسير وفق القانون العتيد ، تجد فتاوى وتدوين نصائح ، وتحفظ تجارب وعبر ، وتثبت أحكام بعضها أقرب إلى حرفية النص وبعضها أدنى إلى روحه .. وهكذا .

والقرآن هو قانون الإسلام ، والسنة هي تطبيقه ، والمسلم مكلف باحترام هذا التطبيق تكليفه باحترام القانون نفسه ، وقد أعطى الله نبيه ﷺ حق الاتباع فيما يأمر به وينهى عنه لأنه - في ذلك - لا يصدر عن نفسه بل عن توجيه ربه ، فطاعته هي طاعة الله ، قال الله عز وجل : **مَنْ يَعْصِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَوَاسِلُنَاكَ عَلَيْهِمْ**

حفيظاً ﴿^(١)﴾ وقال : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ ﴿^(٢)﴾ وقال : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ ﴿^(٣)﴾ .

إن السير في ركاب المرسلين هو الخير كله ، ومن ثمَّ كانت سنة محمد - عليه الصلاة والسلام - مصدراً لشريعته مع الكتاب الذي شرفه الله به ، إلا أنَّ السنن الماثورة عَرَضَ لها ما يوجب اليقظة في تلقيها ، فليس كل ما ينسب إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - سنة تقبل ، ولا كل ما صحت نسبته صح فهمه ، أو وُضِعَ موضعه .

والمسلمون لم يؤذوا من الأحاديث الموضوعة - لسهولة تزييفها وفضحها - قدر ما أودوا من الأحاديث التي أسيء فهمها واضطربت أوضاعها ، حتى جاء أخيراً من ينظر إلى السنن جمعاء نظرة ريبة وإتهام ، ويتبنّى لو تخلص المسلمون منها .

وهذا خطأ من ناحيتين : إهمال الحقيقة التاريخية أولاً ، فإنَّ الدنيا لم تعرف بشراً أحصيت آثاره وتُقدت بحذر ، ومُحَصَّنت بدقة ، كما حدث ذلك في آثار محمد بن عبد الله ﷺ .

والناحية الأخرى أن في السنة كنوزاً من الحكمة العالية ، لو نسب بعضها إلى أحد من الناس لكان من عظماء المصلحين ، فلماذا تضيع ويحرم الناس خيرها ؟!

عندما درسنا تراث محمد - عليه الصلاة والسلام - في (الأخلاق) وذاكرنا أحاديثه التي تربو على الألوف في شتى الفضائل ، خيل إلينا : لو أن جيشاً من علماء النفس والتربية اجتمع ليسوق للعالم مثل هذا الأدب لعجز ، والأخلاق شعبة واحدة من رسالة محمد - عليه الصلاة والسلام - الضخمة اهـ .

وهكذا استقر في ذهني منذ بدايات سيري إلى الله ضرورة التعرف على السنة الصحيحة والحسنة ، وضرورة فهمها فهماً صحيحاً . وبعد مطالعات كثيرة في كتب السنة وجدت أن الحاجة ملحة لوجود كتاب يجمع السنة الصحيحة والحسنة ، ويقدم مع ذلك الفهم الصحيح للنصوص التي تحتاج إلى شرح أو توضيح . ومن ثمَّ ولدت فكرة هذا الكتاب .

(٣) الحشر : ٧ .

(٢) النحل : ٤٤ .

(١) النساء : ٨٠ .

وأثناء مطالعاتي في كتب السنة كنت أتردد في قراءة بعض الكلمات أو الأسماء بسبب من غياب الشكل والضبط ، وإذا ما أردت التحقيق كان ذلك يستغرق قسماً من الوقت ليس قليلاً ، وكثيراً ما كانت تفوتني معاني بعض الكلمات والتراكيب ، وكان ذلك يقتضي مني بحثاً طويلاً إن أردت المعرفة ، فشعرت أنه إذا كان من الضروري أن تجمع السنة المعتمدة في كتاب ، وأن يعرض في هذا الكتاب الفهم الصحيح لبعض النصوص ، فلا بد أن يكون هذا الكتاب مشكلاً مشروحاً فيه كل ما هو غامض في حق القارئ العادي .

وأثناء مطالعاتي في كتب السنة كنت ألاحظ أن المؤلفين فيها ما تركوا شيئاً إلا وعلموا على خدمة السنة النبوية فيه ، ولكنه شيء عادي أن يتحكم في تأليف كل عصر اهتمامات ذلك العصر ، فالتأليف في الأصل وليد الحاجة أو وليد الظرف ، فثلاً حيثما وجد صراع مذهبي أو وجدت فرقة ضالة أو جهل معين أو انحراف ما فلا بد أن يراعى في تأليف أهل ذلك العصر مثل هذا ، ومن ههنا تبرز عناوين ويركز على موضوعات ، وقد يتغلب نوع من الترتيب في عصر على غيره ، وقد وجدت أن موضوعات كثيرة مما تهم عصرنا لم تنل حظها من الإبراز ، كما أنني وجدت أن نوعاً من الترتيب يمكن أن يكون أكثر مناسبة للقارئ العادي ، وأكثر تحقيقاً لبعض المعاني التربوية أو النفسية التي أحرص عليها .

وكان مما استقر في نفسي أن احتياجات القارئ العادي غير احتياجات القارئ المختص ، فالقارئ العادي يهتم الجوهر دون ما احتاجه حفظ هذا الجوهر أو تمييزه عن غيره ، ولما كانت أكثر كتب الحديث تهتم بأحاط بالسنة أو لزم لتمحيصها اهتمامها بالسنة نفسها فقد وجدت أن كتاباً ينصب الكلام فيه على السنة ذاتها دون ما أحاط بها من ضرورات التحقيق هو الذي يحتاجه القارئ غير المختص في عصرنا . وهذا الكتاب للقارئ المسلم مطلقاً .

وإذ كنت أرى أن من واجبات دعاة الإسلام في عصرنا أن يقدموا للناس نصوص الكتاب والسنة بأسهل عرض وأجوده ، وأقوم شرح وأعدله ، خاصة وهم يريدون أن يقدموا للعالم هذا الإسلام ، ويريدون أن يصوغوا الحياة عليه ، فقد وجدت من الضرورة أن توجد

سلسلة في هذا الشأن ، وهكذا تأكد لَدَيَّ إصدار سلسلة الأساس في المنهج بأقسامها الثلاثة :
(الأساس في التفسير) و (الأساس في السنة) و (الأساس في قواعد المعرفة وضوابط الفهم
للنصوص) .

وإذ كنت أتصور أنه لاتنضج شخصية الداعية والقائد المسلم في عصرنا إلا باستكمال
دراسة عدة أمور ، منها السنة النبوية ، فقد رأيت أنه لابد من كتاب جامع لنصوص السنة
الصحيحة والحسنة يدرسه كل من يتصدر للدعوة إلى الله أو تؤهله مؤهلاته لذلك ، أو
يقدمه إخوانه للقيادة الإسلامية الراشدة .

وكان هذا عاملاً من عوامل تأليف هذا الكتاب .

* * *

هذه بعض الدوافع التي دفعت إلى التفكير في إخراج هذا الكتاب . ودعني الآن أحدثك
بعض الحديث عن بعض المباحث الحديثية وغيرها بين يَدَيَّ ما فعلته ؛ ليخرج هذا الكتاب
بالشكل الذي تراه ، والذي أطمع أن يكون قد حقق كل ما استهدفته منه .

(١)

انفردت الأمة الإسلامية عن جميع الأمم بأنها حفظت نصوص دينها حفظاً دقيقاً كاملاً ،
وذلك من معجزات الإسلام ، وأن ما قاله كتابه هو الحق والصدق ، يشهد لذلك تحقق قوله
- جل جلاله - : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ^(١) فلقد حفظ القرآن حفظاً لا
ينتطح فيه عزان ، وحفظت السنة النبوية التي تشرح القرآن حفظاً هو وحده معجزة ،
فلقد وَفَّقَتْ هذه الأمة إلى اعتماد كل ما يلزم لحفظ النصوص ، وقد قامت جهود هائلة من
أجل ذلك ، ومن عرف حقائق هذا الأمر أدرك معجزة الإسلام هذه .

(٢)

اعتمدت الأمة الإسلامية من أجل حفظ نصوص الوحي مبدأي الرواية والتثبت ،

وتَوَضَّعتُ نتيجَةً لاعتماد هذين المبدأين مئات الاصطلاحات والقواعد والضوابط وعشرات العلوم وأنواع الدراسات ، وتنتج عن ذلك عشرات الألوف من الكتب ، وكل ذلك للوصول في النهاية إلى ما يصح اعتباره من النصوص ومالا يصح .

(٣)

انصب جهد القراء على حفظ الشاردة والواردة مما له علاقة بالقرآن الكريم ، أحرفه ورواياته ، من الهمس فيه إلى تعدد اللهجات في النطق به ، إلى استقراء طرائق الأداء التي أدى بها الرسول ﷺ هذا القرآن لشقى القبائل .

وانصبَّ جهد المحدثين على حفظ الحديث وتبيين ما داخله أو خالطه أو أدخل عليه .

وبهذا الجهد وذاك قدم القراء والمحدثون المادة الخام لكل علوم الإسلام التي انبثقت عن الكتاب والسنة ، كعلم أسباب النزول وعلم الناسخ والمنسوخ وعلم التفسير وعلم الأصول وعلوم العقائد والفقه والأخلاق والآداب والسلوك وعلوم السيرة والشمايل والخصائص إلى غير ذلك من علوم أمهات ، ولقد وَسَّعتْ هذه المادة الخام الحياة كلها ؛ ولذلك فإن الدراسات والمعاني التي يمكن أن تنبثق عن الكتاب والسنة لا تتناهى .

وإذ كانت المحصلة المرادة من النصوص هي الأحكام الشرعية فقد وجد علم أصول الفقه الذي يضبط كيفية الوصول إلى الأحكام الشرعية التي تسع الزمان والمكان والتي لا تتناهى كذلك .

وهذا العلم - علم أصول الفقه - هو الذي وضع القواعد التي تضع السنة في محلها بالنسبة لأصول التشريع ، والذي وضع قواعد الوصول إلى الحكم الشرعي من خلال استشراف النصوص وأصول الأحكام .

وهكذا تعاون القراء والمحدثون والمجتهدون والأصوليون والراسخون في العلم بعمامة على وضع كل نص في محله بالنسبة لبناء الإسلام .

(٤)

وقد اشتغل المحدثون للتثبت من الروايات على محورين : محور السند ، ومحور المتن .
فعلى محور السند : درسوا وضع الرواة : عدالتهم وصدقهم وضبطهم ، واجتماعهم
ببعضهم ، وإمكانية أخذ بعضهم عن بعض ، إلى غير ذلك .

وعلى محور المتن : قارنوا بين المتون المروية فإذا خالف الثقة من هو أوثق منه أو إذا
خالف الثقة الثقات لم يقبلوا المتن إلا إذا أمكن الجمع بين الحديثين .

وهكذا من خلال سبر السند ومقارنة المتون أحكوا أمر التثبت ، ومع ذلك فإنهم لم
يكتفوا بذلك بل أوجبوا على أنفسهم أن ينظروا نظرة شمولية إلى السند والمتن بعين الخبير
بشأنها البصير بها ، لعلهم يكتشفون قادحاً خفياً ، ومن ثمَّ أوجدوا ما يسمى بعلم العلل ، ولم
يعتبروا الحديث صحيحاً إلا إذا سلم من الشذوذ والعلة .

وهذا كله كان جهد المحدثين ، وأكمل عملهم الأئمة المجتهدون ، فإذا كان المحدثون مهمتهم
النظر في السند والمتن ومقارنة متون السنة النبوية ببعضها البعض لمعرفة الشذوذ في
الرواية ، فهمة المجتهدين أن يستشرفوا نصوص الكتاب والسنة ، وأن يلحظوا ما إذا كانت
رواية من الروايات تخالف معنى قرآنياً أو قاعدة تشريعية ، وهكذا أكمل المجتهد عمل
المحدث ، ولذلك ترى بعض النصوص صححها المحدثون ولم يأخذ بها الأئمة المجتهدون إما
لاعتبارها مخالفة لنص قرآني أو لقاعدة شرعية محكمة أو لاعتبارهم إياها سنة يومية فعلها
رسول الله ﷺ بحكم قيادته السياسية للدولة الإسلامية ، وإذا كانت هذه القضية من أخطر
القضايا لما يترتب عليها من تعطيل السنن فإنها محرمة إلا على أهل الاجتهاد ، ولذلك
اعتبروا من يتصدر للاجتهاد وليس أهلاً له ضالاً مضلاً ؛ لما يترتب على اجتهاده من
تعطيل لبعض النصوص أو مسّ لهيكل الشريعة .

وهكذا تضافرت جهود لامثيل لها حتى بقيت نصوص الإسلام سليمة من الخلط أو
التحريف أو التبديل أو الزيادة أو النقص ، لتبقى زاد الأمم ومصدر هدايتها إلى قيام
الساعة .

ضخامة المكتبة الحديثية :

وإذن لي أن أحدثك من أقرب طريق - عن المكتبة الحديثية ، وذلك من خلال استعراض كتاب مشهور عنوانه : (الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة) لمؤلفه السيد : محمد بن جعفر الكتاني - رحمه الله - وذلك بين يدي ما فعلته لتحقيق ما استهدفته في هذا الكتاب .

بدأ المؤلف الحديث عن المؤلفات الأولى في السنة النبوية ، وذكر أعلام المؤلفين في القرنين الأول والثاني ، ثم تحدث عن تتابع التأليف فقال :

ثم كثرت بعد ذلك التصانيف ، وانتشرت في أنواعه وفنونه التأليف ، حتى أربت على العداً وارتقت من كثرتها عن التفصيل والحدّ ، وهي مراتب متفاوتة وأنواع مختلفة ، فمنها ما ينبغي لطالب الحديث البداءة به ، وذكر الأصول الستة صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي وسنن النسائي وسنن ابن ماجه .

ثم ذكر كتب السنة التي تعتبر أساساً لمذاهب الأئمة الأربعة فذكر موطأ الإمام مالك ومسند الإمام أبي حنيفة وقد قال في الأخير منها :

ومسند إمام الأئمة - أيضاً - ركن الإسلام أبي حنيفة النعمان بن ثابت القارئ الكوفي فقيه العراق ، المتوفى ببغداد سنة خمسين أو إحدى وخمسين ومائة ، وله خمسة عشر مسنداً ، وأوصلها الإمام أبو الصبر أيوب الخلوقي في ثبته إلى سبعة عشر مسنداً ، كلها تنسب إليه لكونها من حديثه وإن لم تكن من تأليفه ، وقد جمع بين خمسة عشر منها أبو المؤيد محمد بن محمود بن محمد بن الحسن الخطيب الخوارزمي - نسبة إلى خوارزم بضم الحاء وكسر الراء ناحية معلومة - المتوفى سنة خمس وخمسين وستائة ، في كتاب سماه جامع المسانيد ، رتبّه على ترتيب أبواب الفقه بحذف المعاد وترك تكرير الإسناد .

ثم ذكر مسند الإمام الشافعي وعرف به ثم ذكر مسند الإمام أحمد وعرف به وبعد ذلك قال :

فهذه كتب الأئمة الأربعة وبإضافتها إلى الستة الأولى تكمل الكتب العشرة التي هي أصول

الإسلام وعليها مدار الدين .

ثم قال : ومنها - أي ومن كتب السنة - كتب التزم أهلها فيها الصحة من غير ما تقدم .
 فذكر : صحيح ابن خزيمة وصحيح ابن حبان وصحيح الحاكم وكتاب الإلزامات
 للدارقطني وكتاب المستدرک للحافظ أبي ذر الهروي وصحيح الحافظ أبي حامد النيسابوري
 المعروف بابن الشرفي وكتاب الأحاديث الجياد المختارة لضياء الدين المقدسي وكتاب المنتقى
 لابن الجارود وكتاب المنتقى لابن أصعب الأندلسي وصحيح ابن السكن ، والكتب المخرجة على
 الصحيحين أو أحدهما : مستخرج الإسماعيلي ، ومستخرج الفطريفي ومستخرج أبي
 ذهل ومستخرج ابن مردويه الكبير ومستخرج أبي عوانة ومستخرج ابن أصعب ومستخرج أبي
 جعفر الحبري ومستخرج محمد بن محمد النيسابوري ومستخرج الجوزقي ومستخرج الشاركي
 ومستخرج أبي الوليد القزويني ومستخرج أبي عمران الجويني ومستخرج أبي النصر الطوسي
 ومستخرج أبي عثمان الحيري ومستخرج أحمد بن سلمة النيسابوري ومستخرج أحمد بن محمد
 الطوسي البلاذري ... إلى كثيرين آخرين ذكرهم ، لهم مستخرجات بأسانيد أخرى
 للصحيحين أو لأحدهما ، وكلها تفيد توثيق أحاديث الصحيحين : صحيح البخاري وصحيح
 مسلم .

ثم تحدث عن الكتب المؤلفة في السنن ، وهي الكتب المؤلفة على أبواب الفقه ، فذكر
 زيادة على الكتب الأربعة المشهورة : سنن الإمام الشافعي للمزني وسنن النسائي الكبرى
 وسنن ابن جريج الرومي وسنن سعيد بن منصور وسنن الكشي وسنن محمد بن الصباح البزار
 وسنن أبي قرة موسى بن طارق وسنن الأثرم وسنن الخلال وسنن سهل بن أبي سهل وسنن
 الصفار وسنن الهمداني وسنن ابن لال وسنن النجاد وسنن ابن إسحاق وسنن يوسف بن
 يعقوب الأزدي اللالكائي . ثم قال : فهذه هي مشاهير كتب السنة وبعضها أشهر من بعض
 ويضافتها إلى السنن الأربعة السابقة تكل كتب السنن خمسة وعشرين كتاباً .

ثم تحدث عن نوع آخر من التأليف ، وهو في الحض على اتباع السنة وترك الأهواء
 والبدع ، فذكر ستة عشر كتاباً .

ثم ذكر نوعاً آخر من التأليف في السنة وهي كتب مرتبة على الأبواب الفقهية ، مشتملة على السنن وما هو في حيزها أو له تعلق بها بعضها يُسمى مصنفاً وبعضها جامعاً وغير ذلك سوى ما تقدم ، فذكر اثنين وعشرين كتاباً .

ثم ذكر نوعاً آخر من التصانيف وهي الكتب المفردة في الآداب والأخلاق والترغيب والترهيب والفضائل ونحو ذلك فذكر حوالي مئة وأربعين كتاباً .

ثم ذكر نوعاً آخر من التصانيف وهي كتب المسانيد - جمع مسند - وهي الكتب التي موضوعها جعل حديث كل صحابي على حدة صحيحاً كان أو حسناً أو ضعيفاً ، مرتبين على حروف الهجاء أو على القبائل أو على السابقة في الإسلام أو الشرف في النسب ، وقد يقتصر في بعضها على أحاديث صحابي واحد أو أكثر .

قال : (والمسانيد كثيرة جداً) ثم عدّ ما تيسر له ذكره منها فذكر اثنين وثمانين مسنداً .

ثم ذكر كتباً لم تؤلف في السنة قصداً ، ولكنها حوت الكثير من نصوصها ، ككتب التفسير والكتب المؤلفة في المصاحف والقراءات وكتب النسخ والنسوخ وذكر أسماء العشرات منها .

ثم تحدث عن المؤلفات في الأحاديث القدسية والأحاديث المسلسلة والأحاديث المرسلة فذكر العشرات منها .

ثم تحدث عما يُسمى بالأجزاء الحديثية وهي كتب مفردة في موضوع أو في روايات أو مرويات فذكر العشرات منها .

ثم ذكر كتباً مؤلفة تحت عنوان (الفوائد) فذكر كثيراً منها .

ثم ذكر ما يُسمى خصوصيات انفرد بها بعض الأئمة وألف فيها آخرون فذكر الكثير من ذلك .

ثم تحدث عن كتب الشمائل النبوية والسير المصطفوية والمغازي فذكر منها تسعة

وعشرين كتاباً .

ثم تحدث عن نوع من الكتب يجمع أحاديث شيوخ بأعيانهم فذكر أحد عشر كتاباً .

ثم ذكر كتباً تجمع طرق بعض الأحاديث فذكر عشرة كتب .

ثم تحدث عن نوع من الكتب فذكر رواية بعض الأئمة المشهورين فذكر اثني عشر كتاباً .

ثم ذكر الكتب التي تتحدث عن الأحاديث الأفراد فذكر أربعة كتب .

ثم تحدث عن الكتب التي تتحدث عن المتفق لفظاً وخطاً والمفترق معنى من الأسماء والألقاب والأنساب وعن المتفق خطأ والمختلف لفظاً .. وذكر ثلاثة وثلاثين كتاباً مؤلفاً فيها .

ثم تحدث عن نوع آخر من التأليف وهو في مهات الأسانيد والمتون فذكر ثلاثة عشر كتاباً .

ثم تحدث عن كتب الأنساب فذكر أحد عشر كتاباً .

ثم تحدث عن الكتب المؤلفة في معرفة الصحابة فذكر ثمانية عشر كتاباً .

ثم تحدث عن الكتب المؤلفة في تواريخ الرجال وأحوالهم فذكر ثلاثة عشر كتاباً .

ثم تحدث عن كتب المعاجم ، وهي الكتب التي تذكر الأحاديث على ترتيب الصحابة أو الشيوخ أو البلدان أو غير ذلك فذكر ثلاثة وأربعين معجماً .

ثم تحدث عن كتب الطبقات وهي التي تشتمل على ذكر الشيوخ وأحوالهم ورواياتهم طبقة بعد طبقة وعصراً بعد عصر إلى زمن المؤلف فذكر ثمانية عشر كتاباً .

ثم تحدث عن كتب المشيخات ، وهي التي تشتمل على ذكر الشيوخ الذين لقيهم مؤلف وأخذ عنهم ، أو أجازوه وإن لم يلقهم فذكر ثلاثة عشر كتاباً .

ثم تحدث عن الكتب المؤلفة في علوم الحديث - أي مصطلحه - ، ذكرت فيها أحاديث بأسانيد فذكر منها ثمانية كتب .

ثم تحدث عن الكتب التي تتحدث عن الضعفاء من الرواة ، أو تتحدث عن الثقات ، فذكر خمسة وعشرين كتاباً .

ثم ذكر الكتب التي تتحدث عن الأحاديث الموضوعة المكذوبة على رسول الله - ﷺ - فذكر ثلاثة وعشرين كتاباً .

ثم ذكر الكتب المؤلفة في غريب الحديث - أي في شرح الكلمات الغامضة منه - فذكر سبعة عشر كتاباً .

ثم ذكر كتباً تتحدث عن مشكل الحديث وهي كتب تجمع بين النصوص فترد المتشابه إلى الحكم أو ترجح النسخ أو عدمه فذكر خمسة كتب .

وهناك كتب الأمالي التي يلي فيها الشيخ على تلاميذه في جلسات عامة فتسجل ، ذكر منها واحداً وثلاثين كتاباً .

ثم ذكر الكتب التي تتحدث عن رواية الأكابر عن الأصغر ، ورواية الآباء عن الأبناء والعكس ، فذكر ستة كتب مؤلفة فيها .

ثم تحدث عن الكتب التي يجمع فيها الأسانيد العالية أي التي يقل فيها الرواة بين الشيخ وبين رسول الله ﷺ فذكر أربعة عشر كتاباً .

ثم ذكر كتباً في التصوف فيها أحاديث بأسانيد فذكر ثلاثة عشر كتاباً .

ثم تحدث عن كتب الأطراف ، وهي التي يقتصر فيها على ذكر طرف الحديث الدال على بقيته ، مع الجمع لأسانيده إما على طريق الاستيعاب أو على جهة التقيد بكتب مخصوصة ، فذكر خمسة عشر كتاباً .

ثم تحدث عن كتب الزوائد ، أي الأحاديث التي تزيد فيها بعض كتب الحديث على بعض آخر معين منها ، كزوائد سنن ابن ماجه على كتب الحفاظ الخمسة للشهاب البوصيري ،

فذكر تسعة عشر كتاباً .

ثم ذكر الكتب التي تجمع بين بعض الكتب الحديثية فذكر سبعة عشر كتاباً .

ثم ذكر كتباً مجردة من الأسانيد أو كتباً فيها أحاديث منتقاة فذكر واحداً وثلاثين كتاباً .

ثم ذكر كتباً تختص بتخريج الأحاديث الواردة في كتب بعض المصنفين فذكر ثلاثة وأربعين كتاباً .

ثم ذكر بعض الكتب التي تتحدث عن الأحاديث المشتهرة على الألسنة فذكر أحد عشر كتاباً .

ثم تحدث عن الكتب التي جمعت فتاوى مبناهها على النصوص ، والتي تسمى الفتاوى الحديثية ، فذكر منها ستة كتب .

ثم تحدث عن كتب تجمع نوعاً من الحديث كالحديث المتواتر ، فذكر خمسة كتب .

ثم ذكر كتباً في التفسير والشروح الحديثية لأهلها اعتناء بالحديث ومعرفة به وإكثار من رواياته ، فذكر عشرة كتب .

ثم ذكر كتباً في السيرة النبوية والخصائص الحمديدية غير ما سبق ، فتحدث عن ثلاثة وثلاثين كتاباً .

ثم تحدث عن كتب في أسماء الصحابة غير ما ذكر ، فذكر ثلاثة عشر كتاباً .

ثم تحدث عن كتب تذكر أحوال الرواة وتضبط أسماءهم وأسماء بلدانهم غير ما ذكره من قبل ، فذكر ثلاثة وخمسين كتاباً .

ثم تحدث عن كتب الوفيات فذكر أربعة عشر كتاباً .

ثم تحدث عن كتب مصطلح الحديث فذكر ستة وثلاثين كتاباً .

ثم ختم كتابه بالحض على الاشتغال بعلوم الحديث .

من هذا العرض المختصر ندرك الجهود الهائلة التي بذلتها الأمة الإسلامية في خدمة سنة نبينا ﷺ حتى تبقى غضة طرية متميزة عما سواها ، معلماً للهداية الربانية ، فإذا ما أُلقيت نظرة على كتب مصطلح الحديث تجد الدقة العلمية في البحث بما لا تطال العقول أرفع منه ، ولا تحكم العقول بأن هناك أكثر منهجية في الوصول إلى الحق الخالص منه ، فهناك قواعد لجرح وتعديل الرواة ، وهناك قواعد تُسَبَّرُ بها المتون .

وكأثر عن هذا كله ميّز العلماء بين أكثر من خمسين نوعاً من أنواع الأحاديث كلها متفرعة عن دراسة السند والمتن ، وكل ذلك في النهاية للوصول إلى ما تبنى عليه الأحكام من المرويات ، كالأحاديث المتواترة لفظاً ومعنى ، أو معنى فقط ، والأحاديث الصحيحة والحسنة ، ومن أجل ذلك كتبوا كل رواية لأن الروايات الضعيفة يمكن أن يكون لها دخل في تحسين حديث أو في تصحيحه ، واقتضى ذلك منهم جهوداً كبيرة ، حتى إن الإمام أحمد كان يحفظ مليون حديث بأسانيدھا ومتونها ، وهذا يعني بالضرورة أنه دخل كثيرون من الرجال تحت أشعة رصده ، فإذا ما عرفنا أن تشعب الروايات يكثر كلما تطاول الزمن أدركنا كم من الجهود بذلت في خدمة السنة النبوية . ومن أجل الوصول إلى هذا الجوهر كم وجدت من دراسات وتوضعات من قواعد ، ويكفي أن تقرأ كتاباً في مصطلح الحديث حتى تدرك جلال ما نذكره لك .

فمن أجل تمحيص الرواية وَجِدَتْ علوم كعلم الوَفَيَات وسني الولادة ، ووجدت دراسات مستوعبة عن كل راوٍ ، عن عقيدته وسلوكه وصدقه وكذبه وعن عوامل الجرح أو التعديل في حياته ، ومن أجل المتن وجدت علوم كعلم المقارنة بين المتون لمعرفة العلل والشذوذ ، ولمعرفة الناسخ والنسوخ ، وتوضعت نتيجة لذلك مصطلحات .

ثم كان علم أصول الفقه هو العلم المكمل بالنسبة للسنة النبوية ، إذ إنه هو العلم الذي تحدث عن محل السنة بالنسبة لأصول التشريع الأربعة الرئيسية وهي : الكتاب والسنة والإجماع والقياس . وهو الذي تحدث عن قوة إلزامية السنة بحسب كونها متواترة أو صحيحة أو حسنة أو غير ذلك ، وهو الذي وضع القواعد التي تجمع بين النصوص بعضها مع بعض وبين

النصوص والأحكام العقلية والعادية ، وهو الذي وضع القواعد لاستخراج الحكم الشرعي بناء على أن هناك رخصة وعزيمة وقواعد أصلية وأحوالاً استثنائية

إن من ثمرات العلم بالكتاب والسنة وأصول الفقه الوصول إلى معرفة الحكم الشرعي في كل قضية من قضايا المكلفين ، وثمره ذلك كله الاعتقاد الصحيح والعمل الصحيح ، المقبولان عند الله تعالى ، وإن ذلك لشيء عظيم وكبير ، فهؤلاء الذين اجتمع لهم حسن الاعتقاد وحسن العمل هم وحدهم من بين أفراد هذا العالم الذين حَقَّقُوا معنى العبودية لله - عز وجل - .

* * *

إذا عرفت ما مرَّ وثقت في تحقيقات الراسخين في العلم ، وأدركت عظم الجهود التي قام بها علماؤنا في خدمة السنة النبوية ، تثبتاً في شأنها وتخليصاً لها عن سواها ، وفي الوقت نفسه تدرك استحالة جمع كل ما ورد في السنة النبوية في كتاب ، بل استحالة أن يطلع إنسان ما على كل ما كتب في السنة ، فضلاً عن جمع كل روايات السنة في كتاب .

ولكن إذا عرفت معاني أخرى فإن ذلك يرجعك إلى أن تطمئن إلى أنه بإمكانك أن تطلع بسرعة على معاني السنة دون أن تغرق في بحار التأليف .

إنك إذا عرفت أن الكتب الستة المشهورة في السنة وهي : صحيح البخاري ومسلم ، والسنن الأربعة لأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ، والمختلف في السادس منها : هل هو الموطأ أو سنن ابن ماجه - والتي تلقتها الأمة بالقبول - ما فاتها إلا القليل من الأحاديث الصحيحة ، وإذا عرفت أن هذه الكتب الستة تمت محاولات لجمع معانيها في مجلدين كما فعل ذلك ابن الديبع الشيباني في كتابه : (تيسير الوصول إلى جامع الأصول) مثلاً ؛ إذا عرفت ذلك أدركت أن بإمكانك أن تعرف معاني السنة النبوية عن طرق مختصرة .

وقد اشتهرت بجانب الكتب الستة كتبٌ أخرى ، كسند الإمام أحمد ومسند أبي بكر والبخاري ومسند أبي يعلى الموصلي ، ومعاجم الطبراني الثلاثة ، فلو أنك قرأت زوائد هذه الكتب على الكتب الستة أو السبعة فإنك تستطيع أن تثق أنه ما فاتك إلا القليل ، وإلا تحقيقات وكليات ، فإذا اطأنت إلى كلامنا هذا فقد آن الأوان لنحدثك عن كتابنا هذا .

* * *

منهج تأليف هذا الكتاب

١ - تستطيع أن تقول إذا قرأت هذا الكتاب أنك كدت أن تحيط بمعاني السنة النبوية ، لأنه حوى المهدي النبوي الذي روته أمهات كتب السنة وهي سبعة عشر كتاباً هي : صحيح البخاري ومسلم ، والسنن الخمسة : لأبي داود والنسائي والترمذي وابن ماجه والدارمي ، وموطأ الإمام مالك ، ومسانيد الإمام أحمد وأبي يعلى الموصلي وأبي بكر البزار ، وصحيح ابن خزيمة وابن حبان ، ومعاجم الطبراني الثلاثة ، ومستدرک الحاكم ، وما تيسر جمعه من غير هذه الكتب من صحيح السنة وحسنها .

فقد اتجهت الهمة لأن تكون هذه الكتب السبعة عشر هي أصول هذا الكتاب ، على أن أستفيد من الكتب التي جمعت بعضها أو أكثرها من أمثال الجامع للأصول لابن الأثير أو مجمع الزوائد للهيثمي أو جمع الفوائد لمحمد بن محمد بن سليمان المغربي .

٢ - وقد ألزمت نفسي ألا أخذ من هذه الأصول إلا حديثاً صحيحاً أو حسناً ، وقد أدخلت في الكتاب بعض ما صادفني من الحديث الصحيح أو الحسن مما ليس في الكتب السبعة عشر ، فتميز هذا الكتاب على كتب الجمع الأخرى بأنه ما حوى إلا الصحيح والحسن ، وحاول أن يستقصى أصوله ، مع ملاحظة أن هناك روايات في أصول هذا الكتاب لا تدخل بشكل مباشر في مقصوده ، فأسقطتها ، فهناك روايات كثيرة مثلاً تتحدث عن أنساب الصحابة وعن تاريخ وفياتهم مما يصلح لدراسات إحصائية استقرائية ، وما محله كتب التاريخ وما لا تعلق مباشراً له بالمهدي النبوي الذي يحتاجه كل مسلم ، أو بالمعرفة التي يطالب بها كل مسلم ، ولذلك فقد أسقطت مثل هذه الروايات في الغالب من كتابي .

وقد أدخلت في هذا الكتاب بعض الأحاديث المرسلة مع ما يقال في الأحاديث المرسلة ، لأن لها محلها في البناء الأصولي لمن يريد التحقيق ، وأدخلت روايات أناس اختلف عليهم إذا حكم إمام لحديثهم بالصحة أو الحسن إذا وُجد ما يقوي الرواية .

٣ - ولم أكتف بتصحيح أو تحسين من اشتهر عنهم أنهم يتساهلون في التصحيح والتحسين كالترمذي وابن حبان والحاكم إلا إذا أكد ذلك إمام آخر أو محقق ثبت ، وكل ذلك ليطمئن

القارئ والداعية أن ما يأخذه من هذا الكتاب حجة وبه تقوم الحجة بإذن الله ، ونرجو أن يكون مأجوراً في علمه وعمله إذا بناه على هذا الكتاب .

وإذا كنا أدخلنا روايات لأناس اختلف عليهم فذلك لأن التصحيح والتحسين والتضعيف يخضع في بعض حيثياته لعوامل ذوقية . وللتبحر في علم الحديث ، وللخبرة دخلها في ذلك ، ومن ثم كان للجهد دخل في التصحيح أو التحسين أو التضعيف ، ألا ترى أن بعض قواعد الجرح والتعديل محل خلاف ؟

ومع أننا أدخلنا بعض ما اختلف فيه إذا كان التحقيق يوصل إلى تصحيح أو تحسين ، فقد حاولنا أن نذكر وجهات النظر الأخرى إذا عثرنا عليها احتياطاً لحرمه جناب السنة النبوية المطهرة .

وإنما انصب جهدي على جمع الصحيح والحسن ؛ لأنها اللذان عليها مدار الأحكام ، وبها تقوم الحجة ، ولم أدخل الضعيف في متن هذا الكتاب - مع أن الضعيف لا يعتبر موضوعاً بالضرورة ، وبالتالي فاحتمال أنه من كلام رسول الله ﷺ قائم - لأنني استهدفت بهذا الكتاب معاني متعددة ...

منها : أن يألف القارئ العبارة النبوية وأن يراها خالصة لا يخالطها غيرها .

ومنها : حفظ القارئ عن التشويش والاضطراب وتغير الخاطر وقلق الفكر .

ومنها : حفظ وقت القارئ .

ومنها : أن يندفع القارئ في العمل دون تردد .

٤ - وقد كنت ذكرت في مقدمة كتاب الأساس في التفسير بعض احتياجات الأمة الإسلامية في عصرنا بالنسبة للسنة فقلت :

أ - المسلم المعاصر عنده رغبة في أن يتعرف على السنة المتواترة والصحيحة والحسنة السند ، ويحتاج إلى كتاب جامع لذلك كله ، على أن يكون هذا الكتاب مضبوطاً شكله

مشروحاً غريبه .

ب - والمسلم غير المتخصص في الحديث يهمل كذلك أن يأخذ الجوهر - دون ما احتاجه هذا الجوهر لمحايطه - أي هو يحرص على أن يقرأ متون السنة دون أسانيدھا .

ج - والمسلم المعاصر بحاجة إلى أن يفهم السنة فهماً صحيحاً وأن يأخذ الجواب الشافي على كثير من الإشكالات ، وأن يعرف كثيراً من الأمور التي يتلجلج في قلبه سؤال عنها .

د - وهناك شبهات حول السنة يثيرها أعداء الله عز وجل ، وهناك مناقشات حادة حول الكثير من الأمور بين المسلمين أنفسهم في شأن فهم الكثير من متون السنة ، وكل ذلك يحتاج المسلم المعاصر إلى أن يرتاح قلبه في شأنه .

هذا ما ذكرته في مقدمة كتاب التفسير عما يحتاجه المسلم المعاصر بالنسبة للسنة وشيء عادي أن أراعي ذلك في هذا الكتاب .

هـ - ولما كان هذا الكتاب ليس جمعاً للسنة فقط ، بل جمع للسنة وحديث عن شيء من فقھھا ، وذلك من أهداف هذا الكتاب ، فإنني أدخلت بعض تحقیقات أهل الاختصاص فيه ، وذلك شيء لا بد منه لمريد فهم السنة ؛ فهناك نصوص في السنة فهمها بعض الناس فهماً خاطئاً فضّلوا وأضلّوا ، كذلك الفرق المنشقة عن جسم الأمة الإسلامية .

وهناك نصوص يمكن أن يفهمها بعض الناس فهماً خاطئاً كالنصوص التي تتحدث عن تسلسل الأحداث إلى قيام الساعة ، وأقواله - عليه الصلاة والسلام - من جوامع الكلم ، وأفعاله كلها في غاية من الحكمة ، وفي هذا وذاك يوجد الفقيه والأفقه ، والاستفادة من فقه أهل الفقه مهمة .

وهناك نصوص تعددت في فهمها أو في الموقف منها آراء أئمة الاجتهاد فكان لا بد من تبيان أسباب ذلك لتبقى ثقة الأمة الإسلامية بأئمتها على أشدها فذلك هو الذي يعصم من السير وراء الأهواء ، أو عن الاندفاع وراء الآراء الشاذة ، أو عن الخطأ في المواقف .

وهناك - أيضاً - قضايا كثيرة تحتاج إلى أن يذكر فيها تحقيق المحققين كل في

اختصاصه ، فمثلاً : نجد في السيرة كثيراً من النصوص الصحيحة والحسنة تشير إلى حادثة بعينها ، ولكنك لا تجد في النصوص الصحيحة والحسنة التفصيلات ، فإذا ما وجدت تفصيلات عند أئمة السير والمغازي فهذه التحقيقات مهمة ومفيدة ، فهي لا تخرج عن أن يكون مضمونها مذهباً لصاحب التحقيق ، فإذا كان إماماً فلنا في هذه الحالة أن نتابعه في قضية ليس فيها نص مخالف ، وفي قضايا العقائد أو السلوك أو الفقه أو الطب أو التفسير نجد تحقيقات مهمة ومفيدة ، تعين على الفهم أو تجيب على تساؤلات .

كل ذلك دعائي إلى إدخال تحقيق أهل التحقيق من أهل الاختصاص في هذا الكتاب ، ولكن بأقصى ما أستطيع من الاختصار حتى لا يتوسّع حجم الكتاب ، وعلى هذا الهدي علقت وحشيت ومشت وأدخلت كثيراً من الفوائد ليحقق الكتاب مجموع أهدافه .

٦ - وإذ كنت مولعاً بالبحث عن الكليات وربط أجزائها بها فقد راعيت في هذا الكتاب أن تأخذ موضوعات السنة محلها ضمن تسلسل يستشعر فيها القارئ وحدة السنة النبوية وكأنها في الأصل كتاب واحد .

٧ - وقارئ هذا الكتاب يخرج بانطباع أنه أمام أعظم هدي بشري لنبي . وقد راعيت فيه أن لا يمل قارئه وأن يزداد رغبة في القراءة كلما أوغل فيه ، كما راعيت فيه أن يخرج قارئه وقد فقه السنة حق الفقه ، مركزاً على ما يغفل عنه أبناء العصر من موضوعات تفرضا وقائع ومناقشات .

٨ - وقد بذلت جهداً كبيراً في تحقيق روايات بعض الكتب التي لم تنل من التحقيق ما يكفي ، مما يعتبر وحده جهداً تتوجه إليه مقاصد الراغبين في السنة ، كمجمع الزوائد للهيتمي ، وقت ضبط وتحقيق وتشكيل ما يشكل على القارئ العادي ، معتمداً في ذلك على مصادر السنة الصحيحة المحققة وكتب اللغة المعتمدة .

٩ - وقد كان لأعداء الإسلام دور كبير في محاولة التشكيك في السنة وفي بعض معانيها ، مما جعلني ألحظ ذلك في تأليف هذا الكتاب بشكل غير مباشر ، بحيث تعود الكرة إلى مرمى أهلها ، فيصبح ما هو محل تشكيك في زعمهم محل إيمان كما هو في الواقع والحقيقة

١٠ - وإذا كانت بعض الموضوعات تحتاج إلى الاستفادة من معطيات عصرنا ، وإذا كانت بعض معطيات عصرنا تُظهر من معجزات نبينا ﷺ الكثير ، فقد كان هذا وهذا محل تركيز في هذا الكتاب .

١١ - ثم إن المسلم في عصرنا يحتاج إلى أن تفتح أمامه آفاق جديدة على الحاضر والمستقبل التزاماً وتطبيقاً ، وأملاً وتفاؤلاً ، وإذا كانت النصوص تعطي هذا كله ، فقد كان هذا محل تركيز في الكتاب ، خاصة وأن بعض الموضوعات قد فهمت فهماً مغلوطاً انعكس على نفسية الأمة يأساً وإحباطاً .

١٢ - وكما أن بعض الموضوعات قد ركزت عليها شرحاً وتقديماً وتعليقاً وتلخيصاً وإلحاقاً إياها بمسائل وفوائد ، فإنني سردت أحاديث بعض الموضوعات سرداً؛ لرؤيتي أن حاجة المسلم هي تلمّي هذه النصوص صِرْفاً لم تُشَبَّ بتعليقات الرجال .

١٣ - ومع هذا كله فإن هذا الكتاب لا يعتبر شرحاً تقليدياً للسنة ولا يعتبر تحقيقاً تقليدياً لها ، ولكنه كتاب يعطيك السنة عن أقرب طريق ويعطيك فهماً لها عن أيسر طريق ، الحشو فيه مستبعد ، والتعقيد فيه متروك ، هذا مع المحاولة بالألا يفوتك شيء من الهدى النبوي إن شاء الله .

١٤ - والأصل عندي أن أختصر ما أمكن ليسهل على القارئ الاستيعاب السريع ، ولذلك لم أكرر إلا حيث وجدت ملحظاً يقتضي التكرار : إمّا لإعلام أن أكثر من صحابي قد روى معنى من المعاني ، وإمّا لضرورة أن يكرر حديث في أكثر من مكان إلى غير ذلك من الضرورات ، ولقد أهملت بعض المعاني الفنية عمداً رغبة في الاختصار ، حيث أجد أن ما أذكره كاف ليثق المسلم فيعتقد ويعمل .

ومن باب الاختصار أيضاً أني في بداية كل حديث أذكر من أخرجه ، ثم أحذف السند ، وأكتفي بالصحابي الذي رواه فأقول مثلاً : روى البخاري عن أبي هريرة وكان ينبغي أن يقال : روى البخاري بسنده عن أبي هريرة ، ولكن حذف الجار والمجرور تخفيفاً ، اعتماداً على أن هذا مفهوم من الكلام ، ويستطيع القارئ الكريم أن يقدره ، بناء على معرفته بشرط هذا الكتاب .

١٥ - وفي عملية جمع النصوص من أصول هذا الكتاب صادفني أن بعض الروايات موجودة في أكثر الأصول فلم أر أن أذكر الأصول كلها في العزو لأن ذلك يضخم حجم الكتاب دون فائدة للقارئ العادي ، ولذلك اختصرت في العزو بالقدر الذي يحقق الغرض ، وإذا كانت أكثر روايات الأصول الزائدة على الكتب الستة تكراراً لما في الكتب الستة ، فإنك لا تجد كثيراً من العزو إلى هذه الأصول ، فلا تظن أن هذا قصور في الكتاب .

١٦ - وعلى عادي فيما أولف فإنني لا أتوانى أن أنقل تحقيقات المحققين مما يحتاجه كتابي ، دون أن أحاول إعادة صياغته ، ولا حرج عليّ في كل ما فعلته فلقد درج علماء المسلمين خلال العصور على أن يعتبروا مجرد الدمج بين كتابين أو أكثر هدفاً ، وأن يعتبروا الانتقاء والاختيار من كتاب أو مجموعة كتب هدفاً ، وأن يزيد اللاحق على فعل السابق أخذاً جهده مضيئاً إليه هدفاً ، ومجرد تجميع الفوائد من كتب متعددة هدفاً .

فإذا حاولت أن أوجد عقد جوهر من جواهر مبثوثة ، فإنني لا أجد حرجاً من أن أكثر النقل فقد لا يصل الكتاب المنقول عنه إلى قارئ فأكون وسيطاً ، ثم إن كثيرين يعرضون بعض الأمور عرضاً موفقاً قد لا أطيقه لو أني أردته ، فإذا لو أنني رصعت كتابي بفوائد أمثال هؤلاء ؟!

١٧ - وقد أفدت من تحقيقات البوصيري لزوائد ابن ماجه ، وتحقيقات عبد الله اليماني لجمع الفوائد وتحقيقات عبد القادر أرناؤوط لجامع الأصول وتحقيقات الهيثمي لجمع الزوائد وتحقيقات الذهبي للحاكم وتحقيقات الشيخ عبد الفتاح أبو غدة وناصر الألباني وشعيب الأرناؤوط وغيرهم ، فجزى الله الجميع خيراً .

١٨ - ولعل قصة الجهد الذي بذلناه في هذا الكتاب تجعل لنا عند أهل الإنصاف عُذراً فيما يرونه من تقصير ، فليكن أتجنب أخطاء النقل الكتابي ، ولكي لا يفوتني حديث من أحاديث الكتب التي قررت أن أجمع منها هذا الكتاب ، فقد جعلت كل حديث من أصول هذه الكتب في ورقة مستقلة تصويراً أو أخذاً مباشراً من نسخ هذه الكتب ، حتى إذا انتهى

هذا الجهد ، وجدتني أمام عشرات الآلاف من أوراق ، فبدأت بحذف الضعيف ، وضم النظير إلى النظير ، على ضوء نظرية جامعة في الترتيب والتبويب ، ثم كانت مرحلة ثانية وثالثة ورابعة ، وخامسة حتى استكمل هذا الكتاب شكله الذي أقدمه إليك .

ونرجو من أي إنسان عنده علم في السنة أن يقدم لنا ملاحظاته ، فنحن بفضل الله نفرح إن أهدانا أحد هدية الدلالة على خطأ .

* * *

أقسام الكتاب

وقد جعلت هذا الكتاب مقدمة وخمسة أقسام :

المقدمة : وفيها تعريف بهذا الكتاب ومنهج البحث فيه ، وإلمامة بأصوله ، وتعريف بالجهود الكبرى التي جمعت بين هذه الأصول وأفدت منها .

وجعلت القسم الأول من الكتاب في السيرة النبوية ، لأن التعريف بالرسول ﷺ مقدم على التعريف بالرسالة ، ولأن الإيمان بالرسول ﷺ هو المقدمة العادية لتلقي هديه .

وجعلت القسم الثاني في العقائد ، لأنها هي الأساس ، ومنها يصدر العمل وإذا صحت وجد القبول ، ولأنها أول ما يخاطب به الإنسان ، وهي المظهر الأول لدعوة رسول الله ﷺ فناسب أن يكون أول ما يطالعها الإنسان بعد سيرة رسول الله ﷺ العقائد ، وقد جمعت في قسم العقائد بين الفهم الفطري للنصوص ، ومباحث الأصوليين ، وتحقيق المحققين .

وجعلت القسم الثالث في العبادات الرئيسية وما هو ألصق بها .

وجعلت القسم الرابع في الأخلاقيات وأحكام الحياتيات والعاديات .

وجعلت القسم الخامس في الحكم وما هو ألصق به وفي حقوق الإنسان .

وسنرى أن الربط بين أبحاث كل قسم والتسلسل بين الأقسام كان قوياً لدرجة يجعل الكتاب بعضه أخذاً برقاب بعض ، وقد لحظت في هذا الترتيب معاني تربوية ونفسية نرجو أن تكون ذا نفع .

* * *

وبعد : فهناك السنة النبوية تكاد تكون مجموعة في كتاب ، وإنني لأرجو لمن قرأ هذا الكتاب وكتاب الأساس في التفسير وكتاب الأساس في قواعد المعرفة وضوابط الفهم ، أن يكون قد اجتمع له إِبصار كامل بمواطن الحق والباطل والخطأ والصواب .

ولقد مرت على المسلمين أدوار ، دور كانوا يأخذون فيه الكتاب والسنة وحدهما ، ودور

أخذوا فيه الكتاب والسنة مع أقوال العلماء كلٌ بدليله ، ودور أخذوا فيه أقوال العلماء بلا دليل وأهلوا دراسة الكتاب والسنة ، مع أن أكثر أقوال العلماء تبحث في غير الأمور المشهورة في الكتاب والسنة ، فحدث نتيجة لذلك أخطاء كثيرة ، وجهل عريض ، وغفلة كبيرة ، ولا أزم أنه ليست لهذا استثناءات ولكنه هو الغالب ، ولعل جهدي في سلسلة (في المنهج) يشارك في إعادة الأمور إلى نصابها .

* * *

وها أنذا أكرر توجيه الدعوة لأهل العلم والفضل أن يوافقوني بأي وجهة نظر - مباشرة أو عن طريق الناشر - أستكمل فيها ما فاتني ، أو أحرر فيها ما ذكرته ، أو أرصع بها هذا الكتاب ، فكل ذلك أفتح له صدري بل أطلبه ، وليس عندي من حرج أن يَرُدَّ عَلَيَّ من يرُدُّ في كتاب أو مجلة سيارة أو في صحيفة ، فإنني أرجو أن أستفيد من ذلك كله ، الله وفي الله .

وإذا وجد أحد أن هذا الكتاب لم يبلغ الكمال فأني جهد بشري بلغ الكمال ؟! إنما هو خطوة في طريق جمع الأحاديث الصحيحة والحسنة لَعَلِّي أو لعل غيري يسير خطوات أخرى نحو الكمال والله الموفق ، وما يجد القارئ في هذا الكتاب من خير وسداد فمن الله تعالى وما يجد فيه من نقص وخلل فني وأستغفر الله .

هذا وإني لأدعو الله - عز وجل - أن يتقبلني ويتقبل أعمالي وأن ينفع بها ، كما أنني أدعو لنفسي ولكل من ساعدني في إنجاز هذا المشروع أو انتفع به أن يتغمدنا الله وأهلينا وذرياتنا برحمته ، وأن يكرمنا برعايته ، إنه سميع عجب .

(رب اغفر لي ولوالدي رب ارحمهما كما ربياني صغيراً)

ثانياً: تعريف بأصول هذا الكتاب ومصنفها

أصول هذا الكتاب الحديثية سبعة عشر كتاباً، هي: صحيح البخاري ومسلم، والسنن الخمسة لأبي داود والنسائي والترمذي وابن ماجه والدارمي، وموطأ الإمام مالك، ومسانيد الإمام أحمد وأبي يعلى الموصلي وأبي بكر البزار، وصحيح ابن خزيمة وابن حبان، ومستدرک الحاكم، ومعاجم الطبراني الثلاثة.

والجامع لهذه الكتب لا يستطيع إلا أن يستهدي بجمع من جمع منها، احتياطاً في البحث، واسترشاداً بجهود المتقدمين، وبعض كتب الجمع هي السبيل الوحيد المتوفر عندي للوصول إلى مروياتها لأنها لم تطبع حتى تأليف هذا الكتاب.

وأهم ما انصبت عليه عملية الجمع قديماً جمع الأصول الستة للبخاري ومسلم وأبي داود والنسائي والترمذي والموطأ، وجمع زيادات بعض الكتب على الأصول الستة ولكن بتبديل الموطأ بابن ماجه، وهي عملية الجمع التي قام بها نور الدين الهيثمي، ثم الجمع بين الجامع للأصول وجمع الزوائد، مضافاً إليهما زيادات من ابن ماجه وسنن الدارمي، والتي قام بها محمد بن محمد بن سليمان المغربي في كتابه جمع الفوائد.

ونحن في هذا الكتاب مع استرشادنا بكتاب جمع الفوائد الذي هو أرقى عمليات الجمع فقد جمعنا الروايات كلها من الأصول الأقرب حتى لاتفوتنا رواية من روايات الكتب الأصول فكانت المحصلة هي ما جمعناه لك أو اعتمدناه في هذا الكتاب.

وسنقدم لك في هذه الفقرة تعريفاً بأصول هذا الكتاب وأصحابها وتعريفاً ببعض من جمع الأصول الستة وجميع الزوائد وجميع الفوائد.

* * *

١ - الإمام البخاري وصحيحه

قال ابن الأثير - صاحب جامع الأصول - في ترجمة البخاري :

هو أبو عبد الله : محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري .

وإنما قيل له : الجعفي لأن المغيرة - أبا جدّه - كان مجوسياً ، أسلم على يد يمان البخاري ، وهو الجعفي والي بخارى ، فنُسب إليه حيث أسلم على يده .
وجعفي : أبو قبيلة من الين ، وهو جعفي بن سعد العشيرة بن مذحج ، والنسبة إليه كذلك .

ولد يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومائة ، وتوفي ليلة الفطر سنة ست وخمسين ومائتين ، وعمره اثنتان وستون سنة ، إلا ثلاثة عشر يوماً ، ولم يعقب ذكراً .

والبخاري - الإمام في علم الحديث - رحل في طلب العلم إلى جميع محدثي الأمصار ، وكتب بخراسان والجلال ، والعراق والحجاز ، والشام ومصر ، وأخذ الحديث عن المشايخ الحفاظ .

منهم : مكي بن إبراهيم البلخي ، وعبدان بن عثمان المروزي ، وعبيد الله بن موسى العبسي ، وأبو عاصم الشيباني ، ومحمد بن عبد الله الأنصاري ، ومحمد بن يوسف الفريابي ، وأبي نعيم الفضل بن دكين ، وعلي بن المديني ، وأحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، وإسماعيل بن أبي أويس المدني ، وغير هؤلاء من الأئمة .

وأخذ عنه الحديث خلق كثير في كل بلدة حدث بها .

قال الفريابي : سمع كتاب البخاري تسعون ألف رجل ، فما بقي أحد يروي عنه غيره ، وكذلك لا يروى اليوم - صحيح البخاري - عن أحد سواه .

وردّ على المشايخ وله إحدى عشرة سنة ، وطلب العلم وله عشر سنين .

قال البخاري : خرجت كتاب الصحيح من زهاء ستائة ألف حديث ، وما وضعت فيه حديثاً إلا صليت ركعتين .

وقدم البخاري بغداد ، فسمع به أصحاب الحديث ، فاجتمعوا وعدوا إلى مائة حديث ، فقبلوا متونها وأسانيدها ، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر ، وإسناد هذا المتن لمتن آخر ، ودفعوها إلى عشرة أنفس ، لكل رجل عشرة أحاديث ، وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوها على البخاري ، فحضر المجلس جماعة من أصحاب الحديث . فلما اطمأن المجلس بأهله ، وانتدب إليه رجل من العشرة ، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث فقال : لا أعرفه ، فسأله عن آخر ، فقال : لا أعرفه . حتى فرغ من العشرة . والبخاري يقول : لا أعرفه . فأما العلماء فعرفوا بإنكاره أنه عارف ، وأما غيرهم فلم يدركوا ذلك منه . ثم انتدب رجل آخر من العشرة فكان حاله معه كذلك ، ثم انتدب آخر بعد آخر ، إلى تمام العشرة ، والبخاري لا يزيد على قوله : لا أعرفه .

فلما فرغوا التفت إلى الأول منهم ، فقال : أما حديثك الأول ، فهو كذا ، والثاني كذا ، على النسق ، إلى آخر العشرة ، فرد كل متن إلى إسناده ، وكل إسناد إلى متنه ، ثم فعل بالباقيين مثل ذلك ، فأقر له الناس بالحفظ ، وأذعنوا له بالفضل .

الجامع الصحيح

قال الشيخ محمد أبو شهبه :

كان الأئمة قبل البخاري لا يقصرون مؤلفاتهم على الأحاديث الصحيحة ، بل كانوا يجمعون بين الصحيح والحسن والضعيف ، تاركين التمييز بينها إلى معرفة القارئ والطالبين بنقد الأحاديث ، والتمييز بين المقبول والمردود ، إلى أن جاء البخاري فرأى أن يخص الصحيح بالتأليف ، فألف كتابه الصحيح ، وسماه :

(الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه) .

وبذلك يكون الإمام البخاري قد خطا بالتأليف في الحديث خطوة موفقة يسرت

معرفة الحديث والاحتجاج به على الطالبين ، ولا سيما المتأخرين .

الحامل له على تأليف الصحيح :

وقد وجهه إلى هذا العمل الجليل كلمة سمعها من أستاذه إسحاق بن راهويه . روي عن البخاري أنه قال : كنت عند إسحاق بن راهويه فقال : لو جمعتم كتاباً مختصراً لصحيح سنة رسول الله ﷺ ، قال : فوقع في قلبي فأخذت في جمع الجامع الصحيح ، وقد قوى عنده العزم رؤيا رآها فقد روي عنه أنه قال :

رأيت النبي ﷺ وكأني واقف بين يديه ، ويدي مروحة أذب بها عنه ، فسألت بعض المعبرين فقال لي : أنت تذب الكذب عن حديث رسول الله ﷺ ، فهو الذي حملي على إخراج الجامع الصحيح .

منهج البخاري في جمع الصحيح :

لقد نهج البخاري في جمع صحيحه منهجاً يدعو إلى الثقة والاطمئنان إلى صحة أحاديثه ، وقد بالغ في التحري عن الرواة ، والتوثق من صحة المرويات ، وبذل في هذا أقصى ما وصل إليه الجهد الإنساني ، وما زال يوازن بين المرويات ، ويمحصها ، ويتخير منها ما تركز إليه نفسه حتى صار كتابه إلى الحالة التي هو عليها تحريراً وتنقيحاً ، يدل على ذلك ما روي عنه أنه قال : صنفت هذا الجامع من ستائة ألف حديث - في ست عشرة سنة .

ومع أن البخاري اتبع في جمع صحيحه قواعد البحث العلمي الصحيح فقد استلهم الجانب الروحي من نفسه ، قال تلميذه الفربري . سمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول : صنفت كتاب الجامع في المسجد الحرام ، وما أدخلت فيه حديثاً إلا استخرت الله ، وصليت ركعتين ، وتبينت صحته .

ومراده أنه بوب أبوابه ، ووضع أساسه في المسجد الحرام ، ثم بيض تراجمه ، وأصوله في

الروضة ^(١) بين قبر النبي ﷺ ومنبره ، ثم صار يجمع ما يتيسر له من الأحاديث ، ويضمها في أبوابها اللائقة بها في الحرمين وغيرهما من البلاد التي ارتحل إليها ، وقد مكث في تأليف صحيحه ست عشرة سنة ، وهو يحرر ويدقق ، وينتقي ويتخير ما هو على شرطه حتى جاء كتابه على ما أحب ، ويحبه طلاب الحقيقة ، ورواد البحث .

وبذلك اجتمع لهذا الكتاب الصحيح من دواعي التوفيق إلى الحق والصواب ما لم يجتمع لغيره ، فلا عجب أن كانت له منزلة سامية في نفوس العلماء ، وأن تلقته الأمة الإسلامية بالقبول والاطمئنان إلى ما فيه ، وأن استحق أن يطلق عليه أنه أصح الكتب المدونة في الحديث النبوي .

براعة البخاري في النقد :

وللإمام البخاري في تعديل الرجال وتجريحهم ، ونقد المتن ، ونقد الرواية شروط عالية دقيقة ، وشفوف نظر ، وملكة عجيبة اكتسبها من طول ما بحث ، ونقد ، ومن طول ما عرض له من علل الأسانيد والمتون وذلك : كالنطاسي البارع الذي يحصل له من طول ملازمته لمهنة الطب وكثرة ما عرض عليه من الأمراض ، نوع من العلم ، قد يصل إلى حد الإلهام ، بالعلل والأمراض ، والوقوف على حقيقتها ومكانتها مما كانت خفية ، أو كانت عوارضها غير واضحة . وكالصيرفي الماهر الذي اكتسب بطول ملازمته الصيرفة التميز بين النقود الجيدة السليمة ، والنقود الزائفة وربما تسأله عن السبب في الحكم عليها فلا يجيب .

وهذه الملكة في التمييز بين الصحيح من الحديث والعليل تكاد تكون عند معظم أئمة الحديث وجهابذته ، وإن كانوا يتفاوتون فيها على حسب الأصالة في النقد والاستعداد ، وسعة الاطلاع ولعلك لحت هذا التنظير بين المحدثين والأطباء في كلمة الإمام مسلم للبخاري : (يا أستاذ الأستاذين ، وسيد المحدثين ، وطبيب الحديث في علله) وبين المحدثين والصيارفة في تعبيرهم عن نقاد الحديث : (صيارفته) .

(١) في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه : « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » .

شروط البخاري في التصحيح في القمة :

من المعروف المقرر عند أئمة الحديث وعلمائه أن شروط الحديث الصحيح أن يكون : راويه مسلماً ، عاقلاً ، صادقاً ، غير مدلس ولا مختلط^(١) ، متصفاً بصفات العدالة^(٢) ، ضابطاً لما يرويه ، متحفظاً عليه ، سليم الذهن والحواس التي لا بد منها في السماع والضبط ، قليل الهم - الغلط - سليم الاعتقاد .

وأن يكون إسناده^(٣) متصلاً ، فلا إرسال فيه ، ولا انقطاع ، ولا إعضال^(٤) وأن يكون متن الحديث غير شاذ ، ولا معلل^(٥) .

فإذا اجتمعت هذه الشروط في الحديث كان صحيحاً - يعني في نسبته إلى قائله - وترجح ترجيحاً قوياً في صدق هذه النسبة يكاد يصل عند أهل هذا الفن المترسين فيه إلى حد العلم واليقين .

ومن ثم يتبين لنا أن الشروط التي وضعها المحدثون لصحة الحديث تقتضي الثقة والطمأنينة ، وترجح جانب الصدق على الكذب ، والصواب على الخطأ ، وما ينبغي أن يعلم أن البخاري لم ينقل عنه أنه قال : شرطي في صحيحي كذا وكذا على التفصيل والتصريح كما يصنع بعض المؤلفين ، وإنما عرف ذلك من سبر^(٦) كتابه ، والبحث فيه .

(١) المدلس : هو الذي يروي عن عاصره ما لم يسمعه منه موهماً أنه سمعه منه . والمختلط : هو الذي طرأ عليه كثرة الغلط أو الخطأ بسبب كبر سن أو عمى أو ضياع كتبه مثلاً .

(٢) العدالة : ملكة أي حالة نفسية راسخة تحمل على ملازمة التقوى ، والمروءة . والتقوى : امتثال المأمورات واحتساب المنهيات فلا يفعل كبيرة ولا يصغر على صغيرة ، ولا يكون مبتدعاً بدعة تغل بعدالته . والمروءة : آداب نفسانية تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات فيترفع عن صفائر الخسة ، والمباحات التي تواضع العرف على إخلالها بالكرامة .

(٣) السند والإسناد : هم الرواة الذين يروون الحديث .

(٤) المرسل : من الحديث : ما حذف من سنده الصحابي ، والمنقطع : ما حذف من سنده راو واحد غير الصحابي ولو في مواضع ، والمفضل : ما حذف من سنده إثنان فأكثر على التوالي .

(٥) الشاذ : هو الحديث الذي خالف فيه الثقة من هو أوثق منه ، والمعلل : ما اطلع فيه على علة خفية غامضة تظمن في صحة الحديث .

(٦) اختبرها وتعرف عليها .

والذي استخلصه العلماء بعد البحث والتتبع أن الإمام البخاري في صحيحه التزم أعلى درجات الصحة ، ولا ينزل عن هذه الدرجة إلا في بعض الأحاديث التي ليست من أصل موضوع الكتاب كالتابعات والشواهد ^(١) ، والأحاديث المروية عن الصحابة والتابعين .

وليس من شك في أن الرواة يتفاوتون في الأخذ عن شيوخهم إتقاناً وضبطاً ، وطول ملازمة ومصاحبة وقلة ذلك ، كما يتفاوتون في العدالة والأمانة ، والبخاري في صحيحه إنما يعتمد من الرواة من كانوا في أعلى الدرجات من هذه الصفات وسأوضح ذلك بمثال : ذلك أن تلامذة الإمام الزهري مثلاً على خمس طبقات ودرجات ولكل طبقة مزية على التي تليها :

الطبقة الأولى : هم الذين امتازوا بالعدالة والحفظ والإتقان والأمانة ، وطول الملازمة للزهري في السفر والحضر مثل : مالك وسفيان بن عيينة ورجال هذه الطبقة هم مقصد البخاري في صحيحه .

الطبقة ^(٢) الثانية : وهم الذين شاركوا الأولى في الثبوت والأمانة ، إلا أن رجال الأولى امتازوا بطول المصاحبة للزهري سفرراً وحضراً ، أما رجال الثانية فلم يلازموا الزهري إلا مدة يسيرة فكانوا في الإتقان والمعرفة بحديثه دون الأولى ، وذلك مثل : الأوزاعي والليث بن سعد ورجال هذه الدرجة الثانية يعتمد رواياتهم الإمام مسلم ، أما البخاري فلا يخرج من أحاديثهم إلا قليلاً في غير أصول الكتاب كما ذكرنا آنفاً .

الطبقة الثالثة : وهم من دون الثانية مثل : جعفر بن برقان وزمعة بن صالح ، فلا يخرج لهم البخاري أصلاً ، وقد يخرج لهم في المتابعات والشواهد .

أما رجال الطبقة الرابعة والخامسة : وهم المجروحون والضعفاء فلا يخرج لهم البخاري ومسلم . وهكذا يتبين لنا أن شرط البخاري في صحيحه في القمة .

* * *

(١) المتابعة : موافقة راو لراو آخر في رواية لفظ الحديث ، والشاهد : الحديث الذي يوافق حديثاً آخر في معناه .

(٢) الطبقة : هم الرواة الذين تقاربوا في السن ولقاء الشيوخ .

٢ - الإمام مسلم وصحيحه

قال ابن الأثير في ترجمة مسلم :

هو أبو الحسين : مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ، أحد الأئمة الحفاظ .
ولد سنة ست ومائتين ، وتوفي عشية يوم الأحد لست بقين من رجب سنة إحدى وستين
ومائتين .

رحل إلى العراق والحجاز والشام ومصر .

وأخذ الحديث عن يحيى بن يحيى النيسابوري ، وقتيبة بن سعيد ، وإسحاق بن راهويه ،
وعلي بن الجعد ، وأحمد بن حنبل ، وعبيد الله القواريري ، وشريح بن يونس ، وعبد الله بن
مسلمة القعني ، وحرملة بن يحيى ، وخلف بن هشام ، وغير هؤلاء من أئمة الحديث وعلمائه .

وقدم بغداد بغير مرة وحدث بها .

روى عنه خلق كثير ؛ منهم : إبراهيم بن محمد بن سفيان ، ومن طريقه روينا صحيحه ،
وكان آخر قدومه بغداد سنة سبع وخمسين ومائتين .

قال أحمد بن سلمة : رأيت أبا زرعة وأبا حاتم يقدّمان مسلم بن الحجاج في معرفة الصحيح
على أهل عصرهما .

وقال الحسن بن محمد الماسرجسي : سمعت أبي يقول : سمعت مسلماً يقول : صنعت (المسند
الصحيح) من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة .

وقال محمد بن إسحاق بن منده ، سمعت أبا علي بن علي النيسابوري يقول : ما تحت أديم
السماء أصح من كتاب مسلم بن الحجاج في علم الحديث .

وقال أبو عمرو محمد بن حمدان الحيري : سألت أبا العباس بن عقدة عن محمد بن إسماعيل
البخاري ، ومسلم بن الحجاج النيسابوري أيهما أعلم ؟

فقال : كان البخاري عالماً ، وكان مسلم عالماً ، فكررت عليه مراراً وهو يجيبني بمثل هذا

الجواب ، ثم قال : يا أبا عمرو : قد يقع للبخاري الغلط في أهل الشام ، وذلك أنه أخذ كتبهم ، فنظر فيها ، فربما ذكر الواحد منهم بكنيته ، ويذكره في موضع آخر باسمه ، ويتوهم أنها اثنان ، فأما مسلم ، فقلما يقع له الغلط ، لأنه كتب المقاطيع والمراسيل .

وقال محمد بن يعقوب الأخرم - وذكر كلاماً معناه - : قلما يفوت البخاري ومسلماً مما يثبت في الحديث حديث .

قال الخطيب أبو بكر البغدادي : إنما قفا مسلم طريق البخاري ، ونظر في علمه وحذا حذوه .

ولما ورد البخاري نيسابور في آخر مرة ، لازمه مسلم ، وأدام الاختلاف إليه .

وقال الدارقطني : لولا البخاري لما ذهب مسلم ولا جاء .

صحيح الإمام مسلم

وهو أحد الكتابين اللذين هما أصح الكتب بعد كتاب الله عز وجل ، واللذين تلقتها الأمة الإسلامية بالقبول .

وقد بالغ الإمام مسلم في البحث والتحري عن الرجال ، والتحيص للمرويات ، والموازنة بينها ، والتدقيق في تحرير الألفاظ ، والإشارة إلى الفروق بينها ، حتى جاء صحيحه على الهيئة الكاملة ، التي ينشدها أهل البحث والمعرفة .

وليس أدل على هذا من أنه انتقى كتابه من ألوف الروايات المسموعة ، روى عنه أنه قال : (صنف هذا الصحيح من ثلثمائة ألف حديث) .

والكتاب ثمرة حياة مباركة استغلها صاحبها في السفر والترحال والكد والجد ، والجمع والحفظ ، والكتابة والتنقيح ، حتى كان كما ترى صحة وتهذيباً وتنسيقاً ، وقد مكث هو وبعض تلاميذه يكتبون ويحررون حتى تم تأليفه في خمس عشرة سنة .

روي عن أحمد بن سلمة أنه قال : كتبت مع مسلم في تأليف صحيحه خمس عشرة سنة وهو اثنا عشر ألف حديث .

فلا تعجب إذا كان مسلم يشيد بذكر صحيحه فيقول - تحدثاً بنعمة ربه عليه - : لو أن أهل الأرض يكتبون الحديث مائتي سنة ما كان مدارهم إلا على هذا المسند .

ويدل على شدة تحريه ، واستيثاقه من الرويات قوله : ما وضعت شيئاً في كتابي هذا إلا بحجة ، وما أسقطت منه شيئاً إلا بحجة .

سماحة الإمام في البحث :

ولم يكن مسلم متعصباً لرأيه بل كان يتسم بسمة العلماء الذين يبتغون الحق ، ولا عليهم لو ظهر على لسان أي شخص كان ، ولا يرون غشاً في الرجوع إلى الحق إذا ظهر ، بل يعتبرونه فضيلة .

وبعد انتهائه من تدوين صحيحه عرضه على أئمة هذا العلم النبوي الشريف . روى الخطيب بإسناده عن مكي بن عبدان أحد حفاظ نيسابور قال : سمعت مسلماً يقول : عرضت كتابي هذا على أبي زرعة الرازي ^(١) ، فكل ما أشار أنه له علة تركته ، وكل ما قال إنه صحيح وليس له علة خرجته .

وهذا غاية التواضع ، وعدم الاغترار بالنفس ، والإعجاب بالرأي ، وهو أدب عال من آداب البحث في الإسلام .

منهج مسلم في صحيحه :

لم ينص الإمام مسلم على أن شرطه في صحيحه ^(٢) هو كذا ، وإنما استخرج العلماء ذلك من النظر في كتابه ؛ والذي استخلصوه أن شرطه في صحيحه أنه لا يخرج الأحاديث إلا عن العدول الضابطين ، الموثوق بصدقهم وأمانتهم ، وحفظهم ويقظتهم وعدم غفلتهم ، كما يخرج عن ذلك من الرواة وأنه لا يخرج في كتابه بالأصالة إلا الأحاديث المسندة المتصلة المرفوعة إلى النبي ﷺ .

(١) هو حافظ عصره عبيد الله بن عبد الكريم ، كان من أفراد الدهر حفظاً ودكاء ودينياً ، وإخلاصاً . وعلاً وعلاً ، وكانت وفاته سنة أربع وستين ومائتين .

(٢) وذلك فيما عدا العنونة فقد ذكر في مقدمة صحيحه اكتفاءه في إفادتها الاتصال بالمعاصرة ولم يشترط اللقي وأنحى باللائمة على من اشترطه أيضاً .

ومعنى هذا أنه لم يلزم نفسه بما التزم به البخاري من مراعاة مستوى خاص في الرواية والرواة ، بل توسع في شرطه فروى عن رواية لم يروها البخاري في صحيحه ، ولعلك على ذكر من المثال الذي ذكرناه أثناء الكلام على شرط البخاري في صحيحه ، وهو أن تلامذة الإمام ابن شهاب الزهري على خمس طبقات : الأولى ، ثم الثانية ، ثم الثالثة ، ثم الرابعة ، ثم الخامسة ، ولكل طبقة مزية على التي تليها في الحفظ والإتقان وطول الملازمة والصحة .

وقد ذكرنا هناك أن البخاري يخرج أحاديث الطبقة الأولى ، ويخرج من أحاديث الطبقة الثانية قليلاً وفي غير أصول الكتاب .

أما مسلم فيخرج أحاديث رجال الطبقة الأولى والثانية استيعاباً ، ويخرج من أحاديث الطبقة الثالثة قليلاً ، وذلك في المتابعات والشواهد لا في أصل الكتاب ، ولعل فيما ذكره مسلم في مقدمة صحيحه ما يلقي لنا ضوءاً نتعرف به شرطه في صحيحه ذلك أنه قسم الأحاديث ثلاثة أقسام :

الأول : ما رواه الحفاظ المتقنون .

الثاني : ما رواه المستورون المتوسطون في الحفظ والإتقان .

الثالث : ما رواه الضعفاء والمتروكون وقد ذكر أنه إذا فرغ من القسم الأول أتبعه الثاني وأما الثالث فلا يعرج عليه ^(١) وهو يؤيد ما ذكرناه .

خصائص صحيح مسلم :

وقد امتاز صحيح مسلم بأن مؤلفه سلك فيه طريقة حسنة ، ذلك أنه يجمع المتن كلها بطرقها في موضع واحد ، ولا يفرقها في الأبواب ، ولا يكررها إلا في القليل النادر ، إلا إذا كانت هناك ضرورة لهذا التكرار كفائدة زائدة في سند الحديث أو متنه .

وقد سهل له هذا المنهج أنه لم يقصد أن يضم إلى جمع الأحاديث بيان فقها واستنباط الأحكام والآداب منها .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١ ص ٤٨ .

أما البخاري فقد قصد إلى ذلك فمن ثم اضطر إلى طريقته التي سلكها في صحيحه .

ومن هذه الخصائص : التدقيق في الألفاظ ، والحفاظ على اللفظ ما وسعه الأمر حتى إذا خالف راوٍ راوياً آخر في لفظه والمعنى واحد فرواها بعضهم بلفظ والآخر بلفظ آخر ، تبيّن ، وكذا إذا قال راوٍ (حدثنا) وقال آخر (أخبرنا) ^(١) بين الخلاف في ذلك ، وكذلك إذا روى الحديث جماعة وكانت هناك مغايرة في بعض الألفاظ فإنه يبين أن اللفظ المذكور من رواية فلان ، ولذا تجده يقول في هذا النوع من الحديث : (واللفظ لفلان) وهذا غاية الدقة والأمانة في النقل اللتين امتاز بها مثل الإمام مسلم .

وأيضاً فقد حرص مسلم أن لا يذكر في كتابه إلا الأحاديث المسندة المرفوعة - أي المنسوبة إلى النبي ﷺ - فلذلك لم يذكر أقوال الصحابة ولا التابعين وليس فيه بعد المقدمة إلا الأحاديث المرفوعة .

وكذلك لم يكثر مسلم في كتابه من الأحاديث المعلقة ^(٢) فليس فيه إلا اثنا عشر حديثاً وهي في المتابعات لا في أصول الكتاب ومقاصده ، هذا وهناك - غير ما ذكرنا - خصائص تظهر لمن يدرس الكتاب حق الدرس .

* * *

(١) الذي عليه جمهور المحدثين - ومنهم مسلم - التفرقة بين حدثنا ، وأخبرنا ، فالأول : بما سمعه الراوي من لفظ شيخه ، والثاني : لما قرأه التلميذ على شيخه .

(٢) هي ما حذف من مبتدأ إسنادها واحد أو أكثر .

٣ - الإمام أبو داود وسننه

قال ابن الأثير في ترجمة أبي داود :

هو سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو بن عمران الأزدي السجستاني ، أحد من رحل وطوف ، وجمع وصنف ، وكتب عن العراقيين والخراسانيين والشاميين والمصريين والجزيريين .

ولد سنة اثنين ومائتين ، وتوفي بالبصرة لأربع عشرة بقية من شوال سنة خمس وسبعين ومائتين .

وقدم بغداد مراراً ، ثم خرج منها آخر مراته سنة إحدى وسبعين .

وأخذ الحديث عن مسلم بن إبراهيم ، وسليمان بن حرب ، وعثمان بن أبي شيبة وأبي الوليد الطيالسي ، وعبد الله بن مسلمة القعنبي ، ومُسَدَّد بن مُسْرَهْد ، ويحيى بن معين ، وأحمد بن حنبل ، وقتيبة بن سعيد ، وأحمد بن يونس ، وغير هؤلاء من أئمة الحديث ، ممن لا يحصى كثرة .

وأخذ الحديث عنه : ابنه عبد الله ، وأبو عبد الرحمن النسائي ، وأحمد بن محمد الخلال ، وأبو علي محمد بن عمرو اللؤلؤي ، ومن طريقه نروي كتابه .

وكان أبو داود سكن البصرة .

وقدم بغداد ، وروى كتابه المصنّف في (السنن) بها ، ونقلها أهلها عنه ، وصنفه قديماً ، وعرضه على أحمد بن حنبل ، فاستجاده واستحسنه .

قال أبو بكر بن داسّة : قال أبو داود : كتبت عن رسول الله ﷺ خمسمائة ألف حديث ، انتخبت منها ما ضمنته هذا الكتاب - يعني كتاب السنن - جمعت فيه أربعة آلاف حديث وثمانمائة حديث ذكرت الصحيح ، وما يشبهه ويقاربه . ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث .

أحدها : قوله عليه الصلاة والسلام : « إنما الأعمال بالنيات » .

والثاني : قوله ﷺ : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » .

والثالث : قوله ﷺ : « لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يرضى لأخيه ما يرضاه لنفسه » .

والرابع : قوله ﷺ : « إن الحلال بيّن ، وإن الحرام بيّن ، وبينهما أمور مشتهيات ... » الحديث .

وقال أبو بكر الخلال : أبو داود : سليمان بن الأشعث : الإمام المقدم في زمانه ، رجل لم يسبقه إلى معرفته بتخريج العلوم وبصره بموضعها أحد في زمانه ، رجل ورع مقدم .

وكان إبراهيم الأصفهاني ، وأبو بكر بن صدقة ، يرفعان من قدره ، ويذكرانه بما لا يذكران أحداً في زمانه مثله .

وقال أحمد بن حنبل بن ياسين الهروي : كان سليمان بن الأشعث ، أبو داود ، أحد حفاظ الإسلام لحديث رسول الله ﷺ ، عِلْمُهُ وَعِلَلُهُ وَسَنَدُهُ ، وكان في أعلى درجة من النسك والعفاف ، والصلاح والورع ، من فرسان الحديث .

وقال محمد بن أبي بكر بن عبد الرزاق : كان لأبي داود كَمٌ واسع وكَمٌ ضيق ، فقال له : يرحمك الله ! ما هذا ؟ قال : الواسع للكتب ، والآخر لاحتاج إليه .

وقال أبو سليمان الخطابي : كتاب (السنن) لأبي داود ، كتاب شريف لم يصنف في علم الدين كتاب مثله ، وقد رزق القبول من كافة الناس ، على اختلاف مذاهبهم ، فصار حَكَمًا بين فرق العلماء ، وطبقات الفقهاء ، فلكل فيه ورد ، ومنه شرب ، وعليه معول أهل العراق ومصر وبلاد المغرب ، وكثير من مدن أقطار الأرض ، فأما أهل خراسان ، فقد أولع أكثرهم بكتاب محمد بن إسماعيل البخاري ، وكتاب مسلم بن الحجاج النيسابوري .

وقال : قال أبو داود : ما ذكرت في كتابي حديثاً اجتمع الناس على تركه .

وكان تصنيف علماء الحديث قبل زمان أبي داود : (الجوامع) و (المسانيد) ونحوهما ، فتجمع تلك الكتب - إلى ما فيها من (السنن) و (الأحكام) - أخباراً وقصصاً ، ومواعظ

وأدباً . فأما (السنن) المحضة ، فلم يقصد أحد منهم إفرادها واستخلاصها من أثناء تلك الأحاديث ، ولا اتفق له ما اتفق لأبي داود ، ولذلك حل هذا الكتاب عند أئمة الحديث وعلماء الأثر محل العجب ، فضربت إليه أكباد الإبل ، ورامت إليه الرحل .

قال إبراهيم الحري لما صنف أبو داود هذا الكتاب ، ألين لأبي داود الحديث ، كما ألين لداود عليه السلام الحديث .

وقال ابن الأعرابي عن كتاب أبي داود : لو أن رجلاً لم يكن عنده من العلم إلا المصحف الذي فيه كتاب الله - عز وجل - ثم هذا الكتاب ، لم يحتج معها إلى شيء من العلم بته .

* * *

٤ - الإمام الترمذي وسننه

قال ابن الأثير في ترجمة الترمذي :

هو أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي الترمذي ، ولد سنة تسع ومائتين .

وتوفي بـ (ترمذ) ليلة الاثنين الثالث عشر من شهر رجب سنة تسع وسبعين ومائتين ، وهو أحد العلماء الحفاظ الأعلام ، وله في الفقه يد صالحة .

أخذ الحديث عن جماعة من أئمة الحديث ، ولقي الصدر الأول من المشايخ مثل : قتيبة بن سعيد ، وإسحاق بن موسى ، ومحمود بن غيلان ، وسعيد بن عبد الرحمن ، ومحمد بن بشار ، وعلى بن حجر ، وأحمد بن منيع ، ومحمد بن المثنى ، وسفيان بن وكيع ، ومحمد بن إسماعيل البخاري ، وغير هؤلاء ، وأخذ عن خلق كثير لا يحصون كثرة .

وأخذ عنه خلق كثير : منهم محمد بن أحمد بن محبوب المهبوبي المروزي ، ومن طريقه روينا كتابه (الجامع) .

وله تصانيف كثيرة في علم الحديث ، وهذا كتابه (الصحيح) أحسن الكتب وأكثرها فائدة ، وأحسنها ترتيباً ، وأقلها تكراراً ، وفيه ما ليس في غيره : من ذكر المذاهب ، ووجوه الاستدلال ، وتبيين أنواع الحديث من الصحيح والحسن والغريب ، وفيه جرح وتعديل ، وفي آخره كتاب (العلل) قد جمع فيه فوائد حسنة لا يخفى قدرها على من وقف عليها .

قال الترمذي - رحمه الله تعالى - : صنف هذا الكتاب فعرضته على علماء الحجاز فرضوا به ، وعرضته على علماء العراق فرضوا به ، وعرضته على علماء خراسان فرضوا به ، ومن كان في بيته هذا الكتاب ، فكأنما في بيته نبي يتكلم .

وقال الترمذي : كان جدي مروزيًا انتقل من مرو ، أيام الليث بن سيار .

٥ - الإمام النسائي وسننه

قال ابن الأثير في ترجمة النسائي :

هو أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر بن سنان النسائي ، ولد سنة خمس وعشرين ومائتين .

ومات بمكة سنة ثلاثة وثلاثمائة ، وهو مدفون بها .

قال الحاكم أبو عبد الله النيسابوري : سمعت أبا علي الحافظ غير مرة يذكر أربعة من أئمة المسلمين رآهم فيبدأ بأبي عبد الرحمن .

وهو أحد الأئمة الحفاظ العلماء ، لقي المشايخ الكبار .

وأخذ الحديث عن قتيبة بن سعيد ، وإسحاق بن إبراهيم ، وحيد بن مسعدة وعلي بن خشرم ، ومحمد بن عبد الأعلى ، والحارث بن مسكين ، وهناد بن السري ، ومحمد بن بشار ، ومحمود بن غيلان ، وأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني ، وغير هؤلاء من المشايخ الحفاظ .

وأخذ عنه الحديث خلق كثير ، منهم : أبو بشر الدولابي - وكان من أقرانه - وأبو القاسم الطبراني ، وأبو جعفر الطحاوي ، ومحمد بن هارون بن شعيب ، وأبو الميمون بن راشد ، وإبراهيم بن محمد بن صالح بن سنان ، وأبو بكر أحمد بن إسحاق السقي الحافظ ، ومن طريقه روي كتابه (السنن) .

وله كتب كثيرة في الحديث والعلل ، وغير ذلك .

قال مأمون المصري الحافظ : خرجنا مع أبي عبد الرحمن إلى طرسوس سنة الفداء ، فاجتمع جماعة من مشايخ الإسلام ، واجتمع من الحفاظ عبد الله بن أحمد بن حنبل ، ومحمد ابن إبراهيم مَرِيَّعٌ ، وأبو الأذان ، وكيَلَجَة وغيرهم ، فتشاوروا من ينتقى لهم على الشيوخ ؟ فاجتمعوا على أبي عبد الرحمن النسائي ، وكتبوا كلهم بانتخابه .

وقال الحاكم النيسابوري : أما كلام أبي عبد الرحمن على فقه الحديث فأكثر من أن يذكر ، ومن نظر في كتاب السنن له تحير في حسن كلامه .

وقال : سمعت علي بن عمر الحافظ غير مرة يقول : أبو عبد الرحمن مُقَدِّمٌ على كل من يذكر بهذا العلم في زمانه .

وكان شافعي المذهب ، له مناسك ، ألفها على مذهب الشافعي وكان ورعاً متحرياً ، ألا تراه يقول في كتابه (الحارث بن مسكين قراءة عليه ، وأنا أسمع) ولا يقول فيه : (حدثنا) ولا (أخبرنا) كما يقول عن باقي مشايخه .

وذلك : أن الحارث كان يتولى القضاء بمصر ، وكان بينه وبين أبي عبد الرحمن خشونة ، لم يمكنه حضور مجلسه ، فكان يستتر في موضع ، ويسمع حيث لا يراه فلذلك تورع وتحري فلم يقل : حدثنا وأخبرنا .

وقيل : إن الحارث كان خائضاً في أمور تتعلق بالسلطان ، فقدم أبو عبد الرحمن فدخل إليه في زي أنكره ، قالوا : كان عليه قباء طويل ، وقلنسوة طويلة فأنكر زيّه ، وخاف أن يكون من بعض جواسيس السلطان ، فنعه من الدخول إليه فكان يجيء فيقعده خلف الباب ويسمع ما يقرؤه الناس عليه من خارج ، فن أجل ذلك لم يقل فيما يرويه عنه (حدثنا ، وأخبرنا) .

وسأل بعض الأمراء أبا عبد الرحمن عن كتابه (السنن) : أكله صحيح ؟ فقال : لا ، قال : فاكتب لنا الصحيح منه مجرداً ، فصنع المجتبى ، فهو (المجتبى من السنن) ترك كل حديث أورده في (السنن) مما تكلّم في إسناده بالتعليل ، والله أعلم بالصواب .

٦ - ابن ماجه وسننه

قال الشوكاني :

وأما ابن ماجه فهو أبو عبد الله محمد بن يزيد بن عبد الله بن ماجه القزويني مولى ربيعة بن عبد الله .

ولد سنة تسع ومائتين ، ومات يوم الثلاثاء لثمان بقين من رمضان سنة ثلاث أو خمس وسبعين ومائتين .

وهو أحد الأعلام المشاهير ، ألف سننه المشهورة ، وهي إحدى السنن الأربع وإحدى الأمهات الست . وأول من عدها من الأمهات ابن طاهر في الأطراف ثم الحافظ عبد الغني ، قال ابن كثير : إنها كتاب مفيد قوي التبويب في الفقه .

رحل ابن ماجه وطوّف الأقطار وسمع من جماعة منهم أصحاب مالك والليث ، وروى عنه جماعة منهم أبو الحسن القطان .

وقد تحدث صاحب الرسالة المستطرفة عن ابن ماجه وسننه بقوله :

وسنن أبي عبد الله محمد بن يزيد المعروف بابن ماجه ، وهو لقب أبيه لا جده ، ولا أنه اسم لأمه خلافاً لمن زعم ذلك ، وهماؤه ساكنة وصلأً ووقفأً لأنه اسم أعجمي ، الربيعي نسبة إلى ربيعة مولاها ، القزويني نسبة إلى قزوين مدينة مشهورة بعراق العجم ، المتوفى سنة ثلاثة أو خمس وسبعين ومائتين .

وهي التي كملت بها الكتب الستة والسنن الأربعة بعد الصحيحين ، واعتنى بأطرافها الحافظ ابن عساكر ثم المزي مع رجالها ، ولم يذكر ابن الصلاح والنووي وفاته ، كما لم يذكر كتابه في الأصول ، بل جعلها خمسة فقط تبعاً لمتقدمي أهل الأثر وكثير من محققي متأخريهم .

ولما رأى بعضهم كتابه كتاباً مفيداً قوي النفع في الفقه ورأى من كثرة زوائده على الموطأ أدرجه على ما فيه في الأصول وجعلها ستة .

وأول من أضافه إلى الخمسة مكملاً به الستة أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي المقدسي في أطراف الكتب الستة له ، وكذا في شروط الأئمة الستة له ، ثم الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي في الكمال في أسماء الرجال ، أي رجال الكتب الستة ، الذي هذبه الحافظ جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المزي - بكسر الميم وتشديد الزاي المكسورة ، نسبة إلى المزة قرية بدمشق - فتبعها على ذلك أصحاب الأطراف والرجال والناس ، ومنهم من جعل السادس الموطأ كرزين بن معاوية العبدي في التجريد ، وأثير الدين أبي السعادات المبارك بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري الشافعي في جامع الأصول .

وقال قوم من الحفاظ منهم ابن الصلاح والنووي وصلاح الدين العلائي والحافظ ابن حجر : لو جعل مسند الدارمي سادساً كان أولى ، ومنهم من جعل الأصول سبعة فعد منها زيادة على الخمسة كلاً من الموطأ وابن ماجه ، ومنهم من أسقط الموطأ وجعل بدله سنن الدارمي ، والله أعلم .

وقد تحدث الدكتور محمد أديب الصالح في كتابه (لمحات في أصول الحديث) عن سنن ابن ماجه فقال :

أحد السنن الأربع ، وأحد الكتب الستة والأهميات : الصحيحين والسنن الأربع ، وإنه - بشهادة العلماء الأثبات - غزير الفقه والفوائد ، وفيه الكثير من الزيادات على الموطأ ، بل والزيادات على الكتب الخمسة ، فقد روى عنه الحافظ الذهبي أنه قال : عرضت هذه السنن على أبي زرعة فنظر فيه وقال : أظن إن وقع هذا في أيدي الناس تعطلت هذه الجوامع أو أكثرها ، ثم قال : لعله لا يكون فيه تمام ثلاثين حديثاً مما في إسناده ضعيف . ووصفه الحافظ ابن كثير بأنه كتاب مفيد قوي التبويب في الفقه .

ومع شهادة العلماء بجودة هذا الكتاب لم يغفلوا ذكر ما فيه من الضعيف ، قال ابن حجر : كتابه في السنن - يعني ابن ماجه - جامع جيد كثير الأبواب والغرائب وفيه أحاديث ضعيفة جداً ، وقد تقل مثل هذا الكلام عن ابن الأثير أيضاً : وكل هذه الأحاديث معروف

عند العلماء متميز عن غيره من الصحيح . ولكن عدد الضعيف قليل إذا قيس بعدد الأحاديث التي يشتمل عليها الكتاب ، فقد ذكر أبو الحسن القطان - من أصحاب ابن ماجه - أن في السنن - يعني سنن ابن ماجه - ألفاً وخمسمائة باب ، وجملة ما فيها أربعة آلاف حديث . وهذه الجملة دقق فيها أحد علماء العصر الحديث ، محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله ، فبلغت في تعدادها (٤٣٤١) حديثاً . من هذه الأحاديث (٣٠٠٢) حديثاً أخرجها أصحاب الكتب الخمسة كلهم أو بعضهم ، ولكنه هو رواها من طرق غير طرقهم ، وباقي الأحاديث مما يحتاج به عند العلماء . وتفصيل الزوائد - كما أثبتها محمد فؤاد عبد الباقي في آخر الجزء الثاني من (سنن ابن ماجه) كما يلي :

(٤٢٨) أحاديث رجالها ثقات ، وصحيحة الإسناد .

(١٩٩) أحاديث حسنة الإسناد .

(٦١٣) أحاديث ضعيفة الإسناد .

(٩٩) أحاديث واهية الإسناد أو منكورة أو مكذوبة .

وبعد هذا التقسيم قرر رحمه الله أن من مزايا الكتاب : ... رواية أحاديث الكتب الخمسة من طرق أخرى يؤيد بعضها بعضاً مما يعطي الأحاديث قوة على قوة ، ثم كون الأحاديث - صحيحة الإسناد وحسنة الإسناد - تشكل عدداً كبيراً مما انفرد به ، فإذا أضيف هذا إلى مزاياه الأخرى ظهرت لنا قيمة هذا الكتاب بشكل جلي .

* * *

٧ - الدارمي وسننه

قال صاحب الرسالة المستطرفة :

وسنن أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد التيمي السمرقندي الدارمي ، نسبة إلى دارم بن مالك بطن كبير من تميم ، المتوفى بـ ٥٠ سنة خمس وخمسين ومائتين ، وله أسانيد عالية وثلاثياته ^(١) أكثر من ثلاثيات البخاري .

قال الدكتور أديب الصالح :

وذهب جماعة من العلماء منهم ابن الصلاح والنووي والحافظ ابن حجر إلى أنه لو جعل مسند الدارمي سادساً (أي سادس كتب السنة المعتمدة) لكان أولى .

وقد قدم محقق سنن الدارمي : محمد أحمد دهمان ، للسنن معروفاً بالسنن وبمؤلفها فقال :

هو الحافظ الكبير ، شيخ الإسلام أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام ابن عبد الصمد التيمي السمرقندي الدارمي - بكسر الراء - نسبة إلى دارم بن مالك بن حنظلة ابن زيد مناة بن تميم أحد بطونه .

روى ابن عساكر بسنده إلى أبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم الوراق قال : سمعت أبا محمد عبد الله بن عبد الرحمن يقول : ولدت سنة مات ابن المبارك سنة ١٨١ هـ .

نشأ على غاية من العقل والديانة يضرب به المثل في الحلم والدراية والحفظ والعبادة والزهد . ورحل في طلب الحديث فدخل مصر والشام والعراق والحرمين ، وأظهر علم الحديث والآثار بسمرقند ، وذبح عنها الكذب ، وكان مفسراً كاملاً ، وفقهاً عالماً ، طلب للقضاء على سمرقند فأبى ، فألح عليه السلطان حتى تقلده فقضى مرة واحدة ثم استعفى فأعفي .

توفي سنة (٢٥٥ هـ) يوم التروية بعد العصر ودفن يوم عرفة يوم الجمعة وهو ابن (٧٥)

(١) الثلاثية : السند الذي فيه ثلاثة رواة بين المؤلف والني عليه السلام .

سنة ودفن بمرور ، وقيل إن وفاته سنة (٢٥٠ هـ) وهو وهم .

قال إسحاق بن أحمد : كنا عند محمد بن إسماعيل البخاري فورد عليه كتاب فيه نعي عبد الله بن عبد الرحمن فنكس رأسه ثم رفع واسترجع ، وجعل يسيل دموعه على خديه ثم أنشد :

إن تبق تفجع بالأحبة كلهم وفناء نفسك لا أبالك أفجع
ولم يكن ينشد شعراً إلا ما ورد في الأحاديث .
ومن مؤلفاته : التفسير ، والجامع ، والمسند وهو هذا .

شيوخه :

سمع من أبي مسهر ومروان بن محمد ، وعبد الوهاب بن سعيد المغني والنضر بن شميل
ويزيد بن هارون وسعيد بن عامر الضبعي وجعفر بن عون وزيد بن يحيى بن عبيد
الدمشقي ووهب بن جرير وخالد بن مخلد وطبقتهم بالحرمين وخراسان والشام والعراق .

من روى عنه :

روى عنه البخاري في غير جامعه ، ومسلم في صحيحه ، وأبو داود ، والترمذي ،
والنسائي خارج سننه ، والحسن بن الصباح البزار ، وأبو زرعة ، وأبو حاتم ، وبقي بن
مخلد ، وعمر بن محمد البجلي ، وجعفر بن محمد الفريابي ، وعبد الله بن أحمد بن حنبل ،
وعيسى بن عمر بن العباس السمرقندي ، وغيرهم .

ثناء الأئمة عليه :

قال إسحاق سمعت محمد بن عبد الله بن المبرد المحرمي ببغداد يقول : يا أهل خراسان !
ما دام عبد الله بن عبد الرحمن بين أظهركم فلا تشتغلوا بغيره ، قال إسحاق : وسمعت أبا
سعيد الأشج يقول : عبد الله بن عبد الرحمن إمامنا . قال إسحاق : وسمعت عثمان بن أبي
شيبه يقول : إن عبد الله بن عبد الرحمن أعظم من ذاك فيما يقولون من البصر والحفظ
وصيانة النفس عافاه الله .

وقال إسحاق : سمعت شريح بن يونس البغدادي يقول : طوبى لكم يا أهل خراسان
بعبد الله بن عبد الرحمن .

وقال محمد بن عبد الله بن بكير : غلبنا عبد الله بن عبد الرحمن بالحفظ والورع .

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم سمعت أبي يقول : عبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي
إمام أهل زمانه .

وقال زاهر الخطيب السمرقندي : كنت عند أحمد بن حنبل فذكر عبد الله بن عبد
الرحمن فقال : هو ذاك السيد ، ثم قال عَرَضَ علي الكفر فلم أقبل وعرضت عليه الدنيا فلم
يقبل .

وقال أحمد بن حنبل : سمعت رجاء بن مرجى يقول : رأيت أحمد بن حنبل وإسحاق
وابن المديني والشاذكوني فما رأيت أحفظ من عبد الله .

وقال أبو سعيد الجريدي ، عمر بن الحسن : كنت بمصر والشام - وذكر البلدان - ما
رأيت أحداً من أهل العلم إلا وهو يعرف عبد الله بن عبد الرحمن ، ولا يعرفون رجاء بن
المرجى ولا محمد بن إسماعيل .

وقال أبو حامد بن الشرقي : إنما أخرجت خراسان من أئمة الحديث خمسة رجال محمد بن
يحيى ، ومحمد بن إسماعيل ، وعبد الله بن عبد الرحمن ، ومسلم بن الحجاج ، وإبراهيم بن أبي
طالب .

وقال أبو محمد جعفر بن محمد الأمي سمعت رجاء الحافظ يقول : ما أعلم أحداً أعلم
بحديث النبي ﷺ من عبد الله بن عبد الرحمن .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل : قلت لأبي : يَأْبَتُ ما الحافظ ؟

قال : يابني شباب كانوا عندنا من أهل خراسان وقد تفرقوا .

قلت : من هم يا أبت ؟

قال : محمد بن إسماعيل ذاك البخاري ، وعبد الله بن عبد الكريم ذاك الرازي - يعني أبا زرعة ، وعبد الله بن عبد الرحمن ذاك السمرقندي ، والحسن بن شجاع ذاك البلخي .

قلت : فمن أحفظ هؤلاء ؟

قال : أما أبو زرعة فأسردهم ، وأما محمد بن إسماعيل فأعرفهم ، وأما عبد الله بن عبد الرحمن فأتقنهم ، وأما الحسن بن شجاع فأجمعهم للأبواب .

وقال بNDAR : حفاظ الدنيا أربعة : أبو زرعة بالرّي ، ومسلم بن الحجاج بنيسابور ، وعبد الله بن عبد الرحمن بمرقند ، ومحمد بن إسماعيل ببخارى .

وقال أبو حاتم الرازي : البخاري أعلم من دخل العراق ، ومحمد بن يحيى أعلم من بخراسان اليوم ، ومحمد بن سليم أورعهم ، والدارمي أثبتهم .

وقال النووي عنه : هو أحد حفاظ المسلمين في زمانه ، قل من يدانيه في الفضيلة والحفظ .

مرتبة هذه السنن عند المحدثين :

اشتهرت هذه السنن عند المحدثين بالمسند ، على خلاف اصطلاحهم . قال السيوطي في تدريب الراوي : ومسند الدارمي ليس بمسند ، بل هو مرتب على الأبواب ، وبعض المحدثين سموه بالصحيح .

وقال الحافظ الذهبي عنه : صاحب المسند العالي الذي في طبقة منتخب مسند عبد بن حميد .

قال الحافظ الذهبي : وسمي كتابه مسنداً وإن لم يكن على ترتيب المسانيد .

وقال ملا علي القاري في المرقاة : ومسنده المشهور وهو على الأبواب دون الصحابة خلافاً لمن وهم فيه .

والذي وهم فيه هو ابن الصلاح فقد عده من المسانيد على وجه اليقين : قال السيوطي

في تدريب الراوي : قيل ومسند الدارمي ليس بمسند بل هو مرتب على الأبواب وقد سماه بعضهم بالصحيح . قال شيخ الإسلام : ولم أر لمغلطاي سلفاً في تسميته الدارمي صحيحاً إلا قوله أنه رآه بخط المنذري .

وقال شيخ الإسلام : إنه ليس دون السنن في الرتبة بل لو ضم إلى الخمسة لكان أولى من ابن ماجه فإنه أمثل منه بكثير .

وقال العراقي في النكت : اشتهر تسميته بالمسند كما سمي البخاري كتابه بالمسند لتكون أحاديثه مسندة .

* * *

٨ - الإمام مالك وموطؤه

قال ابن الأثير :

هو أبو عبد الله : مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان بن خثيل بن عمرو بن الحارث - وهو ذو أصبح - بن سويد ، من بني حمير بن سبأ الأكبر ، ثم من بني يشجب بن قحطان ، وفي نسبه خلاف غير هذا .

ولد سنة خمس وتسعين من الهجرة ، ومات بالمدينة سنة تسع وسبعين ومائة ، وله أربع وثمانون سنة .

وقال الواقدي : مات وله تسعون سنة ، وله ولد اسمه يحيى ، ولا يعلم له غيره .

هو إمام أهل الحجاز ، بل إمام الناس في الفقه والحديث ، وكفاه فخراً أن الشافعي من أصحابه .

أخذ العلم عن : محمد بن شهاب الزهري ، ويحيى بن سعيد الأنصاري ، ونافع مولى عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - ومحمد بن المنكدر ، وهشام بن عروة بن الزبير ، وإسماعيل بن أبي حكيم ، وزيد بن أسلم ، وسعيد بن أبي سعيد المقبري ، ومخزومة بن سليمان ، وربيعة بن أبي عبد الرحمن ، وأقوى معه ، وعبد الرحمن بن القاسم ، وشريك بن عبد الله بن أبي نمر - وليس بالقاضي - وخلق كثير سوام .

وأخذ العلم عنه خلق كثير لا يحصون كثرة ، وهم أئمة البلاد .

منهم : الشافعي ، ومحمد بن إبراهيم بن دينار ، وأبو هشام المغيرة بن عبد الرحمن الخزومي ، وأبو عبد الله عبد العزيز بن أبي حازم ، وعثمان بن عيسى بن كنانة؛ هؤلاء نظرأوه من أصحابه وممن بن عيسى القرظي ، وأبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز الماجشون ، ويحيى بن يحيى الأندلسي ، ومن طريقه رويناه الموطأ - وعبد الله بن مسلمة القعنبي ، وعبد الله بن وهب وأصْبَغ بن الفرَج ، وغير هؤلاء ممن لا يحصى عدده .

وهؤلاء مشايخ البخاري ، ومسلم ، وأبي داود ، والترمذي ، وأحمد بن حنبل ، ويحيى بن

معين ، وغيرهم من أئمة الحديث .

قال مالك - رحمه الله تعالى :- قل من كتبت عنه العلم ، مامات حتى يجيئني ويستفتيني .
وقال بكر بن عبد الله الصنعاني : أتينا مالك بن أنس فجعل يحدثنا عن ربيعة بن عبد الرحمن وكنا نستزيده من حديثه . فقال لنا ذات يوم : ما تصنعون بربيعة ، وهو نائم في ذلك الطاق ؟ فأتينا ربيعة فأنبهناه ، وقلنا له : أنت ربيعة ؟ قال : نعم . قلنا : الذي يتحدث عنك مالك بن أنس ؟ قال : نعم ، قلنا : كيف حظي بك مالك ولم تحظ أنت بنفسك ؟! قال : أما علمت أن مثقالاً من دُولَةِ خَيْرٍ من حِمْلِ علم ؟! (١) .

وكان مالك مبالغاً في تعظيم العلم والدين ، حتى كان إذا أراد أن يحدث تواضاً وجلس على صدر فراشه ، وسرح لحيته واستعمل الطيب وتمكن من الجلوس على وقار وهيبة ، ثم حدث ، فقليل له في ذلك ، فقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ .

ومر يوماً على أبي حازم وهو جالس فجاره ، فقليل له ، فقال : إني لم أجِدَ موضعاً أجلس فيه ، فكرهت أن آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم .

قال يحيى بن سعيد القطان : ما في القوم أصح حديثاً من مالك .

وقال الشافعي - رحمه الله - إذا ذكر العلماء فمالك النجم ، وما أحد أَمَنُ عليّ من مالك - رحمة الله عليه - .

وروي أن المنصور منعه من رواية الحديث في طلاق المكره ، ثم دسّ عليه من يسأله ، فروي على ملأ من الناس : (ليس على مُسْتَكْرَه طلاق) فضربه بالسياط ، ولم يترك رواية الحديث .

وروي أن الرشيد سأل مالكا فقال : هل لك دار ؟ فقال : لا ، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار ، وقال : اشتر بها داراً ، فأخذها ولم ينفقها فلما أراد الرشيد الشخصوص . قال لمالك : ينبغي أن تخرج معي ، فإني عزمتم أن أحمل الناس على الموطأ ، كما حمل عثمان الناس على

(١) يعني : أن مالك بن أنس معظوظ ، جعل الله له شهرة وسعة وإقبالا ، بخلاف حالي .

القرآن . فقال : أما حمل الناس على الموطأ فليس إلى ذلك سبيل ، لأن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا بعده في الأمصار فحدثوا ، فعند أهل كل مصر علم ، وقد قال رسول الله ﷺ : « اختلاف أمتي رحمة » ^(١) وأما الخروج معك فلا سبيل إليه . قال رسول الله ﷺ : « المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » وقال : « المدينة تنفي خبثها » وهذا دنانيركم كما هي ، إن شئتم فخذوها ، وإن شئتم فدعوها .

يعني أنك إنما تكلفني مفارقة المدينة لما اصطنعته إليّ فلا أوتر الدنيا على مدينة رسول الله ﷺ .

وقال الشافعي - رحمه الله - رأيت على باب مالك كراعاً من أفراس خراسان وبغال مصر ، ما رأيت أحسن منه ، فقلت له : ما أحسنه ، فقال : هو هدية مني إليك يا أبا عبد الله ، فقلت : دع لنفسك منها دابة تركبها ، فقال : أنا أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيها رسول الله ﷺ بحافر دابة .

وكم مثل هذه المناقب لهذا الطود الأشم ، والبحر الزاخر .

قال صاحب الرسالة المستطرفة :

ولأبي عمر بن عبد البر .. كتاب في وصل ما في الموطأ ، من المرسَل والمنقطع والمُفَضَّل . قال : وجميع ما فيها من قوله بلغني ، ومن قوله عن الثقة عنده مما لم يسنده أحد وستون حديثاً ، كلها مسندة من غير طريق مالك إلا أربعة لا تعرف ، ثم ذكرها .

قال الشيخ صالح الفلاني : وقد رأيت لابن الصلاح تأليفاً وصل هذه الأربعة فيه بأسانيده .

* * *

(١) حديث سنده ضعيف ، وبعضهم قال : لا أصل له .

٩ - الإمام أحمد ومسنده

قال الشوكاني :

وأما أحمد بن حنبل فهو الإمام الكبير ، المجمع على إمامته وجلالته ، أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني . رحل إلى الشام والحجاز واليمن وغيرها ، وسمع من سفيان بن عيينة وطبقته ، وروى عنه جماعة من شيوخه وخلائق آخرون لا يحصون ، منهم البخاري ومسلم .

قال أبو زرعة : كانت كتب أحمد بن حنبل اثني عشر حملاً وكان يحفظها عن ظهر قلبه وكان يحفظ ألف ألف حديث .

ولد في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة ، وتوفي سنة إحدى وأربعين ومائتين على الأصح ، وله كرامات جليلة وامتنح الحنة المشهورة . وقد طول المؤرخون ترجمته وذكرها فيها عجائب وغرائب ، وترجمه الذهبي في (سير أعلام النبلاء) في مقدار خمسين ورقة وأفردت ترجمته بمصنفات مستقلة .

وله - رحمه الله - المسند الكبير انتقاه من أكثر من سبعمائة ألف حديث وخمسين ألف حديث ولم يدخل فيه إلا ما يحتج به وبالغ بعضهم فأطلق على جميع ما فيه أنه صحيح ، وأما ابن الجوزي فأدخل كثيراً منه في موضوعاته ، في كتاب الموضوعات لابن الجوزي ، حيث أورد فيه أحاديث موضوعة مكذوبة .

لكنه رحمه الله كان يورد أحاديث ضعيفة ، بل حسنة وصحيحة في كتابه - وتعقبه بعضهم في بعضها ، وقد حقق الحافظ ابن حجر نفي الوضع عن جميع أحاديثه وأنه أحسن انتقاء وتحريراً من الكتب التي لم يلتزم مصنفوها الصحة في جميعها كالموطأ والسنن الأربعة ، وليست الأحاديث الزائدة فيه على الصحيحين بأكثر ضعفاً من الأحاديث الزائدة في سنن أبي داود والترمذي ، وقد ذكر العراقي أن فيه تسعة أحاديث موضوعة ، وأضاف إليها خمسة عشر حديثاً أوردها ابن الجوزي في الموضوعات وهي فيه ، وأجاب عنها حديثاً حديثاً . قال

السيوطي : وقد فاته أحاديث أخر أوردتها ابن الجوزي وهي فيه وقد جمعها السيوطي في جزء سماه (الذيل الممهد) وذب عنها وعدتها أربعة عشر حديثاً . قال الحافظ ابن حجر في كتابه ، (تعجيل المنفعة في رجال الأربعة) ليس في المسند حديث لا أصل له إلا ثلاثة أحاديث أو أربعة ، منها حديث عبد الرحمن بن عوف أنه يدخل الجنة زحفاً ، قال : والاعتذار عنه أنه مما أمر أحمد بالضرب عليه فترك سهواً ، قال الهيثمي في زوائد المسند : إن مسند أحمد أصح صحيحاً من غيره ، لا يوازي مسند أحمد كتاب مسند في كثرته وحسن سياقاته . قال السيوطي في خطبة كتابه (الجامع الكبير) ما لفظه : وكل ما كان في مسند أحمد فهو مقبول فإن الضعيف الذي فيه يقرب من الحسن .

وقال صاحب الرسالة المستطرفة :

ومسند الإمام الأوحى محي السنة أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي ، ثم البغدادي المتوفى ببغداد سنة إحدى وأربعين ومائتين ، وكان يحفظ ألف ألف حديث ، ومسنده هذا يشتمل على ثمانية عشر مسنداً أولها مسند العشرة ، وما معه من زيادات ولده عبد الله ويسير من زيادات أبي بكر القطيعي الراوي عن عبد الله .

وقد اشتهر عند كثير من الناس أنه أربعون ألف حديث . قال أبو موسى المديني : لم أزل أسمع ذلك من الناس حتى قرأته على أبي منصور بن زريق . وقد صرح بذلك الحافظ شمس الدين محمد بن الحسين في التذكرة فقال : عدة أحاديثه أربعون ألفاً بالمركر . وقال ابن المنادي : إنه ثلاثون ألفاً ، والاعتماد على قوله دون غيره . وقد انتقاءه من أكثر من سبعمائة ألف وخمسين ألف حديث . ولم يدخل فيه إلا ما يحتج به عنده ، وتفضيل ابن الصلاح كتب السنن عليه منتقداً ، وبالغ بعضهم فأطلق عليه اسم الصحة ، والحق أن فيه أحاديث كثيرة ضعيفة وبعضها أشد في الضعف من بعض ، حتى إن ابن الجوزي أدخل كثيراً منها في موضوعاته ، ولكن تعقبه في بعضها الحافظ أبو الفضل العراقي ، وفي سائرهما الحافظ ابن حجر في (القول المسدد في الذب عن مسند أحمد) والسيوطي في ذيله المسمى : (الذيل الممهد على القول المسدد) . وحقق الأول منها نفي الوضع عن جميع أحاديثه ، وأنه أحسن انتقاء وتحريراً من الكتب التي لم تلتزم الصحة في جمعها . قال : وليست الأحاديث الزائدة

فيه على ما في الصحيحين بأكثر ضعفاً من الأحاديث الزائدة في سنن أبي داود والترمذي عليهما . وقال غيره: ما ضعف من أحاديثه أحسن جالاً مما يصححه كثير من المتأخرين .

وقد رتبته على الأبواب بعض الحفاظ الأصهبانيين ، وكذا الحفاظ ناصر الدين بن زريق ، وكذا بعض من تأخر عنه ، ورتبه على حروف المعجم في أسماء المقلين الحفاظ أبو بكر بن الحب ، ولولده أبي عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل البغدادي الحفاظ المتوفى سنة تسعين ومائتين كتاب في زوائد مسنده هذا وهو نحو من ربعه في المعجم ، قيل إنه مشتل على عشرة آلاف حديث ، وله أيضاً زوائد كتاب الزهد لأبيه ، وللإمام الحفاظ أبي بكر محمد بن الحفاظ أبي محمد عبد الله المقدسي الحنبلي ترتيب مسند أحمد هذا على حروف المعجم .

ومن أجود الخدمات المعاصرة التي قدمت لمسند الإمام أحمد : خدمة الشيخ أحمد شاكر له على أنها خدمة لم تتم ، وخدمة الشيخ عبد الرحمن البنا والد الشيخ حسن البنا - رحم الله الجميع - إذ رتب المسند على حسب الأبواب الفقهية والعلمية وشرحه .

وقال المناوي في التعريف بالإمام أحمد وبكتابه :

والإمام أحمد هو ابن محمد بن حنبل ، الناصر للسنة ، الصابر على الهنة ، الذي قال فيه الشافعي : ما ببغداد أفقه ولا أزهد منه . وقال إمام الحرمين : غسل وجه السنة من غبار البدعة وكشف الغمة عن عقيدة الأمة .

ولد ببغداد سنة أربع وخمسين ومائة ، وروى عن الشافعي وابن مهدي وخلق وعنه الشيخان وغيرهما ، ومات سنة إحدى وأربعين ومائتين ، وارتجت الدنيا لموته .

قال ابن المديني : مسنده - وهو نحو أربعين ألفاً - أصل من أصول الإسلام ، وقال ابن الصلاح : مسند أحمد ونحوه من المسانيد كأبي يعلى والبزار والدارمي وابن راهويه وعبد بن حميد لا يلتحق بالأصول الخمسة وما أشبهها - أي كسبن ابن ماجه - في الاحتجاج بها والركون إليها . وقال العراقي : وجود الضعيف في مسند أحمد محقق ، بل فيه أحاديث موضوعة جمعتها في جزء . وتعقبه تلميذه الحفاظ ابن حجر بأنه ليس فيه حديث لا أصل له

إلا أربعة منها خبر ابن عوف أنه يدخل الجنة زحفاً . قال (أعني ابن حجر في تجريد زوائد
البرار) : وإذا كان الحديث في مسند أحمد لا يعزى لغيره من المسانيد .

* * *

١٠ ، ١١ ، ١٢ - معاجم الطبراني الثلاثة

قال صاحب الرسالة المستطرفة :

كتب المعاجم جمع معجم ، وهو في اصطلاحهم ما تذكر فيه الأحاديث على ترتيب الصحابة أو الشيوخ أو البلدان أو غير ذلك ، والغالب أن يكونوا مرتبين على حروف الهجاء ، كمعجم الطبراني الكبير : المؤلف في أسماء الصحابة على حروف المعجم ، عدا مسند أبي هريرة : فإنه أفرده في مصنف ، يقال : إنه أورد فيه ستين ألف حديث في اثني عشر مجلداً ، وفيه قال ابن دحية : هو أكبر معاجم الدنيا ، وإذا أطلق في كلامهم (المعجم) فهو المراد وإذا أريد غيره قيد .

والأوسط : ألفه في أسماء شيوخه ، وهم قريب من ألفي رجل ، حتى إنه روى عن عاش بعده لسعة روايته وكثرة شيوخه ، وأكثره من غرائب حديثهم ، قال الذهبي : فهو ينظر الأفراد للدارقطني بين فيه فضيلة سعة روايته ، ويقال : إن فيه ثلاثين ألف حديث وهو في ست مجلدات كبار ، وكان يقول فيه : هذا الكتاب روجي ، لأنه تعب فيه . قال الذهبي : وفيه كل نفيس وعزيز ومنكر .

والصغير : وهو في مجلد خرّج فيه عن ألف شيخ ، يقتصر فيه غالباً على حديث واحد عن كل واحد من شيوخه ، قيل : وهو عشرون ألف حديث ذكره غير واحد ، لكن ذكر المقرئ في (فتح المتعال) نقلاً عن كتاب (إرشاد المهتدين لمشايع ابن فهد تقي الدين) أن المعجم الصغير للطبراني في مجلد ، يشتمل على نحو من ألف وخمسمائة حديث بأسانيد لها . قال : لأنه خرّج فيه عن ألف شيخ ، كل شيخ حديثاً أو حديثين . وهو التحرير والصواب وخلافه سبق قلم ، والله أعلم ، اهـ .

وقد عرف المناوي المؤلف بقوله :

سليمان اللخمي أبو القاسم أحد الحفاظ الكثيرين الجوالين ، صاحب التصانيف الكثيرة أخذ عن أكثر من ألف شيخ منهم : أبو زرعة وطبقته ، وعنه : أبو نعيم وغيره . قال

الذهبي : ثقة صدوق ، واسع الحفظ ، بصير بالعلل والرجال والأبواب ، كثير التصانيف ، إليه المنتهى في كثرة الحديث وعلومه ، تكلم ابن مردويه في أخيه فأوهم أنه فيه وليس به ، بل هو حافظ ثبت ، مات بأصبهان سنة ستين وثلاثمائة عن مائة سنة وعشرة ، اهـ .

وحظنا من معاجم الطبراني في هذا الكتاب هو ما أخرجه نور الدين الهيثمي منها في كتابه مجمع الزوائد ، الذي يفترض فيه أنه جمع فيه زوائد الطبراني على الكتب الست ، ولذلك تقول : إن من قرأ كتابنا هذا لم يفته معنى من المعاني التي انفرد بها الطبراني من هديه - عليه الصلاة والسلام - .

وبعد أن سرت شوطاً بعيداً في هذا الكتاب ، وصلتني بعض الأجزاء المطبوعة من كتاب المعجم الكبير لكنني لم أجِد فيها ما يجعلني أعيد النظر فيما سرت فيه .

* * *

١٣ - ابن حبان وصحيحه

قال محمد بن جعفر الكتاني :

وصحيح أبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن معاذ البني الدارمي ، البُسقي - بضم
الموحدة ، وإسكان السين - نسبة إلى بستان كبير من بلاد الغور بطريق خراسان ،
الشافعي ، أحد الحفاظ الكبار ، صاحب التصانيف العديدة ، المتوفى ببستان سنة أربع
وخسين وثلثمائة ، وهو المسمى بالتقاسيم والأنواع في خمسة مجلدات ، وترتيبه مخترع ليس
على الأبواب ولا على المسانيد ، والكشف منه عسر جداً ، وقد رتب بعض المتأخرين على
الأبواب ترتيباً حسناً ، وهو الأمير علاء الدين أبو الحسن علي بن بلبان بن عبد الله الفارسي
الحنفي الفقيه النحوي ، المتوفى بالقاهرة سنة تسع وثلثين وسبعائة ، وبماه (الإحسان في
تقريب صحيح ابن حبان) كما أنه رتب معجم الطبراني الكبير على الأبواب أيضاً ، وصحيح
ابن حبان موجود الآن بتمامه ، بخلاف صحيح ابن خزيمة فقد عدم أكثره كما قال السخاوي .
وقد قيل إن أصح من صنف في الصحيح بعد الشيخين ابن خزيمة فابن حبان .

وقد تحدث الدكتور محمد أديب الصالح في كتابه (لمحات في أصول الحديث) عن ابن
حبان وصحيحه بقوله :

صاحب هذا الصحيح هو : الحافظ أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان البسقي
الشافعي . سمع من كثير : أبو عبد الرحمن النسائي ، وأبو بكر بن خزيمة ، وجعفر بن أحمد
الدمشقي ، وغيرهم من مصر إلى خراسان ، ومن حدث عنه : الحاكم ، ومنصور ، وعبد الله
الخالدي وآخرون . وهو أحد الحفاظ الكبار . قال الخطيب : كان ثقة نبيلاً فهاً ، وله
بجانب (صحيحه) العديد من التصانيف في الحديث والتاريخ ، وله كتاب (الضعفاء)
وقال عنه الحاكم : كان ابن حبان من أوعية العلم في الفقه واللغة والحديث . وقال ياقوت
الحموي : أخرج من علوم الحديث ما عجز عنه غيره .. توفي سنة (٣٥٤) .

وقال المناوي في التعريف به :

محمد بن حبان أبو حاتم التميمي الفقيه الشافعي البستي ، أحد الحفاظ الكبار ، روى عن النسائي وأبي يعلى وابن خزيمة وخلق ، وعنه الحاكم وغيره ، وصنف كتباً نفيسة منها : تاريخ الثقات وتاريخ الضعفاء .

ولي قضاء سمرقند ، وكان رأساً في الحديث ، عالماً بالفقه والكلام والطب والفلسفة والنجوم ، ولهذا امتحن ونسب للزندقة وأمر بقتله ، ثم مات بسمرقند سنة أربع وخمسين وثلثمائة في عشر الثمانين .

وقال عن صحيحه : المسمى بالتقاسيم والأنواع المقدم عندهم على مستدرک الحاكم . قال الحازمي : ابن حبان أمكن في الحديث من الحاكم ، والحاكم أشد تساهلاً منه ، غايته أن ابن حبان يسمي الحسن صحيحاً ، وما اقتضاه كلام التقريب كأصله مما يخالف ذلك رده الزين العراقي بأن ابن حبان شرط تخريج مرويه ثقة غير مدلس سمع من شيخه وسمع منه الآخذ عنه ، ووفى بالتزامه ، ولم يعرف للحاكم ، قال : وصحيح ابن خزيمة أعلى رتبة من صحيح ابن حبان لشدة تحريه ، فأصح من صنف في الصحيح بعد الشيخين ابن خزيمة فابن حبان فالحاكم قال ابن حجر : وذكر ابن حبان في كتابه أنه إنما لم يرتبه ليحفظ ، لأنه لو رتبه ترتيباً سهلاً لآتكل كل من يكون عنده على سهولة الكشف فلا يحفظه ، وإذا توعر طريق الكشف كان أدعى لحفظه ليكون على ذكر من جمعه .

* * *

١٤ - ابن خزيمة وصحيحه

قال صاحب الرسالة المستطرفة :

ومنها - أي كتب السنة - كتب التزم أهلها فيها الصحة من غير ما تقدم من الموطأ والصحيحين ، منها صحيح أبي عبد الله وأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة السامي النيسابوري الشافعي شيخ ابن حبان المتوفى سنة إحدى عشر وثلاثمائة ، ويعرف عند المحدثين بإمام الأئمة .

وقد تحدث الدكتور محمد أديب الصالح في كتابه (لمحات في أصول الحديث) عن ابن خزيمة وصحيحه بقوله :

صاحب هذا الصحيح هو شيخ الإسلام الإمام أبو بكر محمد بن إسحاق (ابن خزيمة) النيسابوري ، سمع من كثيرين مثل : محمود بن غيلان ، وعتبة بن عبد الله اليعمدي ، وأحمد ابن منيع ، وعبد الجبار بن العلاء وطبقتهم ، وانتهت إليه الإمامة والحفظ في عصره بخراسان .

وقد حدث عنه الكثيرون من العلماء ، منهم : محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أحد شيوخه ، وأحمد بن المبارك المستملي ، وأبو علي النيسابوري ، وحدث عنه الشيخان البخاري ومسلم في غير صحيحهما .

ولد رحمه الله سنة (٢٢٣هـ) وتوفي سنة (٣١١هـ) .

إلا أن الكتاب (صحيح ابن خزيمة) غير موجود بتمامه لأن أكثره قد عدم ، علماً بأنه قيل : إنه أصح ما صنف في الصحيح بعد البخاري ومسلم . وهذا الموجود هو في غاية القبول عند العلماء . وإنك واجد في نقول الثقات الكثير من ردة أحاديثهم إليه .

وقد تحدث محقق صحيح ابن خزيمة الدكتور : محمد مصطفى الأعظمي ، في تقديمه لصحيح ابن خزيمة عن ابن خزيمة وصحيحه ، وكان من كلامه :

يعد القرنان الثالث والرابع الهجريان من أنضج قرون الثقافة الإسلامية إنتاجاً ، وما

غرس في القرن الأول على يد الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم أجمعين - وسقي على أيدي التابعين وأتباع التابعين في القرن الثاني ، بدأ يؤتي أكله ناضجاً شهياً في القرنين الثالث والرابع .

في هذا العصر الذهبي ولد إمام الأئمة فقه الآفاق المجتهد المطلق أبو بكر محمد بن إسحاق ابن خزيمة النيسابوري مولى مجشر بن مزاحم ، في شهر صفر سنة ثلاث وعشرين ومائتين بنيسابور .

عني بالحديث منذ حدثته ، وسمع من إسحق بن راهويه المتوفى سنة ٢٣٨هـ ، ومحمد بن حميد المتوفى سنة ٢٣٠هـ ولم يحدث عنها لكونه كتب عنها في صغره وقبل فهمه وتبصره .
رحلاته لطلب العلم :

وعلى سنة الزمان أراد أن يرتحل لسامع الحديث النبوي ، وكان يرغب في الذهاب إلى قتيبة فاستأذن أباه ، فأجابته : (اقرأ القرآن أولاً حتى آذن لك) يقول ابن خزيمة : فاستظهرت القرآن ، فقال لي : امكث أولاً حتى تصلي بالحنطة ، ففعلت ، فلما عیدنا أذن لي ، فخرجت إلى مرو ، وسمعت بمرو الروذ من محمد بن هشام - يعني صاحب هشيم - فنعي إلينا قتيبة . وكانت وفاة قتيبة في سنة أربعين ومائتين .

فعلى هذا بدأ ابن خزيمة رحلاته العلمية وهو في السابعة عشرة من عمره ، وقد اتسعت رحلاته حتى شملت الشرق الإسلامي حينذاك فسمع :

بنيسابور : ابن راهويه وغيره .

وبمرو : علي بن محمد وغيره .

وبالري : محمد بن مهران وغيره .

وبالشام : موسى بن سهل الرملي وغيره .

وبالجزيرة : عبد الجبار بن العلاء وغيره .

- ويعصر : يونس بن عبد الأعلى وغيره .
 وبواسط : محمد بن حرب وغيره .
 وببغداد : محمد بن إسحق الصاغاني وغيره .
 وبالبصرة : نصر بن علي الأزدي الجهضمي وغيره .
 وبالكوفة : أبا كريب محمد بن العلاء الهمداني وغيره .
 كما سمع من البخاري ومسلم بن الحجاج القشيري والذهلي وخلق .

وروى عنه جماعة من مشايخه منهم البخاري ومسلم خارج الصحيحين ، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم شيخه ، ويحيى بن محمد بن صاعد ، وأبو علي النيسابوري وخلائق ، وآخر من روى عنه بنيسابور حفيده أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن إسحق بن خزيمة .

شجاعته الأدبية :

كان ابن خزيمة جريئاً لا يخاف قال أبو بكر بن بالويه : سمعت ابن خزيمة يقول : كنت عند الأمير إسماعيل بن أحمد فحدث عن أبيه . بحديث وهم في إسناده فردته عليه ، فلما خرجت من عنده قال أبو ذر القاضي : قد كنا نعرف أن هذا الحديث خطأ منذ عشرين سنة ، فلم يقدر واحد منا أن يرده عليه ، فقلت له : لا يحل لي أن أسمع حديث رسول الله ﷺ فيه خطأ أو تحريف فلا أردته .

* * *

١٥ - أبو يعلى ومسنده

قال صاحب الرسالة المستطرفة :

ومسند أبي يعلى أحمد بن علي بن المثنى التيمي الموصلي الحافظ المشهور الثقة المتوفى بالموصل سنة سبع وثلاثمائة ، وقد زاد على المائة وعمر وتفرد ورحل الناس إليه ، وله مسندان صغير وكبير . وفيه قال إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الحافظ : قرأت المسانيد كمسند العدني ومسند أبي منيع وهي كالأنهار ، ومسند أبي يعلى كالبحر فيكون مجموع الأنهار .

وقال المناوي في التعريف بأبي يعلى :

الحافظ الثبت محدث الجزيرة أحمد بن علي بن المثنى التيمي ، سمع ابن معين وطبقته ، وعنه ابن حبان والإسماعيلي وغيرهما ، أهل صدق وأمانة وعلم وحلم ، وثقه ابن حبان والحاكم ، ولد سنة عشر ومائتين ومات سنة سبع وثلاثمائة .

* * *

١٦ - أبو بكر البزار ومسنده

قال محمد بن جعفر الكتاني :

ومسند أبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار البصري الحافظ الشهير المتوفى بالرملة سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، وله مسندان الكبير المعلن وهو المسمى (البحر الزاخر) يبين فيه الصحيح من غيره ، قال العراقي : ولم يغفل ذلك إلا قليلاً ، إلا أنه يتكلم في تفرد بعض رواة الحديث ومتابعة غيره عليه .

وحظنا في هذا الكتاب من مسند البزار هو زوائده على الكتب الستة التي أخرجها الهيثمي في (مجمع الزوائد) أو في كتاب (كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة) فنحن في هذا الكتاب نختار منها ما اجتمع فيه شرط الحسن أو الصحة ووافق غرضنا من هذا الكتاب .

قال الهيثمي في تقديمه لكشف الأستار :

وبعد فقد رأيت مسند الإمام أبي بكر البزار المسمى بـ (البحر الزاخر) قد حوى جملة من الفوائد الغزار ، يصعب التوصل إليها على من التمسها ، ويطول ذلك عليه قبل أن يخرجها ، فأردت أن أتبع ما زاد فيه على الكتب الستة ، من حديث بتمامه ، وحديث شاركهم .. وفيه زيادة .

* * *

١٧ - الحاکم ومستدرکه

قال صاحب الرسالة المستطرفة :

وصحيح أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه الحاکم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيّح - بوزن قيم - صاحب التصانيف التي لم يسبق لمثلها ككتاب (الإكليل) وكتاب (المدخل إليه) (وتاريخ نيسابور) (فضائل الشافعي) وغيرها ، المتوفى بنيسابور سنة خمس وأربعائة ، وهو المعروف بـ (المستدرک على الصحيحين) مما لم يذكره وهو على شرطها ، أو شرط أحدهما ، أولاً على شرط واحد منها . وهو متساهل في التصحيح . واتفق الحفاظ على أن تلميذه البيهقي أشدّ تحريماً منه .

وقد لخص مستدرکه هذا الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قیّاز التركاني الفارقي الأصل الذهبي نسبة إلى الذهب كما في النصير الدمشقي الشافعي المتوفى بدمشق سنة ثمان وأربعين وسبعائة ، وتعقب كثيراً منها بالضعف والنكارة أو الوضع ، وقال في بعض كلامه : إن العلماء لا يعتدون بتصحيح الترمذي والحاکم . وذكر له ابن الجوزي في موضوعاته ستين حديثاً أو نحوها . ولكن انتصر له الحفاظ في أكثرها .

وفي التعقبات أنه جرد بعض الحفاظ منه مائة حديث موضوعة في جزء ، ولجلال الدين (توضيح المدرك في تصحيح المستدرک) لم يكل ولخصه أيضاً - أعني المستدرک - برهان الدين الحلبي - وزعم أبو سعد الماليني أنه ليس فيه حديث على شرطها ، وردّه الذهبي بأنه غلو وإسراف ، بل فيه جملة وافرة على شرطها ، وأخرى كبيرة على شرط أحدهما ، ولعل مجموع ذلك نحو نصف الكتاب ، وفيه نحو الربع مما صحّ سنده ، وإن كان فيه علة ، وما بقي فهو مناكير وواهيات لا تصح وفي بعض ذلك موضوعات ، ويقال : إن السبب في التساهل الواقع فيه أنه صنفه أواخر عمره ، وقد حصلت له غفلة وتغير أو أنه لم يتيسر له تحريره وتنقيحه ، ويدل له أن تساهله في قدر الخمس الأول منه قليل جداً بالنسبة لباقيه ، وقد قال الحافظ : وجدت قريباً من نصف الجزء الثاني - من تجزئة ستة من المستدرک - إلى هنا انتهى إملاء الحاکم ، قال : وما عدا ذلك من الكتاب لا يؤخذ عنه إلا بطريق الإجازة ،

والتساهل في القدر الممل قليل جداً بالنسبة إلى ما بعده . وقد قال الحازمي : ابن حبان أمكن في الحديث من الحاكم . وقال العماد ابن كثير : قد التزم ابن خزيمة وابن حبان الصحة وهما خير من المستدرك بكثير وأنظف أسانيد ومتوناً ، وقال غيرهما : صحيح ابن خزيمة أعلى مزية من صحيح ابن حبان وصحيح ابن حبان أعلى من الحاكم ، وهو مقارب للحاكم في التساهل ، لأنه غير متقيد بالمعذلين ، بل ربما يخرج للمجهولين لا سيما ومذهبه إدراج الحسن في الصحيح ، ولكن هذا كله اصطلاح له ولا مُشاحة فيه ، على أن في صحيح ابن خزيمة أيضاً أحاديث محكوم منه بصحتها وهي لا ترتقي عن درجة الحسن ، بل وفيما صححه الترمذي من ذلك أيضاً جملة مع أنه يفرق بين الصحيح والحسن وحينئذ فلا بد من النظر في أحاديث كل ليحكم على كل واحد منه بما يليق به . والله أعلم .

وفي تدريب الراوي :

واعتنى الحافظ أبو عبد الله الحاكم في المستدرك بضبط الزوائد عليها ، مما هو على شرطها أو على شرط أحدهما ، أو صحيح مصحح وإن لم يوجد شرط أحدهما ، وربما أورد فيه مالم يصح عنده منبهاً على ذلك وهو متساهل في التصحيح . وقد لخص الذهبي مستدركه وتعقب كثيراً منه بالضعف والنكارة ، وجمع جزءاً في الأحاديث التي فيه وهي موضوعة فذكر نحو مئة حديث . فما صححه الحاكم ولم نجد فيه لغيره من المعتمدين تصحيحاً ولا تضعيفاً ، حكنا بأنه حسن ، إلا أن يظهر فيه علة توجب ضعفه ، اهـ ملخصاً .

وقد أغنانا عن ذلك الذهبي ، فما أقره عليه فهو صحيح ، وما سكت عنه ولم يتعقبه بشيء فهو كما قال ابن الصلاح : حسن . وقد رأيت العيزي في (شرحه للجامع الصغير) يحتج كثيراً بتقرير الذهبي للحاكم على التصحيح ، فليعلم ذلك . والله أعلم . اهـ .

وقد علق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة على قول صاحب تدريب الراوي : (فما صححه الحاكم ولم نجد فيه لغيره من المعتمدين ...) بقوله :

هذا كلام ابن الصلاح في (مقدمته) ووافقه النووي في (التقرير) وقد انتقده السيوطي في (التدريب) ص ٥٣ فقال عقبه : قال البدر بن جماعة : والصواب أنه يتبع

عليه بما يليق بحاله من الحسن أو الصحة أو الضعف ، ووافقه العراقي وقال : إن حكه أي :
ابن الصلاح - عليه بالحسن فقط تحكم .

قال إلا أن ابن الصلاح قال ذلك بناء على رأيه : أنه قد انتقطع التصحيح في هذه
الأعصار ، فليس لأحد أن يصحح ، فلهذا قطع النظر عن الكشف عليه ، والعجب من
المصنف - أي النووي - كيف وافقه هنا ؟ مع مخالفته له في المسألة المبني عليها .

* * *

١٨ - رزين وابن الأثير وابن الديبع الشيباني والأصول الستة

قال في الرسالة المستطرفة :

والجمع بين الأصول الستة أي : الصحاح الثلاثة التي هي البخاري ومسلم والموطأ ، والسنن الثلاثة وهي سنن أبي داود والترمذي والنسائي ، لأبي الحسن (رزين) بوزن أمير ، ابن معاوية العبدي السرقسطي الأندلسي المالكي ، المتوفى بمكة - بعد ما جاور بها أعواماً - سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ، وهو المسمى بـ (التجريد للصحاح والسنن) ، والجمع بينهما أيضاً لأبي السعادات مجد الدين المبارك بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف (بابن الأثير) الجزري نسبة إلى جزيرة ابن عمر لكونه ولد بها ونشأ بها ، ثم انتقل إلى الموصل وبه توفي سنة ست وستائة ودفن برباطه ، وهو المسمى (جامع الأصول من أحاديث الرسول) على وضع كتاب رزين إلا أن فيه زيادات كثيرة عليه ، في عشرة أجزاء ، واختصره أبو زيد وأبو الضياء حافظ العصر وجيه الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر الشهير (بابن الدُّيُّع) بدال مهملة مفتوحة فياء تحتية ساكنة فياء موحدة مفتوحة أيضاً فعين مهملة آخره ، الشيباني الزبيدي البيني الشافعي المولود بزييد سنة ست وستين وثمانمائة ، والمتوفى ضحى يوم الجمعة سادس عشر رجب سنة أربع وأربعين وقيل سنة خمسين وتسعمائة وهو أحسن مختصراته سماه (تيسير الوصول إلى جامع الأصول) في مجلدين .

وإذن فعندنا ثلاثة كتب :

(تجريد الصحاح والسنن) لرزين ، و (جامع الأصول من أحاديث الرسول) لابن الأثير و (تيسير الوصول إلى جامع الأصول) مبني على كتاب جامع الأصول محاولاً فيه صاحبه الخروج من التكرار وهو لابن الديبع الشيباني ، وأصول هذه الكتب الثلاثة : صحيح البخاري ومسلم وموطأ الإمام مالك وسنن أبي داود والترمذي والنسائي .

قال ابن الأثير في مقدمة كتابه الجامع للأصول :

لما وقفت على هذه الكتب أي الستة ورأيتهما في غاية من الوضع الحسن والترتيب الجميل ، ورأيت كتاب (رزين) هو أكبرها وأعمها ، حيث حوى هذه الكتب الستة التي هي أم كتب الحديث ، وأشهرها في أيدي الناس وبأحاديثها أخذ العلماء واستدل الفقهاء ، وأثبتوا الأحكام ، وشادوا مباني الإسلام .

ومصنفوها أشهر علماء الحديث ، وأكثرهم حفظاً ، وأعرفهم بمواضع الخطأ والصواب ، وإليهم المنتهى ، وعندهم الموقف .

فحينئذ أحبيت أن أشتغل بهذا الكتاب الجامع لهذه الصحاح ، وأعتني بأمره ، ولو بقرائه ونسخه ، فلما تتبعته وجدته - على ما قد تعب فيه - قد أودع أحاديث في أبواب ، غير تلك الأبواب أولى بها ، وكرر فيه أحاديث كثيرة ، وترك أكثر منها .

ثم إنني جمعت بين كتابه وبين الأصول الستة التي ضمنها كتابه ، فرأيت فيها أحاديث كثيرة لم يذكرها في كتابه ، إما للاختصار ، أو لغرض وقع له فأهلها ، ورأيت في كتابه أحاديث كثيرة لم أجدها في الأصول التي قرأتها وسمعتها ونقلتها منها ، وذلك لاختلاف النسخ والطرق ، ورأيت أنه قد اعتمد في ترتيب كتابه على أبواب البخاري ، فذكر بعضها وحذف بعضها .

فناجيتني نفسي أن أهدب كتابه ، وأرتب أبوابه ، وأوطئ مقصده ، وأسهل مطلبه ، وأضيف إليه ما أسقطه من الأصول ، وأتبعه شرح ما في الأحاديث من الغريب والإعراب والمعنى ، وغير ذلك مما يزيده إيضاحاً وبياناً ، فاستصغرت نفسي عن ذلك ، واستعجزتها ، ولم يزل الباعث يقوى والهمة تنازع ، والرغبة تتوفر ، وأنا أعللها بما في ذلك من التعرض للاملام ، والانتصاب للقدح ، والأمن من ذلك جميعه مع الترك ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، فتحققت بلطف الله العزيم ، وصدقت بعونه النية ، وخلصت بتوفيقه الطوية .

فشرعت في الجمع بين هذه الكتب الستة التي أودعها (رزين) - رحمه الله - كتابه ، وصدفت عما فعله ورتبه ، فاعتمدت على الأصول دون كتابه ، واخترت له وضعاً يزيد بيانه حسبما أدى إليه اجتهادي ، وانتهى إليه عرفاني .

لكن ابن الأثير كرر الأحاديث على حسب احتياجات الأبواب إليها ، فخرج كتابه كبيراً واسعاً ؛ لذلك اختصره ابن الديبع في مجلدين . وقد عرف الشيخ عبد القادر الأرناؤوط - محقق كتاب الجامع - على ابن الأثير وكان مما قال :

هو الإمام البارع مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري ، ثم الموصلية المعروف بابن الأثير .

ولد في أحد الربيعين سنة أربع وأربعين وخمسة في جزيرة ابن عمر ، وهي - على ما يقول ياقوت الحموي معاصر المؤلف - بلدة فوق الموصل : بينها ثلاثة أيام ، ونشأ بها وتلقى من علمائها معارفه الأولى ، من تفسير وحديث ونحو ولغة وفقه ، ثم تحول سنة (٥٦٥ هـ) إلى الموصل ، وفيها بدأت معارفه تنضج وثقافته تزداد ، وأقام بها إلى أن توفي .

قرأ الأدب على ناصح الدين أبي محمد سعيد بن المبارك بن الدهان البغدادي ، وأبي بكر يحيى بن سعدون القرطبي ، وأبي الحزم مكي بن الريان بن شبة النحوي الضرير ، وسمع الحديث بالموصل من جماعة منهم خطيب الموصل أبو الفضل عبد الله بن أحمد بن محمد الطوسي ، وقدم بغداد حاجاً فسمع بها من أبي القاسم صاحب ابن الخل ، وعبد الوهاب بن سكينه ، وعاد إلى الموصل فروى بها وحدث وانتفع به الناس .

وصفه من أرخ له بأنه كان من محاسن الزمن ، ذا دين متين ، وطريقة مستقيمة ، عارفاً ، فاضلاً ، ورعاً ، عاقلاً ، سيداً ، مطاعاً ، رئيساً ، مشاوراً ، ذا بر وإحسان . قد جمع بين علم العربية والقرآن والنحو واللغة والحديث والفقه ، وصنف تصانيف مشهورة وألف كتباً مفيدة .

منها : (غريب الحديث) على حروف المعجم ، وهو المعروف بالنهاية ، و (الشافي في شرح مسند الشافعي) و (الإنصاف بين الكشف والكشاف) ، جمع فيه بين تفسيري الثعلبي والزعرري ، و (البديع) في النحو ، و (اباهر في الفروق) في النحو أيضاً ، و (تهذيب فصول ابن الدهان) و (المصطفى المختار من الأدعية والأذكار) و (كتاب لطيف في صناعة الكتابة) وله رسائل في الحساب مجذولات ، وكتاب ديوان رسائله : كتاب البنين

والبنات ، والآباء والأمهات ، والأدواء والذوات ، و (جامع الأصول في أحاديث الرسول) وهو هذا الكتاب . إلى غير ذلك من المؤلفات القيمة والمصنفات النافعة .

قال ياقوت الحموي في (معجم الأدباء) : حدثني أخوه أبو الحسن قال : تولى أخي أبو السعادات الخزانة لسيف الدين الغازي بن مودود بن زنكي ، ثم ولاء ديوان جزيرة ابن عمر وأعمالها ، ثم عاد إلى الموصل ، فنانب في الديوان عند الوزير جلال الدين أبي الحسن علي بن جمال الدين محمد بن منصور الأصبهاني ، ثم اتصل بمجاهد الدين بن قايماز - وكان نائب المملكة - بالموصل أيضاً ، فنال عنده درجة رفيعة ، فلما قبض على مجاهد الدين سنة ٥٨٩هـ اتصل بخدمة أتابك عز الدين مسعود بن مودود إلى أن توفي عز الدين وآل الأمر إلى ولده نور الدين شاه ، فاتصل بخدمته حتى صار واحداً دولته حقيقة ، بحيث إن السلطان كان يقصده في منزله في مهام نفسه ، لأنه أقعد في آخر زمانه ، فكانت الحركة تصعب عليه ، فكان يجيئه بنفسه أو يرسل إليه بدر الدين لؤلؤاً .

وكان قد عرض عليه غير مرة أن يستوزره ، وهو يأبى ، فركب السلطان إليه ، فامتنع أيضاً ، حتى غضب عليه ، فاعتذر إليه وقال له : أنا رجل كبير ، وقد خدمت العلم عربي واشتهر ذلك عني في البلاد ، وأعلم أني لو اجتهدت في إقامة العدل بغاية جهدي ما قدرت أن أؤدي حقه ، ولو ظلم أكار (حراث) في ضيعة من أقصى أعمال السلطان لنسب ظلمه إليّ ، ورجعت أنت وغيرك باللائمة عليّ ، والمملك لا يستقيم إلا بشيء من العسف والظلم ، وأخذ الخلق بالشدة ، وأنا لا أقدر عليه ، ولا يليق بي ، فعذره وأعفاه .

ولما أقعد في آخر عمره ، جاء رجل مغربي فعالجه بدهن صنعه ، فبانت ثمرته ، وتمكن من مدّ رجله ، فقال لأخيه عز الدين أبي الحسن على بن الأثير : أعطه ما يرضيه ، واصرفه ، فقال أخوه : لماذا وقد ظهر النجاح ؟! قال : هو كما تقول ، ولكنني في راحة من صعبة هؤلاء القوم - يعني الأمراء والسلاطين ، وقد سكنت نفسي إلى الانقطاع والدعة ، وبالأمس كنت أذل نفسي بالسعي إليهم ، وهنا في منزلي لا يأتون إليّ إلا في مشورة مهمة ، ولم يبق من العمر إلا القليل ، فدعني أعش باقيه حراً سليماً من الذل ، قال أخوه : قبلت قوله وصرفت الرجل بإحسان .

فلزم بيته صابراً محتسباً ، يقصده العلماء ، ويفد إليه السلاطين والأمراء ، يقبسون من
علمه ، وينهلون من فيضه ، حتى توفي رحمه الله بالموصل سنة ٦٠٦ هـ .

* * *

١٩ - نور الدين الهيثمي وجمع الزوائد

هو علي بن أبي بكر بن سليمان بن أبي بكر بن عمر بن صالح نور الدين أبو الحسن الهيثمي القاهري الشافعي الحافظ ويعرف بالهيثمي . كان أبوه صاحب حانوت بالصحراء ، فولد له هذا في رجب سنة خمس وثلاثين وسبعائة ، ونشأ فقرأ القرآن ، ثم صحب الزين العراقي وهو بالغ ، ولم يفارقه سافراً وحضراً ، حتى مات بحيث حج معه جميع حجاته ، ورحل معه سائر رحلاته ، ورافقه في جميع مسووعه بمصر والقاهرة والحرمين وبيت المقدس ودمشق وبلبلبك وحلب وحماة وطرابلس وغيرها ، وربما سمع الزين بقرائه ، ولم ينفرد عنه الزين بغير ابن البابا ، والتقي السبكي وابن شاهد الجيش . كما أن صاحب الترجمة لم ينفرد عنه بغير صحيح مسلم على ابن عبد الهادي .

ومن سمع عليه سوى ابن عبد الهادي : الميديمي ومحمد بن إسماعيل بن الملوك ومحمد بن عبد الله النعماني وأحمد بن الرصدي وابن القطرواني والعرضي ومظفر الدين محمد بن محمد بن يحيى العطار وابن الخباز وابن الحموي وابن قيم الضيائية وأحمد بن عبد الرحمن المرداوي ، فما سمعه على المظفر : صحيح البخاري ، وعلى ابن الخباز : صحيح مسلم ، وعليه وعلى العرضي : مسند أحمد ، وعلى العرضي والميديمي : سنن أبي داود ، وعلى الميديمي وابن الخباز : جزء ابن عرفة .

وهو مكثراً سمعاً وشيوخاً ، ولم يكن الزين يعتمد في شيء من أموره إلا عليه حتى إنه أرسله مع ولده الولي لما ارتحل بنفسه إلى دمشق ، وزوجه ابنته خديجة ، ورزق منها عدة أولاد .

وكان عجباً في الدين والتقوى والزهد والإقبال على العلم والعبادة والأوراد وخدمة الشيخ وعدم مخالطة الناس في شيء من الأمور ، والمحبة في الحديث وأهله . وحدث بالكثير رفيقاً للزين بل قل أن حدث الزين بشيء إلا وهو معه ، وكذلك قل أن حدث هو بمفرده ، لكنهم بعد وفاة الشيخ أكثروا عنه ، ومع ذلك فلم يغير حاله ولا تصدر ولا تمشيخ ، وكان مع كونه شريكاً للشيخ يكتب عنه الأمالي بحيث كتب عنه جميعها وربما استلى عليه ،

ويحدث بذلك عن الشيخ لا عن نفسه إلا لمن ضايقه .

ولم يزل على طريقه حتى مات في ليلة الثلاثاء تاسع عشر من رمضان سنة سبع وثمانائة ، بالقاهرة ودفن من الغد ، خارج باب البرقية منها ، رحمه الله وإيانا . اهـ .

قال الهيثي في مقدمته على مجمع الزوائد :

وبعد فقد كنت جمعت زوائد مسند الإمام أحمد وأبي يعلى الموصلي وأبي بكر البزار ومعاجم الطبراني الثلاثة - رضي الله تعالى عن مؤلفيهم وأرضاهم وجعل الجنة مثوانهم - كل واحد منها في تصنيف مستقل - ما خلا المعجم الأوسط والصغير فإنها في تصنيف واحد - فقال لي سيدي وشيخي العلامة شيخ الحفاظ بالمشرق والمغرب ومفيد الكبار ومن دونهم الشيخ زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن العراقي - رضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مثوانا ومثواه - : اجمع هذه التصانيف واحذف أسانيدھا لكي يجتمع أحاديث كل باب منها في باب واحد من هذا ، فلما رأيت إشارته إليّ بذلك صرفت همي إليه ، وسألت الله تعالى تسهيله والإعانة عليه ، وأسأل الله تعالى النفع به إنه قريب مجيب .

قال صاحب الرسالة المستطرفة :

و(غاية المقصد في زوائد المسند) - أي مسند أحمد - على الكتب الستة ، للحافظ نور الدين أبي الحسن علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثي بالثناء المثلثة ، وأما أحمد بن حجر الهيثي ، فقال الأمير في ثبته « بالثناء الفوقية نسبة للهياتم من قرى مصر » الشافعي المصري المتوفى بالقاهرة سنة سبع وثمانائة وهو رفيق أبي الفضل العراقي في سماع الحديث وصهره وتلميذه ، وهو الذي أشار عليه بجمع الزوائد المذكورة وهي في مجلدين ، وله أيضاً زوائد مسند البزار على الكتب الستة وسماها « البحر الزخار في زوائد مسند البزار » في مجلد ضخم ، وزوائد مسند أبي يعلى الموصلي عليها أيضاً في مجلد ، وزوائد المعجم الكبير للطبراني عليها أيضاً ، وسماها (البدر المنير في زوائد المعجم الكبير) في ثلاثة مجلدات ، وزوائد المعجم الأوسط والصغير له عليها أيضاً وسماها (مجمع البحرين في زوائد المعجمين) في مجلدين ، ثم جمع الزوائد الستة المذكورة كلها في كتاب واحد محذوف الأسانيد مع الكلام عليها بالصحة

والحسن والضعف ، وما في بعض روايتها من الجرح والتعديل ، وسماه (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد) وهو في ست مجلدات كبار ويوجد في ثمان مجلدات وأكثر وهو من أنفع كتب الحديث ، بل لم يوجد مثله كتاب ، ولا صنف نظيره في هذا الباب .

* * *

٢٠ - محمد بن محمد بن سليمان المغربي وكتابه جمع الفوائد

قال صاحب الرسالة المستطرفة :

وللشيخ الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن محمد بن سليمان المغربي الروداني ، صاحب (صلة الخلف بموصول السلف) المتوفى سنة أربع وتسعين وألف ، ودفن بسفح جبل قاسيون من دمشق الشام ، كتاب (جمع الفوائد من جامع الأصول وجمع الزوائد) اشتمل على الصحيحين والموطأ والسنن الأربعة ومسند الدارمي ومسند أحمد ومسند أبي يعلى ومسند البزار ومعاجم الطبراني الثلاثة .

وقد تحدث الشيخ محمد بن محمد في مقدمة كتابه عن كتابه فقال :

فهذا (جمع الفوائد من جامع الأصول وجمع الزوائد) .

(الأول) للإمام محمد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري الموصلي - رحمه الله - جمع فيه ما في تجريد رزين بن معاوية للأصول الستة ، بإبدال ابن ماجه بالموطأ ، وما نقصه رزين منها ، وعزا كل حديث إلى مخرجه سوى ما زاده - أعني ما في تجريد رزين - ولم يجده ابن الأثير في الأصول الستة ، فإنه يئض له مكاناً حتى إذا عثر على مخرجه عزاه إليه فيه ، ورتبه على ترتيب بديع ، لكن لغموض دقة وضعه واتساع حجمه في جمعه ؛ قل أن ينتفع به إلا ذو فكرة ذاكية وحافظة واعية .

(وأما الثاني) للحافظ نور الدين أبي الحسن علي بن أبي بكر ابن سليمان الهيثمي - رحمه الله - جمع فيه ما في مسند الإمام أحمد وأبي يعلى الموصلي وأبي بكر البزار ومعاجم الطبراني الثلاثة من الأحاديث الزائدة على ما في الأصول الستة يجعل ابن ماجه ههنا دون الموطأ وعقب كل حديث بالكلام على رواته تعديلاً وتجريحاً ، فجاء حجمه في ست مجلدات يتناهر بجامع الأصول ، فتجشمت هذا الجمع منها لضيق وسعي عن الإحاطة بكل ما فيها ، فاقترض الجمع أن أضيف إليهما سنن ابن ماجه ، لكن لكون جامع الأصول أخرجه من الستة فلم يذكر

ما فيه ، وكون مجمع الزوائد أدخله فلم يذكر زوائده ، لم يحسن مني أن أضيف كله إلى الجامع أو زوائده إلى المجمع لأن ذلك كجبر لأحدهما على خلاف مراده ، فلهذا أفردت زوائده وعزوتها إليه ، ولما كان اختلاف القوم في سادس الستة أهو ابن ماجه أو الموطأ أو مسند الدارمي ؟ راعيت هذا الخلاف ، فأضفت لذلك أيضاً زوائد الدارمي مفردة ، إلا أن يتفق مع ابن ماجه فأجمعهما ، وتكلمت على رجالهما تجريحاً وتعديلاً بما في الكاشف للذهبي وتهذيب التهذيب والتقريب للحافظ ابن حجر وغيرها ، ورتبته على ترتيب أصوله لكونه مألّف طبيعي دون ترتيب الجامع ، وأينا عثرت على حديث مكرر عندهم في أبواب أثبتته في أليق تلك الأبواب به وحذفته في غيرها ، إلا لفائدة أو غفلة مني كما فعل مسلم - رحمه الله - وأينا ورد في حكم أو معنى حديثان فأكثر أو روايتا حديث فأكثر ، فإني أقتصر فيه على ما هو أكثر فائدة من تلك الأحاديث أو الروايات ، وأحذف غيره إلا إن اشتل على زيادة ، فإني أخلص منه تلك الزيادة ، أو أذكر كله ، والحديث الذي تعدد من أخرجه أذكره بلفظ أحدهم وسياقه ثم تارة أذكر من له اللفظ وتارة لا أذكره .

أقول : وقد جعلت كتاب محمد بن محمد بن سليمان أنيساً لي ، ودليلاً في عملي ، فقد اجتمع فيه ما تفرق في غيره ، بل وجدت فيه الكثير مما يحقق مقاصد كتابنا هذا ، ولولا أنني أستهدف أكثر مما استهدف ، وأريد أكثر مما أريد لاكتفيت بخدمة كتابه ، ولكن حاجة عصرنا أوسع ، فتطلعت إلى التأليف المستقل فكان هذا الكتاب ، الذي أرجو أن يكون قد انصبت فيه كل هذه الجهود التي خدمت السنة النبوية ، كما أرجو أن أكون قد وفقت لاستخلاص جناها وعبيرها ، ورصف جواهرها ، وإحكام البناء والزخرفة من لبنات ذهبها . وها نحن أولاء نسلمك للقسم الأول من هذا الكتاب .

* * *

القِسم الأول

في

السَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ

وَيُشَمِّلُ عَلَى:

مَقْدَمَةٌ وَسِتَّةُ أَبْوَابٍ

الباب الأول : من البدء حتى النبوة الشريفة

الباب الثاني : من البعثة حتى الاستقرار في المدينة

الباب الثالث : من الاستقرار في المدينة حتى الوفاة

الباب الرابع : في الصفات والخصائص والسمائل

الباب الخامس : في معجزات الرسول ﷺ

الباب السادس : دواشرف حول الرسول ﷺ

المقدمة

السيرة النبوية - في الأصل - هي الكتاب والسنة ، إنك لا تعرف رسول الله ﷺ إلا إذا عرفت الكتاب الذي أنزل عليه ، وعرفت مجموع أقواله وأفعاله وصفاته وتقريراته ، وتلك هي سنته .

لقد كان خلق رسول الله ﷺ القرآن ، ولقد كان القرآن نفسه سجلاً لأهم الأحداث في حياته - عليه الصلاة والسلام - فمن هنا قلنا إن القرآن سيرته ، وإن أقواله وأفعاله وصفاته وتقريراته هي سيرته ، ومن ثم فإن هذا الكتاب وكتاب الأساس في التفسير من سلسلة في المنهج هما في سيرته .

وبهذا المعنى تقول : إن السيرة النبوية تسع الزمان والمكان والأشخاص فهي منهج متكامل متجدد ، فما من وضع للإنسان وللناس وللمكلفين إلا والسيرة النبوية تسعه قدوة وعلاً ملاحظاً في ذلك أحوال الناس جميعاً من ضعف إلى قوة ، وما دام الإنسان على مقتضى الفتوى فإنه على نوع من القدوة .

على أن كتاب السيرة درجوا على أن يرسموا صورة لشخصه ومسرى لأحداث حياته - عليه الصلاة والسلام - ومن هنا أصبحت السيرة في الاصطلاح جزءاً من كل ، وأصبحت علماً على علم خاص أشبه بالتاريخ الشخصي وما يحيط به .

ولهذا جعلنا الكلام عن سيرته - عليه الصلاة والسلام - قسماً من أقسام هذا الكتاب .

وقد أدخلنا في هذا القسم ما هو الصق بالسيرة الذاتية ، وما فاتنا ذكره هنا مما هو الصق بموضوعات أخرى يجده القارئ في بقية الأقسام .

وكما توضع حول أي موضوع من موضوعات الكتاب والسنة دراسات وتحقيقات وأصبح لكثير من الموضوعات مختصون ومحققون ، فكذلك هذا القسم من السنة النبوية ، فكما وجد في الفقه وفي التوحيد وفي التفسير أئمة ، فقد وجد في السيرة أئمة ، من أمثال ابن إسحق وموسى بن عقبة والواقدي ، وغيرهم كثير .

وهناك فارق بين المحدث وكاتب السيرة ، كالفارق بين المحدث والفقهاء ، كالفارق بين المنقّب عن الآثار والمؤرخ . فالمنقّب عن الآثار مهمته : أن يعثر على الأثر وأن يُقدّم دراسة عنه ، ولكن مهمة المؤرخ : أن يستفيد من هذا الأثر وغيره ليقدم صورة متكاملة عن حدث أو مرحلة ، أو يقدم نظرية متكاملة في مسرى الأمور . والفارق بين المحدث والفقهاء : أن المحدث مهمته : جمع الروايات وتحقيقها ، وهو لا يدخل في حسابها ما زاد على ذلك من التتبع للنصوص القرآنية ، أو البحث في محلّ هذه الروايات بالنسبة لبناء الشريعة ، أما الفقهاء فهمته : رؤية كل ما ورد من كتاب أو سنة في موضوع ما ، وإذا كانت هناك مسائل تحتاج إلى جواب وليس في النصوص الصحيحة والقرآن جواب واضح عليها فعليه أن يبحث عن الجواب من خلال قياس أو إجماع أو روايات ضعيفة يسندها قياس أو استئناس بروح الشريعة إلى غير ذلك ، قلّ مثل هذا في الفارق بين المحدث وكاتب السيرة ، فكاتب السيرة محدّث وزيادة ، فهو من حيثية كونه محدثاً عليه أن يروي وأن يجمع الروايات وأن يحصّها وأن ينتقد الرواة وأن يقارن بين المرويات ، ولكنه ككاتب سيرة له مهمة زائدة : أن ينظر في هذه الروايات على ضوء النصوص القرآنية ، وما كان له أصل صحيح وليس فيه تفصيلات فعليه أن يبحث عن هذه التفصيلات ، وإذا كان هناك تعارض بين الروايات فعليه أن يرجح ، وإذا كانت هناك فجوة في تسلسل الأحداث فعليه أن يبحث ليلأها ، وقد يملؤها من خلال استقراء أو استنتاج أو من خلال روايات ضعيفة ، وأحياناً من خلال روايات وصلته دون إسناد ، فهو من هذه الحيثية محقق ومؤرخ بل قد يكون مجتهداً .

وكما يختلف الفقهاء في النهاية فقد يختلف محققو السيرة في النهاية . وفي حالة الاتفاق أو الاختلاف فهناك صور لا يترتب عليها عمل ، سواء اتفقوا أو اختلفوا كالقضايا التاريخية البحتة ، فمثلاً : ما هي مدة فترة الوحي التي حدثت بين نزول قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ .. ﴾ من سورة العلق ، وبين نزول سورة (المدثر) ؟ لا يترتب على المعرفة التفصيلية هنا عمل ، وإن كان بعض علماء التربية قد يستفيد منها نوع فائدة .

وهناك قضايا يترتب عليها عمل ، ولاتفاق المحققين أو اختلافهم تأثير ، فمثلاً : المعاهدات التي عقدها رسول الله - ﷺ - أول استقراره في المدينة مع غير المسلمين ، هذه

المعاهدات تعتبر سوابق دستورية للحركة الإسلامية في تعاملها مع الآخرين إذا لم تكن منسوخة ، نفرض أن هذه المعاهدات نقلت لنا على طريقة المحدثين ، وسندها صحيح أو حسن ، فالأمر في هذه الحالة واضح ، إذ تأخذ هذه الروايات محلها من أصول الأحكام فحكمها حكم السنة النبوية المعتمدة . ولكن لنفرض أن هذه الروايات لم تبلغ هذا المستوى وأجمع عليها كُتَّابُ السَّيَرِ المعتمدون وأئمة هذه الشأن أو اختلفوا ، فهل هذه الروايات لا قيمة لها أبداً ؟ الذي أذهب إليه أن هذه الروايات إذا لم يكن لها معارض ، وكان لها أصل صحيح ترجع إليه ، لا تنزل عن أن تكون مذهباً لصاحبها ، فإذا كان صاحبها إماماً أو مرجعاً في هذه الشأن صح تقليده ، وللمسلمين أن يبنوا على مثل هذه الروايات ، والحجبة في هذه الحالة لا من حيث إن ما ورد تقوم به الحجة سنداً ، لكن من حيث إن من رواه يعتبره جزءاً من السيرة ، ويعتبره أهلاً للبناء عليه .

واحتراساً أقول : ليس كل إنسان مرشحاً لأن يفتي بناء على ذلك .

إنني أذهب إلى مثل هذا في كتب التراث ، فمن كان من أئمة شأن من الشؤون ، وقد وصل إلى أن يكون مرجعاً فيه ، وليس متهماً في عقيدته أو ورعه أو علمه ، فإن للمسلم أن يعتمد تحقيقه ، وأن يبني عليه ، قل مثل هذا في كتب الحديث أو التفسير أو الفقه أو السيرة الصادرة عن الراسخين في العلم .

وإنما أوردنا هذه المعاني حتى لا يظن ظان أن كتب السيرة وكتب الحديث يحرم النظر فيها إلا إذا كانت محققة على الأصول الفنية التي هي محل اجتهاد ، فذلك باب لو أغلقناه ينسد به باب القراءة للتراث كله ، وهذا مخالف للإجماع ، فما أحد من أهل العلم في تاريخ هذه الأمة قال : يحرم على المسلم أن يقرأ سيرة ابن هشام أو مسند الإمام أحمد أو سنن الترمذي .

وكذلك أوردنا هذه المعاني هنا للتقديم لعملنا في هذا القسم ، فعملنا في هذا القسم أن نذكر الروايات الصحيحة والحسنة الواردة في سيرته - عليه الصلاة والسلام - في أصول هذا الكتاب وقد نذكر ما صح أو حسن من غير هذه الأصول مع الخدمة التي وعدنا بها ، وتحقيق الأغراض التي استهدفناها ، ولكننا في الوقت نفسه نقل خلاصات من أقوال المحققين

من أئمة أهل السير والمغازي ، فما ننقله عن هؤلاء لا ينزل في رأينا عن أن يكون مذهباً لصاحبه ، ونحن مضطرون لذلك لأنه إذا لم نفعله فإن قارئ هذا القسم سيخرج بفوائد أقل ، وقد التزمنا في كتابنا هذا أن ننقل في كل بحث تحقيقات أهل الاختصاص فيه ، ولا نجب أن نخل بهذا الالتزام في هذا القسم أو غيره .

* * *

وإنما جعلنا هذا القسم مقدمة وستة أبواب ، لأننا حريصون على تصحيح مفاهيم وترسيخ أخرى حول السيرة ، فاخترنا أن يكون هذا في المقدمة ، واعتمدنا الأبواب الستة - كما سنعرضها - كشيء لا بد منه لتكامل العرض .

فالمراحل الرئيسية في حياة رسول الله ﷺ ثلاثة : ما قبل البعثة ، ثم ما بعد البعثة حتى الاستقرار في المدينة ، ثم من الهجرة حتى الوفاة ؛ فهذه ثلاثة أبواب .

وهناك دائرتان لا بد من الحديث عنها لتكامل الصورة : دائرة آل بيته وفيهم أزواجه ، ودائرة أصحابه ومنهم خلفاؤه ، فهؤلاء الذين حملوا الراية ، وتابعوا مرحلة التأسيس فأصبحت الأبواب أربعة .

ومعرفة صفاته وشأله وخصائصه جزء من سيرته ، والتعرف على معجزاته طريق الإيمان به فتبَّت الأبواب بذلك ستة ، وما سيأتي في بقية أقسام هذا الكتاب يكل صورة ما فات ، فهذه الموضوعات هي الألق بالسيرة .

* * *

تصحيح مفاهيم حول السيرة :

إن هذه المقدمة قد خصصناها لتصحيح مفاهيم ولترسيخ أخرى ، والمفاهيم الخاطئة في موضوع السيرة نوعان : فمنها أخطاء عند بعض الإسلاميين ، ومنها مفاهيم خاطئة أو قاصرة عند الكافرين . ألا إن هناك أغلاطاً في شأن السيرة النبوية ، بعضها ناشئ عن جهل بكالات السيرة النبوية ، وبعضها ناشئ عن القصور في تصور أصول التشريع الإسلامي

وكيفية انبثاق الأحكام عنها ، ومحل السيرة النبوية - في الاصطلاح - منها .

وقد وجدت أن كثيراً من المفاهيم التي أحب تصحيحها أو ترسيخها ، وكثيراً من الأغلاط التي أُرغب في تصويبها ، قد تعرّض لها الشيخ سليمان الندوي - رحمه الله - في محاضراته الثمان التي خرجت باسم (الرسالة المحمدية) ، بل إن المعاني التي ذكرها لا يستغني عنها قارئ للسيرة النبوية في عصرنا ، ولذلك فإنني سأعطيك تصوراً عن بعض ما ذكره في هذه المحاضرات ، ثم أنطلق بعد ذلك في المقدمة مكملاً ما أردت لها من أغراض .

* * *

إن سيرة النبي ﷺ حلقة من سلسلة النبوات والرسالات ، وللنبوة والرسالة خصائصها وميزاتها ، وسيرة النبي ﷺ مع اشتراكها في خصائص النبوات والرسالات لها خصائصها وسماتها الخاصة ، ومحاضرات الشيخ سليمان الندوي الثمان كانت في هذه الشؤون ، فقد أبرز المؤلف في محاضراته الأولى أهمية رسالات الله في الحياة البشرية ، وأن الرسل وخدمهم - عليهم الصلاة والسلام - هم الهداة الحقيقيون بالدعوة والقُدوة لكن هؤلاء الرسل باستثناء محمد ﷺ لم يصلنا عنهم ما يغطي احتياجات البشر في الهداية والقُدوة ، ولذلك حكته ، فمحمد ﷺ هو الرسول الخاتم ورسالته هي الرسالة الخاتمة ولذلك اجتمع لها أربعة شروط لا بد منها لسيرة القُدوة والهادي: التاريخية، والشمول، والكمال، والواقعية العملية. وهذا هو محور المحاضرة الثانية. ثم جاءت المحاضرات الأربع التالية لتفصل في كل شرط من هذه الشروط وكيف أنه موجود على التام في سيرة رسول الله ﷺ ، حتى إذا وصل إلى المحاضرة السابعة تحدث عن أن سيرة النبي ﷺ التي تجمعت فيها كل شروط القُدوة والهداية ينبغي أن تهدي بها الأمم ، لأنها موجهة إلى الأمم جميعها ، ولأن الأمم كلها بحاجة إليها ، ثم تأتي المحاضرة الثامنة لتذكر بعض أيادي الرسالة المحمدية على البشرية ، وفيها تأكيد لضرورة اهتداء البشرية برسالة محمد ﷺ كما فيها تعدد لجوانب كثيرة في هذه الرسالة وأنها هي الدواء والبلسم لأصعب أمراض الأمم القديمة والمعاصرة .

هذا هو الخط العريض لهذه المحاضرات ، وكَم فيها من معاني عظيمة ، وكنوز راقية ، وكَم قُندت فيها أخطاء وشبهات ، لذلك أجدني أسير النقل عنها في هذه المقدمة شعوراً مني بأن ذلك يخدم أغراضها .

(١)

حاجة البشرية إلى الدين

إن أعظم احتياجات البشر على الإطلاق هي حاجتهم إلى دين ، يعطيهم تصورات صحيحة ، ويطلق طاقاتهم في طريق مستقيم وسلوك قويم ، والرسل من بين خلق الله تعالى هم الذين قَدّموا للبشرية ذلك من خلال الدعوة والقُدوة ، أما من سواهم من أمراء وملوك وشعراء وأدباء وغير ذلك ممن ليسوا على قدم الأنبياء فهؤلاء مهما أعطوا البشرية فإنهم يعطونها ما هو دون الاحتياج الأعظم ، بل هم يضلونها ويعذبونها ، وفي كل الأحوال فهم لا يشكّلون القدوة الرفيعة للإنسانية الجديرة بالاحترام .

هذا هو المحور الرئيسي للمحاضرة الأولى التي سار فيها المؤلف على الترتيب التالي :

أ - الحديث عن مكانة الإنسان في هذا الكون ، ومحلّه في تسلسل مراتب الكمال الحيّاتي ، وأنه أُعطيَ استعداداً للكمالات فاقت ما أُعطيّه كل مخلوق ، وقد سخر الله له المخلوقات كلها .

ب - هذا الإنسان عنده استعداد للعدل والعلم كما أن عنده استعداداً للظلم والجهل ، وهو بدون هداية الأنبياء يغلب عليه الظلم والجهل ، بينما تجعله هداية الأنبياء سائراً في طريق العدل والعلم ، والبشرية لم يزل مستقرّاً في ضميرها حب العلم والعدل ، ولذلك فقد استقر في ضميرها تقديس الأنبياء والرسل ، وازدراء الظالمين والجاهلين .

ج - وإذا كان الرسل والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - هم الذين دعوا بالحوال والمقال إلى العدل والعلم ، فقد استقامت بهم الحياة ، وتحقق بهم فلاح الإنسان وصلاحه وسعادته ، بينما نجد غيرهم في تاريخ البشرية قد لمعت أسماؤهم ، ولكن من منهم ترك لمن أتى بعده أسوة

يتأسى بها في تعميم الخير ؟ ومن منهم إذا اهتدى الناس بهديه ينجون من المهالك ويسلكون سبيل السعادة والهناء ؟ ومن من هؤلاء من استعملوا سيوفهم البواتر في قطع حبال العقائد الفاسدة ، وتحليل العقول من الأوهام الواهية والأفكار الباطلة ؟ ومن منهم من وقف حياته على حل معضلات بني آدم ، وكان حريصاً على عقد أواصر الإخاء بينهم على الحق والتواصي بالخير ؟ وهل يوجد في حياة من ذكرنا من هؤلاء العظماء ما يستعين به بنو الإنسان على تخفيف ما يعانونه من الغمرات في حياتهم الاجتماعية ؟ أم في أخلاقهم وأعمالهم ما ييسر للإنسانية الشفاء من أمراضها الخلقية وأوصابها النفسية ؟ أم في دعوتهم ما يجلو صدأ القلوب ورينها ، أو يرتق فتقاً في الحياة الاجتماعية ؟

وقد تحدث المؤلف حديثاً مستفيضاً عن أصناف من الأعلام شعراء وكتاب وقانونيين واجتماعيين وأمراء وملوك ، وأقام الدليل على أن هؤلاء ليسوا في منصب الإصلاح الحقيقي ، مهما كان شأنهم إذا قورنوا بالأنبياء .

ثم تحدث عن الأنبياء والمرسلين الذين لم يترك الله أمة إلا وقد أرسل لها طائفة منهم وأن كل لمعة خير في قلب أو في أمة إنما هي بقايا فطرة وأثر دعوة نبي .

وبعد أن يقارن بين آثار الملوك والجبابة وبين آثار الأنبياء ، وبين ما تجيش به العواطف والقلوب نحو الأنبياء ، وبين تأثيرات الملوك على القلوب والعواطف ، يقول :

أظنكم قد استعتم لما ألقى عليكم من الأدلة العقلية والبراهين التاريخية ، وإخالها قد تركت فيكم أثراً أورث في قلوبكم يقيناً بأنه لم تكن طائفة من الناس أصلحت من فساد الأخلاق ، وقومت من عوجها ، وهذبت النفوس ، وهدتها من ضلال ، مثل الذي قام به الأنبياء عليهم السلام ، فهم الذين أصلحو الحياة الاجتماعية ، وعلموا الناس الاقتصاد في المعيشة ، والاعتدال في كل شيء ، وهم الذين أقاموا العدل في الدنيا ، وحكموا بالقسط بين الناس ، وزكّوا القلوب ، وأخذوا بيد الإنسانية إلى الحق والخير وأتقنوها من حمة الرذائل ، وأن الله سبحانه قد بعثهم ليخرجوا الناس من الظلمات - ظلمات العقائد ، وظلمات الأخلاق ، وظلمات الأعمال - إلى النور - نور الإيمان ، ونور الخلق الكريم ، ونور العمل

الصالح - ، وتركوا بعد سنة للناس يتبعها السوق ويعمل بها الملوك ، وينتفع بها صغار الناس وكبارهم ، ويتمتع بخيرات الأغنياء والبؤساء على السواء ، وإن مثل الأسوة بهم كمثل عين ثرة فياضة تروي البلاد وتسقي العباد ، يشرب منها كل عطشان بقدر حاجته ، ويرتوي بمائها العذب الزلال كل ظمآن فينقع غلته .

وبعد ذلك يتحدث عن أعلام الأنبياء في القرآن ، ويذكر المعالم الكبرى لشخصية كل نبي ، وأن مجموع هذه المعالم هي التي تحتاجها الحياة البشرية .

ثم تحدث عن دور البناء جميعاً في الحياة البشرية من مهندسين وأطباء وحكّاء وأنصف الجميع ، ثم برهن على أن ذلك كله بالنسبة لاحتياجات البشرية هو الجانب الأدنى إذا قورن باحتياجات البشر إلى هداية الأنبياء .

وبعد هذا خلص إلى الحديث عن الدعوة والقُدوة في حياة الأنبياء ، وكألمها وتكاملها ، وذلك هو المظهر الأرقى للرشد والإرشاد في حياة البشرية .

تلك هي بعض معالم المحاضرة الأولى التي بينت عظم الفضل وعظيم العمل الذي قام به الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فَطَوَّقُوا جَيِّدَ الْبَشَرِيَّةِ بِالْمِنَّةِ .

* * *

(٢)

محمد الرسول الأكمل ﷺ

ومن بين الرسل جميعاً يظهر محمد ﷺ كأكمل رسول ، وهو من بين الرسل جميعاً تصلنا دعوته مفصلة وسيرته كاملة ، ولذلك فهو الذي يمكن أن يهتدى بهديه اهتداءً كاملاً ، ويُقتدى بسيرته اقتداءً كاملاً ، لأنه من بين الأنبياء كانت سيرته ورسالته تجتمع فيها : التاريخية والشمولية والكيال والعملية ، عدا عن كون رسالته هي الرسالة الخاتمة والناسخة ، وهي التكليف الرباني الذي لا يقبل الله غيره ، ولكنها كذلك جعلها الله على ما ذكرنا .

هذا هو محور المحاضرة الثانية :

إنَّ لكلَّ رسول ميزة وخصيصة ، ومحمد ﷺ من بين الرسل تجمعت فيه الميزات والخصائص جميعها على كآلها وتماها ، ولكل رسول إضاءته وتبشيره وإنذاره ودعوته ، ومحمد ﷺ من بين الرسل الشمس المنيرة والبشير الأعظم والمنذر الأكبر والداعية الأجل ، فهو النبي الجامع محمد ﷺ لأنه بعث ليختم الله به النبيين والنبوات ، فأعطي الرسالة الأخيرة ليلفها إلى البشر كافة ، فجاء بالشريعة الكاملة التي لا يحتاج البشر معها إلى غيرها ، ولم تنزل من السماء إلى الأرض شريعة على قلب بشر بعد هذه الشريعة ، لقد حظيت التعاليم المحمدية بالخلود ، واختصت بالبقاء والدوام إلى يوم القيامة ، فكانت نفس محمد ﷺ جامعة لجميع الأخلاق العالية والعادات السنية ، وقد بعث ليتم مكارم الأخلاق .

ثم يأتي بالأدلة والبراهين على ذلك ، وأول برهان على ذلك : أن سيرته وشريعته باقيتان خالدتان معروفتان .

ثم يتحدث عن أشهر الديانات المعروفة : الهندوسية والبوذية والكونفوشيوسية والزرادشتية واليهودية والمسيحية ، ليقم الدليل على أن المنقول منها لا يغطي احتياجات البشرية في الهداية ولا في القدوة .

يقول المؤلف :

إنه ليس في مئات الألوف من المصلحين والنبيين من يشهد لهم التاريخ إلا ثلاثة أو أربعة ، ومع ذلك فإن التاريخ لا يعرف من تفاصيل أحوالهم وشؤون حياتهم ودخائل سيرتهم إلا نزراً يسيراً وغير كامل ، فكيف يتسنى للإنسان أن يتخذ من ذلك أسوة لحياته ذات النواحي المختلفة ؟ .

وأخذ يضرب الأمثلة في البرهان على ذلك من خلال ما يعرفه الناس عن بوذا وزرادشت وموسى وعيسى ، مع البرهان على أن هذه المعلومات - كما وردت عن أهلها - لا تشكل روايات ثابتة ، ويخلص بالتالي إلى أن كل ما تعرفه البشرية عن الأنبياء السابقين عن طريق أتباعهم لا تجتمع فيه شروط التاريخية أو الواقعية أو الشمولية أو الجمع لكل ما يلزم الإنسان وهي شروط الاهتداء والاقتداء . ثم إن هذه الديانات نفسها على حسب ما

تقلت لنا ليس فيها ما يتفق مع الفطرة البشرية ، إن في شأن الربوبية أو في شأن السلوك أو في شأن العمران ، فعدا عن قصورها فإن فيها انحرافاً وضلالاً وخراباً ، فبعض هذه الديانات ليس لله فيها ذكر كالديانة البوذية والصينية ، وبعضها ليس في أصولها المنقولة تفصيل عن طبيعة العلاقة مع الله كالديانة اليهودية والمسيحية ، وفي التعامل بين بني الإنسان لا تجد تفصيلاً شاملاً بل نجد قصوراً وأخطاءً فطرية ، ولو طبقت هذه الأديان حرفياً كما وصلت إلينا لترتب على ذلك خراب العالم وشقاء الإنسان .

يقول المؤلف :

لم تكن سيرة بوذا قط أسوة للهناء العائلي ، ولا لأهل الصناعات والمتاجر ، ولو اتخذ أتباع بوذا قدوة لهم من حياة بوذا لما قامت لهم هذه الدول في الصين واليابان وسيام وتبت وبرما ، ولما عمرت للتجارة في بلادهم سوق ، ولا دبّت الحياة في صناعاتهم ومصانعهم ، ولو اختار أهل تلك البلاد سيرة متبوعهم سيرة لهم وساروا عليها لأقفرّت الأرض العامرة وتحولت إلى صحاري قاحلة ، ولأصبحت المدن خراباً أو أرضاً جرداء .

ولو أن الناس في أيامنا هذه آثروا التأسّي بحياة عيسى - عليه السلام - وأرادوا أن يعيشوا كما عاش ، لحربت الدنيا واستحال عمرانها خراباً يباباً ، ولأصبحت القرى مقابر تتردد في أنحائها أصوات البوم ، أما الحضارة وتقدمها فسرعان ما يعتريها الزوال ويمحى اسمها ، وأوروبا المسيحية لن تبقى بعد ذلك يوماً واحداً .

ويخلص في نهاية المحاضرة إلى قوله :

إن الإنسان ينشد مثلاً يقتدي به في كل عمل يقدم عليه ، في غناه وفقره ، وفي سلمه وحره ، ويتحرى السبيل الذي يسلكه إذا تزوج أو بقي عزباً ، ويريد أنموذجاً عالياً يأتم به إذا عبد ربه ، أو عاشر الناس ، ويحاول أن يلم بالقوانين التي ينهي العمل بها بالنسبة إلى الراعي والرعية والحكام والمحكومين .

جميع هذه الأمور ينهي للمرء أن يتخذ لنفسه القدوة فيها ، لأن الأمم قد التوت عليها هذه المسألة ، فأهمها الطريق الموصل إلى حلّ هذه المعضلات وتذليل هذه المصاعب ،

ومعظم الشعوب تشعر بالحاجة الشديدة إلى المثل العليا في ذلك لتخفف عن الإنسانية آلامها وتأسو جراحها ، وهي متلهفة على مثال لذلك من الأعمال ، لا على مثال عليه من الأقوال .

ولست بمبالغ إذا قلت : إن التاريخ أصدق شاهد على أنه ليس في الدنيا أحد يصح أن يكون للإنسانية أسوة من سيرته وحياته غير سيرة محمد ﷺ وحياته .

وليكن على ذكر منكم ما تحدثت به إليكم من قبل ، وهو أن حياة العظيم التي يجدر بالناس أن يتخذوا منها قدوة لهم في الحياة ينبغي أن تتوافر فيها أربع خصال :

١ - أن تكون (تاريخية) أي أن التاريخ الصحيح المحض يصدقها ويشهد لها .

٢ - أن تكون (جامعة) أي محيطها بأطوار الحياة ومناحيها وجميع شؤونها .

٣ - أن تكون (كاملة) أي أن تكون متسلسلة لا تنقص شيئاً من حلقات الحياة .

٤ - أن تكون (عملية) أي أن تكون الدعوة إلى المبادئ والفضائل والواجبات بعمل الداعي وأخلاقه ، وأن يكون كل ما دعا إليه بلسانه قد حققه بسيرته وعمل به في حياته الشخصية والعائلية والاجتماعية ، فأصبحت أعماله مثلاً علياً للناس يتأسون بها .

وأنا لا أقول إن الأنبياء صفرت صحائف حياتهم من هذه الميزة مدة وجودهم في الحياة الدنيا ، بل أقول إن سيرتهم التي توجد الآن بين أيدي الناس لا تنص على هذه الأمور ، ويخيل إلي أن الحكمة الإلهية في ذلك ترجع إلى أن أولئك الأنبياء إنما بعث الواحد منهم لزمن قصير نسبياً فكان الموقفون للخير من شعوبهم يعرفون سيرتهم فيتأسون بها ، ولم يكن هنالك حاجة إلى أن تبقى سيرتهم معلومة للأجيال التالية بعدهم ؛ لأن النبوءات ستختم برسالة محمد ﷺ الكاملة إلى الناس كافة في كل زمان ومكان ، فست الحاجة إلى أن تكون سيرته ﷺ معلومة على حقيقتها في كل زمان ومكان إلى يوم القيامة ، ليتيسر التأسي بها لجميع أمم الأرض . وهذا من أصدق البراهين على كون محمد ﷺ خاتم النبيين ولا نبي بعده :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (١) .

الشروط الصحيحة لسيرة الهادي القدوة

ثم جاءت المحاضرات الأربع اللاحقة تنصبُّ على الشروط التي يجب أن تتوافر فيها سيرة الهادي القدوة . فالأولى في شرط التاريخية ، والثانية في شرط الكمال ، والثالثة في شرط الشمول ، والرابعة في شرط العملية .

* * *

(٣)

شرط التاريخية

وها هو ذا يتحدث عن التاريخية في سيرة محمد ﷺ :

لقد شهدت الدنيا أصدق شهادة ، ثم ازداد ذلك ثبوتاً على الأيام ، بأن المسلمين لم يقتصروا على حفظ سيرته ﷺ بل توسعوا في ذلك إلى ما يتعلق بها من كل النواحي ، فصانوا هذه الأمانة القدسية فلم تلمسها يد الضياع ، ولم تعبث بها عوامل الدهر ، إلى درجة أن العالم كله يقف من ذلك موقف العجب والاستغراب . والذين وقفوا حياتهم منذ العصر النبوي على حفظ أقوال النبي ﷺ ورواية أحاديثه ، وكل ما يتعلق بحياته ، أدّوها إلى من ضبطوها بعدهم ، وكتبوها وصاروا يسمون (رواة الحديث) أو (المحدثين) و (أصحاب السير) وهم طبقات متسلسلة من (الصحابة) و (التابعين) و (تابعي التابعين) .

وقد بلغ عدد الصحابة - رضي الله عنهم - في آخر حياة النبي ﷺ الذين حجوا معه حجة الوداع [حوالي] مائة ألف ، ومن هؤلاء [حوالي] عشرة آلاف صحابي مذكورة أسماؤهم وأحوالهم في كتب التاريخ التي أفردت لتدوين أحوالهم خاصة ، لأن كل واحد منهم حفظ شيئاً من أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتصرفاته وهديه وسيرته .

ثم جال المؤلف جولات موفقة في عرض طبقات المشتغلين بنقل السنة النبوية وتعليقها ، متحدثاً خلال ذلك عن تحري الصحابة والأئمة العدول صدق النقل عن رسول الله ﷺ ومتحدثاً عن قوة ذاكرة العرب خاصة ، ثم المشتغلين بالسنة بشكل عام ، وكيف أنهم كانوا يجمعون مع الحفاظ الكتابة لزيادة التوثيق ، وإنه مع هذا وهذا وجدت العلوم التي تُمحص

وتقارن وتحقق ، ووجد الجهابذة الذين يمتلكون القدرة على التمييز بين الروايات .

وخلال ذلك ردّ على فرية بعض المستشرقين الذين يزعمون أن السنة النبوية تأخر تدوينها ، فيقيم الأدلة التاريخية القاطعة على كذب هؤلاء ، فلم ينقطع التدوين منذ عهد رسول الله ﷺ إلى أن وجدت كتب السنة المشهورة ، ولعل هذه الصفحات من كتابه من أروع الصفحات . وما قاله في هذه الصفحات :

فأصحاب النبي ﷺ كتبوا بأيديهم في عهده ﷺ وجمعوا من أحاديثه في حياته ، وتركوا ذلك لمن بعدهم ، والذين جاءوا بعدهم أدخلوه في كتبهم ، ولا أعدو الحقيقة إذا قلت : إن التابعين - رضي الله عنهم - جمعوا جميع الروايات في عهد الصحابة ، وكتبوا في حياتهم ما وصل إلى علمهم من الأخبار والشؤون ، وبحثوا عن ذلك بحثاً طويلاً ، وبذلوا فيه جهودهم وسافروا له ، وطرقوا أبواب العلماء والمحدثين ، حتى لقد كانوا يطؤون لأجل الحديث الواحد مسافة طويلة وشقّة بعيدة .

والحق أن جميع الأحاديث والأحكام والأخبار تمّ تدوينها عند المسلمين في ثلاثة أطوار :

الطور الأول هو الذي كان فيه الصحابة وكبار التابعين .

الطور الثاني هو الذي كان فيه صغار التابعين وتابعو التابعين .

والطور الثالث هو عهد المحدثين وأئمة السنة كالإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، والإمام مسلم صاحب الجامع الصحيح ، والإمام الترمذي ، والإمام أحمد بن حنبل ، وغيرهم من المحدثين .

وما جمع في الطور الأول دُون في كتب الطور الثاني ، وما دُون في الطور الثاني جمع ونُظِم في كتب الطور الثالث ، ونرى أمامنا أكثر ما جمع في الطورين الثاني والثالث مدونا في كتب كثيرة تشتمل على آلاف من الأوراق هي في الواقع من أثمن الذخائر العلمية في العالم ، بل لا يوجد في جميع ذخائر الدنيا العلمية أوثق منها سنداً وأصح تاريخاً ورواية .

ولقد صدق الأستاذ الكبير العلامة الشيخ شبلي النعماني حين قال :

(لما أرادت الأمم الأخرى من غير المسلمين أن تجمع في أطوار نهضتها أقوال رجالها ورواياتهم ، كان قد فات عليهم زمن طويل ، وانقضى بينها وبينهم عهد بعيد ، فحاولوا كتابة شئون أمة قد خلت ، ولم يميزوا بين غث ذلك الماضي وسمينه ، وصحيحه وسقيمه ، بل لم يعلموا أحوال رواة تلك الأخبار ولا أسماءهم ولا تواريخ ولادتهم فاكتفوا بأن اصطفوا من أخبار هؤلاء الرواة المجهولين ورواياتهم ما يوافق هوام ويلائم بيئتهم وينطبق على مقاييسهم ، ثم لم يمض غير زمن يسير حتى صارت تلك الخرافات معدودة كالحقائق التاريخية المدونة في الكتب ، وعلى هذا المنهاج السقيم صنفت أكثر الكتب الأوربية مما يتعلق بالأمم الخوالي وشئونها ، والأقوام القديمة وأخبارها ، والأديان السالفة ومذاهبها ورجالها .

أما المسلمون فقد جعلوا لرواية الأخبار والسير قواعد محكمة يرجعون إليها وأصولاً متقنة يتسكون بها وأعلاها أن لا تُروى واقعة من الوقائع إلا عن الذي يشهدها ، وكلما بعد العهد على هذه الواقعة فن الواجب تسمية من نقل ذلك الخبر عن الذي نقله عن من شهد ، وهكذا بالتسلسل من وقت الاستشهاد بالواقعة والتحدث عنها إلى زمن وقوعها . والتثبت من أمانة هؤلاء الرواة وفقهم وعدالتهم وحسن تحملهم للخبر الذي يروونه ، وإذا كانوا على خلاف ذلك وجب تبيينه أيضاً .

وهذه المهمة من أشق الأمور ، ومع ذلك فإن مئات من المحدثين تفرغوا لها ، ووقفوا أعمارهم على تحري ذلك واستقصائه وتدوينه ، وطافوا لأجله البلاد ، ورحلوا بين الأقطار ، باحثين دارسين لأحوال الرواة ، وكانوا يلقون المعاصرين لهم من الرواة لينقدوا أحوالهم ، وإذا اطمأنوا إلى سيرة فريق منهم سألوهم عما يعرفونه من أحوال الطبقة التي كانت قبلهم ، وقد اجتمع من هذا المجهود العلمي العظيم علم مستقل من العلوم الإسلامية أطلق عليه فيما بعد عنوان (أسماء الرجال) فتيسر لمن أتى بعدهم أن يقفوا على أقدار مئات الألوف من الحفاظ والعلماء والرواة وغيرهم) .

هذا فيما يتعلق بالرواية وحملتها ، وهنالك (علم نقد الحديث) من جهة الدراية والفهم ، وأن له أصولاً محكمة وقواعد متقنة اتخذوها لنقد المرويات وتقييم صحيحها من سقيها وغثها من السمين والراجح من المرجوح ، وقد تحرى علماء السنة في هذا الأمر الحق وحده ، وتمسكوا

فيه بالحجة البيضاء ، وكل ما يؤدي إليه الصدق ، فكان عملهم هذا من مفاخر الإسلام .
وبعد ذلك يجول المؤلف جولة موفقة فيما يؤكد التوثيق ، في شأن نقل السنة النبوية
وتحقيق رواياتها ، ثم بعد ذلك يخص السيرة النبوية بالحديث ، فيتحدث عن مصادرها
فيقول :

وأريد أن ألفت أنظاركم إلى المصادر التي أخذت عنها سيرة النبي ﷺ وهديه ، وكيف
دونت تلك المصادر وجمعت ، وأن أهم ما في سيرته ﷺ وأوثقها وأكثرها صحة هو ما
اقتبس من القرآن الحكيم الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ
عَزِيزٍ حَمِيدٍ ﴾ ، وهو الذي لم يشك في صحته العدو اللدود ، فضلاً عن الحبيب الودود .

فالقرآن الكريم هو المصدر الأول من مصادر السيرة النبوية : والقرآن يقص علينا جميع
مناحي السيرة النبوية وطرفاً من حياته ﷺ قبل النبوة ، فيذكر لنا يته وفقره وتحشه ،
كما يذكر لنا شئونه بعد النبوة من هبوط الوحي الإلهي عليه وتبليغه إياه والعروج به
وعداوة الأعداء وهجرته وغزواته ، وفي القرآن الكريم ذكر أخلاقه ﷺ .

كل ذلك تراه مذكوراً في القرآن ببيان واضح وأسلوب متين رائع : ومن ذلك تعلمون
أنه لم تطرق أذن التاريخ سيرة رجل بأحسن ولا أصح ولا أوثق من سيرة محمد ﷺ .

والمصدر الثاني من مصادر السيرة النبوية كتب الحديث : وهي كتب حفظت
لنا من أقوال النبي ﷺ وأفعاله وأحواله ما يبلغ مائة ألف حديث ، وقد امتاز الصحيح
منها عن الضعيف والموضوع ، والقوي منها عن غير القوي .

ومن الكتب المصنفة في الحديث الكتب الستة التي محص العلماء كل ما ورد
فيها ، وذكروا شواهد ومتابعاته ، حتى لم يتركوا في النفوس منزع ظفر لحقق منصف ، بل
ولا لمدقق جائر ، ويتلو الكتب الستة كتب المسانيد ، وأعظمها مسند الإمام أحمد بن
حنبل ، في ستة مجلدات كبار ، كل مجلد منها يحتوي على نحو خمسمائة صفحة من القطع
الكبير بحروف دقيقة ، وقد تضمن هذا المسند مرويات كل صحابي مجموعة ومذكورة على

حدة ، وفي هذه المجموعات جميع تعاليم الرسول ﷺ وأحواله وسيرته غير مرتبة على المواضع .

والمصدر الثالث كتب المغازي : ومعظم ما فيها ذكر الغزوات النبوية ، وقد تتضمن أموراً أخرى ، ومن المصنفات القديمة في المغازي : مغازي عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤هـ ، ومغازي الزهري المتوفى سنة ١٢٤هـ . ومغازي ابن إسحاق المتوفى سنة ١٥٠هـ ، ومغازي زياد البكائي المتوفى سنة ١٨٢هـ ، ومغازي الواقي المتوفى سنة ٢٠٧هـ وغيرهم .

والمصدر الرابع كتب التاريخ الإسلامي العام : التي تبتدئ بالسيرة النبوية ومن أوثقها وأصحها وأطولها وأضخمها : طبقات ابن سعد ، وتاريخ الرسل والملوك للإمام أبي جعفر الطبري ، والتاريخ الصغير والتاريخ الكبير لمحمد بن إسماعيل البخاري ، وتاريخ ابن حبان ، وتاريخ ابن أبي خيثمة البغدادي المتوفى سنة ٢٩٩هـ وغيرهم .

والمصدر الخامس الكتب التي ألقت في المعجزات : وتسمي بكتب السدائل ومنها : دلائل النبوة لأبي إسحق الحربي المتوفى سنة ٢٥٥هـ ، ودلائل النبوة لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ ، ودلائل النبوة للإمام البيهقي المتوفى سنة ٤٣٠هـ ، ودلائل النبوة لأبي نعيم الأصفهاني المتوفى سنة ٤٣٠هـ ، ودلائل النبوة للمستغفري المتوفى سنة ٤٣٢هـ ، ودلائل أبي القاسم إسماعيل الأصفهاني المتوفى سنة ٥٣٥هـ ، وأضخمها وأبسطها كتاب الخصائص الكبرى للجلال السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ .

والمصدر السادس كتب الشمائل : وهي مقصورة على ذكر أخلاق النبي ﷺ وعاداته وفضائله وما كان يعمل في يومه من الصباح إلى المساء ، وفي ليله من المساء إلى الصباح . وأشهر هذه الكتب وأولها : كتاب الشمائل للحافظ المنذري . وقد كتب كبار العلماء زيادات عليه أهمها وأضخمها وأطولها : كتاب الشفا في حقوق المصطفى للقاضي عياض ، وقد شرحه الشهاب الخفاجي وسماه نسيم الرياض ، وصنف في هذا الموضوع علماء آخرون ، منها : كتاب شمائل النبي ﷺ لأبي العباس المستغفري المتوفى سنة ٤٣٢هـ ، والنور الساطع لابن المقرئ الغرناطي المتوفى سنة ٥٥٢هـ ، وسفر السعادة لمجد الدين الفيروزبادي المتوفى سنة ٨١٢هـ .

يضاف إلى ما ذكرناه الكتب التي صنفها بعض العلماء المتقدمين في أحوال مكة المعظمة والمدينة المكرمة ، وذكروا فيها ما في هذين البلدين الطيبين من بقاع وأماكن وأودية وجبال وخطط ، وذكروا من تولى إمارتها ، بادئين بكل ما له علاقة بالنبي ﷺ وأقدم كتاب في هذا الموضوع : أخبار مكة للأزرق المتوفى سنة ٢٢٣هـ ، وأخبار المدينة لعمر بن شبة المتوفى سنة ٢٦٨هـ ، ثم أخبار مكة للفاكهي ، وأخبار المدينة لابن زبالة .

ثم بعد ذلك يتحدث عن التأليف في السيرة النبوية وأنه تجاوز على مدى العصور كل تصور ، وبعد أن يضرب أمثلة على سعة التأليف في السيرة النبوية ينقل نقلاً عن كاتب متحامل على الإسلام هو (ريزورند باسورث سميث) من كتابه (محمد والمحمدية) يقول فيه هذا الكاتب :

كل ما يقال في الدين يغلب فيه الجهل ببدايته ، وما يؤسف له أن هذا يصح إطلاقه على الديانات الثلاث ^(١) وعلى أصحابها الذين نعدم تاريخيين ، لأننا لا نعلم لهم وصفاً أحسن من هذا الوصف ، فإننا قلما نعلم عن الذين كانوا في طلائع الدعوة ، والذي نعلمه عن الذين جاءوا بعدهم واجتهدوا في نشر عقائدهم أكثر من الذي نعلمه عن أصحاب الدعوة الأولين ، فالذي نعلمه من شؤون زردشت وكونفوشيوس أقل من الذي نعلمه عن سولون وسقراط . والذي نعلمه عن موسى ، وبوذا أقل مما نعلمه عن أمبرس Ambrase وقيصر ، ولا نعلم من سيرة عيسى إلا شذرات تتناول شعباً قليلة من شعب حياته المتنوعة والكثيرة ، ومن ذا الذي يستطيع أن يكشف لنا الستار عن شؤون ثلاثين عاماً هي تمهيد واستعداد للثلاثة أعوام التي لنا علم بها من حياته ، إنه بعث ثلث العالم من رقدته ، ولعله يجي أكثر مما أحيأ ، وحياته المثالية بعيدة عنا مع قربها منا ، وإنها تتراوح بين الممكن والمستحيل ، بيد أن كثيراً من صفحاتها لا نعلم عنها شيئاً أبداً ، وما الذي نعلمه عن أم المسيح ، وعن حياته في بيته ؟ وعيشته العائلية ؟ وما الذي نعلمه عن أصحابه الأولين وحوارييه ؟ وكيف كان يعاملهم ؟ وكيف تدرجت رسالته الروحية في الظهور ؟ وكيف فاجأ الناس بدعوته ورسالته ؟ وكَم وكَم من الأسئلة تحيhs في نفوسنا ، ولن يستطيع أحد أن يجيب عليها إلى يوم القيامة ؟!

(١) يريد ديانات : بوذا وكونفوشيوس وزرادشت .

أما الإسلام فأمره واضح كله ، ليس فيه سر مكتوم عن أحد ، ولا غمّة يَنْبَغُ أمرها على التاريخ . ففي أيدي الناس تاريخه الصحيح ، وهم يعلمون من أمر محمد ﷺ كالذي يعلمونه من أمر لوثر وملتن ، وإنك لا تجد فيما كتبه عنه المؤرخون الأولون أساطير ولا أوهاماً ولا مستحيلات ، وإذا عرض لك طرف من ذلك أمكنك تمييزه عن الحقائق التاريخية الراهنة ، فليس لأحد هنا أن يندع نفسه ولا أن يندع غيره ، والأمر كله واضح ووضوح النهار ، كأنه الشمس رآد الضحى ، يتبين تحت أشعة نورها كل شيء . اهـ .

هذا كلام كاتب متحامل على الإسلام ، لكنه لم يسعه إلا أن يقرر هذه الحقيقة التي كانت وراء محور هذه المحاضرة ، إن سيرة محمد ﷺ تاريخية لاريب في ذلك ولا لبس ، وقد ختم المؤلف المحاضرة الثالثة بقوله :

لقد ألف المسلمون في السيرة النبوية ألوف الكتب بل أكثر من ذلك ، ولا يزالون ماضين في التأليف فيها ، وكل كتاب في السيرة الحمديّة - مهما كان - لاريب أنه أوضح بياناً وأوثق رواية وأكثر صحة من كل ما كتبه الناس في قصص النبيين وسيرهم - عليهم السلام - .

والكتب الأولى في السيرة الحمديّة تلقاها عن أصحابها مؤن وآلاف من تلاميذهم ، وأتقنوها فهم ، وأحكموها فقهاً ، ولم يتركوا فيها كلمة غامضة ولا عبارة معضلة إلا أوضحوا مبهمها وحلوا معضلها .

وأول كتاب عندنا في الحديث النبوي كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس ، وقد سمعه من مؤلفه ستائة من تلاميذه فيهم الخلفاء والولاة والعلماء والفقهاء والأدباء والزهاد والنسك ، والجامع الصحيح لأبي عبد الله بن إسماعيل البخاري تلقاه ستون ألفاً من أهل العلم عن تلميذ واحد من تلاميذه وهو الإمام الفِرَيرِي ، فهل في العالم دين احتاط أهلُه مثل هذا الاحتياط واهتموا مثل هذا الاهتمام بكل ما يتعلق بأمر نبيهم وهدايتِه ؟ وهل ألف في هذا الباب تأليف أكثر صحة وأعظم ثقة وتثبتاً ؟ وهل نال مثل هذه الصحة التاريخية دين غيره ؟ وهل حفظ التاريخ من تفاصيل حياة نبي من الأنبياء - عليهم السلام - مثل الذي حفظه من سيرة محمد ﷺ ؟ .

شرط الكمال المطلق

قد يوجد في تاريخ البشرية من سيرته تاريخية ولا يعتبر ذلك وحده كافياً للهداية والافتداء ، بل قد تكون سيرة هؤلاء شراً وخبثاً ، فلا بد أن يجتمع مع شرط التاريخية شرط آخر لتصلح السيرة للاقتداء والاهتداء ، هذا الشرط هو أن يكون تصرف صاحب السيرة في الصغيرة والكبيرة هو الكمال المطلق ، وهذا الذي نجده على الكمال والتام في سيرة النبي ﷺ وهذا هو محور المحاضرة الرابعة ، فلقد أخذ المؤلف يضرب على ذلك الأمثال في الصغيرة والكبيرة من تصرفاته ﷺ قبل النبوة وبعدها في حياته البيتية وغيرها مقيماً الأدلة على ذلك .

ومن كلامه في هذه المحاضرة :

إن أعظم الناس وأجلهم إذا انقلب إلى بيته كان فيه رجلاً من الرجال وواحداً كآحاد الناس ، ولقد صدق فولتير في كلمته المشهورة : (إن الرجل لا يكون عظيماً في داخل بيته ، ولا بطلاً في أسرته) يريد أن عظمة المرء لا يعترف بها من هو أقرب الناس إليه ، لاطلاعه على دخيلته في مبادله .

وهذا الحكم يشذ عن الرسول ﷺ فيقول باستور سميث : (إن ما قيل عن العطاء في مبادله لا يصح - على الأقل - في محمد رسول الإسلام) واستشهد بقول كبن : (لم يتحن رسول من الرسل أصحابه كما امتحن محمد أصحابه ، إنه قبل أن يتقدم إلى الناس جميعاً ، تقدم إلى الذين عرفوه إنساناً ، المعرفة الكاملة ، فطلب من زوجته وغلame وأخيه وأقرب أصدقائه إليه وأحب خلانه أن يؤمنوا به نبياً مرسلأ ، فكل منهم صدق دعواه وأمن بنبوته ، وإن حليمة المرء أكثر الناس علماً بباطن أمره ودخيلة نفسه وألصقهم به ، فلا يوجد من هو أعرف منها بهناته وتقائصه ، أليس أول من آمن بمحمد رسول الله زوجة الكريمة التي عاشته خمسة عشر عاماً ، واطلعت على دخائله في جميع أموره وأحاطت به علماً ومعرفة فلما ادعى النبوة كانت أول من صدقه في نبوته) .

إن أعظم الناس لا يأذن لزوجته - وإن كانت له زوج واحدة - بأن تحدث الناس عن جميع ما تراه من حليها ، وأن تعلن كل ما شاهدته من أحواله . لكن رسول الله كانت له في وقت واحد تسع زوجات ، وكانت كل منهن في إذن من الرسول بأن تقول عنه للناس كل ما تراه منه في خلواته ، وهُنَّ في حِلٍّ من أن يخبرن الناس في وضوح النهار كل ما رأين منه في ظلمة الليل ، وأن يتحدثن في الساحات والجامع بما يشاهدن منه في الحجرات ، فهل عرفت الدنيا رجلاً كهذا الرجل يثق بنفسه كل هذه الثقة ، ولا يخاف قالة السوء عنه من أحد لأنه أبعد الناس عن السوء .

إن النبي ﷺ أذن لأصحابه ولم يحضر مجالسه أن يبلغوا عنه لمن غاب عنها ، وهذا الإذن عام لما يكون عنه في بيته وبين أهله وعياله ، أو ما يصدر عنه في حلقاته مع أصحابه ، أو ما يقفون عليه من أعماله وأقواله ، عند تعبدته في مسجده ، أو قيامه على منبره خطيباً ، أو جهاده في ساحة الحرب تجاه أعدائه ، وهو يسوي صفوف المجاهدين في سبيل الله ، أو إذا خلا إلى ربه في حجرة منعزلة في بيته يعبد الله ويتضرع إليه فكان أزواجه وأصحابه يتحدثون جميعاً بكل ما يصدر عنه من قول أو عمل .

ثم إنه كان تجاه مسجده صفة يأوي إليها فقراء الصحابة الذين لم تكن لهم بيوت يأوون إليها ، فكانوا يتناوبون الخروج إلى ما بعد بنيان المدينة يحتطبون من أشجار الصحراء والجبل ، ويبيعون ما يأتون به ليقناتوا جميعاً بثمنه ، ولم يكن لسائرهم عمل غير صحبة النبي ﷺ ولزوم مجالسه ليحفظوا عنه ما يقول وما يعمل ثم يروونه للناس بعناية وأمانة ، وقد بلغ عدد أهل الصفة هؤلاء [في بعض الأحوال] سبعين رجلاً ، كان منهم أبو هريرة الذي لم يكن صحابي أكثر منه حديثاً عن رسول الله ﷺ وهؤلاء السبعون يسرهم الله لحفظ كل ما يستطيعون حفظه مما يدخل في موضوع الحديث النبوي لا يفترقون عن ذلك اناء الليل وأطراف النهار ، وقد استمر الحال بهم على ذلك يوماً ، وإذا ارتحل الرسول ﷺ عن المدينة في غزوة أو حج كانوا معه ، وكذلك غيرهم من الصحابة ، حتى لم تحف عنهم خافية من أمره ، ولم يغيب عنهم معنى من معاني رسالته ، ولما كان فتح مكة كان معه من أصحابه

حوالي عشرة آلاف ، ولما سار إلى تبوك كان في معسكره حوالي ثلاثين ألفاً ، ولما حج حجة الوداع حج معه تلك السنة حوالي مائة ألف مسلم ، ينطبق عليهم عنوان الصحابة ، وما منهم إلا من يحرص على الوقوف على شيء من هداية نبيه ﷺ أو أي أمر من أموره فيتحدث عنه ، بل هو الذي أمرهم أن يبلغوا عنه ما يسمعون منه أو يرون من تصرفاته ، فما ظنكم به بعد ذلك هل يخفى عن التاريخ وجه من وجوه حياته أو ناحية من نواحيها .

هذا من جهة أصحابه ، وأما أعداؤه فإنهم أفرغوا جهدهم ، واستنفدوا سعيهم ليقفوا على دخيلة من دوائله وليؤاخذوه بحقيقة يعلمونها عنه فلم يستطع أحد منهم أن يجد له ناحية ضعف ولا ما يندد به وأقصى ما استطاع أعداؤه في كل زمان ومكان أن يقولوه عنه إنه سل سيفه للقتال وأنه كان كثير الزوجات .

وقد تبين لكم أن حياته الطاهرة هي حياة العصمة من كل نقص ، البريئة من كل عيب .

إن الرسول ﷺ لم يقض حياته كلها بين أحبائه وأصحابه ، بل قضى أربعين سنة من عمره في مكة قبل أن يبعث ، فكان بين أهلها مشركي قريش ، وكان يتعاطى فيهم التجارة ، ويعاملهم في أمور الحياة ليل نهار ، وهي الحياة اليومية وما تنطوي عليه من أخذ وعطاء ، ومن شأنها أن تكشف عن أخلاق المرء فيتبين للناس فسادها وصلاحها ، وهي عيشة طويل طريقها ، كثيرة منعطفاتها ، وعرة مسالكها ، تعترضها وهداث بما قد يصدر عن المرء من خيانة وإخفار عهد وأكل مال بالباطل ، وعقبات من الخديعة والخيانة وتطفيف الكيل وبخس الحقوق وإخلاف الوعد .

وإن الرسول ﷺ اجتاز هذه السبيل الشائكة الوعرة وخلص منها سالماً تقياً لم يصبه شيء مما يصيب عامة الناس ، حتى لقد دعوه (الأمن) وإن قريشاً بعد بعثته وإدعائه النبوة كانوا يودعون عنده ودائعهم وأموالهم لعظيم ثقتهم به ، وقد علمت أنه ﷺ لمّا هاجر من مكة خَلَفَ عليها علياً ليرد ما كان لديه من الودائع إلى أهلها . فقريش خالفوه أشد الخلاف في دعوته ولم يتركوا سبيلاً إلى ذلك إلا سلكوه ، فقاطعوهم وعاندوه وصدوا عن

سبيله ، وألقوا عليه سلى جزور وهو يصلي ، ورموه بالحجارة ، وأرادوا قتله ، وكادوا له كيدهم ، وسَمَّوه ساحراً ودعوه شاعراً ، وفندوا آراءه وسخفوا حلمه ، ولكن لم يجرؤ أحد منهم على أن يقول شيئاً في أخلاقه ، ولا أن يرميه بالخيانة ، أو ينسب إليه الكذب في القول ، أو إخلاف الوعد أو إخفار الذمة أو نقض العهد .

وإن من ادعى النبوة وقال إن الله يوحى إليه فكأنه ادعى العصمة والبراءة من جميع المفسد ومساوئ الأعمال . ألم يكن يكفي قريشاً في ردِّهم على الرسول أن يذكروا أموراً عمل فيها الرسول بغير الحق ، وأن يشهدوا عليه بأنه أخلفهم وعداً أو خانهم في أموالهم أو كذبهم في شيء مما قاله لهم ؟ إن قريشاً أنفقوا أموالهم ، وبذلوا نفوسهم في عداوة الرسول ، وضحوا بفلذات أكبادهم في قتاله حتى قتل منهم وجرح كثيرون ، لكنهم لم يستطيعوا أن يَدْنَسُوا ذيله الطاهر ولا أن يصبوه بشيء في عظيم أخلاقه . وكانت أحوال الرسول ﷺ وشؤونه وهديه ظاهرة لجميع الناس معلومة لهم ، استوى في ذلك أحبابه وأعداؤه ولم يخف عليهم شيء من أمره .

ثم أفاض المؤلف في ذكر الأعجوبة الهائلة أن يقدم شخص للعالم كل ما يحتاجه هذا العالم ، بحيث يزيد سعة وشمولاً ويفوق كمالاً - مع السلامة من النقص - على ما تبنيه الأمم خلال عصور ، مما لا نجد في ما وصلنا عن أحد غيره ، ألا أنها الرسالة والنبوة .
ويختتم محاضرتة بقوله :

نحن لا نزال نقدم للناس تلك السيرة الكاملة ، التي هي لنا سراج وهاج في جميع شؤون الحياة البشرية ، فكأن السيرة المحمدية مرآة صافية للعالم كلها ، يرى فيها كل إنسان صورته وروحه ، ظاهره وباطنه ، قوله وعمله ، خلقه وأدبه ، هديه وسنته ، وفي استطاعته أن يصلح أخلاقه ويتقشف عوجه بحسب ما يراه في تلك المرآة الصافية .

لأجل ذلك لا ترى أمة مسلمة تبحث - في خارج دينها وبمنأى عن سيرة نبيها - عن أصول وضوابط تقوم بها اعوجاجها وتثقف منأدها وتصلح زيفها . لأنها في غنى عما هو أجنبي عنها ، وعندها في هدي سيرة نبيها ﷺ الميزان القويم والقسطاس المستقيم ، الذي تبين

به ما في العالم من خير وشر وتميز به الحق من الباطل .

وفي الحق إن العالم كله لفي حاجة شديدة إلى سيرة بشر كامل تتخذ من حياته الأسوة العظمى ، وليس في الدنيا إنسان كامل يعرف التاريخ سيرته على التفصيل كما يعرف تفاصيل حياة محمد ﷺ خاتم النبيين ، فالناس كلهم في أمس الحاجة إلى أن يتخذوا من السيرة المحمدية منهاج حياتهم ففيها الأسوة الطاهرة ، وهي الحياة المثالية للناس جميعاً ، ﷺ .

* * *

(٥)

شرط الشمولية

قد توجد التاريخية في حياة بعض الناس ، وقد يوجد شيء من الكمال في حياة هؤلاء ، ولكن أن تكون حياتهم من الحصب والغنى بحيث تسع الناس زماناً ومكاناً - حيث إن هذا هو المطلوب في سيرة القدوة والهادي - فليس ذلك لأحد إلا لرسول الله ﷺ فقد اجتمع في سيرته التاريخية والكمال في التصرفات ، والشمولية ، حتى لتسع سيرته الزمان والمكان والأشخاص ، بالقدوة والهداية ، وهذا هو محور المحاضرة الخامسة .

يقول المؤلف :

ليس من الممكن أن يكون جميع الداخلين في دين من الأديان من طائفة بشرية واحدة ، أو أن يكونوا من شعب إنساني واحد ، لأن الدنيا قد قام ببنائها على التنوع في الأعمال والاختلاف في الأفعال ، ولولا أن الناس مختلفون في مهنهم ومكاسبهم وأشغالهم ومعايشهم ، وهم يتعاونون ويساعد بعضهم بعضاً ، لخربت الدنيا .

ولا بد للعالم من ملك أو رئيس جمهورية أو وال يتولى أمورهم العامة ، وحاكم يحكم بينهم فيما يختلفون فيه . وكذلك لا تخلو الدنيا من رعية يرعى أمورهم رئيس ، ومن محكومين يحكم فيهم حاكم ، ومن خصوم يقضي بينهم قاض بالعدل ، ليسود الأمان ويستتب

السلام . وكذلك الأمم تحتاج إلى أن يكون لها جنود يدافعون عن كيائها ، وأن يكون على الجنود ضباط وقادة ، وتجذب فيهم الفقراء الذين يعانون الشدة والبؤس ، كما تجذب فيهم الأغنياء من أهل الترف والسرف . وفيهم عباد الله يقومون بطاعته في جوف الليل ، وزهاد تحرروا من متع الدنيا وزخرفها ، ومجاهدون في سبيل الله يقارعون الباطل ويقيمون الحق في الأرض ، وكذلك الدنيا لا تخلو من قادة الأمم وساسة الشعوب وزعماء الأحزاب .

وعلى شتى الطوائف ومختلف الفرق قام نظام هذه الدنيا ، وكل منهم يحتاج في عمله إلى حياة مثالية وأسوة كاملة يقتدي بها ليكون سعيداً في الحياة . والإسلام دعا جميع هذه الفرق والطوائف والأحزاب لأن يتبعوا سنة محمد ﷺ ويقتفوا آثاره ويسلكوا طريقه .

ومن تتبع ذلك يتبين له أن السيرة الحمديدية تكفي جميع شعوب البشر وطوائفهم وفرقهم ، إذا اتخذوا منها الأسوة والقذوة ، ففيها النور الذي يستضاء به في ظلمات الحياة الاجتماعية وكل من ظلمة حالكة في الحياة ! ومن هنا تعلم أن سيرة محمد رسول الله ﷺ جامعة تجذب فيها كل طائفة من طوائف البشر المثل الأعلى الذي تقتدي به ، والأسوة التي يتأسى بها .

ومن الظاهر الواضح أن حياة المحكوم لا تصلح لأن تكون قدوة لحياة الحاكم ، كما أن حياة الحاكم لا تصلح لأن تكون قدوة لحياة المحكوم . وكذلك الفقير المعدم لا يتسنى له أن يسير في معيشته على ضوء من حياة الغني المثرى ، ومن ثم مست الحاجة إلى أن تكون الحياة الحمديدية جامعة يجد فيها الناس كلهم - على اختلاف طوائفهم - الأسوة الكاملة في جميع ألوان الحياة وأطوارها ، وإن مثلها كمثل الباقية الجامعة لكل أصناف الزهور والورود بجميع ألوانها ، ففيها الأحمر القاني والأبيض الناصع والأخضر الناضر والأصفر الفاقع .

وفي البشر طوائف مختلفة وفرق شتى تحتاج كلها إلى حياة مثالية تكون نموذجاً لها في حياتها ومعيشتها . ولكل إنسان من هذه الطوائف أعمال وأحوال تتقلب عليه بتقلب الظروف ، بين قيام وقعود ومشى وأكل وشرب ونوم ويقظة وضحك وبكاء وارتداء الملابس وخلعها وأخذ وعطاء وتعلم وتعليم ، وقد يموت حتف أنفه أو يقتل ، ويكون محسناً لغيره أو محتاجاً لإحسان الآخرين إليه ، وقد يكون في عبادة ربه أو في معاملة الناس

ومعاشرتهم ، وقد ينزل على غيره ضيفاً أو يستقبل الضيف ويقوم له بحق القِرَى . هذه الأحوال وغيرها تطرأ على الإنسان وتعرض له فيما يتعلق بجسمه وجوارحه فيحتاج في كل حال منها إلى هداية نافعة وأسوة كاملة .

وأعظم من الأسوة في أعمال الإنسان الظاهرة ، الأسوة فيما يتعلق بخطر القلوب ومجالات الفكر ونزعات العواطف ، فنحن نشعر بين كل حين وآخر بنزعات وعواطف تخالج قلوبنا وأفكارنا ، فنرضى ونسخط ، ونفرح ونحزن وتعترينا السكينة والطأنينة أو القلق والضجر ، وتترتب على هذه الأحوال عواطف مختلفة ونوازع متعددة ، وليس الخلق الحسن إلا التعديل بين هذه الأحوال ، وإقامة الوزن بالقسط بين العواطف القوية والنوازع الشائرة ، ولا يحظى بنصيبه من مكارم الأخلاق إلا الذي يعرف كيف يكبح النفس عند جوحها ، ويحسن التصرف فيها وقت ثورتها ، ومع ذلك فلا بد للإنسان من إمام تكون له فيه الأسوة التامة في هذه الأمور ، فيأتم به في قهر هذه القوى الشائرة والعواطف المتوثبة ، إلى أن تسكن ثورة نفسه ، ويسلك في ذلك مسلك قدوته الأعظم ، وهو النبي ﷺ الذي يحمل بين جنبه قلباً زكياً ونفساً طاهرة وروحاً عالية نزيهة .

وهكذا المرء في كل خلة من خلال العزيمة والشجاعة والشكر والتوكل والرضا بالقدر والصبر على النوائب والتضحية والقناعة والاستغناء والإيثار والجود والتواضع والمسكنة ، وسائر ما يطرأ على البشر في منفسح حياتهم ومدى عيشهم ، وما ربما يعتري هذه الخصال في ساعات مختلفة من مضطرب حياة الإنسان ، فإنه يحتاج في كل ذلك إلى أسوة وهداية ممن سبق له العمل بذلك ، وأئني لنا هذه الأسوة الكاملة والهداية التامة إلا في حياة محمد رسول الله ﷺ .

إذا كنت غنياً مثرياً فاقصد بالرسول ﷺ عندما كان تاجراً يسير بسلعه بين الحجاز والشام ، وحين ملك خزائن البحرين .

وإن كنت فقيراً معدماً فلتكن لك أسوة به وهو محصور في شعب أبي طالب ، وحين قدم إلى المدينة مهاجراً إليها من وطنه وهو لا يحمل من حطام الدنيا شيئاً .

وإن كنت ملكاً فاقتد بسننه وأعماله حين ملك أمر العرب ، وغلب على آفاقهم ، ودان لطاعته عظماءهم ، وذوو أحلامهم ، وإن كنت رعية ضعيفاً فلك في رسول الله أسوة حسنة أيام كان محكوماً بمكة في نظام المشركين .

وإن كنت فاتحاً غالباً فلك من حياته نصيب أيام ظفروه بعدوه في بدر وحنين ومكة ، وإن كنت منهزماً - لا قدر الله ذلك - فاعتبر به في يوم أحد وهو بين أصحابه القتلى ورفقائه المشنخين بالجراح .

وإن كنت معلماً فانظر إليه وهو يعلم أصحابه في صفة المسجد ، وإن كنت تلميذاً متعلماً فتصور مقعده بين يدي الروح الأمين جاثياً مسترشداً . وإن كنت واعظاً ناصحاً ومرشداً أميناً فاستمع إليه وهو يعظ الناس على أعواد المسجد النبوي .

وإن أردت أن تقيم الحق وتصدع بالمعروف وأنت لا ناصر لك ولا معين فانظر إليه وهو ضعيف بمكة لا ناصر ينصره ولا معين يعينه ، ومع ذلك فهو يدعو إلى الحق ويعلن به . وإن هزمت عدوك ، وخضدت شوكته ، وقهرت عناده ، فظهر الحق على يدك ، وزهق الباطل ، واستتب لك الأمر ، فانظر إلى النبي ﷺ يوم دخل مكة وفتحها .

وإن أردت أن تصلح أمورك وتقوم على ضياعك فانظر إليه ﷺ وقد ملك ضياع بني النضير وخيبر وفدك كيف دبر أمورها وأصلح شئونها وفوضها إلى من أحسن القيام عليها .

وإن كنت يتيماً فانظر إلى فلذة كبد آمنة وزوجها عبد الله وقد توفيا وإبنيها صغير رضيع . وإن كنت صغير السن فانظر إلى ذلك الوليد العظيم حين أرضعته مرضعته الحنون حليلة السعدية . وإن كنت شاباً فاقراً سير راعي مكة . وإن كنت تاجراً مسافراً بالبضائع فلاحظ شئون سيد القافلة التي قصدت بصرى .

وإن كنت قاضياً أو حكماً فانظر إلى الحكم الذي قصد الكعبة قبل بزوغ الشمس ليضع الحجر الأسود في محله وقد كاد رؤساء مكة يقتتلون ، ثم ارجع البصر إليه مرة أخرى وهو في فناء مسجد المدينة يقضي بين الناس بالعدل يستوي عنده منهم الفقير المعدم والغني المثرى .

وإن كنت زوجاً فافراً السيرة الطاهرة والحياة الزهية لزوج خديجة وعائشة . وإن كنت أباً لأولاد فتعلم ما كان عليه والد فاطمة الزهراء وجد الحسن والحسين .

وأياً من كنت ، وفي أي شأن كان شأنك ، فإنك مهما أصبحت أو أمسيت وعلى أي حال بت أو أضحيت فلك في حياة محمد ﷺ هداية حسنة وقدوة صالحة تضيء لك بنورها دياجي الحياة ، وينجلي لك بضوئها ظلام العيش ، فتصلح ما اضطرب من أمورك ، وتثقف يديه أودك ، وتقوم بسنته عوجك .

وإن السيرة الطيبة الجامعة لشتى الأمور هي ملاك الأخلاق وجماع التعامل لشعوب الأرض وللناس كافة في أطوار الحياة كلها وأحوال الناس على اختلافها وتنوعها ، فالسيرة الحميدة نور للمستنير ، وهديها نبراس للمستهدي وإرشادها ملجأ لكل مسترشد .

يمثل هذا البيان تحدث المؤلف عن الشمولية في السيرة النبوية ، وقارن في هذه المحاضرة بين حياة محمد ﷺ وحياة غيره من الأنبياء ، فأثبت أن سيرة غير سيرته لم ينقل لنا منها مثل هذه الشمولية ، ومن ثم كلف الله عز وجل الإنسانية جميعاً - وإلى قيام الساعة - أن تقتدي به ، ويبين أن الاقتداء بغيره ليس كافياً ، عدا عن كونه لا يمثل التكليف الإلهي بعد بعثته - عليه الصلاة والسلام - .

وقدّم في جملة ما قدّم براهين على شمولية سيرته ﷺ أن دعوته منذ نشأتها كانت موجهة لكل الناس ، ودخل فيها كل الناس ، وكل الأصناف ، وظهرت في أتباعه جميع الطبقات ، وكلهم سواء كانوا سياسيين أو عسكريين أو زهاداً أو عباداً أو علماء مربين وسعتهم سيرته وكان لهم القدوة الكاملة .

وكأنه في المحاضرة السابقة استطرّد ليعبث على الإيمان بمحمد ﷺ ويستجلب التصديق ، فهنا كذلك استطرّد ليعمق الإيمان ، فضرب الأمثلة على الانقلاب الهائل الذي حدث في حياة أصحاب رسول الله ﷺ فأصبحوا أكمل الخلق في كل شيء ، كما تحملوا في سبيل هذه الدعوة ما لا يتحمّله إلا أصحاب الدعوات الربانية ، وذلك وحده علامة من علامات الرسالة .

وختم هذه المحاضرة بقوله :

لقد بينت لكم في هذه المحاضرة ما كان في الرسول الأعظم ﷺ من خلال جامعة . وقد أشرت إلى مظاهرها العديدة ونواحيها المختلفة ، وإخالكم قد ألفت مما درست في طبيعة الكون من ألوان مختلفة ، وما عرفت في طبائع البشر من مواهب شتى وهذه الدنيا ليست إلا مظهراً من مظاهر الحياة متنوعة الألوان - أن العالم لا يمكن أن تكون هدليته إلا بالمصلح الأخير للدنيا وهو خاتم رسل الله محمد ﷺ الذي اجتمعت فيه خلال الإرشاد كلها وخصال الإصلاح للنوع البشري بأجمعه ، ولذلك قال له الله عز وجل : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ ^(١) فوجه الرسول ﷺ الدعوة إلى كل من يدعي محبة الله بأن يتبعه ويطيع أمره ، ونادى الملوك في ممالكهم ، والرعايا في شوارعهم ، والمعلمين في مدارسهم ، والتلاميذ في فصولهم ، والفقراء في أكواخهم ، والأغنياء في قصورهم ، كما دعا المظلومين والمقهورين والمخذولين ، بل أهاب بالعالم كله أن يتبعوا سبيله ويقتفوا أثره ، لأن سيرته الشريفة هي المثل الأعلى ، وفيها الأسوة الكاملة لكل من يحب الخير ويبتغي الصلاح لنفسه .

اللهم صل وسلم عليه وآله وصحبه أجمعين .

* * *

(٦)

واقعية السيرة الحمديدية

وبعد أن أثبت تاريخية السيرة الحمديدية وكألفا وشمولها ، خشي أن يفهم فاهم أن هذه السيرة غير عملية أو غير واقعية أو غير ممكنة التطبيق فكانت المحاضرة السادسة في ذلك : فأثبت واقعيتهما من خلال نقطتين ، الأولى : أن رسول الله ما كان يأمر بشيء إلا فعله ، الثانية : أنه ارتفع بأصحابه إلى تطبيق ما دعا إليه ، فسيرته قائمة على التطبيق العملي في حياة

(١) آل عمران : ٣١ .

القدوة ، وفي حياة الجيل الذي رباه ، والذي كان خيراً على العالم لا يمكن أن يكون إلا عملياً وواقعياً وقابلاً للتطبيق ، هذا مع الكمال والشمول والنقل التاريخي التفصيلي ، إن ذلك لم يجتمع لأحد إلا لرسول الله ﷺ وذلك دليل من أدلة رسالته ، وذلك يجعله القدوة الأولى لهذا العالم .

استعرض في هذه المحاضرة أعظم التكليفات الإسلامية وبرهن أنه عليه الصلاة والسلام كان أكثر خلق الله التزاماً بها ، وأعظمهم تطبيقاً لها ، سواء في ذلك الأذكار والدعوات أو الصلوات والإنفاق أو الصوم والجهاد .

كما استعرض كل الأخلاق التي استقر في ضمير البشرية تقديسها وتعظيم أهلها ، من ثبات على الدعوة ، إلى الرحمة والعفو ، إلى العدل والحزم ، إلى التوكل والصبر ، إلى الرضا بالقضاء والتسليم لله في الهبة إلى الشجاعة والنجدة ، إلى غير ذلك من أخلاق عظيمة وكيف أن رسول الله كان أكمل خلق الله فيها .

هذا مع القدرة والاعتدال ، فلم يكن حليماً لأنه لا يستطيع إلا الحلم ، بل كان حليماً وهو قادر على البطش . ولم يكن رحيماً وهو عاجز عن العقوبة ، بل كان قادراً على الاستئصال .

وكما كان في نفسه كذلك فإنه كان يحمل أصحابه وأهله على ذلك ، حتى سمّا بهم هذا السمو الذي لم يعرف في تاريخ البشرية إلا لما .

لقد تحدث المؤلف عن هذه الموضوعات فأطنب ، وضرب كثير الأمثال حتى استوعب وأقام الحجة واستخرج من القلوب كوامن الفطرة ، داعياً إياها إلى الإيمان بمحمد ﷺ فكان معلماً وداعية وواعظاً في محاضراته بأن واحد .

وهكذا من خلال تطبيق رسول الله ﷺ لما دعا إليه ، ومن خلال ارتقاء الجيل الذي رباه للتطبيق العملي رجالاً ونساء وأطفالاً وشيوخاً وحاكمين ومحكومين ومحاربين ومسلمين ، أثبت المؤلف العملية والواقعية وإمكانية التطبيق في الرسالة المحمدية .

(٧)

عالمية السيرة المحمدية

بعد أن أقام المؤلف الحجة على أن سيرة محمد ﷺ هي السيرة المثل التي لا يوجد في غيرها ما يوجد فيها ، يتبين في المحاضرة السابعة أن هذه السيرة وهذه الرسالة تطالب بها الأمم جميعها ، تطالب بالاهتداء بها والافتداء بصاحبها ، فهي رسالة للجميع ويطلب بها الجميع ، ولا نجاة لأحد ولا فلاح لإنسان إلا باتباعها ، وقد سلك لإقامة الحجة في هذا مسالك شتى .

تحدث عن التوقيت في حياة الرسل ، وتحدث عن التخصيص في حياة الرسل ، فكل رسول قبل محمد ﷺ كان لزمان ، والدليل على ذلك ضياع هديهم ، وكل رسول بعث لقومه خاصة والدليل على ذلك موجود في كتبهم ، أما محمد ﷺ فقد بشر به من سبقه ، وهذه نصوص دعوته محفوظة ، وقد دعا كل الأقوام ، وأتى على كل ذلك بالأدلة الكثيرة .

ثم سلك في إقامة الحجة مسلكاً آخر ، فذكر أن الدين الذي يحتاجه كل إنسان هو ما اجتمع فيه تفصيل في قضايا الإيمان والعبادة والمعاملات والآداب والأخلاق ، ويدخل في المعاملات القوانين والمبادئ الدستورية ، ويدخل في الأخلاق والآداب : أخلاق النفس وأداب السلوك وأداب التعامل الاجتماعي .

ثم تحدث عن أن هذه الأمور لا تجد تفصيلاتها إلا في الإسلام ، ومع هذا فإن كل جزء منها معقول المعنى صحيح المضمون ممكن الفهم والتطبيق ، أما الأديان الأخرى - كما هي عليه منذ الدعوة المحمدية - فلا تجد فيها شيئاً من ذلك ، فكم من خرافات في شأن الربوبية عند الأديان القائلة بها ، وكم من أباطيل في التصورات ، ثم إنك لا تجد أي تفصيل لقضية العبادات في أي من الكتب الدينية المنقولة إلينا ، وفي المعاملات لا تجد تفصيلاً ، وإذا وجدت تفصيلاً ففي الغالب يرافق التطبيق حرج ، وأكثر الأخلاق التي فصلتها كتب الأديان أخلاق سلبية بعضها جيد تجده في الإسلام وبعضها تغنى به الحياة ، لكن الإسلام كما فصل في الرذائل فصل في الفضائل ، كبيرها وصغيرها .

وبعد جولة موفقة في هذه الأمور كلها ، قال :

والذي يعيننا الآن من هذا الكلام على الرسالة المحمدية ناحية الكمال فيها ، وإتمامها ما كان ناقصاً في الديانات السابقة مما يرجع إلى العقائد والأعمال ، فأصلحت ما كان من قبل فاسداً ، وردّت البدع الطارئة ، وقعت المفاصد العظيمة الفاشية التي شوّهت وجه الإنسانية ، وكانت باباً لكل شر ، وأصلاً لكل فساد ، وبذلك سدت في أصول الدين جميع الثلمات التي تسربت منها المفاصد ، التي كانت سبباً في الخطايا الإنسانية عن مستواها الكريم .

ثم سلك في إقامة الحجة على عالمية الإسلام ، وأنه التكليف الوحيد للإنسان ، وأن أي إنسان لا يكون منسجماً مع فطرته وعقله إلا باتباعه الإسلام ، عدة مسالك يطول شرحها ثم سلك في إقامة الحجة في ذلك مسلكاً آخر ، هو مسلك التركيز على جوانب بعينها من الرسالة المحمدية تقوم بها الحجة على كل مخلوق .

فتحدث عن التوحيد ، وكيف أن الإسلام بواسطته نقل الإنسان من كونه أحط المخلوقات بسبب الشرك إلى أن أصبح سيد الوجود بسبب التوحيد ، ثم تحدث عن نظرة الإسلام إلى الإنسان ، وكيف أن فطرته بريئة في الأصل ، بل كيف أن تكاليف الإسلام هي الفطرة ، فالفطرة والدين توأمان بل متطابقان ، وأن الإنسان ليس مسؤولاً إلا عن عمله ولا يتحمل وزر من تقدمه أو سبقه أو ولده ، أين هذا من الأديان القائلة بالتناسخ ، والتي تجعل الإنسان الحالي أثراً عن عمل من تقدمه ؟ أين ذلك من الأديان التي تجعل الأصل في الإنسان الشر ، وتجعله مسؤولاً عن خطيئة أبيه ، وتنطلق في التكليف من مبدأ التناقض مع الفطرة ؟

إن هذه المعاني وحدها كافية لإقناع المنصف أن الإسلام هو دين الله ، وأنه الدين الحق ، وأنه ليس أمام الإنسان إلا طريق وحيد هو الإيمان به ، والالتزام بتعاليمه ، فهو تكليف الله إلى كل الأمم ، وقد جعل الله فيه من مشرقات البراهين ما لا يسع المنصف إلا التسليم به .

ثم سلك المؤلف مسلكاً آخر للتدليل على عالمية الإسلام ، وأن البشرية مطالبة به ، ذلك أن الإسلام هو الذي طالب بالإيمان برسول الله جميعاً ، فطالب بالإيمان بهم وعدم التفريق فيما

بينهم وصحح النظرة إليهم ، فالغلاة من أتباعهم أرجعهم إلى القصد ، والمنتقصون لأقذارهم أرجعهم إلى الرشد .

بهذا وأمثاله وبمسالك متعددة أقام المؤلف الحجة على عالمية الإسلام ، وأنه لكل الأمم ، وأن على الأمم جميعاً أن تؤمن به ، وأن تقتدي بسيرة رسوله ﷺ وأن تهتدي بهداه .

* * *

(٨)

حقيقة الرسالة المحمدية وأيادها على البشرية

وبعد أن برهن المؤلف على أن الرسالة المحمدية لكل الأمم ، وأن على جميع الشعوب والأفراد أن يدخلوا فيها ، ختم محاضراته بالمحاضرة الثامنة التي تحدث فيها عن حقيقة هذه الرسالة ، وعن حقيقة مضمونها ، وعن بعض أيادها على البشرية ، وعن احتياجات البشرية حالاً واستقبالاً لها .

تحدث عن مظاهر متعددة من المحراف البشر قديماً وحديثاً ، وكيف أن الرسالة المحمدية صححت ، وأنها وحدها أعطت الحل الصحيح والجواب الصريح لمشكلات البشرية ولتساؤلاتها .

تحدث بالنسبة للذات الإلهية عما وقعت فيه البشرية من تشبيه وثقليل ، وكيف أن الإسلام صحح ذلك .

وأن نظريات الخير والشر وفلسفة الخير والشر وأسباب الخير والشر ، كل ذلك قد وجدت فيه أخطاء ، وجاء الإسلام فصيح ذلك .

وأن فكرة تعذيب الأجسام أصبحت جزءاً من كل الديانات ، فجاء الإسلام وحسم ذلك .

وأن فكرة الانتحار تضحية لله في زعمهم أو فراراً من ألم كانت ولا زالت جزءاً من تفكير

الإنسان ، وجاء الإسلام فأبطل ذلك وحرمه .

وأن فكرة قتل الأولاد أو وأد البنات أو حرق المرأة نفسها بعد وفاة زوجها كانت في بعض الأديان ، ولا زالت في بعضها بصور شتى ، وجاء الإسلام فحرم ذلك وأبطله .

ومن أكبر الجرائم التي اقترفتها الأمم ولا تزال باقية في بلاد لم تبلغها دعوة الإسلام ولم تشرق أنواره في أرضها ، أنهم جعلوا ثراء المال ونقاء الدم وشرف النسب وكرم المحتد ولون البشرة أساس الكرامة ورأس ما يتفاضلون به ويتفاخرون ، فجاء الإسلام بأسس جديدة هي وحدها الأسس الحميدة في تقويم الإنسان .

وكانت حياة الرقيق والمستعبدين والأسرى لا تطاق ، فجاء الإسلام برحمته الشاملة ، ففتح الباب لتحرير الرقيق ، ووضع الأساس لحسن التعامل مع الأسير .

ولقد وجد من فرق بين الدين والدنيا ، وجاء الإسلام فألغى هذا التناقض ، ولقد جاء الإسلام وفي العالم رهبانية وعزلة رهبة عن الحياة فوضع الأمور مواضعها ، فهناك واجبات حياتية لايسع أحداً أن يفرط فيها .

وفي شأن المرأة كانت ولا زالت أخطاء ، وفي شأن الأسرة كانت ولا زالت أخطاء ، وفي شأن السلم والحرب ، وفي شأن الحياة الاقتصادية كانت ولا زالت أخطاء ، وفي علاقات الشعوب مع بعضها البعض ، وفي نظرة الإنسان إلى الإنسان ، جاء الإسلام مصححاً وموجهاً ومعلماً ومربياً وقاطعاً الطريق على الانحراف .

كل ذلك بعض أيادي الإسلام على البشرية ، وكل ذلك وغيره تحتاجه البشرية بلا استثناء ، وكل ما في الإسلام حق وعدل .

فيا شعوب هذا العالم ويا أبناءه ليس أمامكم إلا الإسلام فأمنوا به والتزموا هديه .

وقد عرض المؤلف هذه المعاني كلها أجمل عرض وأقواه وضرب له من الأمثلة ما يشفي ويغني .

وقد ترددت كثيراً أن أجعل هذا التلخيص جزءاً من هذه المقدمة لطوله ، ولكن غلبني

أسره فأثبتته .

* * *

وعلى كل حال فقد عرفنا من هذه المحاضرات القيمة الكبرى لدراسة كل ما له علاقة بالرسالة المحمدية ، وعرفنا أن السيرة النبوية لا تعني فقط أن ندرس بعض أحداث هذه السيرة تاريخياً ، وقد أصاب الشيخ محمد الغزالي عندما ختم كتابه (فقه السيرة) بهذه الكلمات :

قد تظن أنك درست حياة محمد ﷺ إذا تابعت تاريخه من المولد إلى الوفاة ، وهذا خطأ بالغ ، إنك لن تفقه السيرة حقاً إلا إذا درست القرآن الكريم والسنة المطهرة . وبقدر ما تنال من ذلك تكون صلتك بنبي الإسلام ﷺ . اهـ .

* * *

ولقد صحح ما نقلناه عن الشيخ سليمان الندوي بعض المفاهيم والأغلاط ورُسِّخ بعض المعاني ، وقد آن الأوان لنكل أغراض هذه المقدمة في التصحيح والترسيخ فأقول :

السيرة في الاصطلاح هي التأريخ لحياته - عليه الصلاة والسلام - كما جرت عليه عادة كتاب السيرة . فالسيرة من هذه الحيشية يدخل فيها جزء من أفعاله وأقواله وتاريخه ﷺ وفي السيرة بالمعنى الاصطلاحي يقع بعض الناس في أغلاط .

من هذه الأغلاط أن بعضهم يعتبر السيرة النبوية بالمعنى الاصطلاحي وكأنها المصدر التشريعي الوحيد الذي تستخرج منه الأحكام ، وبعضهم يستخرجون من السيرة قواعد وعموميات ويحاولون تطبيقها على جزئيات حياتية قد تدخل فيها وقد لا تدخل ، وأحياناً يفرضون على الأمة ألا تخرج على ما يستنبطون ، ويحرمون على الأمة ألا تسير على ما يستخرجون ، وهناك ناس يعتبرون أفعال رسول الله ﷺ كلها على حد سواء في فرضية الاقتداء ، وهناك ناس يعطون أنفسهم حق التمييز بين أفعال الرسول ﷺ فهذا سنة وهذا مباح ، وهذا فعله بحكم رئاسته للدولة ، وهذا فعله بحكم أنه مشرع للأمة ، يعطون أنفسهم هذا الحق وهم ليسوا مؤهلين لذلك ، وهذا كله يستدعي توضيحاً .

إن أفعال الرسول ﷺ كلها جزء من سنته ، وسنته هي المصدر الثاني من مصادر التشريع ، ومصادر التشريع الأصلية أربعة : الكتاب والسنة والإجماع والقياس . أما المصادر

الفرعية فتعددة وهي مَجْلٌ خلاف بين المذاهب الأربعة ، ومنها : الاستحسان والاستصحاب والاستصلاح .. الخ .

والمسلمون بمجموعهم مكلفون أن يسيروا على ضوء حكم الله في الواقعة التي تواجههم ، والمسلم مكلف بالسير على ضوء حكم الله في الواقعة التي تواجهه ، وحكم الله يؤخذ من المصادر الأصلية والفرعية ، وتطراً عليه طوارئ بسبب من ظروف خاصة زماناً أو مكاناً أو شخصاً ، فما دام المسلم ملتزماً بحكم الله وبالفتوى المبصرة من أهلها فهو على إسلام ، وهو على سنة ، وهو مقتد برسول الله ﷺ ويدخل في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ ^(١) وهكذا لا تقيد الأمة الإسلامية ولا الفرد المسلم إلا بهذا القيد ، وهو الفتوى البصيرة من أهلها .

فإذا اتضح هذا نقول : إن من مصادر التشريع - التي تبنى عليها الفتوى - السنة ، وأفعال الرسول جزء من السنة النبوية وسيرته من أفعاله ، ولأصوليين مباحث بخصوص هذا الشأن منها : هل إذا فعل رسول الله ﷺ فعلاً فذلك يفيد الوجوب إلا إذا وجدت قرينة ، أم أنه لا يفيد الوجوب إلا إذا وجدت قرينة ؟ هناك وجهتا نظر .

قال أبو حامد الغزالي في (المنحول) :

والخيار عندنا وهو مذهب الشافعي - رضي الله عنه - أنه إن اقترن به قرينة الوجوب كقوله ﷺ : « صلوا كما رأيتموني أصلي » فهو للوجوب . وإن لم يقترن نظر ، فإن وقع من جملة الأفعال المعتادة ، من أكل ، وشرب ، وقيام وقعود ، وإتكاء ، واضطجاع ، فلا حكم له أصلاً . وظن بعض المحدثين أن التشبه به في كل أفعاله سنة ، وهو غلط ؛ وإن تردد بين الوجوب والندب ، فإن اقترنت به قرينة القربة فهو محمول على الندب ، لأنه أقل ، والوجوب متوقف فيه . وإن تردد بين القربة والإباحة ، فيتلقي منه رفع الحرج ، وليس هذا متلقى من صيغة الفعل ، إذ الفعل لا صيغة له ، ومستنده مسلك الصحابة فإننا نعلم أن المنوع من فعل فيما بينهم ، لو نقل عن الرسول ﷺ فعله لفهموا منه رفع الحرج .

وأما الإباحة فلا نتلقاه ، فإنه حكم يقتضي التخيير مع تساوي الطرفين ، وهو يناقض النذب ، والفعل متردد بينه وبين رفع الحرج ، فأقل الدرجات رفع الحرج .

فإن تمسك أبو حنيفة - رحمه الله - بإجماع الأمة على كون النبي - عليه السلام - أسوة وقدوة ومطاعاً ، وشرطه الاقتداء به في كل ما يأتي ويذر .

قلنا : معناه أن أمره ممتثل ، كما يقال : الأمير مطاع في قومه ، ولا يراد به أنهم يتربعون إذا تربع ، أو ينামون إذا نام .

فإن تمسك بقوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ ^(٢) وقوله : ﴿ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ ^(٣) فكل ذلك محمول على الأمر ، وهو الذي أتانا به دون الفعل .

وهل الأصل فيما لم يفعله الرسول ﷺ الحرمة أو الإباحة ؟ الذي عليه جماهير الأمة سلفاً وخلفاً أن الأصل في الأشياء الإباحة ، ومن هنا ندرك خطأ الذين يقولون : هات الدليل على أن هذا الشيء فعله رسول الله ﷺ لكي يعتبر جائزاً ، الصواب أن يقال : هات الدليل على أن الرسول ﷺ حرّمه ، فشيء لم يفعله ولم يأمر به ولم ينه عنه فالأصل فيه الجواز .

إذا اتضحت هذه المعاني فإننا نستطيع أن ندرك كثيراً من الأخطاء ، خطأ الذين يجرمون شيئاً لأن رسول الله ﷺ لم يفعله ، وخطأ الذين يعتبرون أن مجرد فعل الرسول ﷺ يفيد الفرضية .

لقد وجد ناس قرأوا السيرة فاستخرجوا منها أن المنحى العام لرسول الله ﷺ في إقامة الدولة الإسلامية كان على طريقة معينة : دعوة دون قتال مع طلب النصرة ثم هجرة ثم ... ، وبناء عليه فإن الأمة الإسلامية يفترض عليها أن تسير على نفس المنحى ، مع أن الظروف التي تمر بها الأمة الإسلامية تختلف ، والأحكام قد اكتملت ولم يعد النسخ في الشريعة متصوراً ، والعبرة لآخر ما استقر عليه التشريع ، ومن ثم فالمسلم مكلف في ما

(١) الحشر : ٧ .

(٢) النور : ٦٣ .

(٣) آل عمران : ٣١ .

يواجهه أن يبحث عن حكم الله ، والأمة الإسلامية مقيدة في سيرها بحكم الله ، فقد يكون حكم الله القتال ابتداء ، وقد يكون غير ذلك .

وأفعال الرسول ﷺ منها ما يفيد الإباحة ، ومنها ما يفيد السنية ، ومنها ما يفيد الوجوب ، والقرائن هي التي تحدد ، وحتى أوامره ونواهيه ﷺ للقرائن دخل في فهم الوجوب أو الحرمة منها ، وفهم هذه القضية بالمكان الأعلى من فقه الحركة ، صحيح أن من قلد رسول الله ﷺ في أفعاله غير المنسوخة فهو مأجور في كل حال ، ولكن هذا شيء وادعاء الفرضية أو الحرمة شيء آخر .

ولا شك أن بعض أفعال رسول الله ﷺ ينطبق عليه وصف السياسة الشرعية ، وبالتالي فبعض أفعاله جزء من السياسة اليومية التي كان يفعلها رسول الله ﷺ بحكم إدارته لشؤون المسلمين .

ولكن هل كل أحد مرشح لأن يقول عن أفعال رسول الله ﷺ إن هذا يفيد السنية ، وهذا يفيد الوجوب ؟ وهل كل إنسان مرشح لأن يقول : هذا من السياسة اليومية وهذا من التشريع الدائم ؟

إن هناك معلومات من الدين بالضرورة يستوي في معرفتها والفتوى بها العام والخاص ولكن ما سوى ذلك من أمور مشتهات لا يستطيعها إلا مجتهد استشرف نصوص الكتاب والسنة واستوعب الكليات والجزئيات ، أمثال هؤلاء هم المرشحون للبيان قال - عليه الصلاة والسلام - في الحديث الصحيح : « وبين ذلك أمور مشتهات لا يعلمها كثير من الناس » وإذن فهناك من يعلمها وهم الأئمة المجتهدون ، ولخطورة أن يتكلم في هذا الموضوع أحد لم يصل إلى رتبة الاجتهاد ، حكم الأئمة على من يتصدر للاجتهاد وليس أهلاً له بأنه ضال مضل ، لأنه في هذه الحالة يجعل الحرام حلالاً ، والواجب مباحاً ، أو المباح حراماً ، أو يعطل لنصوص بحجة أنها مؤقتة بوقت ، أو كانت مرحلية ، إلى غير ذلك من أقوال إن لم تكن صادقة فهي الضلال عينه .

* * *

وإلى الباب الأول من قسم السيرة النبوية .

الباب الأول
مِن
سِيرَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وهو
مِنَ الْبُدْءِ حِكْمَةُ النَّبُوءَةِ الشَّرِيفَةِ

هذه المرحلة في سطور

* لم تقصد بكلمة (البدء) الميلاد ، وإنما أردنا في هذا الباب أن نذكر بعض النصوص التي تعتبر معالم كبرى متعلقة به ﷺ قبل النبوة ، سواء كانت قبل الميلاد أو بعده .

* أخذ الله على الرسل جميعاً أن يؤمنوا بمحمد ﷺ إذا بعث وهم أحياء ، وقد بشر به الرسل أقوامهم ، ولازالت في بقايا الوحي آثار كثيرة تبشر به ﷺ ففي كتب الهند الدينية ، وفي كتب الفرس الدينية ، وفي العهدين القديم والجديد ، كثير من البشارات به ، وقد ذكرنا ذلك في كتابنا (الرسول ﷺ) وهو مع ذلك كله من ذرية إبراهيم عن طريق إسماعيل - عليها السلام - .

* ظهرت إرهاصات كثيرة تبشر ببعثته ، وظهرت علامات تهمد لاستقبال الوحي .

* ولد من أبوين قرشيين ، يعتبران أكرم خلق الله نسباً ، هما : عبد الله بن عبد المطلب ، وأمنة بنت وهب الزهرية .

* ولد عام الفيل ، ونبي على رأس الأربعين ، توفي أبوه في المدينة المنورة وأمه حامل به - على القول الراجح - ، ومن حواضنه : بركة أم أيمن ، ومن مرضعه : ثويبة مولاة أبي لهب ، وحليمة السعدية .

* بقي في حضانة حليمة السعدية حتى السنة السادسة من عمره - في رواية - ثم أعادته إلى أمه بعد حادثة شق الصدر ، وفي نفس السنة ذهبت أمه إلى المدينة المنورة لزيارة قبر زوجها ، وفي العودة توفيت ودفنت بالأبواء بين مكة والمدينة .

* وفي أوائل السنة التاسعة من عمره توفي كافله ومرييه : جده عبد المطلب ، بعد أن عهد إلى ابنه أبي طالب بكفالتة .

* وفي أوائل السنة الثالثة عشرة من عمره خرج به أبو طالب إلى الشام ، وأرجعه من الطريق بناءً على وصية بحيرا الراهب .

* وفي السنة العشرين من عمره - على قول - حضر حرب الفجار التي كانت بين قومه

وكنانة وبين قيس، وكان يجهز فيها النبل لأعمامه .

* وشارك بعد حرب الفجار في حلف الفضول في دار ابن جدعان ، وهذا الحلف من مكارم قریش الكبرى ، إذ كان حلفاً على نصره المظلوم .

* وقد رعى أثناء هذه المرحلة الغنم ، وكان لا يألو جهداً في العمل .

* وأخيراً أجر نفسه لخديجة ، فذهب هو وغلماها ميسرة إلى الشام في تجارة لها ، وتخصت العلاقة التجارية عن زواج رسول الله ﷺ بها وهو ابن خمس وعشرين سنة وهي بنت أربعين ، ولدت له جميع أولاده وبناته ، ما عدا إبراهيم عليه السلام .

* ووالى العمل التجاري بعد ذلك ، وكان له في مرحلة من المراحل شريك هو السائب ابن أبي السائب .

* وشارك وهو في سن الخامسة والثلاثين في بناء الكعبة ، وحكّمته قریش فبنى يضع الحجر الأسود .

* وغلبت عليه العبادة في أخريات هذه المرحلة ، وأصبحت رؤياه كفلق الصبح ، ورأى خلال هذه المرحلة نوراً ، وسمع صوتاً ، وكلمته بعض الجمادات ، وحدث له في صفره حادثة شق الصدر ، ثم تكررت .

* ولم يشارك طوال حياته في أعمال الجاهلية ، ولا في عبادات أهلها ، وكان قومه يطلقون عليه لقب الأمين .

* تبنى زيد بن حارثة بعد أن أعتقه على إثر إثار زيد له ﷺ على أهله ، وبقائه معه .

* وكانت له صداقاته القليلة ، وعلاقاته النظيفة ، وسمته الطاهرة ، واجتمع له الفقر والعمل مع مكارم الأخلاق كلها .

* كفل في أخريات هذه المرحلة عليّ بن أبي طالب ، ليخفف عن عمه أبي طالب .

* وصفته خديجة بعد النبوة - ملخصة صفاته قبل النبوة بما معناه - بأنه : يحمل المنقطع ، ويقرى الضيف ، ويغيث الملهوف ، ويعين على نوائب الحق ، مستدلة بهذه الصفات على السلامة من الآفات ، ومثبتة له على أمر النبوة .

* * *

فَصْلٌ : في فضل النَّسَبِ وفي فضل الجيل

نسب الرسول ﷺ :

* ذكر البخاري ^(١) نسب رسول الله ﷺ فقال : (هو ﷺ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان) .

أقول : ثم يصل نسبه إلى إبراهيم - عليه السلام - ويرى بعض النسابين أن بين عدنان وإبراهيم أربعين جداً لرسول الله ﷺ ، فهو من أبناء إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - ثم بعد ذلك يدخل في نسب إبراهيم الذي تلمع فيه نبوات ورسالات كبرى إلى آدم - عليه السلام - وإنما اتصل نسب إبراهيم - عليه السلام - بالعرب من خلال ابنه إسماعيل ، حيث أسكنه وأمه بوادي غير ذي زرع في مكة المكرمة ، كما هو معلوم من القرآن والسنة الصحيحة .

* * *

اصطفاء نبينا من خير بني آدم ومن خير الأجيال : ^(٢) :

١ - * روى مسلم عن واثلة بن الأسقع - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، واصْطَفَى قُرَيْشاً مِنْ كِنَانَةَ ، واصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ ، واصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ » .

٢ - * روى الترمذي عن العباس بن عبد المطلب - رضي الله عنه - قال : قلت :

(١) ذكر زَيْنٌ أنه عن ابن عباس .

(٢) لهذه الفقرة تعلق بفصل النسب من حيث شرفه ﷺ .

١ - مسلم (٤ / ١٧٨٢) ٤٣ - كتاب الفضائل - ١ - فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة .

والترمذي (٥ / ٥٨٣) ٥٠ - كتاب المناقب - ١ - باب في فضل النبي ﷺ . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

٢ - الترمذي (٥ / ٥٨٤) ٥٠ - كتاب المناقب - ١ - باب في فضل النبي ﷺ . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .
كبوة : الكبوة ههنا محل تجمع الغبار والطيني .

يارسول الله إن قريشاً جلسوا فتذاكروا أحسابهم بينهم ، فجعلوا مثلكَ كمثل نخلة في كبوة من الأرض فقال ﷺ : « إن الله خلقَ الخلقَ ، فجعلني من خيرهم من خير فرقيهم ، وخيرَ الفريقين ، ثم تَخَيَّرَ القبائلَ ، فجعلني من خيرِ قبيلةٍ ، ثم تَخَيَّرَ البُيُوتَ ، فجعلني من خيرِ بُيُوتهم ، فَأَنَا خَيْرُهُمْ نَفْساً وَخَيْرُهُمْ بَيْتاً » .

٣ - * روى البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « بُعِثْتُ من خيرِ قرونِ بني آدمَ قرناً فقرناً ، حتى كنتُ من القرنِ الذي كنتُ منه » .

٤ - * روى الطبراني عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَتَقْلِبْكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ ^(١) قال : « من صلب نبي إلى صلب نبي حتى صرت نبياً » .

وقد علق الدكتور البوطي على ما ورد بخصوص نسبه الشريف ﷺ بقوله : فيما أوضحناه من نسبه الشريف ﷺ ، دلالة واضحة على أن الله - سبحانه وتعالى - ميَّزَ العربَ على سائر الناس ، وفضل قريشاً على سائر القبائل الأخرى .

واعلم أن مقتضى محبة رسول الله ﷺ ، محبة القوم الذين ظهر فيهم والقبيلة التي ولد فيها ، لا من حيث الأفراد ... بل من حيث الحقيقة المجردة ، ذلك لأن الحقيقة العربية القرشية ، قد شرف كل منها - ولا ريب - بانتساب رسول الله ﷺ إليها .

ولا ينافي ذلك ما قد يلحق من سوء بكل من قد انحرف من العرب أو القرشيين ، عن صراط الله - عز وجل - وانحط عن مستوى الكرامة الإسلامية التي اختارها الله لعباده ، لأن هذا الانحراف أو الانحطاط من شأنه أن يؤدي بما كان من نسبة بينه وبين رسول الله ﷺ ويلغيها من الاعتبار .

٣ - البخاري (٦ / ٥٦٦) ٦١ - كتاب المناقب - ٢٣ - باب صفة النبي ﷺ .

القرون : جمع قرن ، وهو الأمة في عصر من الأعصار ، كلما انقضى عصر سمي أهله قرناً ، سواء طال أو قصر .

٤ - أورده المهيبي في مجمع الزوائد (٧ / ٨٦) وقال : رواه البزار والطبراني ، ورجلها رجال الصحيح ، غير شبيب بن بشر ، وهو ثقة .

(١) الشعراء : ٢١٩ .

أقول :

وفي الحديث قبل الأخير ما يفيد أن إيجابيات بعض النفوس البشرية في عصره كانت أرقى منها في أي عصر مضى أو سيأتي بعده ، ومن عرف خصائص جيل الصحابة أدرك أنه جيل فريد لم يوجد مثله ولن يوجد جيل في مستواه .

* * *

تزكية الله لنبيه ﷺ وللصحابة (١) :

٥ - * روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود ، قال : **إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ ، فَأَبْتَنَّهُ بِرِسَالَاتِهِ ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ ، فَجَعَلَهُمْ وَزَرَاءَ نَبِيِّهِ . يَقَاتِلُونَ عَنْ دِينِهِ ، فَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ سَيِّئٌ .**

فائدة :

هذا الحديث أصل من الأصول التي يستدل بها على حجية الإجماع . وفيه تعليل لاختيار الله ﷻ محمداً ﷺ . كما أن فيه تعليلاً لفضل الصحابة على غيرهم ، ولفضل جيلهم على الأجيال . ومن الحديث تعرف سرّ قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ (٢) فقلب من نوع معين هو الذي يستأهل أن يتلقى الوحي ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ** ﴾ (٣) .

* * *

(١) تعلق هذه الفقرة بعنوان الفصل من حيث إنها حديث عن كرامة الجليل الذي وجد فيه رسول الله ﷺ .

٥ - أحمد في مسنده (١ / ٣٧٩) . وذكر البزار جزءاً منه ، راجع : كشف الأستار (٣ / ١١٤) كتاب علامات النبوة - باب في منزلته ﷺ . ورواه الطبراني في الكبير والأوسط ، ورجاله موثقون ، راجع : مجمع الزوائد (٨ / ٢٥٢) - كتاب علامات النبوة - باب عظم قدره ﷺ .

(٢) الأنعام : ١٢٤ .

(٣) الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤ .

[هاجر] جده رسولنا - عليها الصلاة والسلام - : (١)

٦ - * روى البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَطُّ ، إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ ، ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللَّهِ ، قَوْلُهُ : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ (٢) ، وَقَوْلُهُ : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ (٣) . وَوَاحِدَةً فِي شَأْنِ سَارَةَ ، فَإِنَّهُ قَدِيمَ أَرْضِ جَبَّارٍ وَمَعَهُ سَارَةُ ، وَكَانَتْ أَحْسَنَ النَّاسِ ، فَقَالَ لَهَا : إِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ ، إِنْ يَعْلَمْ أَنَّكَ امْرَأَتِي ، يَغْلِبَنِي عَلَيْكَ ، فَإِنْ سَأَلَكَ فَأَخْبِرِيهِ أَنَّكَ أُخْتِي ، فَإِنَّكَ أُخْتِي فِي الْإِسْلَامِ ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ مُسْلِمًا غَيْرِي وَغَيْرِكَ . »

فَلَمَّا دَخَلَ أَرْضَهُ رَأَاهَا بَعْضُ أَهْلِ الْجَبَّارِ ، أَتَاهُ فَقَالَ لَهُ : لَقَدْ قَدِيمَ أَرْضِكَ امْرَأَةٌ لَا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَكُونَ إِلَّا لَكَ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَأَتَتْ بِهَا . فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الصَّلَاةِ ..

فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ لَمْ يَتِمَّاكَ أَنْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَيْهَا ، فَقَبِضَتْ يَدَهُ قَبْضَةً شَدِيدَةً ، فَقَالَ لَهَا : ادْعِي اللَّهَ أَنْ يُطْلِقَ يَدِي وَلَا أَضْرُكَ . فَفَعَلَتْ ، فَقَادَ ، فَقَبِضَتْ أَشَدَّ مِنَ الْقَبْضَةِ الْأُولَى ، فَقَالَ لَهَا مِثْلَ ذَلِكَ ، فَفَعَلَتْ ، فَقَادَ ، فَقَبِضَتْ أَشَدَّ مِنَ الْقَبْضَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ ، فَقَالَ : ادْعِي اللَّهَ أَنْ يُطْلِقَ يَدِي ، فَلَكَ اللَّهُ أَنْ لَا أَضْرُكَ ، فَفَعَلَتْ ، وَأُطْلِقَتْ يَدُهُ ، وَدَعَا الَّذِي جَاءَ بِهَا ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّكَ إِنَّمَا أَتَيْتَنِي

(١) تعلق هذه الفقرة بفصل النسب واضح لأن فيها حديثاً عن المجد الأشراف لرسولنا عليه الصلاة والسلام وفي هذه الفقرة كلام عن جدته هاجر أم إسماعيل عليها السلام .

٦ - البخاري : (٦ / ٢٨٨) ٦٠ - كتاب الأنبياء - ٨ - باب قول الله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ ، وقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ ﴾ . وأخرجه مسلم ، واللفظ له : (٤ / ١٨٤٠) ٤٣ - كتاب الفضائل - ٤١ - باب من فضائل إبراهيم الخليل - عليه السلام - .

يغلبني عليك : يقتلني ليتزوجك . فلك الله : أي شاهد وضامن أن لا أضرك . مَهْمِهِمْ : كلمة معناها : ما شأنك ؟ وما خبرك ؟ . الخادم : يطلق على الذكر والأنثى . بنو ماء السماء : هم العرب ، سُمُّوا بذلك لخلوص نسبهم وصفائهم ، وقيل : لأنهم يرعون العشب الذي ينبت ماء السماء .

(١) الصفات : ٨٩ .

(٢) الأنبياء : ٦٣ .

بَشِيطَانٍ ، وَلَمْ تَأْتِنِي يَأْنَسَانِ ، فَأَخْرَجَهَا مِنْ أَرْضِي ، وَأَعْطَيْهَا هَاجَرَ .
 قَالَ : فَأَقْبَلْتُ تَمْشِي ، فَلَمَّا رَأَاهَا إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنْصَرَفَ ، فَقَالَ لَهَا :
 مَهَيْتُمْ ، قَالَتْ : خَيْرًا ، كَفَّ اللَّهُ يَدَ الْفَاجِرِ ، وَأَخَذْتُمْ خَادِمًا » .
 قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : فَبَلَغَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ .

تعليق حول صدق إبراهيم - عليه السلام - :

ما ذكره إبراهيم - عليه السلام - في المواقف الثلاثة إنما هو من التورية الجائرة ، وإنما
 أطلق عليه الكذب مجازاً ، قال النووي في شرحه لمسلم :

وأما قوله ﷺ : «... ثنتين في ذات الله - تعالى - ...» ، وواحدة في شأن سارة ..» فعنناه :

أن الكذبات المذكورة إنما هي بالنسبة إلى فهم المخاطب والسامع ، وأما في نفس الأمر
 فليست كذباً مذموماً ، لوجهين ، أحدهما : أنه وَرَى بها ، فقال في سارة : أخوتي في الإسلام ،
 وهو صحيح في باطن الأمر ، وسنذكر - إن شاء الله تعالى - تأويل اللفظين الآخرين ^(١) .
 والوجه الثاني : أنه لو كان كذباً لا تورية فيه لكان جائزاً في دفع الظالمين ، وقد اتفق
 الفقهاء على أنه لو جاء ظالم يطلب إنساناً مختفياً ليقطعه ، أو يطلب وديعة لإنسان ليأخذها
 غضباً ، وسأل عن ذلك وجب على من علم ذلك إخفاؤه وإنكار العلم به ، وهذا كذب جائز
 بل واجب لكونه في دفع الظالم فنبه النبي ﷺ على أن هذه الكذبات ليست داخلية في
 مطلق الكذب المذموم .

ولعله من أجل كمال صدق إبراهيم - عليه السلام - ساء الله - تعالى - في التنزيل
 الشريف : ﴿ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۖ ﴾ ^(٢) ، ولعل أيضاً من إنعامات الله عليه لهذا الصدق أن

(١) قال النووي في موضع آخر : وذكرنا في قوله : إني سقيم ، أي : ساسقم ، لأن الإنسان عرضة للأسقام ، وأراد بذلك
 الاعتذار عن الخروج معهم إلى عيدهم وشهود باطلهم وكفرهم . وقيل : سقيم بما قدر علي من الموت . وقيل : كانت
 تأخذه الحمى في ذلك الوقت . وأما قوله : بل فعله كبيرم ، فقال ابن قتيبة وطائفة : جعل النطق شرطاً لفعل
 كبيرم ، أي فعله كبيرم إن كانوا ينطقون ، وقال الكسائي : يوقف عند قوله : بل فعله ، أي فعله فاعله فأخضر ، ثم
 يبتدئ فيقول : كبيرم هذا ، فأسألهم عن ذلك الفاعل .

(٢) مريم : ٤١ .

جعل من نسله إمام الصديقين وخاتم المرسلين محمداً ﷺ الذي ربي أمة على الصدق في القول والحال والعمل ، فكانت خير أمة أخرجت للناس .

قصة إسماعيل الذبيح - عليه السلام - وبناء البيت ^(١) :

٧ - * روى البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل ، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبانها إسماعيل - وهي ترضع - حتى وضعا عند البيت ، عند دوحه فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعا هنالك ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم قفى إبراهيم منطقاً ، فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : يا إبراهيم ، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم : قالت : إذا لا يضيئنا .

ثم رجعت ، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية - حيث لا يرونة - استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا هؤلاء الكلمات ، ورفع يديه فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ حتى بلغ ﴿ يَشْكُرُونَ ﴾ ^(٢) .

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل ، وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت ، وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال : يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً ، فهبطت من الصفا ، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعي الإنسان المجهود ، حتى جاوزت الوادي ، ثم أتت

(١) تعلق هذه الفقرة بفصل النسب من حيث إنها حديث عن إبراهيم وإسماعيل جدي رسول الله عليهم الصلاة والسلام وما أحاط بسرية السكنى في الحرم .

٧ - البخاري (٢٩٦ / ٦) - ٦٠ - كتاب الأنبياء - ١ - باب يزفون النسلان في المشي .
المنطق : هو ما تشد به المرأة وسطها عن عمل الأشغال لترفع ثوبها . وهو أيضاً النطاق . لتعفي : لتخفي .
الدوحة : الشجرة العظيمة . قفى : ولأك قفاه رجماً عنك . الله أمرك بهذا : أي هل أمرك الله بهذا ؟ . الثنية : الطريق في العقبه ، وقيل : هو المرتفع من الأرض فيها . ﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ : مكة ، فلا ينبت فيها زرع . يتلبط : يضطرب ويتقلب ظهراً لبطن . درعها : قميصها . الإنسان المجهود : الذي أصابه الجهد .

(٢) إبراهيم : ٣٧ .

المُرْوَة ، فقامت عليها فنظرت ، هل ترى أحداً ؟ فلم ترَ أحداً ، ففعلت ذلك سبعَ مرّاتٍ قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : « فذلك سعي الناس بينهما » .

فلما أشرقت على المُرْوَة سمعت صوتاً ، فقالت : صه - تريدُ نفسها - ثم سمعتُ أيضاً ، فقالت : قد أسمعتُ إن كان عندك غواث ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بقبّيه - أو قال : بجناحه - حتى ظهر الماء ، فجعلت تخوضه ، وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تعرف من الماء في سقائها ، وهو يفور بعد ما تعرف . قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : « يرحم الله أم إسماعيل ، لو تركت زمزم - أو قال : لو لم تعرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً » ، قال : فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة ، فإن هاهنا بيت الله ، يبني هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله .

وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالراية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ، فكانت كذلك حتى مرّت بهم رفقة من جرهم - أو أهل بيت من جرهم - مقبلين من طريق كداء ، فنزلوا في أسفل مكة ، قرأوا طائراً عائفاً ، فقالوا : إن هذا الطائر ليذوّر على ماء ، لهذا الوادي وما فيه ماء ، فأرسلوا جرياً أو جريين ، فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبرهم بالماء ، فأقبلوا - قال : وأم إسماعيل عند الماء - فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ فقالت : نعم ، ولكن لا حق لكم في الماء . قالوا : نعم .

قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : « فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس » فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم ، فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام ، وتعلم العربية منهم ، وأنفسهم وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجة امرأة منهم .

وماتت أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم ، بعد ما تزوج إسماعيل ، يطالع تركته ، فلم يجد

صه : اسكت ، وقوله : (تريد نفسها) معناه : لما سمعت الصوت سكنت نفسها لتتحققه . غواث : الغواث والغياث والمعونة ، وإجابة المستغيث . تخوضه : أي : يحمل له حوضاً يجتمع فيه الماء . معيناً : الماء الظاهر الجاري الذي لا يمتدأ أخذه . الضيعة : الضياع والحاجة . الراية : ما ارتفع من الأرض . جرهم : قبيلة من اليمن ، تزوج منها إسماعيل - عليه السلام - . كداء : بالفتح والمد : الثنية من أعلى مكة مما يلي المقابر . وبالضم والقصر : من أسفلها مما يلي باب المعرة . عائفاً : العائف : المتردد حول الماء . الجري : الرسول والوكيل . أنفسهم : أي : صار عندهم نفساً مرغوباً فيه . تركته : التركة بسكون الراء : ولد الإنسان ، وهو في الأصل : بيضة النعام - والتركة : اسم للشيء المتروك .

إسماعيل ، فسأل امرأته عنه ؟ فقالت : خرج يبتغي لنا ، ثم سألتها عن عيشهم وهيئتهم ؟ فقالت : نحن بشر ، نحن في ضيق وشدة ، فشكتُ إليه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ، وقولي له : يغيّر عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيلُ كأنه أنس شيئاً ، فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم ، جاءنا شيخٌ كذا وكذا ، فسألنا عنك ، فأخبرته ، وسألني : كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا في جهدٍ وشدة ، قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، أمرني أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : يغيّر عتبة بابك ، قال : ذاك أبي ، وقد أمرني أن أفارقك ، الحقي بأهلك ، فطلقها ، وتزوج منهم أخرى .

فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد ، فلم يجده ، فدخل على امرأته ، فسألتها عنه ؟ فقالت : خرج يبتغي لنا ، قال : كيف أنتم ؟ وسألتها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله ، فقال : ما طعمكم ؟ قالت : اللحم ، قال : فما شربكم ؟ قالت : الماء ، قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء ، قال النبي ﷺ : « ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ . ولو كان لهم دعا لهم فيه » ، قال : فيها لا يخلو عليها أحدٌ بغير مكة إلا لم يوافقاه .

قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ، ومريه يثبت عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيلُ قال : هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم ، أتانا شيخٌ حسن الهيئة . وأثنت عليه . فسألني عنك ؟ فأخبرته ، فسألني ، كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخير ، قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرُك أن تثبت عتبة بابك ، قال : ذاك أبي وأنت العتبة ، أمرني أن أمسكك .

ثم لبث عنهم ما شاء الله ، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيلُ يبكي نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم ، فلما رآه قام إليه ، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد ، والولد بالوالد ، ثم قال : يا إسماعيلُ ، إن الله أمرني بأمر ، قال : فاصنع ما أمرك ربك ، قال : وتعينني ؟ قال : وأعينك ، قال : فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً . وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها .

يبتغي لنا : يطلب لنا الرزق ويسعى فيه . اقرئي عليه السلام : بلغيه السلام . أبصر شيئاً : أبصر شيئاً ، وأراد : كأن رأى أثر أبيه وبركة قدمه . أفارقك : أي أطلقك . أكمة : الأكمة ما ارتفع من الأرض كالرابية . القواعد : مفرداً قاعدة ، وهي أساس البيت .

فعند ذلك رَفَعَا القواعدَ مِنَ البيتِ ، فجعلَ إسماعيلُ يأتي بالحجارة ، وإبراهيمُ يبني ، حتى إذا ارتَفَعَ البناءُ جاءَ بهذا الحجرِ فوضَعَهُ لَهُ ، فقَامَ عليه وهو يبني ، وإسماعيلُ يُناوِلُهُ الحِجارةَ ، وهما يَقُولانِ : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ^(١) .

٨ - * روى الحاكم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله - عز وجل - :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ ﴾ ^(٢) قال : من شيعة نوح إبراهيم على منهاجه وسنته .

﴿ بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ ^(٣) : شب حتى بلغ سعيه سعي إبراهيم في العمل .

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ ^(٤) : ما أمرا به .

﴿ وَثَلَّةٌ لِلْجَبِينِ ﴾ ^(٥) : وضع وجهه إلى الأرض ، فقال : لا تذبحني وأنت تنظر ، عسى أن ترحمني فلا تجهز عليّ ، اربط يدي إلى رقبتي ، ثم ضع وجهي على الأرض ، فلما أدخل يده ليذبحه ، فلم يحك المديّة حتى نودي :

﴿ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ ^(٥) : فأمسك يده ورفع .

قوله : ﴿ وَقَدْ يُنَادِي بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ ^(٦) : بكبش عظيم متقبل .

وزعم ابن عباس أن الذبيح إسماعيل .

أقول :

ما قاله ابن عباس يوافق دقائق فهم القرآن من أن الذبيح إسماعيل - عليه السلام - ، ولا

(١) البقرة : ١٢٧ .

٨ - المستدرک (٢ / ٤٣٠) وقال : حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .
لا تجهز عليّ : معناه : ترحمني فلا تقتلني .

(٢) الصافات : ٨٢ .

(٣) الصافات : ١٠٢ .

(٤) الصافات : ١٠٣ .

(٥) الصافات : ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٦) الصافات : ١٠٧ .

أعلم في تاريخ العالم مثلاً أرقى على الاستسلام لله من هذا المثل ، فلا عجب أن أكرم الله - تبارك وتعالى - إبراهيم وإسماعيل أن جعل من نسلهما محمداً ﷺ أول المسلمين وخاتم المرسلين .

وقد سارع إبراهيم وإسماعيل إلى تحقيق الرؤيا ، لأن رؤيا الأنبياء وَحْيٌ واجب الطاعة ، وأما رؤيا غير الأنبياء فحلها النظر .

* * *

فائدة في التعريف بالقبائل العربية :^(١)

يحسن بنا ونحن بصدد بعض النصوص التي تتحدث عن نسب رسول الله ﷺ ، أن نتعرف في عجلة سريعة على قبائل العرب ، خاصة العرب المستعربة ، أو العدنانية المنحدرة من صلب إسماعيل ، عليه وعلى نبينا أفضل الصلوات وأتم التسليمات .

قال المباركفوري في الرحيق المختوم^(٢) :

أقوام العرب قد قسمها المؤرخون إلى ثلاثة أقسام ، بحسب السلالات التي ينحدرون منها :

١ - العرب البائدة : وهم العرب القدامى الذين لم يمكن الحصول على تفاصيل كافية عن تاريخهم ، مثل : عاد ، وثمود ، وطّسّم ، وجديس ، وعِمْلَاق ، وسواها .

٢ - العرب العاربة : وهم العرب المنحدرة من صلب يَعْرَبَ بن يَشْجَبَ بن قَحْطَان ، وتسمى بالعرب القحطانية .

٣ - العرب المستعربة وهم العرب المنحدرة من صلب إسماعيل ، وتسمى بالعرب العدنانية . فأما العرب العاربة - وهي شعب قحطان - فهدّها بلاد اليمن ، وقد تشعبت قبائلها

(١) لهذه الفقرة صلة بفصل النسب لأنها تعرفنا على قبائل الشعب العربي وعلى محل قبيلته عليه الصلاة والسلام من هذه القبائل .

(٢) الرحيق المختوم : (٢٠ - ٢٧) .

وبطونها ، فاشتهرت منها قبيلتان :

أ - جَمِير ، وأشهر بطونها : زيد الجمهور ، وقضاة ، والسكاسك .

ب - كَهْلَان : وأشهر بطونها : هَمْدَان ، وَأَنْمَار ، وَطَيَّي ، وَمَذْجِج ، وَكِنْدَةَ ، وَلَخْم ، وَجَذَام ، وَالْأَزْد ، وَالْأَوْس ، وَالْخَزْرَج ، وأولاد جَفْنَةَ ملوك الشام^(١) .

وأما العرب المستعربة ، فأصل جدهم الأعلى - وهو سيدنا إبراهيم عليه السلام - من بلاد العراق ، من بلدة يقال لها (أور) على الشاطيء الغربي من نهر الفرات ، بالقرب من الكوفة ومعلوم أن إبراهيم - عليه السلام - هاجر منها إلى حاران - أو حران - ، ومنها إلى فلسطين ، فاتخذها قاعدة لدعوته ، وكانت له جولات في أرجاء هذه البلاد وغيرها ، وقدم مرة إلى مصر ، وقد حاول فرعون مصر كيداً وسوءاً بزوجه سارة ، ولكن الله رد كيده في نحره ، وعرف فرعون ما لسارة من الصلة القوية بالله ، حتى أخذها (هاجر) اعترافاً بفضلها ، وَزَوَّجَهَا سَارَةَ إِبْرَاهِيمَ^(٢) .

ورجع إبراهيم إلى فلسطين ، ورزقه الله من هاجر إسماعيل ، وغارت سارة حتى ألجأت إبراهيم إلى نفي هاجر مع ولدها الصغير - إسماعيل - فقدم بها إلى الحجاز ، وأسكنها بواي غير ذي زرع عند بيت الله المحرم الذي لم يكن إذ ذاك إلا مرتفعاً من الأرض كالرايبة والقصة معروفة بطولها^(٣) .

وقد كان إبراهيم يرحل إلى مكة بين آونة وأخرى ليطالع تركته ، ولا يعلم كم كانت هذه الرحلات ، إلا أن المصادر التاريخية حفظت أربعة منها^(٤) .

وقد رزق الله إسماعيل من ابنة مضا^(٥) اثني عشر ولداً ذكراً ، وهم : نابت أو

(١) وانظر : المصدر السابق (٢٠ - ٢٢) لتفصيل هذه القبائل وهجراتها .

(٢) انظر : نص الحديث الذي رواه البخاري ومسلم ، لتفصيل قصة هذا الكيد : ص ١٤١ من هذا الفصل .

(٣) انظر : نص الحديث الذي رواه البخاري ، لتطالع تفصيل هذه القصة : ص ١٤٢ إلى ص ١٤٦ .

(٤) انظر : النص السابق والذي بعده ، ففيه تفصيل الرحلات الأربع التي ارتحلها إبراهيم - عليه السلام - إلى مكة .

(٥) وهي الزوجة الثانية التي أمر إبراهيم ولده إسماعيل أن يثبتها ولا يفارقها . راجع الحديث ص ١٤٥ وهي ابنة مضا^(٥) كبير قبيلة جرهم وسيدهم .

بنالوط ، وقيدار ، وأدبائيل ، ومبشام ، ومشاع ، ودوما ، وميشا ، وحدد ، ويطما ، ويطور ، ونفيس ، وقيدمان .

وتشعبت من هؤلاء اثنتا عشرة قبيلة ، سكنت كلها في مكة مدة ، وكانت جُلُ معيشتهم التجارة من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ومصر ، ثم انتشرت هذه القبائل في أرجاء الجزيرة بل إلى خارجها ، ثم أدرجت أحوالهم في غياهب الزمان ، إلا أولاد نابت وقيدار .

وازدهرت حضارة الأنباط في شمال الحجاز ، وكونوا حكومة قوية دان لها من بأطرافها ، واتخذوا البتراء عاصمة لهم ، ولم يكن يستطيع مناوئتهم أحد حتى جاء الرومان فقصوا عليهم ، وقد رجح السيد سليمان الندوي بعد البحث الأنيق والتحقيق الدقيق أن ملوك آل غسان وكذا الأنصار من الأوس والخزرج لم يكونوا من آل قحطان ، وإنما كانوا من آل نابت بن إسماعيل ، وبقياهم في تلك الديار .

وأما قيدار بن إسماعيل فلم يزل أبناؤه بمكة يتناسلون هناك حتى كان منه عدنان وولده معد ، ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها ، وعدنان هو الجد الحادي والعشرون في سلسلة النسب النبوي ، وقد ورد أنه ﷺ كان إذا انتسب فبلغ عدنان يمك ويقول : « كذب النسابون » فلا يتجاوز . وذهب جمع من العلماء إلى جواز رفع النسب فوق عدنان ، مضعين للحديث المشار إليه ، وقالوا : إن بين عدنان وبين إبراهيم - عليه السلام - أربعين أباً بالتحقيق الدقيق .

وقد تفرقت بطون معد من ولده نزار - قيل : لم يكن لمعد ولد غيره - فكان لنزار أربعة أولاد ، تشعبت منهم أربعة قبائل عظيمة : إياد وأنمار وربيعة ومضر ، وهذان الأخيران هما اللذان كثرت بطونهما واتسعت أفخاذهما ، فكان من ربيعة : أسد بن ربيعة ، وعذرة ، وعبد القيس ، وأبنا وائل - بكر وتغلب - ، وحنيفة ، وغيرها . وتشعبت قبائل مضر إلى شعبتين عظيمتين : قيس عيلان بن مضر ، وبطون إلياس بن مضر ، فمن قيس عيلان : بنو سليم ، وبنو هوازن ، وبنو غطفان . ومن غطفان : عبس وذبيان وأشجع وغني بن أعصر . ومن إلياس بن مضر : تميم بن مرة ، وهذيل بن مدركة ، وبنو أسد بن خزيمه ، وبطون كنانة بن خزيمه .

ومن كنانة قريش ، وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، وانقسمت قريش إلى قبائل شتى ، من أشهرها : جمح وسهم وعدي ومخزوم وتيم وزهرة ، وبطون قصي بن كلاب وهي عبد الدار بن قصي وأسد بن عبد العزى بن قصي وعبد مناف بن قصي .

وكان من عبد مناف أربع فصائل : عبد شمس ، ونوفل ، والمطلب ، وهاشم . وبيت هاشم هو الذي اصطفى الله - تعالى - منه سيدنا محمداً بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم عليه السلام (١) .

ولما تكاثروا أولاد عدنان تفرقوا في أنحاء شتى من بلاد العرب ، متبعين مواقع القطر ومنابت ... (٢) .

وبقي بتهامة بطون كنانة ، وأقام بمكة وضواحيها بطون قريش ، وكانوا متفرقين لا تجمعهم جامعة حتى نبغ فيهم قصي بن كلاب ، فجمعهم ، وكون لهم وحدة شرفتهم ورفعت من أقدارهم .

* * *

(١) ذلك مصداقه ما رواه واثلة بن الأسقع والعباس بن عبد المطلب - رضي الله عنهما - عن النبي عليه السلام . راجع : ص ١٣٨ من هذا الفصل .

(٢) ولتفصيل ذلك ، راجع : الرحيق المختوم ص ٢٦ ، ٢٧ .

فصل : في بعض البشارات بنبينا ﷺ

بشارات في الكتب السابقة :

٩ - * روى البخاري عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهم - : أن هذه الآية التي في القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ ^(١) قال في التوراة : يا أيها النبي ! إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَحُزْراً لِلأُمِّيِّينَ ، أنت عبيدي ورسولي ، سَمِّيتُكَ المتوكِّلَ ، ليس بَفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ ، وَلَا سَخَّابٍ بِالْأَسْوَاقِ ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يَقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ ، بَأَنْ يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَيَفْتَحَ بِهِ أَغْنِئَا عُمَيَّا ، وَأَذَانَا صَمًّا ، وَقُلُوبَنَا غُلْفًا .

١٠ - * روى الإمام أحمد عن العرياض بن سارية قال : قال رسول الله ﷺ : « إني عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل في طينته ، وسأنبئكم بتأويل ذلك ، دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى بي ، ورؤيا أمي التي رأت ، خرج منها نور ، أضاءت له قصور الشام ، وكذلك أمهات النبيين يرين » .

١١ - * روى الطبراني عن أبي مريم رضي الله عنه قال : أقبل أعرابي حتى أتى النبي ﷺ ، وعنده خلق من الناس ، فقال : ألا تعطيني شيئاً أتعلمه وأحمله وينفعني ولا يضرك ؟

٩ - البخاري (٨ / ٥٨٥) - ٦٥ - كتاب التفسير - ٣ - باب ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ .

حزراً : أصل الحز هو الوعاء الحصين الذي يحفظ فيه الشيء . الأميون : جمع الأمي ، وهم العرب ، وذلك أنهم لا يحسنون الكتابة ، والذي لا يكتب يقال له : أمي . فظ : الفظ القاسي القلب ، الغليظ الجانب . سَخَّاب : السخَب بالسين والصاد : الصياح والجلبة ، أي : ليس من ينافس في الدنيا وجمعها ، فيحصر الأسواق لذلك . بالسيسة : لا يقابل الإساءة والشر بالمثل . أَذَانًا صَمًّا : لا تسمع ، أو أعرض أصحابها عن السماع . الْغُلْف : جمع أغلف ، وهو الذي عليه غلاف .

(١) الأحزاب : ٤٥ .

١٠ - أحمد في مسنده (٤ / ١٢٧) وكشف الأستار (٢ / ١١٢) وللحاكم قريب منه ، وقد حسنه بعضهم .

منجدل في طينته : أي ملقى على الجدالة وهي الأرض .

١١ - المعجم الكبير (٢٢ / ٢٢٢) ورجاله وثقوا ، وهو حسن .

فقال الناس : مه ، اجلس .

فقال النبي ﷺ : « دعوه ، فإنما يسأل الرجل ليعلم » .

فأفروا له حتى جلس .

فقال : أي شيء كان أول نبوتك ؟

قال : « أخذ الله الميثاق كما أخذ من النبيين ميثاقهم ، ثم تلا : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ ^(١) وبشر بي المسيح ابن مريم .

ورأت أم رسول الله ﷺ في منامها أنه خرج من بين رجلها سراج أضاءت له قصور الشام » .

فقال الأعرابي : هاه ، وأدنى منه رأسه ، وكان في سمعه شيء .

فقال النبي ﷺ : ووراء ذلك » .

قصة تدل على أن الراسخين في العلم من أهل الكتاب كانوا يعرفون علامات في شأنه :

١٢ - * روى ابن سعد عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : سكن يهودي بمكة يبيع بها تجارات ، فلما كان ليلة ولد رسول الله ﷺ ، قال في مجلس من مجالس قريش : هل كان فيكم من مولود هذه الليلة ؟ قالوا : لا نعلمه ، قال : أخطأت والله حيث كنت أكره ، انظروا يامعشر قريش ، واحصوا ما أقول لكم : وَلِدَ الليلة نبي هذه الأمة أحمد الآخر . فإن

مه : اسكت .

سراج : هو الصباح الزاهر . هاه : بمعنى : ماذا تقول ؟ ووراء ذلك : أي وراء قصور الشام من البلاد .

(١) الأحزاب : ٤٥ .

١٢ - أخرجه ابن سعد ، قال : أخبرنا علي بن محمد عن أبي عبيدة بن عبد الله بن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر وغيره عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ، به . (الطبقات الكبرى : ١ / ١٦٢ - ١٦٣) .
الآخر : الخاتم . يبرز أحبارهم : أي يغلبهم ويدحرهم ويبطل باطلهم . والبرز : الغلبة . ليسطون بهم : ليبطشون بهم وليتهمكم .

أخطأكم بفلسطين ، به شامة بين كتفيه سوداء صفراء ، فيها شعرات متواترات ، فتصدع القوم من مجالسهم وهم يعجبون من حديثه ، فلما صاروا في منازلهم ذكروا لأهاليهم ، فقيل لبعضهم : وَلَدَ لعبد الله بن عبد المطلب الليلة غلام فسماه محمداً ، فالتقوا بعداً من يومهم فأتوا اليهودي في منزله فقالوا : أعلمت أنه ولد فينا مولود ؟ قال : أبعد خبري أم قبله ؟ قالوا : قبله واسمه أحد ، قال : فاذهبوا بنا إليه ، فخرجوا معه حتى دخلوا علي أمه ، فأخرجته إليهم ، فرأى الشامة في ظهره ، فغشي على اليهودي ثم أفاق ، فقالوا : ويلك ! مالك ؟ قال : ذهبت النبوة من بني إسرائيل ، وخرج الكتاب من أيديهم ، وهذا مكتوب يقتلهم وَيَبْرُأُ أحبارهم ، فازت العرب بالنبوة ، أفرحتم يامعشر قريش ؟ أما والله ليسطون بكم سَطَوَةٌ يخرج نبؤها من المشرق إلى المغرب .

تعليق :

تحدث العقاد في كتابه (مطلع النور) عن كتاب بعنوان (محمد في الأسفار الدينية العالمية) لمؤلفه (عبد الحق فدارتي) ونقل منه نقولاً واضحة الدلالة على أن محمداً ﷺ مذكور في كتب العهدين القديم والجديد ، ومذكور في كتب الهند الدينية السامائية وغيرها ، وفي كتب الديانة الفارسية القديمة المنسوبة لزرادشت .

وقد نقلنا في كتابنا (الرسول ﷺ) الكثير من هذه النقول ، سواء ما كان منها موجوداً في هذا الكتاب أو في غيره ، ومن تتبع هذا الأمر في مصادره ، ومن تأمل النصوص والحوادث والأحداث يجد أن الأمر كان على غاية الوضوح عند أصحاب الديانات أن رسولاً عربياً اسمه محمد ﷺ سيبعث .

وقد ذكرنا الحديث الأخير هنا ليعلم أنه كان عند أهل الكتاب علامات كثيرة يتعرفون بها على الحدث الجلل والنبأ العظيم ، نبأ الرسالة الخاتمة ، وهذا معنى سيتأكد لك مرة بعد مرة .

أقول :

وقد أشارت الأحاديث إلى التمهيدات الكبرى التي قدمت لبعثته ونبوته ﷺ . ولقد اختير لرسول الله ﷺ الزمان والمكان والنسب والبيئة ، كما اختيرت له حتى الأسماء ، فكان في ذلك توفيق على توفيق على توفيق ، وذلك من أعلام نبوته ﷺ .

وفي قصة بحيرا شاهد على أنه عليه الصلاة والسلام مبشر به :

١٣ - * روى الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال : خَرَجَ أَبُو طَالِبٍ إِلَى الشَّامِ ، وَخَرَجَ مَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَشْيَاحٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَلَمَّا أَشْرَفُوا عَلَى الرَّاهِبِ هَبَطَ فَحَلَّوْا رِحَالَهُمْ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ الرَّاهِبُ ، وَكَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَمُرُّونَ بِهِ فَلَا يَخْرُجُ إِلَيْهِمْ وَلَا يَلْتَفِتُ .

قال : فَهَمَّ يَحْلُونَ رِحَالَهُمْ ، فَجَعَلَ يَتَخَلَّلُهُمُ الرَّاهِبُ ، حَتَّى جَاءَ فَأَخَذَ يَسِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قال : هَذَا سَيِّدُ الْعَالَمِينَ ، هَذَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، يَبْعَثُهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ، فَقَالَ لَهُ أَشْيَاحٌ مِنْ قُرَيْشٍ : مَا عَلِمُكَ ؟

فَقَالَ : إِنَّكُمْ حِينَ أَشْرَفْتُمْ مِنَ الْعَقَبَةِ لَمْ يَبْقَ شَجَرٌ وَلَا حَجَرٌ إِلَّا خَرَّ سَاجِدًا وَلَا يَسْجُدَانِ إِلَّا لِنَبِيِّ ، وَإِنِّي أَعْرِفُهُ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ أَصْفَلُ مِنْ غَضْرُوفٍ كَتِفِهِ مِثْلَ التُّفَاحَةِ .

ثُمَّ رَجَعَ فَصَنَعَ لَهُمْ طَعَامًا ، فَلَمَّا أَتَاهُمْ بِهِ فَكَانَ هُوَ فِي رِغْيَةِ الْإِبِلِ فَقَالَ : أُرْسِلُوا إِلَيْهِ ، فَأَقْبَلَ وَعَلَيْهِ غَمَامَةٌ تَطْلِيهِ ، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْقَوْمِ وَجَدَهُمْ قَدْ سَبَقُوهُ إِلَى فِيءِ الشَّجَرَةِ ، فَلَمَّا جَلَسَ مَالَ فِيءِ الشَّجَرَةِ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : انظُرُوا إِلَى فِيءِ الشَّجَرَةِ مَالَ عَلَيْهِ .

قال : فَبَيْنَمَا هُوَ قَائِمٌ عَلَيْهِمْ وَهُوَ يُنَاشِدُهُمْ أَنْ لَا يَذْهَبُوا بِهِ إِلَى الرُّومِ ، فَإِنَّ الرُّومَ إِنْ رَأَوْهُ عَرَفُوهُ بِالصِّفَةِ فَيَقْتُلُونَهُ ، فَالْتَفَتَ فَإِذَا بِسَبْعَةِ قَدْ أَقْبَلُوا مِنَ الرُّومِ فَاسْتَقْبَلَهُمْ فَقَالَ : مَا جَاءَ بِكُمْ ؟ قَالُوا : جِئْنَا أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ خَارِجٌ فِي هَذَا الشَّهْرِ ، فَلَمْ يَبْقَ طَرِيقٌ إِلَّا بُعِثَ إِلَيْهِ بِأَنَاسٍ وَإِنَّا قَدْ أَخْبَرْنَا خَبْرَهُ بُعِثْنَا إِلَى طَرِيقِكَ هَذَا ، فَقَالَ : هَلْ خَلَفَكُمْ أَحَدٌ هُوَ خَيْرٌ مِنْكُمْ ؟ قَالُوا : إِنَّمَا اخْتَرْنَا خَيْرَ لَكَ بِطَرِيقِكَ هَذَا .

١٣ - الترمذي : (٥ / ٥٩٠) - كتاب المناقب - ١ - باب ما جاء في بدء نبوة النبي ﷺ . قال أبو عيسى : حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه : وقد رواه البزار بنحوه .

وقد أقر الترمذي على تحسينه ، لكن العلماء قالوا : ذَكَرَ بِلَالٌ فِيهِ غَيْرُ مَحْفُوظٍ ، وَغَدَهُ الْأُمَّةُ وَهْمًا ، فَإِنَّ سَبْنَ النَّبِيِّ إِذْ ذَاكَ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَنَةً ، وَأَبُو بَكْرٍ أَصْغَرُ مِنْهُ بِسِتِّينَ ، وَبِلَالٌ لَعَلَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ .

وفي رواية البزار : « وَأُرْسِلَ مَعَهُ قَعْدُهُ رَجُلًا » ، وَلَعَلَّ ذَكَرَ أَبِي بَكْرٍ وَبِلَالٌ مَدْرَجٌ فِي الْحَدِيثِ ، وَوَمِنْ أَحَدِ الرِّوَاةِ ، فَإِذَا انْتَهَى هَذَا الْإِشْكَالُ فَقَدْ صَحَّ الْحَدِيثُ أَكْثَرَ مِنْ مَحْدَثٍ .

أشرفوا : اقتربوا . حلوا رحالهم : كناية عن التوقف عن المسير والاستراحة ، وإنزال حوائج الاستراحة عن الرواحل وهي الإبل . غضروف كتفه : رأس لوحة الكتف .

قال : أَفَرَأَيْتُمْ أَمْرًا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَقْضِيَهُ ، هَلْ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ رَدَّهُ ؟ قَالُوا : لَا .
قال : فَبَتَّاعُوهُ وَأَقَامُوا مَعَهُ قَالَ : أَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ أَيُّكُمْ وَلِيَّةٌ ؟ قَالُوا : أَبُو طَالِبٍ ، فَلَمْ يَزَلْ
يُنَاشِدُهُ حَتَّى رَدَّهُ أَبُو طَالِبٍ وَبَعَثَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ بِلَالًا ، وَزُوْدَهُ الرَّاهِبُ مِنَ الْكَمْكِ
وَالزَّيْتِ .

فائدة حول موضوع الكشف للأولياء :

تحدثنا في كتابنا (تربيتنا الروحية) عما يسمّى في اصطلاح العلماء بالكشف ، وذكرنا
هناك أدلة وجوده وإمكانية وقوعه ، وههنا نقول :

إنّ الكشف في حق الأنبياء معجزة ، وهو في حق الأولياء كرامة ، فقد يُكشف للنبي
من أمر الغيب ، وقد يكشف للنبي الشيء ولا يُكشف لمن هم معه ، وذلك يمكن أن يكون
لأولياء هذه الأمة ، ومن سياق قصة الراهب بحيرا نعلم أنه من بقايا أهل الكتاب الذين
حافظوا على ديانة المسيح نقية ، ومن ثم فإنّ تحليلنا لبعض ماورد فيها أنه كشف كوشف به
الراهب بحيرا ، فلقد كوشف بأمر محمد ﷺ ، وكوشف بسجود الشجر والحجر له عليه الصلاة
والسلام .

* * *

فصل : في الميلاد

متى ولد رسول الله ﷺ ؟

١٤ - * روى الحاكم عن أبي قتادة : أن أعرابياً سأل النبي ﷺ عن صوم يوم الإثنين فقال : « إن ذلك اليوم الذي وُلدت فيه وأنزل عليّ فيه » .

١٥ - * روى الترمذي عن قيس بن عزمة قال : وُلدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل ، وسأل عثمان بن عفان قُبات بن أشيم أخا بني يغمر بن ليث : أنت أكبر أم رسول الله ﷺ ؟ فقال : رسول الله ﷺ أكبر مني ، وأنا أقدم منه في الميلاد ، قال : ورأيت حذق الطير أخضر مَحِيلاً .

١٦ - روى الطبراني عن قيس بن مخزومة قال : وُلد النبي ﷺ عام الفيل ، وبين الفجار والفيل عشرون سنة ، وبين الفجار وبناء الكعبة خمس عشرة سنة ، وبين بناء الكعبة ومبعثه ﷺ خمس سنين ، فبعث وهو ابن أربعين .

فائدة :

قال الشيخ الغزالي في فقه السيرة :

كانت حرب الفجار بالنسبة إلى قريش دفاعاً عن قداسة الأشهر الحرم ، ومكانة أرض الحرم ، وهذه الشعائر بقية مما احترمه العرب من دين إبراهيم ، وكان احترامها مصدر نفع

١٤ - المستدرک (٢ / ٦٠٢) ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .
١٥ - الترمذي (٥ / ٥٨٩) ٥٠ - كتاب المناقب - ٢ - باب ما جاء في ميلاد النبي ﷺ . وقال : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن إسحاق .

حذق الطير : الحذق والذرق والخز ، كلها بمعنى واحد ، وهو العذرة ، أي : براز الطائر . وقد قيل : إن المراد هنا الفيل لا الطير ، وهو يعني أن الراوي رأى براز الفيل أخضر محيلاً ، أي : بالياً قد دثر ، وذلك لأن ميلاد النبي ﷺ عام الفيل ، وهو أسن من النبي ﷺ ، كما ذكر وعطل ذلك بأنه رأى حذق الطير أو الفيل . ولأن رواية « حذق الطير » صحيحة ، فلمعل أراد الطير التي أرسلها الله على أصحاب الفيل ، ترميمهم بحجارة من سجيل ، وذلك صحيح أيضاً .

١٦ - قال في جمع الزوائد (٨ / ٢٥٧) : رواه الطبراني ، وفيه جعفر بن مهران السبكي ، وقد وثق وفيه كلام ، وبقية رجاله ثقات .

الفجار : اسم للحروب التي اندلعت في الجاهلية في الأشهر الحرم .

كبير لهم ، وضماناً لانتظام مصالحهم وهدوء عداوتهم . كان الرجل يلقي قاتل أبيه خلالها فيحجزه عن إدراك ثأره شعوره بهذه الحرمات .

ولكن أهل الجاهلية ما لبثوا أن ابتلوا بمن استباحها ، فظلموا أنفسهم فيها ، وكانت حرب الفجار من آثار هذه الاستباحة الجائرة ، وليس هنا تفصيل خبرها ، وقد ظلت أربعة أعوام كان عُمَرُ (محمد ﷺ) في أثنائها بين الخمسة عشرة والتسعة عشر ، قيل : قاتل فيها بنفسه . وقيل : بل أعان المقاتلين .

أقول :

اختير له - عليه الصلاة والسلام - في جملة ما اختير له عام الميلاد ، فكان ميلاده في عام الفيل ، وهو العام الذي وقع فيه أعظم حدث في تاريخ الجزيرة العربية وقتذاك ، مما مكن لقريش ولكعبتها .

* * *

ولد يتيماً ﷺ :

١٧ - *روى الحاكم عن قيس بن مخزومة أنه ذكر ولادة رسول الله ﷺ ، فقال : تُوْفِّي أبوه وأمه حُبْلَى به .

أقول :

يذكر أهل السير أن أباه توفي في المدينة وأمه حُبْلَى به ، وأن أمه توفيت بعد زيارة لقبر زوجها ، وهو - عليه الصلاة والسلام - في السنة السادسة من عمره ، ودفنت بالأبواء ، وتوفي جدّه عبد المطلب بعد السنة الثامنة من مولده فانتقل إلى كفالة عمّه أبي طالب الذي كان فقيراً .

١٧ - المستدرک (٢ / ٦٠٥) وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه . وأقره الذهبي .

تعليق حول الحكمة من هذا اليتيم وذاك الفقير :

يقول الدكتور سعيد رمضان البوطي في كتابه فقه السيرة :

لقد اختار الله عز وجل لنبيه هذه النشأة لحكم باهرة ، لعل من أهمها أن لا يكون للمبطلين سبيل إلى إدخال الريبة القلوب ، أو إيهام للناس بأن محمداً ﷺ إنما رضع لبنان دعوته ورسالته التي نادى بها منذ صباه ، بإرشاد وتوجيه من أبيه وجده ، ولم لا ؟ وإن جده عبد المطلب كان صدراً في قومه ، فلقد كانت إليه الرفادة ^(١) والسقاية .

ومن الطبيعي أن يُربّي الجد حفيده أو الأب ابنه على ما يحفظ لديه هذا الميراث .

لقد شاءت حكمة الله - عز وجل - أن لا يكون للمبطلين من سبيل إلى مثل هذه الريبة ، فنشأ رسوله بعيداً عن تربية أبيه وأمه وجده ، وحتى فترة طفولته الأولى ، فقد أرادت حكمة الله عز وجل أن يقضيها في بادية بني سعد بعيداً عن أسرته كلها ، ولما توفي جده وانتقل إلى كفالة عمّه أبي طالب الذي امتدت حياته إلى ما قبل الهجرة بثلاث سنوات كان من تمة هذه الحكمة أن لا يسلم عمه . حتى لا يتوهم أن لعمه مدخلاً في دعوته ، وأن المسألة مسألة قبيلة وأسرة وزعامة ومنصب .

وهكذا أرادت حكمة الله أن ينشأ رسوله يتيماً ، تتولاها عناية الله وحدها ، بعيداً عن الذراع التي تمنع في تدليله ، والمال الذي يزيد في تنعيمه ، حتى لا تقبل به نفسه إلى مجد المال والجاه ، وحتى لا يتأثر بما حوله من معنى الصدارة والزعامة ، فتلتبس على الناس قداسة النبوة بجاه الدنيا ، وحتى لا يحسبوه يصطنع الأول ابتغاء الوصول إلى الثاني .

* * *

(١) الرفادة : شيء كانت قريش تتراقد به في الجاهلية ، أي : تتعاون به ، فيخرج كل إنسان بقدر طاقته فيجمعون مالا عظيماً ، فيشترون به طعاماً وزيباً ونبيئاً ، ويطعمون الناس ويسقونهم أيام موسم الحج حتى ينقضي .

فصل : في أسمائه ﷺ

١٨ - * روى البخاري عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ :

« لي خمسة أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب » ، والعاقب الذي : ليس بعده نبي . وقد سماه الله رؤوفاً رحيماً .

١٩ - * روى مسلم عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال : كان رسول الله ﷺ يُسَمِّي لنا نفسه أسماء فقال :

« أنا محمد ، وأحمد ، والمقفي ، والحاشر ، ونبي التوبة ، ونبي الرحمة » وفي رواية ^(١) « ونبي الملاحم » ، وفي أخرى ^(٢) : « وإذا كان يوم القيامة كنت إمام المرسلين ، وصاحب شفاعتهم » .

٢٠ - * روى البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ :

« ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم ؟ يشتمون مُذَمَّماً ، ويلعنون مُذَمَّماً ، وأنا محمد » .

١٨ - البخاري : (٦ / ٥٥٤) ٦١ - كتاب المناقب - ١٧ - باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ .

ومسلم : (٤ / ١٨٢٨) ٤٣ - كتاب الفضائل - ٣٤ - باب في أسمائه ﷺ ، وزاد فيه : « وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد » .

١٩ - أخرجه مسلم : (٤ / ١٨٢٨) ٤٣ - كتاب الفضائل - ٣٤ - باب في أسمائه ﷺ .

٢٠ - البخاري : (٦ / ٥٥٤) ٦١ - كتاب المناقب - ١٧ - باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ .

والنسائي : (٦ / ١٥٩) - كتاب الطلاق - باب الإبانة والإفصاح بالكلمة الملفوظ بها إذا قصد بها لما لا يحتمل معناها لم توجب شيئاً ولم تثبت حكماً .

(١) هذه الرواية عند أحمد في مسنده (٤ / ٣٩٥) .

(٢) هذه الرواية عند الطبراني في الكبير والأوسط عن جابر .

تعليق :

أسماءه ﷺ مشتقة من صفات قائمة به توجب له المدح والكمال .
 فحمد : اسم مفعول ، مشتق من الفعل المضعف حَمَدَ ، فهو ﷺ يستجلب الحمد من
 الناس بصفاته وأقواله وأفعاله ، وهو محل الحمد ، ومن ههنا فهو محمد .
 وأحمد : اسم على زنة أفعال التفضيل ، مشتق - أيضاً - من الحمد ، فهو ﷺ أكثر خلق
 الله حمداً لله ، فمن ههنا كان أحمد .
 والحاشر الذي يحشر الناس على قدمه : بمعنى أنه ﷺ أول من يُحْشَر من الخلق ، ثم
 يحشر الناس على قدمه ، أي : على أثره ، وقيل : أراد ﷺ عهده وزمانه ، يقال : كان
 ذلك على رجلٍ فلان وعلى قدم فلان ، أي : في عهده .
 والمقفي : الذاهب المؤلّي ، لأنه ﷺ آخر الأنبياء ، وإذا قُفِيَ فلا نبي بعده . وقيل :
 المقفي المتبّع ، أراد أنه مُتَّبِع النبيين .
 ونبي الملاحم : الملاحم جمع ملحمة وهي من التلاحم في الحرب ، أي : التقاء اللحم
 باللحم ، أو التقاء السيف باللحم . وفي وصفه ﷺ لنفسه بأنه نبي الملاحم إشارة إلى المعارك
 الكبرى التي خاضتها أمته والتي ستخوضها ، كما أنه يمكن أن يكون فيها إشارة إلى أن عهد
 نبوته الممتد إلى قيام الساعة ستكون فيه معارك ضخمة ، وعلى هذا الفهم فالحرابان العالميتان
 الأولى والثانية من جملة الملاحم .

* * *

٢١ - * روى الحاكم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال :
 « أنا أبو القاسم ، الله يعطي ، وأنا أقسم » .

٢١ - المستدرك (٢ / ٦٠٤) وقال : حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وسكت عنه الذهبي . وأخرج الطبراني
 نحو ذلك في حديث صحيح .

أقول :

يفيد الحديث أن من مهماته ﷺ القسمة ، والقسمة تقتضي عدلاً ، ولذلك كان ﷺ يقبل على أصحابه إقبالاً واحداً في التربية والتعليم والتوجيه ، حتى ليكاد يظن كل واحد من أصحابه أنه أحب إليه مما سواه ثم إن كل إنسان يأخذ على قدر استعدادده ، وذلك هو العطاء الرباني .

وفي هذا الباب أدب للدعاة أن يقبلوا على المريدين إقبالاً واحداً ، كما أن في ذلك درساً للذين يزهدون في بعض المريدين فمن يدري فقد يكون المزهود فيه خيراً من كثير من المرغوب فيهم ، وفي سورة (عبس) درس .

* * *

ما جاء عن رضاعه وتنشئته في البادية :

٢٢ - * روى أبو يعلى عن حليلة بنت الحارث - أم رسول الله ﷺ السعدية التي أرضعته - قالت : خرجت في نسوة من بني سعد بن بكر نلتس الرضعاء بمكة على أتان لي قراء قد أذمت بالركب . قالت : وخرجنا في سنة شهباء لم تبق لنا شيئاً ، ومعني زوجي الحارث بن عبد العزى . قالت : ومعنا شارب لنا والله إن يبض علينا بقطرة من لبن ، ومعني صبي لي ، إن ننام ليلتنا مع بكائه ، ما في ثديي ما يمصه ، وما في شاربنا من لبن نغذوه ، إلا أنا

٢٢ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨ / ٢٢١) : رواه أبو يعلى ، والطبراني بنحوه ، إلا أنه قال : حليلة بنت أبي ذؤيب ، ورجالها ثقات .

الأتان : أنثى الحمار ، وجمعا : أتن ، وأتن . قراء : أي صاحبة لون قريب إلى الخضرة ، أو بياض فيه كدرة . أذمت الركب : حبستهم لضعفها وانقطاع سيرها سنة شهباء : لا خضرة فيها أو لا قطر . شارب : الشارب من السهام العتيق القديم ، ومن النوق المسنة الهرمة . تبض : تبض الماء يبض بضا وبوضاً وبيضاً ، سال قليلاً قليلاً . نغذوه : أي نغذيه . رواء : من الري وهو ضد العطش . كئني علينا : بمعنى انتظرينا . الحاضر : الحاضر والحضارة خلاف البادية ، والحضارة الإقامة في الحضر ، أي المدينة أو القرية التي يقيم الناس فيها إقامة دائمة دوناً ترحال . بطائناً : أي أن بطونها ملأت من الشبع ، لبناً : حافلة باللبن ، حفلاً : ممتلئة الضروع باللبن . الشغب : الطريق بين حقلين . غلام جعفر : استجفر الصبي . بمعنى : قوي على الأكل . ونحن أضن بشأنه : أصل الضن البخل ، والمعنى هنا : أننا نحصر على أنه يبقى معنا . يرعيان بُهْمًا : مفردا بهمة ، وهي صغار الضأن . جاء أخوه يشتد : أي : جاء يمدو ، والشد : العدو . شهاب : شعلة من نار ساطعة .

نرجو . فلما قَدِمنا مكة لم يبق منا امرأة إلا عَرَضَ عليها رسولُ الله ﷺ فتأباه ، وإنما كُنَّا نرجو كرامة رضاعه من والد المولود ، وكان يتيمًا ، فكنا نقول ، ما عَسَى أن تصنع أمه . حتى لم يَبْقَ من صَوَاحبي امرأة إلا أخذت صبيًّا غيري ، وكَرِهْتُ أن أرجع ولم آخذ شيئاً وقد أخذ صواحي فقلت لزوجي : والله لأرجعن إلى ذلك فلاأخذنه .

قالت : فأتيته فأخذته فرجعتُه إلى رَحْلي ، فقال زوجي : قد أخذتيه ؟ فقلت : نعم ، والله ذاك أني لم أجد غيره . فقال : قد أصَبْتُ ، فعسى الله أن يجعل فيه خيراً . فقالت : والله ما هو إلا أن حملته في حِجْري ، قالت : فأقبل عليه ثديي بما شاء من اللبن . قالت : فشرب حتى رَوِي ، وشربه أخوه - تعني ابنها - حتى روي ، وقام زوجي إلى شارِفنا من الليل فإذا هي حامل ، فحَلَبْتُ لنا ما شئنا ، فشرب حتى روي ، قالت : وشربت حتى رَوَيْت ، فبَيْتُنا ليلتنا تلك بخير شَباعاً رِواءً ، وقد نام صبيُّنا . قالت يقول أبوه - يعني زوجها - : والله يا حليمة ما أراك إلا أصَبْتُ نِسْمةً مباركةً ، قد نام صبينا وروي . قالت : ثم خرجنا فوالله لَحَرَجْتُ أَتاني أمام الرِّكَبِ قد قَطَعْتُهُ ، حتى ما يبلِّغُونها ، حتى أنهم ليقولون : وَيَحْكُ يا بنت الحارث كُفِّي علينا : أليست هذه بأُتاتك التي خرجت عليها ، فأقول : بلى والله ، وهي قَدَّامنا حتى قَدِمنا منازلنا من حاضر بني سعدِ بن بكرٍ .

فقَدِمنا على أجدبِ أرضِ الله فوالذي نفسُ حليمةَ بيده إن كانوا ليسرحون أغنامهم إذا أصبحوا ويسرح راعي غنمي ، فترج غنمي بطاناً لبناً حَفلاً ، وترج أغنامهم جِياغاً هالكةً ما بها من لبن . قال : فشربنا ما شئنا من لبن ، وما في الحاضر أحدٌ يَحْلِبُ قَطْرةً ولا يجدها . فيقولون لرعاتهم : ويلكم ألا تَسْرَحون حيث يسرح راعي حليمة . فيسرحون في الشَّعْبِ الذي يسرح فيه راعيُنا .

قالت : وكان ﷺ يَشِبُّ في اليوم شباب الصبي في شهر ، ويشب في الشهر شباب الصبي في سنة ، فبلغ ستاً وهو غلام جَفَرٌ . قالت : قدِمنا أمه فقلنا لها ، وقال لها أبوه : رَدُوا علينا ابني فلنرجع به ، فإننا نَحْشَى عليه وباء مكة . قلت : ونحن أضنُّ بشأنه لما رأينا من بركته قالت : فلم نَزَلْ بها حتى قالت : أرجعاً به فرجعنا به .

فكثَّ عندنا شهرين قالت : فبَيْتُنا هو يلعب وأخوه يوماً خلف البيوت يرْعِيان بهُما

لنا ، إذ جاءنا أخوه يَشْتَدُّ ، فقال لي ولأبيه ، أدركا أخي القرشي ، قد جاءه رجلان فأضجعه ، فشقا بطنه . فخرجنا نحوه نَشْتَدُّ ، فانهينا إليه وهو قائم مُنْتَبِعٌ لونه فاعتنقه أبوه واعتنقته ، ثم قلنا : مالك أي بني ؟ قال : أتاني رجلان عليها ثيابٌ بياض فأضجعاني ، ثم شقا بطني ، فوالله ما أدري ما صنعا . قالت : فاحتملناه فرجعنا به . قالت يقول أبوه : والله يا حلية ما أرى هذا الغلام إلا قد أصيب ، فانطلقني فلنرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما تتخوف عليه . قالت فقلت : لا والله إنا كففناه وأدينا الحق الذي يجب علينا فيه . ثم تخوفت الأحداث عليه . فقلت : يكون في أهله . قالت فقالت أمه : والله ما ذاك بك ، فأخبراني خبركمما وخبره ، قالت : فوالله ما زالت بنا حتى أخبرناها خبره . قالت : فتخوفتبا عليه ، كلا والله إن لابني هذا لشأنا ، ألا أخبركما عنه ، إني حملت به فلم أر حلاقطاً كان أخف ولا أعظم بركة منه ، ثم رأيت نوراً كأنه شهاب خرج من حين وضعته أضأت لي أعناق الإبل ببصرى ، ثم وضعته فما وقع كما تقع الصبيان ، وقع واضعاً يده بالأرض رافعاً رأسه إلى السماء . دَعَاهُ والحقا بشأنكما .

فائدة حول تنشئته ﷺ في البادية :

قال الشيخ الغزالي في كتابه فقه السيرة :

وتنشئة الأولاد في البادية ، ليرحوا في كنف الطبيعة ، ويستمتعوا بجوها الطلق وشعاعها المرسل ، أدني إلى تزكية الفطرة وإنماء الأعضاء والمشاعر ، وإطلاق الأفكار والعواطف .

إنها لتعاسة أن يعيش أولادنا في شقق ضيقة من بيوت متلاصقة كأنها علب أغلقت على من فيها ، وحرمتهم لذة التنفس العميق والهواء المنعش .

ولا شك أن اضطراب الأعصاب الذي قارن الحضارة الحديثة يعود - فيما يعود إليه - إلى البعد عن الطبيعة ، والإغراق في التصنع . ونحن نقدر لأهل مكة اتجاههم إلى البادية لتكون عرصاتها الفساح مدارج طفولتهم . وكثير من علماء التربية يود لو تكون الطبيعة هي المعهد الأول للطفل حتي تتسق مداركه مع حقائق الكون الذي وجد فيه ، ويبدو أن هذا حُلْمٌ عسير التحقيق . أهـ .

فصل : في شق صدر النبي ﷺ وتكرار هذه الحادثة

* سبق ذكر ما ورد عن حلية السعدية في مسألة شق الصدر ، في الفصل السابق .

٢٣ - * روى الحاكم عن عتبة بن عبد السلمي أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : كيف كان أول شأنك يا رسول الله ؟ قال : « كانت حاضيتي من بني سعد ابن بكر ، فانطلقت أنا وابن لها في بهم لنا ، ولم نأخذ معنا زاداً فقلت : يا أخي اذهب فأتينا بزاد من عند أمنا فانطلق أخي ، وكنت عند البهم ، فأقبل طيران أبيضان كأنهما نسران فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟ قال : نعم . فأقبلا يبتدراني فأخذاني فبطحاني للفقاء ، فشقا بطني ، ثم استخرجا قلبي فشقا ، فأخرجوا منه علقتين سوداوين ، فقال أحدهما لصاحبه : حصه - يعني خطه - واختم عليه بخاتم النبوة ، فقال أحدهما لصاحبه : اجعله في كفة ، واجعل ألفاً من أمته في كفة ، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقي أشفق أن يخروا علي ، فقالا : لو أن أمته وزنت به لمال بهم . ثم انطلقا وتركاني وقرت فرقاً شديداً ، ثم انطلقت إلى أمي فأخبرتها بالذي رأيت ، فأشفقت أن يكون قد التبس بي فقالت : أعيدك بالله ، فرحلت بغيراً لها فجعلتني على الرحل ، وركبت خلفي ، حتى بلغنا أمي فقالت : أديت أمانتي وذمتي ، وحدثتها بالذي لقيت . فلم يرعها ذلك ، فقالت : إني رأيت خرج مني نوراً أضأت منه قصور الشام . »

٢٤ - * روى مسلم عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام - وهو يلعب مع الغلمان - فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب ، فاستخرج منه علقته ، فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظئره - فقالوا : إن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون . قال أنس : وقد كنت أرى أثر ذلك الخيط في صدره .

٢٣ - المستدرک (٦١٦ / ٢) ، وقال : حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

حاضيتي : الحاضنة هي التي تقوم على تربية الصغير مقام الأم . بهم : مفردا همة وهي الصغير من الضأن .

٢٤ - مسلم (١ / ١٤٧) - ١ - كتاب الإيمان - ٧٤ - باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات .
العلقة : القطعة من الدم . لأمه : جمعه وضم بعضه إلى بعض . ظئره : مرضته : وهي حلية ، ويقال أيضاً لزواج المرضعة ظئر . منتقع : يقال : انتقع لونه وامتنع : إذا تغير .

٢٥ - * روى النسائي عن أنس - أيضاً - قال : إن الصلوات فُرِضَتْ بِمَكَّةَ ، وإنَّ مَلَكَيْنِ أَتَيَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَهَبَا بِهِ إِلَى زَمْرَمَ ، فَشَقَّا بَطْنَهُ ، وَأَخْرَجَا حَشْوَهُ فِي طُسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ ، فَغَسَلَاهُ بِمَاءِ زَمْرَمَ ، ثُمَّ كَبَسَا جَوْفَهُ حِكْمَةً وَعِلْماً .

أقول :

الحادثة التي أخرجها مسلم غير الحادثة التي ذكرها النسائي ، فذلك في الصحراء وهذه في مكة ، وهذه متأخرة .

٢٦ - * روى عبد الله بن أحمد عن أبي بن كعب ، أن أبا هريرة كان حريضاً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره ، فقال : يا رسول الله ! ما أول ما رأيت من أمر النبوة ؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالساً ، وقال : « لقد سألت أبا هريرة ، إنني لفي صحراء ابن عشرين سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسي ، وإذا برجل يقول لرجل : أهو هو ؟ قال : نعم ، فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلي قط ، وأرواح لم أجدها من خلي قط ، وثياب لم أرها على أحد قط ، فأقبل إليّ يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي ، لا أجذ لأخذها مساً ، فقال أحدهما لصاحبه : أضجعه ، فأضجعاني بلا قصير ولا هضم ، فقال أحدهما لصاحبه : أفلق صدره . فهوى أحدهما إلى صدري ففلقها - فيما أرى - بلا دم ولا وجع . فقال له : أخرج الغل والحسد ، فأخرج شيئاً كهية العلقة ، ثم نبذها فطرحها ، فقال له : أدخل الرحمة والرأفة ، فإذا مثل الذي أخرج شبيه الفضة ، ثم هز إبهام رجلي اليمنى ، فقال : أغد وأسلم فرجعت بها أغدوها رقة على الصغير ورحمة على الكبير » .

٢٥ - النسائي (١ / ٢٢٤) كتاب الصلاة - باب أين فرضت الصلاة .

٢٦ - رواه عبد الله بن أحمد في زياداته على أبيه ورجاله ثقات وثقهم ابن حبان .

لقد سألت أبا هريرة : أي : لقد سألت سؤالاً منها يا أبا هريرة . فأضجعاني بلا قصير ولا هضم : القصر - الإجمار ، والمصر : الجذب والإمالة والكسر والدفع . والمعنى أنهم شقوا صدره بكل لطف وحنان دون إجمار أو قسوة . فلق : من الفلق وهو الشق ، وفلقه : شقه .

فوائد حول حادثة شق الصدر :

١ - قال الشيخ الغزالي :

وهذه القصة التي روعت حليمة وزوجها ، ومحمد مسترضع فيهم ، نجدها قد تكررت مرة أخرى ومحمد - عليه الصلاة والسلام - رسول جاوز الخمسين من عمره ، فعن مالك بن صعصعة أن رسول الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به قال : بينا أنا في الحطيم - وربما قال في الحجر - مضطجع بين النائم واليقظان أتاني آتٍ ، فشق ما بين هذه إلى هذه - يعني ثغرة نحره إلى شعرته - قال : فاستخرج قلبي : ثم أتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً ، فغسل قلبي ، ثم حشي ثم أعيد

وشيء واحد هو الذي نستطيع استنتاجه من هذه الآثار ، أن بشراً ممتازاً كمحمد لا تدعه العناية غرضاً للوساوس الصغيرة التي تناوش غيره من سائر الناس ، فإذا كانت للشر (موجات) تملأ الآفاق ، وكانت هناك قلوب تسرع إلى التقاطها والتأثر بها فقلوب النبيين - بتولي الله لها - لا تستقبل هذه التيارات الحبيثة ولا تهتز لها ، وبذلك يكون جهد المرسلين (في متابعة الترقى) لا في (مقاومة التدلي) وفي تطهير العامة من المنكر لا في التطهر منه ، فقد عافاهم الله من لوثاته .

* * *

٢ - قال القسطلاني في المواهب :

وهذا الشق روي أنه وقع له - عليه الصلاة والسلام - مرات في حال طفولته إرهاباً ، وتقدم المعجزة على زمان البعثة جائز للإرهاب .

* * *

٣ - أقول :

لقد ذكر العلماء أن هناك قلباً حسياً للإنسان يرتبط به - نوع ارتباط - القلب الذي هو محل الكفر والإيمان ومحل الرجاء والخوف والحب والبغض ، ولا شك أن الشق الحسي

استهدف القلب الثاني الذي هو غيب من الغيب ، وإن كان بعض ما يجري فيه وعليه محسّاً من الإنسان ، هذا القلب يمرض ، وتتراكم عليه تراكمات ، وتطراً عليه الحجب .

وتكرر حادثة الشق قبل النبوة أي قبل التكليف فيه إشارة إلى إرادة الله - عز وجل - في أن يبقى قلب محمد على حالة خاصة استصلاحاً وإعداداً ، وهذا يفيد أنه حتى أظهر القلوب يحتاج إلى شيء من عالم الأسباب ليبقى على صفاء وتقائه ، وتكرر حادثة شق الصدر قبيل الإسراء والمعراج فيه إشارة إلى أن بعض مقامات القلوب يحتاج إلى مزيد من الصفاء القلبي .

* * *

فصل : في رعيه ﷺ الغنم والحكمة من ذلك

٢٧ - * روى البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ : « ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم » فقال أصحابه : وأنت ؟ فقال : « نعم ، كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة » .

فوائد :

١ - عن حكمة رعي الغنم : قال الحافظ في الفتح : قال العلماء : الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يجعل لهم الثمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم ؛ ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة ، لأنهم إذا صبروا على رعيها ، وجمعها بعد تفرقها في المرعى ، ونقلها من مسرح إلى مسرح ، ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق ، وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها مع ضعفها ، واحتياجها إلى المعاهدة ، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة ، وعرفوا اختلاف طباعها ، وتفاوت عقولها ، فجهروا كسرهما ،

٢٧ - البخاري : (٤ / ٤٤١) ٣٧ - كتاب الإجارة - ٢ - باب رعي الغنم على قراريط

وأخرج نحوه ابن ماجه : (٢ / ٧٢٧) ١٢ - كتاب التجارات - ٥ - باب الصناعات مع خلاف يسير في اللفظ .
بالقراريط : يعني كل شاة بقيراط ، والقيراط هو من أجزاء الدينار ، وهو نصف عشرة في أكثر البلاد ، وأهل الشام يجعلونه جزءاً من أربعة وعشرين .

ورفقوا بضعيفها ، وأحسنوا التعاهد لها ، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة ؛ لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعي الغنم ، وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها ، ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر ، وبالإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة ، ومع أكثرية تفرقها فهي أسرع انقياداً من غيرها ، وفي ذكر النبي ﷺ لذلك بعد أن علم أنه أكرم الخلق على الله ما كان عليه من عظيم التواضع لربه والتصريح بمننه عليه وعلى إخوانه الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء .

٢ - وعن الأخذ بالأسباب للتكسب ؛ أقول : يتحدث بعض العلماء عن الأخذ بالأسباب ، وعن التجريد في موضوع كسب القوت ، ويعتبرون كلاً منهما في محله هو الكمال . وهكذا كان شأن رسول الله ﷺ ، فقد كانت حياته قبل النبوة عملاً متواصلاً لكسب القوت ، فن رعي غنم إلى رعي إبل إلى تجارة ، ومن إجارة إلى شركة ، وقد استمر هذا بعد النبوة ضمن حدود ، حتى إذا اقتضت الدعوة الإسلامية تجريداً لم يبق لمحاولة الكسب محل ، فكان التجريد على أكمله ، فحتى فتحت خيبر لم يكن له - عليه الصلاة والسلام - معلوم في الرزق ، بل هو الزهد والعفة والتوكل ، وكلا المقامين من أعلام نبوته - عليه الصلاة والسلام - .

* * *

فصل : في عصمته ﷺ مما يشينه حتى قبل البعثة

بناء البيت وعصمته من كشف العورة :

٢٨ - * روى الحاکم عن أبي الطفيل ، قال : لما بُني البيت كان الناس ينقلون الحجارة والنبي ﷺ ينقل معهم ، فأخذ الثوب ووضعهُ على عاتقه فنودي : لا تكشف عورتك ، فألقى الحجر ولبس ثوبة .

٢٩ - * روى البخاري عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال : لما بُنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباسٌ ينقلان الحجارة ، فقال عباس للنبي ﷺ : اجعل إزارك على رقبتك يذك من الحجارة ، فخر إلى الأرض ، وطمحت عيناه إلى السماء ، ثم أفاق فقال : « إزاري إزاري » ، فشد عليه إزاره .

قال في الفتح : وقد وردت رواية بنحوها وفيها : فما رأي بعد ذلك عريانا ﷺ .

* * *

عصمته من فعل الجاهلية :

٣٠ - * روى الحاکم عن علي بن أبي طالب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما هممتُ بما كان أهلُ الجاهلية يهْمُونَ به إلا مرتين من الدهر ، كلاهما يعصمني الله تعالى منها ، قلت ليلة لفتى كان معي من قريش في أعلى مكة في أغنام لأهلها تُرعى : أبصر لي غنمي حتى أثمر هذه الليلة بمكة كما تثمر الفتيان قال : نعم ، فخرجت فلما جئت أدنى دار من دور مكة سمعت غناء وصوت دُفوفٍ وزمرٍ فقلت : ما هذا ؟ قالوا فلان تزوج فلانة لرجلٍ من قريش تزوج امرأة ، فلهوتُ

٢٨ - المستدرك (٤ / ١٧٩) ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

العائق : التقاء الذراع بالكتف ، ويسمى بالمتك أيضاً .

٢٩ - البخاري (٧ / ١٤٥) ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار - ٢٥ - باب بنيان الكعبة .

ومسلم (١ / ٢٦٨) ٣ - كتاب الحيض - ١٩ - باب ما يستتر به لقضاء الحاجة ، باختلاف يسير .

الإزار : ثوب يخطط بالنصف الأسفل من البدن . طمعت : طمع بصري أي : امتد وعلا .

٣٠ - المستدرك (٢ / ٢٤٥) ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي ، وقد ضعف بعضهم

هذا الحديث .

بِذَلِكَ الْغَنَاءَ وَالصَّوْتِ حَتَّى غَلَبَنِي عَيْنِي فَمَتُّ فَمَا أُيَقِظُنِي إِلَّا مَسُّ الشَّمْسِ ،
فَرَجَعْتُ فَسَمِعْتُ مِثْلَ ذَلِكَ فَقِيلَ لِي مِثْلُ مَا قِيلَ لِي فَلَهَوْتُ بِمَا سَمِعْتُ وَغَلَبَنِي
عَيْنِي فَمَا أُيَقِظُنِي إِلَّا مَسُّ الشَّمْسِ . ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي فَقَالَ : مَا فَعَلْتَ
فَقُلْتُ : مَا فَعَلْتُ شَيْئًا . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « فَوَاللَّهِ مَا هَمَمْتُ بَعْدَهَا أَبَدًا
بِسَوْءٍ مَّا يَعْمَلُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ حَتَّى أَكْرَمَنِي اللَّهُ تَعَالَى بِنُبُوتِهِ » .

تعليق :

في هذه الأحاديث مظهر من مظاهر حفظ الله لرسوله ﷺ من كل ما يتنافى مع المهمة
العلية والسيرة المرضية ، فالمرشحون لجلال الأعمال لا يليق بهمهم أن تتوجه إلى مثل هذه
الأفعال .

* * *

فصل : في حضوره ﷺ حلف الفضول

٣١ - * روى ابن سعد عن جُبَيْر بن مُطْعَم قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا أُجِبُ أَنْ لِي بِحَلْفِ حَضْرَتِهِ بَدَارِ ابْنِ جُدْعَانَ حَمْرَ النَّعَمِ وَأَنِّي أُغْدِرُ بِهِ ، هَاشِمٌ وَزَهْرَةُ وَتَيْمٌ ، تَحَالَفُوا أَنْ يَكُونُوا مَعَ الْمَظْلُومِ مَا بَلَ بَحْرٍ صَوْفَةً ، وَلَوْ دُعِيَ بِهِ لِأَجَبْتُ ، وَهُوَ حِلْفُ الْفُضُولِ » . قال محمد بن عمر : ولا نعلم أحداً سبق بني هاشم بهذا الحلف .

تعليق :

قال ابن هشام : وكان حلف الفضول بعد الفجار ، وذلك أن حرب الفجار كانت في شعبان ، وكان حلف الفضول في ذي القعدة قبل المبعث بعشرين سنة .

فوائد حول حادث حلف الفضول :

١ - قال الشيخ الغزالي في حلف الفضول :

أما حلف الفضول فهو دلالة على أن الحياة مهما اسودت صحائفها وكلحت شروها ، فلن تخلو من نفوس تهزها معاني النبل ، وتستجيشها إلى النجدة والبر .

ففي الجاهلية الغافلة نهض رجال من أولي الخير ، وتواثقوا بينهم على إقرار العدالة وحرب المظالم ، وتجديد ما اندرس من هذه الفضائل في أرض الحرم . أ هـ .

٢ - هل يجوز لبعض المسلمين أن يتعاقدوا عقداً كعقد حلف الفضول ؟ وهل يجوز للمسلمين أن يتعاقدوا عقداً مع غيرهم كعقد الفضول ؟

أقول :

لقد أوجب الله على المسلمين التعاون على البر والتقوى بقوله سبحانه : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى

٣١ - ابن سعد في الطبقات (١ / ١٢٨) من طريق محمد بن عمر عن محمد بن عبد الله الزهري عن طلحة بن عبد الله بن عوف بن عبد الرحمن بن أزهر عن جُبَيْر بن مطعم .

البر والتقوى ﴿١﴾ فأن يتعاقد بعض المسلمين عقداً في مثل هذا ، فذلك جائز ، لأنه ليس إلا مجرد تأكيد لشيء مطلوب شرعاً ، على ألا يكون ذلك شبيهاً بمسجد الضرار ، بحيث يتحول التعاقد إلى نوع من الحزبية الموجهة ضد مسلمين آخرين ظلموا وبغياً ، وأما تعاقد المسلمين مع غيرهم على دفع ظلم أو في مواجهة ظالم ، فذلك جائز لهم ، على أن تلحظ في ذلك مصلحة الإسلام والمسلمين في الحاضر وفي المستقبل ، وفي هذا الحديث دليل ، والدليل فيه هو استعداد الرسول ﷺ للاستجابة بعد الإسلام لمن ناداه بهذا الحلف .

* * *

فصل : في الإجارة عند خديجة ثم زواجه ﷺ منها

٣٢ - * روى الحاكم عن جابر، قال : استأجرت خديجة - رُضوان الله عليها - رسول الله ﷺ سفرتين إلى جرش، كل سفرة بقلوص .

٣٣ - * روى الطبراني عن جابر بن سمرة - أو رجل من أصحاب النبي ﷺ - قال : كان النبي ﷺ يرعى غنماً ، فاستعلَى الغنم فكان في الإبل ، هو وشريك له . فأكرّيا أخت خديجة ، فلما قَضَوْا السفر بقي لهم عليها شيء ، فجعل شريكهم يأتِيها فيتقاضاهم ، ويقول لحمد : انطلق فيقول : اذهب أنت فأني أستحي . فقالت مرة وأتام : فأين محمد ؟ قال : قد قلت له ، فزعم أنه يستحي . فقالت : ما رأيت رجلاً أشدَّ حياءً ولا أعفً ولا ولا ، فوقع في نفس أختها خديجة ، فبعثت إليه فقالت : أئت أبي فاخطبني . قال : أبوك رجل كثير المال ، وهو لا يفعل . قالت : انطلقْ فآلقه فكلمه فأنا أكفيك ، وأئت عند سكره . ففعل ، فأتاه فزوجه ، فلما أصبح جلس في المجلس ، فقيل له : أحسنت زوّجتَ محمداً . فقال : أو قد فعلتُ . قالوا : نعم . فقام فدخل عليها فقال : إن الناس يقولون إني قد زوّجتُ محمداً وما فعلتُ . قالت : بلى فلا تسفهَن رأيك فإن محمداً كذا . فلم تزل به حتى رَضِيَ ، ثم بَعَثَتْ إلى محمد ﷺ بوقيتين من فضة ، أو ذهبٍ وقالت : اشترِ حُلَّةً وأهديها لي وكبشاً وكذا وكذا ، ففعل .

٣٤ - * روى الطبراني عن ابن عباس - فيما يحسب حمّاد أن رسول الله ﷺ ذكر خديجة ، وكان أبوها يرغب عن أن يزوجه ، فصنعت طعاماً وشراباً ، فدعت أباهاً ونفراً

٣٢ - المستدرک (٢ / ١٨٢) ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

جرش : لعلها جرش المدينة الواقعة في شمال الأردن حالياً . قلوص : القلوص من الإبل الفتيّة المجتمعة الخلق ، وذلك من حين تتركب إلى التاسعة من عمرها ثم هي ناقة .

٣٣ - قال الهيثمي : رواه الطبراني والبيهقي - ورجال الطبراني رجال الصحيح غير أبي خالد الوالي وهو ثقة ، ورجال البيهقي أيضاً إلا شيخه أحمد بن يحيى الصوفي : ثقة . انظر : مجمع الزوائد (١ / ٢٢١) كتاب المناقب - باب فضل خديجة بنت خويلد .

أكرّيا : الكراء معناه أجر المستأجر .

٣٤ - قال الهيثمي : رواه أحمد والطبراني ، ورجال أحمد والطبراني رجال الصحيح . انظر : مجمع الزوائد (١ / ٢٢٠) كتاب المناقب - باب : فضل خديجة بنت خويلد . وراجع نفس الحديث عند أحمد في مسنده (١ / ٣١٢) .

من قريش ، فَطَعِمُوا وَشَرِبُوا حَتَّى تَمَلُّوا . فقالت خديجة : إنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَخْطُبُنِي فَرُوجُنِي إِيَّاهُ . فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ ، فَخَلَعَتْهُ وَأَلْبَسَتْهُ حُلَّةً ، وَكَذَلِكَ كَانُوا يَفْعَلُونَ بِالْأَبَاءِ . فلما سري عنه سَكَّرَهُ نَظْرُ فَإِذَا هُوَ مُخَلَّقٌ وَعَلِيهِ حُلَّةٌ . فقال : ما شَأْنِي ؟ ما هذا ؟ قالت : زوجتني مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ . فقالَ أَنَا أَزُوجُ يَتِيمَ أَبِي طَالِبٍ إِلَّا لِعَمْرِي . قالت خديجة : ألا تستحيي ، تريد أن تسفِّهَ نَفْسَكَ عِنْدَ قَرِيشٍ ، تخبر الناس أنك كنت سَكْرَانٌ . فلم تَزَلْ بِهِ جَقِي رَضِي .

تعليق حول الروايات السابقة :

قال الواقدي : والثابت عندنا المحفوظ عن أهل العلم ، أن أباها (أي خديجة) خويلد ابن أسد مات قبل الفجار ، وأن عمَّها عمرو بن أسد زوجها رسول الله ﷺ .

أقول :

وفي زواج خديجة روايات كثيرة ، وإنما أثبتنا هنا ما ذكر في الأصول التي اعتمدناها ، وقد حل بعضهم حلالاتٍ منكراً على هاتين الروايتين ، لما ذكر فيها من إسكار خديجة والدها ، ولا أرى في ذلك شيئاً ، بل هذا يدل على دهائها وحسن تأتيها للأمور ، إذ الوقت وقت جاهلية ولا تحليل فيه ولا تحریم ، وإذا انتفى المحذور ، فبالإمكان الجمع بين هاتين الروايتين والمشهور ، فقد تطلق العرب على العمِّ أباً ، فيكون المراد بالأب في الروايتين عم خديجة ، إذا ثبت أن أباها كان متوفى وقتذاك .

* * *

فصل : في رجاحة عقله ﷺ وتلقيبه بالأمين قبل البعثة

٣٥ - * روى الإمام أحمد عن مجاهد عن مولاة أنه حدثته أنه كان فيمن بيني الكعبة في الجاهلية ، قال : ولي حجر أنا أنحته بيدي أعبده من دون الله تعالى ، فأجيت باللبن الخائر الذي أنفه على نفسي فأضبه عليه فيجيء الكلب فيلحسه ثم يشغر فيبول ، فبتينا حتى بلغنا موضع الحجر ، وما يرى الحجر أحد ، فإذا هو وسط حجارتنا مثل رأس الرجل يكاد يتراءى منه وجه الرجل ، فقال بطن من قرئش : نحن نضعه ، وقال آخرون : نحن نضعه فقالوا : اجعلوا بينكم حكماً ، قالوا أول رجل يطلع من الفج .

فجاء النبي ﷺ فقالوا : أتاكم الأمين فقالوا له فوضعه في ثوب ، ثم دعا بطونهم فأخذوا بنواحيه معه فوضعه هو ﷺ .

٣٦ - * روى الطبراني عن علي بن أبي طالب - في بناء الكعبة - قال : لما رأوا النبي ﷺ قد دخل قالوا : قد جاء الأمين .

فائدة حول تحكيمة ﷺ في وضع الحجر الأسود :

في حادثة تجديد بناء الكعبة تجد كمال الحفظ الإلهي وكمال التوفيق الإلهي في سيرة رسول الله ﷺ ، كما أنك تجد كيف أن الله أكرم رسوله بهذه القدرة الهائلة على حل المشكلات بأقرب طريق وأسهله ، وذلك ما تراه في حياته كلها ، وذلك معلم من معالم رسالته ، فرسالته إيصال للحقائق بأقرب طريق ، وحل للمشكلات بأسهل أسلوب وأكمل .

* * *

٣٥ - أحد في مسنده (٣ / ٤٣٥) وقال الميثمي في الجمع : وفيه هلال بن جناب وهو ثقة وفيه كلام ، وبقية رجاله رجال الصحيح .
اللبن الخائر : الرائب . أنف : أنفاً وأنفه ، استنكف واستكبر ، يقال : فيهم أنف وأنفة . يشغر : أي يرفع الكلب إحدى رجليه ليبول . يتراءى منه وجه الرجل : أي كالرأى . البطن : دون القبيلة ودون الفخذ . الفج : الطريق الواسع بين جبلين ، وجمعه : فجاج وأفجة .

٣٦ - قال الميثمي : رواه الطبراني في الأوسط ، ورجال الطبراني رجال الصحيح غير حفص بن عمر الضير ، وخالد بن عرعة ، وكلاهما ثقة . انظر : جمع الزوائد (٨ / ٢٢٩) كتاب علامات النبوة - باب : ما كان يدعى به ﷺ قبل البعثة .

بركته ومحبة الناس له وثقتهم به :

٣٧ - * روى الحاكم عن كندير بن سعيد عن أبيه قال : حَجَّجْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَهُوَ يَزْتَجِرُ وَيَقُولُ :

رَبِّ رَدِّ إِلَيَّ زَاكِيَّ مُحَمَّدًا رَدِّ إِلَيَّ وَاصْطِنِعْ عِنْدِي يَدًا

فقلت : من هذا ؟ فَقَالُوا : عَبْدُ الْمَطْلَبِ بْنُ هَاشِمٍ ، بَعَثَ بَابِنِ ابْنِهِ مُحَمَّدٍ فِي طَلَبِ إِبْلِ لَهْ وَلَمْ يَبْعَثْهُ فِي حَاجَةٍ إِلَّا أَنْجَحَ فِيهَا ، وَقَدْ أَطْبَأَ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَ مُحَمَّدٌ وَالْإِبْلُ فَأَعْتَقَهُ ، وَقَالَ : يَا بُنَيَّ لَقَدْ جَزَعْتُ عَلَيْكَ جَزَعًا لَمْ أَجْزِعْهُ عَلَى شَيْءٍ قَطُّ ، وَاللَّهِ لَا أَبْعَثُكَ فِي حَاجَةٍ أَبَدًا ، وَلَا تُفَارِقْنِي بَعْدَ هَذَا أَبَدًا .

أقول :

ذكرت هذا الحديث هنا ليعلم كيف أن البركة والحب والشفقة كانت تحيط برسول الله ﷺ دائماً وأبداً ، فبركته يحسها الجميع ، وكل من يعرفه يحبه أصفى الحب وأرقاه ، وكل من يخالطه يمتلئ قلبه ثقة به في صغره وكبره ، ولو أنك تتبعت الروايات التي سجلها كتاب سيرته ﷺ لوجدتها كلها تنصب فيما ذكرناه .

٣٨ - * روى الحاكم عن صهيب قال : لَقَدْ صَحِبْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ .

أقول :

نذكر هذا الحديث تأسيساً لموضوع سيطالعنا كثيراً ، وهو أن كل من عرف رسول الله ﷺ وخالطه قبل النبوة آمن به بعد النبوة كأشد ما يكون الإيمان وأرقاه ، وصهيب واحد من هؤلاء ، وذلك من أعلام نبوته ، فلولا أن حياته قبل النبوة تستدعي الإيمان به ، ما كان مخالطوه ليؤمنوا به على مثل هذه الشاكلة ، فهذه خديجة وزيد وأبو بكر ... وغيرهم .

٣٧ - المستدرك (٢ / ٦٠٣) ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وأقره الذهبي .

٣٨ - المستدرك (٢ / ٤٠٠) ، وقال : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه . وأقره الذهبي .

فصل : في مقدمات بعثته ﷺ

تطلعات إلى دين جديد صحيح :

٣٩ - * روى البخاري عن سالم بن عبد الله بن عمر - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بَلَدَحَ قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحي ، فَقَدِمَتْ إلى النبي ﷺ سَفَرَةً ، فأبى أن يأكل منها . ثم قال زيد : إني لست أكلُ مما تَذْبَحُونَ على أنصابكم ، ولا أكلُ إلا ما ذَكَرَ اسمُ الله عليه ، وأن زيد بن عمرو كان يَعِيبُ على قُرَيْشٍ ذَبَائِحَهُمْ ويقول : الشاةُ خلقها الله ، وأنزل لها من السماء ماء ، وأُنبت لها من الأرض ، ثم تَذْبَحونها على غير اسم الله ، إنكاراً لذلك وإِعْظاماً له .

٤٠ - * روى البخاري قال موسى : حدثني سالم بن عبد الله - ولا أعلمه إلا تَحَدَّثَ به عن ابن عمر - أن زيد بن عمرو بن نفيل خَرَجَ إلى الشام يَسْأَلُ عن الدِّينِ وَيَتَّبِعُهُ ، فلقي عالماً من اليهود فسأله عن دينهم فقال : إني لَعَلِّي أن أدِينَ دِينَكُمْ فأخبرني . فقال : لا تكونَ على ديننا حتى تأخذَ بنصيبك من غضبِ الله . قال زيد : ما أفرُّ إلا من غَضَبِ الله ، ولا أَجِلُ من غَضَبِ الله شيئاً أبداً ، وأني أستطيعه ؟ فهل تَدُلُّني على غيره ؟ قال : ما أعلمه إلا أن يكونَ حَنِيفاً ، قال زيد : وما الحنيف ؟ قال : دينُ إبراهيم ؛ لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، ولا يَعْبُدُ إلا الله . فخرَجَ زيدٌ فلقي عالماً من النصارى ، فذكرَ مثله فقال : لن تكونَ على ديننا حتى تأخذَ بنصيبك من لعنةِ الله . قال : ما أفرُّ إلا من لعنةِ الله ، ولا أَجِلُ من لعنةِ الله ولا من غضبه شيئاً أبداً ، وأني أستطيع ؟ فهل تَدُلُّني على غيره ؟ قال : ما أعلمه إلا أن يكونَ حَنِيفاً ، قال : وما الحنيف ؟ قال : دينُ إبراهيم ، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يَعْبُدُ إلا الله . فلما رأى زيدٌ قولهم في إبراهيم - عليه السلام - خَرَجَ فلما برزَ رفعَ يديه فقال : اللهم إني أشهدُ أني على دين إبراهيم .

٤١ - * روى البخاري عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنها - قالت : رأيتُ زيدَ بن

٣٩ - ٤٠ - ٤١ - هذه الأحاديث الثلاثة أخرجه البخاري : (٧ / ١٤٢ - ١٤٣) ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار - ٢٤ - باب

حديث زيد بن عمرو بن نفيل .

بَلَدَحَ : هو مكان في طريق التعميم بمكة ، ويقال : هو وادٍ . أنصابكم : الأنصاب جمع نُصب ، وهي الحجارة التي كانوا

عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول : يا معشر قريش ، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري . وكان يُحْيِي المَوَدَّةَ ، يقول للرجل إذا أراد أن يَقْتَلَ ابنته : لا تقتلها ، أنا أكفيك مؤنتها ، فيأخذها ، فإذا ترعرعت قال لأبيها : إن شئت دفعْتُها إليك ، وإن شئت كفيْتُكَ مؤنتها .

٤٢ - * روى أبو يعلى عن سعيد بن زيد ، قال : سألتُ أنا وعمرُ بن الخطاب رسول الله ﷺ عن زيد بن عمرو ، فقال : « يأتي يومَ القيامةِ أمةٌ وحده » .

أقول :

ذكرت هذه الروايات عن زيد بن عمرو بن نفيل ههنا للإشعار بأنه كانت قبل البعثة تطلعات لدين يروي ظمأ القلوب العطشى إلى الحق ، ولكن هذه التطلعات كانت ترتد خائبة ، فتجتهد ، وكل ما تصل إليه كان محدوداً ، وهذا كله من أعلام نبوته ﷺ ، فالتناس بحاجة إلى دين صحيح ، والاجتهادات لا تغني فتيةً في هذا الشأن عن الوحي المعصوم ، فإن يظهر رجل يروي الظمأ ويقم صرح دينٍ كله حق يملأ الساحة البشرية إلى قيام الساعة فذلك وحده دليل على أن الرجل رسول الله وعلى أن دينه دين الله .

ضلال العرب في عقائدهم وفساد تصرفاتهم :

٤٣ - * روى البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقراً ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ ﴾

= ينصبونها ويذبحون عليها القرابين . وقول زيد : « إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم » يشعر بأنه تؤم أن هذا الذي دعي إليه قد ذبح على الأنصاب ، ولم يكن الأمر كذلك ، فرسول الله ﷺ كان يتحاشى هذا وأمثاله من أمر الجاهلية ، وما ورد من روايات تفيد ذلك فرجها إلى اختلاط بعض الرواة . المودة : هي الطفلة التي كانوا يدفنونها وهي حية ، وذلك أنهم كانوا إذا ولد لهم بنت حفرُوا لها حفرة ودفنوها فيها وهي حية ، يحملهم على ذلك القنيرة - في زعمهم - والخل ، فحرم الله ذلك .

٤٢ - قال الميثقي في مجمع الزوائد (١ / ٤١٧) - كتاب المناقب - باب ما جاء في زيد بن عمرو بن نفيل : رواه أبو يعلى ، وإسناده حسن .

٤٣ - البخاري (٦ / ٥٥١) - كتاب المناقب - ١٢ - باب قصة زمزم وجهل العرب .

سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ ... قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (١) .

أقول :

تذكر الآيات فيما بعد ذلك من سورة الأنعام أن العرب حرّموا الإنث من الأنعام كما اعتبروا أن ما يفعلونه من كفر وشرك يمثل مشيئة الله ، وتذكر هذه الآيات تكذيب العرب بالآيات واليوم الآخر ، وإشراكهم بالله عز وجل ، ولو أنك تتبعت نصوص الكتاب والسنة التي تتحدث عما كان عليه العرب وغيرهم قبل البعثة النبوية لرأيت عجباً ، ولخلصت إلى أن من أعلام النبوة أن يبعث الله عمداً ﷺ والحال على ما هي عليه ، لأنه لا أمل في أي نوع من الهداية للبشرية إلا بهذه البعثة ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ ﴿ (٢) .

٤٤ - * روى البخاري عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء : فنكاح منها نكاحُ الناس اليومَ يخطبُ الرجلُ إلى الرجل وليّته أو ابنته فيُصدّقها ثم ينكحها ، ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمئها : أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد ، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع ، ونكاح آخر يجتمع الرهط مادون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يُصيبيها ، فإذا حملت ووضعت ومزّ ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يا فلان ، تُسمى من أحببت باسمه ،

٤٤ - البخاري (٩ / ١٨٢ - ١٨٣) ٦٧ - كتاب النكاح - ٣٦ - باب من قال : لا نكاح إلا بولي .

وأخرجه أبو داود (٢ / ٢٨١ - ٢٨٢) .

العلمت : الحيض والدم . الاستبضاع : هو استعمال من البضع وهو الجماع ، وذلك أن تطلب المرأة جماع الرجل لتنال منه الولد فقط . القافة : الذين يشبهون بين الناس ، فيشبهون النسب بالشبه . فالنكاح به : أي ألصقه بنفسه وجعله ولده .

(١) الأنعام : ١٤٠ .

(٢) البينة : ١ / ٣ .

فيلحقُ به وَلَدُهَا لا يستطيعُ أن يمتنعَ به الرجل ، ونكاح رابع يجتمعُ الناس الكثير فيدخلونَ على المرأة لا تمتنع من جاءها ، وهنَّ البغايا كُنَّ يَنْصِبْنَ على أبوابهن راياتٍ تكونُ عَلَمًا ، فمن أرادهن دخلَ عليهن ، فإذا حَمَلَتْ إحداهن وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا جمعوا لها ، ودعوا لهمُ القافَةَ ، ثم ألحقوا وَلَدَهَا بالذي يَرَوْنَ ، فالتاطت به ودَّعِيَ ابنه لا يمتنعُ من ذلك . فلما بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ بالحق هَدَمَ نِكَاحَ الجاهليةِ كله ، إلا نِكَاحَ الناس اليوم .

أقول :

هذا نموذج على ما كان عليه الحال في الجاهلية ، فإذا ما عرفت أن بعض النساء كن يظفن بالكعبة عاريات أدركت أين وصل الإسفاف في العبادات وفي العلاقات ، فإذا ما اجتمع لذلك عبادة الأصنام عرفت الرحمة الإلهية بالبشرية إذ بعث الله محمداً ﷺ فأعطى أسمى أنواع التوحيد وأرقى أنواع العبادة وأطهر أنواع المعاملات والآداب .

نقل حول ما وصل إليه العرب من سوء الأحوال وحاجتهم إلى الدين الجديد :

لخص الأستاذ الندوي الحال التي كان عليها العرب وغيرهم وقتذاك بقوله :

كانت الأوضاع الفاسدة ، والدرجة التي وصل إليها الإنسان في منتصف القرن السادس المسيحي أكبر من أن يقوم لإصلاحها مصلحون ومعلمون في أفراد الناس ، فلم تكن القضية قضية إصلاح عقيدة من العقائد ، أو إزالة عادة من العادات ، أو قبول عبادة من العبادات ، أو إصلاح مجتمع من المجتمعات ، فقد كان يكفي له المصلحون والمعلمون الذين لم يخل منهم عصر ولا مصر .

ولكن القضية كانت قضية إزالة أنقاض جاهلية ، ووثنية تخريبية ، تراكت عبر القرون والأجيال ، ودفنت تحتها تعاليم الأنبياء والمرسلين ، وجهود المصلحين والمعلمين ، وإقامة بناء شامخ مشيد البنيان ، واسع الأرجاء ، يسع العالم كله ، ويؤوي الأمم كلها ، قضية إنشاء إنسان جديد ، يختلف عن الإنسان القديم في كل شيء ، كأنه ولد من جديد ، أو عاش من جديد هُوَ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي

الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴿١﴾ قضية اقتلاع جرثومية الفساد واستئصال شأفة الوثنية، واجتثاثها من جذورها، بحيث لا يبقى لها عين ولا أثر، وترسيخ عقيدة التوحيد في أعماق النفس الإنسانية ترسيخاً لا يتصور فوقه، وغرس ميل إلى إرضاء الله وعبادته، وخدمة الإنسانية، والانتصار للحق، يتغلب على كل رغبة، ويقهر كل شهوة، ويجرف بكل مقاومة، وبالجملة الأخذ بمحز الإنسانية المنتحرة التي استجمعت قواها للوثوب في جحيم الدنيا والآخرة، والسلوك بها على طريق أولها سعادة يحظى بها العارفون المؤمنون. وآخرها جنة الخلد التي وعد المتقون، ولا تصوير أبلغ وأصدق من قول الله - تعالى - في معرض المن يبعثه محمد ﷺ :

﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ نِعْمَةً أَلَيْسَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ قَالَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ (٢).

* * *

الفترة التي بين عيسى ونبيينا - عليهما الصلاة والسلام - :

٤٥ - * روى البخاري عن سلمان - رضي الله عنه - قال فترة بين عيسى ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - ستائة سنة .

نقل :

قال الحافظ في الفتح : المراد بالفترة المدة التي لا يبعث فيها رسول من الله ؛ ولا يمتنع أن ينبأ فيها من يدعو إلى شريعة الرسول الأخير، ونقل ابن الجوزي الاتفاق على ما اقتضاه حديث سلمان هذا ، وتُعقَّب بأن الخلاف في ذلك منقول ، فمن قتادة : خمسمائة وستين سنة أخرجه عبد الرزاق عن معمر عنه .

٤٥ - البخاري : (٧ / ٢٧٧) ٦٢ - كتاب مناقب الأنصار - ٥٢ - باب إسلام سلمان الفارسي - رضي الله عنه .

(١) الأنعام : ١٢٢ .

(٢) آل عمران : ١٠٣ .

أقول :

قد يكون مرجع الخلاف بين روايتي سلمان وقتادة إلى أن أحدهما اعتبر الزمن الواقع بين البعثة والبعثة ، وآخر اعتبر الزمن الواقع بين بعثة وميلاد ، ولا يترتب على ذلك حكم ، أو أن أحدهما اعتبر السنين الشمسية والآخر القمرية ، والمشهور أن بين المولدين ٥٧٠ سنة شمسية ، والقياس بالسنة الشمسية أو القمرية يترتب عليه فارق كبير .

ويلحظ من هذا الحديث طول فترة انقطاع الوحي ، مما يؤكد حاجة الناس إلى من يصحح لهم المسار ، ويربطهم من جديد بالسماء .

* * *

إرهاصات بنبوته ﷺ :

٤٦ - * روى مسلم عن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف حجراً بمكة ، كان يسلم عليّ قبل أن أبعث ، إني لأعرفه الآن » .

٤٧ - * روى الإمام أحمد عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال لخديجة : « إني أرى ضوءاً وأسمع صوتاً وإني أخشى أن يكون بي جن » . قالت : لم يكن الله ليفعل ذلك بك يا ابن عبد الله . ثم أتت ورقة بن نوفل فذكرت ذلك له فقال : إن يك صادقاً فإن هذا ناموس مثل ناموس موسى ، فإن بعث وأنا حي فساء عزه وأنصره وأومن به .

فائدة :

في هذا الحديث والذي قبله مظهران من الإرهاصات والتهديدات التي هيأت رسول الله ﷺ للأمر الجلل وهو استقبال الوحي .

٤٦ - مسلم : (٤ / ١٧٨٢) - ٤٣ - كتاب الفضائل - ١ - باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة .
والترمذي (٥ / ٥٩٣) - ٥٠ - كتاب المناقب - ٥ - باب ما جاء في آيات نبوة النبي ﷺ وما قد خصه الله به .
وقال : حديث حسن غريب .
٤٧ - رواه أحمد في مسنده (١ / ٣١٢) ، والطبراني بنحوه وزاد : وأعينه .
الناموس : صاحب السر المطلع على باطن أمرك ، أو صاحب سر الخير . وجبريل - عليه السلام - ، والظاهر أنه الوحي . عززه : شدد وقواه .

خاتمة الباب

ونختم هذا الباب بتعليق :

هذه السيرة العامرة العطرة النظيفة قبل النبوة ، كانت من أعظم التهديدات للنبوة ولثقة بصاحبها ، فإذا ما اجتمع إلى ذلك التهديدات القديمة لهذه النبوة ، فإن رصيذاً ضخماً من المقدمات أوصل إلى أن يستقبل هذا العالم النبوة الخاتمة كاستقبال المطر ، فلا غرو أن تنتشر رسالته هذا الانتشار .

انظر إلى وصفه من قومه بالأمين قبل النبوة .

انظر إلى وصف خديجة له - بما معناه - من أنه يصل الرحم ، ويحمل المنقطع ، ويقري الضيف ، ويغيث الملهوف ، ويعين على نوائب الحق .

ثم انظر إلى البشارات به في النبوات السابقة ، واصطفائه من العرب الأمة الفطرية ، واختياره من ذرية إبراهيم لتكون له عراقه النبوة .

وانظر إلى ما اختار الله له من كمال الاسم والنسب والتركيب الخَلقي والخَلقي ، وإلى الإرهاصات التي رافقت حياته الأولى .

ثم انظر إلى ما سخره الله له وما هيأه له من علاقات نظيفة ، وما كان فيه من فقر وعمل ويُسْرٍ وحلم ويُعد عن التطلعات الهابطة أو التطلعات الدنيوية .

فإنك تجد في هذا كله قوة الأساس للمرحلة اللاحقة (مرحلة النبوة) .

إن هذا وغيره ليدل على أن قدر الله يسوق كل شيء لصالح هذه النبوة وهذه الرسالة ، فلقد سبقت هذه الرسالة بمرحلة ممتدة في الزمان . وَجِدَتْ فيها كل المقدمات التي تخدم الدعوة الخاتمة من مكانة قريش بين العرب ، والنسب إلى إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - وحفظ النسب من السفاح والضياع ، وأخذ العهد على الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أن يؤمنوا بمحمد إذا بعث ، وما سبق من تعميق قضية النبوة في الحياة البشرية .

كل ذلك كان مقدمات خدمت الرسالة الخاتمة والدين الخاتم الذي ستطالب به البشرية كلها .

ولعل من أهم المقدمات التي تقدمت الدعوة الإسلامية فساد الدين والدنيا قبل البعثة ؛ فالنصوص الدينية حُرِّفت ، والتصورات خُرِّفت ، والضائير فسدت ، والظلم كثر ، والشهوات تحكمت ، والفطرة البشرية السليمة بدأت تتطلع إلى نبوة جديدة ورسول ، وجاءت النبوة والرسالة لحمد بن عبد الله ﷺ .

﴿ اللَّهُ أَعْلَمَ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾

* * *

الباب الثاني

مِنَ

الْبَعْثَةِ حَكَّةَ الاسْتِقْرَارِ فِي الْمَدِينَةِ

هذه المرحلة في سطور

* بعد ثلاث سنوات من العزلة والخلوة ، وبعد ستة أشهر من الرؤيا الصادقة ، وفي يوم الإثنين لإحدى وعشرين مضت من رمضان ليلاً - على ما رجّحه المباركفوري في (الرحيق المختوم) - وكان عمره إذ ذاك أربعين سنة قرية وستة أشهر واثنى عشر يوماً ، أي تسعة وثلاثين سنة شمسية وثلاثة أشهر واثنى عشر يوماً ، نزل عليه الوحي .

* أخبر الرسول ﷺ خديجة بما حدث فطمأنته ، وأخبرت هي بدورها ورقة بن نوفل فطمأنها وبشّرها بأنها النبوة .

* فتر الوحي بعد ذلك أياماً لتذهب حرّة المفاجأة وليحدث التشوّق ، ثم ظهر له جبريل مرّة ثانية جالساً على كرسيّ بين السماء والأرض ، فعاد إلى أهله طالباً التزمل والتدثّر فنزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ ... ﴾ و ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ * ... ﴾ ، وكان في ذلك الأمر بالتبليغ والدعوة .

* بدأ الرسول ﷺ يدعو سراً ، واستمرت الدعوة السرية ثلاث سنين ، ثم دعا جهراً في مكة ، فلم يتحرك أحد من أهلها أو ممن حولها أو ممن يأتي إليها حاجاً أو معتزراً إلا وقد حاول إيصال الدعوة إليه ، على مدى سبع سنين بعد الدعوة السرية ، ثم حاول أن يخرج بالدعوة إلى الطائف في السنة العاشرة ، ولكن أهل الطائف لم يستجيبوا له ، فعاد إلى مكة ودخلها في حماية المطعم بن عدي ، ثم بعد ذلك وعلى مدار ثلاث سنوات دخل الإسلام إلى المدينة المنورة ، وتمت في السنتين الأخيرتين بيعتا العقبة الأولى والثانية ، ثم كان الإذن بالهجرة والاستقرار في المدينة .

* استجاب للدعوة خلال المرحلة السرية حوالي أربعين نفرأ - ويرى بعضهم أن هذا العدد لم يكتمل إلا في السنة السادسة أي بعد ثلاث سنين من الجهر على رأي ابن هشام - وكانت الصلاة المفروضة عليهم وقتذاك - وبقي هذا حتى حادثة الإسراء - ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي - على قول - ، وقد فرض عليهم في المرحلة الأولى قيام الليل .

* بدأت الدعوة الجهرية بدعوة عشيرته الأقربين جهراً ، دعوةً جماعيةً ، ثم دعا قريشاً

جميعها دعوةً جماعيةً ، ثم بدأ ينقض البنيان الديني للناس نقضاً مباشراً وصريحاً ؛ وههنا بدأ أصعب صراع وأشده ، ومنذ المرحلة السرية بدأ الكيد يأخذ أبعاده الكثيرة المتعددة ، والإيذاء ينصب على المسلمين الذين لا يجدون حاية .

* ثم زاد الأمر شدة فتمخض ذلك عن الهجرة الأولى إلى الحبشة ، وانطلق أول فوج في رجب من السنة الخامسة للبعثة وكان مكوناً من اثني عشر رجلاً وأربع نسوة .

* ثم حدثت حادثة مشاركة المشركين لرسول الله ﷺ في سجوده إثر تلاوة سورة (النجم) ، فبلغ ذلك مهاجري الحبشة فظنوا أن قريشاً أسلمت فرجعوا ، ثم تبين لهم كذب الشائعة فرجع بعضهم إلى الحبشة ، ودخل بعضهم مكة مستخفياً أو في جوار ، واشتد البلاء على المسلمين ، فكانت الهجرة الثانية إلى الحبشة ، وفي هذه المرة هاجر ثلاثة وثمانون رجلاً وثنائي عشرة امرأة أو تسع عشرة امرأة ، وكادت قريش للمسلمين عند النجاشي ولكنها لم تفلح .

* ثم لجأت قريش إلى تهديد أبي طالب وإغرائه ليتخلى عن محمد ﷺ أو يُسلمه إياها ، فباءت محاولاتها بالفشل .

* وأسلم في السنة السادسة للبعثة حمزة وعمر بن الخطاب وكان إسلامهما نصراً وفتحاً ، وههنا مالت قريش للمفاوضة والمسألة فلم تنجح ، وجدّ أبو طالب في الحماية فعبأ بني هاشم وبني المطلب لذلك . فاجتمعوا على ذلك ما عدا أبا لهب .

* وعلى إثر هذا كله تعاقبت قريش في السنة السابعة للبعثة على مقاطعة المسلمين ومقاطعة بني هاشم وبني المطلب ، ألا يناكحهم ولا يبايعهم ولا يجالسهم ولا يخالطهم ولا يدخلوا بيوتهم ولا يكلمهم ، حتى يُسلموا إليهم رسول الله ﷺ . وكانت عنة عظيمة استمرت ثلاث سنين .

* وفي الحرم سنة عشر من النبوة حدث نقض الصحيفة وفك الميثاق بتوفيق من الله ، ثم بترتيب من بعض المتعاطفين وأصحاب الأريحية .

* ثم حاولت قريش المحاولة الأخيرة مع أبي طالب ليشنوا محمداً ﷺ عن دعوته ، وهو

على فراش المرض ، فلم تنجح .

* وكان العام العاشر للبعثة عام حزن ، فقد توفي فيه أبو طالب في رجب سنة عشر للبعثة بعد الخروج من الشعب بستة أشهر ، وبعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين - على قول - توفيت أم المؤمنين خديجة - رضي الله عنها - وكانت وفاتها في شهر رمضان في السنة العاشرة من النبوة ولها خمس وستون سنة ورسول الله ﷺ في الخمسين من عمره ، وفقد بذلك الدعم البيتي والدعم الخارجي ، والله في ذلك حكمة ، وتجراً المشركون على رسول الله ﷺ وزادوا في أذاه ، فخرج إلى الطائف لعله يجد أرضاً أكثر خصباً ، ولكن لم يجد استجابة .

* وفي شوال من السنة العاشرة تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة - رضي الله عنها - على إثر وفاة خديجة ، وكانت ممن أسلم قديماً وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة مع زوجها السكران بن عمرو الذي توفي بأرض الحبشة أو يعد العودة إلى مكة .

* وفي موسم الحج في السنة الحادية عشرة من النبوة دخلت الكوكبة الأولى من خزرج المدينة في الإسلام وكانوا ستة وعادوا دعاء مبشرين ، ففشا ذكر الرسول ﷺ في المدينة ، وفي شوال من نفس السنة عقد رسول الله ﷺ على عائشة - رضي الله عنها - وكانت صغيرة السن ؛ لذلك لم يدخل بها إلا بعد الهجرة .

* وفي هذه المرحلة حدثت حادثة الإسراء - على خلاف كبير في تعيين زمنها ، هل هو في السابع والعشرين من رجب في السنة العاشرة للبعثة ؟ أم في رمضان في السنة الثانية عشرة للبعثة ؟ أو المحرم في السنة الثالثة عشرة للبعثة ؟ أو ربيع الأول في السنة الثالثة عشرة ؟ وهناك أقوال أخرى . وأشهر الأقوال وأقواها القول الأول .

* وفي السنة الثانية عشر للبعثة وفي موسم الحج اثنا عشر نفراً من المدينة منهم خمسة سبقوا في العام السابق وسبعة جدد وكانت بيعة ، وأرسل رسول الله ﷺ مع هؤلاء مصعب ابن عمير ليعلمهم ويفقههم ويقرئهم القرآن ويدعو إلى الله ، وانتشر الإسلام في المدينة .

* وفي موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من البعثة تمت بيعة العقبة الثانية مع بضعة وسبعين نفراً من أهل المدينة المنورة ، واختاروا بأمر النبي ﷺ اثني عشر تقياً منهم .

* جاء بعد ذلك الإذن بالهجرة ، وتأمرت قريش على رسول الله ﷺ ليقتلوه وأنجاه الله منهم ، وكانت الهجرة ، وتمّ الاستقرار في المدينة ، وكانت مرحلة جديدة .

* * *

من ملامح هذه المرحلة

١ - إنها مرحلة تبليغ ودعوة مستمرين ، فلقد سمع بالدعوة كل العرب تقريباً ، ولقد استفاد رسول الله ﷺ من موسم الحج ، فبلغ تبليغاً مباشراً على مدى سنوات كل من استطاع الوصول إليهم .

قال المقرئ :

ثم عرض نفسه على القبائل أيام الحج ، ودعاهم إلى الإسلام وهم : بنو عامر وغسان وبنو فزارة وبنو مرة وبنو حنيفة وبنو سليم وبنو عيس وبنو نصر وثلعة بن عكابة وكنانة وكتب وبنو الحارث بن كعب وبنو عذرة وقيس بن الخطيم وأبو الحيسر أنس بن أبي رافع وبنو شيبان وبنو مجاشع وسويد بن الصامت والطفيل بن عمرو الدوسي وصمام بن ثعلبة .
وقد اقتصر الواقدي أخبار هذه القبائل قبيلة قبيلة .

ويقال : إنه ﷺ بدأ بكنانة فدعاهم إلى الإسلام ثم أتى كلباً ثم بني حنيفة ثم بني عامر ، وجعل يقول : مَنْ رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ فَيُنْعِنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي ، فَإِنْ قَرِشاً قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي ؟ هَذَا ؛ وَعَمَّ أَبُو لَهَبٍ وَرَاءَهُ يَقُولُ لِلنَّاسِ : لَا تَسْمَعُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ كَذَّابٌ . وَكَانَ أَحْيَاءُ الْعَرَبِ يَتَحَامَوْنَ لَهَا يَسْمَعُونَ مِنْ قَرِيشَ فِيهِ : إِنَّهُ كَاذِبٌ ، إِنَّهُ سَاحِرٌ ، إِنَّهُ كَاهِنٌ ، إِنَّهُ شَاعِرٌ ، أَكَاذِبٌ يَقْتَرِفُونَهُ بِهَا حَسِداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ وَبَغْياً ؛ فَيُضْغِي إِلَيْهِمْ مِنْ لَا تَمَيِّزُ لَهُ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ ، وَأَمَّا الْأَنْبِيَاءُ فَإِنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا كَلَامَهُ ﷺ وَتَفَهَّمُوهُ شَهِدُوا بِأَنْ مَا يَقُولُهُ حَقٌّ وَصَدَقَ ، وَأَنْ قَوْمَهُ يَفْتَرُونَ عَلَيْهِ الْكَذِبَ ، فَيَسَامُونَ .

٢ - إنها مرحلة تكوين رفيع المستوى للجيل الأول ، فقد انصهر فيها ذلك الجيل بالمعاني القرآنية واحترق بمعاني العبادة ، وخرج ذهباً من محنة الاضطهاد والإيذاء

والتشكيك ، وتجرد للآخرة حق التجرد ، وانسلخ عن الجاهلية انسلخاً تاماً ، وبذلك وُجِدَ الجيل القادر على حمل الدعوة وصهر الناس فيها ، حتى إذا جاءت مرحلة الدولة في المدينة المنورة كان الملاك القيادي معداً .

لقد كانت المرحلة المكية مرحلة تعريف وتكوين ، وضع فيها الأساس للعمل الدعوي والتكويني إلى قيام الساعة ، كما أنها المرحلة التي تعد لأعباء المرحلة اللاحقة مرحلة الجهاد المتواصل ، على أعلى وأرقى ما يكون .

لقد كانت مرحلة مران على ضبط النفس والطاعة المطلقة ، وكانت مرحلة تعلق بالمثل العليا - وهم رسل الله صلى الله عليه وسلم عليهم جميعاً - ولذلك نزلت أكثر قصص الأنبياء في هذه المرحلة .

وقد أخذ الأستاذ البنا - رحمه الله - من هذه المرحلة والمرحلة اللاحقة فكرته الرئيسية : أن الدعوة الإسلامية تمر بثلاث مراحل : مرحلة التعريف ومرحلة التكوين ومرحلة التنفيذ . ولقد صاغ نظريته هذه متأسياً بالسيرة ، ومنسجماً مع اكتمال الوحي واستقرار التشريع ، وملاحظاً الأوضاع المعاصرة للمسلمين ، فكانت نظرية لا أجل منها ولا أكمل .

٣ - وتجسد في هذه المرحلة أن الرسول ﷺ كان يتجنب الصراع السياسي والصراع العسكري ، ويكرس كل جهوده للوصول بالدعوة إلى قلوب الناس وعقولهم ، دون أن يعطي لعدوه فرصة الاستئصال للدعوة والداعية ، بل كان كثير الحرص على تأمين الحماية للدعوة والداعية والمستجيبين ، ولقد عدّد الطرق التي تتأمن بها الحماية : فمن دخول في حماية ، إلى أمر بهجرة ، إلى طلب لبعضهم أن يعيشوا في أكناف قبائلهم مستفيدين من الأعراف والعادات والتقاليد .

وهذا وضع يجب أن يفتن له الدعاة فلا يعطوا فرصاً لخصومهم كي يستأصلوهم ، وعليهم أن يستفيدوا من الأعراف الدولية والقوانين المحلية ليعطوا لدعوتهم فرصة السير .

٤ - كما أنه من الواضح في هذه المرحلة أن الرسول ﷺ كان دائب البحث عن الجهة القادرة على حماية هذا الدين ونصرتة والقيام بنشره ، وفي اصطلاح عصرنا كان دائم

البحث عما تقوم به دولة للإسلام يعيش المسلمون في ظلها أحراراً آمنين ، وتقوم هذه الدولة بحمل الإسلام والتبشير به والانتصار له ولأهله ، وجاءت الفرصة بقبول الأوس والخزرج القيام بهذا الدور ، وبذلك قامت دولة الإسلام الأولى في المدينة المنورة ، وهذا درس للدعاة ألا تقف همهم دون الوصول إلى دولة للإسلام تقيمه في واقع الحياة وتحمي حماه .

٥ - إنها مرحلة بطيئة من حيث الكم كبيرة من حيث الكيف ؛ لأنها المرحلة التي تمهد لكل المراحل اللاحقة إلى قيام الساعة .

* * *

فصل : في بدء الوحي وفترته واستئنائه

٤٨ - * روى البخاري عن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - أنها قالت : أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي : الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبِبَ إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنّث فيه - وهو التعبّد - الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزوّد لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة ، فيتزوّد لمثلها .

حتى جاءه الحق - وفي رواية : حتى فجأه الحق - وهو في غار حراء ، فجاءه الملك ، فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذني فغطّني ، حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطّني الثانية ، حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ؟! فأخذني فغطّني الثالثة ، ثم أرسلني ،

٤٨ - البخاري (١ / ٢٢) - ١ كتاب بدء الوحي .

٢ - باب حدثنا يحيى بن بكير .

مسلم (١ / ١٢٩) - ١ كتاب الإيمان - ٧٣ - باب : بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ .

التحنّث : التعبّد وهو أن يفعل فعلاً يخرج به من الخنث ، وهو الإثم . نزعت إلى أهلي : أي رجعت . غطّه : إدا حطه بشدة كما يغطه في الماء إذا بالغ في حطه فيه . الجهد : بفتح الجيم : المشقة ، وبضها : الطاقة ، وقيل : هما لغتان . زَمَكُوْلِي : التزميل والتدثير : واحد وهو التغطية والتلف في الثوب . لقد خشيت على نفسي : تكلم العلماء في معنى هذه الخشية بأقوال كثيرة : فذهب أبو بكر الإسماعيلي إلى أن هذه الخشية كانت منه قبل أن يحصل له العلم بأن الذي جاءه ملك من عند الله ، وكان أشق شيء عليه أن يقال عنه : مجنون . وقد قيل في قوله : « لقد خشيت على نفسي » ، أي : خشيت ألا أنهض بأعساء النسوة ، وأن أضعف عنها ، ثم أزال الله خشيته ، ورزقه الأيد والقوة والثبات والعصّة . وقد قيل : إن خشيته كانت من قومه أن يقتلوه ، ولا غرّو ، فإنه بشر يخشى من القتل والإذابة الشديدة ما يحشاه البشر ، ثم يَهَوّن عليه الصبر في ذات الله كل خشية ، ويجلب إلى قلبه كل شجاعة وقوة . الكل : الأثقال والحوائج المهمة والعيال ، وكل ما يتكلمه الإنسان من الأحوال ، ويجعله عن غيره مهم كل . تكسب المعدم : جعل الكسب لنفسه وأنه يصل إلى كل معدم ويناله فلا يتعذر عليه لتعذره . وقيل : أي يعطي الشيء المعدم غيره ويوصله إلى كل من هو معدم عنده . ويقال كسبت مالا : وكسبت زيدا مالا : أي أعتته على كسبه ومنهم من عدّاه بالهزمة ، يقال : أكسبت زيدا مالا ، أي جعلته يكسبه . والقول الثاني أولى القولين ، لأنه أشبه بما قبله في باب التفضل والإنعام ، إذ لا إنعام أن يكسب هو لنفسه مالا كان معدوماً عنده ، وباب الحظ والسعادة في الاكتساب غير باب التفضل والإنعام . الناموس : صاحب سرّ الملك الذي لا يحضر إلا بحجر ، ولا يظهر إلا الجليل ، وسُمّي جبريل عليه السلام ناموساً ، لأنه غصوص بالوحي والغيّب الذي لا يطلع عليه أحد من الملائكة سواه . =

فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ (١) .

فرجع بها رسول الله ﷺ يَرْجِفُ فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - فقال : « زَمِّلُونِي ، زَمِّلُونِي » فزَمَّلُوهُ حتى ذَهَبَ عنه الرُّوعُ ، فقال لخديجة - وأخبرها الخبر :- « لقد خَشِيتُ على نفسي » فقالت خديجة : كَلَّا ، والله ما يَخْزِيكَ الله أبداً ، إِنَّكَ لَتَصِلَ الرَّحِمَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَكْسِبُ الْمُدُومَ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ .

فانطلقت به خديجة ، حتى أَتَتْ به ورقة بن نوفل بن عبد العزى ابن عم خديجة - وكان امرأ تنصّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي - فقالت له خديجة : يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخي ، ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ، يا ليتني فيها جذاعاً ، ليتني أكون حيّاً إذ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ ، فقال رسول الله ﷺ : « أَوْ مَخْرُجِيْ هُمْ ؟ » قال : نعم ، لم يَأْتِ رَجُلٌ قطُّ بثَلٍّ ما جِئْتُ به إلا عُودِي ، وإن يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُّؤَزَّرًا ، ثم لم ينشب ورقة أن تُوفِّي ، وَفَتَرَ الْوَحْيَ .

قال البخاري : وتابعه هلال بن رذاد عن الزهري . وقال يونس ومعمّر : (تَرْجَفُ بُوَادِرُهُ)

وفي حديث معمّر عن الزهري عند مسلم (فوالله لا يخزنك الله أبداً) بالحاء والنون .

وزاد البخاري (٢) في رواية أخرى قال : (وَفَتَرَ الْوَحْيَ فَتْرَةً ، حتى حَزِنَ النَّبِيُّ ﷺ -

= جَنَاحًا: الجَنَاحُ هاهنا : كناية عن الشباب ، يقول : يا ليتني كنت شاباً عند ظهورك لأنصرك وأعينك . نصراً مؤزراً : أي : مؤكّداً قوياً . ترجف: تحفق وبوادره جمع بادرة ، وهي اللحمة تكون بين عنق الإنسان ومنكبه ، وكذلك في غير الإنسان . (١) العلق : ١ ، ٢ ، ٣ .

(٢) البخاري (١٢ / ٣٥٢) ١١ - كتاب التعبير - ١ - باب أول ما يدعى به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة . يتردّد : التردّي : الوقوع من وضع عال . الشواهد : الجبال العالية ، الواحد : شاق . أول : أشرف على الشيء . وذروة كل شيء : أعلاه . الجاش : الجنان والقلب .

فَمَا بَلَّغْنَا - حَزْناً غَدَا مِنْهُ مِرَاراً كِي يَتَرَدَّى مِنْ رُؤُوسِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ ، فَكُلَّمَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ لِكِي يُلْقِي نَفْسَهُ مِنْهُ : تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ حَقّاً ، فَيَسْكُنُ لَذَلِكَ جَأَشُهُ وَتَقَرُّ نَفْسُهُ فَيَرْجِعُ ، فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ قَتْرَةُ الْوَحْيِ غَدَاً مِثْلَ ذَلِكَ ، فَإِذَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ) .

وأخرج الترمذي^(١) طرفاً من هذا الحديث عن عائشة قالت : (أَوَّلُ مَا ابْتَدَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ النَّبُوَّةِ حِينَ أَرَادَ اللَّهُ كَرَامَتَهُ وَرَحْمَةَ الْعِبَادِ بِهِ : أَنْ لَا يَرَى شَيْئاً إِلَّا مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ فَكَتَبَ عَلَى ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ ، وَحُبَّبَ إِلَيْهِ الْخُلُوءُ ، فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَخْلُوَ .

* * *

السر في الخلوة :

عند قوله : (ثُمَّ حُبَّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ) قَالَ صَاحِبُ الْفَتْحِ :

وَالْخَلَاءُ بِالْمَدِّ الْخُلُوءُ ، وَالسَّرَفُ فِيهِ أَنَّ الْخُلُوءَ فَرَاغَ الْقَلْبِ لِمَا يَتَوَجَّهُ لَهُ .

أقول : وقد أخذ بعض أهل السلوك إلى الله من ذلك فكرة الخلوة مع الذكر والعبادة في مرحلة من مراحل السلوك ؛ لتنوير القلب وإزالة ظلمته وإخراجه من غفلته وشهوته وهفواته ، وبعضهم يستحبها للسلوك في أول سيره ويركز على الاعتكاف في رمضان وغيره ، أخذاً من حال رسول الله ﷺ في الابتداء والانتهاء .

* * *

حياته قبل النبوة :

عند قول خديجة : (كَلَّا وَاللَّهِ لَا يَخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا . إِنَّكَ) .

قال صاحب الفتح : استدلت على ما أقسمت عليه من نفي ذلك بأمر استقرائي ،

(١) الترمذي (٥ / ٥٩٦) - ٥٠ - كتاب المناقب ، باب : ٦ . وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

وصفته بأصول مكارم الأخلاق ، لأن الإحسان إما إلى الأقارب أو إلى الأجانب ، وإما بالبدن أو بالمال ، وإما على من يستقل بأمره أو من لا يستقل ، وذلك كله مجموع فيما وصفناه به .

أقول : لعل أبلغ وصف توصف به حياته - عليه الصلاة والسلام - قبل النبوة ما وصفته به خديجة - وهي أعرف الخلق به - لقد اجتمع له - عليه الصلاة والسلام - أظهر قلب وأكرم سلوك ، فكانت كرامة الله .

* * *

المراحل الأولى للوحي :

قال في الفتح :

(فائدة) : وقع في تاريخ أحمد بن حنبل عن الشعبي أن مدة فترة الوحي كانت ثلاث سنين ، وبه جزم ابن إسحاق ، وحكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر ، وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع من شهر مولده وهو ربيع الأول بعد إكاله أربعين سنة ، وابتداء وحي اليقظة وقع في رمضان . وليس المراد بفترة الوحي المقدرة بثلاث سنين وهي ما بين نزول اقرأ ويا أيها المدثر عدم مجيء جبريل إليه ، بل تأخر نزول القرآن فقط . ثم راجعت المنقول عن الشعبي من تاريخ الإمام أحمد ، ولفظه من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي : أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة فقرن بنبوته إسماعيل ثلاث سنين فكان يعلمه الكلمة والشيء ، ولم ينزل عليه القرآن على لسانه . فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل ، فنزل عليه القرآن على لسانه عشرين سنة . وأخرجه ابن أبي خيثمة من وجه آخر مختصراً عن داود بلفظ : « بعث لأربعين ، ووكل به إسماعيل ثلاث سنين ، ثم وكل به جبريل . فعلى هذا فيحسن - بهذا المرسل إن ثبت - الجمع بين القولين في قدر إقامته بمكة بعد البعثة ، فقد قيل ثلاث عشرة ، وقيل عشر ، ولا يتعلق ذلك بقدر مدة الفترة ، والله أعلم . وقد حكى ابن التين هذه القصة ، لكن وقع عنده ميكائيل بدل إسماعيل ، وأنكر

الواقدي هذه الرواية المرسلة وقال : لم يقرن به من الملائكة إلا جبريل ، انتهى . ولا يخفى ما فيه ، فإن المثبت مقدم على النافي إلا إن صحب النافي دليل نفيه فيقدم ، والله أعلم . وأخذ السهيلي هذه الرواية فجمع بها المختلف في مكثه ﷺ بمكة ، فإنه قال : جاء في بعض الروايات المسندة أن مدة الفترة سنتان ونصف ، وفي رواية أخرى أن مدة الرؤيا ستة أشهر . فمن قال مكث عشر سنين حذف مدة الرؤيا والفترة ، ومن قال ثلاث عشرة أضافها . وهذا الذي اعتمده السهيلي من الاحتجاج بمرسل الشعبي لا يثبت ، وقد عارضه ما جاء عن ابن عباس أن مدة الفترة المذكورة كانت أياماً .

أقول : على القول : إن فترة الوحي كانت ثلاث سنين فيكون نزول سورة المدثر والمزمل بعد بدء الوحي بثلاث سنين ، وبسبب هذا القول ذهب من ذهب أن النبوة كانت على رأس الأربعين ، وأن الرسالة كانت بعد ثلاث سنين ، والراجح عندي أن الأمر بالدعوة لم يكن متأخراً كثيراً عن بدء الوحي ، ولكن منذ بدء الوحي حتى انتهاء الفترة السريّة كان ثلاث سنين ، وعلى كل الأحوال فإن سورة ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ نزلت بعد فترة الوحي ، وعلى هذا تحمل الرواية التي تذكر أن أول ما نزل سورة المدثر فهي أولية نسبية ذلك أنها أول ما نزل بعد فترة الوحي .

٤٩ - * روى الحاكم عن جابر رضي الله عنه قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ وهو يُحَدِّثُ عن فَتْرَةِ الوحي قال : « فَقُلْتُ زَمِّلُونِي فَدَثَرُونِي فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ » قال هي الأوثان .

يؤكد هذا الحديث أن سورة المدثر نزلت بعد فترة الوحي فليس هي أول سورة نزلت بإطلاق ، بل هي أول ما نزل بعد فترة الوحي .

٥٠ - * روى البخاري عن جندب بن سفيان البجلي رضي الله عنه قال : اشتكى رسولُ

٤٩ - المستدرك (٢ / ٢٥١) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه هذه اللفظة .

زملوني : أي لغوني بشيبي ، والمزمل هو الملتف بشيابه ، وكذلك دثروني . الأوثان : الأصنام ، والوثن هو الصنم .

٥٠ - البخاري (٨ / ٧١٠) ٦٥ - كتاب التفسير - ٩٢ - سورة الضحى - ١ - باب : ما ودعك ربك وما قلى .

ومسلم (٢ / ١٤٢٢) ٣٢ - كتاب الجهاد والسير - ٣٩ - باب : ما لقي النبي ﷺ من أذى للمشركين والمنافقين . =

الله ﷺ ، فلم يَمُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ، فَجَاءَتْهُ امْرَأَةٌ ، فَقَالَتْ : يَا مُحَمَّد ، إِنِّي لَا أَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ ، لَمْ أَرَهُ قَرِيبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ ^(١) .

وفي رواية قال : أَبْطَأَ جَبْرِيلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : فَقَالَ الْمَشْرُكُونَ : قَدْ وَدَّعَ مُحَمَّدٌ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ .

٥١ - * رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ جُنْدُبِ الْبَجَلِيِّ قَالَ : كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَارٍ ، قَدِمَتِ إِصْبَعُهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ ؟

قال : فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ الْمَشْرُكُونَ : قَدْ وَدَّعَ مُحَمَّدٌ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ .

ذكرت هذه الرواية ههنا لأنه اختلط على بعض العلماء فترة الوحي هذه بفترة الوحي التي كانت بعد فجأة الوحي وليس ذلك صحيحاً . قال صاحب الفتح :

والحق أن الفترة المذكورة في سبب نزول والضحي غير الفترة المذكورة في ابتداء الوحي . فإن تلك دامت أياماً وهذه لم تكن إلا ليلتين أو ثلاثاً . وههنا إشكال : أن بعض الروايات تذكر : أن خديجة قالت لرسول الله ﷺ : ما أرى ربك إلا قد قلاك ، وقد قال صاحب الفتح في هذا :

وقع في رواية أخرى عن الحاكم (فقالت خديجة) وأخرجه الطبري أيضاً من طريق عبد الله بن شداد (فقالت خديجة ولا أرى ربك) ومن طريق هشام بن عروة عن أبيه

= اشتكى : أي : مرض . والمرأة : هي أم جميل - بفتح الجيم - امرأة أبي لهب وأخت أبي سفيان . وقرب : بالضم لازم ، يقال : قرب الشيء ، أي : دنا ، وبالكسر : متعذر ، يقال : قربته ، أي : دنوت منه . شيطانك : أي أنها كانت تقول عن الوحي شيطان ، قاتلها الله وتبت يداها ويذا زوجها . والليل إذا سجي : أي ثبت بظلامه وسكن بأهله . قلا : قلا : إذا هجره ، والاسم : القلى . ودَّع : أي فارق ، ويقال ودَّع المسافر الناس أي فارقهم عقيباً لهم . (١) الضحي : ١ - ٣ .

٥١ - الترمذي (٤٢٢ / ٥) ٤٨ - كتاب تفسير القرآن - ٨٢ باب : ومن سورة الضحي . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(فقالت خديجة لما ترى من جزعه) ، وهذان طريقان مرسلان ورواها ثقات ، فالذي يظهر أن كلاً من أم جميل وخديجة قالت ذلك ، لكن أم جميل عبرت - لكونها كافرة - بلفظ شيطانك . وخديجة عبرت - لكونها مؤمنة - بلفظ ربك أو صاحبك ، وقالت أم جميل شامة وخديجة توجعاً .

وفي الجمع بين سببي النزول لقوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ . أقول : إنه قد يتكرر نزول الآية مرة بعد مرة على إثر حوادث متعددة .

٥٢ - * روى البخاري ومسلم عن يَحْيَى بن أَبِي كَثِيرٍ قال: سألتُ أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ فقلت : يقولون ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ قال أبو سلمة سألتُ جابراً ، فقلتُ له مثل ما قلت لي ، فقال لي جابر : لا أحدثك إلا ما حدثنا رسولُ الله ﷺ ، قال : « جَاوَرْتُ بِحَرَاءِ شَهْرًا ، فَلَمَّا قَضَيْتُ جَوَارِي ، هَبَطْتُ ، فَتَوَدَّيْتُ ، فَتَنَظَّرْتُ عَنْ يَمِينِي فَلَمْ أَرْ شَيْئًا ، وَنَظَرْتُ عَنْ شِمَالِي ، فَلَمْ أَرْ شَيْئًا ، وَنَظَرْتُ أَمَامِي فَلَمْ أَرْ شَيْئًا ، وَنَظَرْتُ خَلْفِي ، فَلَمْ أَرْ شَيْئًا ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي ، فَرَأَيْتُ شَيْئًا ، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ ، فَقُلْتُ : دَثِّرُونِي ، فَدَثَّرُونِي ، وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا ، فَزَلْتُ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * فَمُ قَانْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ » ^(١) وذلك قبل أن تفرض الصلاة .

وفي رواية ^(٢) « فَلَمَّا قَضَيْتُ جَوَارِي هَبَطْتُ فَاسْتَبَطَنْتُ الْوَادِي ، فَتَوَدَّيْتُ فَتَنَظَّرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي ، فَلَمْ أَرْ أَحَدًا ، ثُمَّ تَوَدَّيْتُ ، فَتَنَظَّرْتُ فَلَمْ أَرْ أَحَدًا ، ثُمَّ تَوَدَّيْتُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي ، فَإِذَا هُوَ قَاعِدٌ عَلَى عَرْشٍ فِي

٥٢ - والبخاري (٦٧١ / ٨) ٦٥ - كتاب التفسير - ٧٤ - سورة المدثر .

مسلم (١٤٤ / ١) ١ - كتاب الإيمان - ٧٣ - باب : بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ .

فلما قضيت جواري : أي عاورتي واعتكافي في الغار . فاستبطنت الوادي . أي : صرت في باطنه . فأخذتني رجفة شديدة : الرجفة : الاضطراب .

(١) للدر : ١ - ٥ .

(٢) مسلم (١٤٤ / ١) ١ - كتاب الإيمان - ٧٣ - باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ .

الهواء - يعني جبريل - فأخذتني رَجْفَةً شَدِيدَةً ، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ : دَثِّرُونِي ، فَدَثَّرُونِي ، وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عِزًّا وَجَلًّا ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ .

وفي رواية^(١) « فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى الْعَرْشِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » .

وفي رواية^(٢) عن أبي سلمة عن جابر قال : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُحَدِّثُ عَنْ فِتْرَةِ الْوَحْيِ ، فَقَالَ لِي فِي حَدِيثِهِ « فَبَيْنَا أَنَا أُمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي ، فَإِذَا الْمَلِكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَجِئْتُ مِنْهُ رُعْبًا ، فَرَجَعْتُ ، فَقُلْتُ : زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي ، فَدَثَّرُونِي ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عِزًّا وَجَلًّا : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ » قَبْلَ أَنْ تُفْرَضَ الصَّلَاةُ ، وَالرُّجْزُ هِيَ الْأَوْثَانُ .

وفي أخرى « فَجِئْتُ مِنْهُ حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ » وفيه : قال أبو سلمة (وَالرُّجْزُ : الْأَوْثَانُ) قال : « ثُمَّ حَمِيَ الْوَحْيُ ، وَتَتَابَعَ » .

وأول هذه الرواية : أن رسول الله ﷺ قال : « ثُمَّ فَتَرَ الْوَحْيَ عَنِّي فِتْرَةً ، فَبَيْنَا أَنَا أُمْشِي ... » ثم ذكر نحوه .

أقول : أولية نزول ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ أولية نسبية فهي أول ما نزل بعد فِتْرَةِ الْوَحْيِ . فالصحيح أن أول ما نزل من القرآن هو قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ وأما ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ فكانت بعد ذلك . ويصدق في ذلك ما وقع في بعض روايات هذا الحديث « فَإِذَا الْمَلِكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ » وقوله « ثُمَّ تَتَابَعَ الْوَحْيُ » أي بعد فِترته .

(١) البخاري (٨ / ٦٧٨) ٦٥ - كتاب التفسير - ٧٤ - سورة المدثر - باب : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ .

(٢) مسلم (١ / ١٤٥) ١ - كتاب الإيمان - ٧٣ - باب : بدء الوحي .

فإذا هو على العرش : المراد بالعرش الكرسي . قال أهل اللغة : العرش هو السرير ، وقيل سرير الملك . قال تعالى : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ . فجئْتُ مِنْهُ : يقال : « جِئْتُ » بهزة قبل ثاء ، وبشاءين ، وبشاءٍ ، وبياءٍ ، وقاءٍ : كلمة بمعنى فُرِغْتُ ، والذي في الرواية : الأول . هويت : هوى إلى الأرض وأهوى إليها . أي : سقط . ثم حمي الوحي وتتابَعَ : أي كثر نزوله وازداد من قولهم حيث الشمس والنار أي قويت حرارتها .

وقبل كل ذلك الحديث الطويل الذي رواه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها في قصة أول بعثته ﷺ ونزول جبريل عليه بحراء .

بدأ الوحي بقوله تعالى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ وبعد فترة نزل ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ الْلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فلنقف وقفة عند ذلك :

عند قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ قال السهيلي :

أي لا تقرؤه بقوتك ولا بمعرفتك ، لكن بحول ربك وإعانتة ، فهو يعلمك ، كما خلقك وكما نزع عنك علق الدم وغمز الشيطان في الصغر ، وعلم أمتك حتى صارت تكتب بالقلم بعد أن كانت أمية .

أقول : أخذ بعض أهل السلوك إلى الله عز وجل من هذا أن السالك إلى الله يبدأ بقراءة هذا الكون مستعيناً باسم الله ، حتى إذا احترق بالذكر وأذن له شيوخه بالدعوة إلى الله قام بالدعوة ، وعليه في هذا الحال أن يجتمع له دعوة وعبادة ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ ﴿ قُمْ الْلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ولا ينجح بالدعوة إلا من اجتمع له تعظيم الله ﴿ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴾ وطهارة الظاهر والباطن ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ والتباعد عن عبادات الجاهلية ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ والعمل مع رؤية التقصير ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ ﴾ والصبر على مقتضيات الدعوة ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ .

* * *

فصل : في ظاهرة الوحي

٥٣ - * روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام - رضي الله عنه - سأل رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس - وهو أشده عليّ - فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني ، فأعي ما يقول » .

قالت عائشة - رضي الله عنها - : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً .

وفي رواية النسائي ^(١) إلى قوله : « فيفصم عني وقد وعيت عنه » ثم قال : « وهو أشد عليّ ، وأحياناً يأتيني في مثل صورة الفتى ، فينبذه إليّ » .

٥٤ - * روى الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ إذا أنزل عليه الوحي سَمِعَ عِنْدَ وَجْهِهِ كَدَوِيَّ النحل ، فَأُنْزِلَ عَلَيْهِ يَوْمًا فَكُنَّا سَاعَةً فَسَرَى عَنْهُ فَاسْتَقْبَلَ الْقَبْلَةَ وَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ : « اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلَا تَنْقُصْنَا ، وَأَكْرِمْنَا وَلَا تُهِنَّا ، وَأَعْظِمْنَا وَلَا تَحْزِمْنَا ، وَأَثِرْنَا وَلَا تُؤْثِرْ عَلَيْنَا ، وَأَرْضِنَا وَأَرْضَ عَنَّا » ، ثم قال ﷺ : « أَنْزِلْ عَلَيَّ عَشْرَ آيَاتٍ ، مَنْ أَقَامَهُنَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ » ثم قرأ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٢) حتى خَتَمَ عَشْرَ آيَاتٍ .

٥٥ - * روى أحمد عن عائشة قالت : إِنْ كَانَ لَيُوحَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى

٥٣ - البخاري (١ / ١٨) - كتاب بدء الوحي ، باب : ٢ .

ومسلم (٤ / ١٨١٧) - ٤٣ - كتاب الفضائل - ٢٣ - باب : عرق النبي ﷺ في البرد ، وسين يأتيه الوحي .

والترمذي (٥ / ٥٩٧) - ٥٠ - كتاب المناقب - ٧ - باب : ما جاء كيف كان ينزل الوحي على النبي ﷺ . قال أبو عيسى : حديث حسن صحيح .

الصلصة : صوت الأشياء الصلبة اليابسة . فَمَعَمَ عني : انفصل عني وفارقتني . وعيت الكلام : إذا حفظته وعرفته . ليتفصد عرقاً : أي : جرى عرقه كما يجري الدم من الفصد . فينبذه إليّ : أي يلقيه إليّ .

(١) النسائي (٢ / ١٤٦) كتاب الافتتاح باب : جامع ما جاء في القرآن .

٥٤ - الترمذي (٥ / ٢٦٦) - ٤٨ - كتاب تفسير القرآن - ٢٤ - باب : ومن تفسير سورة المؤمنين ، وهو حديث حسن .

كدوي النحل : صوتها وطنينها . أثرنّا ولا تؤثر علينا : أي أكرمنا ولا تكرم غيرنا دون أن تكرمنا .

(٢) للمؤمنون : ١ .

٥٥ - أحمد في مسنده (٦ / ١١٨) وقال عنه الهيثمي في المجمع (٨ / ٢٥٧) : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

راحلته فتضرب بجِرائِها .

٥٦ - * روى الطبراني عن زيد بن ثابت قال : كُنْتُ أَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ أَخَذَتْهُ بَرَحَاءُ شَدِيدَةً وَعَرَقَ عَرَقًا شَدِيدًا مِثْلَ الْجَمَانِ ثُمَّ سَرَى عَنْهُ ، فَكُنْتُ أَدْخُلُ عَلَيْهِ بِقِطْعَةِ الْعَسْبِ أَوْ كَسِرِهِ فَأَكْتُبُ وَهُوَ يَمْلِي عَلَيَّ ، فَمَا أَفْرَعُ حَتَّى تَكَادُ رِجْلِي تَنْكَسِرُ مِنْ ثِقَلِ الْقُرْآنِ حَتَّى أَقُولَ لَا أَمْشِي عَلَى رِجْلِي أَبَدًا ، فَإِذَا فَرَعْتُ قَالَ اقْرَأْ فَإِنْ كَانَ فِيهِ سَقَطٌ أَقَامَهُ ، ثُمَّ أَخْرَجُ بِهِ إِلَى النَّاسِ .

٥٧ - * روى مسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ كَرِبَ لَذَلِكَ ، وَتَرَبَّدَ وَجْهُهُ .

وفي رواية : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ نَكَسَ رَأْسَهُ ، وَنَكَسَ أَصْحَابُهُ رُؤُوسَهُمْ ، فَلَمَّا أَبْلُغَ عَنْهُ رَفَعَ رَأْسَهُ .

وفي رواية^(١) : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَرِبَ لَذَلِكَ ، وَتَرَبَّدَ لَهُ وَجْهُهُ ، فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ ذَاتَ يَوْمٍ فَلَقَى كَذَلِكَ ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْهُ قَالَ : « خَذُوا عَنِّي ، خَذُوا عَنِّي ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهْنًا سَبِيلًا ، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مَائَةٍ ، وَتَفِي سَنَةً ، وَالثَّيْبُ بِالثَّيْبِ جَلْدُ مَائَةٍ وَالرَّجْمُ » .

= فتضرب بجِرائِها : أي تمد عنقها على الأرض من التعب . قال الحافظ في الفتح : الجِرائُ بكسر الجيم وتخفيف الراء المفتوحة : باطن العنق والمعنى أنه ﷺ إذا أتاه الوحي وهو راكب على راحلته بركت من ثقل الوحي وضربت الأرض بباطن عنقها . أي مدت عنقها على الأرض لأن في ذلك راحة لها .

٥٦ - الطبراني (٥ / ١٤٢) وقال الهيثمي في المجمع (٨ / ٢٥٧) : رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقات . الوحي : الإشارة والكتابة والمكتوب والرسالة والإلهام والكلام الخفي وكل ما ألقىته إلى غيرك والصوت يكون في الناس وغيرهم والوحي ما يوحيه الله إلى أنبيائه . بُرَحَاءُ : البرحاء : الشدة . ومنه برحاء الحمى . الجمان : اللؤلؤ . سرى : مضى وذهب . العسب : (العسيب) من النخل مستقيمة دقيقة يكشفط خوصها والذي لم ينبت عليه الخوص من السعف .

٥٧ - مسلم (٤ / ١٨١٧) ٤٣ - كتاب الفضائل - ٢٢ - باب عرق النبي ﷺ في البرد ، وحين يأتيه الوحي . كرب لذلك : أي أصابه الكرب وهو المشقة . تربد : أي تغير لون وجهه فأصبح قريباً من لون السحاب . أبل : المريض من مرضه : إذا زال عنه ، وكذلك للمعنى عليه ، والمراد : زوال ما كان يعرض عند نزول الوحي ، وكذلك سُرِّيَ عنه ، أي : كشف عنه ذلك .

(١) مسلم (٣ / ١٢١٦) ٢٩ - كتاب الحدود - ٣ - باب حد الزنى .

سبب ورود قول النبي ﷺ : « قد جعل الله لمن سبيلاً » أن الله عز وجل قد أنزل في سورة النساء في الحكم بشأن من يزني من النساء : ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِيَنَّكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ إِسَائِكَمْ فَاسْتَغْنِي عَنْهَا عَلَى نَفْسِهَا فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُونَهَا فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَقَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝ ﴾ (١). قال مكي بن أبي طالب في الإيضاح : كان الله جل ذكره قد فرض في الزانين المحصنين إذا شهد عليهما بالزنا أربعة شهود أن يجلسا في البيت حتى يموتا أو يجعل الله لهما سبيلاً ، فجعل الله السبيل بالرجم ، المتواتر نقله ، الثابت حكمه المنسوخ تلاوته .

٥٨ - * روى البخاري عن صفوان بن يعلى بن أمية ، أن يعلى كان يقول : ليتني أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحي ، فلما كان النبي ﷺ بالجعرانة وعليه ثوب قد أطل عليه ومعه الناس من أصحابه ، إذ جاءه رجل متضمخ بطيب فقال : يا رسول الله : كيف ترى في رجل أحرم في جبة بعدما تضح بطيب ، فنظر النبي ﷺ ساعة فجاءه الوحي : فأشار عمر إلى يعلى أي تعال ، فجاء يعلى فأدخل رأسه ، فإذا هو عمر الوجه يغط كذلك ساعة ، ثم سرى عنه فقال : أين الذي يسألني عن العمة آنفاً ؟ فالتمس الرجل فجاء به إلى النبي ﷺ فقال : « أما الطيب الذي بك فاغسله ثلاث مرات ، وأما الجبة فانزعها ، ثم اصنع في عمرتك كما تصنع في حجك » .

ذكرنا هذه النصوص ههنا للتعريف على ظاهرة الوحي في حياة رسول الله ﷺ وهي ظاهرة لا تشبه أي ظاهرة من الظواهر التي علل بها الكافرون لحدوثها عند رسول الله ﷺ ، إن تعليقاتهم حقد خالص ، فمن يصدق أن ظاهرة مَرَضِيَّة من الظواهر التي يزعمون أن يخرج على أثرها نص كنصوص القرآن ؟

وقد ناقش الأستاذ البوطي في كتابه فقه السيرة المشككين في ظاهرة الوحي ثم قال :

(١) النساء : ١٦ .

٥٨ - البخاري (٩ / ١) ٦٦ - كتاب فضائل القرآن - ٢ - باب نزول القرآن بلسان قریش والعرب .
ومسلم (٢ / ٨٣٧) ١٥٠ - كتاب الحج - ١ - باب ما يباح للمحرم بجم أو عمرة ومالا يباح وبين تحريم الطيب عليه .

إن هذه الحالة التي مرّ بها رسول الله ﷺ ، تجعل مجرد التفكير في كون الوحي إلهاماً نفسياً ضرباً من الجنون ، إذ من البدهة بمكان أن صاحب الإلهامات النفسية والتأملات الفكرية لا يمرّ إلهامه أو تأمله بمثل هذه الأحوال .

وإذاً فإن حديث بدء الوحي على النحو الذي ورد في الحديث الثابت الصحيح ، ينطوي على تهديم كل ما يحاول المشككون تخييله إلى الناس في أمر الوحي والنبوة التي أكرم الله بها محمداً عليه الصلاة والسلام ، وإذا تبين لك ذلك أدركت مدى الحكمة الإلهية العظيمة في أن تكون بدء الوحي على النحو الذي أراده الله عز وجل .

وربما عاد بعد ذلك محترفو التشكيك ، يسألون : فلماذا كان ينزل عليه ﷺ الوحي بعد ذلك وهو بين الكثير من أصحابه فلا يرى الملك أحدٌ منهم سواء ؟

والجواب : أنه ليس من شرط وجود الموجودات أن تُرى بالأبصار ، إذ إن وسيلة الإبصار فينا محدودة بمحد معين ، وإلا لاقتضى ذلك أن يصبح الشيء معدوماً إذا ابتعد عن البصر بعداً يمنع من رؤيته . على أن من اليسير على الله جل جلاله - وهو الخالق لهذه العيون المبصرة - أن يزيد في قوة ما شاء منها فيرى ما لا تراه العيون الأخرى ، يقول مالك بن نبي في هذا الصدد :

إن عمى الألوان مثلاً يقدم لنا حالة غوذجية ، لا يمكن أن ترى فيها بعض الألوان بالنسبة لكل العيون ، وهناك أيضاً مجموعة من الإشعاعات الضوئية دون الضوء الأحمر وفوق الضوء البنفسجي لا تراها أعيننا ، ولا شيء يثبت علمياً أنها كذلك بالنسبة لجميع العيون . فلقد توجد عيون يمكن أن تكون أقل أو أكثر حساسية .

ثم إن استمرار الوحي بعد ذلك يحمل نفس الدلالة على حقيقة الوحي وأنه ليس كما أراد المشككون : ظاهرة نفسية محضة . ونستطيع أن نجمل هذه الدلالة فيما يلي .

١ - التمييز الواضح بين القرآن والحديث ، إذ كان يأمر بتسجيل الأول فوراً ، على حين يكتفي بأن يستودع الثاني ذاكرة أصحابه ، لا لأن الحديث كلام من عنده لا علاقة للنبوة به ، بل لأن القرآن موحى به إليه بنفس اللفظ والحروف بواسطة جبريل عليه السلام . أما

الحديث فمعناه وحي من الله عز وجل ، ولكن لفظه وتركيبه من عنده عليه الصلاة والسلام ، فكان يحاذر أن يختلط كلام الله عز وجل الذي يتلقاه من جبريل بكلامه هو .

٢ - كان النبي ﷺ يُسأل عن بعض الأمور فلا يجيب عليها ، وربما مرّ على سكوته زمن طويل ، حتى إذا نزلت آية من القرآن في شأن ذلك السؤال ، طلب السائل وتلا عليه ما نزل من القرآن في شأن سؤاله . وربما تصرف الرسول في بعض الأمور على وجه معين ، فتنزل آيات من القرآن تصرفه عن ذلك الوجه ، وربما انطوت على عتب أو لوم له .

٣ - كان رسول الله ﷺ أمياً ، وليس من الممكن أن يعلم إنسان بواسطة المكاشفة النفسية حقائق تاريخية ، كقصة يوسف ، وأم موسى حينما أُلقت وليدها في اليم ، وقصة فرعون ، ولقد كان هذا من جملة الحكم في كونه ﷺ أمياً : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ لَا تُرَاتِبُ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (١) .

٤ - إن صدق النبي ﷺ أربعين سنة مع قومه واشتهاره فيهم بذلك ، يستدعي أن يكون ﷺ من قبل ذلك صادقاً مع نفسه بما لا يمكن أن يشك في صدقه فيما بعد ذلك ، اهـ .

وقال الدكتور مصطفى السباعي :

إن الله إذا أراد لعبد أن يوجهه لدعوة الخير والإصلاح ألقى في قلبه كره ما عليه مجتمعه من ضلال وفساد . إن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يكن يستشرف للنبوة ، ولا يعلم بها . وإنما كان يلهمه الله الخلوة للعبادة تطهيراً ، وإعداداً روحياً لتحمل أعباء الرسالة . ولو كان عليه الصلاة والسلام يستشرف للنبوة ، لما فزع من نزول الوحي عليه ، ولما نزل إلى خديجة يستفسرها عن سر تلك الظاهرة التي رآها في غار حراء . ولم يتأكد من أنه رسول إلا بعد رؤية جبريل يقول له : يا محمد أنت رسول الله . وأنا جبريل ، وإلا بعد أن أكد له ولخديجة وورقة بن نوفل أن ما رآه في الغار هو الوحي الذي كان ينزل على موسى عليه الصلاة والسلام .

* * *

أقسام الوحي :

ذكر ابن القيم وغيره مراتب الوحي فأوصلوها إلى الثانية :

إحداها : الرؤيا الصادقة . وكانت مبدأ وحيه ﷺ .

الثانية : ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه ، كما قال النبي ﷺ : « إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها . فاتقوا الله ، وأجملوا في الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله ، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته » .

الثالثة : أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلاً فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له ، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً .

الرابعة : أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس ، وكان أشده عليه فيلبس به الملك ، حتى أن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد ، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها ، ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت ، فثقلت عليه حتى كادت ترضها .

الخامسة : أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها ، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه ، وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك في سورة النجم .

السادسة : ما أوحاه الله إليه ، وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها .

السابعة : كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك كما كلم الله موسى بن عمران ، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعاً بنص القرآن . وثبوتها لنبينا ﷺ هو في حديث الإسراء .

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة وهي : تكليم الله له كفاحاً من غير حجاب ، وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف . [الرحيق المختوم]

حفظ أمر السماء بعد النبوة :

٥٩ - * روى البخاري عن ابن عباس قال : انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين ، فقالوا : ما لكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب . قال : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث ؟ فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء ؟ قال : فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة وهو عامد إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن سمعوا له ، فقالوا : هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهناك رجعوا إلى قومهم فقالوا : يا قومنا ، إنا سمعنا قرأنا عجباً يهدي إلى الرشيد فامنا به ، ولن نشارك ربنا أحداً . وأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ ﴾ ^(١) وإنما أوحى إليه قول الجن .

هذه رواية البخاري . وقد أخرجها مسلم مع زيادة فيها نفي ابن عباس لرؤية الجن

٥٩ - البخاري (٨ / ٦٦٩) - ٦٥ - كتاب التفسير - باب ١ ، سورة ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ .

ومسلم (١ / ٣٢١) - ٤ - كتاب الصلاة - ٣٢ - باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن .

عامدين : عمدت إلى الشيء : قصدت نحوه . عكاظ : موسم معروف للعرب قال في الفتح . بل كان من أعظم مواسمهم ، وهو نخل في واد بين مكة والطائف وهو إلى الطائف أقرب ، بينهما عشرة أميال ، وهو وراء قرن المنازل بمرحلة من طريق صنعاء الين . وقال البكري : أول ما أحدثت قبل الفيل بخمس عشرة سنة ، ولم تزل سوقاً إلى سنة تسع وعشرين ومائة ، فخرج الخوارج الحرورية فنهبوها فتركت إلى الآن ، وكانوا يقيمون به جميع شوال يتبايعون ويتفاخرون وتند الشعراء ما تجدد لهم ، وقد كثر ذلك في أشعارهم كقول حسان :

سأنشر إن حييت لكم كلاماً
ينشر في الجمامح من عكاظ

وكان المكان الذي يجتمعون به منه يقال له الابتداء . وكانت هناك صخور يطوفون حولها ، ثم يأتون بحنة فيقيمون بها عشرين ليلة من ذي القعدة . ثم يأتون ذا الحجاز ، وهو خلف عرفة فيقيمون به إلى وقت الحج .

حيل : حلت بين الشيئين : فصلت بينها ، ومنعت أحدها من الآخر . تهامة : بكسر التاء : وهو اسم لكل ما نزل عن مجد من بلاد الحجاز ، ومكة من تهامة . نخلة : بفتح النون وسكون المعجمة . موضع بين مكة والطائف ، على ليلة من مكة ، وهي التي ينسب إليها بطن نخل . وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر : المراد به ههنا صلاة الغداة في أول الإسلام قبل فرض الصلوات الخمس لأن الصلوات الخمس فرضت ليلة الإسراء ، أما قبل ذلك فقد كان الفرض صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها .

وذلك محمول على ما كان في ابتداء النبوة وهو ما ذكره ابن عباس هنا ، أما رواية ابن مسعود التي ذكر فيها اجتماع رسول الله ﷺ بالجن فتلک حادثة متأخرة سنراها ، قال الحافظ في الفتح جامعاً بين نفي ابن عباس وإثبات ابن مسعود (ويمكن الجمع بالتعدد) .

قال في الفتح :

وفي الحديث إثبات وجود الشياطين والجن وأنها لمسمى واحد ، وإنما صاروا صنفين باعتبار الكفر والإيمان ، فلا يقال لمن آمن منهم إنه شيطان . وفيه أن الصلاة في الجماعة شرعت قبل الهجرة . وفيه مشروعيتها في السفر . والجهر بالقراءة في صلاة الصبح ، وأن الاعتبار بما قضى الله للعبد من حسن الخاتمة لا بما يظهر منه من الشر ولو بلغ ما بلغ ، لأن هؤلاء الذين بادروا إلى الإيمان بمجرد استماع القرآن لو لم يكونوا عند إبليس في أعلى مقامات الشر ما اختارهم للتوجه إلى الجهة التي ظهر له أن الحدث الحادث من جهتها . ومع ذلك فغلب عليهم ما قضى لهم من السعادة بحسن الخاتمة . اهـ .

وهناك روايات صحيحة تثبت أن الشهب كانت موجودة قبل البعث فلا تعارض بغيرها لذلك قال الزهري في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً ﴾^(١) غلط أمرها وشدد .

قال في الفتح : والشهب عند علماء الكون نيازك تشتعل إذا اصطدمت بالهواء من جزاء الاحتكاك .

وإثبات هذا المعنى لا ينفي أن يكون لبعضها آثار على عالم الجن فأن يكون لشيء واحد مظهر حسي وارتباط عيني فذلك جائز كالموت يكون له سبب حسي كالمرض وهو أثر عن نزع الروح كذلك .

ومن فكرة أن اشتعال النيازك إنما يكون بعد ملامستها للهواء ، ومن تفسير المفسرين : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ ﴾ أي قصدناها فهم أن مقاعد الجن في السماء إنما هي في جو الأرض . والتشديد في حراسة السماء لا يمنع أن يستمر الجن في المحاولة وأن يسمعون شيئاً .

قال صاحب الفتح :

فإن الشياطين مع شدة التغليظ عليهم في ذلك بعد المبعث لم ينقطع طمعهم في استراق السمع في زمن النبي ﷺ فكيف بما بعده ، وقد قال عمر لغيلان بن سلمة لما طلق نساءه :
إني أحسب أن الشياطين فيما تسترق السمع سمعت بأنك ستوت فألقت إليك ذلك الحديث ،
أخرجه عبد الرزاق وغيره . فهذا ظاهر في أن استراقهم السمع استمر بعد النبي ﷺ ، فكانوا
يقصدون استماع الشيء مما يحدث فلا يصلون إلى ذلك إلا إن اختطف أحدهم بخفة حركته
خطفة فيتبعه الشهاب ، فإن أصابه قبل أن يلقيها لأصحابه فانت وإلا سمعوها وتداولوها . اهـ .

ومن الحديث نعلم أن السماء قد حفظت من بدء رسالته عليه الصلاة والسلام حتى لا
يشتبه أمر النبوة على الخلق .

* * *

القرآن

معجزة الرسول ﷺ الخالدة

٦٠ - * روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من الأنبياء نبي إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » .

المعجزة الرئيسية لرسول الله ﷺ هي القرآن ، والقرآن معجزة فيها معجزات : ففي القرآن كله إعجاز مظهره عجز البشر أن يأتوا بسورة مثله مع أنه كلام يتألف من اسم وفعل وحرف ، وزيادة على الإعجاز الموجود في القرآن كله فهناك معجزات كثيرة أخرى ، من مثل إخباره عن غيوب سابقة ولاحقة ، ومن مثل حديثه عن أسرار كونية لم تعرف إلا في عصور متأخرة لاحقة . وبالإعجاز القرآني والمعجزات القرآنية تقوم الحجة على الخلق إلى قيام الساعة أن محمداً رسول الله ﷺ .

ولكن إذا كانت المعجزة الرئيسية لرسولنا هي القرآن فهناك معجزات أخرى لا تعد ولا تحصى تقوم بها الحجة ، فهناك خوارق للعادات حدثت في عصره على يديه ، وهناك نبوءات تحققت في عصره وفيما بعد ذلك ، وهناك كرامات أولياء أمته .

وبسبب من كون القرآن هو المعجزة الرئيسية لرسولنا عليه الصلاة والسلام ، وبسبب من كون هذا القرآن باقياً محفوظاً ، فالمعجزة مستمرة في حق الأمم وهي محسوسة ملموسة ، بينما معجزات الرسل انقضت بوقوعها فلم يصل إلى الأمم إلا خبرها ، فمن هذه الحيشية فإن المتوقع أن يكون أتباع رسول الله ﷺ كثيراً .

٦٠ - البخاري (٢ / ١) ٦٦ - كتاب فضائل القرآن - ١ - باب كيفية نزول الوحي .

مسلم (١ / ١٢٤) - ١ - كتاب الإيمان - ٧٠ - باب : وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملة بملته .

آمن عليه البشر : أي : آمنوا عند معانين ما أتاه الله من الآيات والمعجزات والدلائل الواضحات ، أراد إعجاز القرآن الذي خص به رسول الله ﷺ ، وإن كان كل نبي من الأنبياء قد أوتي من المعجزات ما يوجب على البشر الإيمان به . وحياً أوحاه الله : أراد القرآن ، فإنه ليس شيء من كتب الله المنزلة كان معجزاً إلا القرآن .

بهذا القرآن بدأ الرسول ﷺ دعوته ، وبهذا القرآن ربّى من استجاب له وعلمهم ، وبهذا القرآن واجه وجابه ، ولأمر أراد الله عز وجل لم تصلنا تفصيلات شاملة كاملة عن تسلسل الآيات في النزول ، وقد تكون الحكمة قطع الطريق على التفكير في إعادة ترتيب القرآن لأن ترتيبه رباني ومعجز كما أثبتنا ذلك في كتاب (الأساس في التفسير) ، وعلى كل فقد بقيت هناك معالم كبرى للقرآن الذي نزل في مكة قبل الهجرة ، ومعالم كبرى لما نزل في المدينة ، كما أن هناك معالم كبرى في تحديد زمن نزول بعض السور ، فقله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ^(١) نزل بعد أربع سنين من البعثة ، وسورة المزمل نزلت في أوائل البعثة .

ومن استعراض لهذه المعالم الكبرى نستطيع أن نتعرف على كيفية المواجهة والمجابهة بين الوحي والفكر الجاهلي ، كما نتعرف على مجموع الأفكار التي واجهت بها الجاهلية هذه الدعوة ، لكن الترتيب الرباني لسور القرآن تسلسلت فيه المعاني على نمط لا يتقيد بترتيب النزول ، وقد كان هذا بصيغة خالدة تسع الزمان والمكان فالتسلسل ذاك ملاحظ به الجيل الأول ، أما هذا فقد جاء بشكل آخر يسع احتياجات البشر بعد كمال التشريع ، ولا يفوت قارئ القرآن حالياً أن يستأنس بمكيثها أو مدنيثها ليتعرف على ما كان في المرحلة الأولى والثانية .

* * *

متى وكيف نزل القرآن :

قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ ^(٢) وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ ^(٣) .

فيستشهد بذلك على أن القرآن أنزل في شهر رمضان ، وفي ليلة القدر ، وهذا يحتمل تأويلين : أحدهما : أن يكون أراد بدء النزول وأوله ، لأن القرآن نزل في أكثر من عشرين

(١) الحديد : ١٦ .

(٢) البقرة : ١٨٥ .

(٣) القدر : ١ .

سنة في رمضان وغيره ، والثاني : ما قاله ابن عباس : أنه نزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا ، فجعل في بيت العزة مكنوناً في الصحف المكرمة ، المرفوعة المطهرة ، ثم نزلت منه الآية بعد الآية ، والسورة بعد السورة ، في أجوبة السائلين ، والنوازل الحادثة ، إلى أن توفي ﷺ وهذا التأويل أشبه بالظاهر ، وأصح في النقل والله أعلم .

* * *

فصل : في الدعوة السرية

بعد نزول قوله تعالى ﴿ اقْرَأْ ﴾ عرض رسول الله ﷺ ما حدث على خديجة وورقة بن نوفل فأما ابتداء لمجرد العرض دون دعوة منه عليه الصلاة والسلام ، وينزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبُّكَ فَكَبِيرٌ * وَثِيَابُكَ فَطَهِّرْ ... ﴾ ^(١) أصبح الرسول ﷺ مكلفاً بالإنذار ومكلفاً بالصلاة والطهارة والتوحيد والصبر وتجنب الأوثان ، وهذه هي التكليف التي جاءت بعد فترة الوحي ، ولم يسبق ذلك إلا التكليف بالقراءة باسم الله وذلك في قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ... ﴾ ^(٢) وهكذا بدأ التكليف بالتوحيد والعبادة والدعوة والصبر . والعبادة في هذه المرحلة تتلخص في الصلاة وقراءة القرآن والذكر والفكر ، فالصلاة رافقت نزول سورة المدثر ، وعلى رواية المقرئ أنها رافقت نزول سورة اقرأ ، ولذلك فسنى روايات تذكر الصلاة من الابتداء ، وقد دخل في تكليف الصلاة ابتداء صلاة في الصباح وصلاة في المساء على سعة في الوقتين ، ثم تكليف بقيام الليل ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُرْمَلُ قُمْ لَيْلًا إِلَّا قَلِيلًا ... ﴾ ^(٣) وبعد سنة خفف الأمر بقيام الليل عن عامة المسلمين وبقي في حقه عليه الصلاة والسلام فريضة ، واستمر الحال على ذلك حتى حادثة الإسراء والمعراج إذ فرضت الصلوات الخمس ، وقد بدأت الدعوة سرية وفردية حتى جاء الأمر بالجهر بالإنذار والصدع بالدعوة وذلك على القول الراجح بعد ثلاث سنين من البعثة ، ويبدو أن الاضطهاد بدأ مبكراً منذ هذه المرحلة ، واشتد بعد الجهر بالدعوة مما ألجأ إلى الاختباء في دار الأرقم ثم أسفر عن المهجرتين إلى الحبشة ، وقد شدد المشركون القبضة بفرض المقاطعة والحصار مما ألجأ المسلمين ومن تعاطف معهم إلى الانكماش في شعب أبي طالب .. كما سنراه .

وإذ كنا لا نملك تاريخاً محققاً لكل حادثة في المرحلة المكية متى كانت إلا في حدود ضيقة ، فإننا سنعرض الروايات على تسلسل معين مستأنسين لهذا التسلسل ببعض المعاني ، لكنه في الكثير من الأحيان لا يصل إلى حد الجزم فليلاحظ القارئ ذلك ، فبعض

(١) المدثر : ١ - ٤ .

(٢) الملق : ١ .

(٣) المزمل : ١ ، ٢ .

الروايات التي نذكرها قبل المهجرتين إلى الحبشة قد يكون زمنها بعد المهجرتين ، وبعض الروايات التي نذكرها بعد المهجرتين قد تكون وقعت قبلها .

ولنعد إلى استعراض الحال قبل نزول الأمر بالجهر بالدعوة ، فالدعوة في هذه المرحلة سرية وفردية وقد قام بها رسول الله ﷺ بنفسه أو بمن استجاب له كأبي بكر رضي الله عنه . قال المقرئ :

ثم استجاب له عبادة الله من كل قبيلة ، فكان حائز قصب السبق ؛ أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن غالب القرشي التيمي رضي الله عنه فأزره في دين الله وصدقته فيما جاء به ، ودعا معه إلى الله على بصيرة ، فاستجاب لأبي بكر رضي الله عنه جماعة منهم : عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي الأموي ، وطلحة بن عبيد الله بن عثمان ابن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة القرشي التيمي ، وسعد بن أبي وقاص مالك بن أهيبة بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري ، والزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي الأسدي ، وعبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري ، فجاءهم رسول الله ﷺ حتى استجابوا له بالإسلام وصلوا ، فصار المسلمون ثمانية نفر ، أول من أسلم وصلى لله تعالى .

وأما علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي فلم يشرك بالله قط ، وذلك أن الله تعالى أراد به الخير فجعله كفالة ابن عمه سيّد المرسلين محمد ﷺ ، فعندما أتى رسول الله ﷺ الوحي ، وأخبر خديجة رضي الله عنها وصدقت ، كانت هي وعلي بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة بن شراحيل بن عبد العزى بن امرئ القيس بن عامر ابن عبد ود ابن كنانة بن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن ربيعة بن ثور بن كلب بن وبرة الكلبية ، حب رسول الله ﷺ يصلون معه ، وكان ﷺ يخرج إلى الكعبة أول النهار فيصلي صلاة الضحى ، وكانت صلاة لا تنكرها قريش . وكان إذا صلى في سائر اليوم بعد ذلك قعد علي أو زيد رضي الله عنها يرصدانه .

وكان ﷺ وأصحابه إذا جاء وقت العصر تفرقوا في الشَّعَابِ فَرَادَى وَمَشْنَى ، وكانوا يصلون الضُّحَى والعصر ، ثم نزلت الصلوات الخمس ، وكانت الصلاة ركعتين ركعتين قبل الهجرة . فلم يحتج علي رضي الله عنه أن يدعى ، ولا كان مشركاً حتى يوحد فيقال أسلم ، بل كان - عندما أوحى الله إلى رسول الله ﷺ - عمرة ثمانين سنين ؛ وقيل سبع سنين ، وقيل إحدى عشرة سنة . وكان مع رسول الله ﷺ في منزله بين أهله كأحد أولاده يتبعه في جميع أحواله . وكان أبو بكر رضي الله عنه أول من أسلم من له أهلية الذب عن رسول الله ﷺ والحماية والمناصرة . هذا هو التحقيق في المسألة لمن أنصف وترك الهوى من الفريقين . أي : الذين يقدم أحدهما إسلام أبي بكر ، والآخر إسلام علي رضي الله عنهما .

وقال صاحب الرحيق المختوم :

ومن أوائل المسلمين : بلال بن رباح الحبشي ، ثم تلاهم أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر ابن الجراح من بني الحارث بن فهر ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم الخزوميان ، وعثمان بن مظعون وأخوه قدامة وعبد الله ، وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ، وسعيد بن زيد العدوي ، وامراته فاطمة بنت الخطاب العدوية أخت عمر بن الخطاب ، وخبَّاب بن الأرت ، وعبد الله بن مسعود الهذلي وخلق سواهم ، وأولئك هم السابقون الأولون ، وهم من جميع بطون قريش وعدن ابن هشام أكثر من أربعين نفراً . وفي ذكر بعضهم في السابقين الأولين نظر .

قال ابن إسحاق : ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة ، وتحدث به .

أسلم هؤلاء سراً ، وكان الرسول ﷺ يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين متخفياً لأن الدعوة كانت لا تزال فردية وسرية ، وكان الوحي قد تتابع وحي نزوله بعد نزول أوائل المدثر . وكانت الآيات وقطع السور التي تنزل في هذا الزمان آيات قصيرة ، ذات فواصل رائعة منيعة ، وإيقاعات هادئة خلاصة تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق ، تشتت على تحسين تزكية النفوس ، وتقبيح تلويثها برغائم الدنيا ، تصف الجنة والنار كأنها رأي عين ، تسيّر

بالمؤمنين في جو آخر غير الذي فيه المجتمع البشري آنذاك .

وتعليقاً على سرية الدعوة في السنين الثلاثة الأولى للدعوة قال الدكتور البوطي :

وبناءً على ذلك فإنه يجوز لأصحاب الدعوة الإسلامية في كل عصر أن يستعملوا المرونة في كيفية الدعوة - من حيث التكتّم والجرّ ، أو اللين والقوّة - حسبما يقتضيه الظروف وحال العصر الذي يعيشون فيه . وهي مرونة حدّتها الشريعة الإسلامية اعتماداً على واقع سيرته ﷺ ... على أن يكون النظر في كل ذلك إلى مصلحة المسلمين ومصلحة الدعوة الإسلامية .

ومن أجل هذا أجمع جمهور الفقهاء على أن المسلمين إذا كانوا من قلة العدد أو ضعف العدة بحيث يغلب على الظن أنهم سيقتلون من غير أي نكاية في أعدائهم ، إذا ما أجمعوا قتالهم ، فينبغي أن تقدم هنا مصلحة حفظ النفس ، لأن المصلحة المقابلة وهي مصلحة حفظ الدين موهومة أو منفية الوقوع .

ويقرر العز بن عبد السلام حرمة الخوض في مثل هذا الجهاد قائلاً :

فإذا لم تحصل النكاية وجب الانهزام ، لما في الثبوت من فوات النفس مع شفاء صدور الكفار وإرغام أهل الإسلام ، وقد صار الثبوت هنا مفسدة محضة . ليس في طيها مصلحة .

وتقديم مصلحة النفس هنا من حيث الظاهر فقط ، أما من حيث حقيقة الأمر وممراته البعيد ، فإنها في الواقع مصلحة دين ، إذ المصلحة الدينية تقتضي - في مثل هذه الحال - أن تبقى أرواح المسلمين سليمة لكي يتقدموا ويجاهدوا في الميادين المفتوحة الأخرى . وإلا فإن هلاكهم يعتبر إضراراً بالدين نفسه وفسحاً للمجال أمام الكافرين ليقتحموا ما كان مسدوداً أمامهم من السبل ١٠ هـ .

أقول : إن صاحب الدعوة لابد أن يعطيها فرصة لتتكّن في الأنفس فلا تؤثر فيها الأعاصير ، قدر لو أن الرعيل الأول انشغل بغير التكوين النفسي فكيف سيكون قادراً على الصبر والتحمل إذا جاءت الحنة ؟ وكيف يستطيع مقارعة الباطل وشبهه ؟ وهل يستطيع صهر المستجيبين وحمل الدعوة ؟ .

٦١ - * روى الإمام أحمد عن إسماعيل بن إياس بن عفيف الكندي عن أبيه عن جدّه قال : كُنْتُ امْرَأً تَاجِرًا فَقَدِمْتُ الْحِجَّ ، فَأَتَيْتُ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمَطْلِبِ لِأَتْبَاعَ مِنْهُ بَعْضُ التَّجَارَةِ وَكَانَ امْرَأً تَاجِرًا ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَعِنْدَهُ بِمَنْى إِذْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ خِيَابِ قَرِيبٍ مِنْهُ فَنَظَرْتُ إِلَى الشَّمْسِ فَلَمَّا رَأَاهَا مَالَتْ قَامَ يُصَلِّي ، قَالَ : ثُمَّ خَرَجْتُ امْرَأَةً مِنْ ذَلِكَ الْخِيَابِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ فَقَامَتْ خَلْفَهُ تَصَلِّي ، ثُمَّ خَرَجَ غَلَامٌ حِينَ رَأَاهُ الْحَلَمُ مِنْ ذَلِكَ الْخِيَابِ فَقَامَ مَعَهُ يَصَلِّي ، قَالَ : فَقُلْتُ لِلْعَبَّاسِ مِنْ هَذَا يَا عَبَّاسُ ؟ قَالَ : هَذَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلِبِ ابْنُ أَخِي ، قَالَ فَقُلْتُ : مَنْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ ؟ قَالَ : هَذِهِ امْرَأَتُهُ خَدِيجَةُ ابْنَةُ خُوَيْلِدٍ ، قَالَ قُلْتُ : مَنْ هَذَا الْفَتَى ؟ قَالَ : هَذَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ابْنُ عَمِّهِ ، قَالَ فَقُلْتُ : فَا هَذَا الَّذِي يَصْنَعُ ؟ قَالَ : يُصَلِّي وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، وَلَمْ يَتَّبِعْهُ عَلَى أَمْرِهِ إِلَّا امْرَأَتُهُ وَابْنُ عَمِّهِ ، هَذَا الْفَتَى ، وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَفْتَحُ عَلَيْهِ كَنُوزُ كِشْرَى وَقِصْرَ . قَالَ : فَكَانَ عَفِيفٌ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ الْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ يَقُولُ : - وَأَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ وَحَسَنَ إِسْلَامَهُ - لَوْ كَانَ اللَّهُ رَزَقَنِي الْإِسْلَامَ يَوْمَئِذٍ فَأَكُونُ ثَالِثًا مَعَ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ .

قال صاحب الفتح الرباني :

مالَتِ الشَّمْسُ : أَيِ إِلَى جِهَةِ الْمَغْرَبِ ، وَجَاءَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى بِهَا حِينَ زَالَتِ الشَّمْسُ فَهِيَ تَفْسِرُ مَا هُنَا ، وَلَا يَعَارِضُهُ قَوْلُ مُقَاتِلَ كَانَتِ الصَّلَاةُ أَوَّلَ فَرَضِهَا رَكَعَتَيْنِ بِالْفِدَاةِ وَرَكَعَتَيْنِ بِالْعِشِيِّ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ ^(١) فَقَدْ قِيلَ الْعِشِيُّ مَا بَيْنَ الزَّوَالِ إِلَى الْغُرُوبِ ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلظُّهْرِ وَالْعَصْرِ صَلَاتَا الْعِشِيِّ (قَالَ الْحَافِظُ) كَانَ ﷺ قَبْلَ الْإِسْرَاءِ يَصَلِّي قُطْعًا وَكَذَلِكَ أَصْحَابُهُ ، وَلَكِنْ اخْتَلَفَ هَلْ افْتَرَضَ قَبْلَ الْخَمْسِ شَيْءٌ مِنَ الصَّلَاةِ أَمْ لَا ؟ فَقِيلَ إِنَّ الْفَرَضَ كَانَ صَلَاةً قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَالْحُجَّةُ فِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَسَبِّحْ ﴾ أَيِ : صَلِّ حَالَ كَوْنِكَ مُتَلَبِّسًا ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾

٦١ - أحمد في مسنده (٢٠٩ / ١) والطبراني (١٨ / ١٠٠) .

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٣ / ٩) : رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه والطبراني بأسانيد ، ورجال أحمد ثقات .

(١) غافر : ٥٥ .

قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۝^(١) .

٦٢ - * روى الطبراني عن أسماء بنت أبي بكر أن النبي ﷺ سئل عن ورقة بن نوفل فقال :
« يَبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحِدَهُ » . وذلك لأنه آمن ونوى النصرة وتوفي قبل أن يدعى .

٦٣ - * روى أحمد والترمذي عن زيد بن أرقم قال : أول من صلى (وفي لفظ) أول من
أسلم مع رسول الله ﷺ علي (قال عمرو أحد الرواة) فذكرت ذلك لإبراهيم (أي :
النخعي) فأنكر ذلك ، وقال : أول من أسلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

قال في الفتح :

وروى ابن إسحاق في السيرة قال : أول ذكر آمن برسول الله ﷺ وصدقه علي بن أبي
طالب وهو ابن عشر سنين ، وكان في حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام . وقال محمد بن
كعب : أول من أسلم من هذه الأمة خديجة ، وأول رجلين أسلما أبو بكر وعلي ، وأسلم علي
قبل أبي بكر وكان علي يكتم إيمانه خوفاً من أبيه حتى لقيه أبوه قال : أسلمت ؟ قال :
نعم . قال : أزر ابن عمك وانصره ، قال : وكان أبو بكر الصديق أول من أظهر الإسلام ،
وروى الطبراني عن أبي رافع : صلى النبي ﷺ أول يوم الإثنين وصلت خديجة آخره ، وصلى
علي يوم الثلاثاء . وروى الحاكم في المستدرک من حديث بريدة الأسلمي قال : أوحى إلى
رسول الله ﷺ يوم الإثنين وصلى علي يوم الثلاثاء . وصححه الحاكم وأقره الذهبي .

وتوفيقاً بين النصوص التي تذكر أول من أسلم قال صاحب الفتح :

ولا منافاة ، فإن أبا بكر أول من أسلم من الرجال ، وعلياً أول من أسلم من الصبيان ،
فقد روي أنه كان حينذاك بين تسع سنين وعشر ، وكان إسلامه قبل إسلام أبي بكر رضي

(١) طه : ١٣٠ .

٦٢ - للمجم الكبير (٢٤ / ٨٢) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٩ / ٤١٦) وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح .
٦٣ - أحد في مسنده (٤ / ٣٧١) والترمذي (٥ / ٦٤٢) ٥٠ - كتاب المناقب . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح
مجمع الزوائد (٩ / ١٠٣) وقال : رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح .

الله عنها .

٦٤ - * روى أحمد والبخاري عن حبة العزني قال : رأيتُ علياً رضي الله عنه يضحكُ على المنبرِ لم أرهُ ضحكاً أكثر منه حتى بدت نواجذهُ ، ثم قال : ذكرتُ قولَ أبي طالبٍ : ظَهَرَ علينا أبو طالبٍ وأنا مع رسولِ الله ﷺ ونحن نُصلي ببطنِ نخلة فقال : ماذا تُصنعان يا ابنَ أخي ؟ فدعاهُ رسولُ الله ﷺ إلى الإسلام ، فقال : ما بالذي تُصنعان بأُسٍّ ، ولكن لا تَعْلُونِي إِسْتِي أبداً . فضحك تعجباً لقوله أبيه ثم قال : اللهم لا أعترف عبداً من هذه الأمة عبدك قبلي غيرَ نبيِّك - ثلاث مرات - لقد صَلَّيتُ قبل أن يُصلي النَّاسُ سبعا .

٦٥ - * روى الطبراني عن ابن شهاب قال : أول من أسلم زيدُ بن حارثة .

زيد بن حارثة أول من أسلم من الموالي ، وقصة تبني رسول الله ﷺ لزيد بعد عتقه مشهورة ، وإسلام زيد وأمثاله ممن هم أكثر الناس خلطة برسول الله ﷺ وأكثرهم معرفة به علم من أعلام نبوته .

٦٦ - * روى الترمذي عن جَبَلَةَ بنِ حارثة رضي الله عنه قال : قَدِمْتُ على رسول الله ﷺ فقلت : يا رسولَ الله ابعثْ معي أخي زيدا ، قال : « هو ذا ، فَإِنِ انْطَلَقَ معَكَ لم أَمْنَعُهُ » . قال زيد : يا رسولَ الله ، والله لا أختار عليك أحداً ، قال : فرأيت رأيَ أخي أفضلَ من رأيي .

٦٧ - * روى أحمد عن ابن مسعود قال : كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعقبة بن أبي

٦٤ - أحمد في مسنده (١ / ٩٩) والبخاري : كشف الأستار (٣ / ١٨٢) ، وأورده الميمني في مجمع الزوائد (١ / ١٠٢) وقال : رواه أحمد وأبو يعلى باختصار ، والبخاري والطبراني في الأوسط وإسناده حسن .
نواجذه : النواجز هي الأسنان التي تبدو عند الضحك . بطن نخلة : اسم مكان . سبعا : تحتل كثيراً وتحتل سبع ليال . لا تعلوني إستي أبداً : أي لا ترتفع مقعدتي عن رأسي كما يحدث للساجد .

٦٥ - أورده الميمني في مجمع الزوائد (١ / ٢٧٤) وقال : رواه الطبراني مرسلًا وإسناده حسن .

٦٦ - الترمذي (٥ / ٦٧٦) ٥٠ - كتاب المناقب - ٤٠ - باب مناقب زيد بن حارثة رضي الله عنه ، وقال عنه : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن الرومي عن علي بن مُشَيْر . والحاكم (٣ / ٢١٤) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي . وذكره الحافظ في الفتح وسكت عنه وذلك أمانة تحسینه .

٦٧ - أحمد في مسنده (١ / ٤٦٢) . قال الميمني : رواه أحمد وأبو يعلى ورجالهما رجال الصحيح .

مَعِيطٍ ، فجاء النبي ﷺ وأبو بكر وقد فرّا من المشركين ، فقالا : يا غلام هل عندك من لبن تسقيننا ؟ قلت : إني مؤتمن ولست بساقيكما .

كان هذا أول الإسلام قبل إسلام عبد الله بن مسعود ، وقد يكون المراد بالفرار في الرواية ؛ ما كان يفعله رسول الله ﷺ وأصحابه من استخفاء إذا ما أرادوا الصلاة ولكن الظاهر أن الأمر غير ذلك ، وهذا يفيد أن الاضطهاد بدأ مبكراً ، والرواية تدلنا على أمانة ابن مسعود مما يشير إلى أن هذه النوعية من الناس هي التي قللت الاستعداد الرفيع للدخول في الإسلام كما حدث لابن مسعود ، وسؤالها اللبن كان بناء على أن من حق ابن مسعود أن يسقيهما كأن يكون هو صاحب الغنم أو أنه مأذون بالضيافة .

٦٨ - * روى البخاري عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : لقد رأيتني وأنا ثلثُ الإسلام . وفي رواية : ما أسلم أحدٌ إلا في اليوم الذي أسلمت فيه ، ولقد مكثتُ سبعة أيّامٍ ، وإنّي لثلثُ الإسلام .

قال في الفتح شارحاً قوله : (وإنّي لثلثُ الإسلام) قال ذلك بحسب اطلاعه ، والسبب فيه أن من كان أسلم في ابتداء الأمر كان يخفي إسلامه ، ولعله أراد بالاثنتين الآخرين خديجة وأبا بكر ، أو النبي ﷺ وأبا بكر ، وقد كانت خديجة أسلمت قطعاً فلعله خص الرجال ، وقد تقدم في ترجمة الصديق حديث عمار (رأيت النبي ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد وأبو بكر) وهو يعارض حديث سعد ، والجمع بينهما ما أشرت إليه ، أو يحمل قول سعد على الأحرار البالغين ليخرج الأعبد المذكورين وعلي رضي الله عنه ، أو لم يكن اطلع على أولئك ، ويدل على هذا الأخير أنه وقع عند الإسماعيلي من رواية يحيى بن سعيد الأموي عن هاشم بلفظ (ما أسلم أحد قبلي) ومثله عند ابن سعد من وجه آخر عن عامر ابن سعد عن أبيه ، وهذا مقتضى رواية الأصيلي ، وهي مشكلة لأنه قد أسلم قبله جماعة ، لكن يحمل ذلك على مقتضى ما كان اتصل بعلمه حينئذ . وقد رأيت في (المعرفة لابن منده) من طريق أبي بدر عن هاشم بلفظ (ما أسلم أحد في اليوم الذي أسلمت فيه) وهذا

٦٨ - البخاري (٧ / ٨٣) ٦٢ - كتاب فضائل الصحابة - ١٥ - باب مناقب سعد بن أبي وقاص الزهري .
ثلث الإسلام : أي ثالث رجل أسلم .

لا إشكال فيه إذ لا مانع أن يشاركه أحد في الإسلام يوم أسلم ، لكن أخرجه الخطيب من الوجه الذي أخرجه ابن منده فأثبت فيه (إلا) كبقية الروايات فتعين الحمل على ما قلته .

٦٩ - * روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : إنه نزلت فيه آيات من القرآن ، قال : حلفت أم سعد أن لا تكلمة أبداً حتى يكفر بدنيه ، ولا تأكل ولا تشرب ، قالت : زعمت أن الله وصاك بالديك وأنا أمك ، وأنا أمرك بهذا ، قال : مكثت ثلاثاً حتى غشي عليها من الجهد فقام ابن لها يقال له : عبارة ، فسقاها ، فجعلت تدعو على سعد ، فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ ^(١) ﴿ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُقْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَمَا جِئْتُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ ^(٢) . قال : وأصاب رسول الله ﷺ غنية عظيمة ، فإذا فيها سيف ، فأخذته فأتيت به رسول الله ﷺ ، فقلت : نفلني هذا السيف ، قاتنا من قد علمت حاله ، فقال : « رُدَّهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ » فَأَنْطَلَقْتُ حَتَّى إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أَلْقِيَهُ فِي الْقُبْضِ ، لَامَتْنِي نَفْسِي ، فَرَجِعْتُ إِلَيْهِ ، فقلت : أعطني ، قال : فشد لي صوته : « رُدَّهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ » ، قال : فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ ^(٣) . ومريضة ، فأرسلت إلى النبي ﷺ ،

٦٩ - مسلم (٤ / ١٨٧٧) ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة - ٥ - باب في فضل سعد بن أبي وقاص .

نفلي : نفلته كذا ، أي : أعطيته نافلة وزيادة على سهمه من الغنية .

القبض : بسكون الباء : مصدر قبض الشيء قبضاً : أخذه إليك فصار في قبضتك ، أي : في يدك وتحت تصرفك ، وفتح الباء : الشيء المقبوض وأراد به : ما يجمع من الغنائم ويحز ، وهو المراد في الحديث . الجزور : البعير ، ذكر أو أنثى ، وأصله : البعير ينحر ويقطع لحمه ، إلا أن اللفظة مؤنثة . الميسر : القمار . الانصاب : الأصنام أو الحجارة التي كانوا يذبحون عليها لألهتهم . والأزلام : القداح ، وإحداها : زلم ، وزلم - بفتح الزاي وضما - وهي سهام بلا نصول ولا ريش ، كانوا يضربون بها في القمار ليعرفوا نصيب كل واحد منهم ، وكانوا يضربون بها أيضاً عند الشروع في الأمر يعرض لهم ، من سفر أو زواج أو بيع أو نحو ذلك ، يعرفون بها - في زعمهم - ما هو الأصلح لهم ، فإن خرج لهم « افعل » فعلوا ، وإن خرج « لا تفعل » لم يفعلوا . رجس : الرجس : النجس . شجروا فها : أي : فتحوه كرهاً . أو جرت : الدواء في فيه : إذا ألقيته فيه ، فشبه إلقاء الطعام في فيها كرهاً بإلقاء الدواء عن غير اختيار . مفزوراً : أي : مشتوقاً .

(١) سورة النكبات : ٨ .

(٢) سورة لقمان : ١٥ .

(٣) سورة الأنفال : ١ .

فَأَتَانِي ، فَقُلْتُ : دَعْنِي أَقْسَمَ مَالِي حَيْثُ شِئْتُ ، قَالَ : فَأَبَى ، قُلْتُ : فَالْتَصِفْ ، قَالَ : فَأَبَى قُلْتُ : فَالْتَلُكْ ، قَالَ : فَسَكَتَ ، فَكَانَ بَعْدَ الثَّلَاثِ جَائِزاً ، قَالَ : وَأَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ ، فَقَالُوا : تَعَالِ نَطْعِمُكَ ، وَنُسْقِيكَ خَمِراً - وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تُحَرَّمَ الْخَمْرُ - قَالَ : فَأَتَيْتُهُمْ فِي حِشٍّ - وَالْحِشُّ : الْبُسْتَانُ - فَإِذَا رَأْسُ جَزُورٍ مَشْوِيٍّ عِنْدَهُمْ ، وَزِقَ مِنْ خَمْرِ فَأَكَلْتُ وَشَرِبْتُ مَعَهُمْ ، قَالَ : فَذَكَرْتُ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرِينَ عِنْدَهُمْ ، فَقُلْتُ : الْمُهَاجِرُونَ خَيْرٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ، قَالَ : فَأَخَذَ رَجُلٌ أَحَدَ لَحْيِي الرَّأْسِ ، فَضَرَبَنِي بِهِ ، فَجَرَحَ أَنْفِي ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيَّ - يَعْنِي نَفْسَهُ - شَأْنَ الْخَمْرِ ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ ^(١) .

وفي رواية في قصة أم سعد : فَكَانُوا إِذَا أَرَادُوا أَنْ يُطْعِمُوهَا شَجَرُوا فَاهَا بِقَصَا ، ثُمَّ أَوْجَرُوهَا . وفي آخرها : فَضَرَبَ بِهِ أَنْفَ سَعْدٍ فَفَزَرَهُ ، فَكَانَ أَنْفُ سَعْدٍ مَفْزُوراً .

واختصره الترمذي ^(٢) قال : أُنْزِلَتْ فِيَّ أَرْبَعُ آيَاتٍ ، فَذَكَرْتُ قِصَّةَ فَقَالَتْ أُمُّ سَعْدٍ : أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِالْبِرِّ ؟ وَاللَّهُ لَا أَطْعَمُ طَعَاماً ، وَلَا أَشْرَبُ شَرَاباً حَتَّى أَمُوتَ ، أَوْ تَكْفُرَ ، قَالَ : فَكَانُوا إِذَا أَرَادُوا أَنْ يُطْعِمُوهَا شَجَرُوا فَاهَا ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ... ﴾ ^(٣) الْآيَةُ .

٧٠ - * رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا مَعَهُ إِلَّا خَمْسَةٌ أُعْبِدَ وَامْرَأَتَانِ وَأَبُو بَكْرٍ .

نَجِدُ هَهُنَا نَوْعِيَةَ الْمُسْتَجِيبِينَ الْأَوَائِلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَصْحَابَ الْأَصَالَةِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَالْمُضْطَهَدِينَ وَالنِّسَاءَ ، وَفِي ذَلِكَ تَذَكِيرٌ لِلدَّعَاةِ أَلَّا يَهْمِلُوا الْمُضْطَهَدِينَ وَالْفُقَرَاءَ مِنْ عَمَّالِ

(١) الْمَائِدَةُ : ٩٠ .

(٢) الترمذي (٥ / ٢٤١) ٤٨ - كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ - ٣٠ - بَابُ مِنْ سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ . وَقَالَ أَبُو عِيسَى : هَذَا حَدِيثٌ

حَسَنٌ صَحِيحٌ .

(٣) الْعَنْكَبُوتُ : ٨٠ .

٧٠ - الْبُخَارِيُّ (٧ / ١٨) ٦٢ - كِتَابُ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ - ٢٥ - بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : « لَوْ كُنْتُ مُتَخَذًا خَلِيلًا » .

وفلاحين ، وألا يهملوا النساء ، وأن يركزوا على المثقفين .

٧١ - * روى أحمد عن سالم بن أبي الجعد قال : دَعَا عُثْمَانُ نَاساً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فِيهِمْ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ فَقَالَ : إِنِّي سَأَلْتُكُمْ وَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ تَصْدُقُونِي ، نَشَدْتُكُمْ اللَّهَ أَنْتَ لَعَمْرُكَ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُؤَثِّرُ قَرِيشاً عَلَى سَائِرِ النَّاسِ وَيُؤَثِّرُ بَنِي هَاشِمٍ عَلَى سَائِرِ قُرَيْشٍ؟ فَسَكَتَ الْقَوْمُ فَقَالَ عُثْمَانُ : لَوْ أَنَّ يَدَيَّ مِفْتَاحِي الْجَنَّةِ لَأَعْطَيْتُهَا بَنِي أُمَيَّةٍ حَتَّى يَدْخُلُوا مِنْ عِنْدِ آخِرِهِمْ ، فَبَعَثَ إِلَى طُلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ فَقَالَ عُثْمَانُ : أَلَا أُحَدِّثُكُمْ عَنْهُ - يَعْنِي عَمَّاراً - أَقْبَلْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخِذاً بِيَدِي تَمْشِي بِالْبَطْحَاءِ حَتَّى أَتَى عَلَى أَبِيهِ وَأُمِّهِ وَعَلَيْهِ يُعَذِّبُونَ ، فَقَالَ أَبُو عَمَّارٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ الدَّهْرُ هَكَذَا ؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : « أَصْبِرْ » ، ثُمَّ قَالَ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَأَلِ يَاسِرٍ وَقَدْ فَعَلْتَ » .

٧٢ - * روى الحاكم عن جابر أن رسول الله ﷺ مَرَّ بِعَمَّارٍ وَأَهْلِهِ وَهُمْ يَعْذِبُونَ فَقَالَ : « أَبْشِرُوا آلَ عَمَّارٍ وَآلَ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةَ » .

٧٣ - * روى الحاكم عن كردوس : أَنَّ خُبَّاباً أَسْلَمَ سَادِسَ سِتَةٍ ، كَانَ سُدُسَ الْإِسْلَامِ .

٧٤ - * روى ابن ماجه عن أبي ليلى الكندي قال : جاء خُبَّابٌ إِلَى عَمْرِو بْنِ قُصَيْبٍ فَقَالَ : ادْنُ فَمَا أَحَدٌ أَحَقُّ بِهَذَا الْمَجْلِسِ مِنْكَ إِلَّا عَمَّارٌ ، فَجَعَلَ خُبَّابٌ يَرِيهِ أَثَاراً بِظَهْرِهِ مِمَّا عَذَّبَهُ الْمُشْرِكُونَ .

٧١ - أحمد في مسنده (٦٢ / ١) .

وأورده الهيثمي في الزوائد (٢٩٣ / ١) ، وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

نشدتكم بالله : نشدتكم بالله أي سألتكم بالله . البطحاء : مسيل واسع فيه دقاق الحصى . يقصد عثمان - رضي الله عنه - أنه كما أكرم رسول الله ﷺ قريشاً وبني هاشم وأثرهم لأنهم قرابته فهو يفعل ذلك ببني أمية لأنهم قرابته حتى لو استطاع أن يدخلهم الجنة لفعل ، ومن السياق نعلم أن عماراً - رضي الله عنه - كان لا يرتاح لإيثار بني أمية ، لأن الإيثار لم يقتصر على ما هو شخصي وخاص ، ورضي الله عن الجميع . والنص يدل على ما تقدم إسلام عثمان - رضي الله عنه - .

٧٢ - المستدرک (٢٨٩ / ٢) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

٧٣ - المستدرک (٢٨٢ / ٢) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩٨ / ١) رواه الطبراني مرسلًا ورجاله إلى كردوس رجال الصحيح وكردوس ثقة .

٧٤ - ابن ماجه (٥٤ / ١) المقدمة - ١١ - باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ في الزوائد : إسناده صحيح .

٧٥ - * روى البخاري عن خباب بن الأرت قال : شكّونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسّد بردة له في ظلّ الكعبة قلنا له : ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو الله لنا ؟ فقال : « كان الرجلُ فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشَقُّ باثنتين ، وما يصده ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظمٍ أو عصب وما يصده ذلك عن دينه . والله ليتمنّي الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه . ولكنكم تستعجلون » .

٧٦ - * روى مسلم عن أبي أمامة قال : قال عمرو بن عبّسة السلمي : كنتُ ، وأنا في الجاهلية ، أظنُّ أن الناس على ضلالةٍ . وأنهم ليسوا على شيء . وهم يعبدون الأوثان . فسمعتُ برجلٍ بمكة يخبر أخباراً . فقعدتُ على راحلتي . فقدمتُ عليه . فإذا رسولُ الله ﷺ مُستخفياً ، جرّاء عليه قومه . فتلطّفتُ حتى دخلتُ عليه بمكة . فقلتُ له : ما أنت ؟ قال : « أنا نبيٌّ » فقلت : وما نبيٌّ ؟ قال : « أرسلني الله » فقلت : وبأي شيءٍ أرسلك ؟ قال : « أرسلني بصلّة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحد الله لا يشرك به شيء » قلتُ له : فمن معك على هذا ؟ قال : « حرّ وعبد » (قال ومعه يومئذ أبو بكرٍ وبلالٌ ممن آمنَ به) فقلت : إني متّبِعُكَ . قال : « إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا . ألا ترى حالي وحال الناس ؟ ولكن ارجع إلى أهليك . فإذا سمعتُ بي قد ظهرتُ فأتني » قال : فذهبتُ إلى أهلي . وقدم رسولُ الله ﷺ المدينة . وكنتُ في أهلي فجعلتُ أتخبر الأخبار ...

أقول : قوله عليه الصلاة والسلام : « ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعتُ بي قد ظهرت

٧٥ - البخاري (٦ / ١١٩) ٦١ - كتاب المناقب - ٢٥ - باب علامات النبوة في الإسلام .

وأبو داود (٣ / ٤٧) كتاب الجهاد ، باب : الأسير يكره على الكفر .

٧٦ - مسلم (١ / ٥٦٩) ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها - ٥٢ - باب إسلام عمرو بن عبسة .

الأرحام : مفردُها رحم وهو بيت منبت الولد ووعاؤه ، والتقاربة أصلها وأساها ، والمقصود من قول الرسول ﷺ أنه يأمر الناس بأن يبتعدوا عن التشاحن والبغضاء والافتتال والعدو والكيد بين بعضهم وخاصة الأقارب منهم وأن ينشروا بينهم الحب والإخاء والمعاملة الحسنة والوفاء . ظهرت : ظهر الشيء ظهوراً : تبين وبرز بعد الخفاء ، وظهر على عدوه : غلبه .

فأتني ، « ، نأخذ منه درساً في الدعوة : أن تكديس المريدين والأعضاء حيث الحنة والإيذاء ليس هو الأصل ، فهذا رسول الله ﷺ يوجه نحو الرجوع إلى الأقوام ، وأمر كما سئى بالهجرتين إلى الحبشة ، فذلك تخفيف عن المسلمين وإبعاد عن مواطن الخطر وستر لقوة المسلمين ، وإعطاء فرصة للقائد حتى لا يشغل ، وضمان للسرية ، وإفادة للمكان المرسل إليه ، وإعداد للمستقبل ، وملاحظة لضمان الاستمرار وتجنب الاستئصال .

٧٧ - * روى الحاكم عن خالد بن عمير العدوي قال : خَطَبَنَا عُثْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ فَحَمَدَ اللَّهَ وَائْتَنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : أَمَا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنْتُ بِضُرْمٍ وَوَلْتُ حَذَاءً ، وَإِنَّا بَقِيَ مِنْهَا صَبَابَةٌ كَصَبَابَةِ الْإِنَاءِ يَصْطَبُهَا صَاحِبُهَا ، وَإِنكُمْ مَسْتَقِلُونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لَا زَوَالَ لَهَا ، فَاثْقَلُوا مِنْهَا بِخَيْرٍ مَا يَحْضُرُكُمْ ، فَإِنَّهُ قَدْ ذَكَرَ لَنَا أَنَّ الْحَجَرَ يُلْقَى مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ فَيَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ عَامًا وَمَا يَدْرِكُ لَهَا قَعْرًا فَوَاللَّهِ لَتَلَانَّةٌ . أَفَعَجَبْتُمْ وَقَدْ ذَكَرَ لَنَا أَنَّ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ بَيْنَهُمَا أَرْبَعُونَ سَنَةً وَلِيَأْتِيَنَّ عَلَيْهِ يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٍ مِنَ الزَّحَامِ . وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنِّي لَسَابِعُ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ حَتَّى قَرَحَتْ أَشْدَاقُنَا ، وَإِنِّي لَتَقَطُّتُ بُرْدَةً فَشَقَقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ فَارِسِ الْإِسْلَامِ فَأَتَزَرْتُ بِنِصْفِهَا وَأَتَزَرَ سَعْدٌ بِنِصْفِهَا ، وَمَا أَصْبَحَ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ حَيٍّ إِلَّا أَصْبَحَ أَمِيرَ مِصْرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ ، وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيماً وَعِنْدَ اللَّهِ صَغِيراً ، وَإِنهَا لَمْ تَكُنْ نَبْوَةٌ قَطُّ إِلَّا تَنَاقَصَتْ حَتَّى يَكُونَ عَاقِبَتُهَا مُلْكًا ، وَسَتَجَرُّونَ أَوْ سَتَبْلُونَ الْأَمْرَاءَ بَعْدِي .

قوله : (وما أصبح منّا اليوم أحد حيٍّ إلا أصبح أمير مصر من الأمصار) فيه إشارة إلى ملاحظة السبق والقدم في التأمير دون أن يكون ذلك قاعدة مطلقة ، ومن الملاحظ أن الخلفاء الراشدين الأربعة كلهم ممن تقدمت له سابقة إسلام وتقدم إسلام .

قوله : (لم تكن نبوة قط إلا تناقصت حتى يكون عاقبتها ملكاً) هذا هو الواقع التاريخي قديماً وهو ما حدث بعد محمد ﷺ ، وعلى الأمة الإسلامية الآن أن تحكم أمرها

٧٧ - المستدرک (٣ / ٢٦١) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

آذنت بصرم وولت حذاء : المراد انقطاع الدنيا ، والحذاء : المقطوعة . صبابه : البقية من الماء واللبن في الإناء . شفير جهنم : أي جانبها وطرفها . كظيظ : ممتلئ من الزحام . قرحت أشداقنا : أي تجرحت .

للوصول إلى الخلافة الراشدة ووضع القواعد لضمان استمرارها .

٧٨ - * روى مسلم عن عبد الله بن الصامت قال: قال أبو ذر: خرجنا من قَوْمِنَا غِفَارٍ وَكَانُوا يَحِلُّونَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ ، فَخَرَجْتُ أَنَا وَأَخِي أَنَيْسٌ وَأُمُّنَا ، فَزَلْنَا عَلَى خَالٍ لَنَا ، فَأَكْرَمَنَا خَالُنَا وَأَحْسَنَ إِلَيْنَا ، فَحَسَدَنَا قَوْمُهُ ، فَقَالُوا: إِنَّكَ إِذَا خَرَجْتَ عَنْ أَهْلِكَ خَالَفَ إِلَيْهِمْ أَنَيْسٌ ، فَجَاءَ خَالُنَا فَتَنَّا عَلَيْنَا الَّذِي قِيلَ لَهُ ، فَقُلْتُ: أَمَا مَا مَضَى مِنْ مَعْرُوفِكَ ، فَقَدْ كَذَرْتَهُ ، وَلَا جِمَاعَ لَكَ فِيمَا بَعْدَ ، فَقَرَّبْنَا صِرْمَتَنَا ، فَاحْتَمَلْنَا عَلَيْهَا ، وَتَغَطَّى خَالُنَا ثَوْبَهُ ، فَجَعَلَ يَبْكِي ، فَأَنْطَلَقْنَا حَتَّى نَزَلْنَا بِحَضْرَةِ مَكَّةَ ، فَنَافَرَ أَنَيْسٌ عَنْ صِرْمَتِنَا وَعَنْ مِثْلِهَا . فَأَتَيْنَا الْكَاهِنَ ، فَخَبَّرَ أَنَيْسًا ، فَأَتَانَا أَنَيْسٌ بِصِرْمَتِنَا وَمِثْلِهَا مَعَهَا قَالَ: وَقَدْ صَلَّيْتُ يَا ابْنَ أَخِي قَبْلَ أَنْ أَلْقَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِلَاثِ سَنِينَ ، قُلْتُ: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ . قُلْتُ: فَأَيْنَ تَوَجَّهَ؟ قَالَ: أَتَوَجَّهَ حَيْثُ يُوجِّهُنِي رَبِّي . أَصْلِي عِشَاءً ، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ أَلْقَيْتُ كَأَنِّي خِفَاءً ، حَتَّى تَغْلُوَنِي الشَّمْسُ ، فَقَالَ أَنَيْسٌ: إِنْ لِي حَاجَةٌ بِمَكَّةَ ، فَاكْفِنِي ، فَاَنْطَلَقَ أَنَيْسٌ حَتَّى أَتَى مَكَّةَ ، فَرَأَتْ عَلِيٌّ ، ثُمَّ جَاءَ ، فَقُلْتُ: مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: لَقَيْتُ رَجُلًا بِمَكَّةَ عَلَى دِينِكَ يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ ، قُلْتُ: فَمَا يَقُولُ النَّاسُ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: شَاعِرٌ ، كَاهِنٌ ، سَاحِرٌ ، وَكَانَ أَنَيْسٌ أَخَذَ الشُّعْرَاءَ ، قَالَ أَنَيْسٌ:

٧٨ - مسلم (٤ / ١٩١٩) ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة - ٢٨ - باب من فضائل أبي ذر .

نشا : الحديث ينتوه تنوًا : إذا أظهره وأشاعه وأفشاه . لا جِمَاعَ : أي : لا جامعة لنا معك ولا مقام . صِرْمَتُنَا : الصرمة : القطعة من الإبل نحو الثلاثين . فنافر : المنافرة : الهاتكة تكون في تفضيل أحد الشيئين على الآخر ، يقال : نافرته ، فنفرته ، أي : حاكته ، فغلبيت ، ونفره الحاكم في المنافرة ، أي : غلبه وحكم له . خِفَاءً : الحفاء بالحاء المعجمة وكسرهما : كساء يطرح على السقاء . فراث : رات فلان علينا : أبطأ . أقراء الشعر : طرائقه وأنواعه ، واحدها : قرء - بفتح القاف . فتضعفت : أي : نظرت إلى أضعفهم فسألته لأن الضعيف مأمون العائلة ومع ذلك فإنه لم يسلم من قبله . الصابئ : منصوب على الإغراء أي : انظروا وحذروا هذا الصابئ . والصابئ من غير دينه . مدرة : المدرة : الطينة المستحجرة . نصب : النصب : الحجر أو الصم الذي كانوا ينصبونه في الجاهلية ويدبحون عليه ، فيحمر من كثرة دم القرابين والذبائح ، أراد : أنهم ضربوه حتى أدموه ، فصار كأنه نصب أحر . تكسرت عكن بطني : جمع عكنة وهو الطي من البطن من السمن ، ومعنى تكسرت أي انشنت وانطوت طاقات لحم بطنه . سخفة جوع : سخفة الجوع : رقتة وهزاله . ليلة إضحيان : وإضحيانة ، أي : مضية لا غم فيها ، فقمراها ظاهر يضيئها . ضرب على أمخثهم : الأسخنة : جمع ساخ ، وهو ثقب الأذن ، والضرب هاتنا : المنع من الاستماع ، وذلك كناية عن النوم للفرط . إسافاً ونائلة : إساف ونائلة : صنان تزعم العرب أنها كانا رجلاً وامرأة زنيا في الكعبة فمسحاً . هن مثل الخشبة : ألهن من الرجل ذكره . تولولان : الولولة : الاستغاثة والصياح . أو الدعاء بالويل . أنفارنا : الأنفار : الجماعة ، أي : من أصحابنا وجماعتنا ، وهو من النفر الذي هو من الثلاثة إلى العشرة . تملأ الغم : قولها : تملأ الغم ، أي أنها عظيمة لا شيء أقبح منها . قد غطته : أي : منمتة . طلعاً طلع : يقال : هذا طلعاً =

لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ ، فَمَا هُوَ يَقُولِهِمْ ، وَلَقَدْ وَضَعْتُ قَوْلَهُ عَلَى أَقْرَاءِ الشَّعْرَاءِ ، فَمَا يَلْتَمُّ عَلَى لِسَانِ أَحَدٍ بَعْدِي أَنَّهُ شِعْرٌ ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَصَادِقٌ ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ، قَالَ : قُلْتُ : فَأَكْفِنِي حَتَّى أَذْهَبَ فَأَنْظُرَ ، قَالَ : فَأَتَيْتُ مَكَّةَ فَتَضَعَفْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ ، فَقُلْتُ : أَيْنَ هَذَا الَّذِي تَدْعُوهُ الصَّابِي ؟ فَأَشَارَ إِلَيَّ ، فَقَالَ : الصَّابِي ؟ قَالَ عَلِيُّ أَهْلُ الْوَادِي بِكُلِّ مَدْرَةٍ وَعَظَمٍ ، حَتَّى خَرَرْتُ مَغْشِيًّا عَلَيَّ ، قَالَ : فَارْتَفَعْتُ حِينَ ارْتَفَعْتُ . كَأَنِّي نَضَبْتُ أَحْمَرَ ، قَالَ : فَأَتَيْتُ زَمْزَمَ ، فَغَسَلْتُ عَنِّي الدَّمَاءَ ، وَشَرِبْتُ مِنْ مَائِهَا ، وَلَقَدْ لَبِثْتُ يَا ابْنَ أَخِي ثَلَاثِينَ ، بَيْنَ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ ، وَمَا كَانَ لِي طَعَامٌ إِلَّا مَاءُ زَمْزَمَ ، فَسَمِنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَتْ عَكْنُ بَطْنِي ، وَمَا وَجَدْتُ عَلَى كَبْدِي سَخْفَةً جَوْعٍ ، قَالَ : فَبَيْنَا أَهْلُ مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ قَرَاءَ إِضْحِيَانٍ ، إِذْ ضَرَبَ عَلَى أَسْمِخَتِهِمْ فَمَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ أَحَدٌ ، وَامْرَأَتَانِ مِنْهُمْ تَدْعَوَانِ إِسَافًا وَنَائِلَةً ، قَالَ : فَأَتَيْتَا عَلِيًّا فِي طَوَافِهَا ، فَقُلْتُ : هُنَّ مِثْلُ الْحَشْبَةِ - غَيْرَ أَنِّي لَا أَكْنِي - فَأَنْطَلَقَتَا تَوَلَّوْلَانِ ، وَتَقُولَانِ : لَوْ كَانَ هَاهُنَا أَحَدٌ مِنْ أَنْفَارِنَا ؟ قَالَ : فَاسْتَقْبَلَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ ، وَهَما هَاطِبَانِ ، قَالَ : مَا لَكُمَا ؟ قَالَتَا : الصَّابِي بَيْنَ الْكَعْبَةِ وَأَسْأَرِهَا ، قَالَ : مَا قَالَ لَكُمَا ؟ قَالَتَا : إِنَّهُ قَالَ لَنَا كَلِمَةً تَمْلَأُ الْفَمَ ، وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى اسْتَلَمَ الْحَجَرَ ، وَطَافَ بِالْبَيْتِ هُوَ وَصَاحِبُهُ ، ثُمَّ صَلَّى فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ ، قَالَ أَبُو ذَرٍّ : فَكُنْتُ أَنَا أَوَّلُ مَنْ حَيَّاهُ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ ، قَالَ فَقُلْتُ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ . فَقَالَ : « وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ » ، ثُمَّ قَالَ : « مَنْ أَنْتَ ؟ » قُلْتُ : مِنْ غِفَارٍ ، قَالَ : فَأَهْوَى يَدَيْهِ ، فَوَضَعَ أَصَابِعَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : كَرِهَ أَنْ انْتَمَيْتُ إِلَى غِفَارٍ ، فَذَهَبَتْ أَخَذُ يَدَيْهِ ، فَقَدَعَنِي صَاحِبُهُ ، وَكَانَ أَعْلَمَ بِهِ مِنِّي ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ، فَقَالَ : « مَتَى كُنْتَ هَاهُنَا ؟ » قَالَ : قُلْتُ : قَدْ كُنْتُ هَاهُنَا مِنْذُ ثَلَاثِينَ ، بَيْنَ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ ، قَالَ : « فَمَنْ كَانَ يُطْعِمُكَ ؟ » قَالَ : قُلْتُ : مَا كَانَ لِي طَعَامٌ إِلَّا مَاءُ زَمْزَمَ ، فَسَمِنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَتْ عَكْنُ بَطْنِي ، وَمَا أَجَدْتُ عَلَى كَبْدِي سَخْفَةً جَوْعٍ ، قَالَ : « إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ ، إِنَّهَا طَعَامٌ

= طعم ، أي : طعام شبع ، يعني أنه يشبع ويكف الجوع ويكفي منه . غَهَرْتُ : الغابِر هَاهُنَا : الباقي ، وهو من الأضداد . أي بقيت ما بقيت . يَثْرِبُ : للمدينة المنورة طابة وطيبة . وقد جاء في حديث في النهي عن تسميتها يَثْرِبُ . شَنِفُوا لَهُ : أي : أبغضوه ونفروا منه ، وَالشَّنْفُ : البغضُ ، تقول : شَنَفْتُهُ . وَشَنَفْتُ لَهُ : تَجَهَّمُوا . تَجَهَّمْتُ لِفُلَانٍ ، أي : تَنَكَّرْتُ لَهُ وَاسْتَقْبَلْتُهُ عَايَكِرَهُ ، وَفُلَانٌ جَهْمٌ الْحَيَا ، أي : كَرِهَهُ النَّظَرُ .

طعم» ، فقال أبو بكر : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ائْذَنْ لِي فِي طَعَامِي اللَّيْلَةَ ، فَاَنْطَلِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ ، وَاَنْطَلَقْتُ مَعَهَا ، فَفَتَحَ أَبُو بَكْرٍ بَاباً ، فَجَعَلَ يَقْبِضُ لَنَا مِنْ زَيْبِ الطَّائِفِ ، وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ طَعَامٍ أَكَلْتُهُ بِهَا ، ثُمَّ غَبَرْتُ مَا غَبَرْتُ ، ثُمَّ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : « إِنَّهُ قَدْ وَجَّهْتُ لِي أَرْضَ ذَاتُ نَخْلٍ ، لَا أَرَاهَا إِلَّا يَثْرِبُ ، فَهَلْ أَنْتَ مُبْلَغٌ عَنِّي قَوْمَكَ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَنْفَعَهُمْ بِكَ ، وَيَأْجُزَكَ فِيهِمْ ؟ » فَأَتَيْتُ أُنْسِئاً ، فَقَالَ : مَا صَنَعْتَ ؟ قُلْتُ : صَنَعْتُ أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ ، قَالَ : مَا بِي رَغْبَةً عَنْ دِينِكَ فَإِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ ، فَاحْتَمَلْنَا حَتَّى أَتَيْنَا قَوْمَنَا غِفَاراً ، فَأَسْلَمَ نِصْفُهُمْ ، وَكَانَ يُؤْمَهُمْ إِيمَاءُ بْنُ رَحْصَةَ الْغِفَارِيُّ ، وَكَانَ سَيِّدَهُمْ ، وَقَالَ نِصْفُهُمْ : إِذَا قَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَسْلَمْنَا ، فَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ ، فَأَسْلَمَ نِصْفُهُمُ الْبَاقِي ، وَجَاءَتْ أُسْلَمُ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِخْوَانُنَا نَسَلُ عَلَى الَّذِي أَسْلَمُوا عَلَيْهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « غِفَارُ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا ، وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللَّهُ » .

زاد بعض الرواة - بعد قول أبي ذر لأخيه : (فَاكْفِنِي حَتَّى أَذْهَبَ فَأَنْظُرَ) - (قَالَ : نَعَمْ ، وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ شَنَفُوا لَهُ وَتَجَهُمُوا) .

وفي رواية قال : (فَتَنَافَرُوا إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْكُهَّانِ ، قَالَ : فَلَمْ يَزَلْ أَخِي أُنْسِئَ يَمْدَحُهُ حَتَّى غَلَبَهُ ، فَأَخَذْنَا صِرْمَتَهُ فَضَمَمْنَاهَا إِلَى صِرْمَتِنَا) .

وفي رواية البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس قال : أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِإِسْلَامِ أَبِي ذَرٍّ ؟ قُلْنَا : بَلَى ، قَالَ : قَالَ أَبُو ذَرٍّ : كُنْتُ رَجُلًا مِنْ غِفَارٍ ، فَبَلَّغْنَا أَنَّ رَجُلًا خَرَجَ بِمَكَّةَ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، فَقُلْتُ لِأَخِي : اَنْطَلِقْ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فَكَلِّمَهُ ، وَأَتْنِي بِخَبْرِهِ .

٧٩ - * روى البخاري عن ابن عباس قال : لما بلغ أبا ذرٍّ مبعثُ النَّبِيِّ ﷺ قال لأخيه : اركب إلى هذا الوادي ؛ فاعلم لي عِلْمَ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ يَأْتِيهِ الْخَبَرُ مِنَ السَّمَاءِ ، وَاسْمِعْ مِنْ قَوْلِهِ ، ثُمَّ أَتْنِي ، فَاَنْطَلِقِ الْآخَ حَتَّى قَدِمَهُ ، وَاسْمِعْ مِنْ قَوْلِهِ ، ثُمَّ رَجِعْ إِلَى أَبِي ذَرٍّ ،

٧٩ - البخاري (١٧٣ / ٧) ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار - ٢٣ - باب إسلام أبي ذر الغفاري .

ومسلم (١٩٢٣ / ٤) ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة - ٢٨ - باب : من فضائل أبي ذر .

الْفَنَّةُ : الزرق البالي الذي يحمل فيه الماء .

فقال : رأيته يأمر بكم بالأخلاق ، وكلاماً ما هو بالشعر ، فقال : ما شفيتني مما أردت ، فتزود وحمل شنة له فيها ماء ، حتى قديم مكة ، فأقى المسجد ، فالتس النبي ﷺ - ولا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه - حتى أدركه بعض الليل فرآه علي ، فعرف أنه غريب ، فلما رآه تبعه ، فلم يسأل واحداً منها صاحبه عن شيء حتى أصبح ، ثم احتمل قريته وزاده إلى المسجد ، وظل ذلك اليوم ، ولا يراه النبي ﷺ حتى أمسى ، فعاد إلى مضجعه ، فمر به علي ، فقال : أما نال للرجل أن يعلم منزله ؟ فأقامه فذهب به معه ، لا يسأل واحد منها صاحبه عن شيء ، حتى إذا كان يوم الثالث فعاد علي مثل ذلك ، فأقامه معه ، ثم قال : ألا تحدثني ما الذي أقدمك ؟ قال : إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلت ، ففعل ، فأخبره ، قال : فإنه حق ، وهو رسول الله ﷺ فإذا أصبحت فاتبعني ، فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أريق الماء ، فإذا مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي ، ففعل ، فانطلق يفتوه حتى دخل على النبي ﷺ ، ودخل معه ، فسمع من قوله ، وأسلم مكانه ، فقال له النبي ﷺ : « أرجع إلى قومك فأخبرهم ، حتى يأتيك أمري » ، قال : والذي نفسي بيده ، لأصرخن بها بين ظهرانيهم ، فخرج حتى أقى المسجد ، فنادى بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . ثم قام القوم فضربوه حتى أوجعوه ، وأقى العباس ، فأكب عليه ، وقال : ويلكم ، أستم تعلمون أنه من غفار ، وأن طريق تجارك إلى الشام ؟ فأنتذه منهم ، ثم عاد من الغد فضربوه ، وثاروا إليه ، فأكب العباس عليه .

وفي الرواية الأخرى : أن النبي ﷺ قال له لما أسلم : « يا أبا ذر ، اكتب هذا الأمر ، وارجع إلى بلدك ، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل » ، قال : فقلت : والذي بعثك بالحق ، لأصرخن بها بين أظهرهم .. وذكر نحوه .

قال : فكان هذا أول إسلام أبي ذر رضي الله عنه .

٨٠ - * روى الحاكم عن عبد الله بن بريرة عن أبيه قال : انطلق أبو ذر ونعيم ابن عم أبي

٨٠ - المستدرک (٢ / ١١٢) وقال : صحيح الإسناد . ووافقه الذهبي .

مكتوم : أي متخفئ وهو اسم فاعل من الكتم : وكنم الشيء كتماناً ستره وأخفاه . وفي هذا تصريح بأن إسلام أبي ذر كان في المرحلة السرية .

ذر وأنا معهم نطلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو بالجبل مكتتم ، فقال أبو ذر : يا محمد أتيناك نسمع ما تقول وإلى ما تدعو ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أقول لا إله إلا الله وإني رسول الله » فآمن به أبو ذر وصاحبه وأمنت به ، وكان علي في حاجة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرسله فيها ، وأوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليه وآله وسلم يوم الاثنين وصلى علي يوم الثلاثاء .

والجمع بين هذه الرواية والتي قبلها أنها حادثة لاحقة للحادثة الأولى ، فبعد أن أسلم أبو ذر أتى يهذين معه متظاهراً أنه لم يسبق له إسلام من أجل أن يسمع رفيقه فيسما .

٨١ - * روى الحاكم عن عبد الله بن مسعود قال : لقد رأيتني سادس ستة ما على الأرض مسلم غيرنا .

٨٢ - * روى الحاكم عن عروة قال : كانت نفحة من الشيطان أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم قد أخذ ، فسمع بذلك الزبير وهو ابن إحدى عشرة سنة فخرج بالسيف مسلوا حتى وقف على النبي ﷺ فقال : « ما شأنك ؟ » فقال : أردت أن أضرب من أخذك فدعا له النبي صلى الله عليه وآله وسلم وليسيفه ، وكان أول سيف سل في سبيل الله عز وجل .

٨٣ - * روى ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود قال : كان أول من أظهر إسلامه سبعة : رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد ، فأما رسول الله ﷺ فنعه الله بعمه أبي طالب ، وأما أبو بكر فنعه الله بقومه ، وأما سائرهم فأخذهم المشركون وألبسوهم أدرائع الحديد وصهروهم في الشمس . فَمَا مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وَاتَاهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا إِلَّا بِلَالاً فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللَّهِ وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ ، فَأَخَذُوهُ فَأَعْطُوهُ

٨١ - المستدرك (٣ / ٢١٢) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

٨٢ - المستدرك (٢ / ٣٦٠) وسكت عنه الذهبي في التلخيص . وإنما أردناه هنا مع أن فيه ابن لميعة لموافقته للمحفوظ من تقدم إسلام الزبير وهو صغير .

٨٣ - ابن ماجه (١ / ٥٣) المقدمة ١١ - باب فضل سلمان وأبي ذر والمقداد . والحاكم (٢ / ٢٨٤) ، وصححه ووافقه الذهبي . منعه : أي عصه الله من أدام . صهروهم : من صهر كنع أي عذّبهم . واتاهم : أي وافقهم على ما أرادوا من ترك إظهار الإسلام . هانت : أي حقرت وصغرت عنده لأجله تعالى . الشعاب : جمع شعب وهو الطريق في الجبل .

الوَلَدَانِ فَجَعَلُوا يَطُوفُونَ بِهِ فِي شَعَابِ مَكَّةَ وَهُوَ يَقُولُ أَحَدًا أَحَدًا .

٨٤ - * روى الحاكم عن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه قال : أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ فَلَمْ يَتْرُكُوهُ حَتَّى سَبَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَذَكَرَ آلَهُمْ بِخَيْرٍ ثُمَّ تَرَكُوهُ ، فَلَمَّا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « مَا وَرَاءَكَ ؟ » قَالَ : شَرٌّ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا تَرِكَتُ حَتَّى نِلْتُ مِنْكَ ، وَذَكَرْتُ آلَهُمْ بِخَيْرٍ . قَالَ : « كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ ؟ » قَالَ : مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ . قَالَ : « إِنَّ عَادُوا فَعُدُّ » .

٨٥ - * روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا ، قَالَ : وَكُنْتُ : أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ وَرَجُلٌ مِنْ هَذِيلٍ وَبِلَالٌ وَرَجُلَانِ لَسْتُ أَسْمِيهِنَّ ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ ^(١) .

٨٦ - * روى أحمد والطبراني عن ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ قَالَ : مَرَّ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ خُبَابٌ وَصُهَيْبٌ وَبِلَالٌ وَعَمَارٌ فَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ أَرْضَيْتَ هَؤُلَاءِ فَنَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾

٨٤ - للمستدرک (٢ / ٢٠٧) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

نلت منك : سبتك وشتمتك . كيف تجد قلبك : أي هل مازال على الإيمان بالله واليوم الآخر ، فالقول إذا كان من غير تصديق القلب فلا حرج فيه حال الإكراه وهذا مصداق قول الله عز وجل : ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ (النحل : ١٠٦) . وقد أجاز فقهاء الحنفية للمسلم أن يقول ما يخرج به من البلاء إذا كان هذا البلاء قتلاً أو قطعاً أو سجن ظالم .

٨٥ - مسلم (٤ / ١٨٧٨) ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة - ٥ - باب في فضل سعد بن أبي وقاص .

لا يجترئون : من الحرأة وهو الإقدام على الشيء . والمعنى : أي أبعد هؤلاء عن مجلسنا معك حتى لا يتسلطوا علينا ولكي يحترمونا ويقدرونا حق قدرنا . فوقع في نفس رسول الله : أي خطر في قلبه : وأصل الوقوع في اللغة السقوط . (١) الأنعام : ٥٢ .

٨٦ - أحمد في مسنده (١ / ٤٢٠) المعجم الكبير (١٠ / ٢٦٨) .

وقال الميمني في مجمع الروائد (٧ / ٢١) : رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح غير كردوس وهو ثقة .

إلى قوله : ﴿ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(١) وفي رواية الطبراني أنه قال : فقالوا : يا محمد أهؤلاء من الله عليهم من بيننا لو طردت هؤلاء لاتبعتناك فأنزل الله : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ .

* * *

بداية الدعوة في سريتها وفرديتها :

سيرة رسول الله ﷺ تسع الزمان والمكان والأشخاص ، وهي مجموعها يجد فيها كل عامل قدوة وأسوة ، وأحكام الإسلام المنبثقة عن الكتاب والسنة تكمل الاستجابة لحاجات الإنسان وظروفه ، ومن ههنا نقول :

إن من واجبه ظروفًا كالظروف التي واجهها رسول الله ﷺ في بداية الدعوة يسن له أن يدعوا سراً ، وقد يتعين ذلك عليه إذا كان واجب الدعوة وتحقيق الهدف لا يتأتى إلا بالسرية ، فليست السرية مفروضة دائماً أو مسنونة دوماً ، بل الحكم فيها منوط بالظروف التي تواجهها الدعوة وأصحابها .

ورأينا في مرحلة الدعوة السرية كيف أن الدعوة كانت فردية يقوم بها رسول الله ﷺ أو أصحابه ، وأن الإيذاء بدأ مبكراً ، والعروض والإغراءات والتزهد بالمستجيبين من قبل الكبراء كل ذلك كان واضحاً ، وهي قضايا يجب أن يلتفت إليها الدعاة ، وقد رأينا أكثر من نموذج أسلم فأرجعه رسول الله ﷺ إلى قومه متربصاً منتظراً داعياً ، مما يشير إلى أن هناك حالات يفضل فيها الانتشار على التجمع في المكان الواحد ، وهذا كذلك موضوع يخضع لظروف الدعوة والداعية فليس التجمع في المكان الواحد مفروضاً في كل الأحوال ، فلكل وضع أحكامه .

ولم نستقص فيما تقلناه كل الأحوال والأحداث التي حدثت في المرحلة السرية والفردية لتدخلها مع ما بعدها فكان ما ذكرناه نموذجاً يكفي لتوضيح الصورة .

(١) الأنعام : ٥١ ، ٥٢ .

قال السباعي :

إن دعوة الإصلاح إذا كانت غريبة على معتقدات الجمهور وعقليته ، ينبغي أن لا يجهر بها الداعية حتى يؤمن بها عدد يضحون في سبيلها بالغالي والرخيص . حتى إذا نال صاحب الدعوى أذى . قام أتباعه المؤمنون بدعوته بواجب الدعوة ، فيضمن بذلك استمرارها .

* * *

فصل : في الدعوة الجهرية

اعتاد المؤلفون أن يعنونوا لهذه المرحلة بمثل العنوان الذي عنونا به ، فوافقناهم عليه مع أنه ملتبس ، فالمرحلة الثانية كان فيها دعوة جهرية جماعية ، لكن قد بقيت الدعوة الفردية مستترة ، وبقيت السرية قائمة فالاستخفاء في دار الأرقم لازال موجوداً ، وهناك روايات تصرح بذلك ، المهم أن التكتّم بقي مستمراً مع الجهر بالدعوة ، ولعل هذه المرحلة تشهد لمن ينادون بجهرية الدعوة وسرية التنظيم ، والظاهر أن هذه المرحلة استمرت حتى إسلام عمر فعندئذ وجدت جهرية الدعوة على كالمها ، وخلال ذلك كان كثيراً ما ينكشف إسلام من أسلم ، وعلى كل الأحوال فجهرية الدعوة وسرية التنظيم منوطان بالظروف والمصلحة والأوضاع التي تواجهها الدعوة أو يواجهها الدعاة .

وبعد ثلاث سنين من البعثة على القول الراجح نزل قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ^(١) ، وقوله : ﴿ فَاصْبِرْ بِمَا تُوَمَّرْ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ^(٢) ، وعندئذ بدأت الدعوة الجهرية فخصّ بها رسول الله ﷺ وعمّ تنفيذاً لأمره تعالى .

٨٧ - * روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ قال : « يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئاً . يا بني عبد مناف ، لا أغني عنكم من الله شيئاً . يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغني عنك من الله شيئاً . يا فاطمة بنت محمد ، سأليني ما شئت من مالي ، لا أغني عنك من الله شيئاً » .

وللبخاري أيضاً ^(٣) قال : « يا بني عبد مناف ، اشتروا أنفسكم من الله ، يا بني

(١) الشعراء : ٢١٤ .

(٢) الحجر : ٩٤ .

٨٧ - البخاري (٨ / ٥٠١) ٦٥ - كتاب التفسير - باب ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ .

(٣) البخاري (٦ / ٥٥١) ٦١ - كتاب المناقب - ١٣ - باب من انتسب إلى آبائه في الإسلام والجاهلية .

عبد المطلب ، اشتروا أنفسكم من الله ، يا أم الزبير بن العوام عمة رسول الله ، يا فاطمة بنت محمد ، اشتريا أنفسكما من الله ، لا أمليك لكما من الله شيئاً ، سلاني من مالي ما شئتما .

ولسلم أيضاً ^(١) قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً ، فاجتمعوا ، فعمّ وخصّ ، فقال : « يا بني كعب بن لؤي ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بني مرة بن كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بني عبد شمس ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بني عبد مناف ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بني هاشم ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بني عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا فاطمة ، أنقذي نفسك من النار . فإني لا أمليك لكم من الله شيئاً ، غير أن لكم رجياً ، سأبئلهما ببئلهما » .

وأخرجه الترمذي ^(١) عن أبي هريرة قال : لما نزلت ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ جمع رسول الله ﷺ قريشاً ، فخصّ وعمّ ، فقال : « يامعشر قريش ، أنقذوا أنفسكم من النار ، فإني لا أمليك لكم من الله ضراً ولا نفعاً . يامعشر بني عبد مناف ، أنقذوا أنفسكم من النار ، فإني لا أمليك لكم من الله ضراً ولا نفعاً . يامعشر بني قصي ، أنقذوا أنفسكم من النار ، فإني لا أمليك لكم من الله ضراً ولا نفعاً . يامعشر بني عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار ، فإني لا أمليك لكم ضراً ولا نفعاً . يافاطمة بنت محمد ، أنقذي نفسك من النار ، فإني لا أمليك لك ضراً ولا نفعاً ، إن لك رجياً ، سأبئلهما ببئلهما » .

(١) مسلم (١ / ١١٢) - كتاب الإيمان - ٨٩ - باب في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ .

أنقذوا : أنقذت فلاناً : إذا خلصته مما يكون قد وقع فيه ، أو شارف أن يقع فيه .

سأبئلهما : البئال : ما يبئ به ، وإنما قالوا في صلة الرحم : بل رجمة ، لأنهم لما رأوا بعض الأشياء يتصل ويختلط بالندوة ، ويحصل بينهما التجافي والتفرق باليبس ، استعاروا البئال بمعنى الوصل ، واليبس بمعنى القطيعة ، والمعنى : سأصل الرحم بصلتها ، وقيل : البئال : جمع بئ .

(٢) الترمذي (٥ / ٣٢٨) - ٤٨ - كتاب تفسير القرآن - ٢٧ - باب : ومن سورة الشعراء . قال أبو عيسى : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

٨٨ - * روى مسلم عن قبيصة بن مخارق وزهير بن عمرو رضي الله عنهما قالا : لما نزلت : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ انطلق نبي الله ﷺ إلى رَضَمَةَ من جَبَلِ فَعْلَا أعلاها حَجْرًا ، ثم نادى : « يَا بني عَبْدِ مَنَافَاهُ إِنِّي نَذِيرٌ ، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ رَأَى الْعَدُوَّ ، فَأَنْطَلَقَ يَرْبَأُ أَهْلَهُ ، فَخَشِيَ أَنْ يَسْبِقُوهُ ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ : يَا صَبَاحَاهُ . »

يفغل كثير من الدعاة عن تذكير أسرهم وأهليهم وعشيرتهم وأقاربهم ، وهذا عجاف للفترة ولفقه الدعوة ولسنة الدعوة فعلى الداعية إلى الله أن يخص أرحامه وأقاربه ببعض الوقت لدعوتهم وتعليمهم وتربيتهم .

إن أصل الفترة أن يجب الإنسان أقاربه وأرحامه ، وأن يحرص على ما ينفعهم وأن يبعد عنهم ما يضرهم ، والداعية إلى الله هم الأول أن ينقذ الناس من النار ، فإذا ما أهل أقرب الناس إليه ، فكأنه يدل على عدم صدقه في دعوته ، فإن كان هم الإنقاذ فهؤلاء أولى الناس بالبداة ، أما إذا كان هم الزعامة والرئاسة وهؤلاء مطمئن لموقفهم منه فهذه كارثة ، أو كان لا تحركه نوحهم عاطفة خاصة فهذا عجاف للفترة ، المهم أن كل داعية لابد أن يخص أهله وأقاربه بمزيد عناية ابتداءً أو توسطاً أو انتهاءً ، والابتداء سنة رسول الله ﷺ .

قال السباعي : إن على الداعية أن يهتم بأقربائه ، فيبلغهم دعوة الإصلاح . فإذا أعرضوا ، كان له عذراً أمام الله والناس ، عما هم عليه من فساد وضلال .

٨٩ - * روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا ، فجعل ينادي : « يَا بَنِي فَهْرٍ ، يَا بَنِي عَدِيٍّ » - لبطون قريش - حتَّى اجتمعوا . فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ؟ فجاء أبو لهب وقريش ، فقال : « أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي ،

٨٨ - مسلم (١ / ١٩٢) - ١ - كتاب الإيمان - ٨٩ - باب في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ .
رضعة : الرضعة : واحدة الرض : وهي الحجرة والصخور بعضها على بعض . يَرْبَأُ : الرَيْبَةُ : الذي يحرس القوم ، ويتطلع لهم ، خوفاً من أن يكبهم العدو . يا صباحاه : كلمة يقولها الملأوف والمستغيث .

٨٩ - البخاري (٨ / ٥٠١) - ٦٥ - كتاب التفسير - ٢ - باب ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ .
تَبَأَ لَكَ : التَّبُّ : الهلاك ؛ أي هلاكاً لك ، وهو منصوب بفعل مضارع . البطحاء : الأرض المستوية .

تُرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَيْكُمْ ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي ؟ » قَالُوا : نَعَمْ ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا ، قَالَ :
« فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » فَقَالَ أَبُو هُبَيْرٍ : تَبَا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ ، أَلِهَذَا
جَمَعْتُنَا ؟ فَنَزَلَتْ : ﴿ تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۖ ﴾^(١).

وفي بعض الروايات^(٢) : (وَقَدْ تَبَّ) كَذَا قَرَأَ الْأَعْمَشُ .

وفي رواية^(٣) : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ إِلَى الْبَطْحَاءِ ، فَصَعِدَ إِلَى الْجَبَلِ ، فَنَادَى :
« صَبَاحَاهُ ، يَا صَبَاحَاهُ » فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ قَرِيشٌ فَقَالَ : « أَرَأَيْتُمْ إِنْ حَدَّثْتُكُمْ : أَنَّ
الْعَدُوَّ مُصَبِّحُكُمْ ، أَوْ مُمَسِّحُكُمْ ، أَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي ؟ » قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : « فَإِنِّي نَذِيرٌ
لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » وَذَكَرَ نَحْوَهُ .

وللبخاري^(٤) أَيْضًا قَالَ : لَمَّا نَزَلَ : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۖ جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ
يَذْعُوهُمْ قَبَائِلَ ، قَبَائِلَ .

وفي رواية للبخاري^(٥) : لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ، وَرَهْطَكَ مِنْهُمْ
الْمُخْلِصِينَ ۖ ﴾ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى صَعِدَ الصُّفَا ، فَهَتَفَ : « يَا صَبَاحَاهُ » فَقَالُوا : مِنْ
هَذَا ؟ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ ، فَقَالَ : « أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا
الْجَبَلِ ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي ؟ » قَالُوا : مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا .. وَذَكَرَ الْحَدِيثَ .

قال في الفتح :

والسر في الأمر بإنذار الأقربين أولاً أن الحجة إذا قامت عليهم تعدت إلى غيرهم ، وإلا
فكانوا علة للأبعدين في الامتناع ، وأن لا يأخذه ما يأخذ القريب للقريب من العطف
والرأفة فيحاييهم في الدعوة والتخويف ، فلذلك نص له على إنذارهم . وفيه جواز تكتية
الكافر ، وفيه خلاف بين العلماء ، كذا قيل .

(١) سورة المد : ١ ، ٢ .

(٢) البخاري (٨ / ٣٣٧) ٦٥ - كتاب التفسير - تفسير سورة (١١١) - ٢ - باب ﴿ وَتَبَّ ، مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۖ ﴾ .

(٣) البخاري (٦ / ٥٥١) ٦١ - كتاب المناقب - ١٢ - باب : من انتسب إلى آبائه في الإسلام والجاهلية .

(٤) البخاري (٨ / ٥٣٧) ٦٥ - كتاب التفسير - تفسير سورة (١١١) ، باب : ١ - .

(٥) رَهْطُكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ) : هَذَا مِمَّا نَسَخَتْ تِلَاوَتُهُ .

٩٠ - * روى الإمام أحمد عن عليّ قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ قال : جمع رسول الله ﷺ من أهل بيته فاجتمع له ثلاثون رجلاً فأكلوا وشربوا قال : فقال لهم : « مَنْ يَضْمَنُ عَنِّي دِينِي وَمَوَاعِيدِي وَيَكُونُ مَعِيَ فِي الْجَنَّةِ وَيَكُونُ خَلِيفَتِي فِي أَهْلِي » فقال رجلٌ لم يُسمه شريك : يا رسول الله أنت كنتَ مجرأً من يقومُ بهذا ، قال : ثم قال : لآخر فعرض ذلك على أهل بيته فقال عليّ : أنا .

نفهم من الحديث أدباً وهو أن يكون للداعية إلى الله سواء كان شيخاً أو أمير جماعة أن يكون معه من يحفظ مواعيده ليذكر بها أو ليوفيهاهم ، وقد يكون منصب أمين السر في عصرنا يحقق الضبط لهذه الشؤون ، وخلفاء القائد عليهم مراعاة ذلك ، ومن فقه الدعوة في الحديث أن يخص الداعية الأخص من أهل بيته بزيادة عناية في الدعوة ، وأن يصطنع المناسبات لتبليغ دعوته ، والولية مناسبة من المناسبات عند الداعية لتحقيق هدف أو تبليغ دعوة .

* * *

أصناف خصوم الدعوة الجهرية :

ويبدو أن الدعوة الجهرية لقريش لم تلق استجابة مباشرة بل لقيت صداً مباشراً وكيداً غنياً ، وبهذه المناسبة تحدّث الشيخ الغزالي في كتابه فقه السيرة عن أنواع الخصوم الذين واجهوا دعوة رسول الله ﷺ . قال : ومن أولئك الخصوم :

* متعصبون تحجّرت عقولهم . تزين لهم سطوتهم البطش بمن يخالفهم . ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونِ بِالَّذِينَ يَثْلَوْنَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ... ﴾^(١)

* .. أو مترفون سبرتهم ثروتهم يحبون الباطل لأنه على أرائك وثيرة ، ويكرهون الحق

٩٠ - أحمد في مسنده (١ / ١١١) وإسناده جيد وتقدمت له طرق في علامات النبوة .

مواعيدي : أي ما وعد به الرسول ﷺ أحداً ولم يتم له أن يعطيه . مجرأ : أي كانت مواعيده وعطاؤه كثيرين كالحر .

(١) الحج : ٧٢ .

لأنه عاطل عن الحلي والمتاع ﴿ وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾^(١) !!

* .. أو متعنتون يحسبون هدايا الرحمن عبث صبية ، أو أزياء غانية فهم يقولون : دع هذا وهات هذا ﴿ وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا االَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ ﴾^(٢) !!

* .. أو مهرجون يتواصون بينهم بافتعال ضجة عالية وصياح منكر عندما تقرأ الآيات ، حتى لا تسمع فتفهم فتترك أثراً في عقل نقي وقلب طيب ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾^(٣) !!

لو أن أهل مكة ترددوا في تصديق محمد ﷺ حتى يبحثوا أمره ويحصوا رسالته ، ويزنوا - على مهل - ما لديهم وما جاء به ، لما عابهم على هذا عاقل . ولكنهم نفروا من الإسلام نفور المذنب من ساحة القضاء بعدما انكشفت جريمته وثبتت إدانته . اهـ .

٩١ - * روى الطبراني عن جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ قَالَ : جَلَسْنَا إِلَى الْمَقْدَادِ بْنِ الْأَسودِ يَوْمًا وَمَرَّ بِنَا رَجُلٌ وَاسْتَعْنَا إِلَيْهِ فَقَالَ : طُوبَى لِهَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ رَأَتَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَاللَّهِ لَوَدِدْنَا أَنَا رَأَيْنَا مَا رَأَيْتُمْ وَشَهِدْنَا مَا شَهِدْتُمْ ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ فَقَالَ : مَا يَحْمِلُ الرَّجُلَ أَنْ يَتَنَى مُحَضَّرًا غَيْبَةَ اللَّهِ عَنْهُ لَا يَذَرِي كَيْفَ يَكُونُ فِيهِ ، وَاللَّهِ لَقَدْ خَضَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقْوَامٌ كَبَّهُمُ اللَّهُ عَلَى مَتَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ لَمْ يُجِيبُوهُ وَلَمْ يُصَدِّقُوهُ ، أَلَا يَحْمَدُ اللَّهُ تَعَالَى أَحَدُكُمْ أَنْ لَا تَعْرِفُوا إِلَّا رَبَّكُمْ مُصَدِّقِينَ بِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيِّكُمْ ، فَقَدْ كَفَيْتُمُ الْبَلَاءَ بِغَيْرِكُمْ ، وَاللَّهِ لَقَدْ بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَشَدِّ حَالٍ بَعِثَ عَلَيْهَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي فِتْرَةٍ وَجَاهِلِيَّةٍ لَمْ يَرَوْا أَنَّ دِينَنَا أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ، فَجَاءَ بِفُرْقَانٍ فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَفَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدِ وَوَلَدِهِ ، حَتَّى إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَرَى وَالِدَهُ أَوْ وَلَدَهُ أَوْ أَخَاهُ

(١) مريم : ٧٣ .

(٢) يونس : ١٥ .

(٣) فصلت : ٢٦ .

٩١ - المعجم الكبير (٢٥٤ / ٢٠) وأحمد في مسنده (٢ / ٦) ، وقال الهيثمي في المجمع (١٧ / ٦) : رواه الطبراني بأسانيد

في أحدها يحيى بن صالح ، وثقه الذهبي وقد تكلموا فيه ، وبقيّة رجاله رجال الصحيح .

طوبى : اسم للجنة . وقيل هي شجرة فيها وأصلها في اللغة فعل من الطيب . لوددنا : من الود وهو الحب أي أحببنا . فترة وجاهلية : الفترة أي زمان انقطع فيه مجيء الأنبياء . وهي الفترة ما بين عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ . والجاهلية : ما كان عليه العرب قبل الإسلام من عبادة الأصنام والجهل والضلال . بفرقان : أي القرآن . حميه : أي قريبه .

كافراً ، وقد فتح الله تعالى قفله للإيمان ليُعلم أنه قد هلك من دخل النار ، فلا تَقَرَّ عَيْنُهُ وهو يعلم أن حَمِيمَةً في النار ، وأنها التي قال الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾^(١) .

٩٢ - * روى مسلم عن أبي هريرة قال : قال أبو جهل : هل يُعَفَّرُ محمد وجهه بين أظهركم ؟ قال : فقيل : نعم ، فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته أو لأعفرن وجهه في التراب . قال : فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي زعم ليطأ على رقبته قال : فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه ، قال : فقيل له : مالك ؟ فقال : إن بيني وبينه لخنقاً من نارٍ وهولاً وأجنحة ، فقال رسول الله ﷺ : « لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً » قال : فأنزل الله عز وجل ، لا ندري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه ، ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴾ * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى * أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى * كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَنْدِعْ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لَا تَطْلَعُ ﴾^(٢) زاد عبید الله في حديثه قال : وأمره بما أمر به . وزاد ابن عبد الأعلى فليدع ناديه : يعني قومة .

قال في الفتح : وإنما شدد الأمر في حق أبي جهل ، ولم يقع مثل ذلك لعقبة بن أبي معيط حيث طرح سلى الجزور على ظهره ﷺ وهو يصلي ، لأنها وإن اشتركا في مطلق الأذية حالة صلاته ، لكن زاد أبو جهل بالتهديد وبدعوى أهل طاعته وبإرادة وطء العنق الشريف ، وفي ذلك من المبالغة ما اقتضى تعجيل العقوبة لو فعل ذلك ، ولأن سلى الجزور لم يتحقق نجاستها ، وقد عوقب عقبة بدعائه ﷺ عليه وعلى من شاركه في فعله فقتلوا يوم بدر .

(١) الفرقان : ٧٤ .

٩٢ - مسلم (٤ / ٢١٥٤) ٢٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - ٦ - باب قوله : إن الإنسان ليطغى أن رآه استعصى .
التعفير : التبريق في التراب . يعفر أي يسجد ويلصق وجهه بالقر وهو التراب . فجئهم : بكسر الجيم ويقال أيضاً فجأهم . نكص على عقبيه : رجع إلى ورائه القهقري . الاختطاف : الاستلاب بسرعة . كذب وقول : يعني أبا جهل .

(٢) العلق : ٦ - ١٩ .

٩٣ - * روى الحاكم عن خالد بن سعيد أن سعيد بن العاص بن أمية مريض فقال : لئن رَفَعَنِي اللهُ من مَرَضِي هذا لا يُعْبَدُ إِلَهَ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ بِيْطْنِ مَكَّةَ أَبَدًا فَقَالَ خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ عِنْدَ ذَلِكَ : اللَّهُمَّ لَا تَرْفَعُهُ ، فَتُوفِّيَ فِي مَرَضِهِ ذَلِكَ .

٩٤ - * روى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله عز وجل : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ ^(١) قال : نَزَلَتْ فِي أَبِي طَالِبٍ ، كَانَ يَنْهَى الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَيَتْبَاعِدُوا عَمَّا جَاءَ بِهِ .

٩٥ - * روى البخاري عن قيس بن أبي حازم رحمه الله قال : سمعتُ سعيدَ بنَ زيدِ بنِ عمرو في مسجدِ الكوفةِ يَقُولُ : وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنْ عَمَّرَ لَمْ يُوثِقِي عَلَى الْإِسْلَامِ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ عَمْرًا ، وَلَوْ أَنَّ أَحَدًا أَرَفَضَ لِلَّذِي صَنَعْتَ بَعَثَانِ لَكَانَ مُحَقَّقًا أَنْ يَرْفُضَ .

٩٦ - * روى الترمذي عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لَقَدْ أَخْفَتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدًا ، وَلَقَدْ أُودِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدًا . وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِلْبَلَالِ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءَ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ . »
ومعنى هذا الحديث : حين خرج النبي ﷺ هارباً من مكة ومعه بلال إنما كان مع بلال من الطعام ما يحمله تحت إبطه .

٩٣ - المستدرك (٢ / ٢٤٩) وسكت عنه الحافظ الذهبي في التلخيص .

لئن رفَعَنِي اللهُ من مَرَضِي : أي : لئن شَفَانِي اللهُ من مَرَضِي ، ومثل هذا النذر من هذا المشرك يدل على مقدار ثقة المشركين أنهم على حق ، وهذا يبين الصعوبة التي واجهها الرسول في التنفير . ابن أبي كَبْشَةَ : أي : محمد ﷺ كانوا ينسبونه لأبيه من الرضاة . وفي دعاء خاله : على أبيه مظهر من مظاهر الولاء الخالص الشديد عند أصحاب رسول الله ﷺ لهذا الدين .

٩٤ - المستدرك (٢ / ٢١٥) وقال : صحيح على شرط الشيخين وصححه الذهبي .

يَنَافُونَ : يَتَعَدُّونَ . أي أنهم لا يستجيبون لدعوته .

(١) الأنعام : ٣٦ .

٩٥ - البخاري (٧ / ١٧٦) ٦٢ - كتاب مناقب الأنصار - ٣٤ - باب إسلام سعيد بن زيد .

لموثقي على الإسلام : أي أن عمر - رضي الله عنه - ربطه بسبب إسلامه إهانة له وإلزاماً بالرجوع عن الإسلام .
أرفض : والأرفض : التفرق .

٩٦ - الترمذي (٤ / ٦٤٥) ٣٨ - كتاب صفة القيامة - ٣٤ - باب حدثنا هارون بن إسحاق ... وقال : حسن غريب .

وابن ماجه (١ / ٥٤) ١١ - المقدمة - ١١ - باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ . وهو حديث حسن بشواهده .

ورواه ابن حبان - الإحسان (٨ / ١٨٢) .

٩٧ - * روى أبو يعلى عن جابر بن عبد الله قال : اجتمعت قريش للنبي ﷺ يوماً ، فقال : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر ، فليات هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا ، وشئت أمرنا ، وعاب ديننا ، فليكن له ولينظر ما يرد عليه ، قالوا : ما نعلم أحداً غير عتبة ابن ربيعة ، قالوا : أنت يا أبا الوليد ، فأتاه عتبة فقال : يا محمد أنت خير أم عبد الله ؟ فسكت رسول الله ﷺ قال : أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله ﷺ قال : فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك قد عبدوا الآلهة التي عبت ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك ، أما والله ما رأينا سخطاً أشأم على قومك منك ، فرقت جماعتنا ، وشئت أمرنا ، وعبت ديننا ، وقضحتنا في العرب حتى طار فيهم أن في قريش ساحراً ، وأن في قريش كاهناً ، ما ينتظر إلا مثل صيحة الحبل بأن يقوم بغضنا لبعض بالسيف حتى نتفانى . أيها الرجل : إن كان إنا بك الحاجة جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أغنى قريش رجلاً ، وإن كان إنا بك الباءة فاخترأي نساء قريش فنزوجهن عسراً ، فقال له رسول الله ﷺ : « أفرغت ؟ » قال : نعم ، قال : فقال رسول الله ﷺ : ﴿ حم * تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ ^(١) حتى بلغ ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ ^(٢) فقال عتبة : حسبك ، ما عندك غير هذا ؟ قال : لا ، فرجع إلى قريش فقالوا : ما وراءك ؟ فقال : ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته ، قالوا : هل أجابك ؟ قال : نعم ، قال : والذي نصّبها نبية ما فهمت شيئاً مما قال غير أنه قال : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، قالوا : ويلك يكلمك رجل بالعريية فلا تدري ما قال ، قال : لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة . أقول : إن فتح باب الحوار لمصلحة الإسلام والمسلمين إذا وجد الداعية الكامل هو

٩٧ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦ / ١) : رواه أبو يعلى وفيه الأجلح الكندي وثقه ابن معين وغيره وضعفه النسائي وغيره ، وبقية رجاله ثقات . وقال عنه الحافظ في التقریب (٤٩ / ١) (صدوق) لذا ما لحديث حسن إن شاء الله تعالى . ويزيده ما رواه ابن إسحاق مرسلأ بإسناد جيد (١ / ٢١٢) .

الباءة : النكاح .

(١) فصلت : ١ ، ٢ .

(٢) فصلت : ١٣ .

الأصل ، فهذا رسول الله ﷺ ما كان يغلق باب الحوار مع أحد ، ولكنه في أي حوار كان يدعو إلى الله ويحقق مصلحة للإسلام والمسلمين .

٩٨ - * روى الترمذي عن عروة بن الزبير بن العوام ، أن عائشة رضي الله عنها قالت :
أُنزِلَتْ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (١) في ابن أم مكتوم الأعمى ، أتى رسول الله ﷺ ، فجعل يقول :
يا رسول الله أرشدني - وعند رسول الله ﷺ من عطاء المشركين - فجعل رسول الله ﷺ يُعْرِضُ
عنه ويُقْبَلُ على الآخرين ، ويقول : « أترى بما أقول بأساً ؟ » فيقال : لا ، ففي هذا أنزل .

هذه حادثة خالدة ولذلك سجلها القرآن الكريم ، لأنها تشكل ظاهرة متجددة في الدعوة
إلى الله ، وهي من الخطورة ببالكان العظيم ، فالدعاة دائماً يتطلعون إلى كسب جديد
للدعوة ، وفي غرة التطلع هذا قد يغفلون حقوق المستجيبين للدعوة ، وفي كثير من الأحيان
لا يستجيب الآخرون ويفقد الداعية صفته . وأول مبادئ العمل الإسلامي أن تحرص على
رأس المال أكثر من حرصك على الكسب ، ثم إن التطلع المبكر نحو رؤوس القوم ليس هو
الأصل ، فالعادة جرت أن هؤلاء تتأخر استجاباتهم ، فالتركيز على المستجيبين ليشكلوا
القيادة الحقيقية للأمة هو الأساس ، ثم إن الأولوية يجب أن تعطى دائماً للمستجيبين
وللصف لتبقى أرواحهم معلقة بالملأ الأعلى .

٩٩ - * روى الطبراني وأبو يعلى عن عقيل بن أبي طالب قال : جاءت قريش إلى أبي
طالب فقالوا : يا أبا طالب إن ابن أخيك يأتينا في أفنتنا وفي نادينا فيُسَمِّعُنَا ما يُؤْذِنَا

٩٨ - الترمذي (٤٢٢ / ٥) ٤٨ - كتاب تفسير القرآن - ٧٣ - باب ومن سورة عبس . وقال : حديث حسن غريب ،
واللوطاً (٢٠٣ / ١) ١٥ - كتاب القرآن - ٤ - باب : ما جاء في القرآن . وصححه ابن حبان (موارد : ١٧٦٩) .
أرشدني . اهدي ونلني على الخير . والرشد : الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه . أترى بما أقول بأساً : أي
هل قلت شيئاً مذموماً ؟
(١) عبس : ١ .

٩٩ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤ / ٦) : رواه الطبراني في الأوسط والكبير ، وأبو يعلى باختصار يسير من أوله ،
ورجال أبي يعلى رجال الصحيح المعجم الكبير (١٧ / ١٩٢) .
الكس : بيت صغير لمطاعاً : أي لمطوعاً أي لمطيعاً إما أنه ضمن اسم الفاعل معنى المفعول أو أنه بالنسبة لحمد ﷺ
مطاع . حلق : حلق ببصره : رفعه . راشدين : مهتدين .

به ، فإن رأيت أن تكفّ عَنَّا فافعل . فقال لي : يا عقيلُ التمسُ لي ابنَ عمِّك ، فأخرجته من كبسٍ من أكباسِ أبي طالبٍ ، فأقبلَ يمشي معي يطلبُ الفياءَ يمشي فيه فلا يقدرُ عليه ، حتّى انتهى إلى أبي طالبٍ فقال له : يا ابنَ أخي والله ما علمتُ أن كنتَ لي لمطاعاً ، وقد جاء قومك يزعمون أنك تأتيهم في كعبتهم وفي ناديتهم تسمعهم ما يؤذيتهم ، فإن رأيت أن تكفّ عنهم ، فحلّقَ ببصره إلى السماءِ فقال : « والله ما أنا بأقدرَ أدعَ ما بعثتُ به من أن يُشعلَ أحدكم من هذه الشمسِ شُعلةً من نارٍ » ، فقال أبو طالبٍ : والله ما كذبَ ابنُ أخي قطُّ ارجعوا راشدين .

١٠٠ - * روى الترمذي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، أن أباه جهل قال للنبي ﷺ : إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيِّنَاتٍ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (١) .

* * *

١٠٠ - الترمذي (٢٦١ / ٥) ٤٨ - كتاب تفسير القرآن - ٧ - باب : ومن سورة الأنعام . والحديث صحيح ، وهو عند الحاكم بلفظ : إنك تصل الرحم وتصدق الحديث ولا تكذبك ، ولكن نكذب ... قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وقال الذهبي : ما خرجنا لناجية شيئاً . قال ابن حجر : ناجية ثقة عن علي . يجهلون : جحد الأمر جحداً أو جحوداً : أي أنكره مع علمه به .
(١) الأنعام : ٢٢ .

فصل ووصل

الوحي ، ففترة الوحي ، فالأمر بالإندار ، فالدعوة الفردية السرية ، فالدعوة الجماعية الجهرية ، فالهجرة الأولى إلى الحبشة ، فالهجرة الثانية إلى الحبشة ، وإسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما ؛ هذه هي المعالم الكبرى لأحداث السنين الست بعد البعثة .

دامت فترة الوحي على الأرجح أياماً وستة شهور ثم نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ فبدأ رسول الله ﷺ الدعوة سرية وفردية واستمر على ذلك ثلاث سنين ، ثم أمر بالجر بالدعوة ، فبدأ بعشيرته الأقربين فجهر ودعا فزادت المقاومة والاضطهاد مما اضطر رسول الله ﷺ لاتخاذ دار الأرقم مقراً سرىاً للدعوة والتربية والتعليم والعبادة ، وكان ذلك في بداية السنة الخامسة ، وفي رجب من السنة الخامسة ، هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة وكان مكوناً من اثني عشر رجلاً وأربع نسوة ، وفي شوال من نفس السنة عاد هؤلاء بعد أن بلغتهم شائعة أن قريشاً أسلمت فلما عرفوا جلية الأمر رجع بعضهم إلى الحبشة ودخل بعضهم مكة مستخفياً أو في جوار ، واشتد الاضطهاد فكانت الهجرة الثانية إلى الحبشة والتي شارك فيها ثلاثة وثلاثون رجلاً وثمان عشر امرأة ، والذي يبدو أن الهجرة الثانية كانت على دفعات ، والراجح أن إسلام حمزة وعمر كان بعد الهجرة الثانية أواخر السنة السادسة من البعثة ، والروايات تذكر أن عمر أسلم بعد تسعة وثلاثين رجلاً وثلاث وعشرين امرأة ، أو بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة ، أو بعد خمسة وأربعين رجلاً وإحدى وعشرين امرأة ، أو بعد ثلاثة وثلاثين رجلاً ، والتوفيق بين هذا العدد وبين أن الصحابة الذين هاجروا إلى الحبشة كانوا حوالي المئة ، إما أن إسلام عمر كان بين الهجرتين فانتعشت الدعوة أو كان بعد الهجرتين ، لكن الهجرة الثانية كانت على دفعات وكانت محصلتها العدد المذكور .

وكان المسلمون لا يقدرّون يصلّون عند الكعبة ، فلما أسلم عمر رضي الله عنه قاتل قريشاً حتّى صلى عندها وصلى معه المسلمون ، وقد قوا بإسلامه وإسلام حمزة رضي الله عنهما ، وجهروا بالقرآن ولم يكونوا قبل ذلك يقدرّون أن يجهروا به ففشا الإسلام وكثر المسلمون .

١٠١ - * روى الحاكم عن عثمان بن الأرقم ، أنه كان يقول : أنا ابنُ سُبُعِ الإسلام ، أسلمَ أبي سَابِعَ سَبْعَةٍ ، وكانت دَاوَةَ على الصَّفا هي الدَّارُ التي كانَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم يكون فيها في الإسلام ، وفيها دعا النَّاسَ إلى الإسلام فأسلمَ فيها قَوْمٌ كَثِيرٌ ، وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم ليلةَ الإثنينِ فيها : « اللَّهُمَّ أعزِّ الإسلامَ بأحَبِّ الرجلينِ إليك عُمَرُ بن الخطَّابِ أو عمرو بنِ هِشامٍ » فجاء عمر بن الخطاب من الغدِ بكرةً فأسلم في دارِ الأرقم وخرَجُوا منها وكَبَرُوا وطافوا بالبيتِ ظَاهِرِينَ ، ودُعيت دارُ الأرقم دارَ الإسلام .

تشير هذه الرواية إلى تقدم اتخاذ دار الأرقم فإذا كان الأرقم سابع سبعة دخلوا الإسلام ، وإذا شهدت دار الدعوة السرية الفردية فاتخاذ الدار إذن متقدم ، وكَوْنُ عمر بن الخطاب أسلم فيها فهذا يفيد أنها استمرت مركزاً للدعوة سنوات طويلة .

يقول الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله : إن على الداعية أن يجتمع بأنصاره على فترات في كل نهار أو أسبوع : ليزيدهم إيماناً بدعوتهم ، وليعلمهم طرقها وأساليبها وآدابها ، وإذا خشي على نفسه وجماعته من الاجتماع بهم علناً وجب عليه أن يكون اجتماعه بهم سرّاً لئلا يجمع المبتطلون أمرهم فيقضوا عليهم جميعاً ، أو يزدادوا في تعذيبهم واضطهادهم . أ.هـ .

ومن فكرة اتخاذ دار الأرقم نأخذ ضرورة وجود مراكز للدعوة على أن يتولى الدعوة فيها الدعاة الكبار .

* * *

١٠١ - المستدرک (٣ / ٥٠٢) وسکت عنه الذهبي .

وآخر الحديث موجود عن الترمذي (٥ / ٦١٧) ٥٠ - کتاب المناقب - ١٨ - باب : في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وقال : حسن صحيح غريب . وصححه ابن حبان .

فصل : في هجرتي الحبشة

اشتدَّ البلاء على المسلمين فوجد بعضهم حاية وبعضهم لم يجد ، ووجد هناك تطلع لحرية العبادة فكانت فكرة الهجرة إلى الحبشة حيث كان يحكمها ملك عادل .

كان عمر في تلك الأثناء مشركاً هو وحمة ، وقد دخلا في الإسلام في هذه المرحلة بعد ابتداء الهجرة إلى الحبشة وقبل حصار الشعب في السنة السابعة ، وترتب على إسلامها وضع جديد مما جعل قريشاً تفكر بوسائل جديدة ، فاخترعت فكرة حصار الشعب ، وهكذا تعددت أنواع الإيذاء ، ورسول الله ﷺ ماض يبلغ الناس في المواسم وحيثما لقيهم ، أفراداً وجماعات .

والهجرة الأولى إلى الحبشة كانت في السنة الخامسة للبعثة وكان عدد الذين هاجروا فيها اثني عشر رجلاً وأربع نسوة ، ورجع بعض هؤلاء على أثر سجود المشركين عند تلاوة سورة النجم ، فوجدوا الأمر على أشده فكانت الهجرة الثانية إلى الحبشة ، وتمت على دفعات ، ومجموع من ذكرت أسماؤهم في الهجرة الثانية ثلاثة وثمانون رجلاً وثمان أو تسع عشرة امرأة .

١٠٢ - * روى الطبراني عن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، عن أمه ليلى قالت : كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا في إسلامنا ، فلما تهيأنا للخروج إلى أرض الحبشة ، فأقى عمر بن الخطاب وأنا على بعيري وأنا أريد أن أتوجه ، فقال : أين يا أم عبد الله ؟ فقلت : أذيتمونا في ديننا فنذهب في أرض الله حيث لا نُؤذى . فقال : صَحِبْكُمْ الله ثم ذهب ، فجاء زوجي عامر بن ربيعة فأخبرته بما رأيت من رقة عمر ، فقال : ترجين أن يسلم ، والله لا يسلم حتى يسلم حيار الخطاب .

وهذا يدل على أن إسلام عمر تأخر إلى ما بعد البدء بالهجرة الأولى إلى الحبشة .

١٠٣ - * روى الطبراني عن عروة في تسمية الذين خرجوا إلى الحبشة المرة الأولى قبل

١٠٢ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٣ / ٦) : رواه الطبراني وقد صرح ابن إسحاق بالسماع فهو صحيح .

١٠٣ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٣ / ٦) : رواه الطبراني في الكبير بلين وإرسال . قلت : وإنما ذكرناه ليتعرف القارئ على أسماء بعض من خرج في الهجرة الأولى .

خروج جعفر وأصحابه : الزبير بن العوام ، سهل بن بيضاء ، عامر بن ربيعة ، عبد الله بن مسعود ، عبد الرحمن بن عوف ، عثمان بن عفان ، مع امرأته رقية بنت النبي ﷺ ، عثمان ابن مظعون ، مصعب بن عمير ، أبو حذيفة بن عتبة ، مع امرأته سهلة بنت سهيل ، وولدت بالحبيشة محمد بن أبي حذيفة ، أبو سبرة بن أبي رهم ، مع امرأته أم كلثوم بنت سهيل ، أبو سلمة بن عبد الأسد ، مع امرأته أم سلمة .

١٠٤ - * روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سجد النبي ﷺ بالنجم ، وستجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس .

وراجت على أثر هذا السجود شائعة أن قريشاً ومن معها أسلم فرجع بعض المهاجرين فوجدوا الأمر على غير ما شاع فرجع بعضهم ودخل بعضهم مستخفياً أو بجوار .

١٠٥ - * روى الطبراني والبخاري عن عمير بن إسحاق قال : قال جعفر : يا رسول الله ائذن لي أن أتي أرضاً يعبد الله فيها لا أخاف أحداً ، قال : فأذن له فيها ، فأتى النجاشي .

قال عمير : حدثني عمرو بن العاص قال : لما رأيت جعفر وأصحابه آمنين بأرض الحبشة حسدته قلت : لا تستقبلن لهذا وأصحابه فأتيت النجاشي فقلت : ائذن لعمر بن العاص ، فأذن لي ، فدخلت فقلت : إن بأرضنا ابن عم لهذا يزعم أنه ليس للناس إلا إله واحد وإننا والله إن لم ترحنا منه وأصحابه لاقطعت إليك هذه النطفة ولا أحد من أصحابي أبداً ، فقال : وأين هو ؟ قلت : إنه يجيء مع رسولك إنه لا يجيء معي ، فأرسل معي رسولا فوجدناه قاعداً بين أصحابه ، فدعاه فجاء ، فلما أتيت الباب ناديت ائذن لعمر بن العاص ، ونادى خلفي ائذن لحزب الله عز وجل فسمع صوته فأذن له قبلي ، فدخل ودخلت ، وإذا النجاشي على السرير قال : فذهبت حتى قعدت بين يديه وجعلته خلفي وجعلت بين كل رجلين من أصحابه رجلاً من أصحابي .

١٠٤ - البخاري (٦١٤ / ٨) - ٦٥ - كتاب التفسير (٥٢) سورة النجم - ٤ - باب ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ .

١٠٥ - قال الميثقي في جمع الروائد (٢٩ / ٦) : رواه الطبراني والبخاري وصدر الحديث في أوله له ، وزاد في آخره قال : ثم كنت بعد من الذين أقبلوا في السفن مسلمين . وعمير بن إسحاق وثقه ابن حبان وغيره وفيه كلام لا يضر ، وبقيته رجاله رجال الصحيح ، وروى أبو يعلى بعضه ثم قال : فذكر الحديث بطوله . وانظر كشف الأستار : ٢ / ٢٩٧ .
المنطقة : الماء الصافي قل أو أكثر ، والمراد به هنا ماء بحر جدّة . القشرة : اللباس .

فقال النجاشي: نَجْرُوا . قال عمرو: يعني تكلموا . قلتُ: إنَّ بأرضك رجلاً ابنُ عمه بأرضنا ويزعمُ أنه ليس للناس إلا إله واحدٌ ، وإنَّكَ إن لم تقطعه وأصحابه لا أقطعُ إليك هذه النُطفة أنا ولا أحدٌ من أصحابي أبداً ، قال جعفر: صدق ابنُ عمي وأنا على دينه ، قال: فصاح صيحا وقال: أوهِ ، حتى قلتُ: ما لابن الحبشية لا يتكلمُ ؟ وقال: أنا موسَى كَنَامُوسِ موسى ؟ .

قال: ما تقولون في عيسى بن مريمَ ؟ قال: أقولُ هو روحُ الله وكلمته . قال: فتناول شيئاً من الأرض ، فقال: ما أخطأ في أمره مثل هذا ، فوالله لولا ملكي لا تبغضنكم وقال لي: ما كنتُ أبالي أن لا تأتييني أنت ولا أحدٌ من أصحابك أبداً ، أنت آمن بأرضي ، من ضربك قتلته ، ومن سبك غرثته ، وقال لآذنه: متى استأذنتك هذا فإذن له إلا أن أكون عند أهلي فإن أبي إلا أن تأذن له فأذن له .

قال: فتفرقنا ولم يكن أحدٌ أحبَّ إليَّ أن ألقاه من جعفر ، قال: فاستقبلني من طريق مرة فنظرتُ خلفه فلم أرَ أحداً ، فنظرتُ خلفي فلم أرَ أحداً فدنوتُ منه وقلتُ: أعلمُ أنني أشهدُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، قال: فقد هداك الله فأنبت ، فتركني وذهب ، فأتيت أصحابي فكأننا شهدوه معي ، فأخذوا قطيفة أو ثوباً فجعلوه عليّ حتى غموني بها قال ، وجعلتُ أخرجُ رأسي من هذه الناحية مرةً ومن هذه الناحية مرةً حتى أنفدتُ وما علي قشرة ، فررتُ على حبشية فأخذتُ قناعها فجعلته على عورتِي ، فأتيت جعفرأ فدخلتُ عليه فقال: ما لك ؟ فقلتُ: أخذ كلُّ شيءٍ لي ما ترك علي قشرة فأتيت حبشية فأخذتُ قناعها فجعلته على عورتِي ، فانطلق وانطلقت معه حتى أتى إلى باب الملك ، فقال جعفر لآذنه: استأذن لي ، قال: إنَّه عند أهله فأذن له فقلتُ: إنَّ عمرأ تابعني على ديني ، قال: كلاً ، قلتُ: بلى ، فقال لإنسان: اذهب معاً فإن فعل فلا تقل شيئاً إلا كتبته ، قال: فجاء فقال: نعم ، فجعلتُ أقولُ وجعل يكتب حتى كتبت كلَّ شيءٍ حتى القَدَح ، قال: ولو شئتُ أخذتُ شيئاً من أموالهم إلى مالي ففعلتُ .

١٠٦ - * روى الطبراني عن ابن شهاب في تسمية من هاجر إلى أرض الحبشة فأقام بها

حَتَّى قَدِمَ بَعْدَ بَدْرٍ : شُرْحِيلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنَةَ وَهِيَ أُمُّهُ .

١٠٧ - * روى الطبراني عن أبي موسى ، قال : أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَنْطَلِقَ مَعَ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ إِلَى النَّجَاشِيِّ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشًا فَبَعَثُوا عَمْرَوَ بْنَ الْعَاصِ وَعُمَارَةَ بْنَ الْوَلِيدِ وَجَمْعًا لِلنَّجَاشِيِّ هَدِيَّةً ، وَقَدِمَا عَلَى النَّجَاشِيِّ فَأَتِيَاهُ بِالْهَدِيَّةِ فَقَبِلَهَا وَسَجَدَا لَهُ ، ثُمَّ قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ : إِنَّ نَاسًا مِنْ أَرْضِنَا رَغِبُوا عَنْ دِينِنَا وَهُمْ فِي أَرْضِكَ ، فَقَالَ لَهُمُ النَّجَاشِيُّ : فِي أَرْضِي ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، فَبَعَثَ إِلَيْنَا ، فَقَالَ لَنَا جَعْفَرٌ : لَا يَتَكَلَّمُ مِنْكُمْ أَحَدٌ أَنَا خَطِيْبُكُمْ الْيَوْمَ ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى النَّجَاشِيِّ وَهُوَ جَالِسٌ فِي مَجْلِسٍ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَنْ يَمِينِهِ وَعُمَارَةُ عَنْ يَسَارِهِ ، وَالْقَسِيسُونَ وَالرَّهْبَانُ جُلُوسٌ سَمَاطِينَ وَقَدْ قَالَ لَهُ عَمْرُو وَعُمَارَةُ إِنَّهُمْ لَا يَسْجُدُونَ لَكَ ، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا بَدَرْنَا مِنْ عِنْدِهِ مِنَ الْقَسِيسِينَ وَالرَّهْبَانِ : اسْجُدُوا لِلْمَلِكِ .

فَقَالَ جَعْفَرٌ : إِنَّا لَا نَسْجُدُ إِلَّا لِلَّهِ ، قَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ إِلَيْنَا رَسُولًا وَهُوَ الرَّسُولُ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ تَبْعِهِ اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَأَمَرَنَا أَنْ نَقِيمَ الصَّلَاةَ وَأَنْ نُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَأَمَرَنَا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَأَعْجَبَ النَّجَاشِيُّ قَوْلَهُ ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ عَمْرُو قَالَ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْمَلِكُ إِنَّهُمْ يُخَالِفُونَكَ فِي ابْنِ مَرْيَمَ ، فَقَالَ النَّجَاشِيُّ : مَا يَقُولُ صَاحِبُكُمْ فِي ابْنِ مَرْيَمَ ؟ قَالَ : يَقُولُ فِيهِ قَوْلُ اللَّهِ هُوَ رَوْحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَخْرَجَهُ مِنَ الْعِذْرَاءِ الْبَتُولِ الَّتِي لَمْ يَقْرَبْهَا بَشَرٌ وَلَمْ يَفْتَرِضْهَا وَلَدٌ . فَتَنَاولَ النَّجَاشِيُّ عُودًا مِنَ الْأَرْضِ فَرَفَعَهُ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْقَسِيسِينَ وَالرَّهْبَانِ مَا يَزِيدُ هَؤُلَاءِ عَلَى مَا تَقُولُونَ فِي ابْنِ مَرْيَمَ مَا يَزِنُ هَذِهِ ، مَرْحَبًا بِكُمْ وَبِمَنْ جِئْتُمْ مِنْ عِنْدِهِ أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَّهُ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِيسَى وَلَوْلَا مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْمَلِكِ لَأَتَيْتُهُ حَتَّى أَقْبَلَ نَعْلَيْهِ ، امْكُثُوا فِي أَرْضِي مَا شِئْتُمْ ، وَأَمْرٌ لَنَا بِطَعَامٍ وَكِسْوَةٍ ، وَقَالَ : رُدُّوا عَلَى هَذَيْنِ هَدِيَّتَهُمَا .

وكان عمرو بن العاص رجلاً قصيراً وكان عُمَارَةُ رجلاً جميلاً وكانَا أَقْبَلَا إِلَى النَّجَاشِيِّ فَشَرِبُوا يَعْنِي خَمَرًا وَمَعَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ امْرَأَتُهُ ، فَلَمَّا شَرِبُوا مِنَ الْخَمْرِ قَالَ عُمَارَةُ لِعَمْرُو :

١٠٧ - قال الميثقي في مجمع الزوائد (٦ / ٢٠) : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح .

سماطين : السَّاطِط : الصف يقال مشى بين سمطين : أي بين صفين . لم يفترضها : لم يؤثر فيها ولم يجرها أي قبل المسيح عليه السلام . طار مع الوحش : جَنَ وسار مع الوحوش .

مُرَّامْرَاتِكَ فَلْتَقْبَلْنِي . فقال له عَمْرُو : أَلَا تَسْتَحْيِي ؟ فَأَخَذَ عَمْرُو فَرَمَى بِهِ فِي الْبَحْرِ فَجَعَلَ عَمْرُو يُنَاشِدُ عَمْرَةَ حَتَّى أَذْخَلَهُ السَّفِينَةَ ، فَحَقَدَ عَمْرُو عَلَى ذَلِكَ ، فقال عَمْرُو لِلنَّجَاشِيِّ : إِنَّكَ إِذَا خَرَجْتَ خَلْفَكَ عَمْرَةَ فِي أَهْلِكَ . فدعا النجاشي عَمْرَةَ . فنَفَخَ فِي إِخْلِيلِهِ فَطَارَ مَعَ الْوَحْشِ .

١٠٨ - * روى أحمد عن أم سلمة ابنة أمية بن المغيرة زوج النبي ﷺ ، قالت : لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جارٍ النجاشي أمنا على ديننا وعبدنا الله ، لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه ، فلما بلغ ذلك قُريشاً ائتمروا أن يَبْعَثُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ فِينَا رَجُلَيْنِ جَلِيدَيْنِ ، وَأَنْ يَهْدُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَا مِمَّا يُسْتَطَرَفُ مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ ، وكان أعجب ما يَأْتِيهِ مِنْهَا الْأَدَمُ فَجَمَعُوا لَهُ أَدَمًا كَثِيرًا ، ولم يتركوا مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطَرِيقًا إِلَّا أَهْدَوْا لَهُ هَدِيَّةً ، ثم بَعَثُوا بِذَلِكَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَبِيعَةَ الْخَزْزَمِيِّ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ وَأَمْرُوهُمَا أَمْرَهُمْ ، وقالوا لهما : ادفعوا إِلَى كُلِّ بَطَرِيقٍ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ تَكَلَّمُوا النَّجَاشِيَّ فِيهِمْ ، ثُمَّ قَدَّمُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَاهُ ، ثم سلوه أَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْكُمْ قَبْلَ أَنْ يَكَلِّمَهُمْ .

قالت : فَخَرَجَا فَقَدِمَا عَلَى النَّجَاشِيِّ ، وَنَحْنُ عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ ، وَعِنْدَ خَيْرِ جَارٍ ، فلم يبقَ مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطَرِيقٍ إِلَّا دَفَعَا إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يَكَلِّمَاهُ النَّجَاشِيَّ ، ثم قالوا لكل بطريق منهم : إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَى بَلَدِ الْمَلِكِ مِنْ غِلْمَانٍ سَفَهَاءَ ، فَارْقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدِعٍ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتُمْ ، وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَى الْمَلِكِ فِيهِمْ أَشْرَافَ قَوْمِهِمْ لَتَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ ، فَإِذَا كَلَّمْنَا الْمَلِكَ فِيهِمْ فَتَشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْنَا وَلَا يَكَلِّمَهُمْ ، فَإِنْ قَوْمِهِمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا وَأَعْلَمَ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ ، فَقَالُوا لَهَا : نَعَمْ . ثُمَّ قَرَّبَا هَدَايَاهُمْ إِلَى النَّجَاشِيِّ فَقَبِلَهَا مِنْهَا ، ثُمَّ كَلَّمَاهُ فَقَالَا لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ قَدْ صَبَا إِلَى بَلَدِكَ مِنْ غِلْمَانٍ سَفَهَاءَ ، فَارْقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدِعٍ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ ، وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَيْكَ فِيهِمْ أَشْرَافَ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ لَتَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ ، فَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وَعَاتَبُوهُمْ فِيهِ . قالت : وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَعَمْرُو بْنِ

١٠٨ - أحمد في مسنده (٢٠١ / ١) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧ / ٦) : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسمع .

البطريق : الحاذق بالحرب وأمورها بلغة الروم وهو ذو منصب عندهم .

العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم ، فقالت بطارقة حولة : صدقوا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليها فليرداهم إلى بلادهم وقومهم .

فغضب النجاشي ثم قال : لا ها الله أيم الله ، إذا لا أسلمهم إليها ، ولا أكاد قوما جاوروني ونزلوا بلادني واختاروني على من سواي ، حتى أذعوه فأسألم ما يقول هذا في أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعته منهن وأحسنت جوارهم ما جاوروني .

قال : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض ، ما تقولون للرجل إذا جئتموه ، قالوا : تقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ كائن في ذلك ما هو كائن ، فلما جاءوه وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله ، سألم فقال : ما هذا الدين الذي قد فارقت فيه قومكم ، ولم تدخلوا في ديني ، ولا في دين أحد من هذه الأمة ؟ .

قالت : فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال : أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية : نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآبائنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وشهادة الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشارك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . قال : فعدت عليه أمور الإسلام ، فصدقناه وأمانا به واتبعناه على ما جاء به فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا ، وحرمتنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وقتلونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله عز وجل ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الحبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك .

قالت : فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ قالت : فقال له

وَأَنْتَظِمُ .
خَضِرَاءَهُمْ : أَصْلُهُمُ الَّذِي مِنْهُ تَفَرَّعُوا . تَنَاضَرَتْ : تَخَرَّجَتْ يَخْرُجُ نَخْرًا : مَدَّ الصَّوْتُ فِي خِيَاشِمِهِ . اسْتَوْسَقَ : اتَّسَقَ

قالت : فوالله ما علمنا حُزناً قطُّ كان أشدَّ من حُزْنِ حَزَنَاهُ عِنْدَ ذَلِكَ تَخَوْفاً أَنْ يَظْهَرَ ذلكَ على النَّجَاشِيِّ فَيَأْتِي رَجُلٌ لَا يَعْرِفُ مِنْ حَقِّنا ما كانَ النَّجَاشِيُّ يَعْرِفُهُ مِنْهُ . وقالت : وسارَ النَّجَاشِيُّ وبينهما عرضُ النِّيلِ . قالت : فقال أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ حَتَّى يَحْضَرَ الْقَوْمَ ثُمَّ يَأْتِينَا بِالْخَبَرِ . قالت : فقال الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ : أنا . قلت : وكان من أحدثِ القومِ سنأ ، قالت : فَتَفَخَّخُوا لَهُ قِرْبَةً فَجَعَلُوا فِي صَدْرِهِ ثُمَّ سَبَحَ عَلَيْهَا حَتَّى خَرَجَ إِلَى نَاحِيَةِ النِّيلِ الَّتِي يَهَا مُلْتَقَى الْقَوْمِ ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى حَضَرَهُمْ ، قالت : ودَعَوْنَا اللهَ لِلنَّجَاشِيِّ بِالظُّهُورِ عَلَى عَدُوِّهِ وَالتَّكِينِ لَهُ فِي بِلَادِهِ ، وَاسْتَوْسَقَ عَلَيْهِ أَمْرُ الْحَبَشَةِ فَكُنَّا عَنْدهُ فِي خَيْرِ مَنْزِلٍ حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِمَكَّةَ .

* * *

دروس من الهجرة إلى الحبشة :

١ - هناك ناس يعتبرون مجرد التفكير في أمن الدعوة ورجالها ونسائها علامة ضعف ، ويعتبرون البحث عن الأمن والأمان جريمة ، وهذا تفكير ناس قطع الله قلوبهم عن أن تستشعر حاجات الإنسان ، نعم لا يصح أن يكون البحث عن الأمن والأمان على حساب الدعوة إلا في الحدود التي رخص فيها الإسلام ، والرخصة في محلها طيبة ، فهذا عمار بن ياسر قال كلمة الكفر تحت التعذيب ، وهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ هاجروا إلى الحبشة بحثاً عن الأمن والأمان ، والعبرة في النهاية لإذن القيادة الراشدة ولحسن تقديرها .

٢ - لقد هاجر أصحاب رسول الله ﷺ إلى قَطْرِ كَافِرٍ فِيهِ عَدَالَةٌ وَحُرِيَّةٌ يَسْتَطِيعُونَ مِنْ خِلَالِهَا أَنْ يَأْمَنُوا وَأَنْ يَقْبِهُوا شَعَائِرَ الْإِسْلَامِ ، وَهَذَا يَفْتَحُ أَمَانَنَا آفَاقاً وَاسِعَةً فِي الْعَمَلِ وَالْحُرْكَةِ ، فَهَنَّاكَ بِلْدَانٍ فِي الْعَالَمِ تَسْمَحُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَقِيمَ شَعَائِرَهُ الدِّينِيَّةَ وَتُعَامِلَهُ كَمَا تُعَامِلُ أَبْنَاءَهُ فِي الْحَقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ ، مِثْلَ هَذِهِ الْبِلْدَانِ تَصْلُحُ لِلتَّفَكُّيرِ فِيهَا إِذَا مَا اضْطَهَدَ الْمُسْلِمُ فِي بِلَدِهِ بَلْ تَصْلُحُ لِلْإِقَامَةِ فِيهَا ، وَلَا حَرَجَ إِذَا مَا ضَمَّنَ الْمُسْلِمُ إِمْكَانِيَّةَ تَرْبِيَةِ أَسْرَتِهِ بَلْ قَالَ فَقَهَاءُ الشَّافِعِيَّةِ : لَوْ أَنَّ مُسْلِمًا اسْتَطَاعَ أَنْ يَظْهَرَ شَعَائِرَ الْإِسْلَامِ فِي دَارِ كُفْرٍ ، فَالْأَوَّلَى لَهُ الْبَقَاءُ لِأَنَّهُ بِذَلِكَ تَصْبِحُ دَارُهُ دَارَ إِسْلَامٍ فِي أَرْضِ كُفْرٍ ، وَالْمَسْأَلَةُ تَخْضَعُ فِي النِّهَايَةِ لِلْمُؤَازَنَاتِ بَيْنَ الْمَصَالِحِ

والأضرار كما تخضع للفتوى البصيرة من أهلها .

٣ - يلاحظ أن مهاجري الحبشة لم يكلفوا بأية مهام دعوية على أرض الحبشة ، وهذا يفتح أمامنا باباً واسعاً في آداب المسلم إذا ما اضطرته ظروفه إلى هجرة ، فإنه في هذه الحالة يسهل أن يلاحظ قوانين البلد الآخر وألا يتدخل في شؤونه الداخلية إلا بالقدر الذي يسمح به البلد الآخر ، والأمر واسع فهو يدور بين رخصة وعزيمة وللقيادة الراشدة دور في تحديد العمل المطلوب من المهاجرين على أن لا يقع غدر أو نكث أو خيانة من قبلنا ، ولئن كان رسول الله ﷺ لم يكلف جعفرأ وأصحابه بالدعوة فإن هناك روايات تفيد أن جعفرأ قد دعا واستجيب له .

٤ - من قصة النجاشي ابتداءً وانتهاءً نصل إلى قضية على غاية من الأهمية في العمل الحربي ، فالنجاشي أسلم في النهاية ، وبقي على رأس نظام له قوانين غير إسلامية ، وقبل الرسول ﷺ ذلك منه وصلى عليه لما مات ، وهذا يفيد أن الحكم على نظام بالكفر لا يعني الحكم على كل فرد فيه بذلك ، بل قد يوجد نظام كافر ويحكم للرأس المدبر لهذا النظام بالإسلام ظاهراً وباطناً ، كما هو حال النجاشي .

٥ - نذكر بمناسبة الكلام عن الهجرة الأولى للحبشة حادثة سجود المشركين عندما سمعوا سورة « النجم » ويذكر في سياق ذلك حادثة الغرانيق من أن الشيطان أسمع المشركين تمجيداً من رسول الله ﷺ لأصنامهم أثناء تلاوته عليه الصلاة والسلام ، وتلك قصة باطلة لا أصل لها .

٦ - وفي حكم الهجرة قال الدكتور البوطي : أما الهجرة من دار الإسلام فحكمها بين الوجوب والجواز والحرمة : أما الوجوب فيكون عند عدم تمكن المسلم من القيام بالشعائر الإسلامية فيها كالصلاة والصيام والأذان والحج .. ، وأما الجواز فيكون عندما يصيبه فيها بلاء يضيق به ، فيجوز له أن يخرج منها إلى دار إسلامية أخرى ، وأما الحرمة فتكون عندما تستلزم هجرته إهمال واجب من الواجبات الإسلامية لا يقوم به غيره .

٧ - وقال الدكتور البوطي تعليقاً على حادثة الهجرة إلى الحبشة :

يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين إذا دعت الحاجة إلى ذلك سواء كان المجير من أهل الكتاب كالنجاشي - إذ كان نصرانياً عندئذ ولكنه أسلم بعد ذلك - ، أو كان مشركاً كأولئك الذين عاد المسلمون إلى مكة في حمايتهم عندما رجعوا من الحبشة ، وكأبي طالب عم الرسول ﷺ وكالمطعم بن عدي الذي دخل الرسول ﷺ مكة في حمايته عندما رجع من الطائف .

٨ - قال الدكتور السباعي رحمه الله : إن على الداعية إذا وجد جماعته في خطر على حياتهم أو معتقداتهم من الفتنة ، أن يهيء لهم مكاناً يأمنون فيه من عدوان المبطلين ، ولا ينافي ذلك ما يجب على دعاة الحق من تضحية ، فإنهم إذا كانوا قلة استطاع المبطلون أن يقضوا عليهم قضاءً مبرماً ، فيتخلصوا من دعوتهم ، وفي وجودهم في مكان آمن ضمان لاستمرار الدعوة وانتشارها .

٩ - وقال : إن في أمر الرسول أصحابه أولاً وثانياً بالهجرة إلى الحبشة ، ما يدل على أن رابطة الدين بين المتدينين - ولو اختلفت دياناتهم - هي أقوى وأوثق من رابطتهم مع الوثنيين والملحدين .

١٠ - وقال : إن المبطلين لا يستسلمون أمام أهل الحق بسهولة ويسر ، فهم كلما أخفقت لهم وسيلة من وسائل المقاومة والقضاء على دعوة الحق ، ابتكروا وسائل أخرى ، وهكذا حتى ينتصر الحق انتصاره النهائي ويلفظ الباطل أنفاسه الأخيرة .

* * *

فصل : في إسلام عمر وحمزة

١٠٩ - * روى الطبراني عن محمد بن كعب القرظي قال : كان إسلام حمزة رضي الله عنه حميةً وكان يخرج من الحرم فيصطاد فإذا رجع مر بمجلس قريش ، وكانوا يجلسون عند الصفا والمروة فيمر بهم فيقول : رميت كذا وكذا وصنعت كذا وكذا ثم ينطلق إلى منزله ، فأقبل من رميته ذات يوم فلقيته امرأة فقالت : يا أبا عمار ما ذا لقي ابن أخيك من أبي جهل بن هشام ؟ شتمه وتناوله وفعل وفعل ، فقال : هل رآه أحد ؟ قالت : أي والله لقد رآه ناس ، فأقبل حتى انتهى إلى ذلك المجلس عند الصفا والمروة ، فإذا هم جلوس وأبو جهل فيهم فاتكا على قوسه وقال : رميت كذا وفعلت كذا وكذا ، ثم جمع يديه بالقوس فضرب بها بين أذني أبي جهل فدفق سيتها ، ثم قال : خذها بالقوس وأخرى بالسيف ، أشهد أنه رسول الله ﷺ وأنه جاء بالحق من عند الله ، قالوا : يا أبا عمار إنه سب آل هنتا ، وإن كنت أنت وأنت أفضل منه ما أقرناك وذاك ، وما كنت يا أبا عمار فاحشاً .

١١٠ - * روى الترمذي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « اللهم أعز الإسلام بأبي جهل بن هشام ، أو بعمر » . قال : فأصبح ، فغدا عمر على رسول الله ﷺ فأسلم .

١١١ - * روى الطبراني عن ابن عباس قال : أول من جهر بالإسلام عمر بن الخطاب .

المراد بالجهر هنا التحدي ، وإلا فقد جهر قبله غيره .

١١٢ - * روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : مازلنا أعزة منذ أسلم عمر .

١٠٩ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١ / ٢٦٧) : رواه الطبراني مرسلًا ورجاله رجال الصحيح .

١١٠ - الترمذي (٥ / ٦١٧ ، ٦١٨) ٥٠ - كتاب المناقب - ١٨ - باب في مناقب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - . وهذا الحديث غريب من هذا الوجه ، وتشهد لهذه الرواية روايات أخرى صحيحة . فغدا : غدا عليه غدواً وغدوة - بالضم - واعتدى : بكر ، أي ذهب إليه مبكراً . والغدوة البكرة أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس .

١١١ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١ / ٦٢) : رواه الطبراني وإسناده حسن .

١١٢ - البخاري (٧ / ٤١) - ٦٢ - كتاب فضائل الصحابة - ٦ - باب مناقب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - .

١١٣ - * روى الطبراني عن عبد الله بن مسعود قال : إن كان إسلامُ عمرَ لفتحاً ، وهجرته لنصراً ، وإمارته رحمةً ، والله ما استطعنا أن نصليَ حول البيتِ ظاهرين حتى أسلم عمر .

١١٤ - * روى الحاكم عن عثمان بن عبد الله بن الأرقم عن جده الأرقم ، وكان بدرياً ، وكان رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أوى في دارِهِ عند الصفا حتى تكاملوا أربعين رجلاً مسلمين وكان آخرهم إسلاماً عمر بن الخطاب رضي الله عنهم ، فلما كانوا أربعين خرجوا إلى المشركين . قال الأرقم : فجئت رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم لأودعه وأردتُ الخروجَ إلى بيتِ المقدس ، فقال لي رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أين تريدُ ؟ » قلت : بيتُ المقدس . قال : « وما يخرجكَ إليه أفي تجارة ؟ » قلت : لا ولكن أصلي فيه ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم : « صلاةٌ ها هنا خيرٌ من ألفِ صلاةٍ » .

ذكر رقم الأربعين هنا يحتل أنهم تكاملوا أربعين بعد هجرة من هاجر إلى الحبشة لأن الذين هاجروا إلى الحبشة الهجرة الثانية أكثر من ثمانين ، أو نقول : إن الثمانين لم يهاجروا دفعة واحدة فالمسلمون تزايدوا بعد إسلام عمر وقسم منهم هاجر فزاد رقم المهاجرين على الثمانين وهذا الذي نرجحه ، فيكون عمر هو الموفي على العدد الأربعين وهي حصيلة عمل خمس سنين من الدعوة ، وفي هذا درس للمتعجلين .

١١٥ - * روى البخاري عن زيد بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال : بينما هو في الدار خائفاً ، إذ جاءه العاص بن وائل السهمي أبو عمرو عليه حُلَّةٌ حَبْرٍ وقيصٌ مكفوفٌ بحري ، وهو من بني سهم ، وهم حلفاؤنا في الجاهلية ، فقال : ما بآلك ؟ قال : زعم قومك أنهم سيقتلوني إن أسلمتُ ، قال : لا سبيلَ إليك - بعد أن قالها أمنتُ - فخرج العاص ، فلقي

١١٣ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١ / ٦٢) : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ، إلا أن القاسم لم يدرك جده ابن مسعود . المعجم الكبير (١ / ١٧٨) .

١١٤ - المستدرک (٢ / ٥٠٤) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي :

١١٥ - البخاري (٧ / ١٧٧) ٦٢ - كتاب مناقب الأنصار - ٢٥ - باب : إسلام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه .
الحيرة : بُرد يمانِي ، والجمع : حَبْرٌ وحبرات . الخلفاء : جمع حليف ، وهو الذي يحلف لك وتحلف له على التعاضد والتناصر . لا سبيلَ إليك : أي لن يقربك أحد بسوء . صباً : صباً فلان إذا خرج من دين إلى دين غيره . كر =

النَّاسَ قَدْ سَأَلَ الْوَادِي ، فَقَالَ : أَيْنَ تُرِيدُونَ ؟ قَالُوا : نُرِيدُ هَذَا ابْنَ الْخُطَابِ الَّذِي صَبَأَ ، قَالَ : لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ . فَكَّرَ النَّاسُ .

وفي رواية قال : لما أَسْلَمَ عُمَرُ اجْتَمَعَ النَّاسُ عِنْدَ دَارِهِ ، وَقَالُوا : صَبَأَ عُمَرُ - وَأَنَا غُلَامٌ فَوْقَ ظَهْرِ بَيْتِي - فَجَاءَ رَجُلٌ عَلَيْهِ قَبَاءٌ مِنْ دِيْبَاجٍ ، فَقَالَ : قَدْ صَبَأَ عُمَرُ ، فَمَا ذَاكَ ؟ فَأَنَا لَهُ جَارٌ ، فَرَأَيْتُ النَّاسَ تَصْدَعُونَ عَنْهُ ، فَقُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا : الْعَاصُ بْنُ وَائِلٍ .

١١٦ - * رَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنْ عَمْرٍأَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَا أَدْعُ مَجْلِسًا جَلَسْتُ فِي الْكُفْرِ إِلَّا أَعْلَنْتُ فِيهِ الْإِسْلَامَ ، فَأَتَى الْمَسْجِدَ وَفِيهِ بَطُونٌ قَرِيشٍ مُتَحَلِّقَةٌ فَجَعَلَ يَعْلَنُ الْإِسْلَامَ وَيَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ . فَتَنَزَّ الْمُشْرِكُونَ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ وَيَضْرِبُهُمْ . فَلَمَّا تَكَاثَرُوا عَلَيْهِ خَلَصَهُ رَجُلٌ فَقُلْتُ لِعَمْرٍأَ : مَنْ الرَّجُلُ الَّذِي خَلَصَكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ؟ قَالَ : ذَاكَ الْعَاصُ بْنُ وَائِلٍ السَّهْمِيُّ .

* * *

دروس من إسلام عمر وحمزة :

إن معرفة الرجال وإدراك مزاياهم والاستفادة من كفاءاتهم شيء لا يلحق به أحدٌ من الناس رسولنا عليه الصلاة والسلام وفي قصة عمر غوذج ، والقائد الذي لا يدرك مزية الرجال ويحسن الاستفادة من قوة القوي منهم قائد فاشل وضائع .

ولقد عزَّ الإسلام بعمر من حيث إنه حمل هذا الدين جبهة وتحدي به وصارع من أجله - دون قتال - ومن ههنا نعرف أن مجرد إظهار الدعوة والوقوف بقوة معها والثبات على ذلك يعتبر نصراً للإسلام وأهله .

وبإسلام حمزة وعمر وجد وضع جديد في مكة ، وبخروج بعض الأصحاب إلى الحبشة

= الناس : رجموا . القباء : ثوب يلبس فوق الثياب . الديباج : نوع من الثياب يصنع من الإبرسم ، وهو أحسن أصناف الحرير . جار : أنا لفلان جار ، أي : حام ، وفلان في جوارِي : في حِمَاي وحفطي . تصدعوا عنه : أي تفرقوا عنه .

١١٦ - قال في الجمع (١ / ٦٥) : رواه الطَّبْرَانِيُّ وَرِجَالَهُ ثَقَاتٌ .

زادت أضغان المشركين ، ولكن أبا طالب كان يحمي رسول الله ﷺ ، وهذا كله دعا قريشاً لأن تفكر وتعمل الحيلة ، فهداها شيطانها إلى فكرة المقاطعة لرسول الله ﷺ وأصحابه ومن يتعاطف معهم مما ألجأ رسول الله ﷺ وأصحابه وأبا طالب وبنو هاشم وبنو المطلب ما عدا أبا لهب إلى الدخول في شعب أبي طالب لمواجهة الحصار الاقتصادي والاجتماعي مجتمعين ، وكانت محنة جديدة استمرت ثلاث سنين ، أنهك فيها أبو طالب وخديجة فتوفيا على إثرها ، وههنا ازدادت المحنة وبدأت قريش بالإيذاء المباشر لرسول الله ﷺ ، فكان من آثار ذلك أن قرر رسول الله الرحلة إلى الطائف للدعوة هناك ، فوقفت منه ثقيف موقفاً هوشراً من موقف قريش فعاد إلى مكة ودخلها بحماية المطعم بن عدي .

وخلال هذه الأحداث كلها كانت الدعوة مستمرة ، والتبليغ قائماً على قدم وساق ، وفتح آخر الأمر الطريق إلى المدينة بدخول الإسلام إلى أهلها على مدار ثلاث سنوات متوالية حدثت خلالها حادثة الإسراء والمعراج كمقدمة لميلاد الدولة الإسلامية في المدينة المنورة ، ثم كان آخر الأمر الهجرة إلى المدينة .

* * *

فصل : في حصار الشعب

بدأ حصار الشعب في السنة السابعة للبعثة ، واستمر ثلاث سنوات وانتهى على القول الراجح في الحرم من السنة العاشرة . تعاقدت قريش على بني هاشم وبني المطلب ألا يناكحهم ولا يبايعهم ولا يجالسهم ولا يخالطهم ولا يدخلوا بيوتهم ولا يكسومهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ للقتل ، وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق أن لا يقبلوا من بني هاشم صلحاً أبداً ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموه للقتل ، وكتبوا هذا في صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة فأنحاز بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافهم إلا أبا لهب إلى شعب أبي طالب ليلة هلال الحرم سنة سبع من البعثة ، واشتد الحصار وقطعت عنهم الميرة والمادة حتى بلغهم الجهد والتجأوا إلى أكل الأوراق والجلود ، وحتى كان يسمع من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم يتضاغون من الجوع ، وكان لا يصل إليهم شيء إلا سراً ولا يشترطون حوائج إلا في الأشهر الحرم أو مما يرد إلى مكة من خارجها ، ومع ذلك كانت قريش تزيد عليهم في السعر ، ثم تحركت عواطف أهل النخوة والأريحية فأبطلوا الصحيفة ، ولما أرادوا تمزيقها وجدوا الأرض أكلتها إلا قولهم (باسمك اللهم) . وكان رسول الله ﷺ قد أخبر عنه بذلك فكانت معجزة ، وقد ذكر البخاري حادثتين أشار فيها رسول الله ﷺ إلى تقاسم المشركين على كفرهم هذا في خيف^(١) بني كنانة مرة بمناسبة غزوة حنين ومرة بمناسبة الحج ، وكتب السيرة طافحة بأخبار هذا الحصار ومآسيه ، وقد ذكره البخاري في صحيحه مرتين وها نحن ننقل إحدى الروايتين وننقل ما ذكره ابن حجر بمناسبة إحداها :

١١٧ - * روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : من الغد يوم النحر وهو بمنى : « نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر » يعني بذلك الحصب ، وذلك أن قريشاً وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني عبد المطلب - أو بني المطلب - أن لا يناكحهم ولا يبايعهم حتى يسلموا إليهم النبي ﷺ . وقال سلامة عن

(١) خيف : الحيف : الناحية أو ما المحذر من غلظ الجبل وارتفع عن مسب مسيل الماء وبها سمي مسجد الحيف أو لأنها ناحية من منى .

١١٧ - البخاري (٢ / ٤٥٣) ٢٥ - كتاب الحج - ٤٥ - باب نزول النبي ﷺ مكة .

الحصب : الشعب الذي مخرجه إلى الأبطح ، أو الحصب موضع رمي الجمار بمنى .

عَقِيل ويحيى بن الضحاكِ عن الأوزاعي : أَخْبَرَنِي ابْنُ شِهَابٍ وَقَالَا : بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ ، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بَنِي الْمُطَّلِبِ أَشْبَهُهُ .

قال ابن حجر : قال ابن إسحاق وموسى بن عقبة وغيرهما من أصحاب المغازي : لما رأت قريش أن الصحابة قد نزلوا أرضاً أصابوا بها أماناً وأن عمر أسلم وأن الإسلام فشا في القبائل ، أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله ﷺ ، فبلغ ذلك أبا طالب فجمع بني هاشم وبني المطلب فأدخلوا رسول الله ﷺ ومنعوه ممن أراد قتله ، فأجابوه إلى ذلك حتى كفارهم فعلوا ذلك حية على عادة الجاهلية ، فلما رأت قريش ذلك أجمعوا أن يكتبوا بينهم وبين بني هاشم والمطلب كتاباً أن لا يعاملوهم ولا يناكحوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ ، ففعلوا ذلك ، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة ، وكان كاتبها منصور بن عكرمة بن عامر ابن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي فَشَلَّتْ أَصَابِعُهُ ، ويقال إن الذي كتبها النضر ابن الحارث ، وقيل طلحة بن أبي طلحة العبدي ، قال ابن إسحاق : فأنحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب فكانوا معه كلهم إلا أبا لهب فكان مع قريش ، وقيل كان ابتداء حصرهم في الحرم سنة سبع من البعثة ، قال ابن إسحاق : فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً ، وجزم موسى بن عقبة بأنها كانت ثلاث سنين حتى جهدوا ولم يكن يأتهم شيء من الأقوات إلا خفية ، حتى كانوا يؤذون من اطلعوا على أنه أرسل إلى بعض أقاربه شيئاً من الصلوات .

إلى أن قام في تقض الصحيفة نفر من أشدهم في ذلك صنيعاً هشام بن عمرو بن الحارث العامري ، وكانت أم أبيه تحت هاشم بن عبد مناف قبل أن يتزوجها جده ، فكان يصلهم وهم في الشعب ، ثم مشى إلى زهير بن أبي أمية وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب فكلمه في ذلك فوافقه ، ومشياً جميعاً إلى المطعم بن عدي وإلى زمعة بن الأسود فاجتمعوا على ذلك ، فلما جلسوا بالحجر تكلموا في ذلك وأنكروه وتواطئوا عليه فقال أبو جهل : هذا أمر قضى بليل . وفي آخر الأمر أخرجوا الصحيفة فزقوها وأبطلوا حكمها . وذكر ابن هشام أنهم وجدوا الأرضة قد أكلت جميع ما فيها إلا اسم الله تعالى . وأما ابن إسحاق وموسى بن عقبة وعروة فذكروا عكس ذلك أن الأرضة لم تدع اسماً لله تعالى إلا أكلته ، وبقي ما فيها من الظلم والقطيعة ، فالله أعلم .

وذكر الواقدي أن خروجهم من الشعب كان في سنة عشر من المبعث ، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين ، ومات أبو طالب بعد أن خرجوا بقليل . قال ابن إسحاق ومات هو وخديجة في عام واحد ، فنالت قريش من رسول الله ﷺ ما لم تكن تناله في حياة أبي طالب . ولما لم يثبت عند البخاري شيء من القصة اكتفى بإيراد حديث أبي هريرة لأن فيه دلالة على أصل القصة ، لأن الذي أورده أهل المغازي من ذلك كالشرح لقوله في الحديث : « تقاسموا على الكفر » .

* * *

درس من الحصار :

نلاحظ من خلال قصة الحصار أن مشركي بني هاشم وبني المطلب تضامنوا مع رسول الله ﷺ وحوله كأثر من أعراف الجاهلية ، ومن ههنا ومن غيره نأخذ أنه يسع المسلم أن يستفيد من قوانين الكفر فيما يخدم الدعوة على أن يكون ذلك مبنياً على فتوى صحيحة من أهلها .

إن حقوق الإنسان في عصرنا ضمان للمسلم ، والحرية الدينية في كثير من البلدان يستفاد منها ، وقوانين كثير من أقطار العالم تعطي للمسلمين فرصاً ، وعلى المسلمين أن يستفيدوا من ذلك وغيره من خلال موازنات دقيقة .

قال الدكتور البوطي بمناسبة حادثة الحصار :

والهم أن تعلم بأن حماية أقارب رسول الله ﷺ له ، لم تكن حماية للرسالة التي بعث بها ، وإنما كانت لشخصه من الغريب ، وإذا أمكن أن تستغل هذه الحماية من قبل المسلمين وسيلة من وسائل الجهاد والتغلب على الكافرين والرد لمكائدهم وعدوانهم فأنعم بذلك من جهد مشكور وسبيل ينتبهون إليها .

* * *

جزاء المقاطعة :

١١٨ - * روى مسلم عن مسروق بن الأجدع رحمه الله قال : كُنَّا عند عبد الله جلوساً - وهو مضطجع بيننا - فأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إنَّ قاصّاً عند أبواب كِنْدَةَ يَقْصُ ، ويزعم : أنَّ آيَةَ الدُّخَانِ تَحْيِيءُ فَتَأْخُذُ بِأَنْفَاسِ الْكُفَّارِ ، وَيَأْخُذُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهَا كَهَيْئَةِ الزُّكَّامِ ، فقال عبد الله وَجَلَسَ وهو غَضْبَانٌ : يا أيُّها الناس ، اتقوا الله ، من علم منكم شيئاً فليقلِّ بما يعلم ، ومن لا يعلم فليقلِّ : الله أعلم ، فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم : الله أعلم ، فإن الله تعالى قال لنبيه ﷺ : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ ^(١) . إنَّ رسول الله ﷺ لما رأى من الناس إذباراً قال : « اللهم سُبِّحْ كَسْبِعِ يُوسُفَ » .

وفي رواية للبخاري ^(٢) : أن رسول الله ﷺ لما رأى قريشاً استعصوا عليه ، فقال : « اللهم أعني عليهم بسبعٍ كَسْبِعِ يُوسُفَ » فأخذتهم السَّنةَ حَتَّى حَصَّتْ كُلُّ شَيْءٍ . حتى أكلوا الجلودَ والميتةَ ، وجعل يخرج من الأرضِ كهية الدُّخَانِ ، فأتاه أبو سفيان ، فقال : أي محمد ، إنَّ قومَكَ قد هلكوا ، فادْعُ الله أن يكشف عنهم فدعا ، ثم قال : « تعودُوا بعدَ هذا » ثم قرأ : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ حتى بلغ ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ ^(٣) . قال عبد الله : أفيُكشَفُ عنهم العذابُ يومَ القيامة ؟ قال : والبطشةُ الكبرى يومَ بدرٍ .

وفي رواية للبخاري ^(٤) قال : قال عبد الله : إنَّما كان هذا ، لأن قريشاً لما استعصوا على

١١٨ - مسلم (٤ / ٢١٥٥) ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - ٧ - باب الدخان .

سبع كسبع : أراد بالسبع : سبع سنين التي كانت في زمن النبي يوسف عليه السلام المجيدة التي ذكرها الله تعالى في القرآن . حَصَّتْ : حُلِقَتْ واستأصلت . قَطَعَتْ : القَطَطُ : احتباس المطر . المَهْدُ : بفتح الميم - المشقة . لضر : أي : تأمرني أن أستسقي الله لضر ، مع ما هم عليه من المعصية والإشراك به ؟ ! . الرفاهية . الدعة وسعة العيش .

(١) ص : ٨٦ :

(٢) البخاري (٨ / ٥٧٣) ٦٥ - كتاب التفسير (٤٤) سورة الدخان - ٥ - باب ﴿ ثُمَّ قَوْلُوا غَنَّةٌ ﴾ .

(٣) الدخان : ١٠ - ١٦ .

(٤) البخاري (٨ / ٥٧١) ٦٥ - كتاب التفسير - ٢ - باب : يفتي الناس هذا عذاب أليم .

النبي ﷺ ، دعا عليهم بسنين كسني يوسف فأصابهم قحطٌ وجهْدٌ ، حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظرُ إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ قَارُتِيبُ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال : فأتي رسول الله ﷺ ، فقيل : يا رسول الله ، استسقى الله لمُصْرُ ، فإنها قد هلكَتْ ، قال : « لِمُصْرُ ؟ إنك لجريءٌ » ، فاستسقى لهم ، فسقوا ، فنزلت ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ فلما أصابهم الرفاهية ، عادوا إلى حالهم ، حين أصابتهم الرفاهية ، فأنزل الله عز وجل ، ﴿ يَوْمَ تَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ قال : يعني يوم بدرٍ .

وفي رواية للبخاري ^(١) : فقيل له : إن كُشفنا عنهم ، عادوا ، فدعا ربه فكشف عنهم ، فعادوا ، فانتقم الله منهم يوم بدرٍ ، فذلك قوله : ﴿ قَارُتِيبُ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ .

وفي رواية الترمذي ^(٢) مثل الرواية الأولى إلى قوله : ﴿ قَارُتِيبُ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال أحد رواته : هذا كقوله : ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ ﴾ فهل يكشف عذاب الآخرة ؟ قد مضى البطشة واللزام والدخان ، وقال أحدهم : القمر ، وقال الآخر : الروم واللزام يعني : يوم بدرٍ .

وروى مسلم ^(٣) عن عبد الله قال : خمسٌ قد مضين : الدخان ، واللزام ، والروم ، والبطشة ، والقمر .

* * *

(١) البخاري (٥٧٢ / ٨) - كتاب التفسير (٤٤) سورة الدخان ، باب : ٢ .

(٢) الترمذي (٢٧٩ / ٥) - كتاب تفسير القرآن - ٤٦ - باب : ومن سورة الدخان . وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) مسلم (٢١٥٧ / ٤) - ٥٠ - كتاب المواقيع وأحكامهم - ٧ - باب الدخان .

فصل : في انشقاق القمر

ذكر البخاري انشقاق القمر بين إسلام عمر بن الخطاب وبين هجرة الحبشة ، وقد فهم من ذلك ابن حجر إشارة إلى أن حادثة انشقاق القمر كانت في تلك المرحلة قال :

جعل ابن إسحاق إسلام عمر بعد هجرة الحبشة ، ولم يذكر انشقاق القمر فاقتضى صنيع المؤلف أنه وقع في تلك الأيام ، وقد ذكر ابن إسحاق من وجه آخر أن إسلام عمر كان عقب هجرة الحبشة الأولى اهـ . وقد ذكر الألوسي في تفسيره بصيغة الجزم أن انشقاق القمر كان قبل الهجرة بنحو خمس سنين .

وبناء على قول الألوسي فإن انشقاق القمر كان بعد الهجرة الثانية إلى الحبشة وخلال حصار الشعب وإني أرجح ذلك ، فحصار الشعب كان أشد الحن ، وفي الحن تأتي التثبيات في الغالب ، ومعجزة انشقاق القمر كانت من أشد التثبيات .

١١٩ - * روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ : أن يُريهم آيةً ، فأراهم انشقاق القمر .
وفي أخرى : فأراهم القمر شَقِين^(١) .

وزاد الترمذي^(٢) : فنزلت : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ - إلى - ﴿ سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾^(٣) يقول : ذاهب .

١٢٠ - * روى مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : انشقَّ القمرُ على عهدِ رسولِ الله ﷺ بشَقَيْنٍ ، فقال رسول الله ﷺ : « أَشْهَدُوا » وفي أخرى : ونحنُ معه ، فقال

١١٩ - البخاري (٦ / ٢٣١) ٦١ - كتاب المناقب - ٢٧ - باب : سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر .
ومسلم (٤ / ٢١٥٩) ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - ٨ - باب : انشقاق القمر .

(١) البخاري (٧ / ١٨٢) ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار - ٣٦ - باب انشقاق القمر .

(٢) الترمذي (٥ / ٣٩٧) ٤٨ - كتاب تفسير القرآن - ٥٥ - باب : ومن سورة القمر . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) سورة القمر : ٢٠ ، ٢١ .

١٢٠ - مسلم (٤ / ٢١٥٨) ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - ٨ - باب : انشقاق القمر .

« اشْهَدُوا ، اشْهَدُوا » .

وفي أخرى قال : بينا نحن مع رسول الله ﷺ بمنى ، إذ انفلق القمر فلقطين ، فلقة وراء الجبل ، وفلقة دونه ، فقال لنا رسول الله ﷺ : « اشْهَدُوا » .

وللبخاري^(١) قال : وقال مسروق عن عبد الله (بمكة) وأخرج الترمذي مثله .

١٢١ - * روى مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، مثل حديث قبلة قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فلقطين ، فستر الجبل فلقة ، وكانت فلقة فوق الجبل ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم اشْهَدْ » .

١٢٢ - * روى البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : إن القمر انشق في زمن النبي ﷺ .

١٢٣ - * روى الترمذي عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : انشق القمر على عهد النبي ﷺ ، صار فرقتين على هذا الجبل ، وعلى هذا الجبل ، فقالوا : سحرنا محمد فقال بعضهم : لأن كان سحرنا ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم .

وزاد رزين : فكانوا يتلقون الركبان ، فيخبرونهم بأنهم قد رأوه فيكذبونهم .

أقول : وفي رواية أبي نعيم في الدلائل : فما قدم عليهم أحد إلا أخبرهم بذلك ، ذكره في الفتح .

لقد روى هذه الحادثة ابن مسعود وجبير بن مطعم وحذيفة ، قال ابن حجر : وهؤلاء شاهدوها . ورواها من صفار الصحابة عن كبارهم ابن عباس وأنس مما يدل على أن ذلك كان متداولاً يرويه الصغار عن الكبار .

١٢١ - مسلم (٢١٥٩ / ٤) - ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - ٨ - باب انشقاق القمر .

(١) البخاري : (٦ / ٦٣١) - ٦١ - كتاب المناقب - ٢ - باب : سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر .

ومسلم (٢١٥٩ / ٤) - ٥٠ - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - ٨ - باب : انشقاق القمر .

١٢٣ - الترمذي (٥ / ٣٩٨) - ٤٨ - كتاب تفسير القرآن - ٥٥ - باب : ومن سورة القمر . وقال : حديث حسن .

قال ابن عبد البر : قد روى هذا الحديث جماعة كثيرة من الصحابة ، وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين ، ثم نقله عنهم الجم الغفير إلى أن انتهى إلينا ، ويؤيد ذلك بالأية الكريمة ، فلم يبق لاستبعاد من استبعد وقوعه عذر .

وقال صاحب الفتح الرباني :

وهذا من المعجزات الكونية التي لم تسبق لنبي غير نبينا ﷺ . قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة .

قال : وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات .

وقال في التاريخ : وقد أجمع المسلمون على وقوع ذلك زمنه ، وجاءت بذلك الأحاديث المتواترة من طرق متعددة تفيد القطع عند من أحاط بها ونظر فيها ، وذكر كثيراً من الأحاديث وطرقها في التفسير والتاريخ ، أهـ .

وقال الخطابي : انشقاق القمر آية عظيمة لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء ، وذلك أنه ظهر في ملكوت السماء خارجاً من جملة طباع ما في هذا العالم المركب من الطبائع ، فليس مما يطمع في الوصول إليه بحيلة ، فلذلك صار البرهان به أظهر ، وقد أنكر ذلك بعضهم فقال : لو وقع ذلك لم يجوز أن يخفى أمره على عوام الناس لأنه أمر صدر عن حس ومشاهدة ، فالناس فيه شركاء والدواعي متوفرة على رؤية كل غريب ونقل ما لم يعهد ، فلو كان لذلك أصل لخلد في كتب أهل التسيير والتنجيم ، إذ لا يجوز إطباقهم على تركه وإغفاله مع جلالة شأنه ووضوح أمره . والجواب عن ذلك أن هذه القصة خرجت عن بقية الأمور التي ذكروها لأنه شيء طلبه خاص من الناس فوق ليلاً لأن القمر لا سلطان به بالنهار ، ومن شأن الليل أن يكون أكثر الناس فيه نياماً ومستكينين بالأبنية ، والبارز بالصحراء منهم إذا كان يقظان يحتمل أنه كان في ذلك الوقت مشغولاً بما يلهيه من سمر وغيره ، ومن المستبعد أن يقصدوا إلى مراصد مركز القمر ناظرين إليه لا يغفلون عنه ، فقد يجوز أنه وقع ولم يشعر به أكثر الناس ، وإنما رآه من تصدى لرؤيته من اقترح وقوعه ،

ولعل ذلك إنما كان في قدر اللحظة التي هي مدرك البصر . ثم أبدى حكمة بالغة في كون المعجزات المحمدية لم يبلغ شيء منها مبلغ التواتر الذي لا نزاع فيه إلا القرآن بما حاصله : إن معجزة كل نبي كانت إذا وقعت عامة أعقبت هلاك من كذب به من قومه للاشتراك في إدراكها بالحس ، والنبي ﷺ بعث رحمة فكانت معجزته التي تحدى بها عقلية ، فاختص بها القوم الذين بعث منهم لما أوتوه من فضل العقول وزيادة الأفهام ، ولو كان إدراكها عاماً لعوجل من كذب به كما عوجل من قبلهم . أه من الفتح .

أقول : لما كان هناك خلاف بين الأئمة في تواتر انشقاق القمر ، ولما كانت الآية ﴿ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ قابلة للتأويل الضعيف بمعنى أنه سينشق ، فإننا لا نحكم بكفر من أنكر الانشقاق ، لكنه إما ضال وإما فاسق لتكذيبه الأحاديث الصحيحة ، وعلى العموم فمثل هذا الإنكار دليل على مرض القلب .

* * *

فصل : الإيذاء مستمر والدعوة مستمرة

١٢٤ - * روى أحمد عن رجل من بني مالك بن كنانة قال : رأيت رسول الله ﷺ يسوق ذي الحجاز يتخللها يقول : « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » قال : وأبو جهل يحثي عليه التراب ويقول : لا يفرنكم هذا عن دينكم ، فإننا يريد لنتركوا آلهتكم ولنتركوا اللات والعزى ، وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ . قلنا : أنعت لنا رسول الله ﷺ ، قال : بين بردين أحمرين ، مربوع ، كثير اللحم ، حسن الوجه ، شديد سواد الشعر ، أبيض شديد البياض ، سابغ الشعر .

١٢٥ - * روى أحمد عن ربيعة بن عباد بن بني الدليل ، وكان جاهلياً قال : رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي الحجاز وهو يقول : « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » والناس مجتمعون عليه ووراءه رجل وضيء الوجه أحول ذو غديرتين يقول : إنه صابيء كاذب ، يتتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فذكروا لي نسب رسول الله ﷺ وقالوا لي : هذا عمه أبو لهب ، وفي رواية ورسول الله ﷺ يفر منه وهو يتبعه ، وفي رواية الناس منقصفون عليه ، فما رأيت أحداً يقول شيئاً وهو لا يسكت .

١٢٦ - * روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : كأي أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربته قومه فأدموه وهو يمسخ الدّم عن وجهه ، ويقول : « اللهم اغفر لقومي ، فإنهم لا يعلمون » .

١٢٧ - * روى الطبراني عن الحارث بن الحارث قال : قلت لأبي ما هذه الجماعة قال :

-
- ١٢٤ - أحمد في مسنده (٣٧٦ / ٥) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢ / ٦) : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .
يحيى : حثي عليه التراب : حثا في وجهه التراب : حاله عليه . يغوينكم : غوى : أمن في الضلال . اغواه : أضله وأغراه . مربوع : الربعة : الوسيط القائمة . سابغ : صبغ الشيء صبوغاً : تم وطال واتسع .
- ١٢٥ - أحمد في مسنده (٢٤١ / ٤) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢ / ٦) : رواه أحمد وابنه والطبراني في الكبير بنحوه والأوسط باختصار بأسانيد وأحد أسانيد عبد الله بن أحمد ثقات . المعجم الكبير (٦١ / ٥) .
منقصفون : أي متزاحون حتى يقصف بعضهم بعضاً ، من القصف : الكسر والدفع الشديد لفرط الزحام .
- ١٢٦ - البخاري (٥١٤ / ٦) ٦٠ - كتاب أحاديث الأنبياء ، باب : ٥٤ .
ومسلم (١٤١٧ / ٢) ٣٢ - كتاب الجهاد والسير - ٣٧ - باب : غزوة أحد .
- ١٢٧ - للمعجم الكبير (٣٦٨ / ٢) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢١ / ٦) : رواه الطبراني ورجاله ثقات .

هؤلاء القوم الذين اجتمعوا على صابئ لهم ، قال : فَنَزَلْنَا فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْإِيمَانِ ، وَهُمْ يَرُدُّونَ عَلَيْهِ وَيُؤْذِنُونَهُ حَتَّى اتَّصَفَ النَّهَارُ وَانْصَدَعَ النَّاسُ عَنْهُ ، أَقْبَلَتْ امْرَأَةٌ قَدْ بَدَأَ نَحْرُهَا تَحْمِلُ قَدْحًا وَمُنْدِيلًا فَتَتَنَاوَلُهُ مِنْهَا فَشَرِبَ وَتَوَضَّأَ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ : « يَا بَنِيَّةُ خَمْرِي عَلَيْكَ نَحْرُكَ وَلَا تَخَافِي عَلَى أَيْبِكَ » قُلْنَا : مَنْ هَذِهِ ؟ قَالُوا : هَذِهِ زَيْنَبُ بِنْتُهُ .

١٢٨ - * روى أبو داود عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهم - قال : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَغْرُسُ نَفْسَهُ عَلَى النَّاسِ فِي الْمَوْقِفِ ، فَقَالَ : « أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ ؟ فَإِنْ قُرِيشًا مَنَعُونِي أَنْ أُبْلَغَ كَلَامَ رَبِّي » .

١٢٩ - * روى الطبراني عن مدركة بن الحارث قال : حَجَجْتُ مَعَ أَبِي فَلَمَّا نَزَلْنَا مِنِّي إِذَا نَحْنُ بِجَمَاعَةٍ ، فَقُلْتُ لِأَبِي : مَا هَذِهِ الْجَمَاعَةُ ، قَالَ : هَذَا الصَّابِئُ ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا » .

لم ينقطع رسول الله ﷺ عن الدعوة أبداً منذ كُلفَ بها . وهذه نماذج : فلا الإيذاء لشخصه ولا لأهله ولا لأصحابه ولا المقاطعة أوقفته عن الدعوة ﷺ ، وقد وضعنا هذا الفصل بين فصل المقاطعة وفصل عام الحزن مع أنها متتابعان حتى لا يقع في خلد أحد أن الدعوة توقفت .

* * *

= صابئ : صبأ الرجل : ترك دينه ودان بآخر . انصدع : انشقق . وانصدع الصبح : أسفر . قدحاً : القدح : إناء يشرب به الماء أو النبيذ ونحوها . مخمري : التخمير : التغطية . محرك : نحر : الصدر أعلاه أو موضع القلادة .

١٢٨ - أبو داود (٢٣٤ / ٤) كتاب السنة - باب في القرآن .

والترمذي (١٨٤ / ٥) ٤٦ - كتاب فضائل القرآن ، ٢٤ - باب حدثنا محمد بن إسماعيل . وقال : حسن غريب صحيح .

وابن ماجه (٧٢ / ١) ١٢٠ - المقدمة - باب : فيما أنكرت الجهمية . وإسناده صحيح .

١٢٩ - للمعجم الكبير (٢٠ / ٢٤٢) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٢١) : رواه الطبراني ورجاله ثقات .

فصل : عام الحزن والشدة

انتهى حصار الشعب في الحرم من السنة العاشرة للبعثة وتوفي أبو طالب بعد ستة أشهر من ذلك أي في شهر رجب ، وقد جاوز الثمانين من عمره ، فلم يمض على خروجه من الشعب إلا أشهر معلومات حتى أصابه مرض الوفاة ثم توفي ، وبعد وفاته بشهرين على قول توفيت أم المؤمنين خديجة في شهر رمضان من السنة العاشرة للبعثة ولها خمس وستون سنة ورسول الله ﷺ إذ ذاك في الخمسين من عمره ، وحاولت قريش أن تأخذ من رسول الله شيئاً قبل وفاة أبي طالب فلم تفلح ، فلما توفي آذت رسول الله ﷺ كل الإيذاء ، ولعل أكثر روايات الإيذاء وقعت في هذه المرحلة مما اضطر رسول الله ﷺ للخروج إلى الطائف .

ويذهب الدكتور البوطي إلى أن حزن رسول الله ﷺ لم يكن على فراق عمه وزوجه بل لانسداد أبواب الدعوة أمامه ، ومع التسليم بالثاني فإنني لا أنفي الأول ، لأن رسول الله ﷺ كان أكمل الناس في كل شيء ، ومن ذلك أنه كان أكملهم عواطف ، وعاطفتا الوفاء والرحمة كانتا بارزتين عنده ، فإذا ما حزن على عمه وفاءً ، وعلى زوجته رحمة وفاءً ، فلا حرج في ذلك بل هو الكمال بعينه ، ونحن سنذكر في هذا الفصل بعض روايات الإيذاء لأنها مظنة أن تكون وقعت بعد وفاة أبي طالب ولكن ليس ذلك شرطاً فاقضى التنويه :

١٣٠ - * روى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مَرَضَ أَبُو طَالِبٍ فَجَاءَتْهُ قُرَيْشٌ ، وَجَاءَهُ النَّبِيُّ ﷺ - وَعِنْدَ أَبِي طَالِبٍ مَجْلِسُ رَجُلٍ - فَقَامَ أَبُو جَهْلٍ كِي مَبْنَعَةٍ وَشَكُوَةٍ إِلَى أَبِي طَالِبٍ ، فَقَالَ : يَا ابْنَ أَخِي ، مَا تُرِيدُ مِنْ قَوْمِكَ ؟ قَالَ : « أُرِيدُ مِنْهُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً ، تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ ، وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمُ الْعَجْمَ الْجَزِيَّةَ » . قَالَ : كَلِمَةً وَاحِدَةً ؟ قَالَ : « كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ ، قَالَ : يَا عَمَّ ، يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » . فَقَالُوا : إِلَهًا وَاحِدًا ؟ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ . إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ . قَالَ : فَزَلَّ فِيهِمُ الْقُرْآنُ : ﴿ هُوَ صَ وَالْقُرْآنُ ذِي الذِّكْرِ ﴾ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ * كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَحْنِمْهُمْ * بَلِ

١٣٠ - الترمذي (٣٦٥ / ٥) ٤٨ - كتاب تفسير القرآن - ٣٩ - باب ومن سورة « ص » . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن ١ هـ . والحاكم (٤٢٢ / ٢) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره وفي مسنده يحيى بن عمار لم يوثقه غير ابن حبان فلعل تحسينه لشواهده .

تدين : دان له بدین : إذا أطاعه ودخل تحت حكمه . الملة الآخرة : النصرانية . اختلاق : الاختلاق : الكذب .

وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿١﴾ .

١٣١ - * روى البخاري ومسلم عن المسيب بن حزن رضي الله عنه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة ، جاءه رسول الله ﷺ ، فوجدته أبا جهل ، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، فقال رسول الله ﷺ : « يا عم ، قل : لا إله إلا الله ، كلمة أشهد لك بها عند الله » ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب ، وأبي أن يقول : لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ : « أما والله ، لأستغفرنَّ لك ، ما لم أنه عنك » ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (٢) . وأنزل الله عز وجل في أبي طالب ، فقال لرسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (٣) .

١٣٢ - * روى الحاكم عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : مَا زِلْتُ قَرِيشَ كَاغَةً حَتَّى تُؤْفِيَ أَبُو طَالِبٍ .

١٣٣ - * روى أحمد (٢) عن عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : قلت له : ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابت من رسول الله ﷺ فيما كانت تظهر من عداوته ، قال : حَضَرْتُهُمْ وَقَدْ اجْتَمَعَ أَشْرَافُهُمْ يَوْمًا فِي الْحَجْرِ فَذَكَرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالُوا : مَا

(١) ص : ١ - ٧ .

١٣١ - البخاري (٨ / ٢٤١) ٦٥ - كتاب التفسير ١٦ - باب ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ ومسلم (١ / ٥٤) ١ - كتاب الإيمان (١) باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت . والنسائي (٤ / ٩٠) . كتاب الجنائز ، باب - النهي عن الاستغفار للمشركين .

(٢) التوبة : ١١٣ .

(٣) القصص : ٥٦ .

١٣٢ - المستدرک (٢ / ٦٢٢) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

كاغة : كع - يكد : وتكد : بالضم كمواعين وضعف .

١٣٣ - أحمد في مسنده (٢ / ٢١٨) وقال الميشتي في مجمع الزوائد (٦ / ١٦) : قلت : في الصحيح طرف منه ، رواه أحمد وقد صرح ابن إسحاق بالساع وبقية رجاله رجال الصحيح .

==

رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط ، سقه أحلامنا ، وشم أباءنا ، وعاب ديننا وفرق جماعتنا ، وسب آلتهنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ، أو كما قالوا .

قال : فبينما كذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى الركن ثم مر بهم طائفاً بالبيت ، فلما مر بهم غمزوه ببعض ما يقول قال : فعرفت ذلك في وجهه ثم مضى ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها فعرفت ذلك في وجهه ثم مضى ، فلما مر الثالثة فغمزوه بمثلها ، فقال : « أسمعون يا معشر قريش أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح » فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفوه بأحسن ما يجد من القول ، حتى إنه ليقول انصرف يا أبا القاسم انصرف راشداً فوالله ما كنت جهولاً ، قال : فانصرف رسول الله ﷺ .

حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتهم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه ، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه ، فبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، فأحاطوا به يقولون له : أنت الذي تقول كذا وكذا - لما كان يبلغهم عنه من عيب آلهم ودينهم - قال : فيقول رسول الله ﷺ : « نعم أنا الذي أقول ذلك » قال : فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بجميع ردائه ، وقام أبو بكر دونه يقول وهو يبكي : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ ، ثم انصرفوا عنه فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً بلغت منه قط .

١٣٤ - * روى البخاري عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما قال : سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ ؟ قال : رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي ، فوضع رداءه في عنقه ، فخنقه خنقاً شديداً ، فجاء أبو بكر حتى دفعة عنه ، ثم قال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ^(١) .

= سقه أحلامنا : جهل عقولنا . غمزوه : غزه بيده يعمزه : غسه . أشدهم فيه وصاة : يعي أشدهم له أذى وهبنا عن اتباعه .

١٣٤ - البخاري (٧ / ٢٢) ٦٢ - كتاب فضائل الصحابة - ٥ - باب : قول النبي ﷺ : « لو كنت متخذاً خليلاً » .
البيّنات : المعجزات الظاهرات . فناء الكعبة : الساحة التي حولها . والفناء : الساحة في الدار أو بجانبها وتجمع على أفنية . المنكب : المنكب جمع رأس الكتف والعضد أي . نقطة التقاء الذراع بالكتف .

(١) غامر : ٢٨ .

وفي رواية : يَتَنَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَفَنَاءِ الْكَعْبَةِ ، إِذْ أَقْبَلَ عَقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ ، فَأَخَذَ بِمَنْكِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَفَّ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ ، فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .. وذكر الحديث .

١٣٥ - * روى البزار والطبراني في الأوسط ، عن عبد الله بن مسعود قال : يَتَنَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ ، وَأَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ وَشَيْبَةُ وَعْتَبَةُ ابْنَا رِبِيعَةَ وَعَقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ وَرَجُلَانِ آخَرَانِ كَانُوا سَبْعَةً وَهُمْ فِي الْحِجْرِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي فَلَمَّا سَجَدَ أَطَالَ السُّجُودَ ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : أَيَكُمُ يَأْتِي سَلَا جَزُورٍ بَنِي فَلَانٍ فَيَأْتِينَا بِفَرَثِهَا فَتَكْفُتُهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ؟ ، فَاذْطَلَقَ أَشْقَاهُمْ عَقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَأَتَى بِهِ فَأَلْقَاهُ عَلَى كَتِفِهِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَاجِدٌ .

قال ابن مسعود : وَأَنَا قَائِمٌ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَكَلَّمَ لَيْسَ عِنْدِي مَنَعَةٌ تَمْنَعُنِي فَأَنَا أَذْهَبُ ، إِذْ سَمِعْتُ فَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَقْبَلْتُ حَتَّى أَلْقَيْتُ ذَلِكَ عَنْ عَاتِقِهِ ، ثُمَّ اسْتَقْبَلْتُ قُرَيْشًا تَسْبِيحًا فَلَمْ يَرْجِعُوا إِلَيْهَا شَيْئًا ، وَزَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأْسَهُ كَمَا كَانَ يَرْفَعُ عِنْدَ تِمَامِ السُّجُودِ ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاتَهُ قَالَ : « اللَّهُمَّ عَلِيكَ بِقُرَيْشٍ - ثَلَاثًا - عَلِيكَ بِعَقْبَةِ وَعَقْبَةِ وَأَبِي جَهْلٍ وَشَيْبَةَ » .

ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ فَلَقِيَهُ أَبُو الْبَخْتَرِيِّ بِسُوطٍ يَتَخَضَّرُ بِهِ ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ أَنْكَرَ وَجْهَهُ

١٣٥ - البزار : كَتَفَ الْأَسْتَارَ (١٢٦ / ٢) . وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ (١٨ / ٦) : قُلْتُ : حَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي الصَّحِيحِ بِاخْتِصَارِ قِصَّةِ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ - رَوَاهُ الْبَزَارُ وَالطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ وَفِيهِ الْأَجْلَحُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْكَنْدِيُّ ، وَهُوَ ثَقَّةٌ عِنْدَ ابْنِ مَعِينٍ وَغَيْرِهِ وَضَعْفُهُ النَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُ ، أَهْلُهُ وَبَقِيَّةُ رَجَالِهِ ثَقَاتٌ . قُلْتُ : الْأَجْلَحُ الْكَنْدِيُّ قَالَ عَنْهُ الْحَافِظُ فِي التَّقْرِيبِ (٤٩ / ١) « صَدُوقٌ » وَعَلَى ذَلِكَ فَالْحَدِيثُ حَسَنٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

السلا : بفتح السين المهملة : قال في النهاية الجلد الرقيق الذي يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفاً فيه ، وقيل هو في الماشية السلا وفي الناس المشية والأول أشبه لأن المشية تخرج بعد الولد ولا يكون الولد فيها حين يخرج أمه (وقال الحافظ ابن كثير) في تاريخه : السلا هو الذي يخرج مع ولد الناقة كالمشية لولد المرأة ، وفي بعض ألفاظ الصحيح أنهم لما فعلوا ذلك استضحكوا حتى جعل بعضهم يبيل على بعض أي يبيل هذا على هذا من شدة الضحك لعنهم الله . الجزور : ما يصلح لأن يذبح من الإبل ، ولفظه أنثى ، يقال للبعير : هذه جزور سمينة يجمع على جزائر وجزر . الفرت : الأوساخ في الكرش . نكفثه : (كفأ) الإناء - كفثا : كبته وقلبه . العاتق : ما بين المنكب والعنق . السوط : ما يضرب به من جلد ، يتخضَّرُ بالسوط : يلفه على خاصرته . خلى : خلى الأمر : تركه . ويقال خلى سبيله : تركه وأرسله . الملاء : أي : أشراف القوم وسراهم .

فقال مالك ؟ فقال النبي ﷺ : « خَلَّ عَنِّي » قال : عَلِمَ اللَّهُ لَا أُخْلِي عَنْكَ أَوْ تُخْبِرُنِي مَا شَأْنُكَ فَلَقَدْ أَصَابَكَ شَيْءٌ ، فَلَمَّا عَلِمَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ غَيْرُ مُحَلٍّ عَنْهُ أَخْبَرَهُ ، فَقَالَ : « إِنَّ أَبَا جَهْلٍ أَمَرَ فَطَرِحَ عَلَيَّ قَرْتًا » فقال أبو البختری : هَلُمَّ إِلَى الْمَسْجِدِ ، فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو الْبَخْتَرِيِّ فدخلوا المسجدَ ، ثم أقبلَ أَبُو الْبَخْتَرِيِّ إِلَى أَبِي جَهْلٍ فَقَالَ : يَا أَبَا الْحَكَمِ أَنْتَ الَّذِي أَمَرْتَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَطَرِحَ عَلَيْهِ الْفَرْتُ ؟ قال : نعم ، قال : فَرَفَعَ السُّوْطَ فَضَرَبَ بِهِ رَأْسَهُ ، قال : فَثَارَ الرِّجَالُ بَعْضُهُمَا إِلَى بَعْضٍ ، قال : وصاح أَبُو جَهْلٍ : وَيَحْكُمُ هِيَ لِي ، إِنَّمَا أَرَادَ مُحَمَّدٌ ﷺ أَنْ يُلْقِيَ بَيْنَنَا الْعَدَاوَةَ وَيَنْجُوَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ . وفي رواية فَلَمَّا رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأْسَهُ حَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : « أُمَّا بَعْدُ ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِالْمَلَأِ مِنْ قَرِيشٍ » .

١٣٦ - * روى أبو يعلى والطبراني عن عمرو بن العاص قال : ما رأيتُ قريشاً أرادوا قتلَ رسولِ اللَّهِ ﷺ إلا يوماً ائتمروا به وهم جُلُوسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصْلِي عِنْدَ الْمَقَامِ ، فَقَامَ إِلَيْهِ عَقْبَةُ بْنُ أَبِي مَعِيْطٍ فَجَعَلَ رِدَاءَهُ فِي عُنُقِهِ ثُمَّ جَذَبَهُ حَتَّى وَجَبَ لِرُكْبَتَيْهِ ، وَتَصَايَحَ النَّاسُ وَظَنُّوا أَنَّهُ مَقْتُولٌ ، قال : وَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ يَشْتَدُّ حَتَّى أَخَذَ بَضِيعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ وَرَائِهِ وَهُوَ يَقُولُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ؟ ثُمَّ انْصَرَفُوا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ .

فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ مَرَّ بِهِمْ وَهُمْ جُلُوسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَقَالَ : « يَا مَعْشَرَ قَرِيشٍ أَنَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ إِلَّا بِالذَّبْحِ » وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الْحُلُقِ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ : يَا مُحَمَّدُ مَا كُنْتَ جَهْلُولًا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَنْتَ مِنْهُمْ » .

١٣٧ - * روى أبو يعلى والبخاري عن أنس بن مالك قال : لَقَدْ ضَرَبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّةً حَتَّى غَشِيَ عَلَيْهِ ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فَجَعَلَ يَنَادِي : وَيَلَكُمْ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ، فَقَالُوا : مِنْ هَذَا ؟ فَقَالُوا : أَبُو بَكْرٍ الْمَجْنُونُ .

١٣٦ - قال الميثقي في مجمع الزوائد (١٦ / ٦) : رواه أبو يعلى والطبراني وفيه محمد بن عمرو عن علقمة وحديثه حسن ، وبقيّة رجال الطبراني رجال الصحيح .

وجب : سقط . الضبيع : وسط العضد . جهولاً : جهل فلان على غيره ، جهلاً ، وجهالة : جفا وتساهل .

١٣٧ - البخاري : كشف الأستار (١٢٥ / ٢) وقال الميثقي في مجمع الزوائد (١٧ / ٦) : رواه أبو يعلى والبخاري . وراد فتركوه وأقبلوا على أبي بكر ورجاله رجال الصحيح .

غشي عليه : أغشى عليه . ويلكم : من الويل وهو حلول الشر ، أو هي كلمة عذاب ، وقيل إنها واد في جهنم .

١٣٨ - * روى أحمد عن ابن عباس قال : إن الملاء من قريش اجتمعوا في الحجر فتعاهدوا باللائ والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، وقد رأينا محمداً ، قمنا إليه قيام رجل واحد فلم نفارقة حتى تقتله .

فأقبلت فاطمة رضي الله عنها تبكي حتى دخلت على أبيها ، فقالت : هؤلاء الملاء من قومك في الحجر قد تعاهدوا أن لو قد رأوك قاموا إليك فقتلوك ، فليس منهم رجل إلا وقد عرف نصيبه من دمك .

قال : « يا بنيّة أذني وضوءاً » فتوضأ ثم دخل المسجد فلما رأوه قالوا : هو هنا فخفصوا أبصارهم ، وعفروا في مجالسهم فلم يرفعوا إليه أبصارهم ، ولم يقم منهم رجل فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رؤوسهم فأخذ قبضة من تراب فحصبهم بها وقال : « شأهت الوجوه » قال : فما أصابت رجلاً منهم حصاة ، إلا قتل يوم بدر كافراً .

أقول : ليس كل ما ذكرناه في هذا الفصل من الإيذاء قد وقع بالضرورة في عام الحزن ، ولكن يحتمل إلى حد كبير أن يكون قد وقع في هذا العام ولذلك أثبتناه ههنا ، والظاهر أن هذا العام وصلت الدعوة إلى حد معين وقفت عنده فقد استقر الوضع في مكة بين مستجيب ومعارض ، والقبائل العربية وقفت تنتظر ، ولكن موقفها الرسمي هو موقف قريش ، وقرر رسول الله ﷺ أن يحرك هذا السكون فتحرك نحو الطائف فكانت محنة جديدة .

* * *

فصل : في رحلة الطائف

١٣٩ - * روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يومٍ أُخِذَ ؟ فقال : « لقد لقيتُ من قومِك ، وكانَ أشدَّ ما لقيتُ مِنْهُم يومَ العقبةِ ، إذْ عَرَضْتُ نفسي على ابنِ عبدِ يالِيلِ بنِ عبدِ كَلالَ ، فلم يُجِبْني إلى ما أردتُ ، فانطلقتُ وأنا مَهْمُومٌ على وَجْهي ، فلم أَسْتَفِقْ إلَّا بقرنِ الثَّعالبِ ، فرفعتُ رأسي ، فإذا أنا بَسَحَابَةٍ قد أَظْلَمَتْنِي ، فنظرتُ فإذا فيها جبريلُ ، فناداني ، فقال : إن الله عز وجل قد سَمِعَ قولَ قومكَ لكَ ، وما ردُّوا عليك ، وقد بعثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لتَأْمُرَهُ بما شئتَ فيهم . قال : فناداني مَلَكُ الجِبَالِ ، وسلم عليَّ ، ثم قال : يا مُحَمَّدُ ، إن الله قد سَمِعَ قولَ قومكَ لكَ ، وأنا مَلَكُ الجِبَالِ ، وقد بعثني رَبُّكَ إِلَيْكَ لتَأْمُرَني بأمرِك ، فَمَا شِئتَ ، إن شِئتَ أن أُطِيقَ عليهم الأَخْشَبِينَ ، فقال له رَسولُ الله ﷺ : بل أَرْجُوا أن يُخْرِجَ الله من أصْلَابِهِم من يعبدُ الله وحْدَهُ لا يُشْرِكُ به شَيْئاً . »

قال ابن حجر في شرح هذا الحديث : وذكر موسى بن عقبة في المغازي عن ابن شهاب أنه ﷺ لما مات أبو طالب توجه إلى الطائف رجاء أن يؤوه ، فعمد إلى ثلاثة نفر من ثقيف وهم سادتهم وهم إخوة عبد ياليل وحبيب ومسعود بنو عمرو فعرض عليهم نفسه وشكى إليهم ما انتهك منه قومه فردوا عليه أقبح رد ، وكذا ذكره ابن إسحاق بغير إسناد مطولاً ، وذكر ابن سعد أن ذلك كان في شوال سنة عشر من المبعث وأنه كان بعد موت أبي طالب وخديجة .

وقد لخص الدكتور البوطي رحلة الطائف من سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد بقوله :

١٣٩ - مسلم (٢ / ١٤٢٠) ٣٢ - كتاب الجهاد والسير - ٣٩ - باب : ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين والبخاري (٦ / ٣١٢) ٥٩٠ - كتاب بدء الخلق - باب : إذا قال أحدكم (آمين) ولللائكة في السماء .
على وجهي : أي على الجهة المواجهة لي . بقرن الثعالب : هو ميقات أهل نجد ويقال له قرن المنازل أيضاً ، وهو على يوم وليلة من مكة . وقرن كل جبل صغير منقطع من جبل كبير ، وحكى عياض أن بعض الرواة ذكره بفتح الراء قال : هو غلط ، وحكى القاسبي أن من سكن الراء أراد الجبل ومن حركها أراد الطريق التي يقرب منه ، وأفاد ابن سعد أن مدة إقامته ﷺ بالطائف كانت عشرة أيام . ملك الجبال : أي : الموكل بها . الأخشبان : جبلا مكة المحيطان بها ، وكل جبل عظيم فهو أخشب .

ولما نالت قريش من النبي ﷺ ما وصفناه من الأذى ، خرج إلى الطائف يلتبس النصرة من ثقيف ويرجو أن يقبلوا منه ما جاءهم به من عند الله عز وجل .

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف ، هم يومئذ سادته ، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم من أجله فردوا عليه رداً منكراً ، وفاجأوه بما لم يكن يتوقع من الغلظة وسمج القول ، فقام رسول الله ﷺ من عندهم وهو يرجوهم أن يكتبوا خبر مقدمه إليهم عن قريش إذأ ، فلم يجيبوه إلى ذلك أيضاً . ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به ، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أن رجلي رسول الله ﷺ لتدميان ، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شج في رأسه عدة شجاج ، حتى وصل رسول الله ﷺ إلى بستان لعتبة بن ربيعة ، فرجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه . فعمد عليه الصلاة والسلام ، وقد أنهكه التعب والجراح إلى ظل شجرة عنب فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران إليه ، فلما اطمان النبي ﷺ في ذلك الظل رفع رأسه يدعو بهذا الدعاء : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس . يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » . ولا سند لهذا الدعاء ، فلم ندخله في المتن .

ثم إن ابني ربيعة - صاحبي البستان - تحركت الشفقة في قلبيهما ، فدعوا غلاماً نصرانياً لهما يقال له (عداس) فأرسلا إليه قطفاً من العنب في طبق . فلما وضع عداس العنب بين يدي رسول الله ﷺ وقال له : كل . مد الرسول يده قائلاً : « بسم الله » . ثم أكل . فقال عداس متعجباً : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له الرسول ﷺ : « ومن أي البلاد أنت ؟ وما دينك ؟ » قال : نصراني ، وأنا رجل من أهل نينوى (قرية بالموصل) . فقال الرسول ﷺ : « من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ » فقال عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ذلك أخي ، كان نبياً وأنا نبي » فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه . وسند هذه القصة مرسل ، فلم ندخلها في المتن .

قال ابن إسحاق : ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلي ، فربه النفر (من الجن) من الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى ، فاستمعوا له . فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا .

وقد قص الله خبرهم عليه ﷺ في قوله : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ ^(١) إلى قوله : ﴿ وَيَجْرُكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ ^(٢) وقوله : ﴿ قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ الآيات .

ثم عاد رسول الله ﷺ - ومعه زيد بن حارثة - يريد دخول مكة ، فقال له زيد : كيف تدخل عليهم يا رسول الله وهم أخرجوك ؟ فقال : « يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه » ثم أرسل رجلاً من خزاعة إلى مطعم بن عدي يخبره أنه داخل مكة في جواره . فاستجاب مطعم لذلك ، وعاد رسول الله ﷺ إلى مكة .

أقول : دخول رسول الله ﷺ مكة بجوار المطعم بن عدي ثابت وما يدل على ثبوت هذا :

١٤٠ - * روى البخاري عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي أُسَارَى بَدْرٍ : « لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِي حَيًّا ، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ » .

قال سفيان : وَكَانَتْ لَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ يَدٌ ، وَكَانَ أَجْزَى النَّاسِ بِالْيَدِ .

وقال ابن حجر :

ويبين ابن شاهين من وجه آخر السبب في ذلك ، وأن المراد باليد المذكورة ما وقع منه حين رجع النبي ﷺ من الطائف ودخل في جوار المطعم بن عدي ، وقد ذكر ابن إسحاق القصة في ذلك مبسوطه ، وكذلك أوردها الفاكهي بإسناد حسن مرسل . فإذا ثبت ذلك فيكون هذا أصلاً كبيراً من أصول الحركة للدعوة الإسلامية ، فللإسلاميين الحق أن يستفيدوا

(١) الأحقاف : ٢٩ .

(٢) الأحقاف : ٣٠ .

(٣) الجن : ١ .

١٤٠ - البخاري (٦ / ٢٤٣) ٥٧ - كتاب فرض الخمس - ١٦ - باب ما من النبي ﷺ على الأسارى من غير أن يخمس .

من الأعراف والقوانين التي تعطيهم أمناً وحماية لأشخاصهم ولحرياتهم ، كما أن هذا التصرف أصل يستند إليه في فعل كل ما هو من مصلحة الدعوة الإسلامية وحَمَلَتِها ومن ذلك التحالفات والتعاقدات المرحلية .

وإناسبة ما ذكره كِتَابُ السِّرِّ أن الجنَّ استمعوا قراءته مُقْفَلَةً من الطوائف فسيكون الفصل اللاحق في بعض الروايات التي تذكر سماع الجن منه عليه الصلاة والسلام .

* * *

فصل : في تبليغ الجن

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ^(١) ، فرسالته عليه الصلاة والسلام رحمة للخلق جميعهم ، وهذه الرحمة مظهرها الأول أن المستجيبين لها مرحومون في الدنيا والآخرة ، وبرحمتهم وبتطبيقهم لشريعة الله يرحم الخلق وترحم أنفسهم فتعطى طمأنينة قلب واستقامة سلوك ، والمكلفون من الخلق هم من يملكون إدراكاً يستطيعون به فهم الخطاب ، وهم مبتلون بالشر والخير ولهم إرادة يختارون بها طريق الخير من الشر وهذا ينطبق على الإنسان والجن .

ولقد حدث في سيرة رسول الله ﷺ الأولى أن سمع الجن لقراءته عليه الصلاة والسلام ، وقد قص القرآن علينا ذلك في سورتي الأحقاف والجن فكان ذلك نوع بلاغ ، ولكن البلاغ المباشر المقصود تم كذلك ، وإن كنا لا نستطيع تعيين الزمن الذي تم فيه هذا النوع من البلاغ بدقة ، لكن الشيء الثابت أن سماع الجن من رسول الله ﷺ وتبليغهم المباشر قد حدث ، وقد مر معنا فصل من قبل في حفظ أمر السماء ، وهنا نذكر بعض الروايات بمناسبة أن كتاب السير ذكروا أنه قد حدث سماع للجن من رسول الله ﷺ بعد رحلة الطائف .

قال الحافظ في الفتح :

تقدم في أوائل المبعث في (باب ذكر الجن) أن ابن إسحاق وابن سعد ذكرا أن ذلك كان في ذي القعدة سنة عشر من المبعث لما خرج النبي ﷺ إلى الطائف ثم رجع منها ، ويؤيده قوله في هذا الحديث : (إن الجن رأوه يصلي بأصحابه صلاة الفجر) والصلاة المفروضة إنما شرعت ليلة الإسراء ، والإسراء كان على الراجح قبل الهجرة بسنتين أو ثلاث فتكون القصة بعد الإسراء ، لكنه مشكل من جهة أخرى ، لأن محصل ما في الصحيح كما تقدم في بدء الخلق وما ذكره ابن إسحاق أنه ﷺ لما خرج إلى الطائف لم يكن معه من أصحابه إلا زيد بن حارثة ، وهنا قال إنه انطلق في طائفة من أصحابه ، فلعلها كانت

(١) الأنبياء : ١٠٧ .

وجهة أخرى . ويمكن الجمع بأنه لما رجع لاقاه بعض أصحابه في أثناء الطريق فراقفوه .

١٤١ - * روى مسلم عن علقمة رحمه الله قال : أنا سألت ابن مسعود فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال : لا ، ولكننا كنّا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه ، فالتسناه في الأودية والشعاب ، فقلنا ، استطير ، أو اغتيل ، قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء ، قال : فقلنا : يا رسول الله ، فقدناك ، فطلبناك ، فلم نجدك ، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فقال : « أتاني داعي الجن ، فذهبت معه ، فقرأت عليهم القرآن » قال : فانطلق بنا ، فأرانا آثارهم ، وآثار نيرانهم ، وسألوه الزاد ، فقال : « لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذِكْرُ اسمِ اللَّهِ عَلَيْهِ ، يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرُ مَا يَكُونُ لَحْمًا ، وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفَ لِدَوَابِّكُمْ » فقال رسول الله ﷺ : « فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا ، فَإِنَّهَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ » .

وفي رواية بعد قوله : (وآثار نيرانهم) قال الشعبي : وسألوه الزاد ؟ وكانوا من جن الجزيرة إلى آخر الحديث ، من قول الشعبي مفصلاً من حديث عبد الله .

وفي رواية أن ابن مسعود قال : لم أكن ليلة الجن مع رسول الله ﷺ ، ووددت أني كنت معه .

وأخرجه الترمذي ^(١) ، وذكر فيه قول الشعبي ، كما سبق في هذه الرواية الآخرة ، وزاد فيه : أو رؤيته .

وأخرج أبو داود منه طرفاً ^(٢) ، قال : قلت لعبد الله بن مسعود : مَنْ كَانَ مِنْكُمْ لَيْلَةَ الْجِنِّ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ؟ فَقَالَ : مَا كَانَ مَعَهُ مَنْ أَحَدٌ .

١٤١ - مسلم (١ / ٣٣٢) ٤ - كتاب الصلاة - ٣٣ - باب : الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن .

استطير : استعمل من الطيران ، كأنه أخذ شيء وطار به . اغتيل : أخذ غيلة والاعتيال : الاحتيال .

(١) الترمذي (٥ / ٣٨٢) ٤٨ - كتاب التفسير - ٤٧ - باب : ومن سورة الأحقاف . قال أبو عيسى : حديث حسن صحيح .

(٢) أبو داود (١ / ٣٢) ٢٢ - كتاب الصلاة - باب : الوضوء بالنبيذ .

قال الحافظ في الفتح :

وقد روى ابن مردويه أيضاً من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس : كانوا اثني عشر ألفاً من جزيرة الموصل ، فقال النبي ﷺ لابن مسعود : « انظرني حتى آتيك » وخط عليه خطأ . الحديث . والجمع بين الروایتين تعدد القصة ، فإن الذين جاءوا أولاً كان سبب مجيئهم ما ذكر في الحديث من إرسال الشهب ، وسبب مجيء الذين في قصة ابن مسعود أنهم جاءوا لقصد الإسلام وسماع القرآن والسؤال عن أحكام الدين وقد بينت ذلك في أوائل المبعث في الكلام على حديث أبي هريرة ، وهو من أقوى الأدلة على تعدد القصة . فإن أبا هريرة إنما أسلم بعد الهجرة ، والقصة الأولى كانت عقب المبعث ، ولعل من ذكر في القصص المفرقة كانوا ممن وفد بعد ، لأنه ليس في كل قصة منها إلا أنه كان ممن وفد ، وقد ثبت تعدد وفودهم . وتقدم في بدء الخلق كثير مما يتعلق بأحكام الجن والله المستعان .

١٤٢ - * روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : صلى رسول الله ﷺ العشاء ، ثُمَّ انصرفَ فأخذَ بيدَ عبد الله بن مسعود ، حتى خَرَجَ بِهِ إِلَى بَطْحَاءِ مَكَّةَ ، فَأَجْلَسَهُ ، ثُمَّ خَطَّ عَلَيْهِ خَطًّا ، ثُمَّ قَالَ : « لَا تَبْرَحَنَّ خَطُّكَ ، فَإِنَّهُ سَيَنْتَهِي إِلَيْكَ رِجَالٌ فَلَا تَكَلِّمُهُمْ ، فَإِنَّهُمْ لَا يَكَلِّمُونَكَ » ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ أَرَادَ ، فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ فِي خَطِّي ، إِذْ أَتَانِي رِجَالٌ كَانَتْهُمْ الزُّطُّ أَشْعَارُهُمْ وَأَجْسَامُهُمْ ، لَا أَرَى عَوْرَةَ ، وَلَا أَرَى قِشْرًا ، وَيَنْتَهَوْنَ إِلَيَّ ، لَا يَجَاوِزُونَ الْخَطَّ ، ثُمَّ يَصْدُرُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ ، لَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ جَاءَنِي وَأَنَا جَالِسٌ ، فَقَالَ : لَقَدْ أَرَانِي مُنْذُ اللَّيْلَةِ ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيَّ فِي خَطِّي ، فَتَوَسَّدَ فَخِذِي فَرَقَدَ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا رَقَدَ نَفَخَ ، فَبَيْنَمَا أَنَا قَاعِدٌ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَوَسَّدٌ فَخِذِي ، إِذَا أَنَا بِرِجَالٍ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ بَيضٌ ، اللَّهُ أَعْلَمُ مَا بِهِمْ مِنَ الْجَمَالِ ، فَانْتَهَوْا إِلَيَّ ، فَجَلَسَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ عِنْدَ رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَطَائِفَةٌ مِنْهُمْ عِنْدَ رِجْلَيْهِ ، ثُمَّ قَالُوا بَيْنَهُمْ : مَا رَأَيْنَا عَبْدًا قَطُّ أَوْقَى مِثْلَ مَا أَوْقَى هَذَا النَّبِيُّ ، إِنَّ عَيْنَيْهِ

١٤٢ - الترمذي (٥ / ١٤٥) ٤٥ - كتاب الأمثال - ١ - باب ما جاء في مَثَلِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ . وقال هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه وهو كما قال .

الدارمي (١ / ٧) المقدمة باب صفة النبي ﷺ في الكتب قبل مبعثه .
قشراً : أراد بالقشر : الثوب ، وذلك أنه قال : لا أرى عورة منكشفة منهم ، ولا أرى عليهم ثياباً تغطي عوراتهم .
الزُّطُّ : جيل من الناس .

تَنَامَانِ ، وَقَلْبُهُ يَفْطَانُ ، اضْرِبُوا لَهُ مِثْلًا : مِثْلَ سَيِّدِ بَنِي قَصْرٍ ثُمَّ جَعَلَ مَادِبَةً فَدَعَا النَّاسَ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ ، فَمَنْ أَجَابَهُ أَكَلَ مِنْ طَعَامِهِ وَشَرِبَ مِنْ شَرَابِهِ ، وَمَنْ لَمْ يُجِبْهُ عَاقِبَهُ . أَوْ قَالَ : عَذْبَةٌ - ثُمَّ ارْتَفَعُوا ، وَاسْتَيْقِظَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ ، فَقَالَ : « سَمِعْتُ مَا قَالَ هَؤُلَاءِ ؟ وَهَلْ تَدْرِي مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ » قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : « هُمُ الْمَلَائِكَةُ ، فَتَدْرِي مَا الْمِثْلُ الَّذِي ضَرَبُوا ؟ » قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : « الْمِثْلُ الَّذِي ضَرَبُوا : الرَّحْمَنُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَنَى الْجَنَّةَ ، وَدَعَا إِلَيْهَا عِبَادَةً ، فَمَنْ أَجَابَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ لَمْ يُجِبْهُ عَاقِبَهُ وَعَذْبَةٌ » .

١٤٣ - * رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ مَعْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، قَالَ : سَمِعْتُ أَبِي ، قَالَ : سَأَلْتُ مُشْرُوقًا : مَنْ أَذَنَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْجَنِّ لَيْلَةَ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ ؟ فَقَالَ : حَدَّثَنِي أَبُوكَ - يَعْنِي : عَبْدُ اللَّهِ - أَنَّهُ أَذْنَتْ بِهِمْ شَجَرَةٌ .

١٤٤ - * رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾ . قَالَ : كَانَ نَفَرٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعْبُدُونَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ ، فَاسْلَمَ النَّفَرُ مِنَ الْجِنِّ وَاسْتَمْسَكَ الْإِنْسُ بِعِبَادَتِهِمْ ، فَنَزَلَتْ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾ ^(١) .

قَالَ الْخَافِظُ : أَيُّ : اسْتَمَرَ الْإِنْسُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ عَلَى عِبَادَةِ الْجِنِّ ، وَالْجِنُّ لَا يَرْضَوْنَ بِذَلِكَ ، لَكُونَهُمْ أَسْلَمُوا ، وَهُمْ الَّذِينَ صَارُوا يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ، وَرَوَى الطَّبْرِيُّ مِنْ وَجْهِ آخَرَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ فَزَادَ فِيهِ : وَالْإِنْسُ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِإِسْلَامِهِمْ وَهَذَا هُوَ الْمَعْتَمَدُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ .

١٤٣ - الْبُخَارِيُّ (٧ / ١٧١) ٦٣ - كِتَابُ مَنَاقِبِ الْأَنْصَارِ - ٣٢ - بَابُ : ذِكْرُ الْجِنِّ وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ ﴾ .

وَمُسْلِمٌ (١ / ٣٣٣) ٤ - كِتَابُ الصَّلَاةِ - ٣٣ - بَابُ : الْجَهْرُ بِالْقِرَاءَةِ فِي الصُّبْحِ وَالْقِرَاءَةُ عَلَى الْجِنِّ .
أَذَنَ : بِالْمَدِّ أَيْ أَعْلَمَ .

١٤٤ - مُسْلِمٌ (٤ / ٢٣٢١) ٥٤ - كِتَابُ التَّفْسِيرِ - ٤ - بَابُ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ ... الْوَسِيلَةَ ﴾ .
﴿ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾ : الْوَسِيلَةُ : مَا يَتَوَسَّلُ بِهِ إِلَى الشَّيْءِ ، أَيُّ : يَطْلُبُونَ الْقُرْبَى إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِطَاعَتِهِ .
النَّفَرُ : دُونَ الْعَشِيرَةِ مِنَ الرِّجَالِ وَتَجْمَعُ عَلَى أَنْفَارٍ .
(١) الْإِسْرَاءُ : ٥٧ .

وقد علق الدكتور البوطي على سماع الجنّ من رسول الله ﷺ في عودته من الطائف فقال :

والذي يهمنا أن نعلمه بعد هذا كله هو أن على المسلم أن يؤمن بوجود الجن وبأنهم كائنات حية كلفها الله عز وجل بعبادته كما كلفنا بذلك ، ولئن كانت حواسنا ومداركنا لا تشعر بهم فذلك لأن الله عز وجل جعل وجودهم غير خاضع للطاقة البصرية التي بثها في أعيننا ، ومعلوم أن أعيننا إنما تبصر أنواعاً معينة من الموجودات بقدر معين وبشروط معينة .

ولما كان وجود هذه الخليقة مسنداً إلى أخبار يقينية متواترة وردت إلينا من الكتاب والسنة ، وكان أمرها معلوماً من الدين بالضرورة ، أجمع المسلمون على أن إنكار الجن أو الشك في وجودهم يستلزم الردة والخروج عن الإسلام . إذ إن إنكارهم إنكار لشيء علم أنه من الدين بالضرورة ، عدا أنه يتضمن تكذيب الخبر الصادق المتواتر إلينا عن الله عز وجل وعن رسوله ﷺ .

ولا ينبغي أن يقع العاقل في أشد مظاهر الغفلة والجهل من حيث يزعم أنه لا يؤمن إلا بما يتفق مع العلم ، فيضي يتبجح بأنه لا يعتقد بوجود الجن ، من أجل أنه لم ير الجن ولم يحس بهم .

إن من البداهة بمكان أن مثل هذا الجهل المتعالم ، يستدعي إنكار كثير من الموجودات اليقينية لسبب واحد هو عدم إمكان رؤيتها . والقاعدة العلمية المشهورة تقول : عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود . أي عدم رؤيتك لشيء تفتش عنه لا يستلزم أن يكون بحد ذاته مفقوداً أو غير موجود . أهـ .

أقول : لم يزل بين المسلمين الثقات العدول من يحدثنا عن صلة له بالجن ، وتاريخنا طافح بأخبار علماء كانت للجن بهم صلة تلمذة ، وقد كتب الشيخ ابن عابدين الفقيه الحنفي المشهور رسالة عن صلات أحد شيوخه بالجن وتلمذتهم عليه ، ولا أذكر هذا كتدليل على وجود الجن فكفى بشهادة القرآن والسنة الثابتة ، ولكن أقول هذا بين يدي الدعوة إلى

تتبع هذه الروايات وجمعها في كتاب مع التحليل والتعليل .

الفرج بعد الشدة :

وَأَلَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَعْوَتَهُ فِي مَكَّةَ بَعْدَ رَحْلَةِ الطَّائِفِ ، وَفِي أَوَائِلِ السَّنَةِ الْحَادِيَةِ عَشَرَ لِلْبُعْثَةِ اجْتَمَعَ مَعَ وَفْدٍ مِنَ الْأَوْسِ ، جَاءُوا يُطْلِبُونَ النِّصْرَةَ وَالْحَلْفَ مِنْ قُرَيْشٍ بَعْدَ وَقْعَةِ بَعَاثِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَقَارِبِهِمْ مِنَ الْخَزْرَجِ ، فَتَجَاوَبَ أَحَدُ أَعْضَاءِ الْوَفْدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَفِي مَوْسَمِ الْحِجِّ مِنَ السَّنَةِ الْحَادِيَةِ عَشْرَةَ لِلْبُعْثَةِ اسْتَجَابَ سِتَّةٌ مِنَ الْخَزْرَجِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلَمَّا رَجَعَ هَؤُلَاءِ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ حَمَلُوا إِلَيْهَا رِسَالَةَ الْإِسْلَامِ حَتَّى لَمْ تَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا ذِكْرٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ، وَفِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ مِنَ النَّبَوَّةِ وَفِي مَوْسَمِ الْحِجِّ وَفَدَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ فِيهِمْ خَمْسَةٌ مِنَ السِّتَّةِ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا فِي عَامٍ سَابِقٍ وَكَانَ مِنْهُمْ عَشْرَةٌ مِنَ الْخَزْرَجِ وَاثْنَانِ مِنَ الْأَوْسِ وَكَانَتْ بَيْعَةُ الْعُقْبَةِ الْأُولَى ، وَأَرْسَلَ الرَّسُولُ مَعَ هَؤُلَاءِ مَصْعَبَ بْنِ عِمْرِ لِيُعَلِّمَهُمْ وَيَقُومَ بِالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا وَخَاصَّةً بَعْدَ أَنْ أَسْلَمَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ وَأَسِيدُ بْنُ حَضِرٍ ، وَقَبْلَ حُلُولِ مَوْسَمِ الْحِجِّ التَّالِيِ عَادَ مَصْعَبُ بْنُ عِمْرِ إِلَى مَكَّةَ لِيُبَلِّغَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا حَدَثَ وَلِيَهَيِّئَ لِبَيْعَةِ الْعُقْبَةِ الثَّانِيَةِ ، وَفِي مَوْسَمِ الْحِجِّ مِنَ السَّنَةِ الثَّلَاثَةِ عَشْرَةَ لِلْبُعْثَةِ تَمَّتْ بَيْعَةُ الْعُقْبَةِ الثَّانِيَةِ وَكَانَتْ بَعْدَهَا الْمُهْجَرَةُ .

وخلال هذه السنوات الثلاث بقي البلاغ مستمراً ، وحدثت أثناءها حادثة الإسراء .

وهناك حادثة نرجح أنها حدثت في هذه المرحلة وهي حادثة تكسيره عليه الصلاة والسلام لبعض الأصنام ، ومن ثم سنعرض لكل هذا بالتفصيل .

* * *

فصل : في تكسير بعض الأصنام

١٤٥ - * روى أحد عن علي بن أبي طالب قال : انطلقت أنا والنبي ﷺ حتى أتينا الكعبة فقال لي رسول الله ﷺ : « اجلس » وصعد على منكي ، فذهبت لأنهب به فرأى مني ضعفاً فنزل ، وجلس لي نبي الله ﷺ وقال : « اصعد على منكي » قال : فصعدت على منكبيه ، قال : فنهض بي ، فإنه يخيل إلي أنني لو شئت لنلت أفق السماء ، حتى صعدت على البيت وعليه تمثال أصفر أو نحاس ، فجعلت أزاوله عن يمينه وعن شماله وبين يديه ومن خلفه ، حتى إذا استكنت منه قال لي رسول الله ﷺ : « أقذِف به » فقذفت به فتكسر كما تتكسر القوارير ، ثم نزلت . فانطلقت أنا ورسول الله ﷺ نستبق ، حتى توارينا بالبيوت خشية أن يلقانا أحد من الناس . وفي رواية : كان على الكعبة أصنام ، فذهبت أحمل النبي ﷺ فلم أستطع ، فحملني فجعلت أقطعها ، ولو شئت لنلت السماء .

هذه الحادثة الثابتة الوقوع يرويها الحاكم على أنها حدثت ليلة الهجرة ، وقد وصف الذهبي رواية الحاكم بأن إسناده نظيف ومتنها منكر ، والظاهر أن نكارة متنها سببه أن هذه الرواية ذكرت أن الحادثة تمت ليلة الهجرة ، وإلا فالرواية صحيحة كما رأينا ، ولذلك اعتمدنا الرواية التي لم تذكر الهجرة ، ورجحنا أن الحادثة تمت خلال السنوات الثلاث الأخيرة دون تحديد زمن فعقدنا لها هذا الفصل .

وبعد أن ذكر الله عز وجل عدداً من رسله في سورة الأنعام قال : ﴿ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ وعن ذكر هناك وعن أمر عليه الصلاة والسلام بالاعتداء به إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ولقد كثر إبراهيم عليه الصلاة والسلام الأصنام ، وهذا رسول الله ﷺ يفعل ذلك اقتداء به ، وهذا يفتح أمامنا آفاقاً في التطبيق ، ومن ثم فإننا نلفت النظر إلى ضرورة التأمل في قصص الأنبياء في القرآن ، وأن يحاول المسلم الاقتداء فيما

١٤٥ - أحد في مسنده (١ / ٨٤) ، والبزار : كشف الأستار ، (٣ / ١٢٨) ، وأورده الهيثمي في جمع الزوائد (٦ / ٢٣) وقال : رواه أحمد وابنه وأبو يعلى والنزار ورجال الجميع ثقات .

لنلت : (نلت) والنيل والنائل ما نلت وما أصاب منه نيلاً ولا نيلة ولا نولة . الصفر : النحاس مخلوط بغيره . أزاوله : (زاوله) مزاوله وزوالاً : عاجله وحوله وطلبه . القوارير : الزجاج . نستبق : (استبقا) : تسابقا .

يستطيعه من أخلاقهم . وغلب على بعض المسلمين تصوّر أن المرحلة المكينة لم يحدث فيها تغيير للمنكر باليد ، وهذه الحادثة تدل على عكس ذلك ، ولكننا ننبه دائماً على أن تغيير المنكر يحتاج إلى موازنات كثيرة ، حتى لا يؤدي تغيير منكر إلى منكر أكبر .

* * *

فصل : في الإسراء والمعراج

١ - تحدّث القرآن عن الإسراء في سورة الإسراء وعن المعراج في سورة النجم ، وذكر حكمة الإسراء في سورة الإسراء بقوله : ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ ^(١) وقال في سورة النجم بعد ذكر ما حدث : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ ^(٢) . لقد كانت حكمة الإسراء والمعراج أن يُريَ اللهُ رسولَهُ من آياته الكبرى توطئة لمرحلة المجابهة المسلحة ، فمن حكمة الله أنه عندما كلف موسى بمواجهة فرعون أراه آياته الكبرى لأنها مواجهة تحتاج إلى مزيد من اليقين : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَبِيبَةٌ تُسَمَّى ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ ^(٣) .

لقد كانت رؤية الآيات الكبرى توطئة للأمر بمواجهة فرعون ، وكان الإسراء والمعراج توطئة للهجرة ولأعظم مواجهة على مدى التاريخ للكفر والضلال والفسوق ، والآيات التي رآها رسول الله ﷺ كثيرة :

الذهاب إلى بيت المقدس ، العروج إلى السماء ، رؤية الغيب الذي دعا إليه : الأنبياء والمرسلين ، الملائكة ، السماوات ، الجنة والنار ، غاذج من النعم والعذاب ، ولقد رأى الله عز وجل ذاته بقلبه أو بعيني بصره على قول .

وبذلك يكون قد شاهد عياناً ما دعا إليه الناس من الإيمان بالغيوب ، وكان بذلك الشاهد المبصر على أمر الغيوب :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَيَرَاجِأً مُنِيراً ﴾ ^(٤) .

٢ - هذا والإسراء والمعراج من معجزاته عليه الصلاة والسلام التي تقوم بها الحجّة على

(١) الإسراء : ١ .

(٢) النجم : ١٨ .

(٣) طه : ١٧ - ٢٤ .

(٤) الأحزاب : ٤٥ - ٤٦ .

الخلق ، لا من حيث أنها خارقتان حدثتا له وأخبر الناس عنها - وهو الصادق المصدوق - ثم أكد وقوعها القرآن ، فذلك حجة بالنسبة للمؤمن ، ولكن بما رافق ذلك من مشاهد أخبر بها الناس ما كان يستطيع الإخبار بها لولا أنه قد أسري به عليه الصلاة والسلام .

٣ - ولقد حدث نوع آخر من المعراج لرسول الله ﷺ بالروح أو بالرؤيا ، مما جعل الأمر يختلط على بعضهم ، والأمر من النصوص واضح فالإسراء والمعراج كانا بالجسد والروح ، وهذا لا ينفي أن يكون له عليه الصلاة والسلام معراج آخر كان توطئة أو تأكيداً ، سابقاً أو لاحقاً على المعراج الذي تحدث عنه القرآن .

٤ - وفي الإسراء والمعراج علوم وأسرار ودقائق ودروس وعبر ، فهو يؤكد وجود السماوات السبع - وهي من أمر الغيب عندي بما فيها - وفي المعراج ، فرضت الصلوات الخمس ، وأوتي رسول الله ﷺ خواتيم سورة البقرة ، فذلك إيمان وعمل ورمز على معان كثيرة ، منها أن الصلاة معراج القلب .

قال الأستاذ أبو الحسن الندوي :

ولم يكن الإسراء مجرد حادث فردي بسيط رأى فيه رسول الله ﷺ الآيات الكبرى ، وتجلى له ملكوت السماوات والأرض مشاهدة وعياناً - بل زيادة إلى ذلك - اشتملت هذه الرحلة النبوية الغيبية على معان عميقة دقيقة كثيرة ، وشارات حكيمة بعيدة المدى : فقد ضمت قصة الإسراء ، وأعلنت السورتان الكريمتان اللتان نزلتا في شأنه وتسميان سورة (الإسراء) وسورة (النجم) أن محمداً ﷺ هو نبي القبلتين ، وإمام المشرقين والمغربين ، ووارث الأنبياء قبله ، وإمام الأجيال بعده ، فقد التقت في شخصه وفي إسرائه مكة بالقدس ، والبيت الحرام بالمسجد الأقصى ، وصلى الأنبياء خلفه ، فكان هذا إيذاناً بعموم رسالته وخلود إمامته وإنسانية تعالیه ، وصلاحياتها لاختلاف المكان والزمان ، وأفادت هذه السورة الكريمة تعيين شخصية النبي ﷺ ووصف إمامته وقيادته وتحديد مكانة الأمة التي بعث فيها وأمنت به ، وبيان رسالتها ودورها الذي ستثله في العالم ، ومن بين الشعوب والأمم .

وفي صبيحة ليلة الإسراء جاء جبريل وعلم رسول الله ﷺ كيفية الصلاة وأوقاتها ، وكان عليه الصلاة والسلام وأصحابه يصلّون ركعتين صباحاً ومثلها مساء .

زمن الإسراء والمعراج :

قال المباركفوري في الرحيق المختوم :

واختلف في تعيين زمنه على أقوال شتى :

(١) فقيل : كان الإسراء في السنة التي أكرمه الله فيها بالنبوة ، اختاره الطبري .

(٢) وقيل : كان بعد المبعث بخمس سنين ، رجح ذلك النووي والقرطبي .

(٣) وقيل : كان ليلة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٠ من النبوة ، واختاره العلامة المنصورفوري .

(٤) وقيل : قبل الهجرة بستة عشر شهراً ، أي في رمضان سنة ١٢ من النبوة .

(٥) وقيل : قبل الهجرة بسنة وشهرين ، أي في المحرم سنة ١٣ من النبوة .

(٦) وقيل : قبل الهجرة بسنة ، أي في ربيع الأول سنة ١٣ من النبوة .

ورُدَّتْ الأقوال الثلاثة الأولى ؛ بأن خديجة رضي الله عنها توفيت في رمضان سنة عشر من النبوة ، وكانت وفاتها قبل أن تفرض الصلوات الخمس . ولا خلاف أن فرض الصلوات الخمس كانت ليلة الإسراء . أما الأقوال الثلاثة الباقية فلم أجد ما أرجح به واحداً منها ، غير أن سياق سورة الإسراء يدل على أن الإسراء متأخر جداً .

قال البوطي : والذي رواه ابن سعد في طبقاته أنها كانت قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً .

الإيمان بالإسراء والمعراج :

قال الشيخ أديب الكيلاني رحمه الله في شرحه على جوهر التوحيد :

وأجزم بمعراج النبي ﷺ كما رووا : أي أعتقد جازماً بعروج النبي ﷺ وصعوده إلى

السموات السبع إلى سدرة المنتهى إلى حيث شاء الله بعد الإسراء به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، حال كون العروج الذي جازمت به مثل الذي رواه أهل الحديث والتفسير والسير . وقد استغنى الناظم بذكر المعراج عن الإسراء لشهرة إطلاق أحد الاسمين على ما يعم مدلوليهما ، وهو سيره ﷺ ليلاً إلى أمكنة مخصوصة على وجه خارق للعادة . والحق أنه كان يقظة روحاً وجسداً خلافاً لمن قصره على المنام ، والإسراء ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين ، فمن أنكره كفر ، وأما المعراج فثابت بالأحاديث المشهورة من المسجد الأقصى إلى السموات السبع ، ومنها إلى الجنة ، ثم إلى المستوى أو العرش وبخبر الواحد ، لذا لا يكفر منكره بل يفسق . والتحقيق أنه لم يصل إلى العرش .

الإسراء بالروح والجسد :

وقال الدكتور البوطي :

كان الإسراء والمعراج بكل من الروح والجسد معاً . على ذلك اتفق جمهور المسلمين من المتقدمين والمتأخرين . قال النووي في شرح مسلم ما نصه :

والحق الذي عليه أكثر الناس ومعظم السلف وعامة المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين أنه أسري بجسده ﷺ ، والآثار تدل عليه لمن طالها وبحث عنها ، ولا يعدل عن ظاهرها إلا بدليل ولا استحالة في حملها عليه فيحتاج إلى تأويل .

ويقول ابن حجر في شرحه على البخاري : إن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسده وروحه ، وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة ، ولا ينبغي العدول عن ذلك إذ ليس في العقل ما يحيله حتى يحتاج إلى تأويل .

ومن الأدلة التي لا تقبل الاحتمال على أن الإسراء والمعراج كانا بالجسد والروح ، ما ذكرنا من استعظام مشركي قريش لذلك ، وتعجبهم للخبر وسرعة تكذيبهم له . إذ لو كانت المسألة مسألة رؤيا وكان إخباره إياها لذلك على هذا الوجه ، لما استدعى الأمر منهم أي

تعجب أو استعظام أو استنكار ، لأن المراتب في النوم لا حدود لها ، بل ويجوز مثل هذه الرؤيا حينئذ على المسلم والكافر ، ولو كان الأمر كذلك لما سأله أيضاً عن صفات بيت المقدس وأبوابه وسواريه بقصد الإلزام والتحدي .

أما كيف تمت هذه المعجزة وكيف يتصورها العقل فكما تم كل معجزة غيرها من معجزات الكون والحياة ..! لقد قلنا آنفاً أن كل مظاهر هذا الكون ليست في حقيقتها إلا معجزات ، فكما تتصورها العقول في سهولة ويسر يمكن لها أن تتصور هذه أيضاً في سهولة ويسر . وقال الدكتور البوطي :

احذر وأنت تبحث عن قصة الإسراء والمعراج أن تركز إلى ما يسمى بـ (معراج ابن عباس) فهو كتاب ملفق من مجموعة أحاديث باطلة لا أصل لها ولا سند . اهـ .

قلت : وبعضها صحيح ، إلا أن التمييز عسير على غير أهل العلم .

وسنسردها الروايات دون توقف ؛ لأن الحادثة وما جرى فيها من أمر الغيب الذي يجب الإيمان به والتسليم . وما يضيء لنا فهم بعض النصوص أن نعرف أن هناك اتجاهات يقول : إن حادثة الإسراء قد تكررت وأن حادثة المعراج قد تكررت ، وهناك اتجاه يقول : إنه قد كان بين يدي المعراج رؤيا مهدت له ووطأت ، وبذلك يجمع بين النصوص .

ولقد كان الإسراء على البراق ، أما المعراج فهناك قولان فيه فبعضهم ذهب أنه كان على البراق ، وبعضهم ذهب إلى أنه نصب شيء فكان العروج عليه .

١٤٦ - روى ابن حبان عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي رَجُلًا تَقْرُضُ شِفَاهَهُمْ بِمَقَارِيطَ مِنَ النَّارِ ، فَقُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ ؟ فَقَالَ : الْخُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ » .

١٤٧ - * روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :
 « لما كان ليلة أُسري بي وأصبحت بمكة فظيقتُ بأمرِي ، وعرفتُ أن الناسَ
 مُكذِّبِي ، ففعدتُ مُعْتزِلاً حزيناً » ، فرُّ به عدوُّ الله أبو جهل ، فجاء حتَّى جلسَ إليه
 فقال له كالمستهزئ : هل كان من شيء ؟ فقال رسولُ الله ﷺ : « نعم » قال : وما هو ؟
 قال : « إنه أُسريَ بي الليلة » قال : إلى أين ؟ قال : « إلى بيت المقدس » قال : ثمَّ
 أصبحتَ بين ظهرائِنَا ؟ قال : « نعم » فلم ير أنه يَكْذِبُه ، مخافة أن يحدِّثَ الحديثَ إذا دعا
 قومهَ إليه ، قال : أرايتَ إن دعوتُ قومكَ أتحدِّثُهم ما حدَّثتني ؟ قال : « نعم » قال : هيا
 معشرَ بني كعبِ بن لؤي حتَّى قال : فانتقضتُ إليه المجالسُ وجاءوا حتَّى جلسوا إليهما قال :
 حدِّثْ قومكَ بما حدَّثتني ، فقال رسولُ الله ﷺ : « إني أُسريَ بي الليلة » قالوا : إلى
 أين ؟ قال : « إلى بيت المقدس » قالوا : ثمَّ أصبحتَ بين ظهرائِنَا ؟ قال : « نعم » قال :
 فن بين مصفّقٍ ومن بين واضعِ يده على رأسه متعجباً للكذب - زعم - قالوا : وهل تستطيعُ
 أن تنعتَ لنا المسجدَ ؟ وفي القوم من قد سافرَ إلى ذلك البلدِ ورأى المسجدَ ، فقال رسولُ
 الله ﷺ : « فذهبتُ أنعتُ فمازلتُ انعتُ حتَّى التبسَ عليَّ بعضُ النعتِ قال :
 فجيء بالمسجدِ وأنا أنظرُ حتَّى وُضِعَ دون دار عقابٍ أو عَقِيلٍ فنعتُهُ ، وأنا أنظرُ
 إليه قال : وكانَ مع هذا نعتٌ لم أحفظُهُ » قال : فقال القومُ : أمَّا النعتُ فوالله لقد
 أصابَ .

١٤٨ - * روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « ليلةٌ

١٤٧ - أحمد في مسنده (٣٠٩ / ١) والبخاري : كشف الأستار (٤٦ / ١) ، وأورده الميثقي في جمع الزوائد (٦٥ / ١)
 وقال : رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح .
 فطلعت بأمرِي : أي : اشتد علي رهبته .

١٤٨ - البخاري (٤٧٦ / ٦) - ٦٠ - كتاب أحاديث الأنبياء - ٤٨ - باب : قول الله تعالى : ﴿ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ
 انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ .

ومسلم (١٥٤ / ١) ، ١ - كتاب الإيمان - ٧٤ - باب : الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلاة .
 والترمذي (٣٠٠ / ٥) - ٤٠ - كتاب التفسير - ١٨ - باب : ومن سورة بني إسرائيل .
 مضطرب : رجل مضطرب الخلقة ، يجوز أن يُريد به : أنه غير متناسب الخلقة ، وأن أعضائه متباينة ، لكنه قال
 في حديث آخر في صفة موسى عليه السلام : « إنه ضربٌ من الرجال » والضرب : الرقيق ، فيجوز على هذا أن =

أُسْرِيَ بِهِ لَقِيتُ مُوسَى ، قَالَ : فَنَعْتُهُ فَإِذَا رَجُلٌ - حَسِبْتُهُ قَالَ : مُضْطَرِبٌ - رَجُلُ الرَّأْسِ ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَةَ ، قَالَ : وَلَقِيتُ عِيسَى ، فَنَعْتُهُ النَّبِيُّ ﷺ ، رُبْعَةً أَحْمَرُ كَأَنَّا خَرَجَ مِنْ دِيْمَاسٍ - يَعْنِي : الْحَمَامُ - وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ ، وَأَنَا أَشْبُهُ وَلَدَهُ بِهِ ، قَالَ : وَأُتِيتُ بِإِنْسَاءٍ مِنْ أَحَدِهِمَا لَبَنٌ ، وَالْآخَرُ فِيهِ خَمْرٌ ، فَقِيلَ لِي : خُذْ أُيُّهُمَا شِئْتَ ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُهُ ، فَقِيلَ لِي : هُدَيْتَ الْفِطْرَةَ - أَوْ أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ - أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ غَوْتَ أَمْتَكَ » .

وفي رواية نحوه ، وفيه : « فَإِذَا مُوسَى ، ضَرَبَ مِنَ الرِّجَالِ ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَةَ » .

في رواية لمسلم ^(١) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحِجْرِ ، وَقُرَيْشٍ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَائِي ؟ فَسَأَلْتَنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أَثْبِتْهَا ، فَكُرِّبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِّبْتُ مِثْلَهَا قَطُّ ، قَالَ : فَرَفَعَهُ اللَّهُ لِي ، أَنْظِرْ إِلَيْهِ ، مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ ، وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، فَإِذَا مُوسَى قَائِمٌ يُصَلِّي ، فَإِذَا رَجُلٌ ضَرَبَ جَعْدٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَةَ ، وَإِذَا عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ قَائِمٌ يُصَلِّي ، أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبْهًا عُرُوهُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ ، وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِمٌ يُصَلِّي ، أَشْبُهُ النَّاسَ بِهِ : صَاحِبُكُمْ - يَعْنِي نَفْسَهُ فَحَانتِ الصَّلَاةُ فَأَمَمْتُهُمْ ، فَلَمَّا فَرَعْتُ مِنَ الصَّلَاةِ قَالَ قَائِلٌ : يَا مُحَمَّدُ هَذَا مَالِكُ صَاحِبِ النَّارِ ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ ، فَالْتَفَتْتُ إِلَيْهِ ، فَبَدَأَنِي بِالسَّلَامِ » .

= يكون قوله : « مضطرب » أنه مُتَعَمِّلٌ مِنَ الضَّرْبِ ، أَيْ : أَنَّهُ مُسْتَدَقٌّ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . دِيْمَاسُ : الدِيْمَاسُ فِي اللُّغَةِ الظُّلْمَةُ ، وَيُسَمَّى الْكَنْ دِيْمَاسًا ، وَالشَّرْبُ دِيْمَاسًا ، وَقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْحَدِيثِ مَفْسُورًا بِالْحَمَامِ ، وَلَمْ أَرَهُ فِي اللُّغَةِ ، وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ فِي كِتَابِ (الصَّحاح) فِي تَفْسِيرِ الْحَدِيثِ : إِنَّهُ أَرَادَ بِهِ : الْكَنْ ، وَكَذَلِكَ قَالَ الْمَرْوِيُّ : أَرَادَ بِهِ الْكَنْ أَوْ الشَّرْبَ . الْفِطْرَةُ : الْخَلْقَةُ ، وَالْفِطْرَةُ . الْإِسْلَامُ . غَوْتُ : الْغِيْ ؛ الصَّلَالُ ، وَهُوَ ضِدُّ الرِّشَادِ .

(١) مسلم (١ / ١٥٦) ١ - كِتَابُ الْإِيمَانِ - ٧٥ - بَابُ : ذِكْرُ الْمَسِيحِ بْنِ مَرْيَمَ وَالْمَسِيحِ الدَّجَالِ .

١٤٩ - * روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أَتَيْتُ عَلَى مُوسَى لَيْلَةَ أُشْرِي بِي عِنْدَ الْكُثَيْبِ الْأَحْمَرِ وَهُوَ قَائِمٌ يَصَلِّي فِي قَبْرِهِ » .

١٥٠ - * روى عبد الله بن أحمد عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَفَرَجَ صَدْرِي ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاءٍ زَمْزَمَ ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا فَأَفْرَعَهَا فِي صَدْرِي ثُمَّ أَطْبَقَهَا ثُمَّ أَخَذَ بِيَدَيَّ فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ فَلَمَّا جَاءَ السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَافْتَتَحَ ، قَالَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قَالَ : هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ : قَالَ : نَعَمْ ، مَعِيَ مُحَمَّدٌ : قَالَ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ، قَالَ : نَعَمْ فَافْتَحَ ، فَلَمَّا عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا إِذَا رَجُلٌ عَنْ يَمِينِهِ أَسْوَدَةٌ ، وَعَنْ يَسَارِهِ أَسْوَدَةٌ ، وَإِذَا نَظَرَ قَبْلَ يَمِينِهِ تَبَسَّمَ ، وَإِذَا نَظَرَ قَبْلَ يَسَارِهِ بَكَى ، قَالَ : مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْإِبْنِ الصَّالِحِ ، قَالَ : قُلْتُ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ هَذَا آدَمُ وَهَذِهِ الْأَسْوَدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ نِسَمٌ بَنِيهِ فَأَهْلُ الْيَمِينِ هُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَالْأَسْوَدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ فَإِذَا نَظَرَ قَبْلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ ، وَإِذَا نَظَرَ قَبْلَ شِمَالِهِ بَكَى ، قَالَ : ثُمَّ عَرَجَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى جَاءَ السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ فَقَالَ لِخَازِنِهَا : افْتَحْ ، فَقَالَ لَهُ خَازِنُهَا مِثْلَ مَا قَالَ خَازِنُ سَمَاءِ الدُّنْيَا فَفَتَحَ لَهُ » .

١٥١ - * روى الحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت : لَمَّا أُشْرِيَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى أَصْبَحَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِذَلِكَ ، فَارْتَدَّتْ نَاسٌ مِمَّنْ كَانُوا آمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ وَسَعَوْا بِذَلِكَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالُوا : هَلْ لَكَ إِلَى صَاحِبِكَ يَزْعُمُ أَنَّهُ

١٤٩ - مسلم (٤ / ١٨٤٥) - ٤٢ - كتاب الفضائل - باب من فضائل موسى عليه السلام .

والنسائي (٣ / ٢١٥) . كتاب قيام الليل ، باب : ذكر صلاة نبي الله موسى عليه السلام .
الكثير : الرمل المرتفع المستطيل المحدود .

١٥٠ - المسند (٥ / ١٤٢) .

مجمع الزوائد (١ / ٦٦) وقال : رواه عبد الله من زياداته على أبيه ورجاله رجال الصحيح .

أسودة : جمع قلة لسواد وهو الشخص لأنه يرى من بعيد أسود .

١٥١ - المستدرک (٢ / ٦٢) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَقَالَ : أَوْ قَالَ ذَلِكَ قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ لَئِنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ . قَالُوا : أَوْ تَصَدَّقَهُ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ ؟ قَالَ . نَعَمْ إِنِّي لأُصَدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ أَصَدَّقُهُ بِخَيْرِ السَّمَاءِ فِي غَدْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ فَلِذَلِكَ سُمِّيَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقَ .

١٥٢ - * روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَقُرِّئُ أَمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ ، وَأَخْبِرُهُمْ : أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ ، عَذْبَةُ الْمَاءِ ، وَأَنَّهَا قِيَعَانٌ ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا : سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ » .

١٥٣ - * روى مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ انْتَهَى بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ، وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ فَيَقْبَضُ مِنْهَا ، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يَهْبِطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيَقْبَضُ مِنْهَا . قَالَ ﷺ : إِذْ يَفْشَى السِّدْرَةُ مَا يَفْشَى ﷻ (١) قَالَ : فَرَأَى مِنْ ذَهَبٍ ، قَالَ : فَأَعْطِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثًا : أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَغَفَرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا الْمَقْحَمَاتِ .

وفي رواية الترمذي (٢) قَالَ : لَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى ، قَالَ : انْتَهَى إِلَيْهَا مَا يُعْرَجُ مِنَ الْأَرْضِ وَمَا يَنْزِلُ مِنْ فَوْقِ ، فَأَعْطَاهُ اللَّهُ عِنْدَهَا ثَلَاثًا ، لَمْ يُعْطِ نَبِيًّا كَانَ قَبْلَهُ : فَرِضْتُ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ خَمْسًا ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَغَفَرَ لِأُمَّتِهِ الْمَقْحَمَاتِ

١٥٢ - الترمذي (٥١٠ / ٥) ٤٩ - كتاب الدعوات - باب : ٥٩ . وحسنه وهو كما قال (م) .

قِيَعَانٌ : جمع قاع ، وهو المكان المستوي الواسع في وطاء من الأرض يعلوه ماء السماء فيسكه ويستوي نباته ، ويجمع القاع : قيعاة ، وقيعاناً . غِرَاسُهَا : الغراس : مصدر غَرَسْتُ الشجرة غرساً وغِرَاساً : إذا نَصَبْتُهَا فِي الْأَرْضِ .

١٥٣ - مسلم (١٥٧ / ١) ١ - كتاب الإيمان (٧٦) - باب في ذكر سدرَةِ الْمُنْتَهَى . والنسائي (٢٢٣ / ١) .

فَرَأَى مِنْ ذَهَبٍ : الغراس : هذا الحيوان الذي يرمي نفسه في النار وضوء السراج . المقحمت : هي الذنوب التي تقحم صاحبها في النار ، أي : تلقيه فيها .

(١) النجم : ١٦ .

(٢) الترمذي (٣٩٣ / ٥) ٤٨ - كتاب تفسير القرآن - ٥٤ - باب : ومن سورة النجم قال أبو عيسى : هذا حديث

حسن صحيح

ما لَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا . قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : ﴿ إِذْ يَفْشَى السُّدْرَةُ مَا يَفْشَى ﴾ قَالَ : السُدْرَةُ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ ، قَالَ سَفِيَّانٌ : فَرَّاشٌ مِنْ ذَهَبٍ ، وَأَشَارَ سَفِيَّانُ بِيَدِهِ فَأَرَعَدَهَا .

وفي رواية « إليها ينتهي علمُ الخلق ، لا علمُ لهم بما فوق ذلك » .

جاء في هذه الرواية أنَّ سُدْرَةَ المنتهى في السماء السادسة ، وهذا خلاف المشهور .

قال الحافظ ابن حجر :

وقال القرطبي في (المفهم) : ظاهر حديث أنس أنها في السابعة لقوله بعد ذكر السماء السابعة « ثم ذهب بي إلى السُدْرَةِ » وفي حديث ابن مسعود أنها في السادسة ، وهذا تعارض لاشك فيه ، وحديث أنس هو قول الأكثر ، وهو الذي يقتضيه وصفها بأنها التي ينتهي إليها علم كل نبي مرسل وكل ملك مقرب على ما قال كعب ، قال : وما خلفها غيب لا يعلمه إلا الله أو من أعلمه ، وبهذا جزم إسماعيل بن أحمد ، وقال غيره : إليها تنتهي أرواح الشهداء ، قال : ويترجح حديث أنس بأنه مرفوع ، وحديث ابن مسعود موقوف ، كذا قال .

١٥٤ - * روى البزار والطبراني عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : « بَيْنَا أَنَا قَاعِدٌ إِذْ جَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَوَكَّرَ بَيْنَ كَتِفَيَّ فَقَمْتُ إِلَى شَجَرَةٍ فِيهَا كَوْكَبِي الطَّيْرُ فَقَعَدْتُ فِي أَحَدِهَا وَقَعَدْتُ فِي الْآخَرِ ، فَسَمْتُ وَارْتَفَعْتُ حَتَّى سَدْتُ الْحَافِقَيْنِ وَأَنَا أَقْلَبُ طَرْفِي وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَمْسَّ السَّمَاءَ لَمَسَسْتُ ، فَالْتَفَتُ إِلَى جِبْرِيلَ كَأَنَّهُ جَلَسَ لَاطِيٍّ فَعَرَفْتُ فَضْلَ عِلْمِهِ بِاللَّهِ عَلَيَّ وَفَتَحَ بَابَ مَنْ أَبْوَابِ السَّمَاءِ وَرَأَيْتُ النُّورَ الْأَعْظَمَ ، وَإِذَا دُونَ الْحِجَابِ رَفْرَفَةُ الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ فَأُوحِيَ إِلَيَّ مَا شَاءَ أَنْ يُوحَى » .

١٥٥ - * روى البخاري عن قتادة بن دعامة : عن أنس بن مالك بن صعصعة : أنَّ نبيَّ

١٥٤ - البزار : كشف الأستار (١ / ٤٧) .

جمع الزوائد (١ / ٧٥) وقال . رواه البزار والطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح .
لاطمىء : لطمأً بالشيء لطمأً : لثق . المجلس : ما ولي ظهراً لدابة والقتب والسرجه ، وما يبسط في البيت من حصيرة ونحوه ، ويقال هو مجلس بيته : لا يبرحه .

١٥٥ - البخاري (٢ / ٢٠١) ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار - ٤٢ - باب المعراج .

الله ﷺ حدثه عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِي ، قَالَ : « تَيْنَا أَنَا فِي الْحَاطِمِ - وَرَبِّمَا قَالَ : فِي الْحِجْرِ - مُضْطَجِعًا - إِذْ أَتَانِي أَتٍ فَقَدْ - قَالَ : وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : فَشَقَّ - مَا بَيْنَ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ ، فَقُلْتُ لِلْجَارُودِ ، وَهُوَ إِلَى جَنْبِي : مَا يَعْنِي بِهِ ؟ قَالَ : مِنْ ثَغْرَةِ نَحْرِهِ إِلَى شَعْرَتِهِ ، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : مِنْ قَصِّهِ إِلَى شَعْرَتِهِ ، فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي ، ثُمَّ أُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ إِيْمَانًا ، فَغَسَلَ قَلْبِي ، ثُمَّ حَشِي ، ثُمَّ أُعِيدَ ، ثُمَّ أُتِيتُ بِدَابَّةٍ ، دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ أَيْضًا ، فَقَالَ لَهُ الْجَارُودُ : هُوَ الْبَرَّاقُ يَا أَبَا حَمَزَةَ ؟ فَقَالَ أَنَسٌ : نَعَمْ يَضَعُ خَطْوُهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرْفِهِ ، فَحُمِلْتُ عَلَيْهِ ، فَاِنْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الدُّنْيَا ، فَاسْتَفْتَحَ ، فَقِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قِيلَ : مَرْحَبًا بِهِ ، فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ ، فَفَتَحَ ، فَلَمَّا خَلَصْتُ ، فَإِذَا فِيهَا آدَمُ ، فَقَالَ : هَذَا أَبُوكَ آدَمُ ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَزَدَ السَّلَامَ ، وَقَالَ : مَرْحَبًا بِالابْنِ الصَّالِحِ ، وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ ، ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ ، فَاسْتَفْتَحَ ، قِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قَالَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قِيلَ : مَرْحَبًا بِهِ ، فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ ، فَفَتَحَ ، فَلَمَّا خَلَصْتُ ، فَإِذَا يَحْيَى وَعِيسَى وَهُمَا ابْنَا خَالَةٍ ، قَالَ : هَذَا يَحْيَى وَعِيسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِمَا ، فَسَلَّمْتُ ، فَزَدَا ، ثُمَّ قَالَ : مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ ، ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَاسْتَفْتَحَ ، قِيلَ مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ

= إِذْ أَتَانِي أَتٍ : هُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ . ثَغْرَةُ النَحْرِ : الثَّغْرَةُ : النُقْرَةُ الَّتِي بَيْنَ التَّرْقُوتَيْنِ . الْقَصُّ : رَأْسُ الصَّدْرِ ، وَقِيلَ : وَسَطُهُ .

قال الحافظ في الفتح : قوله « إيماناً » زاد في بدء الخلق « وحكمة » وهما بالنصب على التمييز ، قال النووي : معناه أن الطست كان فيها شيء يحصل به زيادة كمال الإيمان وكمال الحكمة وهذا الملاءم يحتمل أن يكون على حقيقته ، وتحميد المعاني جائزة كما جاء أن سورة البقرة تجيء يوم القيامة كلها طلة ، واللوت في صورة كبش ، وكذلك وزن الأعمال وغير ذلك من أحوال الغيب . وقال البيضاوي : لعل ذلك من باب التمثيل ، إذ تمثيل للمعاني قد وقع كثيراً ، كما مثلت له الجنة والنار في عرض الحائط ، وفائدته كشف المعنوي بالحسوس . وقال ابن أبي حرة : فيه أن الحكمة ليس بعد الإيمان أجل منها ، ولذلك قرنت معه ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ مَا يَحْكُمُ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَهُوَ يُعَلِّمُ مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يُعَلِّمُ ۚ ﴾ .

مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قِيلَ : مَرْحَبًا بِهِ ،
فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ ، فَلَمَّا خَلَصْتُ ، إِذَا يُوسُفُ (١) ، قَالَ : هَذَا يُوسُفُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ ،
فَسَلِّمْتُ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ ، ثُمَّ قَالَ : مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ ، ثُمَّ صَعِدَ بِي
حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ ، فَاسْتَفْتَحَ ، قِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ
وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قِيلَ : مَرْحَبًا بِهِ
فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ ، فَفَتَحَ ، فَلَمَّا خَلَصْتُ ، فَإِذَا إِدْرِيسُ ، قَالَ : هَذَا إِدْرِيسُ
فَسَلِّمْ عَلَيْهِ ، فَسَلِّمْتُ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ ، ثُمَّ قَالَ : مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ ثُمَّ
صَعِدَ بِي ، حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الْخَامِسَةَ ، فَاسْتَفْتَحَ ، قِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ :
جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ
قِيلَ : مَرْحَبًا بِهِ ، فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ ، فَلَمَّا خَلَصْتُ ، فَإِذَا هَارُونَ ، قَالَ : هَذَا
هَارُونَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ ، فَسَلِّمْتُ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ ، ثُمَّ قَالَ : مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ
الصَّالِحِ ، ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ السَّادِسَةَ ، فَاسْتَفْتَحَ ، قِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ :
جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ
قِيلَ : مَرْحَبًا بِهِ ، فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ ، فَلَمَّا خَلَصْتُ ، فَإِذَا مُوسَى ، قَالَ : هَذَا
مُوسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِ ، فَسَلِّمْتُ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ ، ثُمَّ قَالَ : مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ
الصَّالِحِ ، فَلَمَّا تَجَاوَزْتُ بَكَّى ، قِيلَ لَهُ : مَا يُبْكِيكَ ؟ قَالَ : أَبُكِّي ، لِأَنَّ غَلَامًا
بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّا يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي ، ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلَى
السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ :
وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قِيلَ : مَرْحَبًا

(١) قال الحافظ في الفتح : قوله « فلما خلصت إذا يوسف » زاد مسلم في رواية ثابت عن أنس : « فإذا هو قد أعطي
شطر الحسن » وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي وأبي هريرة عند ابن عائذ والطبراني : « فإذا أنا برجل أحسن ما
خلق الله ، قد فضل الناس بالحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب » وهذا ظاهره أن يوسف عليه السلام كان
أحسن من جميع الناس ، لكن روى الترمذي من حديث أنس : ما بعث الله نبياً إلا حسن الوجه حسن الصوت وكان
نبياً أحسنهم وجهاً وأحسنهم صوتاً ، فعلى هذا يحمل حديث المعراج على أن المراد غير النبي ﷺ ، ويؤيده قول من
قال : إن التكلم لا يدخل في عموم خطابه ، وأما حديث الباب فقد حمله ابن اللين على أن المراد : أن يوسف أعطي
شطر الحسن الذي أوتيته نبينا ﷺ ، والله أعلم .

به ، ونعم المجيء جاء ، فلما خلصت ، فإذا إبراهيم ، قال : هذا أبوك ، فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد السلام ، ثم قال : مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح ، ثم رفعت إلى سدره المنتهى فإذا نبهها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة ، قال : هذه سدره المنتهى ، فإذا أربعة أنهار : نهران باطنان ، ونهران ظاهران ، فقلت : ما هذان يا جبريل ؟ قال : أما الباطنان ، فهذان في الجنة ، وأما الظاهران ، فالنيل والفرات ^(١) ، ثم رفع لي البيت المعمور ، ثم أتيت ياناء من خمر وياناء من لبن ، وإناء من عسل ، فأخذت اللبن ، فقال : هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك ، قال : ثم فرضت علي الصلاة ، خمسين صلاة كل يوم ، فرجعت فمررت على موسى ، فقال : بم أمرت ؟ قلت : أمرت بخمسين صلاة كل يوم ، قال : إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم ، وإني والله قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فرجعت فوضع عني عشر ، فرجعت إلى موسى ، فقال مثله ، فرجعت ، فوضع عني عشر ، فرجعت إلى موسى ، فقال مثله ، فرجعت فوضع عني عشر ، فرجعت إلى موسى ، فقال مثله ، فرجعت فأمريت بعشر صلوات كل يوم ، فرجعت فقال مثله ، فرجعت فأمريت بخمس صلوات كل يوم ، قال : إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم ، وإني قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك ، فاسأله التخفيف لأمتك ، قال : سألت ربي حتى استحييت ، ولكن أرضى وأسلم ، فلما جاوزت ، نادى مناد : أمضيت فريضتي ، وخففت عن عبادي .

= تَبَقُّها مثل لَقال هجر : النبق : معروف ، أراد : ثمرة سدرۃ المنتهى و«القلال» جمع قُلَّة ، وهي الحَبُّ يسع مرادة من الماء ، ونُسِبَت إلى « هجر » لأنها تعرف بها . سِدرة المنتهى : السدر : شجر النبق ، وأما سدرۃ المنتهى ، فهي شجرة في أقصى الجنة ، إليها ينتهي علم الأولين والآخرين .

(١١) قال القرطبي « وقيل إنما أطلق على هذه الأنهار أنها من الجنة تشبيهاً لها بأنهار الجنة لما فيها من شدة العزوبة والحسن والبركة .

وفي رواية (١) : « بَيْنَا أَنَا عِنْدَ الْبَيْتِ بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ » وفيه : « ثُمَّ غَسِلَ الْبَطْنَ بِمَاءِ زَمْزَمَ ، ثُمَّ مَلِيَ حِكْمَةً وَإِيمَاناً » وفيه : « فَرَفَعَ لِي الْبَيْتَ الْمَعْمُورَ ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ ؟ فَقَالَ : هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ ، يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخَرُ مَا عَلَيْهِمْ » وفي آخِرِهِ « وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي ، وَأَجْزِي بِالْحَسَنَةِ عَشْرًا » .

وفي أخرى (٢) : « بَيْنَا أَنَا عِنْدَ الْبَيْتِ ، بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ ، إِذْ سَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ : أَحَدَ الثَّلَاثَةِ ، بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ ، فَأَتَيْتُ ، فَانْطَلِقَ بِي ، فَأَتَيْتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ ، فِيهَا مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ ، فَشَرَحَ صَدْرِي إِلَى كَذَا وَكَذَا - يَعْنِي إِلَى أَسْفَلِ بَطْنِهِ » .

وفي أخرى (٣) : « فَأَتَيْتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِي حِكْمَةً وَإِيمَاناً ، فَشَقُّ مِنْ النَّحْرِ إِلَى مِرْقِ الْبَطْنِ ، فَغَسِلَ بِمَاءِ زَمْزَمَ » .

وأخرجه النسائي (٤) نحوه بمعناه وأخصر منه ، وهذا أتم وأطول .

وأخرجه الترمذي (٥) إلى قوله : « فَغَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ ، ثُمَّ أُعِيدَ مَكَانَهُ ، ثُمَّ حُثِيَ إِيمَاناً وَحِكْمَةً » ، قَالَ التِّرْمِذِيُّ : وفي الحديث قصة طويلة ، وَلَمْ يَذْكُرْهَا .

قال الحافظ في الفتح : وقد استنكر بعضهم وقوع شق الصدر ليلة الإسراء وقال : إنما كان ذلك وهو صغير في بني سعد ، ولا إنكار في ذلك ، فقد تواردت الروايات به ، وثبت شق الصدر أيضاً عند البعثة كما أخرجه أبو نعيم في (الدلائل) ولكل منها حكمة فالأول وقع فيه من الزيادة كما عند مسلم من حديث أنس « فأخرج علقه فقال : هذا حظ الشيطان

(١) للبخاري (٢٠٢ / ٦) - ٥٩ - كتاب بدء الخلق - ٦ - باب : ذكر الملائكة .

(٢) لمسلم (١٥٠ / ١) - ١ - كتاب الإيمان - ٧٤ - باب : الإسراء برسول الله ﷺ .

(٣) لمسلم (١٥١ / ١) - ١ - كتاب الإيمان - ٧٤ - باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات .

(٤) النسائي (٢١٧ / ١) كتاب الصلاة ، باب فرض الصلاة .

(٥) الترمذي (٤٤٢ / ٥) - ٤٨ - كتاب التفسير - ٨٢ - باب : ومن سورة ألم نشرح . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح

منك » وكان هذا في زمن الطفولة فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان ، ثم وقع شق الصدر عند البعث زيادة في إكرامه ؛ ليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهير ، ثم وقع شق الصدر عند إرادة العروج إلى السماء ؛ ليتأهب للمناجاة ، ويحتمل أن تكون الحكمة في هذا الغسل ؛ لتقع المبالغة في الإسباغ بحصول المرة الثالثة كما تقرر في شرعه ﷺ . ويحتمل أن تكون الحكمة في انفراج سقف بيته الإشارة إلى ما سيقع من شق صدره وأنه سيلتئم بغير معالجة يتضرر بها ، وجميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصفه عن حقيقته ؛ لصلاحية القدرة فلا يستحيل شيء من ذلك ، قال القرطبي في (المفهم) : لا يلتفت لإنكار الشق ليلة الإسراء لأن رواته ثقات مشاهير .

ثم قال : وفي الحديث من الفوائد غير ما تقدم : أن للسما أبواباً حقيقة وحفظة موكلين بها ، وفيه إثبات الاستئذان ، وأنه ينبغي لمن يستأذن أن يقول : أنا فلان ، ولا يقتصر على (أنا) لأنه ينافي المطلوب الاستفهام ، وأن المأز يسلم على القاعد وإن كان المأز أفضل من القاعد ، وفيه استحباب تلقي أهل الفضل بالبشر والترحيب والثناء والدعاء ، وجواز مدح الإنسان المأمون عليه الافتتان في وجهه ، وفيه جواز الاستناد إلى القبلة بالظهر وغيره مأخوذ من استناد إبراهيم إلى البيت المعمور وهو كالكعبة في أنه قبلة من كل جهة ، وفيه جواز نسخ الحكم قبل وقوع الفعل ، وقد سبق البحث فيه في أول الصلاة ، وفيه فضل السير بالليل على السير بالنهار لما وقع من الإسراء بالليل ، ولذلك كانت أكثر عبادته ﷺ بالليل ، وكان أكثر سفره ﷺ بالليل ، وقال ﷺ « عليكم بالدجلة فإن الأرض تطوى بالليل » وفيه أن التجربة أقوى في تحصيل المطلوب من المعرفة الكثيرة ، يستفاد ذلك من قول موسى عليه السلام للنبي ﷺ أنه عالج الناس قبله وجربهم ، ويستفاد منه تحكيم العادة ، والتنبيه بالأعلى على الأدنى لأن من سلف من الأمم كانوا أقوى أبداناً من هذه الأمة ، وقد قال موسى في كلامه إنه عالجه على أقل من ذلك فما وافقوه ، أشار إلى ذلك ابن أبي جرة قال : ويستفاد منه أن مقام الخلعة مقام الرضا والتسليم ، ومقام التكليم مقام الادلال والانبساط ، ومن ثم استبد موسى بأمر النبي ﷺ بطلب التخفيف دون إبراهيم عليه

السلام ، مع أن للنبي ﷺ من الاختصاص بإبراهيم أزيد مما له من موسى لمقام الأبوة ورفعته المنزلة والاتباع في الملة ، وقال غيره : الحكمة في ذلك ما أشار إليه موسى عليه السلام في نفس الحديث من سبقه إلى معالجة قومه في هذه العبادة بعينها وأنهم خالفوه وعصوه ، وفيه أن الجنة والنار قد خلقتا ، لقوله في بعض طرقه التي بينها « عرضت على الجنة والنار » وفيه استحباب الإكثار من سؤال الله تعالى وتكثير الشفاعة عنده ، لما وقع منه في إجابته مشورة موسى في سؤال التخفيف ، وفيه فضيلة الاستحياء ، وبذل النصيحة لمن يحتاج إليها وإن لم يستشر الناصح في ذلك . اهـ .

١٥٦ - * روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان أبو ذر يحدث أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : قَالَ : « فَرَجَ سَقْفُ يَتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَفَرَجَ صَدْرِي ، ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِيٍّ حِكْمَةً وَإِيمَانًا ، فَأَفْرَغَهَا فِي صَدْرِي ، ثُمَّ أَطْبَقَهُ ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي ، فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ ، فَلَمَّا جِئْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا قَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِحَازِنِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا : افْتَحْ ، قَالَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : هَذَا جِبْرِيلُ ، قَالَ : هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، مَعِيَ مُحَمَّدٌ ﷺ ، قَالَ : فَأَرْسِلْ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَفَتَحَ ، قَالَ ، فَلَمَّا عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَإِذَا رَجُلٌ عَنْ يَمِينِهِ أَسْوَدَةٌ ، وَعَنْ يَسَارِهِ أَسْوَدَةٌ ، قَالَ : فَإِذَا نَظَرْتُ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ ، وَإِذَا نَظَرْتُ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى ، قَالَ : فَقَالَ : مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ ، وَالْإِبْنِ الصَّالِحِ ، قَالَ : قُلْتُ : يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَذَا ، قَالَ : هَذَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهَذِهِ الْأَسْوَدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ أَهْلُ الْجَنَّةِ ، وَالْأَسْوَدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ ، فَإِذَا نَظَرْتُ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ ، وَإِذَا نَظَرْتُ

١٥٦ - مسلم (١ / ١٤٨) - كتاب الإيمان - ٧٤ - باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات .

والبخاري (١ / ٤٥٨) - ٨٠ - كتاب الصلاة - ١ - باب : كيف فرضت الصلوات في الإسراء ؟

الأسود : جمع سواد ، والسواد : الشخص ، إنساناً كان أو غيره ، أراد : وحوله أشخاص . ثم بنى : النسم جمع نسمة ، وهي كل شيء فيه روح ، وقيل : (النسمة) النفس والروح .

ظهرت لمستوى : أي : علوت وارتفعت . وصرت على ظهره ، والمستوى : المكان المستوي . صريف الأقدام :

الصريف : الصوت ، ومنه : صريف البكرة ، وصريف ناب البعير . الجنابذ : القصور .

قَبْلَ شِمَالِهِ بَكَى ، قَالَ : ثُمَّ عَرَجَ بِي جِبْرِيلُ ، حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ ، فَقَالَ لِحَاظِنِهَا : افْتَحْ ، قَالَ : فَقَالَ لَهُ حَاظِنُهَا مِثْلَ مَا قَالَ حَاظِنُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَفَتَحَ . فَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ : فَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ فِي السَّمَوَاتِ آدَمَ وَإِدْرِيسَ وَعِيسَى وَمُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

وَلَمْ يَثْبُتْ كَيْفَ مَنَازِلِهِمْ ، غَيْرَ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ قَدْ وَجَدَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، وَإِبْرَاهِيمَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ - قَالَ : « فَلَمَّا مَرَّ جِبْرِيلُ وَرَسُولُ اللَّهِ بِإِدْرِيسَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، قَالَ : مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ ، قَالَ : ثُمَّ مَرَّ ، فَقُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : هَذَا إِدْرِيسُ ، قَالَ : ثُمَّ مَرَرْتُ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ : مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ ، قَالَ : قُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : هَذَا مُوسَى ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِعِيسَى ، فَقَالَ : مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ ، قَالَ : قُلْتُ مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : هَذَا عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ ، قَالَ : ثُمَّ مَرَرْتُ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ : مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ ، وَالْأَخِ الصَّالِحِ ، قَالَ : قُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ إِبْرَاهِيمُ . »

قال ابن شهاب : وأخبرني ابن حزم ، أن ابن عباس وأبا جبة الأنصاري كانا يقولان : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « ثُمَّ عَرَجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيْفَ الْأَقْلَامِ » .

قال ابن حزم وأنس بن مالك : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « فَفَرَضَ اللَّهُ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً ، قَالَ : فَارْجَعْتُ بِذَلِكَ ، حَتَّى أَمُرُ بِمُوسَى ، فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَاذَا قَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ ؟ قَالَ : قُلْتُ : قَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسِينَ صَلَاةً ، قَالَ لِي مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : فَارْجِعْ رَبُّكَ ، فَإِنْ أُمَّتُكَ لَا تَطِيقُ ذَلِكَ ، قَالَ : فَارْجَعْتُ رَبِّي ، فَوَضَعَ شَطْرَهَا ، قَالَ : فَارْجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرْتَهُ ، قَالَ : رَاجِعْ رَبُّكَ ، فَإِنْ أُمَّتُكَ لَا تَطِيقُ ذَلِكَ ، قَالَ : فَارْجَعْتُ رَبِّي ، فَقَالَ : هِيَ خَمْسٌ ، وَهِيَ خَمْسُونَ لَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ، قَالَ : فَارْجَعْتُ إِلَى مُوسَى ، فَقَالَ : رَاجِعْ رَبُّكَ ، فَقُلْتُ : قَدْ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي ، قَالَ : ثُمَّ انْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى

تَأْتِي سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى ، فَعَسَيْهَا أَلْوَانٌ ، لَا أُدْرِي مَا هِيَ ؟ قَالَ : ثُمَّ أُذْخِلْتُ الْجَنَّةَ ، فَإِذَا فِيهَا جَنَابُذُ اللَّوْلُؤِ ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ .

١٥٧ - * روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ﴿ وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ ^(١) . قَالَ : رَأَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

١٥٨ - * روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ ^(٢) ، وفي قوله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ ^(٣) ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ ^(٤) .

قَالَ فِيهَا كُلُّهَا : رَأَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لَهُ سِتُمَائِيَّةٌ جَنَاحُ - زَادَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ أَيُّ : جِبْرِيلَ فِي صَوْرَتِهِ . كَذَا عِنْدَ مُسْلِمٍ .
وَعِنْدَ الْبُخَارِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا

١٥٧ - مسلم (١ / ١٥٨) - ١ - كتاب الإيمان - ٧٧ - باب : معنى قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ .

١٥٨ - البخاري (٦ / ٣١٣) - ٥٩ - كتاب بدء الخلق - ٧ - باب : إذا قال أحدكم « آمين » وللاطحة في السماء .

ومسلم (١ / ١٥٨) - ١ - كتاب الإيمان - ٧٦ - باب : في ذكر سدره المنتهى .

قَابَ قَوْسَيْنِ : قَابُ الشَّيْءِ : قَدْرُهُ ، وَالْمَعْنَى : فَكَانَ قُرْبُ جِبْرِيلَ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ قَدْرُ قَوْسَيْنِ عَرَبِيَّتَيْنِ ، وَقِيلَ : قَابُ الْقَوْسِ : صَدْرُهَا ، حَيْثُ يَشُدُّ عَلَيْهِ السِّرُّ .

قَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ : (وَالْقَابُ) : مَا بَيْنَ الْقَبِيضَةِ وَالسِّيَةِ مِنَ الْقَوْسِ ، قَالَ الْوَاحِدِيُّ : هَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْمَفْسَرِينَ : أَنَّ الْمُرَادَ : الْقَوْسُ الَّتِي يَرْمِي بِهَا ، قَالَ : وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِهَا : الذَّرَاعُ ، لِأَنَّهُ يُقَاسُ بِهَا الشَّيْءُ ، قُلْتُ : (الْقَائِلُ ابْنُ حَجَرٍ) : وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هَذَا الْقَوْلُ هُوَ الرَّاجِحُ ، فَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ مَرْدُوَيْهِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : (الْقَابُ : الْقَدْرُ ، وَالْقَوْسَانِ : الذَّرَاعَانِ) وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ الْقَوْسُ الَّتِي يَرْمِي بِهَا لَمْ يَثَلْ بِذَلِكَ لِيَحْتَاجَ إِلَى التَّنْثِيَةِ ، فَكَانَ يُقَالُ مِثْلًا : قَابَ رَمَحٍ ، وَغَوْ ذَلِكَ . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّهُ عَلَى الْقَلْبِ ، وَالْمُرَادُ : فَكَانَ قَابُ قَوْسٍ ، لِأَنَّ الْقَابَ : مَا بَيْنَ الْمَقْبِضِ إِلَى السِّيَةِ ، وَلِكُلِّ قَوْسٍ قَابَانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى خَالَفَتِهِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ أَدْنَى ﴾ أَيُّ : أَقْرَبَ . قَالَ الزَّجَّاجُ : خَاطَبَ اللَّهُ الْعَرَبَ بِمَا أَلْفَوْا ، وَالْمَعْنَى : فَمَا تَقْدَرُونَ أَنْتُمْ عَلَيْهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِالْأَشْيَاءِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ ، لَا تَرُدُّ عَنْدَهُ ، وَقِيلَ : « أَوْ » بِمَعْنَى « بَل » وَالتَّقْدِيرُ : بَلْ هُوَ أَقْرَبُ مِنَ التَّقْدِيرِ الْمَذْكُورِ .

(١) النجم : ١٣ .

(٢) النجم : ٩ .

(٣) النجم : ١١ .

(٤) النجم : ١٨ .

أَوْحَى ﴿^(١) قَالَ : رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ سِتَائَةِ جَنَاحٍ .

وَفِي رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ ^(٢) قَالَ : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ قَالَ : رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي حُلَّةٍ مِنْ زُفَرٍ قَدْ مَلَأَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .

وَلِلْبُخَارِيِّ ^(٣) فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ قَالَ : زُفَرًا أَخْضَرَ سَدَّ أَفْقَ السَّمَاءِ .

١٥٩ - * رَوَى أَحْمَدُ وَالطَّبْرَانِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَرَاهُ فِي صُورَتِهِ ، قَالَ : اذْغُ رَبِّكَ عِزًّا وَجَلْ ، فَطَلَعَ عَلَيْهِ سَوَادٌ مِنْ قَبْلِ الْمَشْرِقِ . قَالَ فَجَعَلَ يَرْتَفِعُ وَيَنْتَشِرُ فَلَمَّا رَأَاهُ النَّبِيُّ ﷺ صَعِقَ فَاتَاهُ فَنَعَشَهُ وَمَسَحَ الْبَرَقَ عَنْ شِدْقَيْهِ .

١٦٠ - * رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ ﴿ وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ ^(٤) ، قَالَ : رَأَاهُ بِفُؤَادِهِ ، مَرَّتَيْنِ ، وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ : رَأَاهُ بِقَلْبِهِ ، وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى .

وَفِي رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ ^(٥) قَالَ : رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ ، قُلْتُ : أَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ ^(٦) . قَالَ ، وَيُحَاكُ ، ذَاكَ إِذَا تَجَلَّى بِنُورِهِ الَّذِي هُوَ نُورُهُ ، مَرَّتَيْنِ .

وَفِي أُخْرَى لَهُ ^(٧) : ﴿ وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ

(١) النجم : ٩ ، ١٠ .

(٢) الترمذي : (٥ / ٣٩٦) ٤٨ - كتاب تفسير القرآن - ٥٤ - باب : ومن سورة النجم . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) البخاري : (٦ / ٣١٣) ٥٩ - كتاب بدء الخلق - ٧ - باب : إذا قالت للملائكة آمين والملائكة في السماء .

١٥٩ - أحمد في مسنده (١ / ٣٢٢) ، والطبراني (١١ / ٥٧) . قال الهيثمي (٨ / ٢٥٧) : رواه أحمد والطبراني ورجلها ثقات . ١٦٠ - مسلم (١ / ١٥٨) ١ - كتاب الإيمان - ٧٧ - باب معنى قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ وهل رأى النبي ﷺ ليلة الإسراء .

(٤) النجم : ١١ ، ١٤ .

(٥) الترمذي : (٥ / ٣٩٥) ٤٨ - كتاب تفسير القرآن - ٥٤ - باب : ومن سورة النجم . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

(٦) الأنعام : ١٠٣ . (٧) الترمذي في الموضع السابق .

مَا أَوْحَى ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَدْ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ .

وَلَهُ فِي أُخْرَى : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ قَالَ : رَأَى بِقَلْبِهِ .

١٦١ - * روى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « عُرِضَ عَلَيَّ الْأَنْبِيَاءُ ، فَإِذَا مُوسَى ضَرْبُ مِنَ الرِّجَالِ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَةَ ، وَرَأَيْتُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ ، فَإِذَا أَقْرَبُ مِنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهَا : عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ ، وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَإِذَا أَقْرَبُ مِنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهَا صَاحِبِكُمْ - يَعْنِي نَفْسَهُ - وَرَأَيْتُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَإِذَا أَقْرَبُ مِنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهَا : دِحْيَةُ بْنُ خَلِيفَةَ » .

١٦٢ - * روى البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : قال مجاهد : أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما وذكروا له الدجال مكتوب بين عينيه كافر ، أو ك ف ر - قال : لم أسمعه ولكنه قال : « أَمَّا إِبْرَاهِيمُ ، فَاَنْظُرُوا إِلَى صَاحِبِكُمْ ، وَأَمَّا مُوسَى : فَجَعَدْتُ أَدَمَ ، عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ مَخْطُومٍ بِخُلْبَةٍ ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ أَنْحَدَرَ فِي الْوَادِي » .

وفي رواية ^(١) قَالَ : « ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ فَقَالَ : مُوسَى أَدَمَ طَوَّالٌ ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَةَ ، وَقَالَ : عِيسَى جَعَدْتُ مَرْبُوعٌ ، وَذَكَرَ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ ، وَذَكَرَ الدَّجَالَ » .

زاد في رواية : « وَرَأَيْتُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ مَرْبُوعَ الْخَلْقِ ، إِلَى الْحَمْرَةِ وَالْبَيَاضِ ، سَبِطَ الرَّأْسِ ، وَرَأَيْتُ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ ، وَالدَّجَالَ فِي آيَاتِ أَرَاهَنُ اللَّهِ إِيَّاهُ : ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ﴾ ^(٢) .

١٦١ - مسلم (١ / ١٥٣) - كتاب الإيمان - ٧٤ - باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات .

والترمذي (٥ / ٦٠٤) - ٥٠ - كتاب المناقب - ٢١٢ - باب : في صفة النبي ﷺ .

١٦٢ - البخاري (٦ / ٣٨٨) (٦٠) - كتاب الأنبياء (٨) - باب قول الله تعالى ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ .

خُلْبَةُ : الخُلْبُ : اللَّيْفُ ، وَاحِدَتُهُ خُلْبَةٌ طَوَّالٌ : رَجُلٌ طَوِيلٌ : مِثْلُ طَوِيلٍ .

(١) لاسم (١ / ١٥٣) - كتاب الإيمان - ٧٤ - باب الإسراء برسول الله ﷺ .

(٢) السجدة : ٢٣ .

١٦٣ - * روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ ^(١) . قَالَ : هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ ، أَرَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ إِلَى نَيْتِ الْمَقْدِسِ ، ﴿ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾ هِيَ شَجَرَةُ الرَّقُومِ .
قال الحافظ :

واختلف السلف هل رأى ربه في تلك الليلة أم لا ؟ على قولين مشهورين ، وأنكرت ذلك عائشة رضي الله عنها وطائفة ، وأثبتها ابن عباس وطائفة .

١٦٤ - * روى مسلم عن ابن عباس قال : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ ^(٢) قَالَ : رَآهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ .

١٦٥ - * روى البخاري عن مسروق قال : قُلْتُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : يَا أُمُّنَاءُ ، هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ ﷺ رَبَّهُ ؟ فَقَالَتْ : لَقَدْ قَفَّ شِعْرِي مِمَّا قُلْتَ ، أَيْنَ أَنْتَ مِنْ ثَلَاثٍ مِنْ حَدِّكَمْ فَقَدْ كَذَبَ : مِنْ حَدِّكَ أَنْ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ ، فَقَدْ كَذَبَ ، ثُمَّ قَرَأَتْ ﴿ لَا تُذَكِّرْكَ الْأَبْصَارَ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ^(٣) ﴿ وَمَا كَانَ لِيُشِيرَ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ ^(٤) . وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَقَدْ كَذَبَ ، ثُمَّ قَرَأَتْ : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ ^(٥) . وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ كَتَمَ فَقَدْ كَذَبَ ، ثُمَّ

١٦٣ - البخاري (٢٠٣ / ٧) ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار - ٤٢ - باب المعراج .

الترمذي (٢٠٢ / ٥) ٤٨ - كتاب تفسير القرآن - ١٨ - باب : ومن سورة بني إسرائيل
إلا فتنة للناس : الفتنة : الاختبار والابتلاء ، وقيل : أراد به الافتتان في الدين . وذلك أن النبي ﷺ لما أُسْرِيَ به . وحَدَّثَ الناس بما رَأَى من المعجائب . صدقه بعض الناس وكذَّبه بعضهم ، فافتتنوا بها .

(١) الإسراء : ٦٠ .

١٦٤ - مسلم (١ / ١٥٨) ١ - كتاب الإيمان - ٧٧ - باب معنى قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ ﴿ وَهُوَ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ رَبَّهُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ .

قَفَّ لَهُ شِعْرِي : إِذَا سَمِعَ الْإِنْسَانُ أَمْرًا عَظِيمًا هَائِلًا قَامَ شَعْرُ رَأْسِهِ وَبَدَنُهُ ، فَيَقُولُ : قَدْ قَفَّ شِعْرِي لِذَلِكَ .

(٢) النجم : ١١ ، ١٣ .

١٦٥ - البخاري (٦٠٦ / ٨) ٦٥ - كتاب التفسير ، باب : ١ .

(٣) الأنعام : ١٠٣ .

(٤) الشورى : ٥١ .

(٥) لقمان : ٣٤ .

قَرَأَتْ : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ ^(١) الآية . ولكن رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين .

١٦٦ - * روى الترمذي عن الشعبي رحمه الله قال : لَقِيَ ابْنُ عَبَّاسٍ كَعْبًا بِعَرَفَةَ ، فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ ، فَكَبَّرَ ، حَتَّى جَاوَبَتْهُ الْجِبَالُ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إِنَّا بَنُو هَاشِمٍ ، فَقَالَ كَعْبٌ : إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ رُؤْيَايَ وَكَلَامَهُ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَمُوسَى ، فَكَلَّمَ مُوسَى مَرَّتَيْنِ ، وَرَأَى مُحَمَّدًا مَرَّتَيْنِ ، قَالَ مَسْرُوقٌ : فَدَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، فَقُلْتُ : هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ ؟ فَقَالَتْ : لَقَدْ تَكَلَّمْتُ بِشَيْءٍ قَفَّ لَهُ شَعْرِي ، قُلْتُ : رَوَيْدًا ، ثُمَّ قَرَأْتُ : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ ^(٢) فَقَالَتْ : أَيْنَ يَذْهَبُ بِكَ ؟ إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ ، مَنْ أَخْبَرَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ ، أَوْ كَتَمَ شَيْئًا مِمَّا أَمَرَ بِهِ ، أَوْ يَعْلَمُ الْخَمْسَ الَّتِي قَالَ اللَّهُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ وَيَنْزِلُ الْغَيْثُ ﴾ ^(٣) فَقَدْ أَعْظَمَ الْفِرْيَةَ ، وَلَكِنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ ، لَمْ يَرَهُ فِي صُورَتِهِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ : مَرَّةً عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ، وَمَرَّةً فِي جَنَادٍ لَهُ سِتْعَائِقَةُ جَنَاحٍ ، قَدْ سَدَّ الْأَفْقَ .

١٦٧ - * روى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لَمَّا كَذَّبْتَنِي قُرَيْشٌ قُمْتُ فِي الْحَجْرِ ، فَجَلَا اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ ، فَطَفِقتُ أَخْبِرَهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ » .

وزاد البخاري في رواية قال : « لَمَّا كَذَّبَنِي قُرَيْشٌ حِينَ أُسْرِيَ بِي إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ... » وذكر الحديث .

قال ابن حجر : قال الشيخ ابن أبي جرة :

الحكمة في الإسراء إلى بيت المقدس قبل العروج إلى السماء إرادة إظهار الحق لمعاندة من

(١) المائدة : ٦٧ .

١٦٦ - الترمذي (٣٩٤ / ٥) ٤٨ - كتاب تفسير القرآن - ٥٤ - باب : ومن سورة النجم . وسنده فيه ضعيف ، لكن له طرق وألفاظ أخرى نحوه عند الشيخين . الفرية : الكذب . جياذ : موضع بمكة .

(٢) النجم : ١٨ .

١٦٧ - مسلم (١ / ١٥٦) ١ - كتاب الإيمان - ٧٥ - باب : ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال . والبخاري (١١٦ / ٧) ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار - ٤١ - باب : حديث الإسراء .

(٣) لقمان : ٢٤ .

يريد إخماده ؛ لأنه لو عرج به من مكة إلى السماء لم يجد لمعاندة الأعداء سبيلاً إلى البيان والإيضاح ، فلما ذكر أنه أسري به إلى بيت المقدس سأله عن تعريفات جزئيات من بيت المقدس كانوا رأوها وعلموا أنه لم يكن رآها قبل ذلك ، فلما أخبرهم بها حصل التحقيق بصدقه فيما ذكر من الإسراء إلى بيت المقدس في ليلة ، وإذا صح خبره في ذلك لزم تصديقه في بقية ما ذكره ، فكان ذلك زيادة في إيمان المؤمن وزيادة في شقاء الجاحد والمعانند . انتهى ملخصاً .

أقول : ومن ههنا عدّ من المعجزات التي تقوم بها الحجة على الخلق ، ولولا ذلك لكأنت من الغيوب التي يجب الإيمان بها فقط ، ولكن بإظهاره عليه الصلاة والسلام معاني ما كانت لتكون لولا وقوع الحارق قامت الحجة على الناس بأنها معجزة وأن عليهم أن يسموا لصاحبها بالرسالة ، وأن يسموا له بما تقله من أمرها .

* * *

فصل : في بداية دخول الإسلام المدينة المنورة وفي بيعتي العقبة

دخل الإسلام إلى المدينة المنورة على مدار ثلاث سنين قبل الهجرة ، وكان بداية ذلك محيي ، وقد من الأوس إلى مكة باحثين عن تحالفات ضد أبناء عمهم الخزرج الذين كانوا في صراع معهم ، فهؤلاء أول ناس طرق سمعهم الإسلام وقد أسلم واحد منهم ، ثم جاء وقد من أهل المدينة معترين في رجب ، فاجتمع بهم رسول الله ﷺ وعرض عليهم الدعوة فأسلموا ثم رجعوا إلى قومهم ، فدعواهم فاستجاب لهم عدد ، فقدم من استطاع منهم إلى الحج وبايعوا رسول الله ﷺ بيعة العقبة الأولى ثم عادوا ، وأرسل معهم أو بعدهم رسول الله ﷺ مصعب ابن عير ففشا الإسلام في المدينة حتى سيطر ، ووافى ممن أسلم حوالي سبعين في موسم الحج وكانت بيعة العقبة الثانية ، ثم أمر رسول الله ﷺ من بايعه أن يختاروا له اثني عشر تقياً ، يكونون على أقوامهم كفلاء وبين أقوامهم وبين رسول الله ﷺ وسطاء ، وعلى إثر ذلك أمر الرسول ﷺ بالهجرة .

وبقبول أهل المدينة للإسلام من ناحية ولنصرة رسول الله ﷺ تحقق هدفان بآن واحد : هدف النصرة من أهلها وأن هؤلاء مسلمون ، وهذا يقتضي تفصيلاً :

لقد كان الهدف السياسي المرحلي لرسول الله ﷺ في مكة - فيما نعلم - أن يجد من يحميه وينصره ليبلغ دعوة ربه دون أن يقيد هذه النصرة بإسلام هؤلاء ، وباصطلاح عصرنا فإن رسول الله ﷺ كان يبحث عن حرية الدعوة والعبادة في مجتمع قادر على أن يحمي هذه الحرية . قال ابن حجر في الفتح :

وقال موسى بن عقبة عن الزهري : فكان في تلك السنين - أي التي قبل الهجرة - يعرض نفسه على القبائل ، ويكلم كل شريف قوم ، لا يسألهم إلا أن يؤوه ويمنعوه ، ويقول : « لا أكره أحداً منكم على شيء ، بل أريد أن تمنعوا من يؤذيني حتى أبلغ رسالة ربي » فلا يقبله أحد بل يقولون : قوم الرجل أعلم به . اهـ .

ولو أنه استجاب له من يستطيع المنعة والنصرة من العرب لسارت الدعوة غير المسار

الذي سارت فيه باستجابة أهل المدينة للإسلام وللنصرة بأن واحد ، إذ قد تسير الدعوة في الحالة الأولى على مسار تجمع للمستجيبين يعيشون به في ظل الحماية ثم تكون انطلاقة بعد ذلك نحو أرض أخرى ، أما وقد قبل الأنصار الإسلام والنصرة بأن واحد فقد طويت مرحلتان في مرحلة واحدة ، ومع ذلك فقد كان رسول الله ﷺ يتعامل مع الأنصار ابتداءً على أن البيعة كانت على الدفاع ، ولذلك نلاحظ أنه لم يشرك في التحركات العسكرية قبل بدر إلا المهاجرين ، ويوم بدر طلب شورى الأنصار خشية أن يكونوا فهموا من النصرة الدفاع فقط ، مع أن الأنصار دخلوا في الإسلام وقبلوا أحكامه فهم والمهاجرون سواء في التكليف ، ومع ذلك كان رسول الله ﷺ يراعي تلك الظروف .

ومن ههنا نعرف أن أكبر نصر سياسي للإسلام كان في قبول أهل المدينة النصرة وما ترتب على ذلك من هجرة .

ومن ههنا نقول : إنه عندما يكون المسلمون في حالة ضعف وليست لهم دار إسلام يستطيعون الهجرة إليها ، فلهم أن يضعوا هدفاً سياسياً مرحلياً من مثل الوصول إلى حريتهم في الدعوة والعبادة ، وإذا وجدوا في مجتمع يعطيهم ذلك فعليهم أن يعمقوا جذور الإسلام ويطوروا امتداده ويعملوا لانتصاره .

وقد حلّل الأستاذ الندوي الأسباب التي جعلت المدينة المنورة مؤهلة لقبول الإسلام فقال :

وكان من صنع الله تعالى لرسوله وللإسلام ، أن هيا الله الأوس والخزرج - وهما قبيلتان عربيتان عظيمتان في مدينة يثرب - لتقدرا هذه النعمة التي لا نعمة أعظم منها ، وتسبقا أهل عصرهما ، وأبناء الجزيرة ، إلى الترحيب بالإسلام والدخول فيه ، حين تنكرت له قبائل العرب وفي مقدمتها وعلى رأسها قريش ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

وقد ساعدت على ذلك عدة عوامل ، هي من خلق الله تعالى وتيسيره وصنعه ، كانت فارقة بين قريش وأهل مكة ، وقبائل يثرب العربية ، منها ما طبعها الله عليه من الرقة واللين وعدم المغالاة في الكبرياء وجحود الحق ، وذلك يرجع إلى الخصائص الدموية

والسلاية التي أشار إليها رسول الله ﷺ حين وَقَدَ وَقَدَ من الين ، بقوله : « أتاكم أهل الين أرق أفئدة وألين قلوباً » وما ترجعان في أصلهما إلى الين ، نزع أجدادهم منها في الزمن القديم ، يقول القرآن مادحاً لهم :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (١) .

ومنها أنها قد أنهكتها الحروب الداخلية ، وما يوم بعث ببعيد ، وقد اكتوا بنارها ، وذاقوا مرارتها ، وعافوها ، ونشأت فيهم رغبة في اجتاع الكلمة ، وانتظام الشمل ، والتفادي من الحروب ، وذلك ما عبروا عنه بقولهم : (إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشرا ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فإن يجمعهم الله بك ، فلا رجل أعز منك) ، قالت عائشة رضي الله عنها : كان يوم بعث يوماً قدمه الله تعالى لرسوله .

ومنها أن قريشاً ، وسائر العرب قد طال عهدهم بالنبوات والأنبياء ، وأصبحوا يجهلون معانيها بطول العهد ، وبحكم الأمية والإمعان في الوثنية ، والبعد عن الأمم التي تنتسب إلى الأنبياء وتحمل الكتب السماوية - على ما دخل فيها من التحريف والعبث - وذلك ما يشير إليه القرآن بقوله : ﴿ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ (٢) .

أما الأوس والخزرج فكانوا يسمعون اليهود يتحدثون عن النبوة والأنبياء ويتلون صحف التوراة ويفسرونها ، بل كانوا يتوعدونهم به ، ويقولون إنه سيبعث نبي في آخر الزمان ، تقتلكم معه قتل عاد وإرم ، وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٣) .

وبذلك لم تكن بين أبناء الأوس والخزرج وسكان المدينة من العرب المشركين تلك

(١) الحشر : ٩ .

(٢) يس : ٦ .

(٣) البقرة : ١٦٠ .

الفجوة العميقة الواسعة من الجهل والنفور من المفاهيم الدينية والسنن الإلهية التي كانت بينها وبين أهل مكة وجيرانهم من العرب ، بل قد عرفوها وألفوها عن طريق اليهود ، وأهل الكتاب الذين كانوا يختلطون بهم بحكم البلد والجوار والصلح والحرب والتحالفات ، فلما تعرفوا برسول الله ﷺ وقد حضروا الموسم ، ودعاهم إلى الإسلام ، ارتفعت الفشاوة عن عيونهم ، وكانهم كانوا من هذه الدعوة على ميعاد .

١٦٨ - * روى أحمد والطبراني عن محمود بن لبيد أخيه بني عبد الأشهل قال لما قدم أبو الجليس أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاوية يلتبسون الحلف من قریش على قومهم من الخزرج سمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم فجلس إليهم فقال لهم : « هل لكم إلى خير مما جئتم له ؟ » قالوا : وما ذاك ؟ قال : « أنا رسول الله بعثني إلى العباد أذعهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وأنزل علي الكتاب » ثم ذكر الإسلام وتلا عليهم القرآن . فقال إياس بن معاذ وكان غلاماً حدثاً : أي قوم هذا والله خير مما جئتم له . قال : فأخذ أبو جليس أنس بن رافع حفنة من البطحاء فصرب بها في وجه إياس بن معاوية وقام رسول الله ﷺ عنهم ، وانصرفوا إلى المدينة ، فكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج قال : ثم لم يلبث إياس بن معاوية أن هلك قال محمود بن لبيد فأخبرني من حضرة من قومي عند موته أنهم لم يزالوا يسمعون يهمل الله ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات ، فما كانوا يشكون أن قد مات مسلماً لقد كان استشر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع .

المفروض أن تكون هذه الحادثة قبل خمس سنين من الهجرة لأن واقعة بعاث كانت كذلك على رأي ابن هشام .

١٦٩ - * روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان يوم بعاث يوماً قدمه

١٦٨ - أحمد في مسنده (٥ / ٤٢٧) .

وأورده الميمني في جمع الزوائد (٦ / ٣٦) وقال : رواه أحمد والطبراني ورجالهم ثقات .

بعاث : بضم الباء وهو يوم كان بين الأوس والخزرج فيه قتال قبل الإسلام ، وهو اسم حصن للأوس وبعضهم يقوله بالعين المعجمة وهو تصحيف .

١٦٩ - البخاري (٧ / ١١٠) ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار - ١ - باب مناقب الأنصار .

الملا : الأشراف والجماعة من الناس الذين يكونون رؤوس القوم . السروات : جمع سراة وسراة : جمع سري ، وهو =

الله لِرَسُولِهِ ﷺ ، فَقَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَدِ افْتَرَقَ مَلَامُ ، وَقَتَلَتْ سَرَوَاتُهُمْ ، وَجَرَحُوا ، فَقَدَّمَهُ اللهُ لِرَسُولِهِ فِي دُخُولِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ .

١٧٠ - * روى أحمد عن جابر بن عبد الله قال : كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول : « هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ ، فَإِنْ قَرِيشاً قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أَبْلُغَ كَلَامَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ » ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ مِنْ هَمْدَانَ فَقَالَ : « مِمَّنْ أَنْتَ ؟ » فَقَالَ الرَّجُلُ مِنْ هَمْدَانَ . قَالَ : « فَهَلْ عِنْدَ قَوْمِكَ مِنْ مَنَعَةٍ ؟ » ، قَالَ : نَعَمْ ، ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ خَشِيَ أَنْ يَحْقِرَهُ قَوْمُهُ فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ : آتَيْتُهُمْ فَأَخْبَرْتُهُمْ أَنَّكَ مِنْ عَامِرٍ قَابِلٍ ، قَالَ : « نَعَمْ » فَاَنْطَلَقَ وَجَاءَ وَفُتِدَ الْأَنْصَارُ فِي رَجَبٍ .

قال ابن حجر في الفتح :

وقد أخرج الحاكم وأبو نعيم والبيهقي في (الدلائل) بإسناد حسن عن ابن عباس : حدثني علي بن أبي طالب قال : لما أمر الله نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبو بكر إلى منى ، حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب ، وتقدم أبو بكر وكان نسابة فقال : من القوم ؟ فقالوا : من ربيعة . فقال : من أي ربيعة أنتم ؟ قالوا : من ذهل - فذكروا حديثاً طويلاً في مراجعتهم وتوقفهم أخيراً عن الإجابة - قال : ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج ، وهم الذين ساءم رسول الله ﷺ الأنصار لكونهم أجابوه إلى إيوائه ونصره ، قال : فما نهضوا حتى بايعوا رسول الله ﷺ انتهى . وذكر ابن إسحاق أن أهل العقبة الأولى كانوا ستة نفر وهم : أبو أمامة أسعد بن زرارَةَ النجاري ، ورافع بن مالك بن العجلان العجلاني ، وقطبة بن عامر بن حديدة ، وجابر بن عبد الله ابن رثاب ، وعقبة بن عامر - وهؤلاء الثلاثة من بني سلمة - وعوف بن الحارث بن رفاعة من بني مالك بن النجار . وقال موسى بن عقبة عن الزهري وأبو الأسود عن عروة : هم أسعد بن زرارَةَ ورافع بن مالك ومعاذ بن عفراء ويزيد بن ثعلبة وأبو الهيثم بن التيهان وعويم بن ساعدة ، ويقال : كان فيهم عبادة بن الصامت وذكوان . قال ابن إسحاق :

= الشريف الكبير من الناس ، وسراة جمع عزيز ، قال الجوهري : لا يعرف غيره ، وهو أن يجمع فعيل على فعلة .
١٧٠ - أحد في مسنده (٣ / ٣٩٠) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٣٥) وقال : رواه أحمد ورجاله ثقات .

حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قال : لما رآهم النبي ﷺ قال : من أنتم ؟ قالوا : من الخزرج . قال : أفلا تجلسون أكلكم ؟ قالوا : نعم . فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن . وكان مما صنع الله لهم أن اليهود كانوا معهم في بلادهم ، وكانوا أهل كتاب ، وكان الأوس والخزرج أكثر منهم ، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا : إن نبياً سبيعت الآن قد أظل زمانه تتبعه ، فنقتلكم معه ، فلما كلمهم النبي ﷺ عرفوا النعت ، فقال بعضهم لبعض : لا تسبقنا إليه اليهود . فآمنوا وصدقوا ، وانصرفوا إلى بلادهم ليدعوا قومهم ، فلما أخبرهم لم يبق دور من قومهم إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ ، حتى إذا كان الموسم وافاه منهم اثنا عشر رجلاً .

١٧١ - * روى الطبراني عن ابن إسحق قال : قلما أراد الله عز وجل إظهار دينه وإغراز نبيه ﷺ وإنجاز خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار وهم فيما يزعمون ستة فيهم جابر بن عبد الله بن رباب ..

١٧٢ - * روى الطبراني عن عروة قال : لما حضر الموسم حج نفر من الأنصار من بني مازن بن النجار منهم معاذ بن عفراء وأسعد بن زرارة ، ومن بني زريق رافع بن مالك وذكوان بن عبد القيس ، ومن بني عبد الأشهل أبو الهيثم بن التيمان ، ومن بني عمرو بن عوف عويم بن ساعدة ، وأتاهم رسول الله ﷺ وأخبرهم خبرهم الذي اضطفاه الله به من نبوته وكرامته ، وقرأ عليهم القرآن ، فلما سمعوا قوله أنصتوا واطمأننت أنفسهم إلى دعوته وعرفوا ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب من ذكرهم إياه بصفته وما يدعوههم إليه ، فصدقوه ، وآمنوا به ، وكانوا من أسباب الخير ، ثم قالوا له قد علمت الذي بين الأوس والخزرج من الدماء ونحن نحب ما أُرشد الله به أمرك ، ونحن لله ولك مجتهدون ، وأنا نشير عليك بما ترى فامكث على اسم الله حتى نرجع إلى قومنا فنخبرهم بشأنك ندعوههم إلى الله ورسوله ، فلعل الله يصلح بيننا ويجمع أمرنا فإننا اليوم متباعدون متباغضون ، فإن تقدم علينا اليوم ولم نصطليح لم يكن لنا جماعة عليك ، ونحن نواعدك الموسم من العام

١٧١ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٢ / ٦) : رواه الطبراني ورجاله ثقات

١٧٢ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٢ / ٦) : رواه الطبراني مرسلًا : وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف وهو حسن الحديث ، وبقي رجاله ثقات . أقول : وإنما يحسن حديث ابن لهيعة إذا وافق المشهور ، وهو هنا كذلك .

الْقَابِلِ فَرَضِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الَّذِي قَالُوا ، فَرَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ يَدْعُونَهُمْ سِرًّا وَآخِثَرُهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ وَدَعَا عَلَيْهِ بِالْقُرْآنِ حَتَّى قَلَّ دَارَ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا أَسْلَمَ فِيهَا نَاسٌ لَا مَحَالَةَ ، ثُمَّ بَعَثُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ ابْعَثْ إِلَيْنَا رَجُلًا مِنْ أَقْبَلِكَ يَدْعُو النَّاسَ بِكِتَابِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ أَذْنَى أَنْ يَتَّبِعَ قَبْعَتِ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ أَخَا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ ، فَنَزَلَ فِي بَنِي غَنَمٍ عَلَى أَسْعَدَ بْنِ زُرَّازَةَ فَجَعَلَ يَدْعُو النَّاسَ وَيَفْشُو الْإِسْلَامَ وَيَكْثُرُ أَهْلُهُ وَهُمْ فِي ذَلِكَ مُسْتَخْفُونَ بِدُعَائِهِمْ ، ثُمَّ إِنَّ أَسْعَدَ بْنَ زُرَّازَةَ أَقْبَلَ هُوَ وَمَصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ حَتَّى أَتَيَا بَنِي مَرْقٍ أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا ، فَجَلَسُوا هُنَالِكَ ، وَبَعَثُوا إِلَى رَهْطٍ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ فَأَتَوْهُمْ مُسْتَخْفِينَ ، فَبَيْنَمَا مَصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ يُحَدِّثُهُمْ وَيَقْصُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ أَخْبَرَ بِهِمْ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَأَتَاهُمْ وَمَعَهُ الرَّمْحُ حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ عَلَامَ يَأْتِيْنَا فِي دُورِنَا هَذَا الْوَحِيدِ الْفَرِيدِ الطَّرِيعِ الْغَرِيبِ ، يَسْتَفُّ ضَعْفَاءَنَا بِالْبَاطِلِ وَيَدْعُوهُمْ لَا أَرَاكُمْ بَعْدَ هَذَا بِشَيْءٍ مِنْ جَوَارِنَا فَرَجَعُوا ثُمَّ إِنَّهُمْ عَادُوا الثَّانِيَةَ بِبَنِي مَرْقٍ أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا ، فَأَخْبَرَ بِهِمْ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الثَّانِيَةَ ، فَوَاعَدَهُمْ بِوَعِيدِ دُونَ الْوَعِيدِ الْأَوَّلِ فَلَمَّا رَأَى أَسْعَدُ مِنْهُ لِينًا قَالَ : يَا بَنَ خَالَةِ اسْتَعِ مِنْ قَوْلِهِ فَإِنْ سَبِعْتَ مِنْهُ مُنْكَرًا فَارْذُدْهُ يَا هَذَا مِنْهُ ، وَإِنْ سَبِعْتَ خَيْرًا فَاجِبِ اللَّهَ فَقَالَ : مَاذَا يَقُولُ فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ مَصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ هَ حَمَّ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١﴾ فَقَالَ سَعْدُ وَمَا اسْتَعِ إِلَّا مَا أَعْرِفُ فَرَجَعَ وَقَدْ هَدَاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَلَمْ يَظْهَرْ أَمْرُ الْإِسْلَامِ حَتَّى رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ ، فَدَعَا بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَظْهَرَ إِسْلَامَهُ وَقَالَ فِيهِ : مَنْ شَكَّ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ أَوْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتَى فَلْيَأْتِنَا بِأَهْدَى مِنْهُ نَأْخُذَ بِهِ قَوْلَ اللَّهِ لَقَدْ جَاءَ أَمْرٌ لِنُحْزَنَ فِيهِ الرِّقَابَ فَاسْأَلْتُمْ بَنُو عَبْدِ الْأَشْهَلِ عِنْدَ إِسْلَامِ سَعْدٍ ، وَدُعَائِهِ إِلَّا مَنْ لَا يَذْكُرُ فَكَانَتْ أَوَّلَ دُورٍ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ أَسْلَمَتْ بِأَشْرَافِهَا ، ثُمَّ إِنَّ بَنِي النَّجَّارِ أَخْرَجُوا مَصْعَبَ بْنَ عَمِيرٍ ، وَاشْتَدُّوا عَلَى أَسْعَدَ بْنِ زُرَّازَةَ فَانْتَقَلَ مَصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فَلَمْ يَزَلْ يَدْعُو وَيَهْدِي عَلَى يَدَيْهِ حَتَّى قَلَّ دَارَ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا أَسْلَمَ فِيهَا نَاسٌ لَا مَحَالَةَ وَأَسْلَمَ أَشْرَافُهُمْ وَأَسْلَمَ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ ، وَكَثُرَتْ أَصْنَامُهُمْ ؛ فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ أَغْرَأَ أَهْلِهَا وَصَلَحَ أَمْرُهُمْ وَرَجَعَ مَصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ يَدْعَى الْمُقَرَّبِ .

(١) الزخرف : ١ - ٣ .

قال ابن حجر في الفتح :

وذكر ابن إسحاق أن النبي ﷺ بعث مع الاثني عشر رجلاً مصعب بن عمير البغدادي، وقيل بعثه إليهم بعد ذلك بطلبهم ليفقههم ويقرئهم، فنزل على أسعد بن زرارة، فروى أبو داود من طريق عبد الرحمن بن كعب بن مالك، قال: كان أبي إذا سمع الأذان للجمعة استغفر لأسعد بن زرارة، فسألته، فقال: كان أول من جمع بنا بالمدينة. وللدارقطني من حديث ابن عباس: أن النبي ﷺ كتب إلى مصعب بن عمير أن اجمع بهم. أهد، فأسلم خلق كثير من الأنصار على يد مصعب بن عمير بمعاونة أسعد بن زرارة حتى فشا الإسلام بالمدينة، فكان ذلك سبب رحلتهم في السنة المقبلة، حتى وافى منهم العقبة سبعون مسلماً وزيادة، فبايعوا كما تقدم.

١٧٣ - * روى الإمام أحمد عن جابر قال: مَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يَتَّبِعُ النَّاسُ فِي مَنَازِلِهِمْ بِمَكَاظَ وَمِجَنَّةَ فِي الْمَوْسِمِ بِمَقَى يَقُولُ: « مَنْ يُؤْوِيَنِي ، مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ ؟ » حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْبَيْتِ - أَوْ مِنْ مَضَرٍّ كَذَا قَالَ - قَالَ : فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ فَيَقُولُونَ اخْذِرْ غَلَامَ قُرَيْشٍ لَا يَفْتِنُكَ . وَيَمْشِي بَيْنَ رِجَالِهِمْ ، وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ حَتَّى بَعَثَنَا اللَّهُ إِلَيْهِ مِنْ يَثْرِبَ ، فَأَوَيْتَاهُ ، وَصَدَّقْنَاهُ ، فَيَخْرُجُ الرَّجُلُ مِمَّا فَيُؤْمِنُ بِهِ وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ ، فَيُنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ فَيَسْلِمُونَ بِإِسْلَامِهِ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ ، ثُمَّ اتَّعَمَرُوا جَمِيعاً فَقَلْنَا حَتَّى مَتَى نَتْرُكُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَطْرُدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ ، فَرَحَلَ إِلَيْهِ سَبْعُونَ رَجُلًا حَتَّى قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ ، فَوَاعَدْنَا شُعْبَ الْعَقَبَةِ ، فَاجْتَمَعْنَا عَلَيْهِ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ حَتَّى تَوَافَيْنَا ، فَقَلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ تَبَايَعُكَ : قَالَ : « تَبَايَعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ وَالنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَنْ تَقُولُوا فِي اللَّهِ لَا تَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي فَمَنْعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَرْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ ، وَلَكُمْ

١٧٣ - أحمد في مسنده (٢ / ٣٢٢ ، ٣٢٩) ، البزار : في كشف الأستار (٢ / ٣٠٧) . وأورده الميمني في جمع الزوائد (٦ / ٤٦) وقال : رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح .

الْجَنَّةُ « قَالَ : فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ وَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ وَهُوَ أَصْغَرُهُمْ فَقَالَ : رُوَيْدَا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ فَإِنَّا لَمْ نَضْرِبْ أَكْبَادَ الْإِبِلِ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَأَنْ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مَفَارِقَةُ الْعَرَبِ كُلِّهَا ، وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ وَأَنْ تَعْصَكُمْ السُّيُوفُ فِيمَا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَبِيثَةٌ فَتَبَيَّنُوا ذَلِكَ فَهُوَ عُذْرٌ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ قَالُوا أَمِطْ عَنَّا يَا أَسْعَدُ فَوَاللَّهِ لَا نَدْعُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ أَبَدًا وَلَا نُسَلِّبُهَا أَبَدًا ، فَبَايَعْنَاهُ فَأَخَذَ عَلَيْنَا وَشَرَطَ وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ .

١٧٤ - * - روى أحمد والطبراني عن كعب بن مالك وكان ممن شهد العقبة وبايع رسول الله ﷺ قال : خَرَجْنَا فِي حُجَّاجٍ قَوْمِنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ صَلَّيْنَا وَقَفَّيْنَا وَمَعَنَا الْبَرَاءُ ابْنُ مَعْرُورٍ كَبِيرُنَا وَسَيِّدُنَا ، فَلَمَّا تَوَجَّهْنَا لِسَفَرِنَا وَخَرَجْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ ، قَالَ الْبَرَاءُ لَنَا يَا هَؤُلَاءِ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ اللَّهَ وَرَأَيْتُ رَأْيَا وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَذْرِي تَوَافِقُونِي عَلَيْهِ أَمْ لَا ؟ قُلْنَا لَهُ : وَمَا ذَاكَ قَالَ : قَدْ رَأَيْتُ أَنْ لَا أَدْعُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ مِثْنِي بَطْهَرُ يَعْنِي الْكَعْبَةَ ، وَأَنْ أَصَلِّيَ إِلَيْهَا قَالَ : قُلْنَا وَاللَّهِ مَا بَلَّغْنَا أَنْ نَبَيِّنَا ﷺ يُصَلِّيَ إِلَّا إِلَى الشَّامِ ، وَمَا نُرِيدُ أَنْ نَخَالَفَهُ فَقَالَ : إِنِّي أَصَلِّي إِلَيْهَا : قُلْنَا لَهُ : لَكِنَّا لَا نَفْعَلُ ، فَكُنَّا إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ صَلَّيْنَا إِلَى الشَّامِ وَصَلَّى إِلَى الْكَعْبَةِ حَتَّى قَدِمْنَا مَكَّةَ قَالَ : وَقَدْ عِينَا عَلَيْهِ مَا صَنَعَ ، وَأَبَى إِلَّا الْإِقَامَةَ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ قَالَ : يَا ابْنَ أَحْيٍ : انْطَلِقْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاسْأَلْهُ عَمَّا صَنَعْتُ فِي سَفَرِي هَذَا ، فَإِنَّهُ وَاللَّهِ قَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْهُ شَيْءٌ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ خِلَافِكُمْ إِيَّايَ . قَالَ : فَخَرَجْنَا نَسْأَلُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكُنَّا لَا نَعْرِفُهُ لَمْ نَرَهُ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَلَقَيْنَا رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَسَأَلْنَاهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : هَلْ تَعْرِفَانِي قُلْنَا : لَا فَقَالَ : هَلْ تَعْرِفَانِ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمَّةَ قُلْنَا : نَعَمْ ، قَالَ : كُنَّا نَعْرِفُ الْعَبَّاسَ كَانَ لَا يَزَالُ يَقْدُمُ عَلَيْنَا تَاجِرًا ، قَالَ فَإِذَا دَخَلْتُمَا الْمَسْجِدَ ، فَهُوَ الرَّجُلُ الْجَالِسُ مَعَ الْعَبَّاسِ قَالَ : فَدَخَلْنَا الْمَسْجِدَ فَإِذَا الْعَبَّاسُ جَالِسٌ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ جَالِسٌ فَسَلَّمْنَا ثُمَّ جَلَسْنَا إِلَيْهِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْعَبَّاسِ « هَلْ تَعْرِفُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ يَا أَبَا الْفَضْلِ ؟ » قَالَ : نَعَمْ هَذَا الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ سَيِّدُ قَوْمِهِ ، وَهَذَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا أَنْتَى قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ « الشَّاعِرِ » . قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَقَالَ

١٧٤ - أحمد في مسنده (٢ / ٤٦٠ ، ٤٦١) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٤٥) : رواه أحمد والطبراني بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق ، وقد صرح بالسماع .

البراء بن معرور يانبي الله إني خرجت في سفري هذا وهديني الله للإسلام، فرأيت أن لا أجعل هذه البنية مني بظهر؛ فصليت إليها وقد خالفني أصحابي في ذلك حتى وقع في نفسي من ذلك شيء فماداً ترى يا رسول الله؟ قال: «لقد كنت على قبلة لو صبرت عليها»، قال: فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ فصلى معنا إلى الشام قال، وأهلته يزعمون أنه صلى إلى الكعبة حتى مات وليس ذلك كما قالوا نحن أعلم به منهم. قال: وخرجنا إلى الحج فواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي وعدنا رسول الله ﷺ ومعنا عبد الله بن عمرو بن حزام أبو جابر سيد من ساداتنا وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا فكلأناهم وقتلنا له يابا جابر إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك أن تكون خطباً للنار غداً، ثم دعوته إلى الإسلام، وأخبرته ببيعة رسول الله ﷺ فأسلمنا معه القعدة وكان تقياً، قال: فمينا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل مستخفين تسلل القطا، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن سبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائهم نسيه بنت كعب أم عمارة إحدى نساء بني مازن بن النجار وأسما بنت عمرو بن عدي بن ثابت إحدى نساء بني سلمة وهي أم منيع فاجتمعنا بالشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه يؤمذ عمة العباس بن عبد المطلب وهو يؤمذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق، فلما جلسنا كان العباس بن عبد المطلب أول من تكلم فقال يامعشر الخزرج - وكانت العرب ميا يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج أوسها وخزرجها - إن محمداً منّا حيث قد علم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه وهو في عز من قومه ومنعه في بلده. قال: فقلنا قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت فتكلم رسول الله ﷺ فتلا ودعا إلى الله عز وجل ورغب في الإسلام. قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»، قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع منه أوزنا فبايعنا يا رسول الله فتحنن والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر، قال: فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان حليف بني عبد الأشهل فقال يا رسول

الله : إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ حَبَالًا وَإِنَّا قَاطِعُوهَا يَعْنِي الْعَهْدَ فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدْعَنَا ، قَالَ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ : « بَلِ الدَّمُ الدَّمُ وَالْهَدْمُ الْهَدْمُ ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي ، أَحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ وَأَسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ » وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنِي عَشَرَ تَقِيبًا يَكُونُونَ عَلَى قَوْمِهِمْ » فَأَخْرَجُوا مِنْهُمْ اثْنِي عَشَرَ تَقِيبًا مِنْهُمْ تِسْعَةٌ مِنَ الْخَزَرَجِ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوْسِ .

وَأَمَّا مَعْبِدُ بْنُ كَعْبٍ فَحَدَّثَنِي فِي حَدِيثِهِ عَنْ أَخِيهِ عَنْ أَبِيهِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : كَانَ أَوَّلُ مَنْ ضَرَبَ عَلَى يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ ، ثُمَّ تَتَابَعَ الْقَوْمُ فَلَمَّا بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ صَرَخَ الشَّيْطَانُ مِنْ رَأْسِ الْعَقْبَةِ بِأَبْعَدِ صَوْتٍ سَمِعْتُهُ قَطُّ يَا أَهْلَ الْجَبَابِجِ - وَالْجَبَابِجُ الْمَنَازِلُ - هَلْ لَكُمْ فِي مُذْمَرِ وَالصَّبَاةِ مَعَهُ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِكُمْ قَالَ عَلِيٌّ - يَعْنِي ابْنُ إِسْحَاقٍ - : مَا يَقُولُ يَا مُحَمَّدٌ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « هَذَا أَزْبُ الْعَقْبَةِ هَذَا ابْنُ أَدِيبٍ ، اسْمَعْ أَيُّ عَدُوِّ اللهِ أَمَّا وَاللهِ لَأُفَرِّغَنَّ لَكَ » ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « ارْفَعُوا إِلَى رِجَالِكُمْ » ، قَالَ فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبَادَةَ بْنِ نُضْلَةَ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَئِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنَى غَدًا بِأَسْيَافِنَا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « لَمْ أَوْمَرْ بِذَلِكَ » ، قَالَ : فَارْجَعْنَا ، فَمِنَّمَا حَتَّى أَصْبَحْنَا فَلَمَّا أَصْبَحْنَا عَدَتْ عَلَيْنَا جَلَّةٌ قَرِيشٍ حَتَّى جَاءُونَا فِي مَنَازِلِنَا فَقَالُوا : يَا مَعْشَرَ الْخَزَرَجِ ، إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّكُمْ قَدْ جِئْتُمْ إِلَى صَاحِبِنَا هَذَا تَسْتَخْرِجُونَهُ مِنْ بَيْنِ بَيْنِنَا وَبَيْنَهُمْ مِنْكُمْ ، وَاللهِ إِنَّهُ مَا مِنْ عَرَبٍ أَحَدٍ أَبْغَضُ إِلَيْنَا أَنْ تَنْشَبَ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ مِنْكُمْ ، قَالَ : فَانْبَعَثَ مِنْ هُنَالِكَ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِنَا يَخْلِفُونَ لَهُمْ بِاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ هَذَا شَيْءٍ وَمَا عَلِمْنَاهُ وَقَدْ صَدَّقُوا لَمْ يَعْلَمُوا مَا كَانَ مِنَّا قَالَ : فَابْغَضْنَا نَنْظُرُ إِلَى بَعْضِ قَالَ : وَقَامَ الْقَوْمُ وَفِيهِمُ الْحَرْثُ بْنُ هِشَامٍ مِنَ الْمَغِيرَةِ ، وَعَلَيْهِ نَعْلَانِ جَدِيدَانِ قَالَ : فَقُلْتُ كَلِمَةً كَأَنِّي أُرِيدُ أَنْ أَشْرِكَ الْقَوْمَ بِهَا فِيمَا قَالُوا : مَا تَسْتَطِيعُ يَا أَبَا جَابِرٍ ، وَأَنْتَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِنَا أَنْ تَتَّخِذَ نَعْلَيْنِ مِثْلَ نَعْلِي هَذَا الْفَتَى مِنْ قَرِيشٍ ، فَسَمِعَهَا الْحَرْثُ فَخَلَعَهُمَا ، ثُمَّ رَمَى بِهِمَا إِلَيَّ فَقَالَ : وَاللهِ لَتَنْتَعِلَهُمَا ، قَالَ يَقُولُ أَبُو جَابِرٍ : أَحْفَظْتُ وَاللهِ الْفَتَى قَارِئُذُ عَلَيْهِ نَعْلِيهِ قَالَ : فَقُلْتُ وَاللهِ لَا أَرُدُّهُمَا قَالَ : وَاللهِ صَالِحٌ لَئِنْ صَدَّقَ الْفَالُ لَأَسْلُبْنِي . فَهَذَا

أزب العقبة : الأرب . القصير الضخم البطن والالية - واللثم الداهية ، والمراد به اسم شيطان العقبة . أحفظت : أحفظه . أغضبه . الغال : قول أو فعل يستبشر به .

حديث ابن مالك عن العقبة وما حضر منها .

وقال الطبراني ^(١) في حديثه فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ فلقيناه رجلاً بالأبطح فقلنا له تدلنا على محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ؟ قال : فهل تعرفاني إذا رأيتماه ؟ ، وقال أيضاً وتكلم رسول الله ﷺ وتلا القرآن ورغب في الإسلام فأجبناه بالإيمان به والتصديق به ، وقال أيضاً : فقال رسول الله ﷺ : « أخرجوا منكم اثني عشر نقيباً » فأخرجهم فكان نقيب بني النجار أسعد بن زرارة ، وكان نقيب بني سلمة البراء بن معرور وعبد الله بن عمرو بن حزام وكان نقيب بني ساعدة سعد بن عبادة والمنذر ابن عمرو ، وكان نقيب بني زريق رافع بن مالك بن العجلان ، وكان نقيب بني الحارث بني الحزرج عبد الله بن رباح ، وسعد بن الربيع ، وكان نقيب بني عوف ابن الحزرج عبادة بن الصامت ونقيب بني عبد الأشهل أسيد بن حضير وأبو الهيثم بن التيهان وكان نقيب بني عمرو بن عوف سعد بن خيثمة .

١٧٥ - * روى أحمد عن الشعبي قال : انطلق النبي ﷺ ومعه العباس معه إلى السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة فقال ليتكلم متكلمكم ولا يطيل الخطبة فإن عليكم من المشركين عينا وإن تعلموا بكم يفضحوكم ، فقال قائلهم وهو أبو أمامة : سل يا محمد لربك ما شئت ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئت ، ثم أخبرنا مالتا من الثواب على الله عز وجل وعليكم إذا فعلنا ذلك فقال : « أسألكم لربي عز وجل أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأسألكم لأنفسي ولأصحابي أن تؤوونا وتنصرونا ونمنعونا مما منعتهم منه أنفسكم » قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ ، قال : « لكم الجنة » قالوا : فلك ذلك .

١٧٦ - * روى أبو يعلى عن أنس بن ثابت بن قيس أنه خطب مقدم النبي ﷺ فقال : إنا نمنعك مما تمنع منه أنفسنا وأولادنا ، فما لنا يا رسول الله ؟ قال : « لكم الجنة » قالوا رضيتم .

(١) الطبراني (١٩ / ٨٨) .

١٧٥ - أحمد في مسنده (٤ / ١١٩ ، ١٢٠) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٤٨) وقال : رواه أحمد مرسلًا ورجاله رجال الصحيح .

١٧٦ - أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٤٨) وقال : رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح .

١٧٧ - * روى أبو يعلى والبخاري عن جابر بن عبد الله ، قال : لما لقِيَ النبي ﷺ النُّبَّاءَ مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَ لَهُمْ : « تَوَوُّونِي وَتَمَنَّعُونِي » ، قالوا فَمَا لَنَا ؟ قَالَ : « لَكُمْ الْجَنَّةُ » .

ونلاحظ أن الخطاب الذي وجَّه للنقباء هو نفسه الذي خاطب به الجميع ، مما يشير إلى ضرورة التأكيد على الخاصة بما تطالب به العامة .

١٧٨ - * روى البخاري عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : شَهِدَ بِي خَالَايَ الْعَقَبَةَ قَالَ ابْنُ عَيِّنَةَ : أَحَدُهُمَا : الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ .

وفي رواية قال : أنا وأبي وخالائي مِنْ أَصْحَابِ الْعَقَبَةِ .

١٧٩ - * روى الطبراني عن جابر بن عبد الله قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ قَالَ جَابِرٌ : وَأَخْرَجَنِي خَالَايَ وَأَنَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُرْمِيَ بِحَجَرٍ .

أقول : في هذا الحديث إشارة إلى جواز إشراك الصبيان في العمل الإسلامي بل حتى فيما يعتبر من الأسرار ، ولكن هذا منوط بتربية الطفل ، وضمان أقراره ، وحياتهم له .

١٨٠ - * روى الطبراني عن جابر بن عبد الله قَالَ : حَمَلَنِي خَالِي جِدُّ بْنُ قَيْسٍ فِي السَّبْعِينَ زَكِيًّا الَّذِينَ وَقَدُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَبْلِ الْأَنْصَارِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهُ عُمَةُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ : « يَا عَمُّ خُذْ عَلَيَّ أَخْوَالِكَ » فَقَالَ لَهُ السَّبْعُونَ يَا مُحَمَّدُ سَلْ لِرَبِّكَ وَلِنَفْسِكَ مَا شِئْتَ فَقَالَ : « أُمَّا الَّذِي أَسْأَلُكُمْ لِرَبِّي فَتَعَبُدُوهُ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأُمَّا الَّذِي أَسْأَلُكُمْ لِنَفْسِي مِنْهُ فَتَمَنَّعُونِي مِمَّا تَمَنَّعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ » قَالُوا : فَمَا لَنَا إِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ قَالَ : « الْجَنَّةُ » .

١٧٧ - أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٨ / ٦) . وقال : رواه أبو يعلى والبخاري بنحوه ورجال أبي يعلى رجال الصحيح .

١٧٨ - البخاري (٢١١ / ٧) ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار - ٤٣ - باب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ وبيعة العقبة . البراء بن معرور : من أقارب أم جابر ، وأقارب الأم يسمون أخوالاً مجازاً .

١٧٩ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤١ / ٦) : رواه الطبراني ورجال الصحيح .

١٨٠ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤١ / ٦) : رواه الطبراني في الثلاثة ورجالهم ثقات .

١٨١ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٠ / ٦) : رواها كلها الطبراني ، وإسنادها إلى ابن شهاب واحد ، ورجالهم ثقات .

١٨١ - * روى الطبراني عن ابن شهاب في تسمية من حَضَرَ الْعَقَبَةَ مِنَ الْأَنْصَارِ ثُمَّ مِنْ بَنِي النُّجَارِ: أَوْسُ بْنُ ثَابِتٍ وَأَوْسُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ أَصْرَمَ وَأَبُو أَمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ ، وَمِنْ الْأَنْصَارِ ثُمَّ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ أَوْصَى بِثَلَاثِ مَالِهِ وَاسْتَقْبَلَ الْكُفَّةَ وَهُوَ بِيَلَادِهِ وَكَانَ تَقِيًّا ، وَمِنْ الْأَنْصَارِ ثُمَّ مِنْ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ بِشِيرُ بْنُ سَعْدِ بْنِ النُّعْمَانِ ، وَمِنْ الْأَنْصَارِ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو وَجِبَّارُ بْنُ صَخْرِ ، وَمِنْ الْأَنْصَارِ ثُمَّ مِنْ بَنِي زُرَيْقِ الْحَارِثِ بْنِ قَيْسِ بْنِ مَالِكٍ وَقَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَذُكُوَانُ بْنُ عَبْدِ الْقَيْسِ بْنِ خَلْدَةَ ، وَرَافِعُ بْنُ مَالِكٍ وَقَدْ شَهِدَ بَدْرًا ، وَمِنْ الْأَنْصَارِ ثُمَّ مِنْ بَنِي الْجُبَلِيِّ رِفَاعَةُ بْنُ عَمْرٍو ، وَمِنْ الْأَنْصَارِ ثُمَّ مِنْ بَنِي سَاعِدَةَ بْنِ كَعْبٍ سَعْدُ بْنُ عَبَّادَةَ وَهُوَ تَقِيٌّ ، وَمِنْ الْأَنْصَارِ ثُمَّ مِنْ بَنِي عَمْرٍو بْنِ عَوْفٍ سَعْدُ بْنُ خَيْثَمَةَ وَهُوَ تَقِيٌّ ، وَمِنْ الْأَنْصَارِ ثُمَّ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ سَلَمَةُ بْنُ سَلَامَةَ بْنِ وَقْشٍ ، وَمِنْ الْأَنْصَارِ ثُمَّ مِنْ بَنِي حَارِثَةَ بْنِ الْحَارِثِ ظَهْرُ بْنُ رَافِعٍ ، وَمِنْ الْأَنْصَارِ ثُمَّ مِنْ بَنِي حَارِثَةَ أَبُو بُرْدَةَ بْنُ يَنَابَرٍ ..

١٨٢ - * روى الحاكم عن سلمة بن سلامة بن وقش ، قَالَ : كَانَ لَنَا جَارٌ مِنْ يَهُودَ فِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ قَالَ : فَخَرَجَ عَلَيْنَا يَوْمًا مِنْ بَيْتِهِ حَتَّى وَقَفَ عَلَى بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ قَالَ سَلَمَةُ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ حَدَّثَ عَلِيَّ بُرْدَةَ لِي ، مُضْطَجِعٌ فِيهَا بِنِجَاءِ أَهْلِي ، فَذَكَرَ الْقِيَامَةَ وَالْبُعْثَ وَالْحِسَابَ وَالْمِيزَانَ وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ قَالَ : فَقَالَ ذَلِكَ فِي أَهْلِ يَثْرِبَ ، وَالْقَوْمُ أَصْحَابُ أُوثَانَ لَا يَرَوْنَ بَعْثًا كَائِنًا عِنْدَ الْمَوْتِ ، فَقَالُوا لَهُ : وَيَحْكُ أَتَرَى هَذَا كَائِنًا يَا فُلَانُ أَنَّ النَّاسَ يَبْعَثُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إِلَى جَنَّةٍ وَنَارٍ وَيُجْزَوْنَ فِيهَا بِأَعْمَالِهِمْ قَالَ : نَعَمْ وَالَّذِي يَخْلِفُ بِهِ ، قَالُوا يَا فُلَانُ وَيَحْكُ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ ؟ قَالَ نَبِيٌّ مَبْعُوثٌ مِنْ نَحْوِ هَذِهِ الْبِلَادِ ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى مَكَّةَ . قَالُوا : وَمَتَى نَرَاهُ ؟ قَالَ : فَنَنْظُرُ إِلَيْهِ وَأَنَا أَصْغَرُهُمْ سِنًا فَقَالَ : إِنْ يَسْتَنْفِذْ هَذَا الْغُلَامُ عُمْرَهُ يُدْرِكُهُ قَالَ سَلَمَةُ ، فَوَاللَّهِ مَا ذَهَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ حَيٌّ بَيْنَ أَظْهُرِنَا ، فَأَمَّا بِهِ وَكَفَرَ بُغْيًا وَحَسَدًا ، فَقُلْنَا لَهُ وَيَحْكُ يَا فُلَانُ أَلَسْتَ الَّذِي قُلْتَ لَنَا فِيهِ مَا قُلْتَ ؟ قَالَ : بَلَى وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِهِ .

* * *

فصل : في الهجرة إلى المدينة المنورة

مقدمة :

١ - كانت الهجرة هي الدرس الأخير في المرحلة المكية ، وهي التصفية النهائية لأنفس الرعيل الأول ، لقد طوبى الرعيل الأول من أصحاب رسول الله ﷺ بالتوحيد والعبادة ففعلوا ، وسلط عليهم الإيذاء ، وأمروا بالصبر وكف اليد ، والاستسلام لأمر الله ففعلوا ، وحب الوطن أصيل في النفس فطولبوا بالهجرة فهاجروا ، ثم قاتلوا مع الأنصار أهلهم وقبيلتهم فوجد بذلك كله جيل لم يعرف العالم له مثيلاً بالتجرد من أهواء النفوس وعصيانها .

٢ - والهجرة بالنسبة للدعوة الإسلامية هي أعظم الأحداث الدعوية والحركية ، لأن بها قامت دولة الإسلام ووجدت قاعدته التي حلت هذه الدعوة ابتداء وقدمتها للعالم انتهاء ، ولذلك أرخ المسلمون بالهجرة .

٣ - وقد أقبل المسلمون على الكتابة في الهجرة واستخراج دروسها وعبرها وخاصة في عصرنا فمن سابق ومن مقتصد ، واستخرج بعضهم تعميمات تحتاج إلى تخصيص ، وأراد بعضهم أن يستخرج نظرية محددة يقيد بها الحركة الإسلامية باعتداده فكرة الهجرة إلى جهة ما وهذا كله يحتاج إلى شيء من الإيضاح ، وستأتي الإيضاحات شيئاً فشيئاً ، وقد اخترنا أن ننقل لك في هذه المقدمة ثلاثة نقول تفتح لك آفاقاً في الهجرة بين يدي الروايات :

قال الشيخ الغزالي :

ليست الهجرة انتقال موظف من بلد قريب إلى بلد ناءٍ ، ولا ارتحال طالب قوت من أرض مجدبة إلى أرض مخصبة .

إنها إكراه رجل آمن في سربه ، متمد الجذور في مكانه على إهدار مصالحه ، وتضحية أمواله والنجاة بشخصه ، وإشعاره - وهو يصفى مركزه - بأنه مستباح منهوب ، قد يهلك في أوائل الطريق أو نهايتها ، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم ، لا يدري ما يتمخض

عنه من قلق وأحزان ، ولو كان الأمر مغامرة فرد بنفسه لقليل : مغامر طياش ، فكيف وهو ينطلق في طول البلاد وعرضها ، يحمل أهله وولده ؟ وكيف وهو بذلك رضي الضمير ، وضاء الوجه ؟ !

إنه الإيمان الذي يزن الجبال ولا يطيش ! وإيمان بمن ؟ بالله الذي له ما في السماوات والأرض ، وله الحمد في الأولى والآخرة ، وهو الحكيم الخبير .

هذه الصعاب لا يطيقها إلا مؤمن ، أما الهَيَّاب الخَوَّار القلق ، فما يستطيع شيئاً من ذلك ، إنه من أولئك الذين قال الله فيهم : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ۖ ﴾ (١) .

أما الرجال الذين التقوا بمحمد ﷺ في مكة ، وقبسوا منه أنوار الهدى ، وتواصوا بالحق والصبر . فإنهم نفروا - خفافاً - ساعة قيل لهم : هاجروا إلى حيث تعزون الإسلام وتؤمنون مستقبله .

* * *

الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام :

وقال الأستاذ البوطي :

يستنبط من مشروعية هذه الهجرة حكان شرعيان :

١ - وجوب الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام ، روى القرطبي عن ابن العربي : (أن هذه الهجرة كانت فرضاً في أيام النبي ﷺ ، وهي باقية مفروضة إلى يوم القيامة . والتي انقطعت بالفتح ، إنما هي القصد إلى النبي ﷺ ، فإن بقي في دار الحرب عصى) . ومثل دار الحرب في ذلك كل مكان لا يتسنى للمسلم فيه إقامة الشعائر الإسلامية من صلاة وصيام وجماعة وأذان ، وغير ذلك من أحكامه الظاهرة .

(١) النساء : ٦٦ .

وما يستدل به على ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ ^(١) .

٢ - وجوب نصره المسلمين لبعضهم ، مهما اختلفت ديارهم وبلادهم ما دام ذلك ممكناً . فقد اتفق العلماء والأئمة على ان المسلمين إذا قدروا على استنقاذ المستضعفين أو المأسورين أو المظلومين من إخوانهم المسلمين ، في أي جهة من جهات الأرض ، ثم لم يفعلوا ذلك ، فقد باءوا بإثم كبير .

يقول أبو بكر بن العربي : إذا كان في المسلمين أسراء أو مستضعفون فإن الولاية معهم قائمة ، والنصرة لهم واجبة بالبدن ، بأن لا تبقى منا عين تطرف ، حتى نخرج إلى استنقاذهم إن كان عدداً يحتمل ذلك ، أو نبذل جميع أموالنا في استخراجهم ، حتى لا يبقى لأحد درهم من ذلك ، أهـ .

أقول : ليست الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام واجبة في كل حال ، وإن اشتهر من مذهب الحنفية ذلك كما اشتهر في مذهبهم وجوب الهجرة من دار البدعة إلى دار السنة فالأمر فيه تفصيل .

فإذا كنت في دار كفر لكنك حر آمن تستطيع أن تعبد الله وتدعو إليه ولا تخشى على نفسك وأهلك وذريتك الفتنة ، ولم يطلب منك أمير المؤمنين الشرعي الهجرة إلى دار الإسلام ، فقامك حيث أنت أجود وأطيب وأكثر أجراً ، بل اعتبر الشافعية أنه يندب لك البقاء لأنه ببقائك يصبح جزء من دار الكفر دار إسلام .

أما حيث يخاف المسلم الفتنة على نفسه وأهله أو ذريته فعندئذ تجب عليه الهجرة إن كان قادراً عليها ووجدت الجهة التي تستقبله ولا يخشى فيها الفتنة على نفسه وأهله وذريته ، وفي عصرنا تجد الأمر في غاية التعقيد ، فليس الخروج من بلد إلى بلد سهلاً ، واحتمال الفتنة قائم

(١) النساء : ٩٧ ، ٩٨ .

في كثير من البلدان ، ولذلك فإنني أرى أن حكم الهجرة الآن منوط بالفتوى البصيرة من أهلها ، ولا ينبغي أن يكون هناك تسرع فيه .

قال ابن حجر في الفتوح بمناسبة تعليل عائشة رضي الله عنها للهجرة بقولها الذي ورد في صحيح البخاري :

(كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه .. إلخ) أشارت عائشة إلى بيان مشروعية الهجرة وأن سببها خوف الفتنة ، والحكم يدور مع علته ، فقتضاه أن من قدر على عبادة الله في أي موضع اتفق لم تجب عليه الهجرة منه وإلا وجبت ، ومن ثم قال الماوردي : إذا قدر على إظهار الدين في بلد من بلاد الكفر فقد صارت البلد به دار إسلام ، فالإقامة فيها أفضل من الرحلة منها لما يترجى من دخول غيره في الإسلام .

وقال الخطابي : كانت الهجرة أي إلى النبي ﷺ في أول الإسلام مطلوبة ، ثم افترض لما هاجر إلى المدينة إلى حضرته للقتال معه وتعلم شرائع الدين ، وقد أكد الله ذلك في عدة آيات حتى قطع المواصلة بين من هاجر ومن لم يهاجر فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ﴾ ^(١) فلما فتحت مكة ودخل الناس في الإسلام من جميع القبائل سقطت الهجرة الواجبة وبقي الاستحباب . وقال البغوي في (شرح السنة) : يحتمل الجمع بينهما بطريق أخرى بقوله : « لا هجرة بعد الفتح » أي من مكة إلى المدينة ، وقوله (لا تنقطع) أي من دار الكفر في حق من أسلم إلى دار الإسلام ، قال : ويحتمل وجهاً آخر وهو أن قوله لا هجرة أي : إلى النبي ﷺ حيث كان بنية عدم الرجوع إلى الوطن المهاجر منه إلا بإذن ، وقوله : (لا تنقطع) أي : هجرة من هاجر على غير هذا الوصف من الأعراب ونحوهم . قلت : الذي يظهر أن المراد بالشق الأول وهو المنفي ما ذكره في الاحتمال الأخير ، وبالشق الآخر المثبت ما ذكره في الاحتمال الذي قبله ، وقد أفصح ابن عمر بالمراد فيما أخرجه الإسماعيلي بلفظ (انقطعت الهجرة بعد الفتح إلى رسول الله ﷺ ، ولا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار) أي : ما دام في الدنيا دار كفر ،

فالهجرة واجبة منها على من أسلم وخشي أن يفتن عن دينه ، ومفهومه : أنه لو قدر أن لا يبقى في الدنيا دار كفر أن الهجرة تنقطع لانقطاع موجبها والله أعلم أ.هـ .

لماذا اختيرت المدينة :

ولنُزَّعُ جيدَ هذه المقدمة بذكر الحكَم التي اختيرت من أجلها المدينة داراً لهجرة رسول الله ﷺ ننقلها عن الشيخ أبي الحسن الندوي في كتابه (السيرة النبوية) :

وكان من حكمة الله تعالى في اختيار المدينة ، داراً للهجرة ، ومركزاً للدعوة ، هذا عدا ما أَراده الله من إكرام أهلها ، أسرار لا يعلمها إلا الله ، أنها امتازت بتحصن طبيعى حربي ، لا تراجحها في ذلك مدينة قريبة في الجزيرة ، فكانت حرة الوبرة ، مطبقة على المدينة من الناحية الغربية ، وحررة واقم ، مطبقة على المدينة من الناحية الشرقية ، وكانت المنطقة الشمالية من المدينة ، هي الناحية الوحيدة المكشوفة (وهي التي حصنها رسول الله ﷺ بالخندق سنة خمس في غزوة الأحزاب) وكانت الجهات الأخرى من أطراف المدينة محاطة بأشجار النخيل والزروع الكثيفة ، لا يمر منها الجيش إلا في طرق ضيقة لا يتفق فيها النظام العسكري ، وترتيب الصفوف .

وكانت خفارات عسكرية صغيرة ، كافية بإفساد النظام العسكري ومنعه من التقدم ، يقول ابن إسحاق : (كان أحد جانبي المدينة عورة ، وسائر جوانبها مشككة بالبنيان والنخيل ، لا يتمكن العدو منها) .

ولعل النبي ﷺ قد أشار إلى هذه الحكمة الإلهية في اختيار المدينة بقوله لأصحابه قبل الهجرة : « إني رأيت دار هجرتكم ، ذات نخيل بين لابتين وهما الحرتان » فهاجر من هاجر قبل المدينة .

وكان أهل المدينة من الأوس والخزرج أصحاب نخوة وإباء وفروسية وقوة وشكبة ، ألّفوا الحرية ، ولم يخضعوا لأحد ، ولم يدفعوا إلى قبيلة أو حكومة إتاوة أو جباية ، وقد جاء ذلك صريحاً في الكلمة التي قالها سعد بن معاذ - سيد الأوس - لرسول الله ﷺ : قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا

حيطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعاً .

يقول ابن خلدون : ولم يزل هذان الحيان قد غلبوا اليهود على يثرب ، وكان الاعتزاز بالمنعة تعرف لهم في ذلك ، ويدخل في ملتهم من جاورهم من قبائل مضر .

وجاء في (العقد الفريد) : ومن الأزد الأنصار ، وهم الأوس والخزرج وهما ابنا حارثة ابن عمرو بن عامر ، وهم أعز الناس أنفساً وأشرفهم هما ، ولم يؤدوا إتاوة قط إلى أحد من الملوك .

وكان بنو عدي بن النجار أخواله ، فأمر عبد المطلب بن هاشم إحدى نسائهم ، فقد تزوج هاشم بسلمى بنت عمرو أحد بني عدي بن النجار ، وولدت لهاشم عبد المطلب ، وتركه هاشم عندها ، حتى صار غلاماً دون المراهقة ، فذهب إليه عمه المطلب ، فجاء به إلى مكة ، وكانت الأرحام يحسب لها حساب كبير في حياة العرب الاجتماعية ، ومنهم أبو أيوب الأنصاري الذي نزل رسول الله ﷺ في داره في المدينة .

وكان الأوس والخزرج من قحطان ، والمهاجرون ومن سبق إلى الإسلام في مكة وما حولها من عدنان ، ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وقام الأنصار بنصره ، اجتمعت بذلك عدنان وقحطان تحت لواء الإسلام ، وكانوا كجسد واحد ، وكانت بينهما مفاضلة ومساابقة في الجاهلية ، وبذلك لم يجد الشيطان سبيلاً إلى قلوبهم ، لإثارة الفتنة والتعزي بعزاء الجاهلية باسم الحمية القحطانية أو العدنانية .

فكانت لكل ذلك مدينة يثرب أصلح مكان لهجرة الرسول ﷺ وأصحابه واتخاذهم لها داراً وقراراً ، حتى يقوى الإسلام ، ويشق طريقه إلى الأمام ، ويفتح الجزيرة ثم يفتح العالم المتمدن . اهـ .

١٨٣ - * روى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مكث النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمكة ثلاث عشرة سنة نبياً ، فنزلت عليه : ﴿ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ ^(١) يفتح الميثر ، فهاجر .

١٨٣ - المستدرک (٢ / ٢٤٢) وقال : هذا حديث صحيح ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .
(١) الإسراء : ٨٠ .

١٨٤ - * روى الحاكم عن جرير أن النبي ﷺ قال : « إن الله عز وجل أوحى إليَّ أيُّ هؤلاء البلاد الثلاث نزلتَ فهي دار هجرتك المدينة أو البحرين أو قنسرين » .

١٨٥ - * روى الحاكم عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين : « قد أريت دار هجرتكم أريت سبخة ذات نخل بين لابتيين » وهما الحرتان .

١٨٦ - * روى البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « رأيت في المنام أنني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل ، فذهب وهي إلى أنها اليمامة ، أو هجر ، فإذا هي المدينة يثرب ، ورأيت في رؤيائي هذه : أني هزرت سيفاً ، فانقطع صدره ، فإذا هو ما أصيب به المؤمنون يوم أحد ، ثم هزرت أخرى ، فعاد أحسن ما كان ، فإذا هو ما جاء الله به من الفتح ، واجتماع المؤمنين ، ورأيت فيها بقرأ والله خير ، فإذا هم المؤمنون يوم أحد ، وإذا ما جاء الله به من الخير وثواب الصديق الذي آتانا الله بعد يوم بدر » .

إلا أن عند البخاري عن أبي موسى : أراه عن النبي ﷺ - بالشك .

وعند مسلم : عنه عن النبي ﷺ بغير شك .

١٨٤ - المستدرک (٢ / ٢) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

البحرين : هي المنطقة الشرقية من السعودية اليوم بالإضافة إلى الكويت وقطر . قنسرين : بلد بالشام قريب من حلب .

١٨٥ - المستدرک (٣ / ٣) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

سبخة : أرض ذات ملح ، لا تكاد تنبت . اللابة : الحرة ، والخزة : الأرض ذات الحجارة السود .

١٨٦ - البخاري (٦ / ٦٧) ٦١ - كتاب المناقب - ٢٥ - باب : علامات النبوة في الإسلام .

ومسلم (٤ / ١٧٩) ٤٢ - كتاب الرؤيا - ٤ - باب رؤيا النبي ﷺ .

أهاجر : الهجرة عند العرب : خروج البدوي من البادية إلى المدن ، ليقم بها ، يقال : هاجرت إلى مدينة كذا ، أي

قصدتها للإقامة فيها ، والهجرة في الباب الانتقال إلى المدينة . وهلي : يقال : وهَلْ إلى الشيء بالفتح : يَهْل ،

ويوهل بالكسر ، وهلا بالسكون : إذا ذهب وهه إليه . والله خير : قال النووي ١٥ / ٣٢ : قال القاضي : قال

أكثر شراح أي صنع الله بالمقتولين خير لهم من بقائهم في الدنيا : ثم قال والأولى قول من قال :

=

١٨٧ - * روى الحاكم عن قتادة : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَدْ رَّبَّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ فَأَخْرَجَهُ اللهُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِيْنَةِ مُخْرَجَ صِدْقٍ ، وَأَدْخَلَهُ الْمَدِيْنَةَ مُدْخَلَ صِدْقٍ ، قَالَ وَنَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا طَاقَةَ لَهُ بِهَذَا الْأَمْرِ إِلَّا بِسُلْطَانٍ فَسَأَلَ سُلْطَانًا نَصِيْرًا لِكِتَابِ اللهِ وَخُدُودِ اللهِ وَلِفَرَائِضِ اللهِ وَلِإِقَامَةِ كِتَابِ اللهِ وَإِنْ السُّلْطَانُ عِزَّةٌ مِنَ اللهِ جَعَلَهُ بَيْنَ أَظْهُرِ عِبَادِهِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأَغَارَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَأَكَلَ شَدِيدُهُمْ ضَعِيفَهُمْ .

أقول : في كلام قتادة هذا إشارة إلى ضرورة وجود السلطان السياسي للإسلام ، وأنه لابد من تلاحم السلطان مع القرآن ليقوم الإسلام .

قدوم المهاجرين إلى المدينة :

١٨٨ - * روى الطبراني عن البراء قال : كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مُصْعَبُ ابْنِ عُمَيْرٍ أَخُو بَنِي عَبْدِ الدَّارِ بْنِ قُصَيٍّ فَقُلْتُ لَهُ : مَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ؟ قَالَ : هُوَ مَكَانَهُ وَأَصْحَابُهُ عَلَى أَثَرِي .

أقول : جاء مصعب إلى المدينة عقب العقبة الأولى ثم عاد ليقدم تقريره مع أصحاب العقبة الثانية ، والنص هنا يشير إلى عودته إلى المدينة بعد ذلك .

١٨٩ - * روى البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ : مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ ، وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ ، فَجَعَلَا يَقْرَأَانَا الْقُرْآنَ ، ثُمَّ جَاءَ عَمَّارٌ وَبِلَالٌ وَسَعْدٌ ، ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي عَشْرِينَ ، ثُمَّ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ ، فَمَا رَأَيْتُ أَهْلَ الْمَدِيْنَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِهِ ، حَتَّى رَأَيْتُ الْوَلَدَ وَالصَّبِيَّانَ يَقُولُونَ : هَذَا رَسُولُ اللهِ قَدْ جَاءَ ، فَمَا جَاءَ حَتَّى قَرَأَ : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ (١) فِي سُورٍ مِثْلَهَا .

= والله خير من جملة الرؤيا وكلمة أقيمت إليه وسمعا في الرؤيا : اهـ .

١٨٧ - الحاكم (٣ / ٣) وسكت عنه الذهبي .

١٨٨ - أوردته الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٠ / ٦) وقال : رواه الطبراني ، ورجاله رجال الصحيح .

١٨٩ - البخاري (٨ / ٦٩٩) - ٦٥ - كتاب التفسير - ٨٧ - سورة سبوح اسم ربك الأعلى .

(١) الأعلى : ١ .

١٩٠ - * روى البزار عن عَمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ : لَمَّا اجْتَمَعْنَا لِلْهَجْرَةِ اتَّعَدْتُ أَنَا وَعِيَّاشُ ابْنُ أَبِي رَيْبَعَةَ وَهَشَامُ بْنُ الْعَاصِ الْمِیْضَاءَ مِیْضَاءَ بَنِي غِفَارٍ فَوْقَ شَرْفٍ وَقُلْنَا : أَيْكُمْ لَمْ يُصْبِحْ عِنْدَهَا فَقَدِ احْتَبَسَ فَلْيَمُضِ صَاحِبَاهُ فَحَبَسَ عَنَّا هِشَامُ بْنُ الْعَاصِ فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ نَزَلْنَا فِي بَنِي عَمْرٍو بْنِ عَوْفٍ وَخَرَجَ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ وَالْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ إِلَى عِيَّاشِ بْنِ أَبِي رَيْبَعَةَ وَكَانَ ابْنُ عَمٍّ وَأَخَاهُمَا لِأُمِّهِمَا حَتَّى قَدِمَا عَلَيْنَا الْمَدِينَةَ ، فَكَلَّمَاهُ فَقَالَ لَهُ : إِنَّ أُمَّكَ نَذَرَتْ أَنْ لَا يَمَسَّ رَأْسَهَا مِشْطٌ حَتَّى تَرَكَ فَرَقَ لَهَا ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا عِيَّاشُ وَاللَّهِ إِنْ يُرِيدُكَ الْقَوْمُ إِلَّا عَنْ دِينِكَ فَاحْذَرْهُمْ ، فَوَاللَّهِ لَوْ قَدْ آذَى أُمَّكَ الْقَمَلُ لَامْتَشَطْتُ وَلَوْ قَدْ اشْتَدَّ عَلَيْهَا حَرُّ مَكَّةَ أَحْسَبُهُ قَالَ لَامْتَشَطْتُ ، قَالَ : إِنَّ لِي هُنَاكَ مَالًا فَآخُذْهُ قَالَ قُلْتُ : وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِ قَرِيشٍ مَالًا ، فَلَكَ نِصْفُ مَالِي ، وَلَا تَذْهَبْ مَعَهُمَا . فَأَبَى إِلَّا يَخْرُجَ مَعَهُمَا ، فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا أَبَى عَلِيٌّ ؛ أَمَّا إِذْ فَعَلْتُ مَا فَعَلْتُ فَخُذْ نَاقَةً هَذِهِ فَإِنَّهَا نَاقَةٌ ذَلُولٌ ، فَالْزِمْ ظَهْرَهَا فَإِنَّ رَبَّكَ مِنَ الْقَوْمِ رَيْبٌ فَانْجِ عَلَيْهَا فَخَرَجَ مَعَهُمَا عَلَيْهَا حَتَّى إِذَا كَانُوا بَعْضَ الطَّرِيقِ قَالَ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ وَاللَّهِ لَقَدْ اسْتَبْطَأْتُ بَعِيرِي هَذَا أَفَلَا تَحْمِلْنِي عَلَى نَاقَتِكَ هَذِهِ ؟ قَالَ : بَلَى ، فَأَنَاجَ وَأَنَاجَا لِيَتَحَوَّلَ عَلَيْهَا ، فَلَمَّا اسْتَوَوْا بِالْأَرْضِ عَدِيَا عَلَيْهِ ، وَأَوْتَقَاهُ ، ثُمَّ ادْخَلَاهُ مَكَّةَ وَفَتَنَاهُ فَافْتَنَ ، قَالَ : فَكُنَّا نَقُولُ وَاللَّهِ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْكُمْ افْتِنَ صَرَفًا وَلَا عَدْلًا وَلَا يَقْبَلُ تَوْبَةَ قَوْمٍ عَرَفُوا اللَّهَ ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى الْكُفْرِ لِبَلَاءِ أَصَابِهِ قَالَ وَكَانُوا يَقُولُونَ ذَلِكَ لِأَنْفُسِهِمْ ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَنْزَلَ فِيهِمْ وَفِي قَوْلِنَا لَهُمْ وَقَوْلِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَمَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ^(١) إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ ^(٢) قَالَ عَمْرٌو فَكَتَبْتُهَا فِي صَحِيفَةٍ وَبَعَثْتُ بِهَا إِلَى هِشَامِ بْنِ الْعَاصِ قَالَ هِشَامُ : فَلَمْ أَزَلْ أَقْرُؤَهَا بِذِي طَوًى أَصْعَدُ بِهَا فِيهِ حَتَّى فَهِمْتُهَا . قَالَ : فَأَلْقَيْتُ فِي نَفْسِي أَنَّمَا نَزَلَتْ فِيْنَا وَفِيَا كُنَّا نَقُولُ فِي أَنْفُسِنَا وَيَقَالُ فِيْنَا فَرَجَعْتُ فَجَلَسْتُ عَلَى بَعِيرِي فَلَحِقْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ .

(١) فِي الْأَصْلِ (لَا مِتَشَطْتُ) وَلَا يَتِمُّ الْمَعْنَى .

١٩٠ - البزار : فِي كَشَفِ الْأَسْتَارِ (٢ / ٣٠٢) وَأَوْرَدَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ (٦ / ٦١) وَقَالَ رَوَاهُ الْبَزَارُ وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ .

(٢) الزمر : ٥٣ .

(٣) الزمر : ٥٥ .

١٩١ - * روى البخاري عن أبي عثمان النهدي رحمه الله قال : سمعت ابن عمر رضي الله عنهما إذا قيل له هاجر قبل أبيه يغضب . قال : وقدمت أنا وعمر على رسول الله ﷺ فوجدناه قائلاً ، فرجعنا إلى المنزل ، فأرسلني عمر وقال : اذهب فانظر هل استيقظ ؟ فأتيته فدخلت عليه فبايعته ، ثم انطلقت إلى عمر فأخبرته أنه قد استيقظ ، فانطلقنا إليه نهول هرولة حتى دخل عليه فبايعه ، ثم بايعته .

١٩٢ - * روى البخاري عن أمّ العلاء الأنصارية رضي الله عنها قالت : إن عثمان بن مظعون طار له سهمه في السكني حين أقرعت الأنصار سكن المهاجرين ، قالت : فسكن عندنا عثمان بن مظعون ، فاشتكى ، فرضناه ، حتى إذا توفي وجعلناه في ثيابه - وذكرت الحديث - قالت : فمت فأريت لعثمان عيناً تجري ، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته ، فقال : « ذلك عمله » .

هجرة الرسول ﷺ :

١٩٣ - * روى الحاكم عن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لجبريل عليه الصلاة والسلام « مَنْ يَهَاجِرْ مَعِيَ ؟ » قَالَ : أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ .

١٩٤ - * روى أحمد عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾^(١) الآية ، قال : تشاورت قريش ليلة بمكة ، فقال بعضهم : إذا أصبح فأنبئوه بالوئاق ، يريدون النبي ﷺ . وقال بعضهم : بل اقتلوه . وقال بعضهم : بل أخرجوه . فأطلع الله نبيه على ذلك فبات علي على فراش النبي ﷺ تلك الليلة ، وخرج النبي ﷺ حتى لحق

١٩١ - البخاري (٧ / ٢٥٥) - ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار - ٤٥ - باب : هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة .

القال : الذي أقام وقت شدة الحر ، إما في مكان أو بيت ، لينكسر الحر ويخرج أو يسير .

١٩٢ - البخاري (٥ / ٢٩٣) - ٥٢ - كتاب الشهادات - ٣٠ - باب : القرعة في المشكلات .

طار لنا : كذا : أي حصل لنا ، وجرى سهمنا أي كان من حصتنا بالقرعة . اشتكى : مرض . فرضناه : تمريض العليل : معالجته وتدبيره في مرضه .

١٩٣ - المستدرک (٥ / ٢) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال الذهبي : صحيح عريب .

١٩٤ - أحمد في مسنده (١ / ٢٤٨) قال الهيثمي (٧ / ٢٧) : وفيه عثمان بن عمرو الجزري وبقه ابن حبان وصعفه غيره ،

وبقية رجاله رجال الصحيح . اهـ . وقد حسن بعضهم الحديث .

(١) الأنفال : ٣٠ .

بالغار ، وباتَ المشركونَ يحرسونَ علياً يحسبونه النبي ﷺ ، فلما أصبحوا ثاروا عليه فلما رأوا علياً رد الله مكرهم فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدري . فاقترضوا أثره ، فلما بلغوا الجبلَ خلطَ عليهم ، فصعدوا الجبلَ فرأوا بالغار فرأوا على بابهِ نسجَ العنكبوتِ فقالوا : لو دخلَ ههنا لم يكن نسجَ العنكبوتِ على بابهِ ، فكثت فيه ثلاثَ ليالٍ . »

١٩٥ - * روى الحاكم عن ابنِ عباسٍ رضيَ اللهَ عنهُما قالَ : شَرَى عَلِيٌّ نَفْسَهُ ، وَلَيْسَ ثَوْبَ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ثم نام مَكَانَهُ وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَرَوْنَهُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم الْبَسَةَ بَرْدَةً ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فَجَعَلُوا يَرْقُبُونَ عَلِيًّا وَيَرَوْنَهُ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم وَقَدْ لَبِسَ بَرْدَةً وَجَعَلَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَتَنَصَّرُ فَإِذَا هُوَ عَلِيٌّ فَقَالُوا إِنَّكَ لِلَّهِ إِنَّكَ لَتَتَنَصَّرُ ، وَكَانَ صَاحِبُكَ لَا يَتَنَصَّرُ وَلَقَدْ اسْتَنْكَرْنَا مِنْكَ .

١٩٦ - * روى أحمد والطبراني عن أسماء بنتِ أبي بكرٍ قالت لما خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَخَرَجَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ احْتَلَى أَبُو بَكْرٍ مَعَهُ مَالَهُ كُلَّهُ خَمْسَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ أَوْ سِتَّةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ وَأَنْطَلَقَ بِهَا مَعَهُ قَالَتْ فَدَخَلَ عَلَيْنَا جَدِّي أَبُو قُحَافَةَ وَقَدْ ذَهَبَ بَصَرُهُ فَقَالَ : وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَاهُ قَدْ فَجَعَكُمْ بِإِلَهِ مَعَ نَفْسِهِ قَالَتْ : قُلْتُ كَلَّا يَا أَبَتِ قَدْ تَرَكَ لَنَا خَيْرًا كَثِيرًا قَالَتْ فَأَخَذْتُ أَحْجَارًا فَفَرَكْتُهَا فَوَضَعْتُهَا فِي كُوَّةٍ لِبَيْتِ كَانَ أَبِي يَضَعُ فِيهَا مَالَهُ ثُمَّ وَضَعْتُ عَلَيْهَا ثَوْبًا ثُمَّ أَخَذْتُ بِيَدِهِ فَقُلْتُ : يَا أَبَتِ ضَعْ يَدَكَ عَلَى هَذَا الْمَالِ قَالَتْ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ فَقَالَ لَا بَأْسَ إِنْ كَانَ تَرَكَ لَكُمْ هَذَا لَقَدْ أَحْسَنَ ، وَفِي هَذَا لَكُمْ بَلَاغٌ قَالَتْ وَلَا وَاللَّهِ مَا تَرَكَ لَنَا شَيْئًا ، وَلَكِنْ قَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَسْكُنَ الشَّيْخَ بِذَلِكَ .

١٩٧ - * روى البخاري عن أسماء بنتِ أبي بكرٍ رضيَ اللهَ عنهُما قالتُ : صَنَعْتُ سَفْرَةَ

١٩٥ - المستدرک (٤ / ٣) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي . يتنصّر : أي يتولى ويتقلب ظهراً لبطن .

١٩٦ - أحمد في مسنده (٣٥٠ / ٦) والطبراني (٨٨ / ٢٤) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٩ / ٦) وقال : رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع . الكوة : ثقب في الحائط .

١٩٧ - البخاري (١٢٩ / ٦) ٥٦ - كتاب الجهاد - ١٢٣ - باب : حمل الزاد في الغزو .

لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ ، حِينَ أَرَادَ أَنْ يَهَاجِرَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَلَمْ يَجِدْ لِسْفَرِهِ وَلَا لِسِقَائِهِ مَا تَرِبَطُهَا بِهِ ، فَقُلْتُ لِأَبِي بَكْرٍ : وَاللَّهِ مَا أَجِدُ شَيْئًا أُرِبُطُ بِهِ ، إِلَّا نِطَاقِي ، قَالَ : فَشَقِيهِ بَاثْنَيْنِ ، فَارْبِطِيهِ بِوَاحِدِ السَّعَاءِ ، وَبِالْآخِرِ السُّفْرَةَ ، فَفَعَلْتُ ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ : ذَاتَ النَّطَاقَيْنِ .

١٩٨ - * رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : لَمَّا أُخْرِجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَخْرَجُوا نَبِيَّهِمْ ، لِيَهْلِكُنَّ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ ^(١) فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ .

وَفِي رِوَايَةِ النَّسَائِيِّ ^(٢) قَالَ : لَمَّا أُخْرِجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مَكَّةَ ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَخْرَجُوا نَبِيَّهِمْ ، إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ لِيَهْلِكُنَّ ، فَنَزَلَتْ ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ ﴾ الْآيَةِ . فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَالٌ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هِيَ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْقِتَالِ .

١٩٩ - رَوَى أَبُو يَعْلَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ قَالَ : « أَمَا وَاللَّهِ لَأُخْرِجَ مِنْكَ ، وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ إِلَيَّ وَأَكْرَمُهُ عَلَى اللَّهِ وَلَوْلَا أَنَّ أَهْلَكَ أَخْرَجُونِي مَا خَرَجْتُ يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ إِنْ كُنْتُمْ وَلَاةَ هَذَا الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِي فَلَا تَمْنَعُوا طَائِفًا بَيْتِ اللَّهِ سَاعَةً مَا شَاءَ مِنْ لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ وَلَوْلَا أَنْ تَطْعَى قُرَيْشٌ لِأَخْبَرَتِهَا مَا لَهَا عِنْدَ اللَّهِ إِلَهُمُ إِنَّكَ أَذَقْتَ أَوْلَهُمْ وَبَالَا فَأَذِقْ آخِرَهُمْ نَوَالًا » .

٢٠٠ - * رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي بَكْرٍ قَالَ : نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رُءُوسِنَا وَنَحْنُ فِي الْغَارِ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمِيهِ أَبْصَرْنَا تَحْتَ قَدَمِيهِ فَقَالَ : « يَا أَبَا

نِطَاقِي : النَّطَاقُ : شَيْءٌ تَشَدُّ بِهِ الْمَرْأَةُ وَسَطُهَا ، وَتَرْفَعُ بِهِ ثَوْبَهَا أَنْ يَسَالَ الْأَرْضَ عِنْدَ قَضَاءِ الْأَشْفَالِ . سِقَاءُ : السَّعَاءُ : إِنَاءٌ لِلْمَاءِ مِنَ الْجُلُودِ كَالْقَرْيَةِ .

١٩٨ - التِّرْمِذِيُّ (٢٢٥ / ٥) (٤٨) - كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ (٢٢) بَابُ « مِنْ سُورَةِ الْحِجِّ » . قَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ . (١) الْحِجَّ : ٢٩ .

(٢) النَّسَائِيُّ : (٢ / ٦) كِتَابُ الْجِهَادِ - بَابُ وَجُوبِ الْجِهَادِ . وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ .

١٩٩ - أَوْرَدَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي مَجْمَعِ الزُّوَائِدِ (٢ / ٢٨٢) . وَقَالَ : رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ .

٢٠٠ - الْبُخَارِيُّ (٢٢٥ / ٨) ٦٥ - كِتَابُ التَّفْسِيرِ - ٩ - بَابُ : ثَانِيُ اثْنَيْنِ إِذَا هَا فِي الْغَارِ . =

بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما .

٢٠١ - * روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : لَمْ أَغْلِبْ أَبَوَيْ قَطُّ إِلَّا وَهَمَا يَدِينَانِ الدِّينَ ، وَلَمْ يَمِرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَرَفِي النَّهَارِ ، بُكْرَةً وَعَشِيَةً ، فَلَمَّا ابْتَلَى الْمُسْلِمُونَ ، خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مَهَاجِرًا لِحُورِ أَرْضِ الْحَبَشَةِ ، حَتَّى بَلَغَ بَرَكَ الْغِيَادِ ، لَقِيَهُ ابْنُ الدُّغْنَةِ - وَهُوَ سَيِّدُ الْقَارَةِ - فَقَالَ : أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَخْرَجَنِي قَوْمِي ، فَأُرِيدُ أَنْ أُسَيِّحَ فِي الْأَرْضِ وَأُعْبُدَ رَبِّي ، فَقَالَ ابْنُ الدُّغْنَةِ : فَلِمَ مِنْكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ وَلَا يُخْرَجُ ، إِنَّكَ تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَحْمِلُ الْكُلَّ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ ، فَأَنَا لَكَ جَارٌ ، ارْجِعْ فاعْبُدْ رَبَّكَ بِبَيْتِكَ ، فَارْجِعْ . وَارْتَحَلَ مَعَهُ ابْنُ الدُّغْنَةِ ، فَطَافَ ابْنُ الدُّغْنَةِ فِي أَشْرَافِ قُرَيْشٍ ، فَقَالَ لَهُمْ : إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ مِثْلَهُ وَلَا يُخْرَجُ ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلًا يَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ ، وَيَحْمِلُ الْكُلَّ ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ ؟ فَلَمْ تَكْذِبْ قُرَيْشٌ بِجَوَارِ ابْنِ الدُّغْنَةِ .

وفي رواية : فَأَنْفَذَتْ قُرَيْشٌ جِوَارَ ابْنِ الدُّغْنَةِ - وَأَمَنُوا أَبَا بَكْرٍ - وَقَالُوا لَابْنِ الدُّغْنَةِ : مَرُّ أَبَا بَكْرٍ فَلْيُعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ ، فَلْيَصِلْ فِيهَا ، وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ ، وَلَا يُوْذِنَا بِذَلِكَ ، وَلَا يَسْتَعْلِنَ بِهِ ، فَإِنَّا نَخْشَى أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا ، فَقَالَ ذَلِكَ ابْنُ الدُّغْنَةِ لِأَبِي بَكْرٍ ، فَلَبِثَ أَبُو بَكْرٍ بِذَلِكَ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ ، وَلَا يَسْتَعْلِنُ بِصَلَاتِهِ ، وَلَا يَقْرَأُ فِي غَيْرِ دَارِهِ ، ثُمَّ بَدَأَ لِأَبِي بَكْرٍ ، فابْتَنَى مَسْجِدًا بِفَنَاءِ دَارِهِ ، وَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ ، وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَيَتَقَدِّفُ عَلَيْهِ نِسَاءَ الْمُشْرِكِينَ وَأَبْنَاءَهُمْ وَهُمْ يُعْجَبُونَ مِنْهُ ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَّاءً ، لَا يَمْلِكُ عَيْنِيهِ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ ، فَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَأَرْسَلُوا إِلَى ابْنِ

= ومسلم (٤ / ١٨٥٤) ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة - ١ - باب فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

٢٠١ - البخاري (٧ / ٢٣٠) ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار - ٤٥ - باب : هجرة النبي ﷺ إلى المدينة .

يدِينَانِ الدِّينَ : مسلمين على دين الإسلام . بَرَكَ الْقَادَ : بفتح الباء وكسر الغين وفتحها : هو بلدٌ بِيَمَانَ . الْقَارَةُ : بتخفيف الراء قبيلة من كنانة . تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ : تعطي الفقير المعدم مالا وفعل (كَسَبَ) متعدي . الْكُلُّ : ما يثقل حمله ، من صلات الأرحام ، والقيام بالعيال ، وقرى الأضياف ، ونحو ذلك . نَوَائِبِ الْحَقِّ : النوائب : ما ينوب الإنسان من المفارم ، وقضاء الحقوق لمن يقصده ويؤمله . فَأَنَا لَكَ جَارٌ : أي : جاري وناصر ومُتَدَايِعٌ . تَقْصِفُ : الناس عليه : أي : ازدحموا .

الدُّعْنَةُ، فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: إِنَّا كُنَّا أَجْرْنَا أَبَا بَكْرٍ بِجَوَارِكٍ عَلَى أَنْ يَتَبَدَّدَ رَبُّهُ فِي دَارِهِ، فَقَدْ جَاوَزَ ذَلِكَ، فَأَبْتَنَى مَسْجِدًا بِفَنَاءِ دَارِهِ، فَأَعْلَنَ بِالصَّلَاةِ وَالْقِرَاءَةِ فِيهِ، وَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَانْهَ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى أَنْ يَبْعِدَ رَبُّهُ فِي دَارِهِ فَعَلْ، وَإِنْ أَبَى إِلَّا أَنْ يُعْلَنَ بِذَلِكَ، فَسَلِّهُ أَنْ يَزِدَ ذِمَّتَكَ، فَإِنَّا قَدْ كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ، وَلَسْنَا مُقَرِّينَ لِأَبِي بَكْرٍ الْإِسْتِعْلَانَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَتَى ابْنُ الدُّعْنَةِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: قَدْ عَلِمْتُ الَّذِي عَاقَدْتَ لَكَ عَلَيْهِ، فَإِنَّمَا أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ، وَإِنَّمَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيَّ ذِمَّتِي، فَإِنِّي لِأَحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ الْعَرَبُ أَنِّي أَخْفِرْتُ فِي رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: فَإِنِّي أُرِيدُ إِلَيْكَ جَوَارِكَ وَأَرْضِي بِجَوَارِكِ اللَّهِ - وَالنَّبِيِّ ﷺ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْمُسْلِمِينَ: «إِنِّي أَرَيْتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ، ذَاتَ نَخْلٍ، بَيْنَ لَابَتَيْنِ» وَهِيَ الْحَزْرَتَانِ - فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ قَبْلَ الْمَدِينَةِ، وَرَجَعَ عَامَّةٌ مَنْ كَانَ بَارِضَ الْحَبْشَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَتَجَهَّرَ أَبُو بَكْرٍ قَبْلَ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَى رِسْلِكَ، فَإِنِّي أُرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَصْحَبَهُ، وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ مِنْ وَرَقِ السَّمْرِ - وَهُوَ الْخَبَطُ - أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ.

قال ابن شهاب: قال عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: قَبِينَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسَ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي غَرِ الظَّهِيرَةِ قَالَ قَائِلٌ لِأَبِي بَكْرٍ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَتَقْنَمَا، فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فِدَاءُ لَهُ أَبِي وَأُمِّي، وَاللَّهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ، قَالَتْ: فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَأْذَنَ، فَأَذِنَ لَهُ، فَدَخَلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ: «أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ - بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ - قَالَ: «فَأِنِّي قَدْ أَذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصَّحَابَةُ، بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ». قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَخُذْ - بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ - إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بِالْثَّمَنِ» قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجَهَزْنَاهَا أَحْتُ الْجَهَازِ، وَصَنَعْنَا لَهَا سَفْرَةَ فِي جِرَابٍ، فَقَطَعْتُ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا، فَزَبَطْتُ بِهِ عَلَى فَمِ الْجِرَابِ، فَبِذَلِكَ سَيِّتُ ذَاتَ النِّطَاقِ قَالَتْ: ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ، فَكَمَمَا فِيهِ

الدُّعْنَةُ: المهد والأمان. اخفرت الرجل: إذا تقضت عهده. سبخة: السبخ من الأرض: الموضع الذي لا يكاد ينبت للوحته، وقيل يوافق إلا النخيل. على رسلك: بكسر الراء على هينتك. الراحلة: البعير القوي على الأحمال والسير. الظهيرة: أشد الحر، و(نحرها): أوائلها. النطاق: أن تشد المرأة وسطها بجبل أو بحويه، وترفع ثوبها من تحته، =

ثَلَاثَ لَيَالٍ يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ ، وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌ ثَقِفٌ لَقِنٌ ، فَيَدْلُجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بَسَحَرٍ ، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِكَّةً كَبَائِتٍ ، فَلَا يَسْمَعُ أَمْرًا يَكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاَهُ ، حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ ، وَيَزْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ ابْنِ فُهَيْرَةَ - مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ - مَنَحَةٌ مِنْ غَنَمٍ ، فَيُرِيحُهُمَا عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ ، فَيَبِيتَانِ فِي رِسْلٍ - وَهُوَ لَبَنٌ مَنَحْتُهُمَا - وَرَضِيفُهُمَا - حَتَّى يَنْعِقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بَغْلَسٍ ، يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ ، وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدَّيْلِ - وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيِّ - هَادِيًا خَرِيْتًا - وَالْخَرِيْتُ : الْمَاهِرُ بِالْمَهْدَايَةِ - قَدْ غَمَسَ حُلْفًا فِي آلِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلِ السَّهْمِيِّ ، وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ ، فَأَمِنَاهُ ، فَدَقَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا ، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهِمَا ، وَأَنْطَلَقَ مَعَهُمَا ابْنُ فُهَيْرَةَ ، وَالِدَيْهِ ، فَأَخَذَ بِهِمَا طَرِيقَ السَّوَاخِلِ « وَفِي رَوَايَةٍ « طَرِيقَ السَّاحِلِ » .

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ ^(١) وَأَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَالِكٍ الْمَدَلِجِيُّ - وَهُوَ ابْنُ أَخِي سَرَّاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْثَمٍ - أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ : أَنَّهُ سَمِعَ سَرَّاقَةَ بْنَ جُعْثَمٍ يَقُولُ : جَاءَنَا رَسُولُ كُفَّارِ قُرَيْشٍ يَجْعَلُونَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ دِيَةً كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَنْ قَتَلَهُ أَوْ أَسْرَهُ ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ فِي مَجْلِسٍ مِنْ عَجَالِسِ قَوْمِي بَنِي مَدَلِجٍ ، إِذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ ، حَتَّى قَامَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ جُلُوسٌ ، فَقَالَ : يَا سَرَّاقَةَ ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْفَا أَسْوَدَةَ بِالسَّاحِلِ ، أَزَاهَا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ ، قَالَ سَرَّاقَةُ : فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ هُمْ ، فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِهِمْ ، وَلَكِنَّكَ رَأَيْتَ فَلَانًا وَفَلَانًا أَنْطَلَقُوا بِأَعْيُنِنَا ، ثُمَّ لَبِثْتُ فِي الْمَجْلِسِ سَاعَةً ، ثُمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ ، فَأَمَرْتُ جَارِيَتِي أَنْ

= فتعطف طرفًا من أعلاه على أسفله ، لئلا ينال الأرض .

ثَقِفٌ : ثَقِفُ الرَّجُلِ ثَقَافَةً ، أَيْ : صَارَ حَادِقًا خَفِيفًا ، فَهُوَ ثَقِفٌ ، مِثَالُ ضَخْمٍ ، فَهُوَ ضَخْمٌ . لَقِنٌ : اللَّقِنُ : سَرِيعُ الْفَهْمِ . أَدْلِجُ : يَدْلُجُ : إِذَا سَارَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ ، وَادْلُجُ يَدْلُجُ - تَشْدِيدُ الدَّالِ - : إِذَا سَارَ مِنْ آخِرِهِ . كَدْتُ : الرَّجُلُ أَكِيدُهُ : إِذَا طَلَبْتُ لَهُ الْفَوَائِلَ وَمَكْرَتُهُ بِهِ . مَنَحَةٌ : الْأَصْلُ فِي الْمَنَحَةِ : أَنْ يَجْعَلَ الرَّجُلُ لِبْنِ نَاقَتِهِ أَوْ شَاتِهِ لَاحِرَ وَقْتًا مَا ، ثُمَّ يَقَعُ ذَلِكَ فِي كُلِّ مَا يَرْزُقُهُ الْمَرْءُ وَيُعْطَاهُ . فَيُرِيحُهُمَا : الرِّوَاغُ : ذَهَابُ الْعِثِي ، وَهُوَ مِنْ زَوَالِ الشَّمْسِ إِلَى اللَّيْلِ . فِي رِسْلٍ : الرِّسْلُ ، نَكْسَرُ الرَّاءَ وَنَكُونُ السِّينَ : اللَّبَنُ . الرَضِيفُ : اللَّبَنُ الْمُرْصُوفُ ، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ فِيهِ الرِّصْفَةَ ، وَهِيَ الْحِمَارَةُ الْحَيَاةُ . نَعَقَ الرَّاعِي بِالْغَنَمِ : أَصْلُ التَّمِيقِ لِلْغَنَمِ ، يَقَالُ : نَعَقَ الرَّاعِي بِالْغَنَمِ : إِذَا دَعَاها لَتَرْجِعَ إِلَيْهِ . بَغْلَسٌ : الْفُلْسُ : ظِلَامٌ آخِرُ اللَّيْلِ . غَمَسَ : فَلَانٌ حُلْفًا فِي آلِ فَلَانٍ ، أَيْ : أَخَذَ بِنَصِيبٍ مِنْ عَقْدِهِمْ وَحُلْفِهِمْ ، وَالْحُلْفُ : التَّحَالُفُ .

(١) فِي الْبُخَارِيِّ (٧ / ٢٣٨) ٦٣ - كِتَابُ مَنَاقِبِ الْأَنْصَارِ - ٤٥ - بَابُ : هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ .

أَسْوَدَةُ : جَمْعُ سَوَادٍ ، وَهُوَ الشَّخْصُ . الْأَكْمَةُ : الرَّايَةُ الْمَرْتَفَعَةُ عَنِ الْأَرْضِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهَا .

تَخْرُجَ بِفَرَسِي وَهِيَ مِنْ وَرَاءَ أَكْمَةِ ، فَتَحْبِسُهَا عَلَيَّ ، وَأَخْذْتُ رُمْحِي ، فَخَرَجْتُ بِهِ مِنْ ظَهْرِ
الْبَيْتِ ، فَحَطَّطْتُ بِزَجْهٍ الْأَرْضَ ، وَخَفَضْتُ غَالِيَةَ ، حَتَّى أَتَيْتُ فَرَسِي فَرَكِبْتُهَا ، فَرَفَعْتُهَا
تَقَرَّبَ بِي ، حَتَّى دَنَوْتُ مِنْهُمْ ، فَعَثَرْتُ بِي فَرَسِي ، فَخَرَزْتُ عَنْهَا ، فُقِمْتُ فَأَهْوَيْتُ بِيَدِي
إِلَى كِنَانَتِي فَاسْتَخَرَجْتُ مِنْهَا الْأَزْلَامَ ، فَاسْتَقَسِمْتُ بِهَا : أَضْرَمُ ، أَمْ لَا ؟ فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ ،
فَرَكِبْتُ فَرَسِي - وَعَصَبْتُ الْأَزْلَامَ - تَقَرَّبَ بِي ، حَتَّى إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ
لَا يَلْتَفِتُ ، وَأَبُو بَكْرٍ يَكْثُرُ اللَّائِمَاتِ : سَاخَتْ يَدَا فَرَسِي فِي الْأَرْضِ حَتَّى بَلَغَتَا الرُّكْبَتَيْنِ ،
فَخَرَزْتُ عَنْهَا ، ثُمَّ زَجَرْتُهَا فَتَهَضَّتْ ، فَلَمْ تَكُدْ تَخْرُجْ يَدَيْهَا ، فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً إِذَا لِأَثَرٍ
يَدَيْهَا عَشَانٌ سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ مِثْلُ الدُّخَانِ ، فَاسْتَقَسِمْتُ بِالْأَزْلَامِ ، فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ ،
فَنَادَيْتُهُم بِالْأَمَانِ ، فَوَقَفُوا ، فَرَكِبْتُ فَرَسِي حَتَّى جِئْتُهُمْ ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي - حِينَ لَقِيتُ
مَالِكِيَّتَ مِنَ الْحَبَشِ عَنْهُمْ - أَنْ سَيَظْهَرُ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقُلْتُ لَهُ : إِنْ قَوْمَكَ قَدْ جَعَلُوا
فِيكَ الدِّيَةَ - وَأَخْبَرْتَهُمْ أَخْبَارَ مَا يُرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ - وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمُ الزَّادَ وَالْمَتَاعَ ، فَلَمْ يَزَلْزَلِي
إِلَّا أَنْ قَالَ : « أَخْفِ عَنَّا » ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِي كِتَابَ أَمْنٍ ، فَأَمَرَ عَامِرَ بْنَ قُهَيْرَةَ ،
فَكَتَبَ لِي فِي رَقْعَةٍ مِنْ أَدَمَ ، وَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ : « فَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَقِيَ الزُّبَيْرَ فِي رَكْبٍ مِنَ
الْمُسْلِمِينَ تَجَاراً قَافِلِينَ مِنَ الشَّامِ ، فَكَسَا الزُّبَيْرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ ثِيَابَ بِياضٍ ، وَسَمِعَ
الْمُسْلِمُونَ بِالْمَدِينَةِ مَخْرَجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ ، فَكَانُوا يَغْدُونَ كُلُّ غَدَاةٍ إِلَى الْحَرَّةِ
فَيَنْتَظِرُونَهُ ، حَتَّى يَرُدَّهُمْ حَرَّ الظَّهْرِ ، فَاتَّقَلَبُوا يَوْمًا بَعْدَمَا أَطَالُوا أَنْتِظَارَهُمْ ، فَلَمَّا أَوُوا
إِلَى بُيُوتِهِمْ أَوَفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ عَلَى أَطْرَمٍ مِنْ أَطَامِهِمْ لِأَمْرٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ ، فَبَصَرَ بِرَسُولِ اللَّهِ

= قُرْبَى : الْفَرَسُ يَقْرَبُ تَقْرِيبًا : إِذَا عَدَا عَدُوًّا دُونَ الْإِسْرَاعِ ، وَلَهُ تَقْرِيبَانِ أَدْنَى وَأَعْلَى . الْكِنَانَةُ : كَيْسٌ مِنْ جِلْدٍ
تَجْعَلُ فِيهَا السَّهَامَ ، وَهِيَ الْجَبْعَةُ . الْأَزْلَامُ : الْقِدَاحُ ، وَاحِدُهَا : زَلَمٌ ، وَزَلَمٌ - بَفَتْحِ الزَّايِ وَصَوِّهَا ، وَفَتْحِ اللَّامِ فِيهَا -
(وَالْقِدْحُ) : السَّهْمُ الَّذِي لَا نَصْلَ لَهُ وَلَا رِيشَ ، وَكَانَ لَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ هَذِهِ الْأَزْلَامُ ، مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا الْأَمْرُ
وَالنَّهْيُ ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَضَعُهَا فِي كِنَانَتِهِ أَوْ فِي وَعَائِهِ ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا عِنْدَ عَزِيمَتِهِ عَلَى أَمْرٍ مَا اتَّفَقَ لَهُ مِنْ غَيْرِ
قَصْدٍ ، فَإِنْ خَرَجَ الْأَمْرُ مَضَى عَلَى عَزْمِهِ ، وَإِنْ حَرَجَ النَّاهِي انْصَرَفَ . الْاسْتَقْسَامُ : أَصْلُ الْاسْتِقْسَامِ : طَلَبُ مَا قَسَمَ
اللَّهُ لَهُ مِنَ الْأَقْسَامِ . وَ (الْقِسْمُ) : النَّصِيبُ الْمَغِيبُ عَنْهُ عِنْدَ طَلْبِهِ ، وَذَلِكَ عَمُودٌ إِذَا طَلَبَ مِنْ جِهَتِهِ سَبْحَانَهُ ، وَكَانَ
أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَطْلُبُونَ مَا غِيبَ عَنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ الْأَزْلَامِ ، فَمَا دَلَّتْهُمْ عَلَيْهِ فَعَلُوهُ . سَاخَتْ : قَوَامُ الدَّابَّةِ فِي
الْأَرْضِ : غَاصَتْ فِيهَا . عَشَانٌ : الدُّخَانُ : الْغُبَارُ ، وَأَصْلُهُ الدُّخَانُ ، وَجَمْعُهُ عَوَائِنٌ ، عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ . السَّاطِعُ :
الْمُرْتَفِعُ فِي الْجَوِّ مُنْتَشِرًا ، مَارِزَاتٌ فَلَانًا شَيْئًا : أَيُّ : مَا أَصَبَتْ مِنْهُ شَيْئًا ، وَالرَّادُ : أَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئًا . قَافِلِينَ :
الْقَافِلُ : الرَّاجِعُ مِنْ سَفَرِهِ .

ﷺ وأصحابه مبيضين ، يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوتيه : يامعشر العرب ، هذا جدكم الذي تنتظرون ، قال : فقار المسلمون إلى السلاح ، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة ، فعدل بهم ذات اليمين ، حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف ، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول ، فقام أبو بكر للناس ، وجلس رسول الله ﷺ صامتا ، فطفيق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيي أبا بكر ، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك ، فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضعة عشرة ليلة ، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى ، وصلى فيه رسول الله ﷺ ، ثم ركب راحلته ، فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة ، وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين ، وكان مربدا للتمر ، لسهل وسهل - غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرار - فقال رسول الله ﷺ حين بركت راحلته « هذا إن شاء الله المنزل » ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين ، فساومهما بالبريد ليتخذه مسجدا ، فقالا : بل نهيه لك يارسول الله فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منها هبة حتى ابتاعه منها ثم بناه مسجدا ، وطفيق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه ، ويقول وهو ينقل اللبن :

هَذَا الْحِمَالُ لِحِمَالٍ خَيْرٌ هَذَا أَكْبَرُ رَبَّنَا وَأَطْهَرُ

ويقول :

اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

فتمثل بشعر رجل من المهاجرين ، لم يسم لي .

قال ابن شهاب : ولم يبلغنا في الأحاديث أن رسول الله ﷺ تمثل ببئس شعر تام غير هذه الأبيات .

مبيضين : بكسر الباء ، أي : هم ذوو ثياب بيض ، ومنه السود بكسر الواو للابس السواد ، ولذلك قيل لأصحاب الدعوة العباسية : السود . يزول بهم السراب ، أي : ظهرت حركتهم فيه للمين . جدكم : حطكم . المرشد : المكان الذي يوضع فيه التمر . الحمال : بكسر الحاء : من الحمل ، والذي يحمل من خير هو التمر ، ولعله عنى : أن هذا في الآخرة أفضل من ذلك ثوابا وأحسن عاقبة .

فوائد من فتح الباري :

١ - عن ابن شهاب قال : كان بين ليلة العقبة - يعني الأخيرة - وبين مهاجر النبي ﷺ ثلاثة أشهر أو قريب منها . قلت : هي ذو الحجة والحرم وصفر ، لكن كان مضى من ذي الحجة عشرة أيام ، ودخل المدينة بعد أن استهل ربيع الأول فمها كان الواقع أنه اليوم الذي دخل فيه من الشهر يعرف منه القدر على التحرير ، فقد يكون ثلاثة سواء وقد ينقص وقد يزيد ، لأن أقل ما قيل إنه دخل في اليوم الأول منه ، وأكثر ما قيل إنه دخل الثاني عشر منه .

٢ - بمناسبة قول ابن الدُّغْنَةِ عن أبي بكر (لا يخرج مثله) قال ابن حجر : أي : من وطنه باختياره على نية الإقامة في غيره مع ما فيه من النفع المتعدي لأهل بلده ، (ولا يُخْرَج) أي : ولا يخرج أحد بغير اختياره للمعنى المذكور ، واستنبط بعض المالكية من هذا أن من كانت فيه منفعة متعديّة لا يمكن من الانتقال عن البلد إلى غيره بغير ضرورة راجحة .

٣ - بمناسبة أمر رسول الله ﷺ لعامر بن فهيرة أن يكتب عقد أمان لسراقة . قال ابن حجر :

قوله : فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أدم وفي رواية بن إسحاق : (فكتب لي كتاباً في عظم - أو ورقة أو خرقة - ثم ألقاه إلي ، فأخذته فجعلته في كنانتي ثم رجعت) وفي رواية موسى بن عقبة نحوه وعندها (رجعت فسئلت فلم أذكر شيئاً مما كان ، حتى إذا فرغ من حنين بعد فتح مكة خرجت لألقاه ومعني الكتاب ، فلقيته بالجعرانة حتى دنوت منه فرفعت يدي بالكتاب فقلت : يا رسول الله هذا كتابك ، فقال : يوم وفاء وبر ، أدن ، فأسلمت) وفي رواية صالح بن كيسان نحوه ، وفي رواية الحسن عن سراقة قال : (فبلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي ، فأتيته فقلت : أحب أن توادع قومي ، فإن أسلم قومك (أي : قريش) أسلموا وإلا أمنت منهم ، ففعل ذلك ، قال : ففهم نزلت : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ﴾ ^(١) الآية) اهـ .

انظر إلى الوفاء كيف أن العقد لسراقة سرى على قومه بطلبه ، مع العلم أن قومه لم يكونوا يقاتلون المسلمين ولولا ذاك ما سرى ذلك العقد إليهم .

٤ - بمناسبة الحديث عن نزول رسول الله ﷺ ابتداء في قباء ، قال ابن حجر :

وهو في التحقيق أول مسجد صلى النبي ﷺ فيه بأصحابه جماعة ظاهراً ، وأول مسجد بني لجماعة المسلمين عامة .

٥ - وبمناسبة خروج رسول الله ﷺ من قباء إلى المدينة قال ابن حجر عند قوله :

(ثم ركب راحلته) وقع عند ابن إسحاق وابن عائد أنه ركب من قباء يوم الجمعة فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف فقالوا : يا رسول الله هلم إلى العتد والعتد والقوة ، أنزل بين أظهرنا . وعند أبي الأسود عن عروة نحوه وزاد : وصاروا يتنازعون زمام ناقته . وسمى من سأله النزول عندهم : عتبان بن مالك في بني سالم ، وفروة بن عمرو في بني بياضة ، وسعد بن عباد والمندر بن عمرو وغيرهما في بني ساعدة ، وأبا سليط وغيره في بني عدي ، يقول لكل منهم : « دعوها فإنها مأمورة » وعند الحاكم من طريق إسحاق بن أبي طلحة عن أنس : (جاءت الأنصار فقالوا إلينا يا رسول الله ، فقال : « دعوا الناقة فإنها مأمورة » ، فبركت على باب أبي أيوب) قوله : (حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة) في حديث البراء عن أبي بكر (فتنازعه القوم أيهم ينزل عليه فقال : إني أنزل على أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك) وعند ابن عائد عن الوليد بن مسلم وعند سعيد بن منصور كلاهما عن عطاف بن خالد : « أنها استناخت به أولاً فجاءه ناس فقالوا : المنزل يا رسول الله ، فقال : « دعوها » ، فانبعثت حتى استناخت عند موضع المنبر من المسجد ، ثم تحلحلت فنزل عنها ، فأتاه أبو أيوب ، فقال : إن منزلي أقرب المنازل فأذن لي أن أتقل رحلك ، قال : « نعم » ، فنقل وأناخ الناقة في منزله . وذكر ابن سعد أن أبا أيوب لما نقل رجل النبي ﷺ إلى منزله قال النبي ﷺ : « المرء مع رحله » وأن أسعد بن زرارة جاء فأخذ ناقته فكانت عنده ، قال : وهذا أثبت ، وذكر أيضاً أن مدة إقامته عند أبي أيوب كانت سبعة أشهر .

٢٠٢ - * روى البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : جاء أبو بكر رضي الله عنه إلى أبي في منزله ، فاشترى منه رجلاً ، فقال لعازب : ابعث ابنك يحمله معي ، قال فحملته معه ، وخرج أبي ينتقد ثمنه ، فقال له أبي : يا أبا بكر حدثني كيف صنعتما ليلة سريت مع رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، أشرينا ليلتنا ومن الغد ، حتى قام قائم الظهيرة ، وخلا الطريق لا يمر فيه أحد ، فرفعت لنا صخرة طويلة لها ظل لم تأت عليه الشمس ، فنزلنا عندها وسوئنا للنبي ﷺ مكاناً يدي ينأى عليه ويسقط عليه فروة ، وقلت له : ثم يارسول الله ، وأنا أنفض لك ماحولك ، فنام ، وخرجت أنفض ماحولة ، فإذا أنا براع مقبل بغمه إلى الصخرة ، يريد منها الذي أردنا ، فقلت : لمن أنت يا غلام ؟ فقال : لرجل من أهل المدينة ، فقلت : أي غنمك لبن ؟ قال : نعم ، قلت : أفتحلب لي ؟ قال : نعم ، فأخذ شاة ، فقلت : انفض الضرع من التراب والشعر والقذى - قال : فرأيت البراء يضرب إحدى يديه على الأخرى ينفض - فحلب في قعب كئيب من لبن ، قال : ومعني إداوة حملتها للنبي ﷺ يرتوي منها ويشرب ويتوضأ ، فأتيت النبي ﷺ فكرهت أن أوقفه فوافقتة حتى استيقظ - فصببت من الماء على اللبن حتى برد أسفله ، فقلت : يارسول الله اشرب : فشرب حتى رضى ، ثم قال : « ألم يأن للرجل ؟ » قلت : بلى ، قال : فازحنا بعد ما مالت الشمس ، وأتبعنا سراقه بن مالك ، فقلت : أتينا يارسول الله ، فقال : « لا تحزن ، إن الله معنا » فدعا عليه رسول الله ﷺ ، فارتطمت به فرسه إلى بطنها : فقال : إني أراكما قد دعوتما علي ، فادعوا لي ، فالله لكما أن أرد عنكما الطلب ، فدعا له رسول الله ﷺ ، فنجأ ، فجعل لا يلقي أحداً إلا قال : كفيتم ما هنا ، فلا يلقي أحداً إلا رده قال : ووفى لنا .

٢٠٢ - البخاري (٦ / ١٢٢) ٦١ - كتاب المناقب (٢٥) باب علامات النبوة في الإسلام .

ومسلم (٤ / ٢٣٠٩) ٥٣ - كتاب الزهد والرقائق - ١٩ - باب : في حديث الهجرة .

الرجل : سرج البعير - وهو الكور - وقد يراد به القعب والحداجة . قائم الظهيرة : أشد الحر وسط النهار ، وقائما : وقت استواء الشمس في وسط السماء (أنفض لك ما حولك) أي أحرك وأطوف هل أرى أحداً يطالبك . قعب : قده ضخم غليظ . الكتبة : القليل من اللبن . ألم يأن : ألم يقرب ويحي . وقت الرواح . المجلد . الأرض الغليظة الصلبة . أتينا : المراد : أنهم لحقونا وأدركونا . ارتطمت : ارتطمت في الوحل : إذا شبت فيه ولم تك تد تتخلص ، وارتطم الرجل في أمره : إذا سدت عليه مداخله .

٢٠٣ - * روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : أقبل نبي الله ﷺ إلى المدينة وهو مُزدفٌ أباً بكرٍ ، وأبو بكرٍ شيخٌ يُعرفُ ، ونبي الله ﷺ شابٌ لا يُعرفُ ، فيلقى الرجلُ أباً بكرٍ ، فيقولُ : يَا أَبَا بَكْرٍ ، مَنْ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ ؟ فيقولُ : هَذَا الرَّجُلُ يَهْدِينِي السَّبِيلَ فَيَحْسِبُ الْحَاسِبُ : أَنَّهُ إِنَّا يَعْنِي الطَّرِيقَ ، وَإِنَّا يَعْنِي بِهِ سَبِيلَ الْخَيْرِ ، فَالْتَفَتَ أَبُو بَكْرٍ ، فَإِذَا هُوَ بِفَارِسٍ قَدْ لَحِقَهُمْ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَذَا فَارِسٌ قَدْ لَحِقَ بِنَا ، فَالْتَفَتَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : « اللَّهُمَّ اضْرَعْهُ » ، فَضَرَعَتْهُ قَرْسُهُ ، ثُمَّ قَامَتْ تَحْمَحُمُ ، فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، مُرْنِي بِمَا شِئْتَ ، قَالَ : « فَفِئْ مَكَانَكَ ، لَا تَتْرُكَنَّ أَحَدًا يُلْحَقُ بِنَا » ، فَكَانَ أَوَّلَ النَّهَارِ جَاهِدًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَكَانَ آخِرَ النَّهَارِ مَسْلَحَةً لَهُ ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَانِبَ الْحَرَّةِ ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَى الْأَنْصَارِ ، فَجَاوَوْا إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ ، فَسَلَّمُوا عَلَيْهِمَا ، وَقَالُوا : ازْكَبَا أَمِينَيْنِ مُطَاعَيْنِ ، فَرَكِبَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ ، وَخَفُوا دُونَهُمَا بِالسَّلَاحِ ، فَقِيلَ فِي الْمَدِينَةِ : جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ ، جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ ، فَأَشْرَفُوا يَنْظُرُونَ ، وَيَقُولُونَ : جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ فَأَقْبَلَ يَسِيرُ حَتَّى نَزَلَ جَانِبَ دَارِ أَبِي أَيُّوبَ فَإِنَّهُ لِيَحْدُثُ أَهْلَهُ ، إِذْ سَمِعَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ - وَهُوَ فِي نَخْلٍ لِأَهْلِهِ يَخْتَرِفُ لَهُمْ - فَعَجِلَ أَنْ يَضَعَ الَّذِي يَخْتَرِفُ لَهُمْ فِيهَا ، فَجَاءَ وَهِيَ مَعَهُ ، فَسَمِعَ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَيُّ نَبِيٍّ أَهْلُنَا أَقْرَبُ ؟ » فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ : أَنَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، هَذِهِ دَارِي ، وَهَذَا بَابِي ، قَالَ : « فَاذْطَلِقْ فَهَيْسَ لَنَا مَقِيلًا » ، قَالَ : قُومًا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ ، فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، جَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ ، فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَنَّكَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ، وَقَدْ عَلِمْتُ يَهُودَ أَنِّي سَيِّدُهُمْ وَابْنُ سَيِّدِهِمْ ، وَأَعْلَمُهُمْ وَابْنُ أَعْلَمِهِمْ ، فَأَدْعُهُمْ ، فَاسْأَلُهُمْ عَنِّي قَبْلَ أَنْ يَعْلَمُوا أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ ، فَإِنَّهُمْ إِنْ يَعْلَمُوا أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ قَالُوا فِيَّ مَا لَيْسَ فِيَّ ، فَأَرْسَلَ

٢٠٣ - البخاري (٢٤٩ / ٧) ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار - ٤٥ - باب هجرة النبي ﷺ .

(وأبو بكر شيخ يعرف ورسول الله ﷺ شاب لا يعرف) : لعل الراوي أنسا يعني أن أباً بكر حسب مظهره يبدو أنه أسن من النبي ﷺ والمعلوم أن النبي ﷺ كان أسن من أبي بكر بنحو سنتين ، وهذا ما ذكره ابن حجر في الفتح قال : يريد أن أباً بكر قد شاب .

جاهداً : الجاهد : المبالغ بالاذل غاية ما يقدر عليه . مسلحة : المسلحة : قوم ذو سلاح ، والمسلحة أيضاً : كالشفر والمربق وهو الموضع الذي يقيم فيه قوم يحفظون من وراهم من العدو ، لئلا يهجموا عليهم ، ويدخلوا إليهم ، وهو بالأصمية : البرك . الاختراف : اجتناء الثمر من الشجر .

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَأَقْبَلُوا فَدْخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالَ : « يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ ، وَبَلَّغْتُمْ ، اتَّقُوا اللَّهَ ، فَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا ، وَأَنِّي جِئْتُكُمْ بِحَقٍّ ، فَأَسْأَلُكُمْ » ، قَالُوا : مَا نَعْلَمُ - قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - قَالَ : « فَأَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ ابْنُ سَلَامٍ ؟ » قَالُوا : ذَلِكَ سَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا ، وَأَعْلَمُنَا وَابْنُ أَعْلَمِنَا ، قَالَ : « أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ ؟ » قَالُوا : حَاشَى لِلَّهِ ، مَا كَانَ لِيُسَلِّمَ - قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَرَدُّوا عَلَيْهِ - فَقَالَ : « يَا ابْنَ سَلَامٍ ، أَخْرِجْ عَلَيْهِمْ » فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ ، اتَّقُوا اللَّهَ ، فَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَّهُ جَاءَ بِحَقٍّ ، قَالُوا : كَذَبْتَ ، فَأَخْرَجَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

٢٠٤ - * روى البزار عن قيس بن النعمان قَالَ : لَمَّا انْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ يَسْتَخْفِيَانِ نَزَلَا بِأَبِي مَعْبُدٍ فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا لَنَا شَاءَ وَإِنْ شَاءَنَا لَحَوَامِلُ فَمَا بَقِيَ لَنَا لَبَنٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - أَحْسَبُهُ - « فَمَا تِلْكَ الشَّاةُ ؟ » فَأَتَيْتُ بِهَا ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْبَرَكَةِ عَلَيْهَا ثُمَّ حَلَبَ عَسًا ، فَسَقَاهُ ثُمَّ شَرِبُوا ، فَقَالَ : أَنْتَ الَّذِي تَزْعُمُ قَرِيشَ أَنْكَ صَابِقٌ ، قَالَ : « إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ » قَالَ أَشْهَدُ أَنْ مَا جِئْتَ بِهِ حَقٌّ ، ثُمَّ قَالَ : أَتُبْعُكَ قَالَ : « لَا حَتَّى تَسْمَعَ أَنَا قَدْ ظَهَرْنَا » فَاتَّبَعَهُ بَعْدُ .

٢٠٥ - * روى الحاكم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْغَارِ مُهَاجِرًا وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعَامِرُ بْنُ قُهَيْرَةَ مُرَدِّفَهُ أَبُو بَكْرٍ وَخَلْفَهُ عُبْدُ اللَّهِ ابْنُ أَرْيَظِ اللَّيْثِيِّ ، فَسَلَكَ بَيْتًا أَسْفَلَ مِنْ مَكَّةَ ثُمَّ مَضَى بَيْنَهُمَا حَتَّى هَبَطَ بَيْنَهُمَا عَلَى السَّاحِلِ أَسْفَلَ مِنْ عُسْفَانَ ، ثُمَّ اسْتَجَارَ بَيْنَهُمَا عَلَى أَسْفَلِ أُمَجٍ ، ثُمَّ عَارَضَ الطَّرِيقَ بَعْدَ أَنْ أَجَازَ قُدَيْدًا ثُمَّ سَلَكَ بَيْنَهُمَا الْحِجَازَ ، ثُمَّ أَجَازَ بَيْنَهُمَا ثَنِيَّةَ الْمُرَارِ ، ثُمَّ سَلَكَ بَيْنَهُمَا الْحَفِيَاءَ ، ثُمَّ أَجَازَ بَيْنَهُمَا مَدَلْجَةَ لَقْفٍ ثُمَّ اسْتَبْطَنَ بَيْنَهُمَا مَدَلْجَةَ صِحَاحٍ ، ثُمَّ سَلَكَ بَيْنَهُمَا مَذْحِجَ ، ثُمَّ بَطَّنَ مَذْحِجَ مِنْ ذِي الْفَضَنِ

٢٠٤ - البزار : كشف الأستار (٢ / ٣٠١) وأورده الميمني في مجمع الزوائد (٦ / ٥٨) وقال رواه البزار ورجاله رجال الصحيح .

عُسًا : القدح الكبير .

٢٠٥ - الحاكم (٢ / ٨) وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وسكت عنه الذهبي .

ذِي الْفَضَنِ : وادٍ من حرة بني سليم .

السنيه : في الجبل كالقبة فيه وقيل هو الطريق العالي فيه .

ثُمَّ يَبْطِنُ ذِي كَشْدٍ ، ثُمَّ أَخَذَ الْجَبَاحِبَةَ ثُمَّ سَلَكَ ذِي سَلَمٍ مِنْ بَطْنِ أَعْلَى مَذَلَجَةٍ ، ثُمَّ أَخَذَ
الْقَاحَةَ ثُمَّ هَبَطَ الْعَرَجَ ، ثُمَّ سَلَكَ ثَنِيَّةَ الْغَائِرِ عَنْ يَمِينِ رَكُوبَةٍ ثُمَّ هَبَطَ بَطْنَ رَيْمٍ ، فَقَدِمَ قَبَاءَ
عَلَى بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ .

فائدة : عبد الله هو دليل الرحلة وكان مشركاً من بني ليث من كنانة وقد استأجره أبو
بكر وفي ذلك ما يدل على أنه إذا لم يوجد مسلم لمهمة لا بد منها فبالإمكان الاستفادة من
الكافر الثقة .

يلاحظ أن الدليل سار بهم في طريق راعى فيه كل مقتضيات الأمن وكان رسول الله
ﷺ مسلماً في ذلك مما يدل على أن أخذ الاحتياطات الأمني جزء من السنة النبوية .

٢٠٦ - * روى الحاكم عن محمد بن سيرين قال : ذَكَرَ رَجُلٌ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
فَكَانَهُمْ فَضَّلُوا عُمَرَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَبِلْتُ ذَلِكَ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ :
وَاللَّهِ لِلَّيْلَةِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ خَيْرٌ مِنْ آلِ عُمَرَ وَلَيُؤْتَمُّ مِنْ أَبِي بَكْرٍ خَيْرٌ مِنْ آلِ عُمَرَ ، لَقَدْ خَرَجَ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِيَنْطَلِقَ إِلَى الْغَارِ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ فَجَعَلَ يَمْشِي سَاعَةً بَيْنَ
يَدَيْهِ وَسَاعَةً خَلْفَهُ حَتَّى فَطَنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « يَا أَبَا بَكْرٍ مَا لَكَ تَمْشِي سَاعَةً
بَيْنَ يَدَيَّ وَسَاعَةً خَلْفِي » فَقَالَ : يَارَسُولَ اللَّهِ أَذْكَرُ الطَّلَبِ فَأَمْشِي خَلْفَكَ ثُمَّ أَذْكَرُ الرُّصْدِ
فَأَمْشِي بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَقَالَ : « يَا أَبَا بَكْرٍ لَوْ كَانَ شَيْءٌ أَحْبَبْتُ أَنْ يَكُونَ بِكَ دُونِي »
قَالَ : نَعَمْ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا كَانَتْ لِيَتَكُونَ مِنْ مِلَّةٍ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بِي دُونَكَ ، فَلَمَّا
انْتَهَيَا إِلَى الْغَارِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : مَكَانَكَ يَارَسُولَ اللَّهِ حَتَّى أَسْتَبْرِئَ لَكَ الْغَارَ ، فَدَخَلَ
وَأَسْتَبْرَأَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ فِي أَغْلَاهُ ذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَبْرِئِ الْجِحْرَةَ فَقَالَ : مَكَانَكَ يَارَسُولَ اللَّهِ
حَتَّى أَسْتَبْرِئَ الْجِحْرَةَ ، فَدَخَلَ وَأَسْتَبْرَأَ ثُمَّ قَالَ : انْزِلْ يَارَسُولَ اللَّهِ ، فَتَنَزَلَ فَقَالَ عُمَرُ : وَالَّذِي
نَفْسِي بِيَدِهِ لَتِلْكَ اللَّيْلَةُ خَيْرٌ مِنْ آلِ عُمَرَ .

٢٠٧ - * روى الحاكم عن عروة بن الزبير أنه سَمِعَ الزُّبَيْرَ يَذْكُرُ أَنَّهُ لَقِيَ الرُّكْبَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

٢٠٦ - المستدرک (٦ / ٢) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين لولا إرساله فيه ولم يخرجاه ، ووافقه
الذهبي .

ملحة : نازلة شديدة من شتات الدهر . استبرئ : استبرأ الشيء : تقصى بحشه . الجحرة : بكسر الجيم جمع جحر .

٢٠٧ - المستدرک (١١ / ٢) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

كَانُوا تَجَارًا بِالشَّامِ قَافِلِينَ مِنْ مَكَّةَ عَارِضُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ بِثِيَابٍ بِيضٍ حِينَ سَمِعُوا بِخُرُوجِهِمْ فَلَمَّا سَمِعَ الْمُسْلِمُونَ بِالْمَدِينَةِ بِخُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانُوا يَغْدُونَ كُلَّ غَدَاةٍ إِلَى الْحَرَّةِ فَيَنْتَظِرُونَهُ حَتَّى يُؤْذِيَهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَةِ فَانْقَلَبُوا يَوْمًا بَعْدَ مَا أَطَالُوا انْتِظَارَهُ فَلَمَّا أَوْوَا إِلَى بُيُوتِهِمْ أَوْفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودِ أَطْلَمًا مِنْ أَطَامِهِمْ لِيَنْظُرَ إِلَيْهِ ، فَبَصَرَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ مُبَيِّضِينَ يَزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ فَلَمْ يَمْلِكِ الْيَهُودِيُّ أَنْ قَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ هَذَا صَاحِبُكُمْ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ فَتَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى السِّلَاحِ فَتَلَقَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِظَهْرِ الْحَرَّةِ .

٢٠٨ - * روى الطبراني عن ابن إسحق قَالَ : نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَقِيَاءَ عَلَى كَلْثُومِ بْنِ هِرَمٍ أَخِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ وَيُقَالُ : بَلُّ نَزَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ خَيْثَمَةَ فَأَقَامَ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ وَالْثَلَاثَاءِ وَالْأَرْبَعَاءِ وَالْخَمِيسِ وَأَسَسَ مَسْجِدَهُمْ وَخَرَجَ مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ ، فَأَذْرَكَهُ الْجُمُعَةُ فِي بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ فَصَلَّى الْجُمُعَةَ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي بَطْنِ الْوَادِي قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : ثُمَّ نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي أَيُّوبَ ، وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِنَاءَ مَسْجِدِهِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ .

٢٠٩ - * روى الطبراني عن الشُّمُسِ بِنْتِ النُّعْمَانِ قَالَتْ نَظَرْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ قَدِمَ وَنَزَلَ وَأَسَسَ هَذَا الْمَسْجِدَ مَسْجِدَ قَبَاءَ فَرَأَيْتُهُ يَأْخُذُ الْحِجْرَ أَوْ الصَّخْرَةَ حَتَّى يَهْضُرَهُ الْحِجْرُ ، وَأَنْظَرَ إِلَى بَيَاضِ التَّرَابِ عَلَى بَطْنِهِ أَوْ سُرَّتِهِ فَيَأْتِي الرَّجُلُ مِنْ أَصْحَابِهِ وَيَقُولُ بِأَبِي وَأُمِّي يَارَسُولَ اللَّهِ أَعْطَيْتَنِي أَكْفِيكَ فَيَقُولُ : « لَا ، خُذْ مِثْلَهُ » حَتَّى أَسْأَلَهُ . وَيَقُولُ : « إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ يَوْمُ الْكُعْبَةِ » قَالَ فَكَانَ يُقَالُ إِنَّهُ أَقَامَ مَسْجِدَ قَبْلَةٍ .

٢١٠ - * روى الطبراني عن عَاصِمِ بْنِ عَدِي قَالَ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ لَأَتْنَتِي

قائلين : راحمين - القائل الراجع من سفره . أوفى . أشرف واطلع . مببيضين : بكسر الياء أي هم ذو ثياب بيض . أطامهم : الأطم : البناء المرتفع .

٢٠٨ - للمعجم الكبير (٢٠ / ٦) ومجمع الزوائد (٦٢ / ٦) . قال الهيثمي : رواه الطبراني ورجاله ثقات .
٢٠٩ - للمعجم الكبير (٢٤ / ٢١٨) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٤ / ١١) وقال : رواه الطبراني ورجاله ثقات .
هضره : أي يميله .

٢١٠ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٢ / ٦) رواه الطبراني ورجاله ثقات .

عَشْرَةَ لَيْلَةٍ خَلَّتْ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ فَأَقَامَ بِالْمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ .

٢٢١ - * روى الحاكم عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : شَهِدْتُ يَوْمَ دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ فَلَمْ أَرَ يَوْمًا أَحْسَنَ وَلَا أَضْوَأَ مِنْهُ .

٢١٢ - * روى الحاكم عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : وَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حَتَّى قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَخَرَجَ النَّاسُ حَتَّى دَخَلْنَا فِي الطَّرِيقِ وَصَاحَ النَّسَاءُ وَالْحُدَّامُ وَالْغِلْمَانُ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ أَكْبَرَ جَاءَ مُحَمَّدٌ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ انْطَلَقَ فَتَنَزَلَ حَيْثُ أُمِرَ .

هذا الحديث أصل في جواز الهتاف الذي اعتاده أبناء الحركة الإسلامية في المناسبات .

٢١٣ - * روى أبو داود عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ لَعِبَتِ الْحَبَشَةُ لِقْدُومِهِ ، فَرَحًا بِذَلِكَ ، لَعِبُوا بِحِرَابِهِمْ » .

٢١٤ - * روى الحاكم عن عكرمة قال لما خَرَجَ صَهِيبٌ مَهَاجِرًا تَبِعَهُ أَهْلُ مَكَّةَ فَتَنَزَّلَ كِنَانَتَهُ فَأَخْرَجَ مِنْهَا أَرْبَعِينَ سَهْمًا فَقَالَ : لَا تَصِلُونِ إِلَيَّ حَتَّى أَصْنَعَ فِي كُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ سَهْمًا ثُمَّ أَصِيرُ بَعْدَ إِلَى السَّيْفِ فَتَعْلَمُونَ أَنِّي رَجُلٌ وَقَدْ خَلَفْتُ بِمَكَّةَ قَيْنَتَيْنِ فَمَا لَكُمْ . قَالَ (وَحَدَّثَنَا) حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ نَحْوَهُ وَنَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ الْآيَةَ فَلَمَّا رَأَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ « أَبَا يَحْيَى رِبْحُ الْبَيْعِ » قَالَ : وَتَلَا عَلَيْهِ الْآيَةَ .

٢١٥ - * روى الحاكم عن سعيد بن المسيب عن صهيب قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ سَبْخَةً بَيْنَ ظَهْرَانِي خَرَّةٌ فِيمَا أَنْ تَكُونَ هَجْرًا أَوْ تَكُونَ يَثْرِبَ » قَالَ : وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَخَرَجَ مَعَهُ

٢١١ - المستدرک (١٢ / ٢) وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

٢١٢ - الحاكم (١٢ / ٢) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

٢١٣ - أبو داود (٢٨١ / ٤) كتاب الأدب ، باب في النهي عن الغناء . وإسناده صحيح .

فتنزل : نزل الشيء نزلًا : استخرجه .

٢١٤ - المستدرک (٢٩٨ / ٢) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وسكت عنه الذهبي .

٢١٥ - المستدرک (٤٠٠ / ٢) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

أبو بكر رضي الله عنه وكنت قد همت بالخروج معه فصَدَّني فَيَّانٌ مِنْ قُرَيْشٍ فجعلتُ لِيَلَتِي تِلْكَ أَقَوْمٌ وَلَا أَقْعَدَ فَقَالُوا : « قد شغل الله عنكم ببطينه ولم أَكُنْ شاكِيًا فقاموا فَلَجَجَنِي مِنْهُمْ نَاسٌ بَعْدَ مَا سِرْتُ بَرِيدًا لِيَرْدُونِي فَقُلْتُ لَهُمْ : هَلْ لَكُمْ أَنْ أُعْطِيَكُمْ أَوَاقِي مِنْ ذَهَبٍ وَتَخْلُون سَبِيلِي وَتَقُون لِي قَتَبَتُهُمْ إِلَى مَكَّةَ فَقُلْتُ لَهُمْ : احْفَرُوا تَحْتَ أُسْكُفَةِ الْبَابِ فَإِنْ نُحِثَهَا الْأَوَاقِ وَادْهَبُوا إِلَى فَلَانَةٍ فَخَذُوا الْحَلَّتَيْنِ وَخَرَجَتْ حَتَّى قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يَتَحَوَّلَ مِنْهَا يَعْنِي قَبَاءَ فَلَمَّا رَأَى قَالَ : « يَا أَبَا يَحْيَى زَبِجَ الْبَيْعِ » ثَلَاثًا فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا سَبَقَنِي إِلَيْكَ أَحَدٌ وَمَا أَخْبَرَكَ إِلَّا جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

٢١٦ - * روى الحاكم عن صهيب ، قال : قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْهَجْرَةِ وَهُوَ يَأْكُلُ تَمْرًا فَأَقْبَلْتُ أَكَلُ مِنَ التَّمْرِ وَبَعِينِي رَمَدٌ فَقَالَ : « أَتَأْكُلُ التَّمْرَ وَبِكَ رَمَدٌ » فَقُلْتُ إِنَّمَا أَكَلْتُ عَلَى شِقْيِ الصَّحِيحِ لَيْسَ بِهِ رَمَدٌ قَالَ : فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

٢١٧ - * روى البخاري ومسلم عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها ، أَنَّهَا حَمَلَتْ بَعْدَ اللَّهِ ابْنَ الزُّبَيْرِ بِمَكَّةَ ، قَالَتْ : فَخَرَجْتُ وَأَنَا مَتَمٌ ، فَأَتَيْتُ الْمَدِينَةَ ، فَنَزَلْتُ بَقْبَاءَ ، فَوَلَدْتُهُ بَقْبَاءَ ، ثُمَّ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَوَضَعَهُ فِي حَجَرِهِ ، ثُمَّ دَعَا بِتَمْرَةٍ فَمَضَغَهَا ، ثُمَّ تَفَلَ فِي فِيهِ ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ دَخَلَ جَوْفَهُ رِيقُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ حَنَكَهُ بِالتَّمْرَةِ ، ثُمَّ دَعَا لَهُ ، وَبَرَكَ عَلَيْهِ ، وَكَانَ أَوَّلَ مَوْلُودٍ وَلِدَ فِي الْإِسْلَامِ .

وفي رواية : ففرحوا به فرحًا شديدًا لأنهم قيلَ لَهُمْ : إن اليهود سَحَرَتَكُمْ فلا يولد لَكُمْ .

٢١٨ - * روى مالك عن عائشة رضي الله عنها قَالَتْ : لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ

٢١٦ - المستدرک (٢ / ٢٩٩) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

٢١٧ - والبخاري (٧ / ٢٤٨) ٦٢ - كتاب مناقب الأنصار - ٤٥ - باب . هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة .

مَتَمٌ : أَمَتُ الْحَامِلِ : دَنَا وَقْتُ وَلادَتِهَا ، وَأَمَتُ أَيَّامِ حَمْلِهَا فَهِيَ مَتَمٌ .

مسلم (٣ / ١٦٩١) ٣٨ - كتاب الآداب - ٥ - باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته ، وحمله إلى صالح يحنكه .

٢١٨ - للوطا (٢ / ٨٩٠) ٤٥ - كتاب الجامع (المدينة) ٤ - باب ما جاء في وباء المدينة .

والبخاري (٤ / ٩٩) ٢٩ - كتاب فضائل المدينة ، باب ١٢ .

ومسلم (٢ / ١٠٠٣) ١٥ - كتاب الحج - ٨٦ - باب : التَّغْيِيبُ فِي سَكْنَى الْمَدِينَةِ ، وَالصَّبْرُ عَلَى لَأْوَالِهَا .

وعنه : وعك فلان أصابه ألم من شدة التعب ، ووعك المرض فلانًا آذاه وأوجعه . أَلْعَج : أَلْعَجَ الشَّيْءُ : انْجَلَى

وَانْكَشَفَ . الْعَقِيرَةُ : الصَّوْتُ رَفَعَ عَقِيرَتَهُ : رَفَعَ صَوْتَهُ مِنَ الْإِثْمِ .

وَعَيْكَ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ ، قَالَتْ : فَدَخَلْتُ عَلَيْهَا ، فَقُلْتُ : يَا أَبَتِ ، كَيْفَ تَجِدُكَ ؟
وَيَابِلَالُ ، كَيْفَ تَجِدُكَ ؟ قَالَتْ : فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ إِذَا أَخَذَتْهُ الْحُمَى يَقُولُ :

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبِّحٌ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَذْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ
وَكَانَ بِلَالٌ إِذَا أَقْلَعَ عَنْهُ ، يَرْفَعُ عَقِيرَتَهُ فَيَقُولُ :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَيْتَنُ لَيْلَةً بِوَادٍ ، وَحَوْلِي إِذْخِرَ وَجَلِيلُ ؟
وَهَلْ أَرِدُنَّ يَوْمًا مِيَاهَ مَجْنَّةٍ وَهَلْ يَبْذُونُ لِي شَامَةً وَطَفِيلُ ؟
قَالَتْ عَائِشَةُ : فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَقَالَ : « اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ
كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ ، وَصَحِّحْهَا ، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا ، وَانْقُلْ حُمَاهَا
فاجْعَلْهَا بِالْجُحْفَةِ » .

وفي رواية نحوه ، وَزَادَ بَعْدَ بَيْتِي بِلَالٍ مِنْ قَوْلِهِ : اللَّهُمَّ الْغَنُ شَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَعُثْبَةُ
ابْنُ رَبِيعَةَ ، وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ ، كَمَا أَخْرَجُونَا مِنْ أَرْضِنَا إِلَى أَرْضِ الْوَبَاءِ . ثُمَّ قَالَتْ : قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ ... » .

وَذَكَرَ بَاقِي الدُّعَاءِ . قَالَتْ : وَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ وَهِيَ أَوْبَا أَرْضِ اللَّهِ ، قَالَتْ : وَكَانَ بَطْحَانٌ
يَجْرِي نَجْلًا ، تَغْنِي مَاءَ آجِنَا » .

وَأَخْرَجَ الْمَوْطَأُ عَقِيبَ هَذَا الْحَدِيثِ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ : وَكَانَ عَامِرُ
ابْنُ فُهَيْرَةَ يَقُولُ :

لَقَدْ رَأَيْتُ الْمَوْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ إِنَّ الْجَبَانَ حَتْفُهُ مِنْ فَوْقِهِ

٢١٩ - رَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ كَانُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ، لِأَنَّهُمْ هَجَرُوا الْمُشْرِكِينَ ، وَكَانَ مِنَ الْأَنْصَارِ مُهَاجِرُونَ ،
لِأَنَّ الْمَدِينَةَ كَانَتْ دَارَ شِرْكٍ ، فَجَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ .

٢٢٠ - * روى البزار عن حذيفة قال : خيّرني رسول الله ﷺ بين الهجرة والنصرة فاخترت الهجرة .

وكان حذيفة بن اليمان من عبس وقد مع أبيه إلى المدينة قبل الهجرة النبوية .

٢٢١ - * روى الحاكم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أتعلم أول زمرة تدخل الجنة من أمّتي » قال : الله ورسوله أعلم فقال : « المهاجرون يأتون يوم القيامة إلى باب الجنة ويستفتحون فيقول لهم الحزنة أو قد حوسبتم فيقولون بأي شيء نحاسب وإننا كانت أسيفنا على عواتقنا في سبيل الله حتى متنا على ذلك قال : فيفتح لهم فيقولون فيه أربعين عاماً قبل أن يدخلها الناس * »

وبقيت الهجرة مستمرة إلى المدينة المنورة في حياة الرسول ﷺ حتى فتح مكة عندئذ قال رسول الله ﷺ « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية » لكن بقيت الهجرة مشروعة حيث وجدت أسبابها : من خوف فتنة في دار الكفر أو البدعة إلى وجوب تجمع في دار الإسلام لصالح جهاد أو قوة للإسلام والمسلمين ، ومن تأمل هذه المعاني عرف كيف يحمل النصوص اللاحقة على محاملها الصحيحة .

٢٢٢ - * روى الطبراني في الأوسط عن ابن عباس : كان قدومنا على رسول الله ﷺ لحس من الهجرة خرجنا متواصلين مع قريش عام الأحزاب وأنا مع أخي الفضل ومعنا غلامنا أبو رافع حتى انتهينا إلى الفرج ثم أخذنا في طريق حتى خرجنا على بني عمرو بن عوف فدخلنا المدينة فوجدناه ﷺ في الخندق وأنا يومئذ ابن ثمان سنين وأخي في ثلاث عشرة .

٢٢٠ - البزار « كشف الأستار » (٢ / ٢٦٥) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١ / ٦٥) وقال : رواه البزار رجاله رجال الصحيح غير علي بن زيد وهو حسن الحديث .

٢٢١ - المستدرک (٢ / ٧٠) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

٢٢٢ - قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٦٤) : رواه الطبراني في الأوسط من طريق عبد الله بن محمد بن عمارة الأنصاري عن سليمان بن داود بن الحصين وكلاهما لم يوثق ولم يضعف ، وبقي رجاله ثقات .

٢٢٣ - * روى النسائي - عن يعلى بن أمية : جئت رسول الله ﷺ بأبي أمية يوم الفتح فقلت : يا رسول الله بايع أبي على الهجرة فقال : « أبايعة على الجهاد وقد انقطعت الهجرة » .

٢٢٤ - * روى النسائي عن عمر ، قال : لا هجرة بعد وفاة رسول الله ﷺ .

٢٢٥ - * روى النسائي عن ابن عمرو بن العاص : قال رجل يا رسول الله أي الهجرة أفضل ؟ قال : « أن تهجر ما كره ربك » وقال : « الهجرة هجرتان هجرة الحاضر وهجرة البادي فأما البادي فيجب إذا دعي ويطيع إذا أمر وأما الحاضر فهو أعظمها بلية وأعظمها أجراً » .

أما الأحاديث التي تدل على عدم انقطاع الهجرة إذا وجدت أسبابها فمنها :

٢٢٦ - * روى النسائي عن عبد الله بن السدي : قلت يا رسول الله يزعمون أن الهجرة قد انقطعت قال : « لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار » .

٢٢٧ - * روى أبو داود عن معاوية رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها » .

قال ابن حجر : وروى الإسماعيلي عن ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ : (انقطعت الهجرة بعد الفتح إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار) . أي مادام في الدنيا دار كفر ، فالهجرة واجبة منها على من أسلم وخشي أن يفتن عن دينه ، ومفهومه أنه لو قدر أن لا يبقى في الدنيا دار كفر أن الهجرة تنقطع لانقطاع موجبها ، والله أعلم .

٢٢٣ - النسائي (٧ / ١٤١) كتاب البيعة ، باب - البيعة على الجهاد وسنده حسن .

٢٢٤ - النسائي (٧ / ١٤٦) كتاب البيعة ، باب - في ذكر الاختلاف في انقطاع الهجرة وسنده حسن .

٢٢٥ - النسائي (٧ / ١٤٤) كتاب البيعة ، باب - في هجرة البادي وسنده حسن .

٢٢٦ - النسائي (٧ / ١٤٦) كتاب البيعة ، باب - في ذكر الاختلاف في انقطاع الهجرة وسنده حسن .

٢٢٧ - أبو داود (٣ / ٣) كتاب الجهاد ، باب - ما جاء في الهجرة وسكنى البدو . وسنده صالح .

٢٢٨ - * وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله السعدي : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لاتنقطع الهجرة مادام العدو يُقاتل » ، فقال معاوية ، وعبد الرحمن ابن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص : إن النبي ﷺ قال : « إن الهجرة خصلتان : إحداهما أن تهجر السيئات ، والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله . ولاتنقطع الهجرة ما تقبلت التوبة ، ولاتزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه ، وكفى الناس العمل » .

تعليق :

إن من تأمل حادثة الهجرة ورأى دقة التخطيط فيها ودقة الأخذ بالأسباب من ابتدائها إلى انتهائها ومن مقدماتها إلى ما جرى بعدها يدرك أن التخطيط المسدد بالوحي في حياة رسول الله ﷺ كان قائماً وأن التخطيط جزء من السنة النبوية وهو جزء من التكليف الإلهي في كل ما طولب به المسلم وأن الذين يميلون إلى العفوية بحجة أن التخطيط وإحكام الأمور ليسا من السنة أمثال هؤلاء مخطئون ويجنون على أنفسهم وعلى المسلمين .

فوائد من كتاب الهجرة للدكتور محمد أبو فارس

- إن الهجرة أهم حدث في تاريخ الدعوة الإسلامية ، إذ بالهجرة تكوّن الكيان السياسي للأمة الإسلامية لنشر الإسلام والدفاع عن حرّماته .

- ولأهميتها كان التأريخ بالهجرة ولم يكن بغيرها من الأحداث الهامة كالميلاد والبعثة أو وقعة بدر أو ما شابه .

- ولم يؤرخ المسلمون بتاريخ غيرهم حفاظاً على استقلالية الأمة وتميزها .

- تعلمنا الهجرة كيف أن على الدعاة أن يبحثوا دائماً عن أماكن خصبة للدعوة تكون مركز انطلاق ونواة تأسيس .

ومن دروس الهجرة أيضاً :

- أن في الهجرة رد على من يقول أن الأحداث مبعثها حاجات الإنسان المادية والدوافع الجنسية والبطنية . فهذه الهجرة فر أصحابها بدينهم وتركوا أموالهم وديارهم دون ربح مادي .

- بروز عنصر التخطيط في هذه الهجرة وأهمية ذلك في حياة المسلمين ، فكان الهدف محدداً والوسائل محددة والعقبات مأخوذة بالحسبان واختيار الطريق والمكان والتوقيت ومن يحمل الأخبار والدليل ؛ كل ذلك مؤمّن ، مع إحاطة ذلك بالسرية والحيلة والحذر وكل ذلك ينبئ عن تخطيط وتنظيم وترتيب لا مثيل له .

- ينبغي على المسلم ألا يغفل أبداً عن جانب الدعاء إلى الله والتوجه إليه وطلب العون والنصرة منه - مع الأخذ بالأسباب - إذ إن الأول هو الأهم في حياة المسلم وكان هذا واضحاً في هجرة الرسول ﷺ بل وفي كل حركته وسكناته .

- من معاملة أبي بكر لرسول الله ﷺ يتجلى الحب الصادق والتضحية بالنفس ، وتجلى هذا في الغار وعند الخروج منه ، وفي الطريق حينما كان يمشي تارة خلفه وتارة أمامه وتارة عن يمينه ...

- نجد رسول الله ﷺ في طريقه يدعو من يراه إلى الإسلام ، وكان من ذلك أن أسلم بريدة بن الحصيب الأسلمي في ركب من قوم ، مما يدل على أن الداعية يجب أن لا يفتقر عن الدعوة إلى الله بل يغتنم كل فرصة تلوح له ولا يزهد بشيء من ذلك^(١)

* * *

(١) انظر كتاب : في طلال السيرة النبوية - الهجرة النبوية للدكتور محمد عبد القادر أبو فارس .

تأملات في العهد المكي وتصويبات

أخذنا فيما مضى تصوراً إجمالياً عن المرحلة المكية ، والتفصيل الكامل يحتاج إلى جهود كثيرة لا يطيقها فرد ، واستكمال صورة العهد المكي يقتضي عرضاً للقرآن المكي ونقصد به القرآن الذي نزل قبل استقرار رسول الله ﷺ في المدينة وهذا القسم من القرآن يكاد يكون نصف القرآن ، والصحابة الذين عاصروا تنزل القرآن كان عندهم علم بإمكانة النزول وتسلسل النزول وأسباب النزول .

ولو أن هذا العلم وصلنا كاملاً لأمكن من خلاله أن نعرف المسيرة العلمية والتربوية لرسول الله ﷺ وأصحابه ، ولأمكننا أن نعرف كيف كان التدرج في بناء النفس والأمة بشكل تفصيلي ، وزيادة على ذلك فإنه كان بالإمكان أن نعرف تفاصيل دقيقة عن سيرة رسول الله ﷺ ، ولكن هذا العلم لم ينقل لنا بشكل تفصيلي كامل ، وإذا قل ففي حدود ضيقة ، وذلك لأن الجيل الأول والأجيال اللاحقة لم يقدرُوا أن لذلك أهمية كبيرة ما دام ترتيب القرآن توقيفاً والله عز وجل هو الذي تولى ترتيبه ، وقد رأينا في كتابنا (الأساس في التفسير) الحكمة بل المعجزة في هذا الترتيب .

ونتيجة لعدم وصول دقائق تاريخ النزول ؛ فإن العلماء اجتهدوا في تحديد ترتيب نزول السور القرآنية ، فكان عملهم اجتهداً من ناحية وإجمالاً من ناحية أخرى ، ولذلك فإذا ما تكلف متكلف أن يقدم عرضاً لأحداث السيرة من القرآن فالإجمال والاجتهاد هما عمله ، نسجل هذا كأول ملاحظة على استحالة الفصل بين المرحلة المكية والمدينة من الناحية التشريعية البحتة ، ومن هنا ننطلق لنقول :

إن الذين يعتبرون المرحلة المكية إمامهم في العمل الإسلامي بمعنى أنهم مطالبون بها وحدها ومكلفون بالافتداء برسول الله ﷺ في حدودها فقط ، هؤلاء جاهلون بالإسلام .

فالتشريع الإسلامي اكتمل والأمة الإسلامية مطالبة به كله ، فهي مطالبة بالكتاب كله وبالسنة كلها ، وبما استقر عليه التشريع في المرحلتين المكية والمدينة .

إن الحج والصوم والحدود والقصاص والجهاد وغير ذلك ، كل ذلك لم يكن مفروضاً في المرحلة المكية فمن اعتبر نفسه مكلفاً بالمرحلة المكية وحدها في بعض الشؤون عليه أن يفتن لما يترتب على تفكيره من إلزامات توصله للكفر فإذا وضع هذا وهذا نقول :

إننا مطالبون أن تقتدي برسول الله ﷺ في كل ما لم ينسخ وما لا يعتبر خاصاً به ، وعلى هذا الأساس فكل ما لم ينسخ من المرحلة المكية أو ما لا يعتبر خاصاً به عليه الصلاة والسلام فهو محل الطلب منا ، وهو محل التكليف فإذا ما اتضح هذا نقول :

لقد ركز القرآن المكي على معان بعينها وجاء القرآن المدني فأكمل وتمم ، وقد يكون من المناسب أن نلاحظ في التربية الأولى للإنسان هذه المعاني مع ملاحظة أن ذلك تحصيل حاصل لمن يأخذ الكتاب والسنة جملة وتفصيلاً ، لقد ركز القرآن المكي على اليقين ونفي الريب وجاءت في ذلك سور كثيرة ، كما ركز على الإيمان بالغيب والصلاة والإنفاق وعتق الرقاب والإحسان إلى الناس عامة والضعفاء والأيتام خاصة وجاءت في ذلك سور ، وركز على أخلاق بعينها وعلى أعمال صالحة من مثل ما يدخل في تزكية النفوس ، ومن مثل التواصي بالحق والصبر والتواضع وعدم الاختيال وعدم رد السيئة بمثلاً وقيام الليل وعدم الإسراف ، وإنصات القلب لآيات الله والحرص على صلاح الذرية وترك الزنا والسرقه والإقبال على الله بصلة الوالدين والأرحام ، وركز على عبادة الله وحده والإخلاص فيها وعدم مشاركة الكافرين في عبادتهم .

وركز على إقامة الحجّة على الكافرين وتبيين الكفر وأخلاقه وأسبابه وشبهه وأقوال أهله .

وركز على التذكير بالنعم لاستخراج الشكر .

وركز على أن القدوة الحسنة في الحياة البشرية هم الرسل .

وركز على تبيان أن الخلقين الرئيسيين الواجب الاجتناب هما : الحسد والكبر ، وهما خلقا الشيطان .

وركز على اتباع الوحي وترك اتباع الشيطان وأئمة الضلال .

هذه المعاني وغيرها تعرض لها القرآن المكي وركز عليها ، ولكنها ليست خاصة به بل هي سمة القرآن كله .

ومن ههنا لا نجد مسوغاً للتمييز بين التكليف المكي والتكليف المدني ، فنحن الآن مكلفون بالإسلام كله ومن جلته المرحلة المكية .

في العهد المكي وجدت مرحلة سرية ، وللمسلمين إذا وجدت ظروف أن يلجأوا إلى الدعوة السرية ، ولكن هل نحن مقيدون أن تكون هذه المرحلة السرية في حدود تلك المرحلة ؟ ثم إذا خرجنا منها ألا نعود إليها ، إن الذين يريدون أن يفهموا المرحلة المكية كذلك لا يدركون حقائق هذا الإسلام ، فالتقوى تقدر زماناً ومكاناً وشخصاً ، ونادراً ما تتكرر الظروف التي مرت في مرحلة بحيث تكون طبق الأصل ، والشريعة الإسلامية جاءت لتلي كل ظرف وكل وضع ولتعطيه الحكم المناسب المستخرج من الكتاب والسنة .

* * *

فإذا ما اتضح هذا الذي قدمناه وانتفى المحذور فإننا ننصح دارس القرآن الراغب في فهم المرحلة المكية أن يتأمل السور التي توصف بأنها مكية فإن ذلك يفتح عليه آفاقاً في الفهم والسلوك والدعوة ، كما يعطيه كالأ في فهم المرحلة من الناحية التاريخية والنفسية والعملية والتكليفية .

فن خلال ذلك يدرك كيف تدرج التكليف ، ويدرك الأوليات والأساسيات في هذا التكليف ، ويدرك كيف تكامل البناء على الزمن ، ويدرك لماذا استطاع هؤلاء العدد القليل أن يصهروا بعد ذلك أضعاف أضعافهم ثم استطاعوا هم ومن صهروهم أن يصهروا الشعوب والأمم ، كما يستطيع أن يدرك من الناس مؤهلون ومرشحون لبناء الدول والمحافظة عليها والتوسع من خلالها ، إن هذا كله يتأق لنا من خلال دراسة متأنية للقرآن المكي ، وهذا شيء وأن تعتبر المرحلة المكية وحدها هي مناط التكليف شيء آخر ، فنحن نحذر من هذا وندعو إلى ذاك .

* * *

الباب الثالث

مِنَ

الاستقرار في المدينة حكة الوفاة

هذه المرحلة في سطور

أرخ المسلمون بالهجرة ؛ لأهميتها كعلم بارز في تاريخ الدعوة النبوية ، لِمَا للهجرة من آثار على انتصار الدعوة وظهورها ، ولأنه بالهجرة ولدت دولة الإسلام .

ولم يبدأوا التأريخ من يوم وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة ، بل منذ بدأ الأصحاب يتوافدون على المدينة ، ولذلك تبدأ السنة الهجرية بالحرم مع أن الرسول ﷺ وصل إلى المدينة بعد ذلك .

ولأهمية الهجرة فقد اعتاد المسلمون أن يحيوا هذه الذكرى ، وأن يجددوا لها فرحاً . وقد انتكس من أرخ بالوفاة لخالفته للإجماع ، وكأنه أراد أن يقطع على المسلمين طريق الفرح بالذكرى ، فأرخ بالوفاة ليقطع الدوافع التي تحييها ذكرى الهجرة ليستبدلها بالحزن .

وقد قضى الرسول ﷺ في المدينة المنورة عشر سنين كانت مليئة بالأحداث ، ثرة بجلال الأعمال وعظيما ، فتحت الطريق أمام المسلمين للسيطرة على مقاليد هذا العالم إن أحسنوا العمل والتأسي ، ونحن سنعرض هذه المرحلة حسب السنين مبتدئين بأحداث السنة الأولى ثم الثانية وهكذا إلى السنة الحادية عشرة .

* * *

من ملامح هذه المرحلة

- ١ - أنها مرحلة حركة مستمرة دعوية وتربوية واجتماعية واقتصادياً وقانونياً ودستورياً وسياسياً وعسكرياً ، يتلاحم فيها العمل الدعوي والتربوي مع العمل السياسي والعسكري .
- ٢ - أنها مرحلة عمل وجهاد متواصلين لتحقيق الأهداف ، ومنها أخذ الأستاذ البنا فكرته عن التنفيذ .

- ٣ - كما أنها مرحلة تجريد شامل للنفس فلا تبقى نزعة للنفس إلا وهذبت ، ولا مظهر ارتقاء إلا وشد نحو المثل الأعلى ، فوجد بذلك وغيره جيل ليس له مثيل « خير القرون قرني » .

٤ - وهي مرحلة إحكام للبناء الداخلي للمجتمع والأمة والدولة ؛ يظهر ذلك في الإخاء والمؤاخاة بين المسلمين وفي التحالفات مع المواطنين من غير المسلمين ، وفي الصيغ الدستورية والعملية لضبط العلاقات السياسية والاجتماعية .

٥ - وهي مرحلة توسع فيها الصراع الفكري فشمّل دوائر جديدة : أهل الكتاب ، المنافقين ، المجوس .

٦ - وهذه المرحلة قام البناء السياسي للإسلام وللمسلمين ، ووجد اللواء الأوّل للسلطان السياسي للأمة الإسلامية في رحلتها الخاتمة .

٧ - ومن ملامح الحركة السياسية في هذه المرحلة أنها كانت بحثاً عن الأحلاف وفصلاً بين الأطراف ، ولذلك لم يستطع الأعداء أن يلتقوا على حرب الإسلام في وقت واحد إلا مرة واحدة يوم الأحزاب ، ومع ذلك فقد قصم الرسول ﷺ هذا التحالف .

٨ - ومن ملامح الحركة العسكرية أنها كانت مطّردة مستمرة ، ويكفي أن نعرف أنّ بعضهم أوصل مجموع سراياه وبعوثه وغزواته العسكرية إلى المئة خلال عشر سنين لنذكر مدى الحركة والفاعلية التي حفلت بها هذه المرحلة .

* * *

السَّنة الأولى للهجرة

أحداث السنة الأولى في سطور

١ - في يوم الإثنين ٨ ربيع الأول - على القول الراجح - سنة ١٤ من النبوة الموافق لسنة ٦٢٢ م ، وصل الرسول ﷺ إلى قباء ، وأقام بها أربعة أيام (الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس) - على القول الراجح - وأسس فيها مسجد قباء ، وصلى فيه ، وهو أول مسجد أسس ، وفي يوم الجمعة انطلق إلى المدينة ، فأدركته الجمعة في منازل بني سالم بن عوف ، فأقام أول صلاة جمعة في الإسلام وخطب فيها ، ودخل المدينة بعد صلاة الجمعة تاركاً لناقته العنان ، وكان مسجده ومنزله حيث بركت ناقتة ، ونزل ريثاً أسس مسجده وبني بيوته في دار أبي أيوب الأنصاري .

٢ - قام الرسول ﷺ في المدينة بخطوات ثلاث :

أ - بناء المسجد النبوي ، فأوجد بذلك مركزاً للعبادة ، ومقراً للتجمع ، ومنطلقاً للحركة .

ب - آخى بين المهاجرين والأنصار ، فحلّ مشكلة الهجرة عن أقرب طريق ، وصهر بين المقيمين والوافدين أقوى صهر وأجوده .

ج - كتب وثيقة دستورية متفقاً عليها بين سكّان المدينة جميعاً - مسلمين ومشرّكين ويهود - ، وهكذا رتّب أمور البيت الداخليّة مباشرة .

٣ - بدأت تهديدات قريش تتوالى ، ونزل الإذن بالقتال ، وأخذ الرسول ﷺ يرسل سراياه للاستطلاع ، ولإيجاد التعبئة النفسيّة ، ولعقد تحالفات مع القبائل القاطنة حول المدينة أو في الطرق التجاريّة لقريش .

٤ - أرسل في السنة الأولى للهجرة ثلاث سرايا ، لخص الحديث عنها صاحب الرحيق المختوم بما يلي :

(١) سرية سيف البحر (أي : ساحل البحر) في رمضان سنة (١) هـ الموافق سنة

٦٢٣ م :

أمر رسول الله ﷺ على هذه السرية حمزة بن عبد المطلب ، وبعشه في ثلاثين رجلاً من المهاجرين يعترض عيراً لقريش جاءت من الشام ، وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاثمائة رجل ، فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص ^(١) ، فالتقوا واصطفوا للقتال ، فشئ مجدي بن عمرو الجهني - وكان حليفاً للفريقين جميعاً - بين هؤلاء وهؤلاء حتى حجز بينهم فلم يقتتلوا .

وكان لواء حمزة أول لواء عقده رسول الله ﷺ ، وكان أبيض وكان حامله أبا مرثد كَنَازَ ابنِ حَصِينِ القَنَوِي .

(٢) سرية رابغ ، في شوال سنة (١) من الهجرة - أبريل (نَيْسَان) سنة ٦٢٣ م :

بعث رسول الله ﷺ عبيدة بن الحارث بن المطلب في ستين راكباً من المهاجرين ، فلقى أبا سفيان - وهو في مائتين - على بطن رابغ ، وقد ترامى الفريقان بالنبل ، ولم يقع قتال .

وفي هذه السرية انضم رجلان من جيش مكة إلى المسلمين ، وهما المقداد بن عمرو البهراقي ، وعتبة بن غزوان المازني ، وكانا مسلمين ، خرجا مع الكفار ليكون ذلك وسيلة للوصول إلى المسلمين . وكان لواء عبيدة أبيض ، وحامله مسطح بن أثانة بن المطلب بن عبد مناف .

(٣) سرية الخرار (موضع بالقرب من الجَحْفَة) في ذي القعدة سنة (١) هـ الموافق مايو (آيار) سنة ٦٢٣ م :

بعث رسول الله ﷺ سعد بن أبي وقاص في عشرين راكباً يعترضون عيراً لقريش ، وعهد إليه أن لا يجاوز الخرار ، فخرجوا مشاة يكتنون بالنهار ويسرون بالليل حتى بلغوا الخرار صبيحة خمس ، فوجدوا العير قد مرت بالأمس .

كان لواء سعد رضي الله عنه أبيض ، وحمله المقداد بن عمرو .

(١) العيص : مكان بين ينبع والروثة من ناحية البحر الأحمر .

٣٧١

٥ - عاقد في هذه السنة جهينة على ألا يعتدوا ولا يعينوا ، وكانت مساكنهم على ثلاثة مراحل من المدينة المنورة .

٦ - بنى في هذه السنة بالسيدة عائشة رضي الله عنها ، وكان قد عقد عليها بمكة قبل الهجرة ، وشرع في هذه السنة الأذان .

وسنقصد عدداً من الفصول مما يحسن ذكره في مثل هذا الكتاب من أحداث السنة الأولى .

* * *

فصل : المدينة عند الهجرة

رسم الأستاذ الندوي في كتابه (السيرة النبوية) صورة للمدينة عند الهجرة فقال :

ولكي نأخذ صورة إجمالية صحيحة عن مدينة يثرب - التي اختارها الله دار هجرة للرسول ، ومنطلق الدعوة الإسلامية في العالم ، ومهد أول مجتمع إسلامي يقوم بعد ظهور الإسلام - يجب أن نعرف وضعها المدني ، والاجتماعي ، والاقتصادي ، وصلة القبائل المقيمة فيها ، بعضها ببعض ، ومركز اليهود فيها ، الاجتماعي ، والاقتصادي ، والحربي ، والواقع الذي كانت تعيشه هذه المدينة الخصب الغنية ، التي التقت فيها ديانات ، وثقافات ، ومجتمعات مختلفة ، بخلاف مكة ذات الطبيعة الواحدة ، والطابع الموحد ، والدين المشترك ، وإلى القارئ بعض أضواء :

اليهود :

المرجح في ضوء التاريخ أن غالبية اليهود حلوا بالجزيرة العربية بصفة عامة ، ومدينة يثرب بصفة خاصة ، في القرن الأول الميلادي ، يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون :

بعد حرب اليهود والرومان سنة ٧٠ م التي انتهت بخراب بلاد فلسطين ، وتدمير هيكل بيت المقدس ، وتششت اليهود في أصقاع العالم ، قصدت جموع كثيرة من اليهود بلاد العرب كما حدثنا عن ذلك المؤرخ اليهودي (يوسي فوس) الذي شهد تلك الحروب ، وكان قائداً لبعض وحداتها ... وتؤيد المصادر العربية كل هذا .

وكانت في المدينة ثلاث قبائل من اليهود ، بلغ عدد رجالها البالغين أكثر من ألفين ، وهي : قَيْنَقَاع ، والنَضِير ، وقَرَيْظَة ، ويقدر أن رجال قَيْنَقَاع الحاربيين ، بلغ عددهم سبعمائة ، كما كان عدد رجال النضير مثل هذا العدد ، وكان الرجال البالغون من قريظة ما بين سبعمائة وتسعمائة .

وكانت العلاقة بين هذه القبائل الثلاث مضطربة متوترة ، وقد يكون بعضهم حربياً على بعض ، يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون :

قد كانت هناك عداوة بين بني قينقاع وبقية اليهود ، سببها أن بني قينقاع كانوا قد اشتركوا مع بني الخزرج في يوم (بعث) وقد أثنى بنو النضير وبنو قريظة في بني قينقاع ، ومزقهم كل ممزق ، مع أنهم - أي بني النضير وبنو قريظة - دفعوا الفدية عن كل من وقع في أيديهم من اليهود - من بني قينقاع - ، وقد استمرت هذه العداوة بين البطون اليهودية بعد يوم (بعث) ، حتى وقعت الحرب بين المسلمين وبين بني قينقاع فلم ينهض معهم أحد من اليهود في عارية المسلمين .

وقد أشار القرآن إلى عداوة اليهود فيما بينهم بقوله :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تُشْهِدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ قَرِيبًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَىٰ فَفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ (١) .

وكانوا يعيشون في أحياء وقرى مختلفة خاصة بهم ، فكانت بنو قينقاع يسكنون داخل المدينة في حلة خاصة بهم ، بعد أن طردهم إخوانهم بنو النضير وقريظة من مساكنهم التي كانت خارج المدينة ، وكانت مساكن بني النضير بالعالية - جنوب شرق المدينة - بوادي (بطحان) على بعد ميلين أو ثلاثة من المدينة ، وكانت عامرة بالنخيل ، والزروع ، وكانت بنو قريظة يسكنون في منطقة مهزور التي تقع على بعد بضعة أميال من جنوب المدينة .

وكانت لهم حصون ، وأطام ، وقرى ، يعيشون فيها متكئين مستقلين ، لم يتمكنوا من إنشاء حكومات يحكمها اليهود ، بل كانوا مستقلين في حماية سادات القبائل ورؤسائها ، يؤدون لهم إتاوة في كل عام ، مقابل حمايتهم لهم ، ودفاعهم عنهم ، ومنع الأعراب من التعدي عليهم ، وقد لجأوا إلى عقد المحالفات معهم ، وكان لكل زعيم يهودي حليء من الأعراب ومن رؤساء العرب .

وكانوا ينعتون أنفسهم بأنهم أهل العلم بالأديان والشرائع ، وكانت لهم مدارس يتدارسون

فيها أمور دينهم ، وأحكام شريعتهم ، وأيامهم للماضية ، وأخبارهم الخاصة برسلمهم وأنبيائهم ، كما كانت أماكن خاصة يقيمون فيها عباداتهم وشعائر دينهم ، وكانت تسمى (المدراس) وكان المكان الذي يتجمع فيه اليهود لتبادل المشورة في سائر أحوالهم الدينية والدنيوية .

وكانت لهم تشريعاتهم ونظمهم الخاصة بهم ، أخذوا بعضها عن كتبهم ، وبعضها وضعه لهم كهانهم وأخبارهم من عند أنفسهم ، وكانت لهم أعيادهم الخاصة بهم ، وأيام خاصة ، يصومون فيها ، كيوم عاشوراء .

وكانت معظم معاملاتهم مع غيرهم تقوم على الرهون وتعاطي الربا ، وكانت لهم من طبيعة منطقة المدينة الزراعية فرصة إلى ذلك ، لأن الزراع عادة يحتاجون إلى اقتراض الأموال حين الحصاد .

وكانت المراهنة لا تقتصر على الرهائن المالية ، بل تخطتها إلى مراهنة النساء والولدان وقد جاء في قصة قتل كعب بن الأشرف النضري التي رواها الإمام البخاري - رحمه الله - في صحيحه ، أنه قال له محمد بن مسلمة : قد أردنا أن تُسَلِّفنا وَسُقَا أو وَسُقَيْن ، فقال : نعم ، أرهنوني . قالوا : أي شيء تريد ؟ قال : أرهنوني نساءكم ، قالوا : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجل العرب ، قال : فأرهنوني أبناءكم ، قالوا : كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رَهْنٌ بَوْسُقٍ أو وسقين ، هذا عار علينا ، ولكننا نرهنك اللأمة ^(١) .

ومن طبيعة هذه المراهنات خصوصاً إذا كانت في الأبناء والنساء نشوء الحقد والكراهة بين الراهنين والمرتهنين ، لاسيما لأن العرب اشتهروا بالغيرة الشديدة على نسائهم وشدة الأنفة .

وقد ترتب على سيطرة اليهود على الجوانب الاقتصادية في المدينة وضواحيها أن قوي نفوذهم المالي ، وصاروا يتحكمون في الأسواق تحكماً فاحشاً ، ويحتكرونها لمصلحتهم

(١) اللأمة : الدرع .

ومنفعتهم ، فكرهم السواد الأعظم من الناس بسبب أنانيتهم واشتطاطهم في أخذ الربا ، وحصولهم على غنى وثراء بطرق يأنف العربي عن سلوكها والتعامل بها ، ولما طبعوا عليه من الجشع ، ولسياستهم التوسعية .

يقول (De-Lacy , O'Leary) في كتابه (العرب قبل محمد) :

ساءت العلاقات بين أولئك البدو (المدنيين) واليهود المستعمرين في القرن السابع الميلادي ، فإنهم كانوا قد وسعوا مناطقهم المزروعة إلى مراعي هؤلاء البدو .

وكانت علاقة اليهود بالأوس والخزرج - سكان المدينة العرب - خاضعة للمنفعة الشخصية والمكاسب المادية ، فهم يعملون على إثارة الحرب بين الفريقين ، متى وجدوا في إثارتها فائدة لهم ، كما حصل ذلك في كثير من الحروب التي أنهكت الأوس والخزرج ، وكان يهمهم فقط أن تكون لهم السيطرة المالية على المدينة ، وحديثهم عن النبي المرتقب شجع الأوس والخزرج على الدخول في الإسلام .

أما لغة اليهود في بلاد العرب ، فقد كانت العربية بطبيعة الحال ، ولكنها لم تكن خالصة ، بل كانت تشوبها الرطانة العبرية ، لأنهم لم يتركوا استعمال اللغة العبرية تركاً تاماً ، بل كانوا يستعملونها في صلواتهم ودراساتهم . أ هـ .

أما الجانب الديني والدعوي فيقول الدكتور إسرائيل ولفسون :

لاشك أنه كان في المقدرة اليهودية أن تزيد في بسط نفوذها الديني بين العرب ، حتى تبلغ منزلة أرقى مما كانت عليه لو توافرت عند اليهود النية على نشر الدعوة الدينية بطريقة مباشرة ، ولكن الذي يعلم تاريخ اليهود يشهد بأن الأمة الإسرائيلية لم تَعِل بوجه عام إلى دعوة الأمم على اعتناق دينها ، وأن نشر الدعوة الدينية من بعض الوجوه محظور على اليهود . أ هـ .

ولكن مما لا شك فيه أن عدداً من العرب المنتن إلى الأوس والخزرج وغيرها من القبائل العربية الأصيلة ، دانوا باليهودية عن رغبة منهم ، أو بتأثير المصاهرة والزواج ، أو

بحكم النشأة في البيئة اليهودية ، وقد كان في يهود العرب جميع هذه الأنواع ، وقد ثبت أن التاجر اليهودي الكبير والشاعر المشهور كعب بن الأشرف الذي يعرف بالنضري كان من قبيلة (طَيِّئ) تزوج أبوه في بني النضير ، فنشأ كعب بن الأشرف يهودياً متحمساً .

قال ابن هشام : وكان رجلاً من طَيِّئ ، ثم أحد بني نُبْهان ، وكانت أمه من بني النضير ، وكان بعض من لا يعيش له ولد من العرب ينذر ، إذا ولد له ابن وعاش هَوْدُوهُ ، فكان في المدينة عدد من العرب الذين دخلوا في اليهودية عن هذا الطريق .

روى الإمام أبو داود السجستاني^(١) بسنده عن ابن عباس قال : كانت المرأة تكون مِثْلًا فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوِّد ، فلما أُجْلِيَتْ بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا : لاندع أبناءنا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾^(٢) .

* * *

الأوس والخزرج :

تنتمي بطون الأوس والخزرج - سكان المدينة العرب - إلى القبائل الأزدية اليمنية ، وكانت موجات هذه الهجرة من اليمن إلى يثرب متفرقة في أوقات مختلفة ، وكانت لعوامل متعددة ؛ منها اضطراب أحوال اليمن وغزو الأحباش ، وإهمال أمر الإرواء بخراب سد (مأرب) ، وعلى هذا فالأوس والخزرج أحدث عهداً في المدينة من اليهود .

وقد سكنت بطون الأوس في المنطقة الجنوبية والشرقية ، وهي منطقة العوالي من يثرب ، بينما سكنت بطون الخزرج المنطقة الوسطى الشمالية ، وهي سافلة المدينة ، وليس وراءهم شيء في الغرب إلى خلاء حرة الوبرة .

(١) أبو داود (٥٩ / ٣) كتاب الجهاد - باب في الأسير يكره على الإسلام .

(٢) مِثْلًا (المقلدة) ، هي التي لا يعيش لها ولد .

(٢) البقرة : ٢٥٦ .

وكان من جملة بطون الخزرج أربعة أبطن ، وهم : مالك ، وعدي ، ومازن ، ودينار ، كلها من بني النجار المعروف بـ (تم اللات) ، وقد سكنت بطون بني النجار في المنطقة الوسطى التي حول مسجد النبي ﷺ .

وقد سكن الأوس المناطق الزراعية الغنية في المدينة ، وجاوروا أهم قبائل اليهود وجموعهم ، واستوطن الخزرج مناطق أقل خصباً ، وقد جاورهم قبيلة يهودية كبيرة واحدة ، وهي القينقاع .

ليس من السهل الحصول الآن على إحصاء دقيق عن عدد رجال الأوس والخزرج ، ولكن الباحث المتتبع للحوادث يستطيع تحديد قوتهم الحربية من المارك التي خاضوها بعد الهجرة ، فقد بلغ عدد محاربيهم في يوم فتح مكة أربعة آلاف مقاتل .

وكان العرب في وقت الهجرة النبوية أصحاب الكلمة العليا في يثرب ، ويبدم كان توجيه الأمور بها ، ولم يستطع اليهود مقابل ذلك أن يجمعوا كلمتهم ، ويقفوا صفاً واحداً في وجه خصومهم ، فتفرقت بطونهم ، ودخل بعضها في محالفات مع الأوس ، ودخل بعضها في محالفات مع الخزرج ، وكانوا في القتال أقسى على بني جنسهم من العرب ، واستحكم عداً بين بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة ، جعل بني قينقاع يتركون أرضهم وزرعهم ، ويقتصرون على الصياغة .

ووقعت كذلك بين الأوس والخزرج حروب كثيرة ، أولها حرب (سمير) وآخرها حرب (بَكاث) قبل الهجرة بخمس سنوات ، وقد عمل اليهود على الدس بين الأوس والخزرج ، وتشجيع عوامل الفرقة ، وإذكاء روح التحاسد ، حتى يشغلهم بأنفسهم عنهم ، وقد أدرك العرب منهم ذلك فلقبهم بـ (الثعالب) .

* * *

الوضع الطبيعي :

كانت يثرب عند الهجرة النبوية منقسمة إلى عدة دوائر تسكنها بطون عربية ويهودية ، وكل دائرة تابعة لبطن من البطون ، وكانت الدائرة تنقسم إلى قسمين : يشتل القسم الأول على الأراضي الزراعية بمنازلها وسكانها ، ويشتل القسم الثاني على الأطم أو الآطام . وقد بلغ عدد آطام اليهود في يثرب تسعة وخسين أطمًا ، ويقول الدكتور ولفنسون في وصف هذه الآطام :

كانت أهمية الآطام عظيمة في يثرب ، فكان يفرع إليها أفراد البطن عند هجوم العدو ، ويأوي إليها النساء والأطفال والعجزة حين يذهب الرجال لمقاتلة الأعداء ، وقد كانت الآطام تستعمل كالمخازن تجمع فيها الغلال والثمار ، ذلك أنها كانت معرضة في أماكنها المكشوفة للنهب والسلب ، وكان الأطم مربعاً لكنز الأموال والسلاح ، وكان للقوافل المثقلة بالبضائع أن تنزل بالقرب منه ، كما كانت تقام على أبوابه الأسواق .

وكانت الآطام تشتل - كما يظن - على المعابد وبيوت المدراس ، إذ كانت فاخرة الأثاث ، كثيرة الأدوات ، مملوءة بالأسفار ، فكان يجتمع فيها الزعماء للبحث والمشاورة حيث يقسمون بالكتب المقدسة ، حين يهيمون بإبرام العقود والاتفاقات .

ويقول الدكتور في تفسير كلمة (أطم) : أنها مأخوذة من اللغة العبرية ، فيقال : أطم عينيه : أغضها ، وأطم أذنيه : سدّها ، والأطم في الجدران والحيطان : هي النوافذ المغلقة من الخارج ، والمفتوحة من الداخل ، ويستعمل في السور أي الحائط الضخم ، يقول الدكتور :

وعلى ذلك يمكننا أن نفترض أن اليهود أطلقوا على الحصن اسم أطم ، لأنه كان في إمكانهم أن يغلقوا أبوابه ، وإن كانت له نوافذ من الخارج وتفتح من الداخل .

ومن هذه الأحياء والدوائر المحصنة كانت تتكون مدينة يثرب ، فهي في الحقيقة مجموعة من القرى تقاربت وتجمعت ، فتكونت منها المدينة ، وإلى ذلك أشار القرآن بقوله :

﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ ^(١) ، ويقول :

﴿ لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر ﴾ ^(٢) .

وَحَرَّة واقم التي تحد المدينة من الشرق ، كانت أكثر عمراناً من الوبرة ، وحين هاجر النبي ﷺ إلى يثرب ، كانت حرة واقم مسكونة بأهل قبائل اليهود من بني النضير وقريظة ، وعدد من عشائر اليهود الأخرى ، كما كانت تسكنها أم البطون الأوسية : بنو عبد الأشهل وبنو ظفر وبنو حارثة ، وبنو معاوية ، وفي منازل بني عبد الأشهل كان يقوم حصنهم واقم ، الذي سميت الحرة باسمه .

* * *

الحالة الدينية والمكانة الاجتماعية :

كان العرب تابعين لقريش وأهل مكة في العقيدة والديانة ، ينظرون إلى قريش كسدنة للبيت ، وقادة في الدين ، وقدوة في الاعتقاد والعبادة ، خاضعين للوثنية السائدة على جزيرة العرب ، يعبدون من الأصنام ما تعبد قريش وأهل الحجاز ، إلا أن علاقتهم ببعض الأصنام كانت أقوى من علاقتهم ببعضها ، فكانت مناة لأهل المدينة ، وكانت أقدم الأصنام ، وكان الأوس والخزرج أشد إعظاماً لها من غيرهم ، وكانوا يهلون لها شركاً بالله تعالى ، وكانت حذو (قَدِيد) الجبل الذي بين مكة والمدينة من ناحية الساحل ، كما كانت اللات لأهل الطائف ، والعزى لأهل مكة ، وكان أهل هذه المدن أكثر تعصباً وحمية لها من غيرها ، وكان من اتخذ في داره صنماً من أهل المدينة من خشب أو غيره يسميه « مناة » أيضاً ، كما فعل ذلك عمرو بن الجموح سيد من سادات بني سلمة قبل أن يسلم .

وقد جاء في حديث رواه الإمام أحمد عن عروة عن عائشة في تفسير قوله تعالى ﴿ وإن

(١) الحشر : ٧ .

(٢) الحشر : ١٤ .

الصفاء والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ^(١) .

قالت : إن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية ، التي كانوا يعبدونها عند المشلل ، وكان من أهلها يتحرج أن يطوف بالصفاء والمروة ، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفاء والمروة في الجاهلية ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ إن الصفاء والمروة من شعائر الله ﴾ الآية . ولم نطلع على صنم لهم خاص في المدينة اشتهر كاللات ومناة ، والعزى ، أو كهبل ، يعكفون على عبادته ، ويشد إليه الرحال من خارج المدينة ، ويبدو أن الأصنام لم تنتشر في المدينة انتشارها في مكة ، فقد كان لكل بيت في مكة صنم خاص ، وكانت الأصنام يطاف بها وتباع ، فكانوا في الوثنية عيالاً على أهل مكة وأتباعاً لهم .

وكان لأهل المدينة يومان يلعبون فيهما ، فلما قدم النبي ﷺ المدينة قال لهم : « قد أبدلكم الله تعالى بهما خيراً منها يوم الفطر والأضحى » ، وقد ذكر بعض شراح الحديث أنها النيروز والمهرجان ، وكأنهم أخذوها من الفرس .

وكانت قريش تعترف بشرف الأوس والخزرج ، وهم بنو قحطان العرب العاربة ، وكانوا يصاهرونهم ، ويتزوجون فيهم ، وقد تزوج هاشم بن عبد مناف وهو سيد قريش في بني النجار ، تزوج سلمى بنت عمرو بن زيد من بني عدي بن النجار وهم من الخزرج ، إلا أنهم كانوا يرون لأنفسهم فضلاً عليهم ، وقد قال عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة - الذين دعوا إلى المبارزة يوم بدر ، فخرج إليهم فتية من الأنصار - فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار ، قالوا : مالنا بكم من حاجة ، ثم نادى منادهم ، يا محمد ! أخرج إلينا أكفأنا من قومنا ، فقال رسول الله ﷺ : « قم يا عبدة بن الحارث ، وقم يا حمزة ، وقم يا علي » فلما قاموا ودنوا منهم ، وسموا أنفسهم ، قالوا : نعم أكفأ كرام ، وكانوا ينظرون إلى الفلاحة التي كان يمارسها أهل المدينة بحكم طبيعة أرضهم لاعتمادهم عليها في معاشهم نظرة

فيها شيء من الاحتقار ، وقد تجلت هذه النظرة في الكلمة التي قالها أبو جهل وهو عقير ،
قد قتله ابنا عفراء وهما من الأنصار ، وقد أدركه عبد الله بن مسعود وبه رمق (لو غير أكار
قتلني) .

* * *

الحالة الاقتصادية والحضارية :

كانت مدينة يثرب بطبيعتها منطقة زراعية ، وكان أكثر اعتماد أهلها على الزراعة
والبساتين ، وكان من أهم حاصلاتها التمر والعنب ، فكانت فيها جنات النخيل والأعناب ،
وجنات معروشات وغير معروشات ، وزروع ونخيل صنوان وغير صنوان ، ومن الزروع
الحبوب والبقول ، وكان التمر وخاصة أيام الجذب ، وتختلف الأمطار ، يسد كثيراً من حاجة
السكان الغذائية ، وكان كعملة يتبادل بها أهلها عند الحاجة ، وكانت النخيل مصدر خيرات
كثيرة في حياتهم ، فكانوا يستخدمونه في الغذاء والبناء ، والصناعة ، والوقود ، وعلف
الدواب ، ولتمر المدينة أنواع كثيرة وتفصيل دقيقة تصعب الإحاطة بها ، لأهل المدينة
تجارب وطرق في تربية حاصل النخيل وتحسينه استفادوها من طول المراس ، منها تأبير
النخل .

هذا لا ينفي وجود حركة تجارية في المدينة ، ولكنها لم تكن في القوة والانتشار بمكانة
الحركة التجارية في مكة ، إذ كان اعتماد أبناء الوادي (مكة) وهو غير ذي زرع ومياه
وفيرة - على التجارة ورحلة الشتاء والصيف .

وكانت في المدينة بعض الصناعات يمارس أكثرها اليهود ، ولعلمهم جلبوها من اليمن ، فلم
يزالوا فيه إلى أن غادروه في الزمن الأخير ، حاذقين في الصناعات ، وكان عامة بني قينقاع
صاغة ، وكانوا أغنى طوائف اليهود في مدينة يثرب ، وكانت ييوتهم تحتوي على الأموال
الطائلة ، والحلي الكثيرة من الفضة والذهب ، مع أن عددهم كان غير كثير .

وقد منحت طبيعة يثرب ، وهي بركانية التربة ، أراضيها خصباً زائداً ، وهي ذات
وديان كثيرة ، تفيض بمياه السيول ، فتروي أرضها وتسقي النخل والزروع ، اشتهر منها

وادي العقيق الذي كان متنزه المدينة ، وكان يتدفق بالماء ، ويزهو بالبساتين ، وكانت الأرض صالحة لحفر الآبار ، وقد كثرت في البساتين ، ومنها ما هو مسور ويسميه أهل المدينة (الحائط) واشتهرت آبار كثيرة بعذوبة الماء ووفرته ، وكانت لهم شِراج ^(١) ، وكانوا يحولون للماء بالمساحي ^(٢) إلى حدائقهم .

وكان من الحبوب الرئيسية الشعير ، ثم القمح ، وتكثر الخضروات والبقول ، وكانت لهم طرق في المزارعة والمؤاجرة والمزابنة ، والمحاولة ، والمخابرة ، والمعاومة ، منها ما أقره الإسلام ومنها ما منعه أو أصلحه .

وكانت العملة في مكة والمدينة واحدة ، وكانت المدينة تعتمد على المكاييل وتحتاج إليها أكثر من مكة ، لاعتماد أهلها على الحبوب والثمار ، وكانت الأكيال المستعملة في المدينة هي المد والصاع والفرق والعرق والتوسق ، أما الأوزان المستعملة فهي الدرهم والمثقال والدانق والقيراط والنواة والرطل والقنطار والأوقية .

ولم تكن المدينة - على خصبها - مكتفية غذائياً ، فكان أهلها يستوردون بعض المواد الغذائية من الخارج ، وكانوا يجلبون دقيق الحوار والسمن والعسل ، من الشام .

قد جاء في حديث رواه الترمذي عن قتادة بن النعمان - رضي الله عنه - : « كان الناس إنما طعامهم بالمدينة ، التمر والشعير ، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة ^(٣) من الشام من الدرهم ^(٤) ، ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه ، وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير » والقصة تلقي ضوءاً على الحالة الغذائية في المدينة - التي لم تحدث بعد الهجرة فجأة - وعلى المستويات المختلفة في المعيشة .

وكان اليهود - كما عرف من طبيعتهم وتاريخهم في كل بلد - أكثر غنى من العرب ، وكان

(١) الشِراج : جمع شِرج ، وهو سيل الماء من المضاب ونحوها إلى السهل .

(٢) المساحي : هي المجارف ، وهي على أشكال .

(٣) ضافطة (: قافلة الخيرة .

(٤) الدرهم (: الدقيق الأبيض .

العرب بطبيعتهم العربية البدوية ، لا يفكرون في المستقبل كثيراً ، فيوفرون له المال ، وكانوا أهل ضيافة وكرم ، يضطرون إلى الاستدانة من اليهود ، وكثيراً ما تكون هذه الاستدانة بالربا والرهن .

وكان لأهل المدينة ثروة من الإبل والبقر والأغنام ، ويستخدمون الإبل في إرواء الأراضي ويسمون بها بـ (الإبل النواضح) وكانت لهم مراعي اشتهرت منها : (زُغابة) و (الغابة) ، يحتطب منها الناس ، ويرعون فيها ماشيتهم وكانت لهم خيل يستخدمونها في الحروب وإن كانت قليلة بالنسبة إلى مكة ، وكان بنو سليم مشهورين باقتناء الخيل ، يجلبونها من الخارج .

وكانت في المدينة عدة أسواق ، أهمها (سوق بني قينقاع) مركز بيع الحلي والمصوغات الذهبية ، وكانت سوق البزازين ، وتوجد في المدينة المنسوجات القطنية والحريرية ، والبارق الملونة والستور المرسومة ، وكان عطارون يبيعون أنواع العطور والمسك ، وكان يوجد من يتجر في العنبر والزئبق ، وكانت أنواع من البيع منها ما أقره الإسلام ومنها ما منعه ، من النجش والاحتكار ، وتلقى الركبان خارج المدينة ، وبيع المصراة ، والبيع بالنسيئة ، وبيع الحاضر للبادي ، وبيع المجازفة ، وبيع المزبنة ، والمخاطرة^(١) . وكان من الأوس والخزرج من يتعامل بالربا ، وإن كان ذلك نادراً بالنسبة إلى اليهود - يعني فيما بينهم .

وقد توسعت الحياة في المدينة بعض التوسع ، ورقت بحكم طبيعة أهلها ، فكانت البيوت ذات طبقات ، وكانت لبعض البيوت حدائق ، وكانوا يستعذبون الماء ، وقد يأتون به من بعيد ، وكانت توجد كراسي ، وكانت تستعمل أقداح من زجاج وأقداح من الحجارة ، وسرج متنوعة ، وكانوا يستخدمون المكاتل والقفف في أعمال المنزل والزراعة ، وكان للأغنياء شيء كثير من الأثاث لبيوتهم ، خصوصاً اليهود ، وكانت أنواع من الحلي كالأساور ، والدمالج ،

(١) سيأتي شرح هذه البيوع في القسم الرابع من الكتاب بإذن الله تعالى .

والخلايل ، والأقرطة ، والحوام والعقود من الذهب أو من جَزَع ظَفَار^(١) ، وكان الغزل والنسيج فاشيين في النساء ، فكانت الخياطة والدباغة وعمل بناء البيوت ، وضرب الطوب والنحت ، من الصناعات التي عرفت في المدينة قبل الهجرة .

الوضع المعقد الذي واجهه الرسول ﷺ في مدينة يثرب :

وهكذا لم ينتقل رسول الله ﷺ والمهاجرون من مدينة - مكة - إلى قرية - يثرب - بل انتقل من مدينة إلى مدينة ، وإن كانت هي الأخرى تختلف عن الأولى في مظاهر كثيرة للحياة ، وكانت أصغر منها نسبياً ، ولكن الحياة فيها كانت أكثر تعمقاً ، والقضايا التي سيواجهها الرسول أكثر تنوعاً ، لوجود ديانات وبيئات وثقافات مختلفة ، لا يتغلب عليها ولا يصهر المدينة كلها في بوتقة عقيدة واحدة ، ودعوة واحدة إلا الرسول المؤيد من الله ، الذي أعطاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، وقوة الجمع بين الأنماط البشرية الكثيرة ، والقوى المتصارعة ، والأهواء المتعاكسة ، وألقى عليه محبة منه ، وصدق الله العظيم :

﴿ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴿^(٢) .

* * *

(١) ظَفَار : إقليم في غربي عمان على شاطئ البحر العربي .

(٢) الأنفال : ٦٢ ، ٦٣ .

فصل : التأريخ بالهجرة

٢٢٩ - * روى البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنها قال : ما عدُّوا من مَبْعَثِ النبي ﷺ ولا مِن وفاته ، ما عدُّوا إلا من مَقْدَمِهِ المدينة .

٢٣٠ - * روى الحاكم ، عن سعيد بن المسيَّب رضي الله عنه قال : جمع عمرُ الناس فسألهم : مِنْ أَيِّ يَوْمٍ يَكْتَبُ التاريخ ؟ فقال علي بن أبي طالب : مِنْ يَوْمِ هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَتَرَكَ أَرْضَ الشَّرْكِ ، ففعله عمر - رضي الله عنه .

أقول : قال ابن كثير في البداية والنهاية : اتفق الصحابة رضي الله عنهم في سنة ست عشرة - وقيل سنة سبع عشرة ، أو ثمان عشرة - في الدولة العُمَريَّة على جعل ابتداء التاريخ الإسلامي من سنة الهجرة ، وذلك أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه رَفَعَ إليه صك - أي حجة - لرجل على آخر وفيه ؛ إنه يحل عليه في شعبان . فقال عمر : أي شعبان ؟ أشعبان هذه السنة التي نحن فيها أو السنة الماضية ، أو الآتية ؟ ثم جمع الصحابة فاستشارهم في وضع تاريخ يتعرفون به حلول الديون وغير ذلك . فقال قائل : أرخوا كتاريخ الفرس فكره ذلك ، وكانت الفرس يؤرخون بملوكهم واحداً بعد واحد . وقال قائل : أرخوا بتاريخ الروم ، وكانوا يؤرخون بملك إسكندر بن فيلبس المقدوني فكره ذلك . وقال آخرون : أرخوا بمولد رسول الله ﷺ . وقال آخرون : بل بمبعثه . وقال آخرون : بل بهجرته . وقال آخرون : بل بوفاته عليه السلام . قال عمر رضي الله عنه إلى التأريخ بالهجرة لظهوره واشتباره . واتفقوا معه على ذلك .

والمقصود أنهم جعلوا ابتداء التاريخ الإسلامي من سنة الهجرة ، وجعلوا أولها من المحرم فيما اشتهر عنهم وهذا هو قول جمهور الأئمة ، وذلك لأن أول شهور العرب المحرم فجعلوا السنة الأولى سنة الهجرة ، وجعلوا أولها المحرم كما هو المعروف لكلا يختلط النظام والله أعلم .

٢٢٩ - البخاري (٢٦٧ / ٧) ٦٢ - كتاب مناقب الأنصار - ٤٨ - باب : التاريخ من أين أرخوا التاريخ ؟

٢٣٠ - المستدرک (١٤ / ٣) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

أقول : للبداءة بالحرم سببان :

أولاً : لأنه بداية السنة عند العرب .

ثانياً : لأنّ الأصحاب بدأوا هجرتهم من المحرم ، فالمحرم وجدت فيه مقدمات الهجرة .

وقال في الفتح : وقد أبدى بعضهم للبداءة بالهجرة مناسبة ، فقال : كانت القضايا التي اتفقت له ويمكن أن يؤرخ بها أربعة : مولده ومبعثه وهجرته ووفاته ، فرجع عندهم جعلها من الهجرة لأن المولد والمبعث لا يخلو واحد منهما من النزاع في تعيين السنة ، وأما وقت الوفاة فأعرضوا عنه لما توقع بذكره من الأسف عليه ، فانحصر في الهجرة ، وإنما أخروه من ربيع الأول إلى المحرم ؛ لأن ابتداء العزم على الهجرة كان في المحرم ، إذ البيعة وقعت في أثناء ذي الحجة وهي مقدمة الهجرة ، فكان أول هلال استهل بعد البيعة والعزم على الهجرة هلال المحرم فناسب أن يجعل مبتدأ ، وهذا أقوى ما وقفت عليه من مناسبة الابتداء بالمحرم .

* * *

فصل : في حسن الاستقبال وقوة الإقبال

شهد الله عز وجل للأنصار بالإيثار وحب الأضياف المهاجرين . فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ قَبَلُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ^(١) وهذه الروح وبجسنة التربية من رسول الله ﷺ وحسن التدبير حلّت مشكلة الهجرة ، وكأن ليس لها مشكلات مع أن مشكلات الهجرة من أعقد للمشكلات في العالم .

وهذه نصوص نذكرها توضح حسن الاستقبال من الأنصار للمهاجرين ومنهم لرسول الله ﷺ ، وكثرة إقبالهم عليه ﷺ :

٢٣١ - * روى البخاري عن خَارِجَةَ بِنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ أُمَّ الْعَلَاءِ - امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ - بَايَعَتِ النَّبِيَّ ﷺ ، أَخْبَرَتْهُ : أَنَّهُ اقْتَسَمَ الْمُهَاجِرُونَ قُرْعَةً ، فَطَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَطْعُونٍ ، فَأَنْزَلَنَاهُ فِي أُبْيَاتِنَا ، فَوَجَعَ وَجَعَهُ الَّذِي تُوْفِي فِيهِ ، فَلَمَّا تُوْفِي وَغَسَلَ وَكُنَّ فِي أَثْوَابِهِ ، دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَقُلْتُ : رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ أبا السَّائِبِ ، فَشَهِدَتِي عَلَيْكَ : لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمَهُ ؟ » فَقُلْتُ : بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَمَنْ يَكْرِمُهُ اللَّهُ ؟ فَقَالَ : « أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ ، وَاللَّهُ إِنِّي لَأَرْجُوهُ الْخَيْرَ ، وَاللَّهُ مَا أَذْرِي - وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ - مَا يَفْعَلُ بِي ؟ » قَالَتْ : فَوَاللَّهِ لَا أَزْكِي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا .

زاد في رواية قالت : وَأَرَيْتُ لِعُثْمَانَ فِي النَّوْمِ عَيْنًا تَجْرِي ، فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ : « ذَلِكَ عَمَلُهُ » .

وفي رواية قالت : فَأَخْرَجَنِي ذَلِكَ ، فَنَمْتُ ، فَارْتَيْتُ لِعُثْمَانَ عَيْنًا تَجْرِي .

(١) الحشر . ٩ .

٢٣١ - البخاري (٢ / ١١٤) ٣٣ - كتاب الجنائز - ٢ - باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه

فطار لنا : أي وقع لنا في سهمنا ، أي صار من حظنا .

أبو السائب : يعني عثمان بن مظعون .

٢٣٢ - * روى الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال ، لما قدم النبي ﷺ المدينة أتاه المهاجرون فقالوا : يارسول الله . ما رأينا قوماً أبذل من كثير ، ولا أحسن مواساة من قليل ، من قوم نزلنا بين أظهرهم ، لقد كفونا المؤنة ، وأشركونا في المهنا ، حتى لقد خفنا أن يذهبوا بالأجر كله فقال النبي ﷺ : « لا ، مادعوتكم الله لهم ، وأثنيتم عليهم » .

واختصره أبو داود ^(١) وقال : إن المهاجرين قالوا : يارسول الله ، ذهب الأنصار بالأجر كله ، قال : « لا ، ما دعوتكم الله لهم وأثنيتم عليهم » .

٢٣٣ - * روى البخاري عن أبي هريرة قال : قالت الأنصار للنبي ﷺ : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل . قال : « لا » ، فقالوا : تكفونا المؤنة وتشرككم في الثمرة ، قالوا : سمعنا وأطعنا .

٢٣٤ - * روى البخاري عن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده قال : لما قدموا المدينة ألقى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع . قال لعبد الرحمن : إني أكثر الأنصار مالاً ، فاقسم مالي نصفين . ولي امرأتان فانظر أعجبها إليك فسمها لي أطلقها ، فإذا انقضت عدتها فتزوجها . قال : بارك الله لك في أهلك ومالك ، أين سوقكم ؟ فدلوه على سوق بني قينقاع ، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقطر وسمن وذكر الحديث .

٢٣٥ - * روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : قديم عبد الرحمن بن عوف

٢٣٢ - الترمذي (٤ / ٦٥٣) ٢٨ - كتاب صفة القيامة - باب : ٤٤ . وقال : هنا حديث صحيح حسن غريب من هذا الوجه .

المهنا : السرور - ما يأتيك فتسيفه وتقبله طبيعتك ، جمعه مهائن .

(١) أبو داود (٤ / ٢٥٥) كتاب الأدب - باب : في شكر المعروف . وإسناده صحيح .

٢٣٣ - البخاري (٥ / ٨) ٨١ - كتاب الحرف والمزاورة - ٥ - باب : إذا قال أكفني مؤنة النخل وغيره وتشركني في الثمر .

٢٣٤ - البخاري (٧ / ١١٢) ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار - ٢ - باب إخوان النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار .

أقطا : الأقط : لبن جامد يابس .

٢٣٥ - البخاري (٤ / ٢٨٨) ٣٤ - كتاب البيوع - ١ - باب ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ إذا قضيت الصلاة ... ﴾ .

وشر من صفة : الوضر : الأثر ، والصفرة من الزعفران والخلوق .

مهم : كلمة استفهام أي ما حالك وما شأنك وما وراءك أو أحدث لك شيء ؟ .

المدينة ، فأخى النبي ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيِّ ، وَكَانَ سَعْدٌ ذَا غَنًى ، فَقَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ : أَفَاسْبِكَ مَالِي يَصْفَيْنِ وَأَزْوَجُكَ . قَالَ : بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ ، ذُلُّونِي عَلَى السُّوقِ ، فَمَا رَجَعَ حَتَّى اسْتَفْضَلَ أَقْطاً وَتَبْنَأَ ، فَأَتَى بِهِ أَهْلَ مَنْزِلِهِ ، فَمَكَّنُونَا يَسِيراً - أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ - فَجَاءَ وَعَلَيْهِ وَضْرٌ مِنْ صُفْرَةٍ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : « مَهْتِمٌ ؟ » قَالَ : يَارَسُولَ اللَّهِ تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ . قَالَ : « مَا سَقَتَ إِلَيْهَا ؟ » قَالَ : نَوَءٌ مِنْ ذَهَبٍ - أَوْ وَزَنَ نَوَءٌ مِنْ ذَهَبٍ - قَالَ : « أَوْلِمُ وَلَوْ بِشَاةٍ » .

قال صاحب الفتح الرباني : قال النووي : الصحيح في معنى هذا الحديث أنه تعلق به أثر من الزعفران وغيره من طيب العروس ولم يقصده ولا تعمده التزعفر ، فقد ثبت في الصحيح النهي عن التزعفر للرجال ، وكذا نهى الرجال عن الخلق لأنه شعار النساء ، وقد نهى الرجال عن التشبه بالنساء فهذا هو الصحيح في معنى الحديث ، وهو الذي اختاره القاضي والمحققون ، قال القاضي وقيل : إنه يرخص في ذلك للرجل العروس ، وقد جاء ذلك في أثر ذكره أبو عبيد أنهم كانوا يرخصون في ذلك للشباب أيام عرسه ، قال : ومذهب مالك وأصحابه جواز لبس الثياب المزعفرة ، وحكاها مالك عن علماء المدينة ، وهذا مذهب ابن عمر وغيره ، وقال الشافعي وأبو حنيفة لا يجوز ذلك للرجل . اهـ .

٢٣٦ - * روى أحمد عن عائشة قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا يَضُرُّ امْرَأَةً نَزَلَتْ بَيْنَ بَيْتَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ أَوْ نَزَلَتْ بَيْنَ أَبَوَيْهَا » .

٢٣٧ - * روى الحاكم عن أبي أيوب قال : لما نَزَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ : بِأبي أنت وأمي أكره أن أكونَ فَوْقَكَ وَتَكُونَ أَسْفَلَ مِنِّي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « إِنِّي أَرْفُقُ بِي أَنْ أَكُونَ فِي السُّفْلَى لِمَا يَغْشَانَا مِنَ

٢٣٦ - أحمد في مسنده (٦ / ٢٥٧) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠ / ٤٠) وقال : رواه أحمد والبخاري ورجالها رجال الصحيح .

امرأة نزلت : أي نزولها بين بيتين من الأنصار كنزولها بين أبويها .

٢٣٧ - المستدرک (٣ / ٤٦١) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

أهريق : أريق .

القطيفة : كساء له خل وأهداب .

فرقاً : خوفاً من أن يصل إليه الماء .

النَّاسِ « قَالَ فَلَقَدْ رَأَيْتُ جُرَّةَ لَنَا انْكَسَرَتْ فَأَهْرَيْقُ مَاؤُهَا ، فَقُمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ بِقُطَيْفَةٍ لَنَا مَا لَنَا لِحَافَ غَيْرِهَا نَنْشَفُ بِهَا الْمَاءَ ، فَرَقًّا أَنْ يَصِلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شَيْءٌ يُؤْذِيهِ .

أقول : إن كثيراً من الناس يهتمون قضية الذوق العام ، ولا يعطون للتصرف الذوقي أهمية مع شدة أهميته في حياة المسلمين ، وما أكثر ما نجد هذا في حياة رسول الله ﷺ وأصحابه ، وتصرف أبي أيوب وأم أيوب المذكور في الحديث نموذج على هذا .

٢٣٨ - * روى الحاكم عن جابر بن سمرة قال : نزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَبِي أَيُّوبَ وَكَانَ إِذَا أَكَلَ طَعَاماً بَعَثَ إِلَيْهِ بِفَضْلِهِ فَيَنْظُرُ إِلَى مَوْضِعِ يَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَيَأْكُلُ مِنْ حَيْثُ مَوْضِعُ يَدِهِ ، فَصَنَعَ ذَاتَ يَوْمٍ طَعَاماً فِيهِ ثَوْمٌ فَأَرْسَلَ بِهِ إِلَيْهِ فَرَدَّهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمْ أَرَأْ أَصَابِعَكَ ، فَقَالَ : « إِنَّهُ كَانَ فِيهِ ثَوْمٌ » قَالَ شُعْبَةُ فِي حَدِيثِهِ : أَحَرَمَ هُوَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « لَا » وَقَالَ حَمَّادٌ فِي حَدِيثِهِ : يَا رَسُولَ اللَّهِ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِمَا لَمْ تَأْكُلْ ، فَقَالَ : « إِنَّكَ لَسْتَ مِثْلِي إِنَّهُ يَأْتِينِي الْمَلَكُ » .

* * *

فصل : المسجد أولاً

قال ابن كثير في البداية والنهاية : ولما حل الركاب النبوي بالمدينة ، وكان أول نزوله بها في دار بني عمرو بن عوف وهي قُبَاء كما تقدم فأقام بها - أكثر ما قيل - ثنتين وعشرين ليلة ، وقيل : ثمانين ليلة ، وقيل : بضع عشرة ليلة ، وقال موسى بن عقبة : ثلاث ليال . والأشهر ما ذكره ابن إسحاق وغيره أنه عليه السلام أقام فيهم بقباء من يوم الاثنين إلى يوم الجمعة ، وقد أسس في هذه المدة المختلف في مقدارها - على ما ذكرناه - مسجد قباء .

ولما ارتحل عليه السلام من قباء وهو راكب ناقته القصواء وذلك يوم الجمعة أدركه وقت الزوال وهو في دار بني سالم بن عوف ، فصلى بالمسلمين الجمعة هنالك ، في واد يقال له وادي رانواناء ، فكانت أول جمعة صلاها رسول الله ﷺ بالمسلمين بالمدينة ، أو مطلقاً لأنه والله أعلم لم يكن يتمكن هو وأصحابه بمكة من الاجتماع حتى يقيموا بها جمعة ذات خطبة وإعلان بموعظة ، وما ذاك إلا لشدة مخالفة المشركين له ، وأذيتهم إياه . اهـ .

ولما قدم المدينة كان من أوائل أعماله عليه الصلاة والسلام بناء المسجد .

٢٣٩ - * روى البخاري عن أنس بن مالك قال : قَدِمَ النبي ﷺ المدينةَ فَنَزَلَ في أعلى المدينة في حيٍّ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ . فَأَقَامَ فِيهِمْ أَرْبَعَ عَشْرَ لَيْلَةً ، ثُمَّ أُرْسِلَ إِلَى بَنِي النَّجَّارِ فَجَاءُوا مُتَقَلِّدِي السِّبْوَ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَأَبُو بَكْرٍ رِذْفُهُ ، وَمَلَأَ بَنِي النَّجَّارِ حَوْلَهُ حَتَّى أَلْفَى بِفَنَاءِ أَبِي أَيُّوبَ ، وَكَانَ يَحِبُّ أَنْ يُصَلِّيَ حَيْثُ أَدْرَكَتُهُ الصَّلَاةُ ، وَيُصَلِّيَ فِي مَرَابِضِ الْغَنَمِ ، وَإِنَّهُ أَمَرَ بِنَاءَ الْمَسْجِدِ ، فَأُرْسِلَ إِلَى مَلَأٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ فَقَالَ : « يَا بَنِي النَّجَّارِ ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ هَذَا » فَقَالُوا : لَا وَاللَّهِ لَا نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ ، فَقَالَ أَنَسٌ : فَكَانَ فِيهِ مَا أَقُولُ لَكُمْ : قُبُورُ الْمُشْرِكِينَ ، وَفِيهِ خَرْبٌ ، وَفِيهِ غُلٌّ ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقُبُورِ الْمُشْرِكِينَ فَنَبِشَتْ ، ثُمَّ بِالْخَرْبِ فَسَوِّتُ ، وَبِالنَّخْلِ فَقَطَّعَ ؛ فَصَفَّوْا النَّخْلَ قِبْلَةَ الْمَسْجِدِ ، وَجَعَلُوا عِصَادَتَيْهِ الْحِجَارَةَ ، وَجَعَلُوا يَنْقُلُونَ الصُّخْرَ وَهُمْ يَرْتَجِزُونَ ، وَالنَّبِيُّ ﷺ مَعَهُمْ وَهُوَ يَقُولُ « اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الْآخِرَةِ ، فَاعْفُ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ »

٢٣٩ - البخاري (١ / ٥٢٤) ٨ - كتاب الصلاة - ٤٨ - باب : هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ، ويتخذ مكانها مساجد ؟ .
ومسلم (١ / ٢٧٢) ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة - ١ - باب ابتداء مسجد النبي ﷺ .

٢٤٠ - * وقد ورد في صحيح البخاري عن الزهري عن عروة أن المسجد الذي كان مربداً - وهو يندر التمر - لتييمين كانا في حجر أسعد بن زرارة ، وهما سهل وسهيل ، فسأوهما فيه رسول الله ﷺ فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منها هبة حتى ابتاعه منهما ثم بناءً مسجداً وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه ويقول :

هَذَا الْحِمَالُ لَا حِجَالَ خَيْرٌ هَذَا أَتْرُ رَبَّنَا وَأَطْهَرُ

ويقول :

اللهم إِنَّ الْأَجَرَ أَجْرُ الْآخِرَةِ فَارْحِمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ

٢٤١ - * روى البخاري عن ابن عمر أن المسجد كان على عهد رسول الله ﷺ مبنياً باللبن ، وسقفه الجريد ، وعمده خشب النخل ، فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً ، وزاد فيه عمر وبناء على بنيانه في عهد رسول الله ﷺ باللبن والجريد وأعاد عمده خشباً . ثم غيرهُ عثمان فزاد فيه زيادة كبيرة ، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج .

قال ابن كثير في البداية والنهاية : زاده عثمان بن عفان رضي الله عنه متأولاً قوله ﷺ : « من بنى لله مسجداً ولو كفحص قطعة بني الله له بيتاً في الجنة » ووافقه الصحابة الموجودون على ذلك ولم يغيروه بعده ، فيستدل بذلك على الراجح من قول العلماء أن حكم الزيادة حكم المزيد ، فتدخل الزيادة في حكم سائر المسجد من تضعيف الصلاة فيه وشد الرجال إليه ، وقد زيد في زمان الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق زاده له بأمره عمر ابن عبد العزيز حين كان نائبه على المدينة ، وأدخل الحجرة النبوية فيه كما سيأتي بيانه في

٢٤٠ - البخاري (٧ / ٢٤٠) ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار - ٤٥ - باب : هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة .

٢٤١ - البخاري (١ / ٥٤٠) ٨ - كتاب الصلاة - ٦٢ - باب : بنيان المسجد .

وأبو داود (١ / ١٢٣) كتاب الصلاة - باب : في بناء المسجد .

القصة : الجص .

الساج : ضرب من الشجر .

وقته ، ثم زيد زيادة كثيرة فيما بعد ، وزيد من جهة القبلة حتى صارت الروضة والمنبر بعد الصفوف المقدمة كما هو المشاهد اليوم .

وبني لرسول الله ﷺ حول مسجده الشريف حُجْر لتكون مساكن له ولأهله ، وكانت مساكن قصيرة البناء قريبة الفناء . قال الحسن بن أبي الحسن البصري - وكان غلاماً مع أمه خيرة مولاة أم سلمة - : لقد كنت أنال أطول سقف في حجر النبي ﷺ بيدي . قلت : إلا أنه قد كان الحسن البصري شكلاً^(١) ضخماً طَوَّالاً رحمه الله .

وقال السُّهيلي في الروض : كانت مساكنه عليه السلام مبنية من جريد عليه طين بعضها من حجارة مرضومة وسقوفها كلها من جريد ، وقد حكى عن الحسن البصري ما تقدم ، قال : وكانت حُجْره من شعر مربوطة بخشب من عرعر . قال وفي تاريخ البخاري أن بابيه عليه السلام كان يقرع بالأظافر ، فدل على أنه لم يكن لأبوابه حلق . ا هـ .

٢٤٢ - * روى الطبراني في الأوسط عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كنا ننقل اللبن للمسجد لِبْنَةً لِبْنَةً وكان عمارٌ ينقل لبنتين لِبْنَتَيْنِ فنقص رسول الله ﷺ عن رأسه وقال : « وَيُحَكِّ يا ابنَ سَمِيَّةٍ تَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَةُ » .

قال ابن كثير في البداية والنهاية : وهذا الحديث من دلائل النبوة حيث أخبر صلوات الله وسلامه عليه عن عمار أنه تقتله الفئة الباغية ، وقد قتله أهل الشام في وقعة صفين وعمار مع علي وأهل العراق كما سيأتي بيانه وتفصيله في موضعه ، وقد كان عليّ أحق بالأمر من معاوية ، ولا يلزم من تسمية أصحاب معاوية بغاة تكفيرهم كما يحاوله جهلة الفرقة الضالة من الشيعة وغيرهم ؛ لأنهم وإن كانوا بغاة في نفس الأمر فإنهم كانوا مجتهدين فيما تعاطوه من القتال ، وليس كل مجتهد مصيباً ، بل المصيب له أجران والخطيئ له أجر ، ومن زاد في هذا الحديث بعد تقتلك الفئة الباغية - لا أناها الله شفاعتي يوم القيامة - فقد افترى في هذه الزيادة على رسول الله ﷺ ، فإنه لم يقلها إذ لم تنقل من طريق تقبل ، والله

(١) الشَّكِل : مالونه أبيض خالطته حرة .

٢٤٢ - أورده الإمام الهيثمي في مجمع الزوائد (٩ / ٢٩٦) وقال : رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن .

أعلم . وأما قوله يدعومهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار ، فإن عمارة وأصحابه يدعون أهل الشام إلى الألفة واجتماع الكلمة ، وأهل الشام يريدون أن يستأثروا بالأمر دون من هو أحق به ، وأن يكون الناس أوزاعاً ^(١) على كل قطر إمام برأسه ، وهذا يؤدي إلى افتراق الكلمة واختلاف الأمة فهو لازم مذهبهم وناشئ عن مسلكتهم ، وإن كانوا لا يقصدونه ، والله أعلم .

ونختم هذا الفصل بكلمة للشيخ الغزالي وأخرى للسباعي حول بدئه عليه الصلاة والسلام أول استقراره في المدينة ببناء المسجد .

قال الشيخ الغزالي حفظه الله :

بادر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى بناء المسجد ، لتظهر فيه شعائر الإسلام التي طالما حوربت ، ولتقام فيه الصلوات التي تربط المرء برب العالمين ، وتنقي القلب من أدران الأرض ، ودسائس الحياة الدنيا .

وتم المسجد في حدود البساطة ، فراشه الرمال والحصباء وسقفه الجريد ، وأعمدته الجذوع ، وربما أمطرت السماء فأوحلت أرضه ، وقد تفلت الكلاب إليه فتغدو وتروح .

هذا البناء المتواضع الساذج ، هو الذي ربى ملائكة البشر ، ومؤيدي الجبايرة وملوك الدار الآخرة ، في هذا المسجد أذن الرحمن لنبي يؤم بالقرآن خير من آمن به ، يتعهدهم بأدب السماء من غبش الفجر إلى غسق الليل .

إن مكانة المسجد في المجتمع الإسلامي ، تجعله مصدر التوجيه الروحي والمادي فهو ساحة للعبادة ، ومدرسة للعلم ؛ وندوة للأدب وقد ارتبطت بفريضة الصلاة وصفوفها أخلاق وتقاليد هي لباب الإسلام .

والمسجد الذي وجه الرسول ﷺ همته إلى بنائه قبل أي عمل آخر بالمدينة ، ليس أرضاً تحتكر العبادة فوقها ؛ فالأرض كلها مسجد ، والمسلم لا يتقيد في عبادته بمكان .

إنما هو رمز لما يكثر له الإسلام أعظم أكرث ، ويتشبه به أشد تشبث ، وهو وصل

(١) أوزاع : جماعات متفرقة .

العباد برهم وصلأ يتجدد مع الزمن ، ويتكرر مع أناء الليل والنهار ، فلا قيمة لحضارة تذهل عن الإله الواحد ، وتجهل اليوم الآخر ، وتخلط المعروف بالمنكر ! .

والحضارة التي جاء بها الإسلام ، تذكر أبدأ بالله وبلقائه وتمسك بالمعروف وتبفض في المنكر ، وتقف على حدود الله ... اهـ .

وقال الدكتور السباعي حول بناء المسجد : من وقائع الهجرة إلى المدينة تبين لنا أنه ﷺ ما أقام بمكان إلا كان أول ما يفعله بناء مسجد يجتمع فيه المؤمنون فقد أقام مسجد قباء حين أقام فيها أربعة أيام ، وبنى مسجداً في منتصف الطريق بين قباء والمدينة لما أدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن الوادي « وادي رانواء » .

فلما أن وصل إلى المدينة ، كان أول عمل عمله بناء مسجد فيها .

وهذا يدلنا على أهمية المسجد في الإسلام ، وعبادات الإسلام كلها تطهير للنفس ، وتزكية للأخلاق ، وتقوية لأواصر التعاون بين المسلمين ، وصلاة الجماعة والجمعة والعيدين ، مظهر قوي من مظاهر اجتماع المسلمين ، ووحدة كلمتهم ، وأهدافهم ، وتعاونهم على البر والتقوى ، لاجرم أن كان للمسجد رسالة اجتماعية وروحية عظيمة الشأن في حياة المسلمين ، فهو الذي يوحد صفوفهم ، ويهذب نفوسهم ، ويوقظ قلوبهم وعقولهم ، ويحل مشاكلهم ، وتظهر فيه قوتهم وتماسكهم .

ولقد أثبت تاريخ المسجد في الإسلام أن منه انطلقت جحافل الجيوش الإسلامية لغمر الأرض بهداية الله ، ومنه انبعثت أشعة النور والهداية للمسلمين وغيرهم ، وفيه ترعرعت بذور الحضارة الإسلامية ونمت ، وهل كان أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وخالد ، وسعد ، وأبو عبيدة ، وأمثالهم من عظماء التاريخ الإسلامي إلا تلامذة المدرسة الحمديدية التي كان مقرها المسجد النبوي .

وميزة أخرى للمسجد في الإسلام أنه تنبعث منه في كل أسبوع كلمة الحق مدوية مجلجلة على لسان خطيبه ، في إنكار منكر أو أمر بمعروف ، أو دعوة إلى خير ، أو إيقاظ من غفلة ، أو دعوة إلى تجمع ، أو احتجاج على ظالم ، أو تحذير لطاغية ، ولقد شاهدنا في عهد

الطفولة كيف كانت المساجد مراكز الانطلاق للحركات الوطنية ضد المستعمرين يلجأ إليها
زعماء الجهاد ضد الاستعمار وضد الصهيونية . اهـ .

* * *

فصل : المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

أقام الرسول ﷺ بعد وجوده في المدينة نوعين من التعاقدات ، تعاقد على الإخاء الخاص بين أصحابه ، وتعاقد بين المسلمين وغيرهم من سكان المدينة .

وهذه نصوص تشير أو تتحدث عن التعاقدات من النوع الأول :

٢٤٢ - * روى مسلم عن جبير بن مطعم ، رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ ، وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً » .

قال ابن الأثير : (لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ) أصل الحلف : المَعَاقِدَةُ والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق ، فما كان منه في الجاهلية على الفتن والقتال بين القبائل والغارات ، فذلك الذي ورد النهي عنه في الإسلام بقوله ﷺ : « لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ » وما كان منه في الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام ، كحلف للطيبين وما جرى مجراه ، فذلك الذي قال فيه ﷺ : « وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً » يريد : من المَعَاقِدَةِ عَلَى الْخَيْرِ ، والنصر للحق ، وبذلك يجتمع الحديثان ، وقد حالف رسول الله ﷺ في الإسلام بين قريش والأنصار ، يعني : أخى بينهم ، وهذا هو الحلف الذي يقتضيه الإسلام ، والممنوع منه : ما خالف حكم الإسلام ، وكان رسول الله ﷺ وأبو بكر من المطيبين ، وكان عمر من الأحلاف ، والأحلاف ست قبائل : عبد الدار ، وجُمَح ، ومَخْزُوم ، وعَدِي ، وكعب ، وسهم ، سُمُوا بذلك لأنهم لما أرادت بنو عبد مناف أخذ ما في أيدي عبد الدار ؛ من الحِجَابَةِ وَالرَّقَادَةِ وَاللَّوَاءِ وَالسَّقَايَةِ ، وَأَبَتْ عَبْدُ الدَّارِ ، عَقَدَ كُلُّ قَوْمٍ عَلَى أَمْرِهِمْ حِلْفًا مُؤَكِّدًا عَلَى أَنْ لَا يَتَخَذَلُوا ، فَأُخْرِجَتْ بَنُو عَبْدِ مَنْفَافٍ جَفْنَةً مَمْلُوءَةً طَيِّبًا ، فَوَضَعَتْهَا لِأَخْلَافِهِمْ فِي الْمَسْجِدِ عِنْدَ الْكَعْبَةِ ، ثُمَّ غَمَسَ الْقَوْمُ أَيْدِيَهُمْ فِيهَا وَتَعَاقدُوا ، وَتَعَاقدتْ بَنُو عَبْدِ الدَّارِ

٢٤٣ - مسلم (٤ / ١٦١) ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة - ٥٠ - باب : مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه رضي الله تعالى عنهم .

وأبو داود (٢ / ١٢٩) كتاب الفرائض - باب في الحلف .

وقال أبو داود : يريد : حلف المطيبين .

وَحَلَفُواهَا حِلْفًا آخَرَ مُؤَكَّدًا عَلَى أَنْ لَا يَتَخَذَلُوا ، فَسَمَّوْهَا الْأَحْلَافَ لَذَلِكَ .

٢٤٤ - * روى البخاري عن عاصم بن سليمان الأحول قال : قُلْتُ لِأَنْسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

أَبْلَغَكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ ؟ » فَقَالَ : قَدْ خَالَفَ النَّبِيَّ ﷺ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَالْأَنْصَارِ فِي ذَارِي .

وعند أبي داود ^(١) قال : سمعت أنس بن مالك يقول : خَالَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فِي ذَارِنَا ، فَقِيلَ لَهُ : أَلَيْسَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ ؟ فَقَالَ : خَالَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فِي ذَارِنَا ، مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا .

أقول : يرى بعض الناس أنه لا تجوز التعاقدات السياسية بين المسلمين وغيرهم ، ومن ثم بين الجماعة الإسلامية وغير المسلمين أو غير الإسلاميين ، وذلك خطأ ووه ، فحيثما وجدت مصلحة حقيقية للإسلام والجماعة المسلمين جاز التحالف على أن يكون ذلك بشورى المسلمين وبالفتوى الصحيحة من أهلها ، ونحن سنرى في حياة الرسول ﷺ أن التحالفات كانت جزءاً من سيرته عليه الصلاة والسلام .

٢٤٥ - * روى أبو يعلى عن زيد بن حارثة أنه قال : يارسول الله أخيت بيني وبين حَفْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ .

٢٤٦ - * روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : أَخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ

٢٤٤ - البخاري (٤ / ٤٧٢) ٣٩ - كتاب الكفالة - ٢ - باب : قول الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَفْسِهِمْ ﴾ .
ومسلم (٤ / ١٩٦٠) ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة - ٥٠ - باب : مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه رضي الله تعالى عنهم .

(١) أبو داود (٢ / ١٢٩) كتاب الفرائض - باب : في الحلف .
٢٤٥ - أورده الميمني في جمع الروايد (٨ / ١٧١) وقال : رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن صالح الأزدي وهو ثقة .

٢٤٦ - مسلم (٤ / ١٩٦٠) ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة - ٥٠ - باب : مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه رضي الله تعالى عنهم .

أبي عبيدة بن الجراح وبين أبي طلحة .

٢٤٧ - * روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ آخى بين الزبير وابن مسعود .

٢٤٨ - * روى أبو يعلى عن أنس رضي الله عنه قال : آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه ، آخى بين سلمان وأبي الدرداء وبين عوف بن مالك وبين صعب بن جثامة .

٢٤٩ - * روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما : قال في قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ ﴾^(١) : ورثة . ﴿ والذين عقدت أيمانكم ﴾ : كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجر الأنصاري دون ذوي رحمه للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم ، فلما نزلت ﴿ ولكل جعلنا موالى ﴾ نسخت ثم قال : ﴿ والذين عقدت أيمانكم ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة ، وقد ذهب الميراث ويوصى له .

وبعد الإخاء بين المهاجرين والأنصار حلّ رسول الله ﷺ مشكلات الهجرة عن أقرب طريق وأسهل ، وقد تحدّث الشيخ الغزالي في كتابه فقه السيرة عن هذا الموضوع فقال :

أما أمر صلة الأمة بعضها ببعض الآخر ، فقد أقامه الرسول ﷺ على الإخاء الكامل . الإخاء الذي تحى فيه كلمة « أنا » ويتحرك الفرد فيه بروح الجماعة ومصالتها وأمالها ، فلا يرى لنفسه كياناً دونها ، ولا امتداداً إلا فيها .

ومعنى هذا الإخاء ، أن تذوب عصبية الجاهلية ، فلا حمية إلا للإسلام . وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن . فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه .

وقد جعل الرسول ﷺ هذه الأخوة عقداً نافذاً ، لا لفظاً فارغاً ، وعلاً يرتبط بالدماء والأموال لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر .

٢٤٧ - أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨ / ١٧١) وقال : رواه الطبراني في الأوسط والكبير ، ورجال الأوسط ثقات .

٢٤٨ - أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨ / ١٧١) وقال : رواه أبو يعلى ورجال الصريح .

٢٤٩ - البخاري (٨ / ٢٤٧) ٦٥ - كتاب التفسير - ٧ - باب ﴿ ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون ... ﴾ .

(١) النساء : ٣٣ .

وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة ، وتتلأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال .

والإخاء الحق لا يثبت في البيئات الخسيسة ، فحيث يشيع الجهل والنقص والجبن والبخل والجشع ، لا يمكن أن يصح إخاء ، أو تترعرع محبة ، ولولا أن أصحاب رسول الله ﷺ جُبلوا على شمائل نقية ، واجتمعوا على مبادئ رضية ، ما سجلت لهم الدنيا هذا التأخي الوثيق في ذات الله .

فَسَمُّوْا الغاية التي التقوا عليها وجلال الأسوة التي قادتهم إليها ، نَمِّيًا فيهم خلال الفضل والشرف ، ولم يدعوا مكاناً لنجوم خلة رديئة .

ذلك ، ثم إن محمداً عليه الصلاة والسلام كان إنساناً ، تجمع فيه ما تفرق في عالم الإنسان كله من أمجاد ومواهب وخيرات ، فكان صورة لأعلى قمة من الكمال يمكن أن يبلغها بشر ، فلا غرو إذا كان الذين قَبَسُوا منه ، وداروا في فلكه ، رجالاً يحيون بالنجدة والوفاء والسخاء .

إن الحب كالنبع الدافق يسيل وحده ، ولا يتكلف استخراج به الآلات والانتقال ، والأخوة لا تُفرض بقوانين ومراسم ، وإنما هي أثر تخلص الناس من نوازع الأثرة والشح والضعة .

وقد تُبدلت الأخوة بين المسلمين الأولين ، لأنهم ارتقوا - بالإسلام - في نواحي حياتهم كلها ، فكانوا عباد الله إخواناً ، ولو كانوا عبيد أنفسهم ما أبقى بعضهم على بعض .

وقد ظلت عقود الإخاء مقدمة على حقوق القرابة في توارث التركات إلى موقعة (بدر) حتى نزل قوله تعالى : ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾ ^(١) فالغنى التوارث بعقد الأخوة ، ورجع إلى ذوي الرحم .

* * *

أهداف المؤاخاة :

قال ابن حجر في الفتح : قال ابن عبد البر : كانت المؤاخاة مرتين : مرة بين المهاجرين خاصة وذلك بمكة ، ومرة بين المهاجرين والأنصار ، فهي المقصودة هنا .

وقال السهيلي : آخى بين أصحابه ليذهب عنهم وحشة الغربة ويتأسسوا من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد بعضهم أزر بعض ، فلما عز الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة أبطل الوارث وجعل المؤمنين كلهم إخوة وأنزل ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ يعني في التوادد وشمول الدعوة .

وأذكر ابن تيمية في « كتاب الرد على ابن الطهر الرافضي » المؤاخاة بين المهاجرين وخصوصاً مؤاخاة النبي ﷺ لعلني قال : لأن المؤاخاة شرعت لإرفاق بعضهم بعضاً ولتأليف قلوب بعضهم على بعض فلا معنى لمؤاخاة النبي لأحد منهم ولا لمؤاخاة مهاجري لمهاجري ، وهذا رد للنص بالقياس وإغفال عن حكمة المؤاخاة ، لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوى ، فأخى بين الأعلى والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعلى ويستعين الأعلى بالأدنى وبهذا تظهر مؤاخاته ﷺ لعلني ، لأنه هو الذي كان يقوم به من عهد الصبا من قبل البعثة واستمر ، وكذا مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة لأن زيدا مولاهم ، فقد ثبت أخوتها وهما من المهاجرين ، وسيأتي في عمرة القضاء قول زيد بن حارثة : إن بنت حمزة بنت أخي ، وأخرج الحاكم وابن عبد البر بسند حسن عن أبي الشعثاء عن ابن عباس : « آخى النبي ﷺ بين الزبير وابن مسعود » وهما من المهاجرين . قلت : وأخرجه الضياء في المختارة من المعجم الكبير للطبراني ، وابن تيمية يصرح بأن أحاديث المختارة أصح وأقوى من أحاديث المستدرک ، وقصة المؤاخاة الأولى أخرجها الحاكم من طريق جميع بن عمير عن ابن عمر : « آخى رسول الله ﷺ بين أبي بكر وعمر ، وبين طلحة والزبير ، وبين عبد الرحمن بن عوف وعثمان - وذكر جماعة قال - فقال علي : يا رسول الله إنك آخيت بين أصحابك فمن أخي ؟ قال « أنا أخوك » وإذا انضم هذا إلى ما تقدم تقوى به .

وحول المؤاخاة قال الدكتور مصطفى السباعي : في مؤاخاة الرسول بين المهاجرين والأنصار أقوى مظهر من مظاهر عدالة الإسلام الإنسانية الأخلاقية البناءة ، فالمهاجرون قوم تركوا في سبيل الله أموالهم وأراضيهم ، فجاؤوا المدينة لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً ، والأنصار قوم أغنياء بزروعهم وأموالهم وصناعاتهم . فليحمل الأخ أخاه ، وليقتسم معه سراء الحياة وضراءها ، ولينزله في بيته ما دام فيه متسع لها ، وليعطه نصف ماله ما دام غنياً عنه ، موفراً له ، فأية عدالة اجتماعية في الدنيا تعدل هذه الأخوة ؟

إن الذين ينكرون أن يكون في الإسلام عدالة اجتماعية ، قوم لا يريدون أن يبهز نور الإسلام أبصار الناس ويستولي على قلوبهم ، أو قوم جامدون يكرهون كل لفظ جديد ولو أحبه الناس وكان في الإسلام مدلوله ، وإلا فكيف تنكر العدالة الاجتماعية في الإسلام وفي تاريخه هذه المؤاخاة الفذة في التاريخ . وهي التي عقدها صاحب الشريعة محمد ﷺ بنفسه ، وطبقها بإشرافه .

* * *

فصل : في الترتيبات الدستورية

قال الأستاذ البوطي : روى ابن هشام أن النبي عليه الصلاة والسلام لم تمض له سوى مدة قليلة في المدينة حتى اجتمع له إسلام عامة أهل المدينة من العرب ، ولم يبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها ، عدا أفراداً من قبيلة الأوس . فكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم .

وقد ذكر ابن إسحاق هذا الكتاب بدون إسناد . وذكره ابن خيثمة فأسنده : حدثنا أحمد ابن جناب أبو الوليد ، ثنا عيسى بن يونس ، ثنا كثير بن عبد الله بن عمرو المزني عن أبيه عن جده أن رسول الله عليه السلام كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، فذكر نحو ما ذكره ابن إسحاق ، وذكره الإمام أحمد في مسنده فرواه عن سريج قال حدثنا عباد عن حجاج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار ... إلخ .

وقال الشيخ الغزالي في معرض كلامه عن أهم أعمال الرسول ﷺ بعد مقدمه المدينة : أما عن صلة الأمة بالأجانب عنها ، الذين لا يدينون بدينها ، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام قد سن في ذلك قوانين السباح والتجاوز التي لم تُعهد في عالم مليء بالتعصب والتغالي ، والذي يظن أن الإسلام دين لا يقبل حوار دين آخر ، وأن المسلمين قوم لا يستريحون إلا إذا انفردوا في العالم بالبقاء والتسلط ، هو رجل مخطئ بل متحامل جريء .

أقول : هذه الوثيقة التي ذكرها الأستاذان الكريمان لم تكن تنظم الحياة بين المسلمين وغيرهم فحسب ، بل كانت كذلك تنظم الحياة بين المسلمين أنفسهم ، وهذه الحادثة بالذات تعتبر أهم معلم يجب أن تضعه الحركة الإسلامية نصب عينيهما ، بل هذه الوثيقة تعتبر من أعظم السوابق الدستورية في تاريخ البشرية ، ففي مراحل متأخرة بدأت البشرية تفكر في كتابة الدساتير الناعمة لحياة الأمم في أطرها الكبرى ، فأن نرى ذلك في حياة رسول الله ﷺ في السنة الأولى لإقامة الدولة فتلك من معجزات الإسلام ، ولقد جهل ناس حاربوا

التقعيد الدستوري والقانوني لحياة شعوب الأمة الإسلامية ، كما أفرط ناس في التصورات السياسية حتى دخلوا معارك ضد مصطلحات لاهج في استعمالها ، وكل ذلك أثر عن تشنجات سقيمة لم يعرف أصحابها الحدود بين ما يحرم أخذه وما يجوز وما يفترض ، وبين ما لا يسوغ إغفاله وما يجب إبطاله له .

ومع أن هذه الوثيقة قد أوردها ابن إسحاق بلا إسناد فإن لها قوة كبرى من حيث إن ابن خيثمة قد أوردها بإسناد كما ذكر ذلك ابن سيّد الناس في عيون الأثر ، ومن حيث إن هناك نصوصاً ثابتة تشير إلى أن عقوداً ما قد تمت بين رسول الله ﷺ وبين اليهود ، وأن تعاقداً أبرمه رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار ولذلك فإن ابن كثير في البداية والنهاية قد لخص هذه الوثيقة وعنون لمضمونها وقدم لها بذكر بعض الأحاديث الصحيحة التي تشير إلى بعض مضمونها ، وعلى كل الأحوال فعلى مذهبنا الذي ذكرناه في مقدمة هذا القسم والذي اعتمدنا فيه أن إماماً من الأئمة عندما يذكر شيئاً بلا تكبير فذلك يدل على أن مذهبه اعتاد ما ذكره فإذا كان من أهل الاجتهاد في شأن فيما كاننا اتباعه فيه ، ولا أحد يشك أن ابن إسحاق إمام الأئمة في السيرة .

وها نحن نذكر بعض ما ذكره ابن كثير عن هذه الوثيقة : فقد قال بعد ذكره عقد الرسول عليه السلام الألفة بين المهاجرين والأنصار والمؤاخاة بينهم ، وموادعته اليهود الذين كانوا بالمدينة :

وكان بها من أحياء اليهود بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة ، وكان نزولهم بالحجاز قبل الأنصار أيام بخت نصر حين دُوح بلاد المقدس فيما ذكره الطبري ، ثم لما كان سيل العرم وتفرقت شذر مذر ، نزل الأوس والخزرج المدينة عند اليهود فحالفوهم وصاروا يتشبهون بهم لما يرون لهم عليهم من الفضل في العلم الماثور عن الأنبياء ، لكن من الله على هؤلاء الذين كانوا مشركين بالهدى والإسلام وخذل أولئك لحسدهم وبغيهم واستكبارهم عن اتباع الحق .

٢٥٠ - * روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : أن رسول الله ﷺ

كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار على أن يعقلوا معاقبتهم ، ويفدوا عانيهم بالمعروف والإصلاح بين المسلمين .

٢٥١ - * روى مسلم عن جابر . كتب رسول الله ﷺ : « على كل بطن عقوقه » .

وقال محمد بن إسحاق ^(١) : كتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وأدع فيه اليهود وعاهدتهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي الأمي بين المؤمنين والمسلمين من قریش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قریش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يقدون عانيهم بالمعروف والقسط ، ويتوبون عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقبتهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين » ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار ، وأهل كل دار : بني ساعدة ، وبني جشم ، وبني النجار ، وبني عمرو وبني عوف ، وبني النبيت ، إلى أن قال :

« وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل ، ولا يحالف مؤمن مؤلفاً مؤمن دونه ، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعهم ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافر على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أذناهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس وإنه من تبعنا من يهود ، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسأل مؤمن دون

٢٥١ - مسلم (١١٤٦ / ٢) ٢٠ كتاب العتق - ٤ - باب : تحريم تولي العتق غير مواليه .

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١١٩ / ٢) .

يتعاقلون معاقبتهم : يكونون على ما كانوا عليه من أخذ الديات عند قتل أحد وإعطائها . والمتعاقل جمع متعاقلة وهي الذبة والمقول جمع عقل وهي الذبة أيضاً .
عانيهم : أسيرهم .

ربعتهم : الحال التي جاء الإسلام وهم عليها .

المفرح : المتقل بالدين ، الكثير المعال .

فسيمة : عطية .

مُؤْمِنٍ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا عَلَى سَوَاءٍ وَعَدْلٍ بَيْنَهُمْ ، وَإِنْ كُلُّ غَارِيَةٍ غَزَتْ مَعَنَا يَعْقِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِيَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بَمَا نَالَ دِمَاءَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى أَحْسَنِ هَدًى وَأَقْوَمِهِ ، وَإِنَّهُ لَا يُجِيرُ مُشْرِكٌ مَالًا لِقَرِيشٍ وَلَا نَفْسًا وَلَا يَحُولُ دُونَهُ عَلَى مُؤْمِنٍ ، وَإِنَّهُ مَنْ اعْتَبَطَ مُؤْمِنًا قَتَلًا عَنْ بَيْنَةٍ فَإِنَّهُ قَوْدٌ بِهِ إِلَّا أَنْ يَرْضَى وَلِيُّ الْمَقْتُولِ ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ كَافَّةٌ وَلَا يَحِلُّ لَهُمْ إِلَّا قِيَامٌ عَلَيْهِ ، وَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَقْرَبُ بَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَمَّنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَنْصُرَ مُحَدِّثًا وَلَا يُؤْوِيَهُ ، وَإِنَّهُ مَنْ نَصَرَ أَوْ أَوَاهُ فَإِنَّ عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَغَضَبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ ، وَإِنَّكُمْ مَهْمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنْ الْيَهُودَ يَنْفَقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا دَامُوا مُحَارِبِينَ ، وَإِنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ وَمَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ فَإِنَّهُ لَا يُوتَغَى إِلَّا نَفْسُهُ وَأَهْلُ بَيْتِهِ ، وَإِنْ لِيَهُودِ بَنِي النَّجَّارِ وَبَنِي الْحَارِثِ وَبَنِي سَاعِدَةَ وَبَنِي جُشَمَ وَبَنِي الْأَوْسِ وَبَنِي ثَعْلَبَةَ وَجَفْنَةَ وَبَنِي الشُّطَيْبَةِ مِثْلُ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ ، وَإِنْ بَطَانَةُ يَهُودَ كَانَتْهُمْ ، وَإِنَّهُ لَا يُخْرِجُ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا بِإِذْنِ مُحَمَّدٍ ، وَلَا يَنْحُجُّ عَلَى نَارٍ جُرْحٌ ، وَإِنَّهُ مَنْ قَتَلَكَ فَبَنْفُسِهِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى أَيْمَنِ هَذَا ، وَإِنَّ عَلَى الْيَهُودِ نَفَقَتَهُمْ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ نَفَقَتَهُمْ ، وَإِنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ حَارَبَ أَهْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ ، وَإِنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْحَ وَالنَّصِيحَةَ وَالْبِرَّ دُونَ الْإِثْمِ ، وَإِنَّهُ لَمْ يَأْتِ أَمْرٌ بِحَلْفِهِ . وَإِنَّ النَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ وَإِنْ يَثْرِبَ حَرَامٌ جَوْفُهَا لِأَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ ، وَإِنَّ الْجَارَ كَالنَّفْسِ غَيْرَ مُضَارٍ وَلَا آثِمٍ ، وَإِنَّهُ لَا تُجَارَ حَرَمَةٌ إِلَّا بِإِذْنِ أَهْلِهَا ، وَإِنَّهُ مَا

يُجِيءُ : يَجِيءُ مِنَ السَّوَاءِ أَيْ الْمَسَاوَةِ ، يُقَالُ : بَا وَأَبَاءُ بِمَعْنَى سَاوَى .

قَوْدٌ : الْقِتَالُ . مُطْعِمًا : جَانِيًا . صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ : نَافِلَةٌ وَلَا فَرْضٌ أَوْ تَوْبَةٌ وَلَا فِدْيَةٌ .

لَا يُوتَغَى : أَيْ لَا يُؤْبَقُ وَهَلِكٌ . وَلَا يَنْحُجُّ عَلَى نَارٍ جُرْحٌ : لَا يَمْنَعُ صَاحِبُ حَقٍّ مِنْ حَقِّهِ فِي الْقِتَالِ .

وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى أَيْمَنِ هَذَا : أَيْ أَنَّ اللَّهَ رَاضٍ أَوْ شَهِيدٌ عَلَى أَيْمَنِ هَذَا الْعَقْدِ .

أَقُولُ : قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ : إِذَا كَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذَا الْكِتَابَ قَبْلَ أَنْ تَفْرُضَ الْجِزْيَةَ وَإِذَا كَانَ الْإِسْلَامُ ضَعِيفًا ، وَكَانَ

لِلْيَهُودِ إِذْ ذَاكَ نَصِيبٌ فِي الْمَعْمِ إِذَا قَاتَلُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ ، كَمَا شَرَطَ عَلَيْهِمْ فِي هَذَا الْكِتَابِ النِّفْقَةَ مَعَهُمْ فِي الْحُرُوبِ .

وَالْبِرَّ دُونَ الْإِثْمِ : أَيْ أَنَّ الْبِرَّ وَالْوَفَاءَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حَاجِزًا عَنِ الْإِثْمِ .

لَمْ يَأْتِ أَمْرٌ بِحَلْفِهِ : لَا يَحَاسِبُ الْحَلْفُ عَلَى جُرْمِ حَلْفِهِ .

كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوْ اشْتِجَارٍ يَخَافُ فَسَادَهُ ، فَإِنْ مَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى أَتَقَى مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَبْرَهُ ، وَإِنَّهُ لَا تَجَارُ قَرِيشَ وَلَا مِنْ نَصْرَهَا وَإِنْ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرِبَ ، وَإِذَا دُعُوا إِلَى صَلَاحٍ يُصَالِحُونَهُ وَيَلْبَسُونَهُ فَإِنَّهُمْ يَصَالِحُونَهُ وَيَلْبَسُونَهُ وَإِنَّهُمْ إِذَا دُعُوا إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، إِلَّا مَنْ حَارَبَ فِي الدِّينِ عَلَى كُلِّ أَنْاسٍ حِصَّتُهُمْ مِنْ جَانِبِهِمُ الَّذِي قَبْلَهُمْ ، وَإِنَّهُ لَا يَحُولُ هَذَا الْكِتَابُ دُونَ ظَالِمٍ أَوْ أَثِمٍ ، وَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ آمِنًا ، وَمَنْ قَعَدَ آمِنًا بِالْمَدِينَةِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ أَوْ أَثِمَ ، وَإِنَّ اللَّهَ جَارٌ لِمَنْ بَرَّ وَاتَّقَى . كَذَا أوردته ابن إسحاق بنحوه .

دروس من الصحيفة :

١ - هذه الوثيقة ضبطت العلاقة بين أبناء المجتمع المدني جميعهم مؤمنهم ومشرِكهم ويهوديهم ، ومن ههنا نأخذ أن على الحركة الإسلامية حيثما وجدت أن تفكر في الصيغة الدستورية التي تحكم العلاقات بين المسلمين وبين غيرهم ، والأمر في هذا الموضوع يختلف من وضع لوضع ومن قطر لقطر ومن ضعف لقوة ، ومن كثرة لقلّة ، ومن استخلاف لسعي نحو الاستخلاف ، والفتوى والشورى والمصلحة هي ضوابط هذا الأمر .

٢ - من تعبيرات هذه الوثيقة (وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم) هذا التعبير يفيد في المصطلحات الحالية أن كل المواطنين شعب واحد ، وفي هذا أبلغ ردّ على بعض المتشجّجين الذين تتسع دائرة المحرّمات عندهم حتّى تصل إلى كلّ شيء .

٣ - إنّ على الحركة الإسلامية المعاصرة أن تأتي الناس من حيث يعرفون بما لا يحلّ حراماً ولا يحرم حلالاً ولا يناقض نصّاً ولا فتوى ولا شورى ، فتلك هي مصلحة الإسلام والمسلمين في عصرنا ، وليس العكس كما يحلو لبعضهم أن يصوّر ، فليس مطلوباً منّا أن

لا تجار حرمه إلا ياذن أهلها : ليس لأحد أن يجير ذات حرمه لغيره إلا ياذن أهلها .
على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم : على كل قوم أن يدافعوا عن المدينة من جهتهم إذا دومت .

نصارى كل شيء ولا أن نغير كل شيء والقدر الذي يجب أن نغيره لسنا مطالبين بتغييره طرفة واحدة ، فهناك قضايا للإسلام فيها أكثر من حكم على حسب الضعف والقوة ، وهناك رخصة وعزيمة ، وأحكام أصلية وأحكام استثنائية ، وأنت مطالب بالممكن والمستطاع ، على حسب المرحلة والقدرة ، والفتوى والشورى من أهلها هما اللذان يضبطان السير .

٤ - إن فقه التحالفات وفقه الجهاد يشكلان الأساسين النظريين لاندفاع الحركة الإسلامية فما لم تدرك الجماعة الإسلامية دقائق هذا الفقه فإن حركتها تكون قاصرة أو عاجزة أو مبتورة .

٥ - علق الدكتور السباعي حول الوثيقة فقال : وفي الكتاب الذي عقد فيه الرسول الأخوة بين المهاجرين والأنصار ، والتعاون بين المسلمين وغيرهم جملة من الأدلة التي لا ترد على أن أساس الدولة الإسلامية قائم على العدالة الاجتماعية ، وأن أساس العلائق بين المسلمين وغيرهم - من مواطني الدولة الإسلامية - هو السلم ما سلموا ، وأن مبدأ الحق والعدل والتعاون على البر والتقوى والعمل بخير الناس ، ودفع أذى الأشرار عن المجتمع ، هو أبرز الشعارات التي تنادي بها دولة الإسلام ، وبذلك تكون الدولة الإسلامية أينما قامت ، وفي أي عصر نشأت قائمة على أقوم المبادئ وأعدلها ، وهي تنطبق اليوم على أكرم المبادئ التي تقوم عليها الدول ، وتعيش في ظلها الشعوب ، وإن العمل في عصرنا هذا لإقامة دول في مجتمعات إسلامية ترتكز قواعدها على مبادئ الإسلام عمل يتفق مع تطور الفكر الإنساني في مفهوم الدولة ، عدا أنه يحقق للمسلمين بناء مجتمع من أقوى المجتمعات وأكملها وأسهلها وأرقاها .

وأياً ما كان فإن من مصلحتنا أن تبني الدولة عندنا على أساس الإسلام ، وفي ترك ذلك خرابنا ودمارنا ، والإسلام لا يؤدي غير المسلمين في الوطن الإسلامي ، ولا يضطهد عقائدهم ، ولا ينتقص من حقوقهم ، ففيم الخوف من إلزام الدول في البلاد الإسلامية بتنفيذ شرائع الإسلام وإقامة أحكامه وهي كلها عدل وحق وقوة وإخاء وتكافل اجتماعي شامل على أساس من الإخاء والحب والتعاون الكريم ؟ إننا لن نخلص من الاستعمار ، إلا بالمناداة

بالإسلام ، وفي سبيل ذلك فليعمل العاملون ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ ^(١) ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ ^(٢) ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾ ^(٣) ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ﴾ ^(٤) ﴿ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ﴾ ^(٥) .

٦ - ومن تعليقات الدكتور سعيد رمضان البوطي على هذه الوثيقة ننقل ما يلي :

إن كلمة (الدستور) هي أقرب إطلاق مناسب في اصطلاح العصر الحديث ، على هذه الوثيقة ، وهي إذا كانت بمثابة إعلان دستور فإنه شمل جميع ما يمكن أن يعالجه أي دستور حديث يعني بوضع الخطوط الكلية الواضحة لنظام الدولة في الداخل والخارج : أي فيما يتعلق بعلاقة أفراد الدولة مع بعض ، وفيما يتعلق بعلاقة الدولة مع الآخرين .

وحسبنا هذا الدستور الذي وضعه رسول الله ﷺ بوحى من ربه واستكتبه أصحابه ، ثم جعله الأساس المتفق عليه فيما بين المسلمين وجيرانهم اليهود - حسبنا ذلك دليلاً على أن المجتمع الإسلامي قام منذ أول نشأته على أسس دستورية تامة ، وأن الدولة الإسلامية قامت - منذ أول بزوغ فجرها - على أتم ما قد تحتاجه الدولة من المقومات الدستورية والإدارية .

ومن هنا تسقط دعاوى أولئك الذين يغمضون أبصارهم وبصائرهم عن هذه الحقيقة البديهية ، ثم يزعمون أن الإسلام ليس إلا ديناً قوامه ما بين الإنسان وربه ، وليس له من مقومات الدولة والتنظيم الدستوري شيء ، وهي أحبولة عتيقة ، كان يقصد منها محترفو الغزو الفكري وأرقاء الاستعمار ، أن يقيدوا بها الإسلام كي لا ينطلق فيعمل عمله في المجتمعات

(١) الأعراف : ٩٦ .

(٢) الأنعام : ١٥٣ .

(٣) الطلاق : ٢ .

(٤) الطلاق : ٤ .

(٥) الطلاق : ٥ .

الإسلامية ، ولا يصبح له شأن قد يتغلب به على المجتمعات المنحرفة الأخرى ، إذ الوسيلة إلى ذلك محصورة في أن يكون الإسلام ديناً لا دولة ، وعبادات مجردة ، لا تشريعاً وقوانين . وحتى لو كان الإسلام ديناً ودولة في الواقع ، فينبغي أن يتغلب فيصبح غير صالح لذلك ، ولو بالكاذب القول .

إن هذه الوثيقة تدل على مدى العدالة التي اتسمت بها معاملة النبي ﷺ لليهود ، ولقد كان بالإمكان أن تؤتي هذه المسألة العادلة ثمارها فيما بين المسلمين واليهود ، لو لم تتغلب على اليهود طبيعتهم من حب للمكر والغدر والخديعة ، فما هي إلا فترة وجيزة حتى ضاقوا ذرعاً بما تضمنته بنود هذه الوثيقة التي التزموا بها ، فخرجوا على الرسول والمسلمين بألوان من الغدر والخيانة .

وقد دلت هذه الوثيقة على أحكام هامة في الشريعة الإسلامية نذكر منها ما يلي :

- يدلنا البند الأول منها على أن الإسلام هو وحده الذي يؤلف وحدة المسلمين وهو وحده الذي يجعل منهم أمة واحدة ، وعلى أن جميع الفوارق والمميزات فيما بينهم تذوب وتضمحل ضمن نطاق هذه الوحدة الشاملة ، تفهم هذا جلياً واضحاً من قوله عليه الصلاة والسلام « المسلمون من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، أمة واحدة من دون الناس » .

- إنها تدل على مدى الدقة في المساواة بين المسلمين لا من حيث إنها شعار براق للدعاية والعرض ، بل من حيث إنها ركن من الأركان الشرعية الهامة للمجتمع الإسلامي ، يجب تطبيقه بأدق وجه وأتم صورة .

- كما تدل أيضاً على أن الحكم العدل الذي لا ينبغي للمسلمين أن يهرعوا إلى غيره ، في سائر خصوماتهم وخلافاتهم وشؤونهم إنما هو شريعة الله تعالى وحكمه ، وهو ما تضمنه كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، ومهما بحثوا عن الحلول لمشاكلهم في غير هذا المصدر فهم آثمون ، معرضون أنفسهم للشقاء في الدنيا وعذاب الله تعالى في الآخرة .

فصل : في البيعة

٢٥٢ - * روى أحمد عن أم عطية قالت : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، جمع نساء الأنصار في بيت ، ثم أرسل إليهن عمر بن الخطاب ، فقام على الباب فسلم عليهن ، فرددن السلام فقال : « أنا رسول رسول الله ﷺ إليكن » فقلن مرحباً برسول الله ﷺ وبرسول رسول الله ﷺ فقال : « تباعن على أن لا تشركن بالله شيئاً ، ولا تسرقن ولا تزنين ولا تقتلن أولادكن ولا تأتين بهتان فتفترينه بين أيديكن وأرجلكن ولا تعصين في معروف » قلن : نعم فمد عمر يده من خارج الباب ، ومددن هن أيديهن من داخل ، ثم قال « اللهم اشهد » وأمر أن يخرج في العيدن العتق والحيض ونهيننا عن اتباع الجنائز ، ولا جمعة علينا ، فسألته عن البهتان ، وعن قوه ولا يعصينك في معروف ، قال : « هي النياحة » .

قال في عون المعبود في باب ما جاء في البيعة : (فأعطته) أي المرأة الميثاق للنبي ﷺ . وفي رواية البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي ﷺ يبايع النساء بالكلام بهذه الآية ﴿ لا يشركن بالله شيئاً ﴾^(١) قالت : ما مست يد رسول الله ﷺ إلا امرأة يملكها .

٢٥٢ - أحمد في مسنده (٤٠٨ / ٦) .

وأورده الإمام الهيثمي في جمع الزوائد (٢٨ / ٦) وقال : رواه أبو داود باختصار شديد ، ورواه أحمد وأبو يعلى والطبراني .

أم عطية : اسمها نسيبة بالتصغير ، بنت الحارث الأنصارية صحابة مشهورة .

أراد يقتل الأولاد : وأد البنات الذي كان يفعله (بعض العرب) في الجاهلية .

﴿ ولا تأتين بهتان يفترينه .. ﴾ الآية : المراد منه : من تلتقط مولوداً وتقول لزوجها : هذا ولدي منك .

﴿ ولا يعصينك في معروف .. ﴾ الآية : أي في كل أمر وافق طاعة الله وفي كل نهي عن معصية الله .

الحيض : بوزن عتق جمع حائض وهي المرأة زمن الحيض . والمراد أنهم يشهدن الحير ويكثرن مع الكثيرين وإن كن لا يصلين .

العتق : بضم العين المهملة وفتح المثناة فوق مشددة . جمع عاتق : وهي الشاة أول ماتدرك وقيل : التي لم تبن من والدتها ولم تتزوج وقد أدركت وشبت .

النوح : البكاء على الميت وتعدد محاسنه . وقيل : النوح بكاء مع الصوت ومنه نوح الحمام نوحاً .

(١) المتحنة : ١٢ .

قال النووي : فيه دليل على أن بيعة النساء بالكلام من غير أخذ كف وأن صوتها ليس بمعورة وأنه لا يمس بشرة الأجنبية من غير ضرورة ، كتطبيب وفصد وحجامة وقلع ضرس وكحل عين ونحوها مما لا توجد امرأة تفعله جاز للرجل الأجنبي فعله للضرورة .

٢٥٣ - * روى أحمد عن محمد بن الأسود بن خلف ، أن أباه حضر النبي يبيع الناس عند قرنٍ مسقلة ، فجاءه الرجال والنساء والصغار والكبار فبايعوه على الإسلام والشهادة . قيل : وما الشهادة ؟ فقال محمد بن الأسود : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

٢٥٤ - * روى أحمد عن سلمى بنت قيس وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ قد صلت معه القبلتين وكانت إحدى نساء بني عدي بن النجار . قالت : جئت رسول الله ﷺ فبايعته في نسوة من الأنصار ، فلما شرط علينا أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرقة ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي بيهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروفٍ قال : « ولا تفششن أزواجكن » قالت : فبايعناه ثم أنصرفنا ، فقلت لامرأةٍ منهن ارجعي فاسألي رسول الله ﷺ ما غش أزواجنا ؟ قالت ، فسألته ، فقال : « تأخذ ماله فتحابي به غيره »

* * *

٢٥٣ - أحمد في مسنده (٤١٥ / ٢) . والمعجم الكبير (٢٨٠ / ١) .

مجمع الزوائد (٢٧ / ٦) وقال : رواه الطبراني في الكبير والأوسط وأحمد باختصار ورجاله ثقات .

٢٥٤ - أحمد في مسنده (٣٧٩ / ٦) .

يهتان : الكذب للفتري .

ولا تفششن : من الغش ؛ وهو ضد النصح ، غشه : لم يحضه النصح أو أظهر له خلاف ما أخبره .

فصل : في الإذن بالقتال وبدء الحركة القتالية

الراجح عند علماء السير أن رسول الله ﷺ حرك ثلاث سرايا في السنة الأولى للهجرة وهي سرية سيف البحر وكان على رأسها حمزة بن عبد المطلب ، وسرية رابغ وكان على رأسها عبيدة بن الحارث بن المطلب ، وسرية الحرار وكان على رأسها سعد بن أبي وقاص .

وهذا يؤكد أن الإذن بالقتال كان في السنة الأولى للهجرة :

﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ (١) .

ومما يرجح أن الإذن بالقتال كان في السنة الأولى ، أنه بالهجرة قامت دولة ، ولا دولة إلا باستعداد لقتال ، وفي أصول هذا الكتاب إشارات لهذه السرايا المذكورة وفيها ذكر لاستعداد قريش للحرب :

٢٥٥ - * روى أحمد عن سعد بن أبي وقاص قال : لما قَدِمَ النبي ﷺ المدينة جاءتُ جُهَيْنَةُ فقالوا : إنك نزلت بين أظهرنا فأوثق لنا حتى نأتيك وتؤمنا ، فأوثق لهم فأسلموا ، فبعثنا صلى الله عليه وسلم في رجب ولم نكن مائة وأمرنا أن نغير على حيٍّ من كنانة إلى جنبِ جُهَيْنَةَ فأغرنا عليهم وكانوا كثيراً ، فلجأنا إلى جُهَيْنَةَ فنمونا وقالوا : لِمَ تقاتلون في الشهر الحرام ؟ فقلنا : إنما نقاتل من أخرجنا من البلد الحرام في الشهر الحرام ، فقال بعضنا لبعض : ما ترون ؟ فقال بعضنا : نأتي نبي الله ﷺ فنخبره ، وقال قوم : لا بل نقيم ههنا ، وقلت أنا في أناس معي : لا بل نأتي غير قريش فنقطعها فانطلقنا إلى العير وكان الفيء إذ ذاك من أخذ شيئاً فهو له فانطلقنا إلى العير ، وانطلق أصحابنا إلى النبي ﷺ فأخبروه الخبر فقام غضبانَ محمراً الوجه ، فقال : « أَذْهَبْتُمْ مِنْ عِنْدِي جِيعاً وَجِئْتُمْ مَتَفَرِّقِينَ ؟ إِنَّمَا أَهْلَكَ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْفُرْقَةُ ، لَأُبْعَثَنَّ عَلَيْكُمْ رَجُلًا لَيْسَ بَخِيرِكُمْ أَصْبِرْكُمْ عَلَى الْجُوعِ وَالْعَطَشِ » فبعث علينا عبد الله بن جحش الأسدي فكان أول أمير أمر في الإسلام .

(١) الحج : ٢٩ ، ٤٠ .

٢٥٥ - أحمد في مسنده (١ / ١٧٨) والحديث حسن على مذهب النسائي ، وضعفه بعضهم .

أقول : هذا نموذج آخر على التحالفات والتعاقدات التي كان يجريها رسول الله ﷺ ، والتي كانت لها ثمارها المباركة ، وأثارها الطيبة على المسلمين .

٢٥٦ - * روى الطبراني عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ، قال أبو جهل حين قَدِمَ مَكَّةَ مُنْصَرَفَهُ عَنْ حِمْرَةَ : يَامَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنْ عَمِدًا قَدْ نَزَلَ يَثْرِبَ وَأَرْسَلَ طَلَائِعَهُ ، وَإِنَّا يَرِيدُ أَنْ يُصِيبَ مِنْكُمْ شَيْئًا ، فَاحْذَرُوا أَنْ تَمُرُّوا طَرِيقَهُ وَأَنْ تُقَارِبُوهُ فَإِنَّهُ كَالْأَسَدِ الضَّارِي ... وزاد : بعث حِمْرَةَ حين بعثه النبي ﷺ إلى سيف البحر في ثلاثين راكباً من المهاجرين ، فلقي أبا جهل في ثلاث مائة راكب في عير لقريش جاءت من الشام فحجّر بينهم مجدي بن عوف الجهني ولم يكن قتالاً .

وهذه رواية جبير كاملة :

٢٥٧ - * روى الطبراني في الكبير عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قال : قَالَ أَبُو جَهْلُ بْنُ هِشَامٍ حِينَ قَدِمَ مَكَّةَ مُنْصَرَفَهُ عَنْ حِمْرَةَ : يَامَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنْ عَمِدًا قَدْ نَزَلَ يَثْرِبَ وَأَرْسَلَ طَلَائِعَهُ : وَإِنَّا يَرِيدُ أَنْ يُصِيبَ مِنْكُمْ شَيْئًا فَاحْذَرُوا أَنْ تَمُرُّوا طَرِيقَهُ وَأَنْ تُقَارِبُوهُ فَإِنَّهُ كَالْأَسَدِ الضَّارِي إِنَّهُ حَنَقٌ عَلَيْكُمْ ، تَقِيْتُمُوهُ تَقِيَّ الْقِرْدَانَ عَلَى الْمَنَاسِمِ ، وَاللَّهِ إِنْ لَهُ لَسُحْرَةٌ مَا رَأَيْتُهُ قَطُّ ، وَلَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَّا رَأَيْتَ مَعَهُمُ الشَّيَاطِينَ ، وَإِنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ عَدَاوَةَ ابْنِي قَيْلَةَ فَهُوَ عَدُوٌّ اسْتَعَانَ بَعْدُ فَقَالَ لَهُ مُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ : يَا أَبَا الْحَكَمِ وَاللَّهِ مَا رَأَيْتَ أَحَدًا

٢٥٦ - أوردته الميمني في مجمع الزوائد (٦ / ٦٨) وقال : أخرجه الطبراني وجادة ورجاله ثقات .

٢٥٧ - للصم الكبير (٢ / ١٢٣) قال أحمد بن صالح : أرجو أن يكون صحيحاً .

تَقِيْتُمُوهُ تَقِيَّ الْقِرْدَانَ عَلَى الْمَنَاسِمِ : أي تقيتموه كما يتقي القردان على المناسم . والقردان : حشرة تلتصق بجسم البعير ، والمناسم : مفردا منسم : خُفَّ البعير .

ابن قَيْلَةَ : يريد الأوس والخزرج قبيلتي الأنصار ، وقَيْلَةَ : اسم أم لهم قديمة ، وهي قبيلة بنت كاهل .

الحتموم خبر كنانة : افعلوا بهم كما فعلتم بكنانة في الحرب .

دهلك : جزيرة بين البر اليمن وبر الحبشة وأهلها مستذلون .

إن لي أسماء : أراد بهذه الأسماء التي عداها ما هو مذكور في كتب الله تعالى المنزل على الأمم التي كذبت بنبوته حجة عليهم .

يحشر الناس على يدي : أي الذي يحشر الناس خلفي وعلى ملتي دون ملة غيري .

العالمب : الذي ليس بعده نبي .

أَصْدَقَ لِسَانًا وَلَا أَصْدَقَ مَوْعِدًا مِنْ أَخِيكَ الَّذِي طَرَدْتُمْ ، فَإِذَا فَعَلْتُمْ الَّذِي فَعَلْتُمْ فَكُونُوا أَكْفَى النَّاسِ عَنْهُ . فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ : كُونُوا أَشَدَّ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ فَإِنَّ ابْنِي قَيْلَةَ إِنْ ظَفِرُوا بِكُمْ لَمْ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلاَ ذِمَّةَ ، وَإِنْ أَطَعْتُمُونِي أَلْحَمْتُوهُمْ خَبَرَ كِنَانَةَ أَوْ يُخْرِجُوا مُحَمَّدًا مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ فَيَكُونُ وَحِيدًا مَطْرُودًا . وَأَمَّا ابْنَا قَيْلَةَ فَوَاللَّهِ مَا هُمَا وَأَهْلُ دَهْلِكَ فِي الْمَذَلَّةِ إِلَّا سَوَاءٌ وَسَأُكْفِيكُمْ حَدَّهُمْ وَقَالَ :

سَأُتْنَحَ جَانِبًا مِنِّي غَلِيظًا عَلَى مَا كَانَ مِنْ قُرْبٍ وَبَعْدٍ
رِجَالُ الْحَزْرَجِيَّةِ أَهْلُ ذَلِكَ إِذَا مَا كَانَ هَزْلٌ بَشْدٍ جِدٍّ

فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَقْتُلُهُمْ وَلَا أَصْلَبُهُمْ لَا أَهْدِيَنَّهُمْ وَهُمْ كَارِهُونَ إِنِّي رَحْمَةٌ بَعَثَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا يَتَوَفَّانِي حَتَّى يُظْهَرَ اللَّهُ دِينَهُ . لِي خَمْسَةُ أَشْيَاءَ : أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكُفْرَ وَأَنَا الْحَاشِرُ يَحْشُرُ النَّاسَ عَلَى يَدَيَّ وَأَنَا الْعَاقِبُ » .

أَقُولُ : الْمُطْعَمُ بْنُ عَدِي وَأَبُو سَفْيَانَ كِلَاهُمَا مِنْ أَسْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنْفَرٍ ، وَكَانَ الْمُطْعَمُ أَوْصَلَ الرَّجُلِينَ لِرَحْمِهِ ، وَهُوَ الَّذِي أَجَارَ النَّبِيَّ ﷺ عِنْدَ عَوْدَتِهِ مِنَ الطَّائِفِ وَدَخُولِهِ مَكَّةَ .

وَالشَّاهِدُ مِنْ ذِكْرِهِ أَسْمَاءُ ﷺ أَنَّهُ الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ ، فَهُوَ وَاثِقٌ أَنَّهُ لَنْ يَتْرَكَ كَافِرًا مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ يَسْلَمَ أَوْ يَقْتُلَ .

٢٥٨ - * رَوَى الْحَاكِمُ عَنْ جَابِرِ بْنِ سَبْرَةَ قَالَ : أَوَّلَ مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ .

قَالَ فِي الْفَتْحِ : وَوَرَدَ عَنِ الْبُخَارِيِّ جُزْءٌ مِنْ حَدِيثِ سَعْدٍ : (إِنِّي لِأَوَّلِ الْعَرَبِ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) قَالَ : وَكَانَ ذَلِكَ فِي سَرِيَّةٍ عَبِيدَةَ بْنِ الْحَارِثِ ، وَكَانَ الْقِتَالُ فِيهَا أَوَّلَ حَرْبٍ وَقَعَتْ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَهِيَ أَوَّلُ سَرِيَّةٍ بَعَثَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي السَّنَةِ الْأُولَى

من الهجرة ، بعث ناساً من المسلمين إلى رابغ ليلقوا عيراً لقريش فتراموا بالسهم ولم يكن بينهم سابقة ، فكان سهمه أول ما رمي .

ذكر ذلك الزبير بن بكار بسند له وآخرون .

أقول : هذا وهناك خلاف بين كتّاب السير حول هذه السرايا الثلاث ، هل كانت في السنة الأولى أو الثانية ، وأياها كانت أولاً ، وقد رجّح ابن كثير أنها كانت في السنة الأولى ، وقد نص كتّاب السير على أن سرية حمزة وسريّة عبيدة بن الحارث لم يكن فيها أنصاري واحد ، وذلك من حكيمته عليه الصلاة والسلام . فمن خلال تحرّك الرعيّل الأول للجهاد تبدأ دائرة الحركة الجهاديّة تتوسع وتبدأ الروح الجهاديّة تعمّ ، ثم إن المهاجرين كانوا معبئين نفسياً للصراع مع قريش ، كما أنهم بحاجة إلى أن يتحرّروا من مظاهر الضعف وأسر الاضطهاد ، وهذه قضايا يجب أن يفتن لها القادة ، فنقل الأمة من طور السلم إلى طور الحرب ، ونقل الجماعات من طور الاضطهاد إلى دور الجهاد ينبغي أن تصحبه تمهيدات تعين عليه ، وبمثل هذا تظهر حكمة القيادات ، وكل قيادة لاتراعي الجوانب النفسية تحقّق .

ويلاحظ أنه بمجرد إذن الله بالقتال بدأت الحركة العسكريّة ، فلم ينتظر الرسول ﷺ حتّى يفرض القتال ، وهذا شيء ينبغي أن تراعيه القيادات الإسلامية ، فتقّ أصبح الجهاد ممكناً فليكن سير فيه ، ولكنّ هذا الموضوع يحتاج إلى موازنات كثيرة محلّية وعالمية فما يصلح لمكان لا يصلح لمكان ، وما يصلح في زمان لا يصلح في زمان آخر ، وتقدير الموقف واتخاذ القرار المناسب هما علامتا جيّد القيادات وكفاءتها .

ومن موقف أبي جهل وردّ المطعم بن عدي عليه نعرف حكمة الرسول ﷺ السياسيّة ، فإنّ تجعل من خصومك من يدافع عنك ، وأنّ تلقى الرعب في قلب عدوك ، تلك قفة من قم النجاح السياسي والعسكري ، وهكذا كانت البدايات ناجحة .

فصل : في أمور متفرقة

حدثت في السنة الأولى

هناك أحداث ذات دلالات حدثت في هذه السنة يحسن ذكرها :

١ - إسلام عبد الله بن سلام :

٢٥٩ - * روى ابن ماجه عن عبد الله بن سلام قال : لما قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينة اُنْجَلَّ الناسُ إليه ، وقيل : قَدِمَ رسولُ الله ﷺ ، فَجِئْتُ في الناسِ لَأَنْظُرَ إليه ، فلما اسْتَبْنْتُ وجهَ رسولِ الله ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وجهَهُ ليس بوجهِ كَذَّابٍ ، فكان أولُ شيءٍ تكَلَّمُ به ، أن قال : « يا أيُّها الناسُ أَفْشُوا السَّلامَ ، وَأَطِيعُوا الطَّعامَ ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسِ نِيَامًا ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلامٍ » .

٢٦٠ - * روى البخاري من طريق عبد العزيز عن أنس قال : فلما جَاءَ النبي ﷺ جاء عبدُ الله بنُ سلام فقال : أشهدُ أَنَّكَ رسولُ اللهِ وَأَنَّكَ جِئْتَ بِحَقٍّ ، وقد عَلِمْتُ يَهُودَ أَنِّي سَيِّدُهُمْ وَابْنُ سَيِّدِهِمْ وَأَعْلَمَهُمْ وَابْنُ أَغْلِهِمْ فَادْعُهُمْ فَاسْأَلُهُمْ عَنِّي قَبْلَ أَنْ يَعْلَمُوا أَنِّي قَدْ أَسَلَمْتُ فَإِنَّهُمْ إِنْ يَعْلَمُوا أَنِّي قَدْ أَسَلَمْتُ قَالُوا فِيَّ مَا لَيْسَ فِيَّ . فَأَرْسَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْيَهُودِ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ . فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ وَيُلُكِّمُ اتَّقُوا اللَّهَ فَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنْكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا وَأَنِّي جِئْتُكُمْ فَأَسْلِمُوا » قَالُوا : مَا نَعْلَمُ . قَالُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَارٍ . قَالَ « فَأَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ سَلامٍ » قَالُوا ذَاكَ سَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا وَأَعْلَمُنَا وَابْنُ أَعْلَمِنَا . قَالَ : « أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسَلَمَ » قَالُوا : خَاشَ اللَّهُ مَا كَانَ لِيُسَلَّمَ . قَالَ « يَا ابْنَ سَلامٍ أَخْرِجْ عَلَيْهِمْ » فَخَرَجَ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ يَهُودَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي لَا

٢٥٩ - ابن ماجه (١ / ٤٢٣) ٥ - كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - ١٧٤ - باب ما جاء في قيام الليل .

والترمذي (٤ / ٦٥٢) ٢٨ - كتاب صفة القيامة - باب : ٤٢ . وقال : حديث صحيح .

المُجَلَّلُ الناس : أقبل الناس لرؤية رسول الله ﷺ .

أفشوا : أنشروا .

٢٦٠ - البخاري (٧ / ٢٤٩) ٦٣ - كتاب مناقب الأنصار - ٤٥ - باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، وهذا جزء

من الحديث .

إِلَهُ إِلَّا هُوَ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَّهُ جَاءَ بِالْحَقِّ فَقَالُوا : كَذِبْتَ فَأَخْرَجَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

٢٦١ - * رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ قَالَ : لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَخْبَرَ عَبْدُ اللَّهِ بِقُدُومِهِ وَهُوَ فِي نَخْلِهِ فَأَتَاهُ ، فَقَالَ : إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ أَشْيَاءَ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا نَبِيُّ فَإِنْ أَخْبَرْتَنِي بِهَا أَمَنْتُ بِكَ وَإِنْ لَمْ تَعْلَمْهُمْ عَرَفْتُ أَنَّكَ لَسْتَ نَبِيٍّ ، قَالَ : فَسَأَلَهُ عَنِ الشَّيْءِ وَعَنْ أَوَّلِ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَعَنْ أَوَّلِ شَيْءٍ يَحْشُرُ النَّاسَ ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَخْبَرْتَنِي بِهِنِ جَبْرِيلُ أَنْفَأَ ، قَالَ : ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ ، قَالَ : أَمَّا الشَّيْءُ إِذَا سَبَقَ مَاءَ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ ذَهَبَ بِالشَّيْءِ وَإِذَا سَبَقَ مَاءَ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ ذَهَبَتْ بِالشَّيْءِ ، وَأَمَّا أَوَّلُ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فزِيَادَةُ كَيْدِ الْحَوْتِ ، وَأَمَّا أَوَّلُ شَيْءٍ يَحْشُرُ النَّاسَ فَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ فَتَحْشُرُهُمْ إِلَى الْمَغْرِبِ » فَأَمَّنَ ، وَقَالَ : أَشْهَدُ إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ . قَالَ ابْنُ سَلَامٍ : يَارَسُولَ اللَّهِ إِنْ الْيَهُودَ قَوْمٌ يَهْتَوُونَ بِإِسْلَامِي يَبْهَتُونِي فَأَخْبِئْنِي عِنْدَكَ وَابْعَثْ إِلَيْهِمْ فَتَسْأَلُهُمْ عَنِّي فَخَبَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَبَعَثَ إِلَيْهِمْ فَجَاؤُوا فَقَالَ : « أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ فَيَكُمُ » قَالُوا : هُوَ خَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا وَسَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا وَعَالِمُنَا وَابْنُ عَالِمِنَا . فَقَالَ : « أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ تَسْلِمُونَ » فَقَالُوا : أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ : « يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ أَخْرِجْ إِلَيْهِمْ فَأَخْبِرْهُمْ » فَخَرَجَ فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَقَالُوا : أَشْرَيْنَا وَابْنُ أَشْرِنَا وَجَاهِلُنَا وَابْنُ جَاهِلِنَا فَقَالَ ابْنُ سَلَامٍ : قَدْ أَخْبَرْتُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ الْيَهُودَ قَوْمٌ يَهْتَوُونَ .

أَقُولُ : إِنَّ إِسْلَامَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ عَلَى عِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ بَعْلَامَاتِ النَّبُوَّةِ ، وَبَعْدَ امْتِحَانِهِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، حُجَّةٌ كَامِلَةٌ عَلَى يَهُودٍ وَعَلَى غَيْرِهِمْ ، فَهَذَا الْمَوْقِفُ هُوَ اسْتِجَابَةُ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ وَالْإِنْصَافِ الْكَامِلِ ، وَمَتَى اجْتَمَعْنَا عِنْدَ فَرْدٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَإِنَّهُ لَا يَدَّ مُسْلِمٌ .

وَمِنْ النُّصُوصِ الَّتِي يَخْطِئُ فِي فَهْمِهَا بَعْضُ النَّاسِ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « وَأَمَّا الْوَلَدُ فَإِذَا سَبَقَ مَاءَ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ نَزَعَ » فَالسَّبْقُ هَهُنَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - سَبْقُ قُوَّةِ فِإِذَا

كانت بويضة الأنثى أقوى من الحيوان المنوي تغلبت خصائص المرأة على خصائص الرجل
فشاها الولد والعكس صحيح .

* * *

٢ - خروج وباء المدينة منها :

٢٦٢ - * روى البخاري عن ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « رَأَيْتُ امْرَأَةً سَوْدَاءَ ثَائِرَةَ الرَّأْسِ ، خَرَجَتْ مِنَ الْمَدِينَةِ ، حَتَّى قَامَتْ بِمِيعَةٍ » وَهِيَ الْجُحْفَةُ ، فَأَوَّلَتْ : أَنْ وَيَأَ الْمَدِينَةَ تَقْلُ إِلَيْهَا .

أقول : انتقل وباء المدينة إلى الجحفة كان معجزة لرسول الله ﷺ ، وأثراً عن بركه عليه الصلاة والسلام ، ولكننا نأخذ منه درساً كبيراً ؛ لأنه كان من فعل الله لرسوله عليه الصلاة والسلام ، ولذلك فإنّ على الحركة الإسلامية أن تعمل جاهدة من أجل إيجاد نظام صحي رفيع المستوى ، فإن كانت لها سلطة فعليها أن تبذل الجهود الكثيرة في ذلك ، وفي كل الأحوال عليها أن تساعد .

* * *

٣ - دخوله عليه الصلاة والسلام بعائشة :

٢٦٣ - * روى مسلم عن عائشة قالت : تزوّجني رسول الله ﷺ في شَوال ، وَبَنَى بِي فِي

٢٦٢ - البخاري (١٢ / ٤٢٥) ٩١ - كتاب التيمير - ٤١ - باب إذا رأى أنه أخرج الشيء من كوة وأسكنه موضعاً آخر ، والترمذي (٤ / ٥٤١) ٣٠ - كتاب الرؤيا - ١٠ - باب ما جاء في رؤيا النبي ﷺ لليزان والدلو . قال : حديث حسن صحيح غريب .

فاخرة الرأس : أي شِعْثَةُ الشَّعْرِ ، بعيدة العهد بالتسريح والفصل .
الجحفة : موضع بالحجاز على ثلاث مراحل من مكة على طريق المدينة ، وهي ميقات أهل الشام وكانت تسمى قديماً مهيمة ، وقد هجرت ولم يبق إلا آثارها ، وقد بُنِيَ فيها مسجدٌ حديثاً ، والرسول ﷺ يقص علينا في هذا الحديث رؤيا منامية رآها ورؤيا الأنبياء وحي ، ويبدو أن وباء المدينة كان مرض الملاريا الذي أصاب الصحابة أول هجرتهم ومنهم أبو بكر وبلال وعامر بن فهيرة وعائشة ..

٢٦٣ - مسلم (٢ / ١٠٢٩) ١٦ - كتاب النكاح - ١١ - باب : استحباب التزويج والتزويج في شوال ، واستحباب الدخول فيه .

شَوَّال ، فَأَيُّ نِسَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ أَحْظَىٰ عِنْدَهُ مِنِّي . قَالَ : وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَسْتَحِبُّ أَنْ تُدْخَلَ نِسَاءَهَا فِي شَوَّال .

قال ابن كثير في البداية والنهاية : فعلى هذا يكون دخوله بها عليه السلام بعد الهجرة بسبعة أشهر - أو ثمانية أشهر - وقد حكى القولين ابن جرير ، وقد تقدم في تزويجه عليه السلام بسودة كيفية تزويجه ودخوله بعائشة بعدما قدموا المدينة وأن دخوله بها كان بالسُّنْحِ نهاراً ، وهذا خلاف ما يعتاده الناس اليوم ، وفي دُخُولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَا فِي شَوَّالٍ رَدٌّ لما يتوهمه بعض الناس من كراهية الدخول بين العيدين خشية المفارقة بين الزوجين ، وهذا ليس بشيء لما قالته عائشة رادة على من توهمه من الناس في ذلك الوقت : تزوّجني في شَوَّال ، وبني بي في شَوَّال - أي دخل بي - في شَوَّال ، فَأَيُّ نِسَائِهِ كَانَ أَحْظَىٰ عِنْدَهُ مِنِّي ؟ فَدَلَّ هَذَا عَلَىٰ أَنَّهَا فَهَمَّتْ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهَا أَحَبُّ نِسَائِهِ إِلَيْهِ ، وهذا الفهم منها صحيح لما دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنَ الدَّلَائِلِ الْوَاضِحَةِ ، ولو لم يكن إلا الحديث الثابت في صحيح البخاري عن عمرو بن العاص : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : « عَائِشَةُ » قُلْتُ مِنْ الرِّجَالِ قَالَ : « أَتُوبُهَا » .

أقول : والملاحظ أَنَّ الدعوة والجهاد والتربية وما يترتب على ذلك من تعب وأحزان لم يعطل الزواج في حياة الرسول ﷺ وأصحابه ، بل الزواج والإكثار منه كان عادياً جداً في حياتهم كالطعام والشراب ، وذلك من مظاهر أَنَّ الإسلام دين الفطرة والواقع ، وفي ذلك أبلغ ردّ على المتحرّجين من هذه المعاني واللائمين لغيرهم عليها ، لكنّ الملاحظ كذلك أَنَّ الزواج في حياة الرسول ﷺ وأصحابه لم يؤخرهم عن واجب .

* * *

٤ - تشريع الأذان وإكمال الصلاة :

٢٦٤ - * روى أبو داود عن عبد الله بن زيد بن عبد ربه قَالَ : لما أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

٢٦٤ - أبو داود (١ / ١٣٥) كتاب الصلاة - باب : كيف الأذان .

وابن ماجه (١ / ٢٢٢) ٣ - كتاب الأذان والسنة فيها - ١ - باب بدء الأذان .

بِالنَّاقُوسِ يُعْمَلُ لِيُضْرَبَ بِهِ لِلنَّاسِ لَجْعٌ لِلصَّلَاةِ (وفي رواية وَهُوَ كَارَةٌ لِمُوَاقَفَتِهِ النَّصَارَى) طَافَ بِي وَأَنَا نَائِمٌ رَجُلٌ يَحْمِلُ نَاقُوسًا فِي يَدِهِ فَقُلْتُ : يَا عَبْدَ اللَّهِ أَتَبِيعُ النَّاقُوسَ ؟ قَالَ : مَا تَصْنَعُ بِهِ ؟ فَقُلْتُ : نَدْعُو بِهِ إِلَى الصَّلَاةِ ، قَالَ : أَفَلَا أَذْلِكَ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَقُلْتُ لَهُ : بَلَى ، قَالَ : تَقُولُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ ، اللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي غَيْرَ بَعِيدٍ ، ثُمَّ قَالَ : وَتَقُولُ إِذَا أَقَمْتَ الصَّلَاةَ : اللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ ، قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ ، قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا رَأَيْتُ فَقَالَ : « إِنَّهَا لَرُؤْيَا حَقٍّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَقُمْ مَعَ بِلَالٍ فَالْقِي عَلَيْهِ مَا رَأَيْتَ فَلْيُؤَذِّنْ بِهِ ، فَإِنَّهُ أُنْدَى صَوْتًا مِنْكَ » فَقُمْتُ مَعَ بِلَالٍ ، فَجَعَلْتُ أَلْقِيهِ عَلَيْهِ وَيُؤَذِّنُ بِهِ ، قَالَ : فَسَمِعَ ذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ فَخَرَجَ يَجْرُ رِدَاءَهُ وَيَقُولُ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ مِثْلَ مَا رَأَى ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « فَلِلَّهِ الْحَمْدُ » .

وَعَنْهُ مِنْ طَرِيقَ ثَانٍ بِنَحْوِهِ وَزَادَ : ثُمَّ أَمَرَ بِالتَّأْذِينِ فَكَانَ بِلَالٌ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ يُؤَذِّنُ بِذَلِكَ وَيَدْعُو رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى الصَّلَاةِ قَالَ ، فَجَاءَهُ قَدْعَاةُ ذَاتِ غَدَاةٍ إِلَى الْفَجْرِ ، فَقِيلَ لَهُ : إِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَائِمٌ ، قَالَ : فَصَرَخَ بِلَالٌ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : الصَّلَاةُ خَيْرٌ مِنَ النَّوْمِ ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ فَأَدْخَلَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي التَّأْذِينِ إِلَى صَلَاةِ الْفَجْرِ (أَدْخَلَتْ بِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ) .

٢٦٥ - * رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : فُرِضَتِ الصَّلَاةُ أَوَّلَ مَا فُرِضَتْ رَكْعَتَيْنِ ،

= وَأَحَدٌ فِي مُسْنَدِهِ (٤ / ٤٢١) وَابْنُ أَبِي حَتْمٍ (١ / ٢٩٠) .

وَابْنُ خُزَيْمَةَ (١ / ١٨٩) كِتَابُ الصَّلَاةِ - ٣١ - بَابُ فِي بَدْءِ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ .

أُنْدَى صَوْتًا : فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى اخْتِيَارِ الْمُؤَذِّنِ الْحَسَنَ الصَّوْتِ ، وَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْأَذَانُ بِالصَّوْتِ الرَّدِيئَةِ الْمُنْفَرَةِ فِي بَعْضِ أَقْطَارِ الْإِسْلَامِ وَكَانَ بِلَالٌ قَبْلَ إِسْلَامِهِ مَغْنِيًا حَسَنَ الصَّوْتِ بِالْفَنَاءِ .

= ٢٦٥ - الْبُخَارِيُّ (١ / ٤٦٤) ٨ - كِتَابُ الصَّلَاةِ - ١ - بَابُ : كَيْفَ فُرِضَتِ الصَّلَوَاتُ فِي الْإِسْرَاءِ ؟

فَأَقْرَتُ صَلَاةَ السَّفَرِ ، وَزَيْدٌ فِي صَلَاةِ الْحَضَرِ .

· قال ابن جرير : (وفي هذه السنة - يعني السنة الأولى من الهجرة - زيد في صلاة الحضر - فيما قيل - ركعتان ، وكانت صلاة الحضر والسفر ركعتين ، ذلك بعد مقدم النبي ﷺ المدينة بشهر في ربيع الآخر لمضي ثنتي عشرة ليلة مضت) .

أقول : إن دعوات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جميعاً تقوم على العبادة ۞ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ۞^(١) والعبادة مظهرها الأول الصلاة ، لذلك كان تشريع الصلاة وتنظيمها وإقامتها من أوائل ما وقع في الإسلام ، وما استمر به اهتمام رسول الله ﷺ ، وهذا شيء يجب أن يفتن له الدعاة دائماً وأبداً ، والصلاة لابد لها مع التأقيت من منظم ، ولقد كان الأذان هو المنظم وقد رأينا قصته وستأتي معنا في باب الصلاة أحكامه .

ومن استقرار أمر الصلاة في السنة الأولى ندرك أن أول ما ينبغي أن تهتم به الحركة الإسلامية قبل النصر وبعد النصر هو إقامة الصلاة :

۞ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ۞^(٢)

* * *

٥ - حراسة الصحابة لرسول الله ﷺ :

٢٦٦ - * روى مسلم عن عبد الله بن عامر رَحِمَهُ اللهُ قَالَ : سَمِعْتُ عَائِشَةَ تَقُولُ : سَهَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقْدَمَةَ الْمَدِينَةِ لَيْلَةً ، فَقَالَ : « لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي يَحْرُسُنِي

= ومسلم (١ / ٤٧٨) ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها - ١ - باب : صلاة المسافرين وقصرها .
(١) الأنبياء : ٢٥ .

٢٦٦ - مسلم (٤ / ١٨٧٥) ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة - ٥ - باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .
والبخاري (١٣ / ٢١٩) ٩٤ - كتاب التمني - ٤ - باب قوله ﷺ « ليت كذا وكذا » .

خشخشة سلاح : صوت سلاح صدم بعضه بعضاً .

غليظه : هو بالغين المعجمة . وهو صوت التائم المرتفع .

الليلة « قَالَتْ: قَبِينَا نَحْنُ كَذَلِكَ، سَمِعْنَا خَشْخَشَةَ سِلَاحٍ، فَقَالَ: «مَنْ هَذَا؟» قَالَ: سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا جَاءَ بِكَ؟» قَالَ: وَقَعَ فِي نَفْسِي خَوْفٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجِئْتُ أَحْزُسُهُ، فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ نَامَ.

وفي رواية نحوه، وفي آخره: فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى سَمِعْتُ غَطِيْطَهُ.

هذا الحديث فيه جواز الاحتراس من العدو والأخذ بالحزم وترك الإهمال في موضع الحاجة إلى الاحتياط. قال العلماء: وكان هذا الحديث قبل نزول قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (١) لَأَنَّهُ ﷺ ترك الاحتراس حين نزلت هذه الآية وأمر أصحابه بالانصراف عن حراسته، وقد صرح بروايته الثانية بأن هذا الحديث الأول كان في أول قدومه المدينة ومعلوم أن الآية نزلت بعد ذلك بأزمان.

وقد نقل الشيخ الشعراوي أن مستشرقاً أسلم بسبب هذا الموضوع وقال: إن اهتمام النبي ﷺ بحراسته ثم صرفه للحرس بعد ذلك بعد نزول الآية ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أكبر دليل على صدقه في رسالته عن الله فأَيُّ عاقل يصرف حراسته وله آلاف الأعداء الموتورين إلا أن يكون واثقاً من حراسة الله عز وجل له.

أقول: هذا وإن أمر الله عز وجل به المسلم أن يأخذ حذره قال تعالى: ﴿وَاخْذُوا حِذْرَكُمْ﴾ (٢) فالمسلم مطالب بالتوكل ومطالب بأخذ الأسباب، وليس الكمال أن يفرط الإنسان في الأخذ بأسباب الأمن، هذا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَكَلَ الْخَلْقَ يَرِغِبُ فِي الْحِرَاسَةِ. إِنَّ أَمْنِ الْقِيَادَاتِ يَشْكَلُ جُزْءاً هَاماً مِنْ أَمْنِ الشُّعُوبِ وَالْمُهَيْمِنَاتِ وَالْحُكُومَاتِ وَأَفْرَادِ الْجَمَاعَاتِ نَفْسَهَا، فَكَثِيراً مَا يَعْنِي وَجُودُ جِهَةٍ مَا بَقَاءَ قِيَادَتِهَا، وَعَلَى هَذَا فَإِنْ عَلَيْنَا أَنْ نَعْطِيَ لِأَمْنِ الْقِيَادَاتِ دَائِماً الْكَبِيرِ الْكَثِيرِ وَوَسَائِلَ ذَلِكَ مُتَعَدِّدَةً، وَبَعْضُ هَذِهِ الْوَسَائِلِ يَصْلُحُ لِمَا قَبْلَ الْحُكْمِ وَبَعْضُهَا يَصْلُحُ لِمَا بَعْدَ الْحُكْمِ، وَيَزِدَادُ الطَّلَبُ لِأَمْنِ الْقِيَادَاتِ بَعْدَ الْحُكْمِ، لِأَنَّ الْحُكْمَ الْإِسْلَامِي نَفْسَهُ يُسْتَهْدَفُ مِنْ خِلَالِ اسْتِهْدَافِ الْعُنَاصِرِ الْقِيَادِيَّةِ.

(١) المائدة: ٦٧.

(٢) النساء: ١٠٢.

تقويم الموقف في نهاية السنة الأولى

تنتهي السنة الأولى وقد نظّم الرسول ﷺ أمور العبادة والاجتماع والصلة التوجيهية المباشرة بالأمة ، كما صهر بين المهاجرين والأنصار وجعل المسلمين صفًا واحدًا وأوجد علاقات منضبطة بين المسلمين وغيرهم داخل المجتمع المدني ، وبدأ تحرّكات واسعة خارج المدينة هدفها توسعة دائرة أمن المدينة ، وفتح الطريق أمام انتشار الإسلام ، والضغط على قريش ، وأوجد للناس الكامل لتلقّي الأحكام والخضوع لها ، فأوجد بذلك كل مقومات الدولة النموذجية : أرض ودستور وقوانين وجيش ودعوة ورسالة وهدف . على رأس ذلك كلّه رئيس يسلم له الجميع ، وبدأت بذلك عملية مدّ الرسالة من خلال أمة لم يعرف لها العالم مثيلاً .

* * *

السَّنة الثَّانِيَّة لِلْهِجْرَةِ

هذه السنة في سطور

حوّلت في هذه السنة القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام ، ونزلت فريضة صيام شهر رمضان ، وفرضت زكوات الأموال وزكاة الفطر ، وتمّ تشريع المعاقلة لتصفية آثار القتل الخطأ وتوفيت رَقِيَّة بنت رسول الله ﷺ زوج عثمان بن عفان عقب غزوة بدر، وقدمت زينب بنت رسول الله مهاجرة من مكّة إلى المدينة ، وتزوَّج علي رضي الله عنه فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وكانت الحركة السياسيّة ممثلة في التحالفات ، والحركة العسكريّة ممثلة في البعث والسرايا والغزوات على أشدهما ؛ فتحقّق من خلال ذلك كلّ : أن توسّعت دائرة الأمن والنفوذ للدولة الإسلاميّة وأصبحت سيطرة المسلمين على الطريق بين مكّة والشام كاملة ، ولذلك حاولت قريش أن ترسل تجارتها بعد بدر عبر العراق ومع ذلك سقطت بيد المسلمين ، وترتّب على ذلك تلقائياً أن تأخذ المعارك منحى أكثر شدة وأوعب تعبئة ، وهذا عرض سريع للتحالفات ، وللحركة العسكريّة لهذا العام كما عرضها كتاب السير ، مع ملاحظة أنّ في تاريخ بعض السرايا والغزوات خلافاً بين كتاب السير ، وهو خلاف لا يترتّب عليه عمل ؛ لذلك لم نشدّه فيه .

* * *

١ - في تحالفات هذا العام :

قال ابن كثير في البداية والنهاية : ثم خرج رسول الله ﷺ غازياً في صفر على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه المدينة . قال ابن هشام : واستعمل على المدينة سعد بن عباد . قال ابن إسحاق : حتى بلغ ودّان وهي غزوة الأُبواء ، قال ابن جرير : ويقال لها غزوة ودّان أيضاً ، يريد قريشاً وبني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، فوادعته فيها بنو ضمرة ، وكان الذي وادعه منهم عثني بن عمرو الضمري ، وكان سيدهم في زمانه ذلك . ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلق كيداً فأقام بها بقية صفر وصدرًا من شهر ربيع الأول . قال ابن هشام : وهي أول غزوة غزاها عليه السلام .

وقال ابن كثير نقلاً عن ابن إسحاق : نزل العشيرة من بطن ينبع فأقام بها جمادى

الأولى وليالي من جمادى الآخرة ، ووادع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضَمرة ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا .

٢ - في الحركة العسكرية :

حدث في هذا العام :

١ - غزوة الأبواء أو وَدَّان : في صفر سنة ٢ هـ - وودَّان بالفتح والتشديد - موضع بين مكة والمدينة بينه وبين رابغ مما يلي المدينة تسعة وعشرون ميلاً ، والأبواء موضع بالقرب من وَدَّان .

قال في الرحيق المختوم : خرج رسول الله ﷺ بنفسه بعد أن استخلف على المدينة سعد ابن عباد في سبعين رجلاً من المهاجرين خاصة يعترض عيراً لقريش حتى بلغ ودان ، فلم يلق كيداً . اهـ .

وفي هذه الغزوة عقد معاهدة حلف مع مَخْشِي بن عمرو الضمري ، وكان سيد بني ضمرة في زمانه ، وهاك نص المعاهدة :

هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة ، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله ، ما بَلَّ بجر صَوْفَة ^(١) . وأن النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه . (المواهب اللدنية وشرحه للزرقاني) .

وهذه أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ ، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة ، وكان اللواء أبيض وحامله حزة بن عبد المطلب .

٢ - غزوة بُوَاط : في شهر ربيع الأول سنة ٢ هـ الموافق سبتمبر سنة ٦٢٣ م ، خرج رسول الله ﷺ في مائتين من أصحابه يعترض عيراً لقريش فيها أمية بن خلف الجمحي ومائة رجل من قريش ، وألفان وخمسمائة بعير ، فبلغ بواطاً من ناحية رَضوى ^(٢) ولم يلق كيداً .

(١) ما بَلَّ بجر صَوْفَة : تعبير دارج عند العرب بمعنى على الدوام .

(٢) بواط ورضوى : جبلان بينهما وبين المدينة أربعة برد .

واستخلف في هذه الغزوة على المدينة سعد بن معاذ ، واللواء كان أبيض ، وحامله سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه .

٣ - غزوة سفوان : في شهر ربيع الأول سنة ٢ هـ الموافق سبتمبر (أيلول) سنة ٦٢٣ م ، أغار كرز بن جابر الفهري في قوات خفيفة من المشركين على مراعي المدينة ، ونهب بعض المواشي ، فخرج رسول الله ﷺ في سبعين رجلاً من أصحابه لمطاردته ، حتى بلغ وادياً يقال له سفوان من ناحية بدر ، ولكنه لم يدرك كرزاً وأصحابه ، فرجع من دون حرب ، وهذه الغزوة تسمى بغزوة بدر الأولى .

واستخلف في هذه الغزوة على المدينة زيد بن حارثة ، وكان اللواء أبيض ، وحامله على ابن أبي طالب .

٤ - غزوة ذي العشيرة : في جمادى الأولى ، وجمادى الآخرة سنة ٢ هـ الموافق نوفمبر وديسمبر (تشرين الثاني وكانون الأول) سنة ٦٢٣ م ، خرج رسول الله ﷺ في خمسين ومائة ويقال : في مائتين من المهاجرين ، ولم يكره أحداً على الخروج ، وخرجوا على ثلاثين بعيراً يعتقبونها ، يعترضون عيراً لقريش ، ذاهبة إلى الشام ، وقد جاء الخبر بفصولها من مكة فيها أموال لقريش ، فبلغ ذا العشيرة ، فوجد العير قد فاتته بأيام ، وهذه هي العير التي خرج في طلبها حين رجعت من الشام ، فصارت سبباً لغزوة بدر الكبرى .

وكان خروجه ﷺ في أواخر جمادى الأولى ، ورجوعه في أوائل جمادى الآخرة على ما قاله ابن إسحاق ، ولعل هذا هو سبب اختلاف أهل السير في تعيين شهر هذه الغزوة . (وبعضهم يرى أن هذه الغزوة هي نفسها غزوة ودّان) .

وفي هذه الغزوة عقد رسول الله ﷺ معاهدة عدم اعتداء مع بني مدلج وحلفائهم من بني ضمرة .

واستخلف على المدينة في هذه الغزوة أبا سامة بن عبد الأسد المخزومي ، وكان اللواء في هذه الغزوة أبيض ، وحامله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه .

٥ - سرية نخلة : في رجب سنة ٢ هـ الموافق يناير سنة ٦٢٤ م ، بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش الأسدي إلى نخلة في اثني عشر رجلاً من المهاجرين كل اثنين يعتقبان

على بعير .

٦ - في السابع عشر من رمضان في السنة الثانية للهجرة حدثت واقعة بدر ، وكان خروج الرسول ﷺ من المدينة في ٨ أو في ١٢ من الشهر .

٧ - قال في الرحيق : نقلت استخبارات المدينة إلى النبي ﷺ بعد بدر أن بني سليم من قبائل غطفان تحشد قواتها للغزو على المدينة ، فباغت النبي ﷺ في مائتي راكب هذه القبائل المتحشدة في عقر دارها ، وبلغ إلى منازلهم في موضع يقال له الكدر^(١) . ففر بنو سليم وتركوا في الوادي خمسمائة بعير استولى عليها جيش المدينة ، وقسمها رسول الله ﷺ بعد إخراج الخمس فأصاب كل رجل بعيرين ، وأصاب غلاماً يقال له (يسار) فأعتقه .

وأقام النبي ﷺ في ديارهم ثلاثة أيام ، ثم رجع إلى المدينة وكانت هذه الغزوة في شوال سنة ٢ هـ بعد الرجوع من بدر بسبعة أيام ، واستخلف في هذه الغزوة على المدينة سباع بن عرفة . وقيل : ابن أم مكتوم .

٨ - وفي شوال سنة ٢ هـ حاصر رسول الله ﷺ بني قينقاع بعد تقضهم للعهد ، فنزلوا على حكمة فأجلاهم إلى الشام .

٩ - وفي هذه السنة حاول عمير بن وهب الجمحي اغتيال رسول الله ﷺ فكشف ، وكشفه الرسول ﷺ بأسراره فأسلم .

١٠ - وفي ذي الحجة سنة ٢ هـ حدثت غزوة السويق كرد على محاولة قريش أخذ ثأرها من بدر فارتدت على أعقابها هاربة ملاحقة من رسول الله ﷺ .

وقال في الرحيق : وقصة ذلك أنه بينما كان صفوان بن أمية واليهود والمنافقون يقومون بمؤامراتهم وعملياتهم كان أبو سفيان يفكر في عمل قليل المغارم ظاهراً الأثر ، يتمجّل به ، ليحفظ مكانة قومه ، ويبرز ما لديهم من قوة ، وكان قد نذر أن لا يس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً . فخرج في مائتي راكب ليبر يمينه ، حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له نيب ، من المدينة على بريد^(٢) أو نحوه ، ولكنه لم يجرؤ على مهاجمة المدينة جهاراً ، فقام

(١) الكدر : اسم ماء لبني سليم قبل نجد .

(٢) البريد : اثنا عشر ميلاً .

بعمل هو أشبه بأعمال القرصنة ، فإنه دخل في ضواحي المدينة في الليل مستخفياً تحت جنح الظلام ، فأتى حُيَّ بنَ أَخْطَبَ ، فاستفتح بابه ، فأبى وخاف فأنصرف إلى سَلَامَ بنِ مِشْكَمَ - سيد بني النضير ، وصاحب كنزهم إذ ذاك - فاستأذن عليه فأذن . فقراه وسقاه الخمر ، وبَطْنُ له من خبر الناس ، ثم خرج أبو سفيان في عقب ليلته حتى أتى أصحابه ، فبعث مفرزة منهم ، فأغارَت على ناحية من المدينة يقال لها « العَرِيضُ » ، فقطعوا وأحرقوا هناك أسواراً من النخل ، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لها فقتلوهما ، وفروا راجعين إلى مكة .

وبلغ رسول الله ﷺ الخبر ، فسارع لمطاردة أبي سفيان وأصحابه ، ولكنهم فروا ببالغ السرعة ، وطرحوا سويقاً^(١) كثيراً من أزوادهم وتمويناتهم يتخفون به ، فتمكنوا من الإفلات ، وبلغ رسول الله ﷺ إلى قرقرة الكدر^(٢) ، ثم انصرف راجعاً ، وحمل المسلمون ما طرحه الكفار من سويقهم ، وسموا هذه المناوشة بغزوة السويق . وقعت في ذي الحجة سنة ٢ هـ بعد بدر بشهرين ، واستعمل على المدينة في هذه الغزوة أبا لبابة بن عبد المنذر .

* * *

* وهكذا نجد في هذه السنة تلاحم عملية البناء للأمة مع الحركة السياسية والعسكرية على أشدها فالمسلمون في حركة عسكرية دائمة ، ومع هذه الحركة حركة سياسية تظهر بالتحالفات وقطع الطريق على تأليب الأعداء أو غدرهم مع تنزل التشريع شيئاً فشيئاً بما يعمق الوحدة وينير الطريق لتقوم صروح التشريع الإسلامي على أرضية الواقع والخلود .

* وبسبب من الانتصارات في هذه السنة فقد دخل مشركو المدينة في الإسلام ، فمنهم صادق ومنهم كاذب ومن ههنا بدأت ظاهرة النفاق في المدينة المنورة .

* ومن خلال الحركة السياسية والعسكرية ندرك أن : الحكم والدولة والسياسة تحتاج إلى يقظة وسهر دائم وأخذ بالأسباب وقوة مبادرة وكل ذلك نجده في حياة رسول الله ﷺ على

(١) السويق : أن تحمص الحنطة أو الشعير أو نحو ذلك ثم تطحن ثم يسافر بها وقد تمزج باللبن والعلل والسمن وإلا ملأه .

(٢) قرقرة الكدر : موضع بناحية الممدن ، بينها وبين المدينة ثمانية مرد .

أكمله ، وهناك تصرفات فعلها رسول الله ﷺ قد تكون منسوخة ، ولكن يبقى للنحى العام الذي سار عليه رسول الله ﷺ سُنَّةٌ ينبغي أخذها بعين الاعتبار ، فالحركة الدائمة والتحالفات المستمرة ستمتدح ينبغي أن تفتن لها الحركة الإسلامية المعاصرة مع الأخذ بعين الاعتبار الشورى والفتوى والمصلحة الإسلامية العليا .

* إن الذين يشتغلون بالعمل السياسي والعسكري يصبح في حكم البديهي عندهم أن النجاح في المعركة يقتضي أن تقطع طرق الإمداد عن عدوك ، وأن تحذل عنه ما استطعت ، وأن تبقي طرق إمدادك مفتوحة وتجمع حولك ما استطعت ، ومن لم تستطع أن تحشده معك فلا أقل أن تحيده في معركتك مع خصمك الرئيسي ، وبقدر نجاح القائد العسكري أو السياسي في مثل هذه الأمور تظهر عبقريته ، وقليلون من الساسة والعسكريين هم الذين يستطيعون أن يحققوا هذه المعاني متكاملة دون أن يرتكبوا خطأ ، وأقل من القليل الذين يستطيعون أن يفعلوا ذلك دون أن يتناقضوا مع دعواتهم ورسالتهم إن كان لهم دعوة أو رسالة ، ولكن رسول الله ﷺ حقق هذه المعاني مجتمعة على كمالها وقامها ، فأى شرف لهذا العالم أن يكون فيه مثل رسول الله ﷺ ؟ وأي قدوة للإنسان هذا الرسول ؟.

* وكل العسكريين والسياسيين يدركون أهمية الحركة الداخلية والخارجية في حياة الشعوب والجيوش كما يدركون أهمية التوعية والتربية والثقافة ، ولكن القلة هي التي تقدر على أن توائم بين هذه المعاني فتحققها جميعاً ، وأقل من القليل هم الذين تكون توعيتهم وتربيتهم وتشقيفهم حقاً وحركتهم ضمن الحدود التي لا تزيد ولا تنقص عن القدر المطلوب ، ولكن رسول الله ﷺ حقق هذه المعاني كلها على غاية من الكمال ما كانت لتكون لولا أنه رسول الله ﷺ .

وما حدث في هذه السنة نموذج ، ولا يعرف أحد أبعاد هذه المعاني إلا إذا استوعب نصوص الكتاب والسنة واستوعب دروس السيرة .

* ولما كان كثير من مواضيع السيرة تأتي في أمكنة متفرقة من كتب السنة ، فنحن هنا لن نتحدث عن الصغيرة والكبيرة من الحوادث والأحكام فلذلك مقاماته في هذا الكتاب ، ولذلك سنقتصر هنا على أبرز الأحداث .

فصل : في سرية عبد الله بن جحش

٢٦٧ - * روى الطبراني عن جندب بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه بعث رَهْطاً وَبَعَثَ عَلَيْهِمْ أَبَا عبيدة فلما ذهب لينطلق ، بكى صابئة إلى رسول الله ﷺ فجلس ، فَبَعَثَ عَلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ مَكَانَهُ ، وَكَتَبَ لَهُ كِتَاباً وَأَمَرَهُ أَنْ لَا يَقْرَأَ الْكِتَابَ حَتَّى يَبْلُغَ مَكَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَقَالَ : « لَا تُكْرِهَنَّ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِكَ عَلَى الْمَسِيرِ مَعَكَ » ، فَلَمَّا قَرَأَ الْكِتَابَ اسْتَرْجَعَ وَقَالَ : سَمِعْتُ وَطَاعَةَ اللَّهِ وَلِرَسُولِهِ ، فَخَبَرَهُمُ الْخَبَرَ وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ ، فَرَجَعَ رَجُلَانِ ، وَمَضَى بَقِيَّتُهُمْ ، فَلَقُوا ابْنَ الْحَضْرَمِيِّ فَقَتَلُوهُ ، وَلَمْ يَذَرُوا أَنْ ذَلِكَ الْيَوْمُ مِنْ رَجَبٍ أَوْ جَدَادٍ ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ : قَتَلْتُمْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ﴾ الْآيَةِ . فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنْ لَمْ يَكُونُوا أَصَابُوا وَزُرُوا فَلَيْسَ لَهُمْ أَجْرٌ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(١) .

٢٦٨ - روى الطبراني عن زيد قال : أَوَّلُ رَايَةٍ رُفِعَتْ فِي الْإِسْلَامِ رَايَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ ، وَأَوَّلُ مَالٍ خُمَسَ فِي الْإِسْلَامِ مَالُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ .

لقد رأينا أن هناك سرايا سبقت سرية عبد الله بن جحش هذه ، كما أن هناك غزوة قادها رسول الله ﷺ نفسه وهي غزوة العشيرة ، وكانت قبل هذه السرية فالأولية بالنسبة لعلم الراوي ، وعلى كل الأحوال فلسرية عبد الله بن جحش هذه أهمية كبيرة في التاريخ ؛ فهي التي مهدت لتجاوز فكرة تحريم القتال في الأشهر الحرم ، فلقد انطلق الصحابة بعد ذلك وكل أيامهم جهاد ، ولو بقيت فكرة تحريم القتال في الأشهر الحرم وهي تلك السنة لأصيب المسلمون بالحرج ، ومع ذلك فقد بقي رسول الله ﷺ يلاحظ قدسية الأشهر الحرم

٢٦٧ - للمعجم الكبير (٢ / ١٦٢) . مجمع الزوائد (٦ / ١٩٨) وقال : رواه الطبراني ورجاله ثقات .

الرهط : الجماعة من ثلاثة أو سبعة إلى عشرة أو مائة العشرة .

صابئة : الشوق أو رقة وحرارته .

استرجع : عن مصيبة وفيها أرجع ، وأرجع في المصيبة قال : إنا لله وإنا إليه راجعون .

(١) البقرة : ٢١٨ .

٢٦٨ - أورده الميمني (٦ / ٦٧) وقال رواه الطبراني بإسناد حسن .

عند العرب وتجنبهم فيها القتال وذلك من مراعاة للرأي العام ، وبعضهم يرى أنّ نسخ تحريم القتال في الأشهر الحرم جاء متأخراً ولا أرى ذلك .

* * *

دروس من هذه السرية :

١ - قال الشيخ الفزالي تعليقا على هذه الحادثة : ووجد المشركون فيما حدث فرصة لاتهم المسلمين بأنهم قد أحلوا ما حرم الله وكثر في ذلك القيل والقال ، حتى نزل الوحي حاسماً هذه الأقاويل ومؤيداً مسلك عبد الله تجاه المشركين .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ (١) .

إن الضجة التي افتعلها المشركون لإثارة الريبة في سيرة المقاتلين المسلمين لا مساغ لها ، فإن الحرمات المقدسة قد انتهكت كلها في محاربة الإسلام واضطهاد أهله ! فما الذي أعاد لهذه الحرمات قداستها فجأة ، فأصبح انتهاكها معرّة وشناعة ؟

ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين تقرر قتل نبيهم وسلب أموالهم ؟ لكن بعض الناس يرفع القوانين إلى السماء عندما تكون في مصلحته ، فإذا رأى هذه المصلحة مهددة بما ينتقضها هدم القوانين والدساتير جميعاً .

فالقانون المرعي - عنده في الحقيقة - هو مقتضيات هذه المصلحة الخاصة فحسب .

وقد أوضح الله عز وجل أن المشركين لن يحجزهم شهر حرام أو بلد حرام عن المضي في خططهم الأصلية ، وهي سحق المسلمين ، حتى لا تقوم لدينهم قائمة فقال : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ (٢) .

ثم حذر المسلمين من الهزيمة أمام هذه القوى الباغية والتفريط في الإيمان الذي شرفهم

(١) البقرة : ٢١٧ .

(٢) البقرة : ٢١٧ .

الله به ، وناطَ سعادتهم في الدنيا والآخرة بالبقاء عليه فقال : ﴿ وَمَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَمِثُّ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١) .

وزكى القرآن عمل « عبد الله » وصحبه ، فقد نفذوا أوامر الرسول بأمانة وشجاعة وتوغلوا في أرض العدو ومسافات شاسعة ؛ متعرضين للقتل في سبيل الله متطوعين لذلك من غير مكره أو عرج .

فكيف يُجْزَوْنَ على هذا بالتقريع والتخويف ؟ قال الله فيهم :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) .

والقرآن في فعال هذه السرية ، لم يدع مجالاً للهوادة مع المشركين المعتدين مما كان له أثره البعيد لدى المسلمين وخصومهم .

فبعد أن كان أغلب المكتتبين في السرايا السابقة من المهاجرين ، أخذت البعث الخارجة تتألف من المهاجرين والأنصار معاً .

وزاد الشعور بأن الكفاح المرتقب قد يطول مداه ، وتكثر تبعاته ، ولكنه كفاح مستحب ، مقرون بالخير العاجل والآجل .

وأدركت مكة أنها مؤاخذه بما جد أو يجد من سيئاتها ، وأن تجارتها مع الشام أمست تحت رحمة المسلمين .

وهكذا اتسعت الهوة ، وزادت بين الفريقين الجفوة .

وكان هذه الأحاديث الشداد هي المقدمة لما أعده القدر بعد شهر واحد من وقوعها عندما جمع رجال مكة . وخيرة أهل المدينة على موعد غير منظور في « بدر » .

(١) البقرة : ٢١٧ .

(٢) البقرة : ٢١٨ .

٢ - لقد جاء قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾ قبيل الآية التي تحدّثت عن سرية عبد الله بن جحش ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ﴾ وقد ربطنا في تفسيرنا بين آية القتال وهنا وبين سورة الأنفال ربطاً غير متعمّد ولا متكلّف ، فهنا يأتي قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾ ^(١) وفي سورة الأنفال يأتي قوله تعالى : ﴿ مَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ ^(٢) فغزوة بدر كانت هي المصادقة لحكمة فرضية القتال ، فهي التي صدّقت أنّ القتال وإن كان مكروهاً للنفس البشرية لكنّ فيه خيراً لأهل الإيمان ، وبدر هي الدليل ، فكم ترتّب من خير على غزوة بدر .

* * *

الحكمة في السرايا :

- كان مما قاله الدكتور محمد أبو فارس حول فوائد إرسال السرايا والمناوشات الأولى :
- إحياء قضية المهاجرين في أنفسهم وعلى المستوى الخارجي : فهم مظلومون مطاردون قد صودرت أموالهم وضيق عليهم في حرية التفكير والقول والتعبّد ، وبالتالي كان لابد من إحيائها في نفوسهم ليسمعوها للآخرين ، وأنه بدون السلاح لا يمكن أن يعطي الآخرون أذنّاً صاغية للمستضعفين .
 - إنهاك الاقتصاد القرشي ومحاصرته ، فقد كانت قريش تعتمد على التجارة وكذلك استعادة بعض الحقوق المسلوبة .
 - إضعاف قريش عسكرياً وتوجيه ضربة قاصمة لسمعة قريش لإلقاء الرعب في صفوف مقاتليها وإرباكهم .
 - رفع معنويات المهاجرين وجعلهم يحطمون الخوف ، وإلقاء الرعب في نفوس المشركين

(١) البقرة : ٢١٦ .

(٢) الأنفال : ٥ .

وتحطيم معنوياتهم ورصد تحركات قريش .

- التعرف على طبيعة الأرض التي سيقاتلون عليها .

- وهذه المناوشات استمرار للتدريب العملي وتربية الكفاءة القتالية عند الجنود في التخطيط والتنفيذ ، وفيها تعويد على السَّريّة في التحرك والقتال ، وفيها اختبار للرجال والتعرف على معادهم .

- وفي المناوشات إرهاب العدو الداخلي في المدينة ، وإضعاف جبهة الأعداء الخارجية ، مع اختبار قدرة العدو ، وفوائد أخرى .

* * *

فصل : في تحويل القبلة

قال صاحب الرحيق المختوم : في شعبان سنة ٢هـ الموافق فبراير (شباط) ٦٢٤م ، أمر الله تعالى بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام ، وأفاد ذلك أن الضعفاء والمنافقين من اليهود الذين كانوا قد دخلوا في صفوف المسلمين ، لإثارة البلبلة انكشفوا عن المسلمين ورجعوا إلى ما كانوا عليه ، وهكذا تطهرت صفوف المسلمين عن كثير من أهل الغدر والخيانة .

وفي تحويل القبلة إشارة لطيفة إلى بداية دور جديد لا ينتهي إلا بعد احتلال المسلمين هذه القبلة ، أو ليس من العجب أن تكون قبلة قوم بيد أعدائهم ، وإن كانت بأيديهم فلا بد من تخليصها يوماً ما .

٢٦٩ - * روى البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً ، أو سبعة عشر شهراً وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت ، وأنه صلى - أو صلاها - صلاة القصر ، وصلى معه قوم ، فخرج رجل ممن صلى معه ، فرأى على أهل المسجد وهم راكعون ، قال : أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ - قبل مكة فذاؤوا كما هم قبل البيت .

قال : وفي رواية : وكان الذي مات على القبلة - قبل أن تحول قبل البيت - رجالاً قتلوا لم ندر ما نقول فيهم ؟ فأنزل الله عز وجل ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ (١) .

وفي أخرى (٢) : وكان رسول الله ﷺ يحب أن يوجه إلى الكعبة ، فأنزل الله عز وجل ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء ﴾ فتوجه نحو الكعبة ، وقال السفهاء من الناس - وهم اليهود - ﴿ ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ (٣) .

٢٦٩ - البخاري (٨ / ١٧١) ٦٥ - كتاب التفسير - ١٢ - باب : ﴿ سيقول السفهاء من الناس ﴾ .

(١) البقرة : ١٤٣ .

(٢) البخاري (١ / ٥٠٢) ٨ - كتاب الصلاة - ٣١ - باب التوجه نحو القبلة حيث كان .

(٣) البقرة : ١٤٢ .

وأخرجه الترمذي ^(١) قال : لما قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ ، صَلَّى نحوَ بيت المقدسِ سِتَّةَ ، أو سبعةَ عشرَ شهراً ، وكان رسولُ الله ﷺ يُحِبُّ أَنْ يُوَجَّهَ إِلَى الكَعْبَةِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ ^(٢) فَوَجَّهَ نَحْوَ الكَعْبَةِ ، وَكَانَ يُحِبُّ ذَلِكَ ، فَصَلَّى رَجُلٌ مَعَهُ الْعَصْرَ ، ثُمَّ مَرَّ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَهُمْ رُكُوعٌ فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ . فَقَالَ : هُوَ يَشْهَدُ أَنَّهُ صَلَّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَنَّهُ قَدْ وَجَّهَ إِلَى الكَعْبَةِ ، فَأَخْرَفُوا وَهُمْ رُكُوعٌ .

وأخرجه النسائي ^(٣) قال : قدم رسول الله ﷺ المدينةَ ، فَصَلَّى نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عشرَ شهراً ، ثُمَّ إِنَّهُ وَجَّهَ إِلَى الكَعْبَةِ ، فَمَرَّ رَجُلٌ قَدْ كَانَ صَلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ وَجَّهَ إِلَى الكَعْبَةِ ، فَأَخْرَفُوا إِلَى الكَعْبَةِ .

٢٧٠ - * روى الطبراني عن ثُوَيْلَةَ بِنْتِ أَسْلَمَ وَهِيَ مِنَ الْمُبَايَعَاتِ قَالَتْ : إِنَّا لَبِمَقَامِنَا نُصَلِّي فِي بَنِي حَارِثَةَ ، فَقَالَ عَبَادُ بْنُ بَشْرٍ بْنُ قِبْطِيٍّ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ اسْتَقْبَلَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ وَالْكَعْبَةَ ، فَتَحَوَّلَ الرِّجَالُ مَكَانَ النِّسَاءِ وَالنِّسَاءُ مَكَانَ الرِّجَالِ ، فَصَلُّوا الرُّكْعَتَيْنِ الْبَاقِيَتَيْنِ نَحْوَ الكَعْبَةِ .

٢٧١ - * روى الطبراني عن سهل بن سعد أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَلَمَّا حَوَّلَ أَنْطَلَقَ رَجُلٌ إِلَى أَهْلِ قُبَاءَ فَوَجَدَهُمْ يُصَلُّونَ صَلَاةَ الْغَدَاةِ ، فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ أَنْ يُصَلَّى إِلَى الكَعْبَةِ فَاسْتَدَارَ إِمَامُهُمْ حَتَّى اسْتَقْبَلَ بِهِمُ الْقِبْلَةَ .

(١) الترمذي (١٦٩ / ٢) أبواب الصلاة - باب ما جاء في ابتداء القبلة وقال : حديث حسن صحيح وكذا في (٥ /

٢٠٧) كتاب تفسير القرآن - ١ - باب : ومن سورة البقرة .

قِبَلَ الْبَيْتِ : أَيِ حِذَاهُ ، وَجْهَتُهُ الَّتِي تَقَابِلُهُ .

شَطْرَ الْمَسْجِدِ : جِهَتُهُ وَنَحْوَهُ

(٢) البقرة : ١٤٤ .

(٣) النسائي (١ / ٢٤٣) كتاب الصلاة - باب فرض القبلة .

٢٧٠ - للمعجم الكبير (٢٤ / ٢٠٧) . أورده الهيثمي (٢ / ١٤) وقال : رواه الطبراني في الكبير ، ورجاله موثقون .

٢٧١ - أورده الهيثمي (٢ / ١٤) وقال : رواه الطبراني ورجاله موثقون .

صلَاةُ الْغَدَاةِ : هِيَ صَلَاةُ الْفَجْرِ .

دروس من تحويل القبلة :

١ - قال الأستاذ الندوي : وكان المسلمون العرب - وقد رضعوا بلبان حب الكعبة وتعظيمها ، وامتزج ذلك بلحومهم ودمائهم - لا يعدلون بالكعبة بيتاً ، ولا بقبلة إبراهيم وإسماعيل قبله ، وكانوا يحبون أن يصرف إلى الكعبة ، وكان في جعل القبلة إلى بيت المقدس عنة للمسلمين ، ولكنهم قالوا : سمعنا وأطعنا وقالوا : آمنا به كل من عند ربنا ، فلم يكونوا يعرفون إلا الطاعة لرسول الله ﷺ والخضوع لأوامر الله ، وافقت هوام أم لم توافقها ، واتفقت مع عاداتهم أم لم تتفق .

فلما امتحن الله قلوبهم للتقوى واستسلامهم لأمر الله ، صرف رسوله والمسلمين إلى الكعبة يقول القرآن :

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾ (١) .

٢ - إنَّ لحادثة تحويل القبلة أبعاداً كثيرة : منها السياسي ، ومنها العسكري ، ومنها الديني البحت ، ومنها التاريخي

فبعدها السياسي أنَّها جعلت الجزيرة العربية محور الأحداث ، وبعدها التاريخي أنَّها ربطت هذا العالم بالإرث العربي لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وبعدها العسكري أنَّها مهدت لفتح مكة وإنهاء الوضع الشاذ في المسجد الحرام حيث أصبح مركز التوحيد مركزاً لعبادة الأصنام ، وبعدها الديني أنَّها ربطت القلب بالحنيفية وميزت الأمة الإسلامية عن غيرها ، والعبادة في الإسلام عن العبادة في بقية الأديان .

* * *

عدد غزواته ﷺ :

٢٧٢ - * روى البخاري عن أبي إسحاق قال : كنت إلى جنب زيد بن أرقم ف قيل له : كم غزا النبي ﷺ من غزوة ؟ قال : تسع عشرة قال : كم غزوت أنت معه ؟ قال : سبع عشرة ، قلت : فأينهم كانت أول ؟ قال : ذات العُشَيْرِ أو العُسَيْرِ . فذكرت لقتادة فقال : العُسَيْرِ .

٢٧٣ - * روى الشيخان عن بريدة قال : غزا رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة ، قاتل في ثمانٍ منهن .

قال ابن حجر : قوله (تسع عشرة) كذا قال ، ومراده الغزوات التي خرج النبي ﷺ فيها بنفسه سواء قاتل أو لم يقاتل ، لكن روى أبو يعلى من طريق أبي الزبير عن جابر أن عدد الغزوات إحدى وعشرون ، وإسناده صحيح وأصله في مسلم ، فعلى هذا فات زيد بن أرقم ذكر ثنتين منها ولعلهما الإبواء وبواط ، وكأن ذلك خفي عليه لصفه ، ويؤيد ما قلته ما وقع عند مسلم بلفظ (قلت ما أول غزوة غزاها ؟ قال : ذات العشير أو العشيّة) أهـ ، والعشيّة كما تقدم هي الثالثة .

وأما قول ابن التين : يحمل قول زيد بن أرقم على أن العشيّة أول ما غزا هو ، أي زيد ابن أرقم ، والتقدير : فقلت ما أول غزوة غزاها أي وأنت معه ؟ قال : العشير فهو محتمل أيضاً ، ويكون قد خفي عليه ثنتان مما بعد ذلك . أو عد الغزوتين واحدة ، فقد قال موسى ابن عقبة : « قاتل رسول الله ﷺ بنفسه في ثمان : بدر ثم أحد ثم الأحزاب ثم المصطلق ثم خيبر ثم مكة ثم حنين ثم الطائف ، وأهل غزوة قريظة ؛ لأنه ضمها إلى الأحزاب لكونها كانت في إثرها ، وأفردها غيره لوقوعها منفردة بعد هزيمة الأحزاب ، وكذا وقع لغيره عد

٢٧٢ - البخاري (٧ / ٢٧٩) ٦٤ - كتاب المغازي - ١ - باب غزوة العُسَيْرِ أو العُسَيْرِ .

ومسلم (٣ / ١٤٤٧) ٣٢ - كتاب الجهاد والسير - ٤٩ - باب غزوات النبي ﷺ .

والترمذي (٤ / ١٩٤) ٢٤ - كتاب الجهاد - ٦ - باب ما جاء في غزوات النبي ﷺ وكم غزا .

٢٧٣ - البخاري (٨ / ١٥٣) ٦٤ - كتاب المغازي - ٨١ - باب كم غزا النبي ﷺ .

ومسلم (٣ / ١٤٤٨) ٣٢ - كتاب الجهاد والسير - ٤٩ - باب عدد غزوات النبي ﷺ .

الطائف وحنين واحدة لتقاربها ، فيجتمع على هذا قول زيد بن أرقم وقول جابر .

وقد توسع ابن سعد فبلغ عدة المغازي التي خرج فيها رسول الله ﷺ بنفسه سبعاً وعشرين ، وتبع في ذلك الواقدي ، وهو مطابق لما عده ابن إسحاق إلا أنه لم يفرد وادي القرى من خير ، أشار إلى ذلك السهيلي ، وكان الستة الزائدة من هذا القبيل ، وعلى هذا يحمل ما أخرجه عبد الرزاق بإسناد صحيح عن سعيد بن المسيب قال : غزا رسول الله ﷺ أربعاً وعشرين ، وأخرجه يعقوب بن سفيان عن سلمة بن شبيب عن عبد الرزاق فزاد فيه أن سعيداً قال أولاً : ثمان عشرة ، ثم قال : أربعاً وعشرين ، قال الزهري : فلا أدري أوم أو كان شيئاً سمعه بعد . قلت : وحله على ما ذكرته يدفع الوم ويجمع الأقوال ، والله أعلم . وأما البعث والسرائيا فعد ابن إسحق ستاً وثلاثين وعد الواقدي ثمانياً وأربعين . وحكى ابن الجوزي في (التلخيص) ستاً وخمسين ، وعد المسعودي ستين ، وبلغها شيخنا في « نظم السيرة » زيادة على السبعين ، ووقع عند الحاكم في « الإكليل » أنها تزيد على مائة ، فلعله أراد ضم المغازي إليها . اهـ .

لقد كانت مرحلة عجيبة في تاريخ البشرية برجالها وأعمالها وبمجموع ما تم ، ويكفي أنها وضعت الأمة الإسلامية على طريق الانطلاق في حيوية متجددة ، وأنها أسلمت الإسلام لهذا العالم هادياً قوياً دائم التوسع والانتشار ، وجعلت العالم القديم كله أمام خيار وحيد إما أن يسلم للحق أو يستسلم لأهله .

* * *

فصل : في غزوة بدر

تمهيد :

لبدر أهمية كبيرة في السيرة النبوية وفي التاريخ الإسلامي ، فلقد تركت بصماتها على كل معارك الإسلام ، فلا تجد اندفاعاً نحو الجهاد إلا ودروس بدر وراءه ، بل إن سورة الأنفال التي نزلت بسببها هي التي اعتاد المسلمون أن يقرؤوها بين يدي القتال ، وأن يدرسوها كلما أرادوا جهاداً ، ولقد كانت بدر معلماً بارزاً بين مرحلتين مرحلة الضعف ومرحلة القوة ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾ (١) .

ولذلك فقد وجد بعدها النفاق ومن قبل كان كفر وإيمان فقط ، ولقد حقق الله عز وجل بها وعوداً كثيرة وعدّها رسول الله ﷺ والمسلمين وأنجز فيها وعيداً كثيراً كان تهدّد به الكافرين ، وعنها وبها وجدت كثير من أحكام القتال المستقرّة وأدابه المستترّة ، إن القتال يتفرّع عنه الغنمة والأسر ، ولم تنج أمة من الخداع الأخلاقي في شأن الغنائم والأسارى إلا هذه الأمة ، ولقد كانت غزوة بدر هي الفاتحة لإقامة الصرح الأخلاقي الأعلى في هاتين القضيتين وغيرها .

كان عدد المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً معهم قرّسان وحوالي سبعين بعيراً ، وكان المشركون ألفاً وثلاثمائة ابتداء ، تقلّصوا إلى حوالي ٩٥٠ انتهاء ، معهم حوالي مائة فرس وستائة درع وأعداد كبيرة من الجمال ، وهؤلاء عرب وهؤلاء عرب ، ومع ذلك كانت النتيجة أن هُزِمَ المشركون وانتصر المسلمون ، وكانت هزيمة عجيبة غير متوقّعة على ضوء عالم الأسباب ، قتل من المشركين سبعون وأسر سبعون وفرّ الباقيون بينما قتل من المسلمين أربعة عشر رجلاً ، ستّة من الأنصار وثمانية من المهاجرين ، إنّه في موازين المادّة لأمر عجيب ، ولكنّه في الموازين الإيمانيّة نتيجة عادية ، إنّها إرادة الله التي لا يقف أمامها شيء ، وهذه هي عبرة بدر الكبرى .

(١) آل عمران : ١٢٣ .

عندما تلتقي قوتان ماديتان ، ففي ميزان الأسباب تتغلب الأوزان في قوانين الكون ، فإذا تعادل السلاح والأرض والمقاتلون والقيادة والوسائل فلا انتصار لإحدى القوتين ، وإذا حدث التفاضل فالميزان في النهاية لمن فضل ، وإرادة الله غالبية ، أمّا في الموازين الإيمانية فالنصر من عند الله ولو قلت الإمكانيات أمام الإمكانيات ، ففي غزوة بدر كان المشركون متفوقين من بعض النواحي ، وكان المسلمون متفوقين من بعض النواحي ، ولكن يبقى تفوق المشركين من الناحية المادية أوضح ولكن جند الله غلب بفضل الله عز وجل .

اجتمع على المشركين البطر والفرور والرياء والشقاق وعدم وحدة القيادة ، واجتمع للمسلمين أن خذل الله بعض المشركين فانسحبوا ، وأنزل الله مطراً قبيل المعركة كان لصالح المسلمين ، وأرى الله عز وجل المشركين المسلمين ضعفيهم أثناء القتال فوهنوا ، وأنزل ملائكة وقذف رعباً ، وكان رسول الله ﷺ هو القائد وهو أحب قائد في التاريخ لجنده مع طاعة لا مثيل لها ، واجتمع مع الحب والطاعة للقائد الدعاء والشورى والإقبال على الشهادة والتنافس على الآخرة ، وبذل الجهد في القتال وإحكام الرأي وتجنب الظلم والبغي وحسن الترتيب والتنظيم والسبق إلى الأمكنة الاستراتيجية ، وكلها توفيقات سياسية وتأييدات ، وللمسلمين مثلها ، ومن ثمّ كان لبدر هذا الشأن العظيم في التاريخ الإسلامي وعند المسلمين فهي كما قال الأستاذ الندوي :

فكل ما حدث من فتوح وانتصارات ، وكل ما قام من دول وحكومات ، مدين للفتح المبين في ميدان بدر ، ولذلك سمى الله هذه المعركة بـ « يوم الفرقان » فقال :

﴿ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقْيِ الْمَجْمَعِ ۖ ﴾^(١)
اهـ .

ولأهمية بدر قد ذكرها الله في سورة آل عمران كما أنزل فيها سورة كاملة هي سورة الأنفال ، وقد عرضنا ذلك في التفسير ، وههنا نعرض بدرّاً من خلال النصوص الحديثية .

* * *

١ - مقدمات الغزوة

٢٧٤ - * روى أبو داود عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك رضي الله عنها عن رجل من أصحاب النبي ﷺ : أَنَّ كُفَّارَ قَرِيشٍ كَتَبُوا إِلَى ابْنِ أَبِي، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ مَعَهُ الْأَوْثَانُ مِنَ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ بِالْمَدِينَةِ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرَ :

إِنَّكُمْ أَوَيْتُمْ صَاحِبِنَا - وَإِنَّا نُقَسِّمُ بِاللَّهِ لَنُقَاتِلَنَّ أَوْ لَنُخْرِجَنَّ ، أَوْ لَنَسِيرَنَّ إِلَيْكُمْ بِأَجْعِنَا ، حَتَّى نَقْتُلَ مُقَاتِلَتَكُمْ ، وَنُسْتَبِيحَ نِسَاءَكُمْ - فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ عِبْدَةِ الْأَوْثَانِ اجْتَمَعُوا لِقِتَالِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ لَقِيَهُمْ فَقَالَ : « لَقَدْ بَلَغَ وَعِيدُ قَرِيشٍ مِنْكُمْ الْمَبَالِغَ ، مَا كَانَتْ تَكِيدُكُمْ بِأَكْثَرِ مَا تَرِيدُونَ أَنْ تَكِيدُوا بِهِ أَنْفُسَكُمْ ، تَرِيدُونَ أَنْ تَقَاتِلُوا أَبْنَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ » فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ تَفَرَّقُوا ، فَبَلَغَ ذَلِكَ كُفَّارَ قَرِيشٍ ، فَكَتَبَتْ كُفَّارَ قَرِيشٍ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ إِلَى الْيَهُودِ : إِنَّكُمْ أَهْلُ الْحَلَقَةِ وَالْحِصُونِ وَإِنَّكُمْ لَنُقَاتِلَنَّ صَاحِبِنَا ، أَوْ لَنَنْفَعُنَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خِدْمِ نِسَائِكُمْ شَيْءٌ - وَهِيَ الْخِلَاحِيلُ - فَلَمَّا بَلَغَ كِتَابُهُمُ النَّبِيَّ ﷺ : اجْتَمَعَتْ بَنُو النَّضِيرِ ، بِالْفَدْرِ ، فَأَرْسَلُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : أَخْرِجْ إِلَيْنَا فِي ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِكَ ، وَيَخْرُجْ مِنَّا ثَلَاثُونَ حَبْرًا ، حَتَّى نَلْتَقِيَ بِمَكَانِ الْمَنْصَفِ ، فَيَسْمَعُوا مِنْكَ ، فَإِنْ صَدَّقُوا وَآمَنُوا بِكَ ، آمَنَّا بِكَ ، فَقَصَّ خَبْرَهُمْ ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْكَتَائِبِ فَحَصَرَهُمْ ، فَقَالَ لَهُمْ : « إِنَّكُمْ وَاللَّهِ لَا تَأْمَنُونَ عِنْدِي إِلَّا بَعْدَ تَعَاهِدُونِي عَلَيْهِ » ، فَأَتَوْا أَنْ يُعْطَوْهُ عَهْدًا ، فَقَاتَلَهُمْ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ ، ثُمَّ عَدَا الْغَدَ عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ بِالْكَتَائِبِ ، وَتَرَكَ بَنِي النَّضِيرِ ، وَدَعَاهُمْ إِلَى أَنْ

٢٧٤ - أبو داود (٢ / ١٥٦) كتاب الخراج والإمارة والفتى - باب في خبر النضير .

لستبيح : استباحتهم : نههم وسببهم والتصرف فيهم .

وعيد : الوعيد : التخويف والتهديد .

تكيدكم : كاده يكيد : إذا مكر به وخدعه .

الحلقة : بسكون اللام : الدرع . وقيل : اسم جامع للسلح .

حبر : الحبر : العالم العاقل .

منصف : المنصف بالفتح : نصف الطريق ، أراد : أنهم يجتمعون في موضع لا يميل إلى جهة ولا جهتهم ، ليكون

أعدل وأقرب إلى الأمن .

الكتائب : جمع كتيبة ، وهي الجيش .

يَعَاهِدُوهُ ، فَعَاهَدُوهُ ، فَأَنْصَرَفَ عَنْهُمْ ، وَغَدَا عَلَى بَنِي النَّضِيرِ بِالْكَثَائِبِ ، فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى الْجَلَاءِ ، فَجَلَّتْ بَنُو النَّضِيرِ ، وَاحْتَمَلُوا مَا أَقْلَتِ الْإِبِلُ مِنْ أَمْتَعَتِهِمْ ، وَأَبْوَابُ بِيوتِهِمْ وَخَشَبُهَا ، فَكَانَ نَخْلُ بَنِي النَّضِيرِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَاصَةً ، أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا ، وَخَصَّهَ بِهَا ، فَقَالَ : ﴿ وَمَا أَهَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ مَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ ^(١) .

يَقُولُ : بَغِيرِ قِتَالٍ ، فَأَعْطَى النَّبِيَّ ﷺ أَكْثَرَهَا لِلْمُهَاجِرِينَ ، وَقَسَمَهَا بَيْنَهُمْ وَقَسَمَ مِنْهَا لِرَجُلَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَكَانَا ذَوِي حَاجَةٍ ، وَلَمْ يَقْسِمِ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَنْصَارِ غَيْرَهَا ، وَبَقِيَ مِنْهَا صَدَقَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّتِي هِيَ فِي أَيْدِي بَنِي فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .

٢٧٥ - * رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَدَّثَ عَنْ سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ أَنَّهُ قَالَ : كَانَ صَدِيقًا لَأُمِّيَّةَ بْنِ خَلْفٍ ، وَكَانَ أُمِّيَّةٌ إِذَا مَرَّ بِالْمَدِينَةِ نَزَلَ عَلَى سَعْدٍ ، وَكَانَ سَعْدٌ إِذَا مَرَّ بِمَكَّةَ نَزَلَ عَلَى أُمِّيَّةَ ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ : انْطَلَقَ سَعْدٌ مُعْتَبِرًا ، فَتَزَلَّ عَلَى أُمِّيَّةَ بِمَكَّةَ ، فَقَالَ لَأُمِّيَّةَ : انْظُرْ لِي سَاعَةَ خُلُوةٍ ، لَعَلِّي أَطُوفُ بِالْبَيْتِ ، فَخَرَجَ بِهِ قَرِيبًا مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ ، فَلَقِيَهَا أَبُو جَهْلٍ ، فَقَالَ : يَا أَبَا صَفْوَانَ ، مَنْ هَذَا مَعَكَ ؟ فَقَالَ : هَذَا سَعْدٌ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ : أَلَا أَرَاكَ تَطُوفُ بِمَكَّةَ آمِنًا ، وَقَدْ زَعَمْتُمْ أَوَيْتُمْ الصُّبَاةَ ، وَزَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ تَنْصُرُونَهُمْ وَتُعِينُونَهُمْ ، أَمَا وَاللَّهِ ، لَوْلَا أَنْكَ مَعَ أَبِي صَفْوَانَ مَا رَجَعْتَ إِلَى أَهْلِكَ سَالِيًا ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ - وَرَفَعَ صَوْتَهُ عَلَيْهِ - : أَمَا وَاللَّهِ ، لَنْ مَنَعْتَنِي هَذَا لِأَمْنَتِكَ مَا هُوَ أَشَدُّ عَلَيْكَ مِنْهُ : طَرِيقَكَ عَلَى الْمَدِينَةِ ، فَقَالَ لَهُ أُمِّيَّةُ : لَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ يَا سَعْدُ عَلَى أَبِي الْحَكَمِ سَيَدِ

= الْجَلَاءِ : النَّفْيِ عَنِ الْأَوْطَانِ .

أَقْلَتِ الْإِبِلُ : الْأَحْمَالُ ، أَيْ : حَمَلَتَهَا .

مَا أَهَاءَ اللَّهُ : الْغِيءُ : مَا يَحْصِلُ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ أَمْوَالِ الْكُفَّارِ مِنْ غَيْرِ حَرْبٍ وَلَا قِتَالٍ .

أَوْجَفْتُمْ : الْإِجْبَافُ : الْإِسْرَاعُ وَالْحَثُّ فِي السَّيْرِ ، وَأَرَادَ بِهِ : الْإِسْرَاعُ فِي الْقِتَالِ .

رِكَابُ : الرِّكَابُ جَمَاعَةُ الْإِبِلِ فَوْقَ الْعِشْرَةِ .

(١) الْحِشْرُ : ٦ .

٢٧٥ - الْبُخَارِيُّ (٧ / ٢٨٢) ٦٤ - كِتَابُ الْغَزَايِ - ٢ - بَابُ : ذِكْرِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ يَقْتُلُ بَيْدَرٍ .

الصُّبَاةُ : جَمْعُ صَابٍ ، وَهُوَ الَّذِي فَارَقَ دِينَهُ إِلَى غَيْرِهِ .

اسْتَنْفَرُوا : اسْتَنْفَرُوا : طَلَبُ النَّصْرَةِ مِنَ النَّاسِ ، لِيَنْفِرُوا مَعَهُ إِلَى مَقْصَدِهِ .

الْعَرِيجُ : الصَّاحِبُ ، وَهُوَ الَّذِي يَسْتَنْجِدُ النَّاسَ .

أهل الوادي ، فقال سعد : دَعْنَا عَنْكَ يَا أُمَيَّةُ ، فَوَاللَّهِ ، لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ « إِنَّهُمْ قَاتِلُوكَ » ، قال : بِمَكَّةَ ؟ قَالَ : لَا أَذْرِي ، فَفَزِعَ لِدَلِكْ أُمَيَّةُ فَرَعَا شَدِيداً ، فَلَمَّا رَجَعَ أُمَيَّةُ إِلَى أَهْلِهِ ، قَالَ : يَا أُمُّ صَفْوَانَ ، أَلَمْ تَرِي مَا قَالَ لِي سَعْدُ ؟ قَالَتْ : وَمَا قَالَ لَكَ ؟ قَالَ : زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا أَخْبَرَهُمْ : أَنَّهُمْ قَاتِلِي ، فَقُلْتُ لَهُ : بِمَكَّةَ ؟ قَالَ : لَا أَذْرِي . فقال أُمَيَّةُ : وَاللَّهِ لَا أَخْرَجُ مِنْ مَكَّةَ ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ اسْتَنْفَرَ أَبُو جَهْلٍ النَّاسَ ، فَقَالَ : أَذْرِكُوا عَيْرَكُمْ ، فَكَّرَةِ أُمَيَّةُ أَنْ يَخْرُجَ ، فَأَتَاهُ أَبُو جَهْلٍ ، فَقَالَ : يَا أَبَا صَفْوَانَ ، إِنَّكَ مَتَى مَا يَرَاكَ النَّاسُ قَدْ تَخَلَّفْتَ ، وَأَنْتَ سَيِّدُ أَهْلِ الْوَادِي : تَخَلَّفُوا مَعَكَ ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ أَبُو جَهْلٍ حَتَّى قَالَ : أَمَا إِذْ غَلَبَتْنِي ، فَوَاللَّهِ ، لِأَشْتَرِينَ أَجُودَ بِعِيرِ بِمَكَّةَ ، ثُمَّ قَالَ أُمَيَّةُ : يَا أُمُّ صَفْوَانَ ، جَهِّزِيْنِي ، فَقَالَتْ لَهُ : يَا أَبَا صَفْوَانَ ، وَقَدْ نَسِيتَ مَا قَالَ لَكَ أَخُوكَ الْيَثْرِي ؟ قَالَ : لَا ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَجُوزَ مَعَهُمْ إِلَّا قَرِيباً ، فَلَمَّا خَرَجَ أُمَيَّةُ أَخَذَ لَا يَنْتَزِلُ مَنْزِلاً إِلَّا عَقَلَ بِعِيرِهِ ، فَلَمْ يَزَلْ بِذَلِكَ حَتَّى قَتَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِبَدْرٍ .

وفي رواية نحوه ، إِلَّا أَنْ فِيهِ : فَجَعَلَ أُمَيَّةُ يَقُولُ لِسَعْدٍ : لَا تَرْفَعُ صَوْتَكَ ، وَجَعَلَ يُمَسِّكُهُ ، فَغَضِبَ سَعْدُ ، فَقَالَ : دَعْنَا مِنْكَ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ مُحَمَّدًا ﷺ : يَزْعُمُ أَنَّهُ قَاتِلُكَ ، قَالَ : إِيَّايَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : وَاللَّهِ ، مَا يَكْذِبُ مُحَمَّدٌ إِذَا حَدَّثَ ، فَزَجَّعَ إِلَى امْرَأَتِهِ ، فَقَالَ : أَتَعْلَمِينَ مَا قَالَ أَخِي الْيَثْرِي ؟ قَالَتْ : وَمَا قَالَ ؟ قَالَ : زَعَمَ أَنَّهُ سَمِعَ مُحَمَّدًا يَزْعُمُ أَنَّهُ قَاتِلِي ، قَالَتْ : فَوَاللَّهِ ، مَا يَكْذِبُ مُحَمَّدٌ ، قَالَ : فَلَمَّا خَرَجُوا إِلَى بَدْرٍ وَجَاءَ الصَّرِيخُ ، قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ : أَمَا ذَكَرْتُ مَا قَالَ لَكَ أَخُوكَ الْيَثْرِي ؟ قَالَ : فَأَرَادَ أَنْ لَا يَخْرُجَ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ : إِنَّكَ مِنْ أَشْرَافِ الْوَادِي ، فَسِرْ يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ ، فَسَارَ مَعَهُمْ ، فَقَتَلَهُ اللَّهُ .

قال في الفتح : وفي الحديث معجزات للنبي ﷺ ظاهرة ، وما كان عليه سعد بن معاذ من قوة النفس واليقين ، وفيه أن شأن العمرة كان قديماً ، وأن الصحابة كان مأذوناً لهم في الاعتار من قبل أن يعتمر النبي ﷺ بخلاف الحج ، والله أعلم .

٢٧٦ - * روى الطبراني عن عروة قَالَ : كَانَتْ عَاتِكَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ عَمَةَ رَسُولِ اللَّهِ

== ٢٧٦ - أورده المهيبي في محم الزوائد (٦ / ٧٠) وقال : رواه الطبراني مرسلأ وفيه ابن لهيعة ، وفيه صف ، وحديثه حسن .

سَاطِنَةً مَعَ أَخِيهَا عَبَّاسٍ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، فَرَأَتْ رُؤْيَا قَبِيلٍ بَدْرٍ فَقَرَعَتْ ، فَأَرْسَلَتْ إِلَى أَخِيهَا عَبَّاسٍ مِنْ لَيْلَتِهَا حِينَ قَرَعَتْ وَاسْتَيْقَظَتْ مِنْ نَوْمِهَا ، فَقَالَتْ : قَدْ رَأَيْتُ رُؤْيَا وَقَدْ خَشِيتُ مِنْهَا عَلَى قَوْمِكَ الْمَلَكَ ، قَالَ : وَمَا رَأَيْتِ ؟ قَالَتْ : لَمْ أَحْدِثْكَ حَتَّى تَعَاهِدَنِي أَنْ لَا تَذْكُرَهَا ، فَإِنَّهُمْ إِنْ يَسْمَعُوهَا أَذُونَا فَاسْمَعُونَا مَا لَا نُحِبُّ ، فَعَاهَدَهَا عَبَّاسٌ ، فَقَالَتْ : رَأَيْتُ رَاكِبًا أَقْبَلَ عَلَى رَاحِلَتِهِ مِنْ أَعْلَى مَكَّةَ يَصِيحُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : يَا آلَ عُذْرٍ وَيَا آلَ فَجْرِ اخْرُجُوا مِنْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ عَلَى رَاحِلَتِهِ فَصَرَخَ فِي الْمَسْجِدِ ثَلَاثَ صَرَخَاتٍ ، وَمَالَ عَلَيْهِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ وَفَرَعَ النَّاسُ لَهُ أَشَدَّ الْفَرْعِ ، ثُمَّ أَرَاهُ مَثَلًا عَلَى ظَهْرِ الْكَعْبَةِ عَلَى رَاحِلَتِهِ فَصَرَخَ ثَلَاثَ صَرَخَاتٍ يَا آلَ عُذْرٍ وَيَا آلَ فَجْرِ اخْرُجُوا مِنْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ حَتَّى أَسْمَعَ مَنْ بَيْنَ الْأَخَشْبِيَّانِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، ثُمَّ عَدَّ لَصَخْرَةٍ عَظِيمَةٍ فَتَرَعَهَا مِنْ أَصْلِهَا ثُمَّ أَرْسَلَهَا عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ ، فَأَقْبَلَتِ الصَّخْرَةُ لَهَا دَوِيٌّ ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ عَلَى أَصْلِ الْجَبَلِ رَمَضَتْ ، فَلَا أَعْلَمُ بِمَكَّةَ بَيْتًا وَلَا دَارًا إِلَّا قَدْ دَخَلَهَا فَرَقَةً مِنْ تِلْكَ الصَّخْرَةِ ، فَلَقَدْ خَشِيتُ عَلَى قَوْمِكَ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ شَرٌّ ، فَقَرَعَ عَبَّاسٌ ، وَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا ، فَلَقِيَ مِنْ لَيْلَتِهِ الْوَلِيدَ بْنَ عُثْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ ، وَكَانَ خَلِيلًا لِلْعَبَّاسِ فَقَصَّ عَلَيْهِ رُؤْيَا عَاتِكَةَ وَأَمْرَهُ أَنْ لَا يَذْكُرَهَا لِأَحَدٍ ، فَذَكَرَهَا الْوَلِيدُ لِأَبِيهِ ، وَذَكَرَهَا عُثْبَةُ لِأَخِيهِ شَيْبَةَ ، وَارْتَفَعَ حَدِيثُهَا حَتَّى بَلَغَ أَبَا جَهْلٍ بَنَ هِشَامٍ وَاسْتَفَاضَتْ ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَا الْعَبَّاسُ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ حَتَّى أَصْبَحَ ، فَوَجَدَ أَبَا جَهْلٍ وَعُثْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلْفٍ وَزَمْعَةَ بْنَ الْأَسَدِ وَأَبَا الْبَخْتَرِيِّ فِي نَفَرٍ يَتَحَدَّثُونَ ، فَلَمَّا نَظَرُوا إِلَى عَبَّاسٍ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ ؛ نَادَاهُ أَبُو جَهْلٍ بَنَ هِشَامٍ : يَا أَبَا الْفَضْلِ إِذَا قَضَيْتَ طَوَافَكَ فَائْتِنَا ، فَلَمَّا قَضَى طَوَافَهُ أَتَى فَجَلَسَ . فَقَالَ أَبُو

مَثَلٌ بِهِ : قَامَ بِهِ .

عُذْرٌ : جَمْعُ عُذُورٍ .

الْأَخَشْبَانِ : الْجَبَلَانِ الْمَطِيقَانِ بِمَكَّةَ وَهُمَا أَبُو قَبَيْسٍ وَالْأَحْمَرُ .

رَمَضَتْ : اشْتَدَّتْ .

سَجَلًا : الْكِتَابُ يَدُونُ فِيهِ مَا يُرَادُ حِفْظُهُ .

يَا مُصَفِّرَ اسْتَه : رَمَاءٌ بِالْأُفْنَةِ وَأَنَّهُ كَانَ يُزَغِّيرُ اسْتَه ، وَقِيلَ هِيَ كَلِمَةٌ تَقَالُ لِلتَّنْعَمِ الْمُتَرَفِّعِ الَّذِي لَمْ تَحْنُكِهِ التَّجَارِبُ وَالشَّدَائِدُ وَقِيلَ : أَرَادَ يَا مُضَرِّطُ نَفْسِيهِ مِنَ الصَّغِيرِ وَهُوَ الصَّوْتُ بِالْغَمِّ وَالشَّفَتَيْنِ ، كَأَنَّهُ قَالَ يَا مُضَرِّطُ . نَسَبَهُ إِلَى الْجَبَنِ وَالْخَوَرِ ، وَقِيلَ كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَكَانَ يَرُدُّهُ بِالزُّعْفَرَانِ .

جَهْلٍ : يَا أَبَا الْفَضْلِ ، مَا رَوَيْتَا رَأَتْهَا عَاتِكَةُ ؟ قَالَ : مَا رَأَتْ مِنْ شَيْءٍ . قَالَ : بَلَى ، أَمَا رَضَيْتُمْ يَا بَنِي هَاشِمٍ بِكَذِبِ الرِّجَالِ حَتَّى جِئْتُمُونَا بِكَذِبِ النِّسَاءِ ، إِنَّا كُنَّا وَأَنْتُمْ كَفَرْتُمْ رَهَانٍ فَاسْتَبَقْنَا الْمَجْدَ مِنْذُ حِينٍ ، فَلَمَّا حَادَتْ الرُّكْبَ قُلْتُمْ : مَنَا نَبِيٌّ ، فَمَا بَقِيَ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا مَنَا نَبِيَّةٌ ، وَلَا أَعْلَمُ أَهْلَ بَيْتٍ أَكْذَبَ رَجُلًا وَلَا أَكْذَبَ امْرَأَةً مِنْكُمْ . فَأَذُوهُ يَوْمُئِذٍ أَشَدُّ الْأَذَى ، وَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : زَعَمْتُ عَاتِكَةُ أَنَّ الرَّاكِبَ قَالَ : اخْرُجُوا فِي لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ ، فَلَوْ قَدْ مَضَتْ هَذِهِ الثَّلَاثُ تَبَيَّنَ لِقُرَيْشٍ كَذِبُكُمْ ، وَكُتِبْنَا سِجْلًا ، ثُمَّ عَلِقْنَا بِالْكَعْبَةِ إِنَّكُمْ أَكْذَبُ بَيْتٍ فِي الْعَرَبِ رَجُلًا وَامْرَأَةً ، أَمَا رَضَيْتُمْ يَا بَنِي قُصَيٍّ أَنْكُمْ ذَهَبْتُمْ بِالْحِجَابَةِ وَالنَّدْوَةِ وَالسَّقَايَةِ وَاللَّوَاءِ حَتَّى جِئْتُمُونَا زَعَمْتُمْ بَنِيَّ مِنْكُمْ ، فَأَذُوهُ يَوْمُئِذٍ أَشَدُّ الْأَذَى ، وَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ : مَهْلًا يَا مُصَفَّرُ اسْتَبِهِ هَلْ أَنْتَ مِنْتِهِ ، فَإِنَّ الْكَذْبَ فِيكَ وَفِي أَهْلِ بَيْتِكَ . فَقَالَ لَهُ مِمَّنْ حَضَرَهُ : يَا أَبَا الْفَضْلِ مَا كُنْتُ بِجَاهِلٍ وَلَا خَرِفٍ وَنَالَ عَبَّاسًا مِنْ عَاتِكَةَ أَذَى شَدِيدًا فِيمَا أَفْشَى مِنْ حَدِيثِهَا . فَلَمَّا كَانَ مَسَاءَ لَيْلَةِ الثَّلَاثَةِ مِنَ اللَّيَالِي الَّتِي رَأَتْ فِيهَا عَاتِكَةُ الرُّوْيَا جَاءَهُمُ الرَّاكِبُ الَّذِي بَعَثَ أَبُو سُفْيَانَ ضَمَمَ بَنُ عَمْرِو الْغَفَّارِيِّ فَقَالَ : يَا آلَ غَدْرٍ انْفِرُوا فَقَدْ خَرَجَ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ لِيُعْرِضُوا لِأَبِي سُفْيَانَ فَأَخْرِزُوا عَيْرَكُمْ ، فَفَرَعَتْ قُرَيْشٌ أَشَدَّ الْفَزَعِ وَاشْفَقُوا مِنْ قَبْلِ رُوْيَا عَاتِكَةَ وَنَفَرُوا عَلَى كُلِّ صَعْبٍ وَذَلُولٍ .

٢٧٧ - * روى الإمام أحمد عن عائشة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ بِالْأُجْرَاسِ أَنْ تَقَطَّعَ مِنْ أَعْنَاقِ الْإِبِلِ يَوْمَ بَدْرٍ .

وهناك سببان لهذا الأمر :

السبب الأول : كراهة الأجراس لشبهها بالنواقيس ، وكان رسول الله ﷺ حريصاً على ألا يبقى مظهراً دينياً غير إسلامي إلا وخالفه أو نقصه أو أدخله في غيره أو أوجد له صيغة استقلالية .

السبب الثاني : عسكري ، فالأجراس تدلّ وتشعر الخصم فتنبيهه .

* * *

أَشَدُّكَ وَعْدُكَ » فقال ابن رَوَاحَةَ : يا رسول الله إني أريد أن أُشِيرَ عليك ورسول الله ﷺ أفضل من يُشِيرُ عليه وإن الله أعظم من أن تنشده وعده فقال : « يا ابن رَوَاحَةَ لَأَنْشُدَنَّ الله وعده فَإِنَّ الله لا يَخْلِفُ الميعاد » فأخذ قبضة من التراب فرمى بها رسول الله ﷺ وجوه القوم فانهمزوا فأنزل الله عز وجل : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ ^(١) فقتلنا وأسْرنا فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ما أَرَى أن تكون لك أسرى فإنما نحن دَاعُونَ مؤلفون فقتلنا معشر الأنصار : إنما يَحْمِلُ عَمْرَ عَلَى ما قَالَ حَسَدٌ لَنَا ، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ ثم قال : « أَدْعُوا لي عمر » فدُعِيَ له فقال : « إِنَّ الله عز وجل قد أنزل عليّ » : ﴿ ما كَانَ لنبي أن يكون له أسرى حتى يَتَخَنَ في الأرضِ تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ﴾ ^(٢) .

أقول : فيه ابن لهيعة ، والملاحظ أن الهيثمي يحسن أحاديث ابن لهيعة ولو كانت عن غير العبادلة ، وذلك فيما نعتد للمحظ دقيق يلحظه الشيخ الهيثمي ، ولذلك فإننا كثيراً ما نتابعه على تحسينه في هذا الكتاب لقوة مدركه في الحديث .

٢٧٩ - * روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بُسَيْسَةَ ، عَيْنًا يَنْظُرُ ما صَنَعَتْ عَيْرُ أَبِي سَفْيَانَ ، فَجَاءَ وَمَا فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ - قال : لا أدري ، ما اسْتَشْنَى بَعْضُ نِسَائِهِ .. قال : فَحَدَّثَنِي الْحَدِيثُ ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَتَكَلَّمَ ، فَقَالَ : « إِنَّ لَنَا طَلِبَةَ ، فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا » فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِي ظَهْرَانِهِمْ فِي غُلُوِّ الْمَدِينَةِ ، فَقَالَ : « إِلَّا مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا » فَاَنْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا الْمُشْرِكِينَ إِلَى بَذْرِ ، وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « لا يَقْدِمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ » فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « قُومُوا إِلَى جَنَةِ عَرْضِهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » قال : يقول عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ : يا رسول الله ، جنة عرضها السموات

(١) الأنفال : ١٧ .

(٢) الأنفال : ٦٧ .

والأرض ؟ قال : « نعم » قال : بخـ يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « ما يحملك على قولك : بخـ بخـ ؟ » قال : لا والله يا رسول الله ، إلا رجاء أن أكون من أهلها ، قال : « فإنك من أهلها » قال : فأخرج تمرات من قرنه ، فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة ، قال : فرمى بها كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل .

قال النووي : قوله : (بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بُسَيْسَةَ عَيْنًا) هكذا هو في جميع النسخ بُسَيْسَةَ بياء موحدة مضمومة وبسينين مهملتين مفتوحتين بينهما ياء مثناة تحت ساكنة ، قال القاضي : هكذا هو في جميع النسخ ، قال : وكذا رواه أبو داود وأصحاب الحديث . قال : والمعروف في كتب السيرة بسيس بياءين موحدين مفتوحتين بينهما سين ساكنة وهو بسيس ابن عمرو ، ويقال : ابن بشر من الأنصار من الخزرج ، ويقال : حليف لهم ، قلت : يجوز أن يكون أحد اللفظين اسماً له والآخر لقباً . وقوله (عيناً) أي : متجسساً ورقبياً . قوله (ما صنعت غير أبي سفيان) هي الدواب التي تحمل الطعام وغيره من الأمتعة ، قال في المشارق : العير هي الإبل والدواب تحمل الطعام وغيره من التجارات ، قال : ولا تسمى عيراً إلا إذا كانت كذلك . وقال الجوهري في الصحاح : العير الإبل تحمل الميرة وجمعها عيترات بكسر العين وفتح الياء . قوله ﷺ : (إن لنا طليبة فن كان ظهره حاضراً فليركب) هي بفتح الطاء وكسر اللام أي شيئاً نطلبه والظهر الدواب التي تركب . قوله : (فجعل رجال يستأذنونهم في ظهرانهم) هو بضم الظاء وإسكان الهاء أي مركباتهم في هذا استحباب التورية في الحرب وأن لا يبين الإمام جهة إغارته وإغارة سراياه لكلا يشيع ذلك فيحذرهم العدو . قوله (في علو المدينة) بضم العين وكسرها . قوله ﷺ : (لا يتقدم أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه) أي قدامه متقدماً في ذلك الشيء لكلا يفوت شيء من المصالح التي لا تعلمونها . قوله : (عير بن الحمام) بضم الحاء المهملة وتخفيف الميم . قوله : (بخـ بخـ) فيه لغتان إسكان الحاء وكسرها منوناً وهي كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير . قوله : (لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها) هكذا هو في أكثر النسخ المعتدة رجاء بالمد ونصب التاء ، وفي بعضها رجاء بلا تنوين وفي بعضها بالتنوين بمدودان

بجذف التاء ، وكله صحيح معروف في اللغة ، ومعناه والله ما فعلته لشيء إلا لرجاء أن أكون من أهلها . قوله (فأخرج غمرات من قرنه) هو بقاف وراء مفتوحتين ثم نون أي جَعْبَةُ النُّشَابِ (١) ووقع في بعض نسخ المغاربة فيه تصحيف . قوله : (لأن أنا حييت حتى آكل ثمراتي هذه إنها حياة طويلة فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل) فيه جواز الانغمار في الكفار والتعرض للشهادة وهو جائز بلا كراهة عند جماهير العلماء . قوله : (وهو بحضرة العدو) هو بفتح الحاء وضهما وكسرها ثلاث لغات ، ويقال أيضاً بِحَضَرَ بفتح الحاء والضاد بجذف الهاء . اهـ .

وقال الأستاذ البوطي : يجوز للإمام أن يستعين في الجهاد وغيره بالعيون والمراقبين ، يمشهم بين الأعداء ليكتشف المسلمون خططهم وأحوالهم وليتبينوا ما هم عليه من قوة في العدة والعدد . ويجوز اتخاذ مختلف الوسائل لذلك ، بشرط أن لا تنطوي الوسيلة على الإضرار بمصلحة هي أهم من مصلحة الاطلاع على حال العدو ، وربما استلزمت الوسيلة تكتلاً أو نوعاً من المخادعة أو التحايل ، وكل ذلك مشروع وحسن من حيث إنه وسيلة لا بد منها لمصلحة المسلمين وحفظهم .

٢٨٠ - * روى الإمام أحمد عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : كُنَّا يَوْمَ بَدْرٍ ثَلَاثَةً عَلَى بَعِيرٍ كَانَ أَبُو لُبَابَةَ وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ زَمِيلِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : وَكَانَتْ عَقْبَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَا : نَحْنُ نَمشي عَنْكَ فَقَالَ : « مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي وَلَا أَنَا بِأَغْنَى عَنْ الْأَجْرِ مِنْكُمَا » .

أقول : إن مواساة القائد جنده بقدر ما يستطيع تستخرج من الجندي أقصى الطاقات وأعلى الطاعات وأشد الحب ، وحياة الرسول ﷺ مليئة بهذه المواساة والمساواة إلا إذا كان هناك عذر . أو كان هناك تععيد لمبدأ .

(١) النُّشَابُ : النبل .

٢٨٠ - أحمد في مسنده (١ / ٤١١) وكذا في (١ / ٤٢٤) .

عقبه : نوبة . أي دور أو نوبة رسول الله ﷺ في المشي .

ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما : لست بغني عن الثواب . شأني شأنكم في الحاجة إلى الثواب والأجر من الله تعالى .

٢٨١ - * روى أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خرج يوم بدر في ثلاثمائة وخمسة عشر فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ حَفَاةٌ فَأَحْمِلْهُمْ ، اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ عَرَاةٌ فَأَكْسِهِمْ ، اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ جِيَاعٌ فَأَشْبِعْهُمْ » فَفَتَحَ اللَّهُ لَهُ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَأَنْقَلَبُوا - حِينَ انْقَلَبُوا - وَمَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ رَجَعَ بِجَمَلٍ ، أَوْ جَمَلَيْنِ ، وَاکْتَسَوْا وَشَبَعُوا .

أقول : بعض الروايات تذكر أن عدد المسلمين يوم بدر كانوا (٣١٣) وبعضها تذكر أنهم كانوا (٣١٤) ، وبعضها تذكر أنهم كانوا (٣١٥) ، وبعضها تذكر أنهم كانوا (٣١٧) ، وبعضها تذكر أنهم (٣١٩) وسبب الخلاف يعود إلى أن بعضهم أدخل ما لم يدخله الآخر ، فثلاً هناك روايات صحيحة تذكر حضور أنس وهو صغير ، وهناك روايات تذكر أن بعض الناس ردهم الرسول ﷺ إلى المدينة للقيام بأمرها ، فسبب من الإدخال والإخراج تعددت الروايات ، عد منهم عثمان بن عفان ولم يحضر ، أمره النبي ﷺ أن يمرض امرأته رقية ، وكذلك عد منهم قوماً كلفوا بهيات ولم يحضروا المعركة ، وقد وردت أسماء تسعة لم يحضروا وضرب لهم بسهم وأجر ذكروا في هذا الكتاب تحت عنوان من غاب عن بدر وكان كأهلها .

وفي سنن أبي داود ^(١) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ حَرَامٍ أَنَّهُ قَالَ : كُنْتُ أَمِيحٌ ^(٢) لِأَصْحَابِي الْمَاءَ يَوْمَ بَدْرٍ .

وهذا الحديث لم يذكره البخاري ولا الضياء . كذا في البداية والنهاية .

٢٨٢ - * روى البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث : أن عِدَّةَ أصحاب بدر على عِدَّةِ أصحاب طالوت الذين جاوزوا مَقَّةَ النَّهْرِ - ولم يُجَاوِزْ معه إِلَّا مُؤْمِنٌ - بِضْعَةٌ ^(٣) وَثَلَاثَاةٌ ، وَفِي رَوَايَةٍ قَالَ الْبَرَاءُ : لَا ، وَاللَّهِ مَا جَاوَزَ مَعَهُ

٢٨١ - أبو داود (٣ / ٧٩) كتاب الجهاد - باب : في نفل السرية تخرج من المعسكر .

(١) أبو داود (٣ / ٧٥) كتاب الجهاد - باب : في المرأة والعبد يحذبان من الغنية .

(٢) أميح : أستقي .

٢٨٢ - البخاري (٧ / ٢٩٠) ٦٤ - كتاب المغازي - ٦ - باب عدة أصحاب بدر .

(٣) بضعة : البضع : ما بين الثلاثة إلى التسعة .

النهر إلا مؤمن .

٢٨٣ - * روى البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : اسْتَصْفِرْتُ أَنَا وَابْنُ عَمَرٍ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ يَوْمَ بَدْرٍ : نَيْفًا عَلَى سَتِينَ ، وَالْأَنْصَارُ نَيْفًا وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ .

٢٨٤ - * روى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ دَفَعَ الرَايَةَ إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ ابْنُ عَشْرِينَ سَنَةً .

٢٨٥ - * روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قَالَتْ : خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ بَدْرٍ ، فَلَمَّا كَانَ بِحَزَةِ الْوَبْرِ أَدْرَكَهُ رَجُلٌ قَدْ كَانَ يُذَكِّرُ مِنْهُ جُرْأَةً وَنَجْدَةً ، فَفَرَحَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ رَأَوْهُ . فَلَمَّا أَدْرَكَهُ ، قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : جِئْتُ لَأَتَّبِعَكَ وَأَصِيبَ مَعَكَ ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ « فَارْجِعْ ، فَلَنْ أُسْتَعِينَ بِمَشْرِكٍ » قَالَتْ ثُمَّ مَضَى ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالشَّجَرَةِ أَدْرَكَهُ الرَّجُلُ ، فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ قَالَ : « فَارْجِعْ فَلَنْ أُسْتَعِينَ بِمَشْرِكٍ » ثُمَّ رَجَعَ ، قَالَ ، فَأَدْرَكَهُ بِالْبِيدَاءِ ، فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ : « تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ؟ » قَالَ : نَعَمْ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « فَاَنْطَلِقْ » .

وَأُخْرِجَهُ التِّرْمِذِيُّ ^(١) إِلَى قَوْلِهِ : « فَلَنْ أُسْتَعِينَ بِمَشْرِكٍ » قَالَ : وَفِي الْحَدِيثِ كَلَامٌ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا .

٢٨٣ - البخاري (٧ / ٢٩٠) ٦٤ - كتاب المغازي - ٦ - باب : عدة أصحاب بدر .

نَيْفٌ : بوزن المِئَةِ : الزيادة يخفف ويشدد ، وكل ما زاد على المقد فهو نيف حتى يبلغ المقد الثاني .

٢٨٤ - المستدرک (٣ / ١١١) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأقره الذهبي وقال : هذا نص في أنه أسلم وله أقل من عشر سنين ، بل نص في أنه أسلم وهو ابن سبع سنين أو ثمان وهو قول عروة .

٢٨٥ - مسلم (٢ / ١٤٤٩) ٣٣ - كتاب الجهاد والسير - ٥١ - باب : كراهة الاستعانة في الغزو بكافر .

حَزَةُ الْوَبْرِ : موضع على بعد أربعة أميال من المدينة .

نَجْدَةٌ : النجدة : القوة والشجاعة .

(١) الترمذي (٤ / ١٢٧) ٢٢ - كتاب السير - ١٠ - باب : ما جاء في أهل الذمة يغزون مع المسلمين هل يسهم لهم .

وقال : هذا حديث حسن غريب .

وأُخْرِجَهُ أَبُو دَاوُدَ مَخْتَصَرًا أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ لَحِقَ بِالنَّبِيِّ ﷺ لِيُقَاتِلَ مَعَهُ ، فَقَالَ : « ارْجِعْ » ، ثُمَّ اتَّفَقَا فَقَالَ : « إِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ » .

قال النووي : قوله عليه الصلاة والسلام : (فارجع فلن أستمع بمشرك) وقد جاء في الحديث الآخر أن النبي ﷺ استعان بصفوان بن أمية قبل إسلامه ، فأخذ طائفة من العلماء بالحديث الأول على إطلاقه ، وقال الشافعي وآخرون : إن كان الكافر حسن الرأي في المسلمين ودعت الحاجة إلى الاستعانة به استعين به وإلا فيكره ، وحمل الحديثين على هذين الحالين ، وإذا حضر الكافر بالإذن رضخ له أي أعطاه قليلاً ولا يسهم له ، هذا مذهب مالك والشافعي وأبي حنيفة والجمهور ، وقال الزهري والأوزاعي يسهم له والله أعلم .

٢٨٦ - * روى مسلم عن أبي الطفيل رحمه الله قَالَ : حَدَّثَنَا حَذِيفَةُ بْنُ الْيَمَانِ قَالَ : مَا مَعْنَى أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلَّا أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي ، حُسَيْلٌ ، فَأَخَذْنَا كُفَّارَ قُرَيْشٍ ، فَقَالُوا : إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ عَمْدًا ، فَقُلْنَا : مَا نُرِيدُهُ ، وَمَا نُرِيدُ إِلَّا الْمَدِينَةَ ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللَّهِ وَمِثَاقَهُ : لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَلَا نَقَاتِلَ مَعَهُ ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ ، فَقَالَ : « انْصَرِفَا نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ ، وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ » .

قال النووي : في هذا الحديث جواز الكذب في الحرب ، وإذا أمكن التعريض في الحرب فهو أولى ، ومع هذا يجوز الكذب في الحرب وفي الإصلاح بين الناس وكذب الزوج لامرأته كما صرح به الحديث الصحيح وفيه الوفاء بالعهد ، وقد اختلف العلماء في الأسير يعاهد الكفار أن لا يهرب منهم ، فقال الشافعي وأبو حنيفة والكوفيون : لا يلزمه ذلك بل متى أمكنه الهرب هرب ، وقال مالك : يلزمه ، واتفقوا على أنه لو أكرهوه فحلف لا يهرب لا يمين عليه لأنه مكره ، وأما قضية حذيفة وأبيه فإن الكفار استحلّفوهما لا يقاتلان مع النبي ﷺ في غزاة بدر فأمرهما النبي ﷺ بالوفاء . وهذا ليس بالإيجاب فإنه لا يجب الوفاء بترك الجهاد مع الإمام ونائبه ولكن أراد النبي ﷺ أن لا يشيع عن أصحابه تقض العهد وإن كان

(١) أبو داود مختصر (٣ / ٧٥) كتاب الجهاد - باب : في المشرك يسهم له .

٢٨٦ - مسلم (٣ / ١٤١٤) ٢٢ - كتاب الجهاد والسير - ٣٥ - باب : الوفاء بالعهد .

لا يلزمهم ذلك لأنّ المشيع عليهم لا يذكر تأويلاً .

٢٨٧ - * روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : شهدت من المقداد ابن الأسود مشهداً لأنّ أكون صاحبة أحبّ إليّ مما عدل به : أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : لا تقول كما قال قوم موسى : ﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا ﴾ ^(١) ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلّفك . فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره ، يعني قوله .

وفي رواية ^(٢) : قال المقداد يوم بدر : يا رسول الله ، إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ﴾ ولكن امضِ ونحن معك . فكانه سُريّ عن رسول الله ﷺ .

قال ابن حجر : قوله (مما عدل به) بضم المهملة وكسر الدال المهملة أي وزن أي من كل شيء يقابل ذلك من الدنيويات ، وقيل من الثواب ، أو المراد الأعم من ذلك ، والمراد المبالغة في عظمة ذلك المشهد ، وأنه كان لو خيّر بين أن يكون صاحبه وبين أن يحصل له ما يقابل ذلك كائناً ما كان لكان حصوله له أحبّ إليه ، وقوله : (لأنّ أكون صاحبه) بالنصب ، وفي رواية الكشميهني (لأنّ أكون أنا صاحبه) ويجوز فيه الرفع والنصب ، قال ابن مالك : النصب أجود . قوله : (وهو يدعو على المشركين) زاد النسائي في روايته (جاء المقداد على فرس يوم بدر فقال) وذكر ابن إسحاق أنّ هذا الكلام قاله المقداد لما وصل النبي ﷺ الصفراء وبلغه أن قريشاً قصدت بدرأ وأن أبا سفيان نجاً بمنّ معة فاستشار الناس ، فقام أبو بكر فقال فأحسن ، ثم قام عمر كذلك ، ثم المقداد فذكر نحو ما في حديث الباب وزاد « فقال : والذي بعثك بالحق لو سلّكت بنا برك الغياد لجاهدنا معك من دونه . قال : فقال : (أشيروا علي) قال : فعرفوا أنه يريد الأنصار ، وكان يتخوف أن لا يوافقوه لأنهم لم

٢٨٧ - البخاري (٧ / ٢٨٧) ٦٤ - كتاب المغازي - ٤ - باب : قول الله تعالى : و إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم ه .

(١) المائدة : ٢٤ .

(٢) البخاري (٨ / ٢٧٣) ٦٥ - كتاب التفسير - ٤ - باب : فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ها هنا قاعدون .

سُريّ : عن المزون وغيره : إذا كشف عنه ما به .

يبايعوه إلا على نُصْرَتِهِ مَنْ يَقْصِدُهُ لَا أَنْ يَسِيرَ بِهِمْ إِلَى الْعَدُوِّ ، فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ : امض يا رسول الله لما أَمَرْتُ بِهِ فَنَحْنُ مَعَكَ . قَالَ فَسَرَّهُ قَوْلُهُ وَنَشِطُهُ « وَكَذَا ذَكَرَهُ مُوسَى ابْنُ عَقْبَةَ مَبْسُوطاً ، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ عَائِذٍ مِنْ طَرِيقِ أَبِي الْأَسْوَدِ عَنْ عُرْوَةَ ، وَعَنْدَ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ مِنْ مَرْسَلِ عُلُقَمَةَ بْنِ وَقَاصٍ فِي نَحْوِ قِصَّةِ الْمَقْدَادِ (فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ : لَئِنْ سُرْتُ حَتَّى تَأْتِي بِرُكِّ الْغِمَادِ مِنْ يَمِينٍ لَنَسِيرَنَّ مَعَكَ ، وَلَا نَكُونُ كَالَّذِينَ قَالُوا لِمُوسَى - فَذَكَرَهُ وَفِيهِ - لَعَلَّكَ خَرَجْتَ لِأَمْرٍ فَأَحْدَثَ اللَّهُ غَيْرَهُ ، فَاْمْضِ لِمَا شِئْتَ ، وَصِلْ حِبَالَ مَنْ شِئْتَ ، وَأَقْطَعْ حِبَالَ مَنْ شِئْتَ ، وَسَلِّمْ مَنْ شِئْتَ ، وَعَادِ مَنْ شِئْتَ ، وَخُذْ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا شِئْتَ » قَالَ : وَإِنَّا خَرَجَ يَرِيدُ غَنِيمَةً مَا مَعَ أَبِي سَفِيَانَ فَأَحْدَثَ اللَّهُ لَهُ الْقِتَالَ .

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَيُّوبَ قَالَ : قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ بِالْمَدِينَةِ : « إِنِّي أَخْبَرْتُ عَنْ عَيْرِ أَبِي سَفِيَانَ ، فَهَلْ لَكُمْ أَنْ تَخْرُجُوا إِلَيْهَا لَعَلَّ اللَّهَ يَغْنَمُهَا ؟ » قُلْنَا : نَعَمْ ، فَخَرَجْنَا . فَلَمَّا سِرْنَا يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ قَالَ : « قَدْ أَخْبَرُوا خَبَرَنَا فَاسْتَعِدُّوا لِلْقِتَالِ » فَقُلْنَا : لَا وَاللَّهِ مَا لَنَا طَاقَةٌ بِقِتَالِ الْقَوْمِ ، فَأَعَادَهُ ، فَقَالَ لَهُ الْمَقْدَادُ : لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى وَلَكِنْ نَقُولُ : إِنَّا مَعَكُمْ مُقَاتِلُونَ . قَالَ : فَتَمَنَيْنَا مَعِشَرَ الْأَنْصَارِ لَوْ أَنَّا قُلْنَا كَمَا قَالَ الْمَقْدَادُ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ ^(١) وَأَخْرَجَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عُلُقَمَةَ بْنِ وَقَاصٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ نَحْوَهُ ، لَكِنْ فِيهِ أَنَّ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ هُوَ الَّذِي قَالَ مَا قَالَ الْمَقْدَادُ ، وَالْحِفْظُ أَنَّ الْكَلَامَ الْمَذْكُورَ لِلْمَقْدَادِ كَمَا فِي حَدِيثِ الْبَابِ ، وَأَنَّ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ إِنَّمَا قَالَ : (لَوْ سِرْتُ بَنًا حَتَّى تَبْلُغَ بَرَكُ الْغِمَادِ لَسِرْنَا مَعَكَ) كَذَلِكَ ذَكَرَهُ مُوسَى بْنُ عَقْبَةَ . وَعَنْدَ ابْنِ عَائِذٍ فِي حَدِيثِ عُرْوَةَ (فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ : لَوْ سِرْتُ بَنًا حَتَّى تَبْلُغَ الْبَرَكُ مِنْ غِمْدِ ذِي يَمِينٍ) وَوَقَعَ فِي مُسْلِمٍ أَنَّ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ هُوَ الَّذِي قَالَ ذَلِكَ ، وَكَذَا أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ مِنْ مَرْسَلِ عَكْرَمَةَ ، وَفِيهِ نَظَرٌ لِأَنَّ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ لَمْ يَشْهَدْ بَذْرًا ، وَإِنْ كَانَ يُعَدُّ فِيهِمْ لِكَوْنِهِ مَنْ ضَرَبَ لَهُ بِسَهْمِهِ كَمَا سَأَذَكَرَهُ فِي آخِرِ الْغَزْوَةِ ، وَيُمْكِنُ الْجَمْعُ بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَشَارَهُمْ فِي غَزْوَةِ بَدْرَ مَرَّتَيْنِ : الْأُولَى : وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ أَوَّلَ مَا بَلَغَهُ خَبَرُ الْعَيْرِ مَعَ أَبِي

سفيان ، وذلك بين في رواية مسلم ولفظه (أن النبي ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان) والثانية : كانت بعد أن خرج كما في حديث الباب ؛ ووقع عند الطبراني أن سعد ابن عباد قال ذلك بالحديبية ، وهذا أولى بالصواب ؛ وقد تقدم في الهجرة شرح برك الغداد ، ودلت رواية ابن عائد هذه على أنها من جهة الين ، وذكر السهيلي أنه رأى في بعض الكتب أنها أرض الحبشة ، وكأنه أخذه من قصة أبي بكر مع ابن الدغنة ، فإن فيها أنه لقيه ذاهباً إلى الحبشة ببرك الغداد فأجاره ابن الدغنة كما تقدم في هذا الكتاب ، ويجمع بأنها من جهة الين تقابل الحبشة وبينهما عرض البحر . أ.هـ .

٢٨٨ - * روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان ، قال : فتكلم أبو بكر ، فأعرض عنه ثم تكلم عمر فأعرض عنه ، فقام سعد ابن عباد ، فقال : إيانا تريد يا رسول الله ؟ والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نغيضها البحر لأخضناها ، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغداد لفعلنا ، قال : فندب رسول الله ﷺ الناس فانطلقوا ، حتى نزلوا بداراً ، ووردت عليهم زوايا قريش وفيهم غلام أسود لبني الحجاج ، فأخذوه ، فكان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه ؟ فيقول . مالي علم بأبي سفيان ، ولكن هذا أبو جهل ، وعتبة ، وشيبة ، وأميمة بن خلف فإذا قال ذلك ضربوه ، فقال : نعم أنا أخبركم ، هذا أبو سفيان ، فإذا تركوه فسألوه قال : مالي بأبي سفيان علم ولكن هذا أبو جهل ، وعتبة ، وشيبة ، وأميمة بن خلف في الناس ، فإذا قال هذا أيضاً ضربوه ، ورسول الله ﷺ قائم يصلي ، فلما رأى ذلك أنصرف ، وقال : « والذي نفسي بيده ، لتضربوه إذا صدقكم ، وتتركوه إذا كذبكم » قال : فقال رسول

٢٨٨ - مسلم (٢ / ١٤٠٢) ٣٢ - كتاب الجهاد والسير - ٢٠ - باب : غزوة بدر .

نخبطها : الضمير يعود على الخيل .

الكبد : أوسط الشيء ومعظمه .

برك الغداد : برك بفتح الباء وإسكان الراء ، وقال بعضهم : صوابه كسر الراء والغداد بنين معجمة مكسورة ومضومة لغتان مشهورتان ، لكن الكسر أفصح والمشهور عند الحديثين ، والضم هو المشهور في كتب اللغة .

= روايا : جمع راوية ، وهي المزايدة ، والمراد به هاهنا : الجمال التي تحمل المزداد ، والجل : راوية ، وتسمى به المزايدة .

الله ﷺ : « هَذَا مَصْرَعُ قَلَانٍ » وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى الْأَرْضِ هَاهُنَا وَهَاهُنَا - قَالَ : فَمَا مَاطَ أَخَذَهُمْ عَنْ مَوْضِعِ يَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَأُخْرِجَةُ أَبُو دَاوُدَ ^(١) ، وَأَوَّلُ حَدِيثِهِ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَدَبَ أَصْحَابَهُ ، فَأَنْطَلَقَ إِلَى بَدْرِ ، فَإِذَا هُمْ بِرَوَايَا قُرَيْشٍ ، فِيهَا عَبْدُ أُسُودَ لِبَنِي الْحَجَّاجِ ... وَذَكَرَ الْحَدِيثَ إِلَى آخِرِهِ بِتَغْيِيرِ شَيْءٍ مِنَ الْأَفَاطِيهِ ، ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِهِ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، مَا جَاوَزَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ مَوْضِعِ يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَمَرَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَأَخَذُوا بِأَرْجُلِهِمْ فَسُحِبُوا ، فَأَلْقَوْا فِي قَلْبِ بَدْرِ .

٢٨٩- * رَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ قَالَ : لَقَدْ قُلُّوا فِي أَغْنَيْنَا يَوْمَ بَدْرِ حَتَّى قُلْتُ لَصَاحِبِي الَّذِي إِلَى جَانِبِي أَتْرَاهُمْ سَبْعِينَ ؟ قَالَ : أَرَاهُمْ مِائَةَ ، حَتَّى أَخَذْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا فَسَأَلْنَاهُ قَالَ : كُنَّا أَلْفًا .

وقد ذكرنا الحديث مع أن فيه عنعنة ابن إسحاق لما يشهد له من ظاهر النصوص القرآنية كما ذكر ذلك ابن كثير في البداية والنهاية فقال :

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْكُضُهُمْ إِذْ التَّقِيتُمْ فِي أُعَيْنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقْلَلُكُمْ فِي أُعَيْنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ ^(٢) فَمَنْدَمًا تَقَابُلَ الْفَرِيقَانِ قَلَّلَ اللَّهُ كُلًّا مِنْهُمَا فِي أُعَيْنِ الْآخَرِينَ لِيَجْتَرِيَ هَوْلًا عَلَى هَوْلٍ وَهَوْلًا عَلَى هَوْلٍ لَمَّا لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ ، وَلَيْسَ هَذَا مُعَارَضًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ آلِ عُرَانَ ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُوَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ

= مَصْرَعٌ : الْمَصْرَعُ : مَوْضِعُ الْقَتْلِ .

ماماط : أَي : مَا زَالَ وَمَا بَعْدَ ، وَالْمِيطُ : اللَّيْلُ وَالْعَدُولُ .

(١) أَبُو دَاوُدَ (٢ / ٥٨) كِتَابُ الْجِهَادِ - بَابُ : فِي الْأَسِيرِ يُنَالُ مِنْهُ وَيَضْرَبُ .

نَدَبٌ : نَدَبْتُ الرَّجُلَ لِهَذَا الْأَمْرِ ، أَي : هَيَّأْتُهُ لَهُ ، وَبَعَثْتُهُ فِيهِ ، فَاتْتَدَبُ ، أَي : أَجَابُ .

الْقَلْبِيبُ : الْبَاهِرُ لَمْ تَطُرْ ، وَإِنَّمَا هِيَ حَفِيرَةٌ قَلْبُ تَرَاهَا ، فَسَمِيتَ قَلْبِيًّا .

٢٨٩ - أَوْرَدَهُ الْمِيشِي فِي مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ (٦ / ٨٤) وَقَالَ : رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ . وَلَمْ يَتَكَلَّمْ عَلَيْهِ فِي الْمَجْمَعِ ، وَفِيهِ عَنْعُنَةُ ابْنِ

إِسْحَاقَ .

(٢) الْأَنْفَالُ : ٤٤ .

يَشَاءُ ﴿١﴾ فَإِنَّ الْمُغْنَى فِي ذَلِكَ عَلَى أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ أَنَّ الْفِرْقَةَ الْكَافِرَةَ تَرَى الْفِرْقَةَ الْمُؤْمِنَةَ مثلي عدد الكافرة على الصحيح أيضاً ، وذلك عند التحام الجرب والمساابقة أوقع الله الوهن والرعب في قلوب الذين كفروا فاستدرجهم أولاً بأن أراهم إياهم عند المواجهة قليلاً ، ثم أيد المؤمنين بنصره فجعلهم في أعين الكافرين على الضعف منهم حتى وهنوا وضعفوا وغلبوا . ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ يُوَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ .

أقول : كان هذا من فعل الله عز وجل لرسوله وللمؤمنين ، ولو أخلص المسلمون وأحسنوا لوجدوا التوفيقات والتأييدات تحفهم من كل جانب .

وقد علل الله عز وجل لإراءته المسلمين المشركين قلة بقوله : ﴿ وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا فَعُثِلَتْ لِمُؤْمِنِينَ وَلِفِتْنَةٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَاللَّهُ سَلَّطَ عَلَيْهِمْ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

إنّ هذا التعليل يوحى بأشياء كثيرة : منها : أولاً : أنّ المسلمين يحكمهم عالم الأسباب فعندما يرون أنّ القوى غير متكافئة لابد أن يختلفوا في أمر القتال هل يقاتلون أولاً يقاتلون ؟ فالله عز وجل بحكمته جنبهم هذا الموقف يوم بدر ، ولكنّ هذا الموقف يمكن أن يواجه المسلمين في كل لحظة فعلى قياداتهم أن تلاحظ ذلك أولاً في الموازنات التي تسبق القرار . ثانياً : في القرار نفسه ، ثالثاً : في الخطّة المناسبة على ضوء تفاضل القوى ، رابعاً : في الإعداد النفسي والتدريبي ، خامساً : في إدارة المعركة .

٢٩٠ - * روى الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ يوم بدر : « من استطعتم أن تأسروه من بني عبد المطلب فإنهم خرجوا كرهاً » .

معنى الحديث : من استطعتم عليه من بني عبد المطلب فأسروه ولا تقتلوه .

تعليق : لم تكن قريش كلّها مقتنعة بهذه الحرب ولذلك خرج بعضهم ثمّ نكص وبعضهم

(١) آل عمران : ١٣ .

(٢) الأنفال : ٤٣ .

٢٩٠ - أحمد في مسنده (١ / ٨٩) ، وأورده المهيبي في مجمع الزوائد (٦ / ٨٥) وقال : رواه أحمد والبزار ، ورجال أحمد ثقات .

لم يخرج أصلاً . وقد عرض ابن كثير صورة عن هذه الأمور في البداية والنهاية قال : وقال الأحنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي - وكان حليفاً لبني زهرة - وهم بالجحففة : يا بني زهرة قد نجى الله لكم أموالكم ، وخلّص لكم صاحبكم عَزَمَةَ بن نوفل ، وإننا نفرتم لتمنعوه وماله فاجعلوا بي جُبْنُها وارجموا فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة لا ما يقول هذا . قال : فرجعوا فلم يشهدوا زهري واحد ، أطاعوه وكان فيهم مطاعاً ولم يكن بقي بطن من قريش إلا وقد نفر منهم ناس إلا بني عدي لم يخرج منهم رجل واحد ، فرجعت بنو زهرة مع الأحنس فلم يشهد بدياً من هاتين القبيلتين أحد . قال : ومضى القوم وكان بين طالب بن أبي طالب - وكان في القوم - وبين بعض قريش عاورة . فقالوا : والله لقد عرفنا يا بني هاشم - وإن خرجتم معنا - أن هواكم مع محمد ، فرجع طالب إلى مكة مع من رجع .

٢٩١ - * روى البزار عن ابن عباس رضي الله عنه قال : لما نزل المسلمون بدياً وأقبل المشركون نظر رسول الله ﷺ إلى عتبة بن ربيعة وهو على جمل أحمر فقال : « إن يكن عند أحد من القوم خير فهو عند صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه يرشدوا » وهو يقول : يا قوم أطيعوني في هؤلاء القوم فإنكم إن فعلتم لن يزال ذلك في قلوبكم ، ينظر كل رجل إلى قاتل أخيه وقاتل أبيه فاجعلوا جبنها برأسي وارجموا ، فقال أبو جهل : انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه ، إنما محمداً وأصحابه كأكلة جزور لو قد اتقينا ، فقال عتبة : ستعلم من الجبان للفسد لقومه ، أما والله إنني لأرى قوماً يضربونكم ضرباً ، أما ترون كأن رؤوسهم الأفاعي وكان وجوههم السيوف ، ثم دعا أخاه وإبنة فخرج يمشي بينهما ودعا بالمبارزة .

٢٩٢ - * روى الإمام أحمد عن علي قال : لما قدمنا المدينة أصبنا من ثمارها

٢٩١ - أوردته الميمني في جمع الزوائد (٦ / ٧٦) وقال : رواه البزار ورجاله ثقات . كشف الأستار (٢ - ٣١٣) . انتفخ سحره : السحر الرقة ، والمعنى امتلاً خوفاً وجبناً .

٢٩٢ - أحمد في مسنده (١ / ١١٧) . وأوردته الميمني في جمع الزوائد (٦ / ٧٥) وقال : روى أبو داود منه طرفاً ، ورواه أحمد والبزار ، ورجال أحمد رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب وهو ثقة .

فاجتَوَيْنَاهَا وَأَصَابَنَا بِهَا وَغَلَكَ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَبَّرُ عَنْ بَدْرِ ، فَلَمَّا بَلَغْنَا أَنَّ الْمَشْرِكِينَ قَدْ أَقْبَلُوا سَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَدْرِ ، وَبَدَرَ بَثْرَ ، فَسَبَقْنَا الْمَشْرُوكُونَ إِلَيْهَا فَوَجَدْنَا فِيهَا رَجُلَيْنِ مِنْهُمْ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ وَمَوْلَى لِعَقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ ، فَأَمَّا الْقُرَشِيُّ فَانْقَلَبَتْ وَأَمَّا مَوْلَى عَقْبَةَ فَأَخَذْنَاهُ فَجَعَلْنَا نَقُولُ لَهُ : كَمْ الْقَوْمُ ؟ فَيَقُولُ : هُمْ وَاللَّهِ كَثِيرٌ عَدَدُهُمْ ، شَدِيدٌ بِأَسْهُمٍ فَجَعَلَ الْمُسْلِمُونَ إِذَا قَالَ ذَلِكَ ضَرْبُوهُ ، حَتَّى انْتَهَوْا بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لَهُ : « كَمْ الْقَوْمُ » قَالَ : هُمْ وَاللَّهِ كَثِيرٌ عَدَدُهُمْ شَدِيدٌ بِأَسْهُمٍ فَجَهَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُخْبِرَهُ كَمْ هُمْ فَأَبَى ، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَهُ : « كَمْ يَنْحِرُونَ مِنَ الْجَزِيرِ » قَالَ : عَشْرًا كُلَّ يَوْمٍ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الْقَوْمُ أَلْفٌ كُلُّ جَزْوَرٍ لِبَاثَةٍ وَتَبَعُهَا » ثُمَّ إِنَّهُ أَصَابَنَا مِنَ اللَّيْلِ طَشٌ مِنْ مَطَرٍ فَأَنْطَلَقْنَا تَحْتَ الشَّجَرِ وَالْحَجَفِ نَسْتُظِلُّ تَحْتَهَا مِنَ الْمَطَرِ ، وَبَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو رَبَّهُ وَيَقُولُ : « اللَّهُمَّ إِنَّكَ إِنْ تَهْلِكَ هَذِهِ الْفِئَةُ لَا تَعْبُدُ » قَالَ : فَلَمَّا أَنْ طَلَعَ الْفَجْرُ ، نَادَى الصَّلَاةَ عِبَادَ اللَّهِ فَجَاءَ النَّاسُ مِنْ تَحْتَ الشَّجَرِ وَالْحَجَفِ فَصَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَحَرَضَ عَلَى الْقِتَالِ ثُمَّ قَالَ : « إِنْ جَمَعَ قُرَيْشٌ تَحْتَ هَذِهِ الضَّلْعِ الْحُمْرَاءِ مِنَ الْجَبَلِ » فَلَمَّا دَنَا الْقَوْمُ مِنَّا وَصَافَفْنَاهُمْ إِذَا رَجُلٌ مِنْهُمْ عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَحْمَرٌ يَسِيرُ فِي الْقَوْمِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا عَلِيُّ نَادِ حِمْرَةَ » وَكَانَ أَقْرَبَهُمْ مِنَ الْمَشْرِكِينَ مِنْ صَاحِبِ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ وَمَاذَا يَقُولُ لَهُمْ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنْ يَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَحَدٌ يَأْمُرُ بِخَيْرٍ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ » فَجَاءَ حِمْرَةَ فَقَالَ : هُوَ عَتَبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَهُوَ يَنْهَى عَنِ الْقِتَالِ وَيَقُولُ لَهُمْ : يَا قَوْمِ إِنْ أَرَى قَوْمًا مُسْتَبِيتِينَ لَا تَصْلُونَ إِلَيْهِمْ وَفِيكُمْ خَيْرٌ ، يَا قَوْمِ اعْصِبُوهَا الْيَوْمَ بِرَأْسِي وَقُولُوا جَبَنَ عَتَبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَقَدْ عَلِمْتُ أَنِّي لَسْتُ بِأَجُوبَكُمْ فَصَبَّحَ ذَلِكَ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ : أَنْتَ تَقُولُ

= فاجتَوَيْنَاهَا : أَي أَصَابَهُم الْجَوَى وَهُوَ الْمَرَضُ وَدَاءُ إِذَا تَطَاوَلَ وَذَلِكَ لَمْ يُوَافِقْهُمْ هَوَاؤُهَا .

وَاسْتَوْخَمُوهَا : يُقَالُ اجْتَمَعَتْ فِي الْبَلَدِ إِذَا كَرِهَتْ الْمَقَامَ فِيهِ وَإِنْ كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ .

الرَّوْعُ : أَذَى الْحَمَى وَوَجْعُهَا .

طَشٌ : هُوَ الضَّعِيفُ الْقَلِيلُ .

الْحَجَفَةُ : التَّرْسُ جَمْعُهَا : حَجَفٌ .

الضَّلْعُ : جَبِيلٌ مُنْفَرِدٌ صَغِيرٌ يَشْبَهُ بِالضَّلْعِ .

صَافَفْنَاهُمْ : أَيِ وَاقْفَانَاهُمْ وَقَنَا حِذَاهُمْ .

ذَلِكَ وَاللَّهُ لَوْ غَيْرَكَ يَقُولُ لَأَغْضَضْتُهُ ، قَدْ مَلِئْتُ رِئُوتَكَ رُغْبًا فَقَالَ عُبَيْةٌ : إِيَّايَ تَعْنِي يَامُصْفَرُّ إِسْمُهُ سَتَعْلَمُ الْيَوْمَ أَيُّنَا الْجَبَانُ قَالَ : فَهَرَزَ عُبَيْةٌ وَأَخُوهُ شَيْبَةُ وَابْنُ الْوَلِيدِ حِمَةَ ، فَقَالُوا : مَنْ يُبَارِزُ ؟ فَخَرَجَ فِتْيَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ سِتَّةٌ ، فَقَالَ عُبَيْةٌ : لَا نُرِيدُ هَؤُلَاءِ وَلَكِنْ يُبَارِزُنَا مِنْ بَنِي عَمْنَا مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « قُمْ يَا عَلِيُّ وَقُمْ يَا حَمْزَةُ وَقُمْ يَا عُبَيْدَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ الْمُطَّلِبِ » فَقَتَلَ اللَّهُ شَيْبَةَ وَعُبَيْةَ ابْنَيْ رِبِيعَةَ وَالْوَلِيدَ بْنَ عُبَيْةٍ وَجَرَحَ عُبَيْدَةَ ، فَقَتَلْنَا مِنْهُمْ سَبْعِينَ وَأَسْرُنَا سَبْعِينَ ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَسِيرًا ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ هَذَا وَاللَّهِ مَا أَسْرَنِي ، أَسْرَنِي رَجُلٌ أَجْلَحُ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا عَلَى فَرَسٍ أَبْلَقَ مَا أَرَاهُ فِي الْقَوْمِ . فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ : أَنَا أَسْرَتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : « اسْكُتْ فَقَدْ أَيْدَكَ اللَّهُ بِمَلِكٍ كَرِيمٍ » قَالَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَسْرُنَا مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ الْعَبَّاسَ وَعَقِيلًا وَنُوفَلَ بْنَ الْحَارِثِ .

٢٩٣ - * رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : تَقَدَّمَ عُبَيْةُ بْنُ رِبِيعَةَ ، وَتَبِعَهُ ابْنُهُ وَأَخُوهُ ، فَنَادَى : مَنْ يُبَارِزُ ؟ فَانْتَدَبَ لَهُ شَبَابٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ : مِنْ أَنْتُمْ ؟ فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ : لَا حَاجَةَ لَنَا فِيكُمْ ، إِنَّا أَرَدْنَا تَبْنِي عَمْنَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : قُمْ يَا حَمْزَةُ ، قُمْ يَا عَلِيُّ ، قُمْ يَا عُبَيْدَةَ بْنِ الْحَارِثِ ، فَأَقْبَلَ حَمْزَةُ إِلَى عُبَيْةٍ ، وَأَقْبَلَتْ إِلَى شَيْبَةَ ، وَاخْتَلَفَ بَيْنَ عُبَيْدَةَ وَالْوَلِيدِ ضَرْبَتَانِ ، فَأَخْضَنَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ ثُمَّ مَلْنَا عَلَى الْوَلِيدِ ، فَقَتَلْنَاهُ ، وَاحْتَمَلْنَا عُبَيْدَةَ .

لأغضضته : غضٌّ هن أيبك (وهي كلمة شتم عند العرب) .

ملئت رئتكَ رغباً : تعبير يقال لمن خاف خوفاً عظيماً .

يامصفر استه : الاست : المقعدة ، والتصغير يكون بدهنها بالخلوق وهو طيب أصفر اللون ، وهي شتية .

أجلح : الذي المحسر شعره عن جانبي رأسه . حية : الأنفة . أبلق : بَلَقَ الفرس : كان فيه سواد وبياض .

٢٩٣ - أبو داود (٣ / ٥٢) كتاب الجهاد - باب : في المبارزة .

يبارز : ينفرد عن جماعته ويظهر أمام عدوه .

فانتدب : ندبه إلى الأمر : كنصره ودعاه وحته .

اختلفت ضربتان : ترددت الضربة خلف الضربة الأخرى .

أخضن : بالغ في جراحة عدوه .

وفي رواية ذكرها رزين : لما كان يوم بدر تقدم عتبة بن ربيعة ، وشيبة أخوه ، والوليد بن عتبة ... وذكره ، وفيها : إنا أردنا أكفأنا من بني عمنّا . وفيه قال علي : فأما أنا وحمزة : فأعجزنا صاحبينا ، وأما عبيدة والوليد : فأئخذ كل واحد منهما صاحبه ... وذكره أقول : أخرج النبي ﷺ للمبارزة ثلاثة هم أقرب الناس إليه نسباً فلم يكن له ولد ذكر أو أخ أو أب وكان أقرب الناس منه حمزة وعلي ابن عمه وعبيدة ابن عمه الأعلى وهذا يعلمنا ألا نبخل بأقرب الناس منا لنقدمهم للجهاد ونعرضهم للشهادة ، وكان في هذا درس للصحابية والمسلمين بليغ .

٢٩٤ - * روى البزار عن عبد الله يعني ابن مسعود قال : كَانَ سَعْدٌ يُقَاتِلُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ قَتَلَ الْفَارِسَ وَالرَّاجِلَ .

٢٩٥ - * روى البخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة ، قال قيس : وفيهم نزلت : ﴿ هَذَانِ خَصِمَانِ اِخْتَصِمَا فِي رَبِّهِمْ ﴾ ^(١) قال : هم الذين بارزوا يوم بدر : علي ، وحمزة ، وعبيدة ، وشيبة ابن ربيعة : وعتبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة .

وفي رواية أن علياً قال . فينا نزلت هذه الآية ﴿ هَذَانِ خَصِمَانِ اِخْتَصِمَا فِي رَبِّهِمْ ﴾ .
٢٩٦ - * روى البخاري عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه : قال قيس بن عباد : سمعت أبا ذر يقسم قسمًا أن هذه الآية : ﴿ هَذَانِ خَصِمَانِ اِخْتَصِمَا فِي رَبِّهِمْ ﴾ نزلت في الذين بارزوا يوم بدر : حمزة وعلي ، وعبيدة بن الحارث ، وعتبة وشيبة ابني ربيعة ، والوليد بن عتبة .

٢٩٤ - كشف الأستار (٢ / ٣١٥) .

جمع الزوائد (٦ / ٨٢) وقال : رواه البزار بإسنادين أحدهما متصل والآخر مرسل ورجالهم ثقات .

٢٩٥ - البخاري (٨ / ٤٤٣) ٦٥ - كتاب التفسير - ٣ - باب ﴿ هَذَانِ خَصِمَانِ اِخْتَصِمَا فِي رَبِّهِمْ ﴾ .

فيجثو : أي : يقعد على ركبتيه .

(١) الحج : ١٩ .

٢٩٦ - البخاري (٧ / ٢٩٧) ٦٤ - كتاب المغازي - ٨ - باب : قتل أبي جهل .

ومسلم (٤ / ٢٣٢٣) ٥٤ - كتاب التفسير - ٧ - باب : في قوله تعالى : ﴿ هَذَانِ خَصِمَانِ اِخْتَصِمَا فِي رَبِّهِمْ ﴾ .

٢٩٧ - * روى أحمد عن عتبة بن عبد السلمي أن النبي ﷺ قال لأصحابه : « قُومُوا فِقَاتِلُوا » قالوا : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا تَقُولُ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ انْطَلِقْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فِقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ، وَلَكِنْ انْطَلِقْ أَنْتَ وَرَبُّكَ . يَاعِمِدْ فِقَاتِلَا وَإِنَّا مَعَكُمْ نَقَاتِلُ .

٢٩٨ - * روى البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال - وهو في قُبَّةِ يَوْمِ بَدْرٍ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أُنْشِدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ ، اللَّهُمَّ إِنِّي تَشَأُ لَا تُعْبِدَ بَعْدَ الْيَوْمِ » فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ فَقَالَ : حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلْحَحْتُ عَلَى رَبِّكَ ، وَهُوَ يَثِيبُ فِي الدَّرْعِ ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ : ﴿ سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ ^(١) .

قال في الفتوح : وعن سعيد بن منصور من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : « لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وتكاثرهم وإلى المسلمين فاستقلهم ، فرمى رَكَعَتَيْنِ وقام أبو بكر عن يمينه ، فقال رسول الله ﷺ وهو في صلاته : « اللَّهُمَّ لَا تُؤَدِّعْ مِنِّي ، اللَّهُمَّ لَا تَخْذِلْنِي ، اللَّهُمَّ لَا تَتَرَّكْنِي » .

وعند الطبراني بإسناد حسن عن ابن مسعود قال : « ما سمعنا مناشداً ينشد ضالة أشد مناشدة من محمد لربه يوم بدر : « اللَّهُمَّ إِنِّي أُنْشِدُكَ مَا وَعَدْتَنِي » قال السهيلي : سبب شدة اجتهاد النبي ﷺ ونصبه في الدعاء لأنه رأى الملائكة تنصب في القتال ، والأنصار يخوضون غمار الموت ، والجهاد تارة يكون بالسلاح وتارة بالدعاء ، ومن السنة أن يكون الإمام وراء الجيش لأنه لا يقاتل معهم فلم يكن ليريح نفسه ، فتشاغل بأحد الأمرين وهو الدعاء . قوله : (اللَّهُمَّ إِن شئت لم تعبد) في حديث عمر « اللَّهُمَّ إِن تَهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبِدْ فِي الْأَرْضِ » . أما « تَهْلِكْ » فبفتح أوله وكسر اللام ، « والعصابة » بالرفع ، وإنما قال ذلك لأنه علم أنه خاتم النبيين فلو هلك هو ومن معه حينئذ لم يبعث أحد من يدعو إلى الإيمان ، ولا استمرار المشركون يعبدون غير الله ، فالمعنى لا يعبد في الأرض

٢٩٧ - أحمد في مسنده (٤ / ١٨٤) . ومجمع الزوائد (٦ / ٧٤) وقال : رواه أحمد ورجاله ثقات .

٢٩٨ - البخاري (٨ / ٦١٩) ٦٥ - كتاب التفسير - ٥ - باب : قوله تعالى : ﴿ سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾

(١) القمر : ٤٥ .

بهذه الشريعة ، ووقع عند مسلم من حديث أنس أن النبي ﷺ قال هذا الكلام أيضاً يوم أحد ، وروى النسائي والحاكم من حديث علي قال : « قاتلت يوم بدر شيئاً من قتال ، ثم جئت فإذا رسول الله ﷺ يقول في سجوده : « يا حي يا قيوم » فرجعت فقاتلت ، ثم جئت فوجدته كذلك » .

قال الخطابي : لا يجوز أن يتوهم أحد أن أبا بكر كان أوثق بربه من النبي ﷺ في تلك الحال ، بل الحامل للنبي ﷺ على ذلك شفقتة على أصحابه وتقوية قلوبهم ، لأنه كان أول مشهد شهده ، فبالغ في التوجه والدعاء والابتهال لتسكن نفوسهم عند ذلك ، لأنهم كانوا يعلمون أن وسيلته مستجابة ، فلما قال له أبو بكر ما قال كف عن ذلك وعلم أنه استجيب له لما وجد أبو بكر في نفسه من القوة والطمأنينة ، فلهذا عقب بقوله « سيهزم الجمع » انتهى ملخصاً .

قوله (فخرج وهو يقول : سيهزم الجمع ويولون الدبر) وفي رواية أيوب عن عكرمة عن ابن عباس لما نزلت ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ قال عمر : أى جمع يهزم ؟ قال : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يشب في الدرع ويقول : (سيهزم الجمع) أخرجه الطبري وابن مردويه . وله من حديث أبي هريرة عن عمر : (لما نزلت هذه الآية قلت : يا رسول الله أى جمع يهزم ؟) فذكر نحوه وهذا مما يؤيد ما قدمته أن ابن عباس حمل هذا الحديث عن عمر ... اهـ .

٢٩٩ * - روى البخاري عن أبي أسيد رضي الله عنه قال : قال لنا رسول الله ﷺ يوم بدر : « إِذَا أَكْثَبُوكُمْ » يعني أكثروكم وفي أخرى يعني : أكثروكم - « فَأَرْمُوهُمْ ، وَاسْتَبَقُوا نَبْلَكُمْ » .

وفي أخرى لأبي داود ^(١) « إِذَا أَكْثَبُوكُمْ فَأَرْمُوهُمْ بِالنَّبْلِ وَلَا تَسْلُوا السُّيُوفَ حَتَّى يَغْشَوْكُمْ » .

٢٩٩ - البخاري (٣٠٦ / ٧) ٦٣ - كتاب المغازي - باب - ١٠ .

(١) أبو داود (٥٢ / ٣) كتاب الجهاد - باب : في سل السيوف عند اللقاء .

أكثروكم : قربوا منكم ، والكتب : القرب . غشواكم : دنوا منكم أو ازدحموا عليكم وكثروا .

طَرَفَاها ، قَالَ عُرْوَةُ : فَسَأَلَهُ إِيَّاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَأَعْطَاهُ ، فَلَمَّا قَبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَخَذَهَا ، ثُمَّ طَلَبَهَا أَبُو بَكْرٍ ، فَأَعْطَاهُ ، فَلَمَّا قَبِضَ أَبُو بَكْرٍ سَأَلَهَا إِيَّاهُ عُمَرُ ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا ، فَلَمَّا قَبِضَ عُمَرُ أَخَذَهَا ، ثُمَّ طَلَبَهَا عُمَانُ مِنْهُ ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا ، فَلَمَّا قَتَلَ عُمَانُ وَقَعَتْ عِنْدَ آلِ عَلِيٍّ ، فَطَلَبَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ ، فَكَانَتْ عِنْدَهُ حَتَّى قُتِلَ .

أقول : هذا الحديث يصلح أصلاً لفكرة المتاحف على أن يلحظ حدود الجائز في شأنها .

٣٠١ - * روى أبو يعلى عن علي بن أبي طالب قال : كُنْتُ عَلَى قَلِيبٍ فَكُنْتُ يَوْمَ بَدْرٍ أَمِيحٌ وَأَمْتَحُ مِنْهُ فَجَاءَتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ ، ثُمَّ جَاءَتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ شَدِيدَةٌ فَلَمْ أَرِ رِيحاً أَشَدَّ مِنْهَا إِلَّا الَّتِي كَانَتْ قَبْلَهَا ، ثُمَّ جَاءَتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ ، فَكَانَتْ الْأُولَى مِكَائِيلَ فِي أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَنِ يَمِينِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَالثَّانِيَةُ إِسْرَافِيلَ فِي أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَنِ يَسَارِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَالثَّالِثَةُ جِبْرِيلَ فِي أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ عَنِ يَمِينِهِ ، وَكُنْتُ عَنِ يَسَارِهِ ، فَلَمَّا هَزَمَ اللَّهُ الْكَفَّارَ حَمَلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى فَرْسِهِ ، فَلَمَّا اسْتَوَيْتُ عَلَيْهِ حَمَلَنِي بِفَصْرَتُ عَلَى عُنُقِهِ فَدَعَوْتُ اللَّهَ فَتَبَّنَنِي عَلَيْهِ فَطَعَنْتُ بِرُحْمِي حَتَّى بَلَغَ الدَّمُ إِبْطِي .

٣٠٢ - * روى الطبراني عن عروة قال : نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ بَدْرٍ عَلَى سَيْمَاءِ الزُّبَيْرِ ، وَهُوَ مُعْتَجِرٌ بِعِمَامَةٍ صَفْرَاءَ .

٣٠٣ - * روى البزار عن علي قال : قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ وَلَأَبِي بَكْرٍ يَوْمَ بَدْرٍ : « مَعَ أَحَدِكُمَا جِبْرِيلُ وَمَعَ الْآخَرِ مِكَائِيلُ ، وَإِسْرَافِيلُ مَلَكٌ عَظِيمٌ يَشْهَدُ الْقِتَالَ ، أَوْ

٣٠١ - أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٧٧) وقال : رواه أبو يعلى ورجاله ثقات .

متح : متح الدلو يمتحها إذا جنبها مسقياً لها ، وماحها يميحها إذا ملأها .

حمل بي : ظهر واشتد .

استويت عليه : صدت عليه .

٣٠٢ - أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٨٤) وقال : رواه الطبراني ، وهو مرسل صحيح الإسناد .

سما : السبا : العلامة .

معتجر : اعتجر فلان بالعمامة : لفها على رأسه وردّ طرفها على وجهه .

٣٠٣ - كشف الأستار (٢ / ٣١٤) . وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٨٢) وقال : رواه أحمد بن حنبل والبزار واللفظ له ،

ورجالها رجال الصحيح ، ورواه أبو يعلى .

قال في الفتح : والذي يظهر لي أن معنى قوله « واستبقوا نبلكم » لا يتعلق بقوله « ارموهم » وإنما هو كالبيان للمراد بالأمر بتأخير الرمي حتى يقربوا منهم ، أي إنهم إذا كانوا بعيداً لا تصيبهم غالباً ، فالمعنى استبقوا نبلكم في الحالة التي إذا رميت بها لا تصيب غالباً وإذا صاروا إلى الحالة التي يمكن فيها الإصابة غالباً فارموا . ا . هـ

* * *

عوامل النصر

جرت عادة القادة في الحروب أنهم يتقدمون لجندهم بتوجيهات القتال بين يدي المعركة والملاحظ من خلال هذا الحديث وغيره مما مر معنا ويمر ما يلي :

١ - أن توجيهات القتال كانت واضحة وحكيمة .

٢ - أن التعبئة النفسية كانت على أرقاها وأعلاها .

٣ - أن القناعة بالمعركة كانت كاملة .

وكل ذلك كانت عوامل مناسبة للوصول إلى النصر وهي جزء من عالم الأسباب الذي يجب أن يلاحظه المسلمون في معاركهم .

٣٠٠ - * روى البخاري عن الزبير بن العوام القرشي قال : لَقِيتُ يَوْمَ بَدْرٍ عَبِيدَةَ بْنَ سَعِيدِ بْنِ الْقَاصِ ، وَهُوَ مَدْجُجٌ ، لَا يُرَى مِنْهُ إِلَّا عَيْنَاهُ ، وَكَانَ يَكْنَى أَبَا ذَاتِ الْكَرْشِ ، فَقَالَ : أَنَا أَبُو ذَاتِ الْكَرْشِ ، فَحَمَلْتُ عَلَيْهِ بِالْقَنْزَةِ ، فَطَعَنْتُهُ فِي عَيْنِهِ ، فَمَاتَ ، قَالَ فَأُخْبِرْتُ أَنَّ الزَّبِيرَ قَالَ : لَقَدْ وَضَعْتُ رَجْلِي عَلَيْهِ ، ثُمَّ تَمَطَّاتُ فَكَانَ الْجُهْدُ : أَنْ نَزَعْتُهَا ، وَقَدْ انْتَشَى

٣٠٠ - البخاري (٧ / ٣١٤) ٦٤ - كتاب المغازي - باب : ١٢ .

مدجج : المدجج : الغائص في سلاحه .

العزة : شبه المكآزة في رأسها سنان كسنان الرمح .

تمطيت : تمطى : امتد وطال ومنه التبطي .

الجهد : بضم الجيم . الوسع والطاقة وبفتحها : المشقة . وقيل : هما لفتان في المشقة .

يَكُونُ فِي الصَّفِّ .

٣٠٤ - * روى البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: « هذا جبريل أخذ برأس قريسه ، عليه أذاة الحرب » .

٣٠٥ - * روى الحاكم عن أبي أمامة بن سهل قال : قال لي أبي : يا بني لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدثنا يشير بسيفه إلى رأس المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه .

٣٠٦ - * روى مسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : حدثني عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف ، وأصحابه ثلاثمائة وتسع عشر رجلاً ، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ، ثم مد يديه ، فجعل يهتف بربه يقول : « اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم أني ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام ، لا تبعذ في الأرض » فما زال يهتف بربه ماذا يدنيه مستقبلاً القبلة ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر ، فأخذ رداءه ، فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه ، وقال : يا نبي الله كذاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدِّمٌ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (١) فأمده الله بالملائكة ، قال سيبك : فحدثني ابن عباس قال : بينما رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه ، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه ، وصوت الفارس يقول : أقدم خيزوم فنظر إلى المشرك أمامه خر مستلقياً ، فنظر إليه ،

٣٠٤ - البخاري (٣١٢ / ٧) ٦٤ - كتاب المغازي - ١١ - باب شهود الملائكة بدرأ .

٣٠٥ - المستدرک (٤٠٩ / ٣) كتاب معرفة الصحابة ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

٣٠٦ - (١٣٨٣ / ٣) ٣٢ - كتاب الجهاد والسير - ١٨ - باب : الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ، وإباحة الغنائم .

هتف به : إذا ناداه وصاح به ، وللمراد به : الدعاء والتضرع في السؤال .

العصابة : الجماعة من الناس .

يناشده : للناشدة : السألة والطلب ، والابتهاال إلى الله تعالى .

مردفين : أي : متتابعين ، يتبع بعضهم بعضاً .

(١) الأنفال : ٩ .

يشتد : الشد : العتدؤ .

= خيزوم : اسم فرس من خيل الملائكة الذين أمده الله بهم المسلمين يوم بدر .

فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفَهُ وَشُقَّ وَجْهُهُ ، كَضَرْبَةِ السُّوْطِ ، فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ ، فَجَاءَ
الْأَنْصَارِيُّ ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : « صَدَقْتَ ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ
الثَّالِثَةِ » فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ ، وَأَسْرَوْا سَبْعِينَ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَلَمَّا أَسْرَوْا الْأَسَارَى ، قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ : « مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأَسَارَى ؟ » فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ :
يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِذْيَةً ، فَتَكُونَ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ ،
فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ؟ »
قُلْتُ : لَا وَاللَّهِ ، يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا أَرَى السَّيِّئَ رَأَى أَبُو بَكْرٍ ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا ،
فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ ، فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ ، وَتُمَكِّنِي مِنْ فُلَانٍ - نَسِيبًا لِعُمَرَ -
فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ ، فَإِنْ هَؤُلَاءِ أُمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا ، فَهَوَيْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ
يَهْوُ مَا قُلْتُ ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ ،
قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَخْبِرْنِي مِنْ أَيْ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ ؟ فَإِنْ وَجَدْتُ بَكَاءَ
بَكَيْتَ ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بَكَاءَ تَبَاكَيْتُ لِبَكَائِكُمَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ
عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ ، لَقَدْ عَرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ »
لِشَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ - وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَمَا كَانَ لَنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُنْثَى
حَتَّى يُفْشَخَ فِي الْأَرْضِ ثُرَيْدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *
لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا
طَيِّبًا ۖ ۝ (١) . فَاحْلُ اللَّهُ الْغَنِيَةَ لَهُمْ .

وأخرج الترمذي (٢) منه إلى قوله : فَأَمَدَهُ اللَّهُ بِالْمَلَايِكَةِ .

= خُطِمَ أَنْفُهُ : الْخُطْمُ - بِالْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ - الدَّقِيقُ وَالْكَسْرُ ، وَبِالْحَاءِ الْمَعْجَمَةِ : الْأَثَرُ عَلَى الْأَنْفِ ، كَمَا يُخْطَمُ الْبَعِيرُ بِالْكَيْ ،
يَقَالُ : خُطِمْتُ الْبَعِيرَ : إِذَا وَسَمْتَهُ بِكَيْ فِي الْأَنْفِ إِلَى أَحَدِ خَدَيْهِ ، وَالْخُطَامُ : السُّبَّةُ فِي عَرْضِ الْوَجْهِ إِلَى الْحَذِّ .
صَنَادِيدُهَا : الصَّنَادِيدُ جَمْعُ صَنْدِيدٍ ، وَهُوَ السَّيِّدُ الشَّجَاعُ .
فَهَوَيْ : هَوَيْتُ الشَّيْءَ أَهْوَاهُ : إِذَا مَلْتَ إِلَيْهِ ، وَرَغِبْتَ فِيهِ .
يُفْشَخُ : أَيِ حَقٌّ يَكْثُرُ فِيهَا الْقَتْلُ ، وَيَتَكَلَّنُ مِنْهَا ، وَتَقْوَى شَوْكَتَهُ .

(١) الْأَنْفَالُ : ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) الترمذي (٥ / ٢٦٩) كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ - بَابُ : وَمِنْ سُورَةِ الْأَنْفَالِ . قَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ .

وأخرج أبو داود ^(١) منه طرفاً قال : حدثني عَمْرُ بْنُ الخطاب قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ بدر ، فأخذ - يعني النبي ﷺ - الفداء ، فأنزل الله عز وجل ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ إلى قوله : ﴿ لِمَسَّكُمْ فِي مَا أُخَذْتُمْ ﴾ مِنَ الفداء ، ثم أحلَّ لهم الغنائم .

٣٠٧ - * روى البخاري ^(٢) عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال : بينا أنا واقفة في الصف يوم بدر ، فنظرت عن يميني وشمالِي فَإِذَا أَنَا بِغَلامَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ حَدِيثَةً أَسْنَانَهُمَا ، تَمَنَيْتُ أَنْ أَكُونَ بَيْنَ أَضْلَعِ مِنْهَا ، فَغَمَزَنِي أَحَدُهُمَا ، فَقَالَ : يَا عَمَّ ، هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، مَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا ابْنَ أَخِي ؟ قَالَ : أَخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، والذي نفسي بيده ، لئن رأيته لَا يَفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَةً حَتَّى يَمُوتَ الْأَعْجَلُ مِنَّا ، قَالَ : فَتَعَجَّبْتُ لَدَيْهِ ، قَالَ : فَغَمَزَنِي الْآخَرُ فَقَالَ لِي مِثْلَهَا ، فَلَمْ أَتَسَبَّ أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَجُولُ فِي النَّاسِ ، فَقُلْتُ : أَلَا إِنَّ هَذَا صَاحِبُكَ الَّذِي سَأَلْتَنِي ، فَأَبْتَدَرَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا فَضَرَبَاهُ حَتَّى قَتَلَاهُ ، ثُمَّ انْصَرَفَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَاهُ ، فَقَالَ : « أَيُّكُمَا قَتَلَهُ ؟ » قَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا : أَنَا قَتَلْتُهُ ، فَقَالَ : « هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا ؟ » قَالََا : لَا ، فَنَظَرَ فِي السَّيْفَيْنِ ، فَقَالَ : « كَلَّا كَمَا قَتَلَهُ لِمَعَادُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْجَمُوحِ » ، وَكَانَا مَعَادُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْجَمُوحِ وَمَعَادُ بْنُ عَفْرَاءَ .

وفي أخرى ^(٣) قال : إني لفي الصف يوم بدر ، إذ التفتُ فإذا عن يميني وعن يساري

(١) أبو داود (٢ / ٦١) كتاب الجهاد - باب : في فداء الأسير بالمال .

٣٠٧ - البخاري (٦ / ٢٤٦) ٥٧ - كتاب فرض الخمس - ١٨ - باب : من لم يخمس الأسلاب .

ومسلم (٣ / ١٣٧٧) ٣٢ - كتاب الجهاد والسير - ١٣ - باب : استحقاق القاتل سلب القتل .

بين أضلع منها أي : أقوى منها وأشد ، والضلع : القوي الشديد .

سوادي سواده : أي شخصي شخصه .

حتى يموت الأعجل منا : أي لا أفارقه حتى يموت أحدهما ، وهو الأقرب أجلاً .

لم أنسب : أي لم ألبث . أي لم يض زمن كثير على سؤالهما إلا وأنا رأيته .

كلاهما قتله : تطييباً لقلب الآخر من حيث أن له مشاركة في قتله . وإلا فالقتل الشرعي الذي يتعلق به استحقاق السلب ، وهو الإغثان وإخراجه عن كونه ممتنعاً ، إنما وجّه من معاذ بن عمرو بن الجموح ، فلهذا قضى له بالسلب .

(٢) البخاري (٧ / ٣٠٧) ٦٣ - كتاب المغازي - باب : ١٠ .

فَتَيَانُ حَدِيثًا السَّنَّ ، فَكَأَنِّي لَمْ أَمَنْ بِمَكَانِهَا ، إِذْ قَالَ لِي أَحَدُهُمَا سِرًّا مِنْ صَاحِبِهِ : يَاعَمَّ ، أَرْنِي أَبَا جَهْلٍ ، فَقُلْتُ : يَا ابْنَ أَخِي وَمَاتَصْنَعُ بِهِ ؟ قَالَ : عَاهَدْتُ اللَّهَ إِنْ رَأَيْتُهُ أَنْ أَقْتُلَهُ أَوْ أَمُوتَ دُونَهُ ، فَقَالَ لِي الْآخَرُ سِرًّا مِنْ صَاحِبِهِ مِثْلَهُ ، قَالَ : فَمَا سَرَنِي أَنِّي بَيْنَ رَجُلَيْنِ مَكَانِهَا ، فَأَشْرْتُ لَهَا إِلَيْهِ فَشَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ الصَّقْرَيْنِ ، حَتَّى ضَرَبَاهُ ، وَهُمَا ابْنَا عَفْرَاءَ .

٣٠٨ - * رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ « مَنْ يَنْظُرُ مَا صَنَعَ أَبُو جَهْلٍ » فَاَنْطَلِقُ ابْنُ مَسْعُودٍ فَوْجَدَةً قَدْ ضَرَبَهُ ابْنَا عَفْرَاءَ ، حَتَّى بَرَدَ فَأَخَذَ بِلَحْيَتَيْهِ ، فَقَالَ : أَنْتَ أَبُو جَهْلٍ ؟ قَالَ : وَهَلْ فَوْقَ رَجُلٍ قَتَلْتُمُوهُ ؟ أَوْ قَالَ : قَتَلْتُمُوهُ ؟ قَوْمُهُ ؟ .

وَفِي رِوَايَةٍ : قَالَ أَبُو جَهْلٍ : فَلَوْ غَيْرَ أَكْأَرُ قَتَلْتَنِي .

٣٠٩ - * رَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : أَدْرَكْتُ أَبَا جَهْلٍ يَوْمَ بَدْرٍ صَرِيحًا ، فَقُلْتُ : أَيَّ عَدُوِّ اللَّهِ قَدْ أَخْرَاكَ اللَّهُ قَالَ : وَبِمَا أَخْرَانِي مِنْ رَجُلٍ قَتَلْتُمُوهُ . وَمَعِيَ سَيْفٌ لِي فَجَعَلْتُ أَضْرِبُهُ وَلَا يَخْتَنِكُ فِيهِ شَيْءٌ وَمَعَهُ سَيْفٌ لَهُ جَيِّدٌ فَضَرَبْتُ يَدَهُ فَوَقَعَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ فَأَخَذْتُهُ ، ثُمَّ كَشَفْتُ الْمِغْفَرَ عَنْ رَأْسِهِ فَضَرَبْتُ عُنُقَهُ ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ : « اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » قُلْتُ : اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَالَ : « أَنْطَلِقْ فَاسْتَبَيْتُ » فَاَنْطَلَقْتُ وَأَنَا أَسْمَى مِثْلَ الطَّائِرِ ثُمَّ جِئْتُ وَأَنَا أَسْمَى مِثْلَ الطَّائِرِ أَضْحَكَ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَنْطَلِقْ » فَاَنْطَلَقْتُ مَعَهُ ، فَأَرَيْتُهُ فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِ ﷺ قَالَ : « هَذَا فِرْعَوْنُ هَذِهِ الْأُمَّةِ » .

٣٠٨ - الْبُخَارِيُّ (٧ / ٢٩٢) ٦٤ - كِتَابُ الْمَغَازِي - ٨ - بَابُ : قَتْلُ أَبِي جَهْلٍ . وَكَذَا فِي (٧ / ٢٢١) ٦٤ - كِتَابُ الْمَغَازِي - ١١ - بَابُ : شُهُودُ الْمَلَائِكَةِ بِدْرًا .

وَمُسْلِمٌ (٣ / ١٤٢٤) ٣٢ - كِتَابُ الْجِهَادِ وَالسِّيرِ - ٤١ - بَابُ : قَتْلُ أَبِي جَهْلٍ .

أَكْأَرُ : الْأَكْأَرُ : الْقَلَاحُ ، وَأَرَادَ بِقَوْلِهِ ذَلِكَ اسْتِصْفَارًا وَاسْتِعْظَامًا ، كَيْفَ مِثْلُهُ يَقْتُلُ مِثْلَهُ .

حَتَّى بَرَدَ : أَيَّ صَارَ فِي حَالَةٍ مِنْ مَاتَ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا حَرَكَةُ اللَّذْبِ .

٣٠٩ - أَوْرَدَهُ الْمِيشِيُّ فِي جَمْعِ الزَّوَادِ (٦ / ٧٩) وَقَالَ : رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ وَرِجَالُهُ الصَّحِيحُ ، غَيْرَ مُحَمَّدَ بْنِ وَهْبٍ بِنِ أَبِي كَرِيمَةٍ ، وَهُوَ ثِقَةٌ .

الْمِغْفَرُ : زَرْزَرَةٌ يَنْسُجُ مِنَ الدَّرْعِ عَلَى قَدْرِ الرَّأْسِ يَلْبَسُ تَحْتَ الْقَلَنْسُوَةِ .

٣١٠ - * روى الطبراني عن حكيم بن حزام قال : سَمِعْنَا صَوْتًا وَقَعَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ كَأَنَّهُ صَوْتُ حَصَاةٍ فِي طَسْتٍ وَرَمَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتِلْكَ الْحَصَاةِ فَانْهَزْنَا .

٣١١ - * روى البزار عن ابن عباس ، قال : أَخَذْتُهُمْ رِيحٌ عَقِيمٌ يَوْمَ بَدْرٍ .

٣١٢ - * روى الطبراني عن ابن عباس ، أن النبي ﷺ قال لعلي : « ناولني كُفًّا مِنْ حَصَى » فَنَاولَهُ ، فَرَمَى بِهِ وَجْهَ الْقَوْمِ فَمَا بَقِيَ أَحَدٌ مِنَ الْقَوْمِ إِلَّا امْتَلَأَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحَصَاةِ ، فَزَلَّتْ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ... ﴾ (١) .

أقول : وهكذا اجتمع في بدر الأخذ بالأسباب بالقدر الممكن مع التوفيق الرباني في تهيئة جميع أسباب النصر متعاونة متكافئة مع التأييدات الربانية الخارقة والغيبية ، ففي عالم الأسباب تشكّل دراسة الأرض والطقس ووجود القيادة والثقة بها والروح المعنوية لبينات أساسية في صحة القرار العسكري ، ولقد كانت الأرض لصالح المسلمين وكان الطقس مناسباً للمعركة ، والقيادة الراقية موجودة والثقة بها عالية والروح المعنوية سابقة ، وبعض من هذه المعاني كان من الله بشكل مباشر وتوقيفه وبعضها كان من فعل رسول الله ﷺ أخذاً بالأسباب المطلوبة فتضافر الأخذ بالأسباب مع توفيق الله وزيد على ذلك التأييدات الغيبية والخارقة فكان ما كان ، وذلك نموذج على ما يعطاه المسلمون بفضل الله إذا ما صلحت النيات عند الجند والقيادة ووجدت الاستقامة على أمر الله ، وأخذ المسلمون بالأسباب .

* * *

٣١٠ - أوردته الهيثمي في المجمع (٨٤ / ٦) وقال : رواه الطبراني في الكبير والأوسط وإسناده حسن .

٣١١ - أوردته الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٧ / ٦) وقال : رواه البزار ورجاله ثقات .

الريح العقيم : هي التي لا تلقح .

٣١٢ - للمعجم الكبير (٢٨٥ / ١١) وأوردته الهيثمي في المجمع (٨٤ / ٦) وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح .

(١) الأنفال : ١٧ .

٣١٣ - * روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أم الرُّبَيْع بنت البراء - وهي أم حارثة بن سُرَاقَة - أتت النبي ﷺ ، فقالت : يا نبي الله ألا تحذني عن حارثة - وكان قُتِلَ يوم بدر ، أصابه سهمٌ غَرِبَ - فإن كان في الجنة صَبَرْتُ ، وإن كان غير ذلك اجتهدتُ عليه في البكاء ؟ قال : « يا أم حارثة ، إنها جَنَانٌ في الجنة ، وإن ابْنَكِ أصابَ الفِرْدَوْسَ الأعلى » .

وفي رواية ^(١) : قال أنس : أصيبت حارثة يوم بدر وهو غلام ، فجاءت أمه إلى النبي ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ، قد عَرَفْتُ منزلة حارثة مني ، فإن يك في الجنة أصبر وأحتسب ، وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع ، فقال : « وَيَحْكُ - أو هَبَلَتْ - أو جَنَّة واحدة هي ؟ إنها جنان كثيرة ، وإنه في جنة الفِرْدَوْسِ » .

وزاد زرين : « وإنه في الفِرْدَوْسِ الأعلى . وسَقَفُهُ عَرْشُ الرحمن ، ومنه تَفَجَّرَ أنهارُ الجنة ، وإن غدوةً في سبيلِ الله أو رَوْحَةً خَيْرٌ مِنَ الدنيا وما فيها ، وَلَقَابٌ قَوْسٌ أَحَدِكُمْ - أو موضعٌ قَدَّه - من الأرض في الجنة خَيْرٌ مِنَ الدنيا وما فيها ، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلَّعتْ إلى الأرض لأضاءت الدنيا وما فيها ، وَلَنَصِيفُهَا - يعني خِيارَها - خَيْرٌ مِنَ الدنيا وما فيها » .

٣١٤ - * روى الحاكم عن عبد الله بن عباس ، ذكر حديثَ المَبَارِزَةِ وأن عُبَيْدَةَ بن ربيعة قتل عُبَيْدَةَ بن الحارث مَبَارِزَةً ضَرَبَهُ عُبَيْدَةُ على سَاقِهِ ففقطعها فحمله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فمات بالصَّفراءِ مُنْصَرَفِهِ من بدرٍ فَدَفَنَهُ هنالك .

٣١٣ - البخاري (٦ / ٢٦) ٥٦ - كتاب الجهاد - ١٤ - باب : من أتاه سهم غرب فقتله .

سهم غرب : يقال : أصابه سهم غرب ، يضاف ولا يضاف ، وتحرك الراء وتسكن إذا لم يدر من أين أتاه .
ولَقَابٌ قَوْسٌ أَحَدِكُمْ - أو مَوْضِعٌ قَدَّه : القاب : القدر ، والقُدْ : السوط ، يعني لَقْدَرُ قَوْسِهِ مِنَ الجنةِ خَيْرٌ مِنَ الدنيا وما فيها .

(١) البخاري (١١ / ٤١٥) ٨١ - كتاب الرقاق - ٥١ - باب : صفة الجنة والنار

٣١٤ - المستدرک (٣ / ١٨٨) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .
الصفراف : واد قرب المدينة كثير النخل والزرع والخير يجلب منه التمر إلى المدينة .

٣١٥ - * روى البخاري عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال : كَاتَبْتُ أُمِيَّةَ بِنَ خَلْفٍ كِتَابًا : بَأَن يَحْفَظَنِي فِي صَاحِيَّتِي بِمَكَّةَ ، وَأَحْفَظُهُ فِي صَاحِيَّتِهِ بِالْمَدِينَةِ ، فَلَمَّا ذَكَرْتُ (الرَّحْمَنَ) قَالَ : لَا أَعْرِفُ الرَّحْمَنَ ، كَاتِبُنِي بِاسْمِكَ الَّذِي كَانَ لَكَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَكَاتَبْتُهُ (عَبْدُ عَمْرُو) فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ بَذْرِ خَرَجْتُ إِلَى جَبَلٍ لِأُخْرِزَهُ حِينَ نَامَ النَّاسُ فَأَبْصَرَهُ بِلَالٌ ، فَخَرَجَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى مَجْلِسٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ : أُمِيَّةُ بِنَ خَلْفٍ ، لَا نَجُوتُ إِنْ نَجَا أُمِيَّةُ ، فَخَرَجَ مَعَهُ فَرِيقٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي آثَارِنَا ، فَلَمَّا خَشِيتُ أَنْ يُلْحَقُونَا خَلَفْتُ لَهُمْ ابْنَهُ ، لِأَشْغَلَهُمْ بِهِ ، فَقَتَلُوهُ ، ثُمَّ أَبُوَا حَتَّى يَتَّبِعُونَا ، وَكَانَ رَجُلًا ثَقِيلًا . فَلَمَّا أَذْرَكُونَا قُلْتُ لَهُ : ابْرُكْ ، فَبَرِكَ ، فَأَلْقَيْتُ عَلَيْهِ نَفْسِي لِأَمْنَعَهُ ، فَتَجَلَّلُوهُ بِالسُّيُوفِ مِنْ تَحْتِي حَتَّى قَتَلُوهُ ، وَأَصَابَ أَحَدَهُمْ رَجُلِي بِسَيْفِهِ ، وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يُرِينَا ذَلِكَ الْأَثَرُ فِي ظَهْرِ قَدَمِهِ .

وفي رواية : فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ ، حَصَلَ لِي دَرَعَانِ ، فَلَقِيْنِي أُمِيَّةُ فَقَالَ : خُذْنِي وَابْنِي ، فَأَنَا خَيْرٌ لَكَ مِنَ الدَّرْعَيْنِ ، أَفْتَدِي مِنْكَ ، فَرَأَاهُ بِلَالٌ ، فَقَالَ : أُمِيَّةُ رَأْسُ الْكَفَرِ ، لَا نَجُوتُ إِنْ نَجَا أُمِيَّةُ ، فَقَتَلَهَا ، فَكَانَ ابْنُ عَوْفٍ يَقُولُ : يَرْحَمُ اللَّهُ بِلَالَ ، فَلَا دِرْعِي وَلَا أَسِيرِي .

قال في الفتح : قوله : (بَأَن يَحْفَظَنِي فِي صَاحِيَّتِي) الصَاحِيَّةُ بَصَادٌ مَهْمَلَةٌ وَغَيْنٌ مَعْجَمَةٌ خَاصَّةُ الرَّجُلِ ، مَأْخُوذٌ مِنْ صَغَى إِلَيْهِ إِذَا مَالَ . قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : صَاحِيَّةُ الرَّجُلِ كُلٌّ مِنْ يَمِيلُ إِلَيْهِ ، وَيَطْلُقُ عَلَى الْأَهْلِ وَالْمَالِ . وَقَالَ ابْنُ التِّينِ : رَوَاهُ الدَّوْدِيُّ طَاعَنَتْنِي بِالظَّاءِ الْمَشَالَةِ الْمَعْجَمَةُ وَالْعَيْنِ الْمَهْمَلَةُ بَعْدَهَا نُونٌ ، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِأَنَّهُ الشَّيْءُ الَّذِي يَسْفِرُ إِلَيْهِ قَالَ وَلَمْ أَرْ هَذَا لَغِيْرِهِ . قوله : (لَا أَعْرِفُ الرَّحْمَنَ) أَيُّ لَا أَعْتَرَفُ بِتَوْحِيدِهِ ، وَزَادَ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي حَدِيثِهِ أَنَّ أُمِيَّةَ بِنَ خَلْفٍ كَانَ يَسْمِيهِ عَبْدَ الْإِلَهِ . قوله : (حِينَ نَامَ النَّاسُ) أَيُّ رَقَدُوا ، وَأَرَادَ بِذَلِكَ اغْتِنَامَ غَفْلَتِهِمْ لِيَصُونَ دَمَهُ . قوله (فَقَالَ : أُمِيَّةُ بِنَ خَلْفٍ) بِالنَّصْبِ عَلَى الْإِغْرَاءِ ، أَيُّ عَلَيْكُمْ أُمِيَّةُ ، وَفِي رِوَايَةِ أَبِي ذَرٍّ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مُضْهِرٍ أَيُّ هَذَا أُمِيَّةُ . قوله : (خَلَفْتُ لَهُمْ)

٣١٥ - البخاري (٤١ / ١٨٠) ٤٠ - كتاب الوكالة ٢ - باب . إذا وكل المسلم حربياً في دار الحرب أو في دار الإسلام .

لأُخْرِزَهُ : أَيُّ : لِأَحْوَطِهِ وَأَحْفَظَهُ مِنَ الْقَتْلِ ، وَمِنْهُ الْحَرْزُ ، وَهُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يَجْمَعُ فِيهِ الشَّيْءُ . فَتَحَلَّلُوهُ : تَحَلَّلُوهُ بِالسُّيُوفِ . أَيُّ : قَتَلُوهُ بِهَا طَعْنًا ، جَعَلَ السُّيُوفَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ كَالْأَخْلَةِ ، حَيْثُ لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَصْرَبُوهُ بِهَا .

ابنه) هو علي بن أمية ، ووجه أخذ الترجمة من هذا الحديث أن عبد الرحمن بن عوف وهو مسلم في دار الإسلام فوض إلى أمية بن خلف وهو كافر في دار الحرب ما يتعلق بأمواره ، والظاهر اطلاع النبي ﷺ عليه ولم ينكره ، قال ابن المنذر : توكيل المسلم حريياً مستأمناً وتوكيل الحربي المستأمن مسلماً لا خلاف في جوازه . قوله (وكان رجلاً ثقیلاً) أي ضخمة الجثة .

٣١٦ - * روى الطبراني عن شقيق أن ابن مسعود حَدَّثَهُ : أَنَّ الثَّانِيَةَ عَشَرَ الَّذِينَ قُتِلُوا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرَ جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي الْجَنَّةِ فِي طَيْرٍ خَضِرٍ تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ ، فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَطْلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ أَطْلَاعَةً ، فَقَالَ : يَا عِبَادِي مَاذَا تَشْتَهُونَ ؟ فَقَالُوا : يَا رَبَّنَا هَلْ فَوْقَ هَذَا شَيْءٌ قَالَ : فَيَقُولُ عِبَادِي مَاذَا تَشْتَهُونَ ؟ فَيَقُولُونَ فِي الرَّابِعَةِ تَرُدُّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا فَتَقْتُلُ كَمَا قَتَلْنَا .

أقول : المشهور أن الذين استشهدوا من المسلمين يوم بدر أربعة عشر فلعل ذكر الثانية عشر ههنا وهم ، وقد ذكر أسماء الشهداء ابن كثير في البداية والنهاية فقال :

وكان الذين استشهدوا من المسلمين يومئذ أربعة عشر رجلاً : من المهاجرين ستة وهم : عبيدة بن الحارث بن المطلب قطعت رجله فمات بالصفراء رحمه الله ، وعُمير بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص الزُّهري قتله العاص بن سعيد وهو ابن ست عشرة سنة ويقال إنه كان قد أمره رسول الله ﷺ بالرجوع لصغره فبكى فأذن له في الذهاب فقتل رضي الله عنه ، وحليفهم ذو الشمالين بن عبد عمرو الحِزَاعِي ، وَصَفْوَانُ بْنُ بِيضَاءَ ، وَعَاقِلُ بْنُ الْبَكَّيرِ اللَّيْثِي حليف بني عدي، ومهجع مولى عمر بن الخطاب وكان أول قتيل قُتِلَ من المسلمين يومئذ، ومن الأنصار ثمانية وهم : حارثة بن سراقة رماه حِجَابُ بْنُ الْعَرَقَةِ بسهم فأصاب خَنْجَرَتَهُ فمات ، ومَعْمُودٌ وَعُوفُ ابْنَا عَفْرَاءَ ، وَيَزِيدُ بْنُ الْحَارِثِ - ويقال ابن قُسْحَمَ - وَعُمَيْرُ بْنُ الْحَمَامِ ، وَرَافِعُ بْنُ الْمَعْلَى وسعد بن خيثمة ، ومبشر بن عبد المنذر رضي الله عن جميعهم .

٣١٧ - * روى الترمذي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : لما فرغ رَسُولُ اللَّهِ

٣١٦ - أورده الميمني في جمع الزوائد (١ / ٦) وقال : رواه الطبراني ورجاله ثقات .

٣١٧ - الترمذي (٥ / ٢٦٩) كتاب التفسير - باب : ومن سورة الأنفال . وقال : هذا حديث حسن صحيح .

ﷺ مِنْ بَدْرِ قِيلَ لَهُ : عَلَيْكَ الْعِيرُ ، لَيْسَ ذُنُهَا شَيْءٌ ، قَالَ : فَنَادَاهُ الْعَبَّاسُ وَهُوَ فِي وَثَاقِهِ : لَا يَصْلَحُ ، وَقَالَ لِأَنَّ اللَّهَ وَعَدَكَ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ، وَقَدْ أَعْطَاكَ مَا وَعَدَكَ .

قال صاحب الفتح الرباني : العير بكسر العين الإبل بأحمالها يعني عير أبي سفيان التي كان رسول الله ﷺ خرج بالمسلمين من المدينة يريدوها فبلغ ذلك أهل مكة فأسرعوا إليها وسبقت العير المسلمين ، فلما فاتهم العدو نزل النبي ﷺ بالمسلمين بداراً فوق القتال ، وهذه العير يقال كانت ألف بعير وكان المال خمسين ألف دينار وكان فيها ثلاثون رجلاً من قريش وقيل أربعون وقيل ستون ، (ليس دونها شيء) أي ليس دون العير شيء يزاحمك ، (فناداه العباس) يعني ابن عبد المطلب وكان إذ ذاك أسيراً (في وثاقه) بكسر الواو وفتحها ما يشد به من قيد وحبل ونحوهما (لا يصلح لك) أي لا ينبغي لك . المراد بالطائفتين العير والنفير فكان في العير أبو سفيان ومن معه كعمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل وما معه من الأموال ، وكان في النفير أبو جهل وعتبة بن ربيعة وغيرهم من رؤساء قريش ، زاد الترمذي قال : أي النبي ﷺ (صدقت) أي فيما قلت . اهـ .

٣١٨ - * روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن أبي طلحة قال : إن نبي الله ﷺ ، أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش ، فقتلوا في طوي من أطواء بدر خبيث مخبث ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرضة ثلاث ليالٍ ، فلما كان ببدر اليوم الثالث : أمر براحلته فشد عليها رحلها ، ثم مشى ، وأتبعه أصحابه ، وقالوا : ما نرى ينطق إلا لبعض حاجته حتى قام على شفة الركي فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : « يا فلان بن فلان ، ويا فلان بن فلان ، أيسرُكم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ » فقال عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ؟ فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفس محمد

= وأحد في مسنده (١ / ٢٢٩) .

٣١٨ - البخاري (٧ / ٣٠٠) ٦٤ - كتاب المغازي - ٨ - باب : قتل أبي جهل . ومسلم (٤ / ٢٢٠٤) ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - ١٧ - باب : عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه . عرصة الدار : ساحتها .

الرحل : رحل البعير : ما يوضع على ظهره للركوب فكل شيء يعد للرحيل من وعاء للنتاع وغيره .

بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » قال قتادة : أحيّاهم الله حتى أسمعهم قوله ،
تويخاً ، وتصفيراً ، وثقمة ، وحسرة ، ونذماً .

قال صاحب فتح الباري : وسيأتي من حديث البراء أن قتل بدر من الكفار كانوا
سبعين ، وكان الذين طرحوا في القلب كانوا الرؤساء منهم ثم من قریش ، وخصوصاً بالمخاطبة
المذكورة لما كان تقدم منهم من المعاندة ، وطرح باقي القتلى في أمكنة أخرى . وأفاد الواقدي
أن القلب المذكور كان حفرة رجل من بني الناز فناسب أن يلقي فيه هؤلاء الكفار .
قوله : (على شفة الركي) أي طرف البئر ، وفي رواية الكشيهي (على شفير الركي) والركي
بفتح الراء وكسر الكاف وتشديد آخره : البئر قبل أن تطوى . والإطواء جمع طوى وهي
البئر التي طويت وبنيت بالحجارة لتثبت ولا تنهار ، ويجمع بين الروايتين بأنها كانت
مطوية فاستهدمت فصارت كالركي . قوله : (فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : يافلان
بن فلان) في رواية حميد عن أنس (فنادى يا عتبة بن ربيعة ، ويأمية بن خلف ، يا أبا
جهل بن هشام) أخرجه ابن إسحق وأحمد وغيرهما ، وكذا وقع عند أحمد ومسلم من طريق
ثابت عن أنس ، فسمى الأربعة ، لكن قدم وآخر ، وسيأقاهم . قال في أوله : (تركهم
ثلاثة أيام حتى جيفوا) فذكره ، وفيه من الزيادة : فسمع عمر صوته فقال : يارسول الله
أتناديهم بعد ثلاث ، وهل يسمعون ؟ اهـ

٣١٩ - * روى الطبراني عن عبد الله بن مسعود قال : وقف رسول الله ﷺ على أهل
القلب فقال : « يا أهل القلب هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني وجدت ما
وعدني ربي حقاً » قالوا : يارسول الله هل يستمعون ما تقول ؟ قال : « ما أنتم بأسمع لما
أقول منهم ولكنهم اليوم لا يجيبون » .

٣٢٠ - * روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر
ثلاثاً ، ثم أتاهاهم ، فقام عليهم ، فناداهم فقال : « يا أبا جهل بن هشام ، يا أمية بن

٣١٩ - أورده الميشتي في مجمع الزوائد (٦ / ٩١) وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح .

٣٢٠ - مسلم (٤ / ٢٢٠٢) ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعمها وأهلها - ١٧ - باب : عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ،

= وإثبات عذاب القبر ، والتعوذ منه .

خَلَفٍ ، يَا عَتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ ، أَلَيْسَ قَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ، فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا » فسمع عمر قول النبي ﷺ ، فقال : يارسول الله ، كيف يسمعون ؟ وأنى يجيبوا وقد جئُوا ؟ قال : « والذي نفسي بيده ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا » ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ فَسُحِبُوا ، فَأُلْقُوا فِي قَلْبٍ بِدِرٍ .

قال النووي : (ما أنتم بأسمع لما أقول منهم) : قال المازري : قال بعض الناس : الميت يسمع عملاً بظاهر الحديث ثم أنكره المازري وادعى أن هذا خاص في هؤلاء ورد عليه القاضي عياض وقال : يحمل سماعهم على ما يحمل عليه سماع الموتي في أحاديث عذاب القبر وفتنته التي لا مدفع لها وذلك بإحيائهم أو إحياء جزء منهم يعقلون به ويسمعون في الوقت الذي يريد الله . ١ هـ .

هذا كلام القاضي وهو الظاهر المختار الذي تقتضيه أحاديث السلام على القبور والله أعلم . ولأن عائشة رضي الله عنها كان لها تحفظ على بعض هذه الروايات فقد قال ابن حجر في الفتح :

ومن الغريب أن في المازري لابن إسحق رواية يونس بن بكير بإسناد جيد عن عائشة مثل حديث أبي طلحة وفيه « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » وأخرجه أحمد بإسناد حسن ، فإن كان محفوظاً فكأنها رجعت عن الإنكار لما ثبت عندها من رواية هؤلاء الصحابة لكونها لم تشهد القصة ، قال الإسماعيلي : كان عند عائشة من الفهم والذكاء وكثرة الرواية والغوص على غوامض العلم مالا مزيد عليه ، لكن لا سبيل إلى رد رواية الثقة إلا بنص مثله يدل على نسخه أو تخصيصه أو استحالته ، فكيف واجمع بين الذي أنكرته وأثبتته غيرها ممكن .

٣٢١ - * روى الحاكم عن أمامة بن سهل قال : لما قرع رسول الله صلى الله عليه وآله

جَئُوا : جاف القليل وجئف : إذا أتن .

القليل : البكر يذكر ويؤنث .

٣٢١ - المستدرک (٢ / ٢١٨) وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وسكت عنه الذهبي .

وسلم من بدرٍ بعث بشيرَيْنِ إلى أهل المدينة ، بعثَ زيد بن حارثة إلى أهل السافلة وبعث عبد الله بن رَوَاحَةَ إلى أهل العالية يُبَشِّرُونَهُم بفتح الله على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فوافق زيد بن حارثة ابنه أسامة حين سوى التراب على رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقيل له : ذاك أبوك حين قدم قال أسامة : فجئت وهو واقف للناس يقول : قَتَلَ عَثْبَةُ بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام ونُبَيَّة ومُتَبِه وأمِيَّة بن خَلَفٍ فقلت : يا أبتِ أحقَّ هذا قال : نعم ، والله يا بُنَيَّ .

٣ - الأنفال

٣٢٢ - * روى أحدٌ عن عبادة بن الصامتِ قال : خَرَجْنَا مع النبي ﷺ فشهد مَعَهُ بَدْرًا قَالَتُنِي النَّاسُ فَهَزَمَ اللَّهُ تبارك وتعالى العدوَّ فَانْطَلَقَتْ طَائِفَةٌ فِي آثَارِهِمْ يَهْزِمُونَ وَيَقْتُلُونَ ، فَأَكْبَتْ طَائِفَةٌ عَلَى الْعَسْكَرِ يَحْوُونَهُ وَيَجْمَعُونَهُ أُخْذَقْتُ طَائِفَةٌ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا يُصِيبُ الْعَدُوَّ مِنْهُ غَزَّةٌ حَتَّى إِذَا كَانَ اللَّيْلُ وَقَاءَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالِ الَّذِينَ جَمَعُوا الْغَنَائِمَ نَحْنُ جَوَيْنَاهَا وَجَمَعْنَاهَا فَلَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهَا نَصِيبٌ ، وَقَالَ الَّذِينَ خَرَجُوا فِي طَلَبِ الْعَدُوِّ لَسْتُ بِأَحَقَّ بِهَا مِنَّا نَحْنُ نَقِينَا عَنْهَا الْعَدُوَّ ، وَهَزَمْنَاهُمْ ، وَقَالَ الَّذِينَ أُخْذِقُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَسْتُ بِأَحَقَّ بِهَا مِنَّا ، نَحْنُ أُخْذِقْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخِيفْنَا أَنْ يُصِيبَ الْعَدُوَّ مِنْهُ غَزَّةٌ وَاشْتَغَلْنَا بِهِ فَزَلْتُ : هُوَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴿١﴾ فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى فَوَاقِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَغَارَ فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ وَنَفَلَ الرَّيْعَ ، وَإِذَا أَقْبَلَ رَاجِعًا وَكُلَّ النَّاسِ نَفَلَ الثَّلَثَ ، وَكَانَ يَكْرَهُ الْأَنْفَالَ وَيَقُولُ : « لِيَرُدَّ قَوِيُّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى ضَعِيفِهِمْ » .

العالية : اسم لما كان من جهة نجد من المدينة من قراها وعمايرها .
سوى : سوى الشيء : قومه وعدله وجعله سويًا .

٣٢٢ - أحد في مسنده (٢٢٤ / ٥) .

غزوة : غزلة في البيضة - جمع غزير .

فاء : رجع .

النفل : الغنمة .

(١) الأنفال : ١ .

روى الترمذي وابن ماجه منه : كَانَ يَنْفَلُ فِي الْبَدَأَةِ الرَّبْعَ وَفِي الْقَفُولِ الثَّلَاثَ فَقَطْ . وفي رواية عنده سألت عبادة بن الصامت رحمه الله عن الأنفالِ فقال : فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا ، فانتزعة الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمة رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بؤاء يقول على السواء .

أقول : (في البدأة الربيع) : أراد بالبدأة ابتداء الغزو ، وبالرجعة القفول منه . قال في النهاية باختصار : (أي إذا نهضت سرية من جملة العسكر المقبل على العدو فأوقعت بهم نفلها الربيع ، وإذا فعلت ذلك عند عود العسكر نفلها الثلث لأن الكرة الثانية أشق ولأنهم في الأول أنشط وأشهى وهي عند القفول أضعف وأفتر .

٣٢٣ - * روى الترمذي عن سعد بن أبي وقاص قال : لما كان يوم بدر ، جئت بسيفي ، فقلت : يا رسول الله ، إن الله قد شفى صدري من المشركين - أو نحو هذا - هب لي هذا السيف ، فقال : « هذا ليس لي ولا لك » ، فقلت : عسى أن يعطى هذا من لا يبلي بلائي ، فجاءني الرسول فقال : « إنك سألتني وليست لي وقد صارت لي ، وهو لك » قال : فنزلت ﴿ يسألونك عن الأنفال .. ﴾ الآية .

٣٢٤ - * روى الترمذي عن عبادة بن الصامت : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَنْفَلُ فِي الْبَدَأَةِ الرَّبْعَ وَفِي الْقَفُولِ الثَّلَاثَ .

٣٢٥ - * روى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَنَفَّلَ سَيْفَهُ ذَا الْفَقَارِ

٣٢٣ : الترمذي (٥ / ٢٦٨) كتاب تفسير القرآن - باب : ومن سورة الأنفال . وقال : حديث حسن صحيح .

وأبو داود (٢ / ٧٧) كتاب الجهاد - باب : في النفل .

يُنْبَلِي بِلَاكِي : أُنْبِلْتُ بِلَاءاً حسناً ، أي : صُنَعْتُ ، والأصل فيه : الابتلاء والاختبار ، أي : فَعَلْتُ بِنَفْلٍ اخْتَبَرْتُ فِيهِ ، وظهر به خيري وشري .

٣٢٤ - الترمذي (٤ / ١٣٠) كتاب السير - باب : في النفل .

وقال : وفي الباب عن ابن عباس وحبيب بن مسلمة ومعن بن يزيد وابن عمر وسلمة بن الأكوع . وحديث عبادة حديث حسن .

٣٢٥ - الترمذي (٤ / ١٣٠) كتاب السير - باب : في النفل . وقال : هذا حديث حسن غريب .

تنفل : تنفل الشيء : إذا أخذه زيادة عن السهم .

ذا الفقار : اسم سيف النبي ﷺ ، سمي بذلك لأنه كان فيه خفر صفار حسان ، فيقال للحفرة : فُخْرَةٌ .

يَوْمَ بَذِرَ وَهُوَ الَّذِي رَأَى فِيهِ الرُّؤْيَا يَوْمَ أُحُدٍ .

قال الترمذي : وَقَدْ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي النَّقْلِ مِنَ الْخُمْسِ . فَقَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ : لَمْ يَبْلُغْنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَقَلَ فِي مَغَازِيهِ كُلِّهَا .

وَقَدْ بَلَغْنِي أَنَّهُ نَقَلَ فِي بَعْضِهَا وَإِنَّمَا ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الاجْتِهَادِ مِنَ الْإِمَامِ فِي أَوَّلِ الْمَغْنَمِ وَآخِرِهِ ، قَالَ ابْنُ مَنصُورٍ : قُلْتُ لِأَحْمَدَ : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَقَلَ إِذَا فَصَلَ بِالرُّبْعِ بَعْدَ الْخُمْسِ وَإِذَا فَصَلَ بِالثُّلُثِ بَعْدَ الْخُمْسِ ؟ فَقَالَ : يُخْرِجُ الْخُمْسَ ثُمَّ يَنْقُلُ مَا بَقِيَ وَلَا يُجَاوِزُ هَذَا .

قال أبو عيسى : وَهَذَا الْحَدِيثُ عَلَى مَا قَالَ الْمُسَيَّبُ النَّقْلُ مِنَ الْخُمْسِ ، قَالَ إِسْحَاقُ كَمَا قَالَ .

٣٢٦ - * روى أبو داود عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : كُنْتُ أُمِيحُ أَصْحَابِي الْمَاءَ يَوْمَ بَذِرَ .

وفي نسخة : أُمِيحُ أَصْحَابِي الْمَاءَ يَوْمَ بَذِرَ .

قال أبو داود : مَعْنَاهُ : أَنَّهُ لَمْ يُسْهِمِ لَهُ .

٣٢٧ - * روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لَمْ تَحُلْ الْغَنَائِمَ لِأَحَدٍ سِوِ الرُّؤُوسِ مِنْ قَبْلِكُمْ كَأَنَّهُ تَنَزَّلُ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتَأْكُلُهَا » قَالَ سُلَيْمَانُ الْأَعْمَشُ : فَمَنْ يَقُولُ هَذَا إِلَّا أَبُو هُرَيْرَةَ الْآنَ ؟ فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ بَذِرَ ، وَقَعُوا فِي الْغَنَائِمِ قَبْلَ أَنْ تَحِلَّ لَهُمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : هُوَ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لِمَسَّكُمْ فِيهَا أُخَذْتُمْ

= الرُّؤْيَا : الَّتِي رَأَاهَا النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ : هِيَ أَنَّهُ رَأَى كَأَن فِي سَيْفِهِ قُلُوبًا ، فَأَوَّلَهَا : هَزِيمَةً ، وَكَانَتْ يَوْمَ أُحُدٍ .

٣٢٦ - أبو داود (٢ / ٧٥) ، كتاب الجهاد ، باب : فِي الْمَرْأَةِ وَالْعَبْدِ يُخَذَّيَانِ مِنَ الْغَنِيمَةِ ، وَإِسْنَادُهُ قَوِي .
أُمِيحُ ، أُمِيحُ : الْمَانِعُ : الْمُنْطَرِئُ ، وَالْمَانِعُ : الَّذِي يَنْزِلُ إِلَى أَسْفَلِ الْبُحْرِ فَيَلَأُ الدَّلُو ، وَيُدْفَعُهَا إِلَى الْمَاتِحِ ، وَهُوَ الَّذِي يَسْتَقِي الدَّلُو .

٣٢٧ - الترمذي (٥ / ٢٧١) ، ٤٨ - كتاب تفسير القرآن ، ٩ - باب : « وَمِنْ سُورَةِ الْأَنْفَالِ » وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ .

لأحد سود الرؤوس : للناس . فمن يقول هذا إلا أبو هريرة الآن : أي لا يروي هذا عن النبي ﷺ إلا أبو هريرة .

رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةً وَرِزْقًا كَرِيمًا * كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنْ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿١﴾ يَقُولُ : فَكَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُمْ ، فَكَذَلِكَ أَيْضًا فَأَطِيعُونِي ، فَإِنِّي أَعْلَمُ بِعَاقِبَةِ هَذَا مِنْكُمْ .

وفي رواية يقول : فَكَمَا كَانَ خُرُوجُهُ خَيْرًا لَكُمْ ، فَكَذَلِكَ فَأَطِيعُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ، فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِعَاقِبَةِ أُمُورِكُمْ وَمَصَالِحِهَا ، فَاصْطَلَحُوا ، وَرَضِيَ كُلُّ بِقِسْمٍ اللَّهِ فِيهِمْ .

في رواية بإسناده (٢) ومعناه ، قال : فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالسَّوَاءِ .

٣٣٠ - * روى البخاري عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال : ضُرِبَتْ يَوْمَ بَدْرٍ لِلْمُهَاجِرِينَ مِائَةٌ سَهْمٍ .

قال البخاري : فَجَمِيعٌ مِنْ شَهِدَةِ بَدْرًا مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ ضُرْبٍ لَهُ بِسَهْمِهِ : أَحَدٌ وَثَمَانُونَ رَجُلًا ، وَكَانَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ يَقُولُ : قَالَ الزُّبَيْرُ : قُسِمَتْ سَهْمَانُهُمْ ، فَكَانُوا مِائَةً . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قال الحافظ في الفتح : قوله (ضربت يوم بدر المهاجرين بمائة سهم) عند ابن عائذ من طريق أبي الأسود عن عروة (سألت الزبير على كم سهم جاء للمهاجرين يوم بدر ؟ قال : على مائة سهم) قال الداودي هذا يغاير قوله (كانوا إحدى وثمانين) قال : فإن كان قوله بمائة سهم من كلام الزبير فلعله دخله شك في العدد ، ويحتمل أن يكون من قول الراوي عنه ، قال : وإنما كانوا على التحرير أربعة وثمانين ، وكان معهم ثلاثة أفراس فأسهم لها سهمين سهمين ، وضرب لرجال كان أرسلهم في بعض أمره بسهامهم فصح أنها كانت مائة سهمًا بهذا الاعتبار . قلت : هذا الذي قاله أخيرًا لا بأس به ، لكن ظهر أن إطلاق المائة إنما هو باعتبار الخمس ، وذلك أنه عزل خمس الغنمية ثم قسم ما عداها على الثمانين على ثمانين سهمًا عدد من شهدها ومن ألحق بهم ، فإذا أضيف إليه الخمس كان ذلك من حساب مائة سهم ، والله أعلم .

(١) الأنفال : ١ - ٥ .

(٢) أبو داود (٣ / ٧٧) كتاب الجهاد ، باب : في النفل .

٣٣٠ - البخاري (٧ / ٣٢٤) ، ٦٤ - كتاب المغازي . ١٢ - باب : حدثني خليفة .

فوائد :

١ - قال ابن كثير في البداية والنهاية : قال ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى إذا خرج من مضيق الصفراء نزل على كتيب بين المضيق وبين النازية يقال له سَيْر إلى سرحة به فقسم هنالك النفل الذي أفاء الله على المسلمين من المشركين على السواء ، ثم ارتحل حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين فقال لهم سلمة بن سلامة بن وقش كما حدثني عاصم بن عمر ويزيد بن رومان ما الذي تهنئوننا به . والله إن لقينا إلا عجاجز صلعاً كالبدن المعقلة فنحرنها ، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : (أي ابن أخي أولئك الملأ) قال ابن هشام : يعني الأشراف والرؤساء .

٢ - المسلم يقاتل لله وفي الله ، والغنية لا تشكل بالنسبة له هدفاً يؤثر على نيّة القتال في سبيل الله ، ولكنها في الوقت نفسه تعتبر حافزاً للنفس البشرية ، وقد أراح الله عز وجل هذه النفس فأعطاه من الغنائم حتى لا تفكر أصلاً .

وقد نزلت سورة الأنفال تحدد استحقاق المقاتلين بأنه أربعة أخماس الغنية بعد أن يأخذ أهل البلاء ما وعدوه من الإمام وبعد أن يأخذ الإمام الخمس ليضعه في المصارف التي حدّدها الله عز وجل .

٣ - وأعطى الإسلام للإمام أو الأمير أن يعيد أهل البلاء بأن لهم كذا وكذا ، وقد يعطي مجموعة حصّة من الغنية قبل التخميس ، وذلك كذلك يشكّل حافزاً ولا ينبغي أن يؤثر على أصل النيّة .

٤ - بالنسبة لغنائم بدر فقد أعطى الرسول ﷺ ما وعد به أهل البلاء من نفل ، ثم من خمس الغنية ، ووزع أربعة أخماسها على المقاتلين أو من هم في حكمهم ورضخ لغير المقاتلين ، وأعطى بعض المقاتلين من الخمس لأنه عليه الصلاة والسلام كان له خمس الخمس .

٥ - من هذه المعاني ندرك أنه ينبغي للأمير أن ينفل المقاتلين فيقول : من قتل قتيلاً فله سلبه ، أي ما يحمله أثناء القتل ، أو يقول : له سلبه وله ربع ما يملك أو ثلث ما يملك فكل ذلك من السنّة ، وما زاد على ذلك ي خمس فتأخذ المجموعة المقاتلة أربعة أخماسه ،

والخمس يصرفه الإمام في مصارفه .

وفقه هذا الأمر من أهم أنواع الفقه لمن يمارس شؤون القتال .

* * *

٤ - فضل أهل بدر

٣٣١ - * روى البزار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأرجو أن لا يدخل النار من شهد بدرًا إن شاء الله » .

٣٣٢ - * روى الطبراني عن أبي هريرة أن رجلاً من الأنصار عمي فبعث إلى رسول الله ﷺ اخطط لي في داري مسجداً لأصلي فيه فجاء رسول الله ﷺ وقد اجتمع إليه قومه فتغيب رجل فقال رسول الله ﷺ : « ما فعل فلان ؟ » فذكره بعض القوم فقال رسول الله ﷺ : « أليس قد شهد بدرًا » قالوا : نعم ولكنه كذا وكذا فقال رسول الله ﷺ : « فعمل الله اطلع إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

٣٣٣ - * روى البخاري عن رفاع بن رافع الزرقى - وكان من أهل بدر - رضي الله عنه قال : جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ ، فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : « من أفضل المسلمين » أو كلمة نحوها - قال : وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة .

وفي حديث حماد بن زيد : وكان رفاع من أهل بدر ، وكان رافع من أهل العقبة فكان يقول لابنه : ما يسرني أني شهدت بدرًا بالعقبة ، قال : سأل جبريل النبي ﷺ يعني فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ ... وذكر باقي الحديث نحوه .

٣٣١ - البزار (٢ / ٢٨٨) ، كتاب علامات النبوة ، باب : مناقب أهل بدر والحديبية .

وأورده الميمني في مجمع الزوائد (١ / ١٦١) ، وقال : رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح .

٣٣٢ - أورده الميمني في مجمع الزوائد (٦ / ١٠٦) ، وقال : رواه الطبراني في الأوسط ، وإسناده جيد . فذكره بعض القوم : أي بسوء .

الرجل الأعمى : هو عتب بن مالك الأنصاري .

٣٣٣ - البخاري (٧ / ٢١٢) ، ٦٤ - كتاب المغازي . ١١ - باب : شهود للملائكة بدرًا .

في رواية (١) : أن ملكاً سأل النبي ﷺ .

٣٣٤ - * روى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« اطلع الله على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم » .

٣٣٥ - * روى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : أن عبداً لحاطب جاء إلى رسول الله ﷺ يشكو خاطباً فقال : يا رسول الله ليدخلن خاطب النار ، فقال رسول الله ﷺ : « كذبت لا يدخلها ، فإنه شهد بدرًا والحديبية » .

قال النووي في شرحه على مسلم : وفيه فضيلة أهل بدر والحديبية وفضيلة حاطب لكونه منهم وفيه أن لفظة الكذب هي الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو عليه عمدًا كان أو سهواً سواء كان الإخبار عن ماضٍ أو مستقبل وخصته المعتزلة بالعمد وهذا يرد عليهم .

وقال بعض أهل اللغة لا يستعمل الكذب إلا في الإخبار عن الماضي بخلاف ما هو مستقبل وهذا الحديث يرد عليهم .

٣٣٦ - * روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين ﴾ (٢) عَنْ بَدْرِ وَالْحَارِثُونَ إِلَى بَدْرِ .

٣٣٧ - * روى الترمذي : لما نزلت غزوة بدر ، قال عبد الله بن جحش ، وابن أم مكتوم : إنا أغميان يا رسول الله ، فهل لنا رخصة ؟ فنزلت : ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضّرر ﴾ ﴿ فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة ﴾ ﴿ هؤلاء القاعدون

(١) البخاري (٧ - ٣١٢) ٦٤ - كتاب المغازي - ١١ - باب : شهود الملائكة بدرًا .

٣٣٤ - أبو داود (٤ / ٢١٣) ، كتاب السنة ، باب : في الخلفاء ، وإسناده صحيح .

٣٣٥ - مسلم (٤ / ١٩٤٢) ، ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، ٣٦ - باب : من فضائل أهل بدر ، رضي الله عنهم ، وقصة حاطب بن أبي بلتعة .

٣٣٦ - البخاري (٨ / ٢٦٠) ، ٦٥ - كتاب التفسير ، ١٨ - باب : لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله . (٢) النساء : ٩٥ .

٣٣٧ - الترمذي مطولاً (٥ / ٢٤١) ، ٤٨ - كتاب تفسير القرآن ، ٥ - باب : « ومن سورة النساء » ، وقال : هذا حديث حسن غريب .

غَيْرِ أُولِي الضَّرَرِ ، ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ دَرَجَاتٍ مِنْهُ ﴿ عَلَى الْقَاعِدِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرِ أُولِي الضَّرَرِ .

قال صاحب الفتح : وأما أولو الضرر فلحقون في الفضل بأهل الجهاد إذا صدقت نياتهم كما تقدم في المغازي من حديث أنس (إن بالمدينة لأقواماً ما سرتهم من مسير ولا قطعهم من واد إلا وهم معكم حبسهم العذر) . ويحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ أي من أولي الضرر وغيرهم .

من غاب عن بدر وكان كاهلها :

٣٣٨ - * روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : إنما تغيب عثمان عن بدر فإنه كان تحت بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة ، فقال له النبي ﷺ « إِنْ لَكَ أَجْرٌ رَجُلٍ مِنْ شَهِدَ بَدْرًا وَسَهْمَهُ » .

قال ابن كثير في البداية والنهاية : وفي الذين عدم ابن إسحاق في أهل بدر من ضرب له سهم في مغنمها وأنه لم يحضرها تخلف عنها لعذر أذن له في التخلف بسببها وكانوا ثمانية أو تسعة وهم ، عثمان بن عفان تخلف على رقية بنت رسول الله ﷺ يرضها حتى ماتت فضرب له سهمه وأجره ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل كان بالشام فضرب له سهمه وأجره ، وطلحة بن عبيد الله كان بالشام أيضاً فضرب له سهمه وأجره ، وأبو لبابة بشير بن عبد المنذر رده رسول الله ﷺ من الروحاء حين بلغه خروج النفي من مكة فاستعمله على المدينة وضرب له سهمه وأجره ، والحارث بن حاطب بن عبيد بن أمية رده رسول الله ﷺ أيضاً من الطريق وضرب له سهمه وأجره ، والحارث بن الصمة كسر بالروحاء فرجع فضرب له سهمه ، زاد الواقدي : وأجره ، وخوات بن جبير لم يحضر الواقعة وضرب له سهمه وأجره ، وأبو الصياح بن ثابت خرج مع رسول الله ﷺ فأصاب ساقه فصيل

٣٣٨ - البخاري (٦ / ٢٢٥) ، ٥٧ - كتاب فرض الجس . ١٤ - باب : إذا بعث الإمام رسولاً في حاجة ، أو أمره بالمقام ، هل يسهم له ؟ =

حَجَّرَ^(١) فرجع وضرب له بسهمه وأجره .

* * *

٥ - الأسارى

٣٣٩ - * روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : فادى رسول الله ﷺ أَسَارِي بَذِيرٍ وَكَانَ فِدَاءُ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَرْبَعَةَ آلَافٍ ، وَقُتِلَ عَقَبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ قَبْلَ الْفِدَاءِ ، قَامَ إِلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَتَلَهُ صَبْرًا فَقَالَ مَنْ لِلصَّبِيَّةِ يَاعَمَدُ ؟ قَالَ : « النَّارُ » .

٣٤٠ - * روى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يَوْمَ بَذِيرٍ أَرْبَعَ مِائَةٍ .

قال ابن كثير : وَهَذَا كَانَ أَقَلَّ مَا فُودِيَ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْمَالِ ، وَأَكْثَرَ مَا فُودِيَ بِهِ الرَّجُلُ مِنْهُمْ أَرْبَعَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ .

٣٤١ - * روى أحمد عن ابن عباس قال : كَانَ نَاسٌ مِنَ الْأَشْرَى يَوْمَ بَذِيرٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِدَاءٌ فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِدَاءَهُمْ أَنْ يَعْلَمُوا أَوْلَادَ الْأَنْصَارِ الْكِتَابَةَ ، قَالَ فَجَاءَ يَوْمًا غُلَامٌ يَتِيمٌ إِلَى أَبِيهِ فَقَالَ : مَا شَأْنُكَ ؟ قَالَ : ضَرَبَنِي مُعَلِّمِي قَالَ : الْخَبِيثُ يَطْلُبُ بِذَحْلِ بَذِيرٍ وَاللَّهِ لَا تَأْتِيهِ أَبَدًا .

٣٤٢ - * روى الترمذي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قَالَ : « إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَبَطَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ : خَيْرُهُمْ - يَعْنِي أَصْحَابَكَ - فِي

(١) فصّل حجر : قطعة من حجر .

٣٣٩ - المعجم الكبير (١١ / ٤٠٦) .

وأورده الميثقي في جمع الزوائد (٦ / ٨١) ، وقال : رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، ورجاله رجال الصحيح .

٣٤٠ - المستدرک (٢ / ١٢٥) ، كتاب الجهاد ، وقال : هذا حديث صحيح على شرطها ولم يخرجه وأقره الذهبي .

٣٤١ - أحمد في مسنده (١ / ٢٤٧) . وهو على شرط السنن .

الذحل : الحقد والثأر ، جمعها أذحال وذحول .

٣٤٢ - الترمذي (٤ / ١٣٥) ، ٢٢ - كتاب السير ١٨٠ - باب ما جاء في قتل الأسارى والفداء ، وإسناده صحيح . =

أسارى بَدْرٍ : القتل ، أو الفداء ، على أن يُقتَلَ مِنْهُمْ قَابِلَ مِثْلِهِمْ « قالوا : الفداء ، ويُقتل منا .

٣٤٣ - * روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رجلاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : أئذن لنا فلتترك لابنِ أختنا عباسٍ فداءً فقال : « لا تدعون منها دَرهما » .

٣٤٤ - * روى الطبراني عن أبي عزيز بن عمير أخي مصعب بن عمير قال : كنت في الأثرى يوم بدرٍ فقال رسول الله ﷺ : « استوصوا بالأسارى خيراً » وكنت في نفرٍ من الأنصار فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر وأطعموني البُرَّ لوصية رسول الله ﷺ .

٣٤٥ - * روى البخاري عن جبير بن مطعم رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في أسارى بدرٍ : « لو كان المطعم بن عدي حياً ، ثم كلمني في هؤلاء النتنى ، لتركتهن له » وفي بعض الروايات : « لما له من يدٍ » .

قال في الفتح : المراد باليد المذكورة ما وقع منه حين رجع النبي ﷺ من الطائف ودخل في جوار المطعم بن عدي ، وقد ذكر ابن إسحق القصة في ذلك مبسطة ، وكذلك أوردتها الفاكهي بإسناد حسن مرسل وفيه (أن المطعم أمر أربعة من أولاده فلبسوا السلاح ، وقام كل واحد منهم عند ركن من الكعبة ، فبلغ ذلك قريشاً فقالوا له : أنت الرجل الذي لا تخفر ذمتك) وقيل المراد باليد المذكورة أنه كان من أشد من قام في نقض الصحيفة التي

= من قابل : في العام التالي .

٣٤٣ - البخاري (٦ / ١٦٧) ، ٥٦ - كتاب الجهاد ، ١٧٢ - باب : فداء المشركين .

٣٤٤ - أورده المهيبي في جمع الزوائد (٦ / ٨٦) ، وقال : رواه الطبراني في الصغير والكبير ، وإسناده حسن . البُر : القمح ، أي : الخبز ، وقد كان الخبز خيراً من البُر عند العرب .

٣٤٥ - البخاري (٦ / ٢٤٣) ، ٥٧ - كتاب فرض الجس - ١٦ - باب : ما من النبي ﷺ على الأسارى من غير أن يخمس . النتنى : أراد بهم الأسرى ، وجعلهم نتنى لأنهم كفار مشركون ، والمشركون نجس ، فاستعمار لهم النتن مجازاً . وإطلاقهم له ليد كانت للمطعم .

كتبتها قريش على بني هاشم ومن معهم من المسلمين حين حصروهم في الشعب ، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في أوائل السيرة ، وروى الطبراني من طريق محمد بن صالح التمار عن الزهري عن محمد بن جبير عن أبيه قال : (قال المطعم بن عدي لقريش : إنكم قد فعلتم بمحمد ما فعلتم ، فكونوا أكف الناس عنه) وذلك بعد الهجرة ثم مات المطعم بن عدي قبل وقعة بدر وله بضع وتسعون سنة وذكر الفاكهي بإسناد مرسل أن حسان بن ثابت رثاه لما مات مجازاة له على ما صنع للنبي ﷺ . وروى الترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم بإسناد صحيح عن علي قال : (جاء جبريل إلى النبي ﷺ يوم بدر فقال : خير أصحابك في الأسرى ، إن شاءوا القتل وإن شاءوا الفداء على أن يقتل منهم عاماً مقبلاً مثلهم ، قالوا : الفداء ويقتل منا) . وأخرج مسلم هذه القصة مطولة من حديث عمر ذكر فيها السبب ، هو أنه ﷺ قال : « ما ترون في هؤلاء الأسرى ؟ » فقال أبو بكر : أرى أن نأخذ منهم قوة تكون لنا ، وعسى الله أن يهديهم . فقال عمر : أرى أن تمكنا منهم فتضرب أعناقهم ، فإن هؤلاء أئمة الكفر ، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر (الحديث ، وفيه نزول قوله تعالى ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أمرى حتى يشخن في الأرض ﴾ .

وقد اختلف السلف في أي الرأيين كان أصوب ؟ فقال بعضهم : كان رأي أبي بكر لأنه وافق ما قدر الله في نفس الأمر ولما استقر الأمر عليه ، ولدخول كثير منهم في الإسلام إما بنفسه وإما بذريته التي ولدت له بعد الوقعة ، ولأنه وافق غلبة الرحمة على الغضب كما ثبت ذلك عن الله في حق من كتب له الرحمة ، وأما العتاب على الأخذ ففيه إشارة إلى ذم من أثار شيئاً من الدنيا على الآخرة ولو قل ، والله أعلم .

٣٤٦ - * روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لما كان يوم بدر - وجيء بالأسارى - قال رسول الله ﷺ : « مَا تَقُولُونَ فِي هَؤُلَاءِ الْأَسَارَى ؟ » فَذَكَرَ فِي الْحَدِيثِ قِصَّةً - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَنْفُلْتَنَّهُمْ أَحَدٌ إِلَّا بِفِدَاءٍ ، أَوْ ضَرْبٍ عَنَّقَ » قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِلَّا سَهْلَ بْنَ يَثْبَاءَ فَإِنِّي قَدْ سَمِعْتَهُ

٣٤٦ - الترمذي (٥ / ٢٧١) ، ٤٨ - كتاب تفسير القرآن - ٩ - باب : « ومن سورة الأنفال » ، وقال : هذا حديث

حسن . وقد حسنه مع انقطاعه لكثرة شواهد .

يذكر الإسلام ، قال : فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ : فَمَا رَأَيْتَنِي فِي يَوْمٍ أَخَوْفُ أَنْ تَقَعَ عَلَيَّ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ مِنِّي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، قَالَ : حَتَّى قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِلَّا سَهْلَ بْنَ يَثْبَاءَ » قَالَ : وَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِقَوْلِ عَمْرِ : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَمْرٌ حَتَّى يَشْخَنَ فِي الْأَرْضِ ... ﴾ ^(١) إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ .

٣٤٧ - * رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمٌ بِدَرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا . فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ . ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ « اللَّهُمَّ ! أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي . اللَّهُمَّ ! آتِ مَا وَعَدْتَنِي . اللَّهُمَّ ! إِنْ تَهْلِكَ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تَعْبُدُ فِي الْأَرْضِ » فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ ، مَا دَامَ يَدَيْهِ ، مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ ، حَتَّى سَقَطَ رِذَاؤُهُ عَنْ مَنْكَبَيْهِ . فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ . فَأَخَذَ رِذَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكَبَيْهِ ، ثُمَّ التَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ . وَقَالَ : يَا نَبِيُّ اللَّهِ ! كَذَلِكَ مَنَاشِدَتُكَ رَبِّكَ ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ ^(٢) فَأَمَدَهُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ .

قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ : فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ : بَيْنَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسُّوْطِ فَوْقَهُ ، وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ : أَقْدِمُ حَيْزُومَ ، فَتَنَظَّرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا ، فَتَنَظَّرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خَطَمَ أَنْفَهُ ، وَشَقَّ

= يذكر الإسلام : أسلم سهيل بمكة وكنم إسلامه فأخرجته قريش إلى بدر فأمر وشهد له ابن مسعود أنه رآه يصلي بمكة ، كذا في الإصابة .

يشخن : يبالغ في القتل .

(١) الأنفال : ٩ .

٣٤٧ - مسلم (٢ / ١٢٨٣) - ٣٢ - كتاب الجهاد والسير . ١٨ - باب : الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ، وإباحة الغنائم .

العصاة : الجماعة .

مناشدته : طلبك من ربك

ممدم : مرسل إليكم .

مردفين : متتابعين بعضهم في إثر بعض .

(٢) الأنفال : ٦٧ - ٧١ .

وَجْهَهُ كَضْرِبَةِ السُّوْطِ ، فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ ، فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « صَدَقْتَ . ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ » فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ ، وَأَسْرَوْا سَبْعِينَ .

قَالَ أَبُو زَمِيلٍ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَلَمَّا أَسْرَوْا الْأَسَارَى قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعَمَرَ : « مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأَسَارَى ؟ » فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ! هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ . أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً . فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةٌ عَلَى الْكُفَّارِ ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا تَرَى ؟ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ! » قُلْتُ : لَا . وَاللَّهِ ! يَارَسُولَ اللَّهِ ! مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تَمَكَّنَّا فَتَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ . فَتَمَكَّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ . وَتَمَكَّنِي مِنْ فَلَانٍ (نَسِيباً لِعُمَرَ) فَاضْرِبَ عُنُقَهُ ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أُمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا ، فَهَوِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ . وَلَمْ يَهُوَ مَا قُلْتُ . فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ . قُلْتُ : يَارَسُولَ اللَّهِ ! أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ . فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءَ بَكَيْتُ . وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءَ تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَبُكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخَذِهِمُ الْفِدَاءَ . لَقَدْ عَرَضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَذْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ » (شَجَرَةٌ قَرِيبَةٌ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ) وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَمْرٌ حَتَّى يَشْخَنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ خَلَالًا طَلِبًا ﴾ ^(١) فَأَحَلَّ اللَّهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ .

٣٤٨ - * رَوَى الْحَاكِمُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « مَا تَقُولُونَ فِي هَؤُلَاءِ الْأَسَارَى ؟ » فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ : آيَتْ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْخَطْبِ فَأَضْرِمُ نَاراً ثُمَّ أَلْقِيَهُمْ فِيهَا ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

لولا كتاب من الله سبق لمستم : لولا قضاء من الله سبق في اللوح المحفوظ - لمسكم : لئلاكم وأصابكم .

فيما أخذتم : من الفداء .

يشخن : الإغنان في الشيء : المبالغة فيه والإكثار ، يقال : أئخنه المرض : إذا أثقله وأوهنه ، والمراد به هاهنا : المبالغة في قتل الكفار ، والإكثار من ذلك .

(١) الأنفال : ٦٧ - ٦٩ .

٣٤٨ - المستدرک (٢ / ٢١) ، كتاب المغازي ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وأقره الذهبي .

قطعَ الله رَجِيمَكَ ، فقال عُمَرُ رضي الله عنه : قَادَتْهُمْ ورُؤُوسَاؤُهُم قَاتِلُوكَ وكَذَّبُوكَ فاضْرِبْ أعناقَهُم بعد ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : عَشِيرَتُكَ وقَوْمُكَ ، ثم دَخَلَ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم لبعض حاجته فقالت طائفة : القولُ ما قال عمرُ ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « ما تَقُولُونَ في هَؤُلَاءِ ؟ إن مَثَلَ هَؤُلَاءِ كَمَثَلِ إخوةٍ لَهم كانوا مِن قبلَهم قال نُوحٌ : ﴿ رب لا تَذَر على الأرض مِن الكافِرِينَ ذِياراً ﴾ ^(١) وقال موسى : ﴿ ربنا اطمِئس على أموالهم واشدّد على قلوبهم ﴾ ^(٢) الآية قال إبراهيم : ﴿ فَمَن تَبَعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَن عَصَانِي فَإِنَّكَ كَغَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ ^(٣) وقال عيسى : ﴿ إن تعذبهم فَإِنَّهم عبادُكَ وَإِن تَغْفِرَ لَهم فَإِنَّكَ أَنتَ العزيزُ الحكيم ﴾ ^(٤) وأنتم قومٌ فيكم غيلةٌ فلا يَنْقَلِبُن واحدٌ منهم إلا بفداءٍ أو بضربٍ عُنُقٍ » قال عبد الله : فقلت إلا سَهيلُ بنُ بيضاء فَإِنَّهُ لا يَقْتُل وقد سَمِعْتَهُ يتكلم بالإسلام . فسكت ، فما كان يومٌ أخوفَ عِندي أن يلقى عليّ حجارةً مِنَ السماء من يومي ذلك حتى قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إلا سَهيلُ بنُ بيضاء » .

قال الرازي : ﴿ إن تعذبهم فَإِنَّهم عبادُكَ وَإِن تَغْفِرَ لَهم فَإِنَّكَ أَنتَ العزيزُ الحكيم ﴾ معنى الآية ظاهر وفيه سؤال وهو إنه كيف جاز لعيسى عليه السلام أن يقول وإن تغفر لهم والله لا يغفر الشرك ، والجواب عنه من وجوه (الأول) أنه تعالى لما قال لعيسى عليه السلام : ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهِينَ مِن دُونِ الله ﴾ علم أن قوماً من النصارى حكوا هذا الكلام عنه والحاجي لهذا الكفر عنه لا يكون كافراً بل يكون مذنباً حيث كذب في هذه الحكاية وغفران الذنب جائز فلهذا المعنى طلب المغفرة من الله تعالى (والثاني) أنه يجوز على مذهبنا من الله تعالى أن يدخل الكفار الجنة وأن يدخل الزهاد والعباد النار ؛ لأن الملك ملكه ولا اعتراض لأحد عليه فذكر عيسى هذا الكلام ومقصوده منه تفويض الأمور كلها إلى الله ، وترك التعرض والاعتراض بالكلية ولذلك ختم الكلام بقوله فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز

(١) نوح : ٢٦ .

(٢) يونس : ٨٨ .

(٣) إبراهيم : ٣٦ .

(٤) المائدة : ١١٨ .

الحكيم يعني. أنت قادر على ما تريد حكيم في كل ما تفعل لا اعتراض لأحد عليك ، فمن أنا والخوض في أحوال الربوبية وقوله : إن الله لا يغفر الشرك فنقول : إن غفرانه جائز عندنا وعند جمهور البصريين من المعتزلة قالوا : لأن العقاب حق الله على المذنب وفي إسقاطه منفعة للمذنب وليس في إسقاطه على الله مضره فوجب أن يكون حسناً بل دل الدليل السمعي في شرعنا على أنه لا يقع فعل هذا الدليل السمعي ما كان موجوداً في شرع عيسى عليه السلام (الوجه الثالث في الجواب) أن القوم لما قالوا هذا الكفر فعمسى عليه السلام جوز أن يكون بعضهم قد تاب عنه فقال إن تعذبهم علمت أن أولئك المعذبين ماتوا على الكفر فلك أن تعذبهم بسبب أنهم عبادك وأنت قد حكمت على كل من كفر من عبادك بالعقوبة وإن تغفر لهم علمت أنهم تابوا عن الكفر وأنت حكمت على من تاب عن الكفر بالمغفرة (الوجه الرابع) إنا ذكرنا أن من الناس من قال إن قول الله تعالى لعيسى أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله إنما كان عند رفعه إلى السماء لا في يوم القيامة وعلى هذا القول فالجواب سهل لأن قوله إن تعذبهم فإنهم عبادك يعني إن توفيتهم على هذا الكفر وعذبته فإنهم عبادك فلك ذاك ، وإن أخرجتهم بتوفيقك من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان وغفرت لهم ما سلف منهم فلك أيضاً ذاك وعلى هذا التقدير فلا إشكال .

٣٤٩ - * روى الطبراني عن عبد الله بن الزبير قال : كانت قریش ناجت قتلاها ثم نذمت وقالوا : لا تنوحوا عليهم فيبلغ ذلك محمداً وأصحابه فيشمتوا بهم . وكان في الأسرى أبو وداعة بن ضبيرة السهمي ، فقال رسول الله ﷺ : « إن له بمكة ابنأ تاجراً كيساً ذا مال كأنكم قد جاءكم في فداء أبيه » فلما قالت قریش في الفداء ما قالت قال المطلب : صدقتم والله لأن صدقتم ليثاربين عليكم ، ثم انسل من الليل فقدم المدينة ففدى أباه بأربعة آلاف درهم .

قال ابن كثير في البداية والنهاية : وأول من أسروا عقبه بن أبي معيط والنضر بن الحارث قتلا صبراً بين يدي رسول الله ﷺ من بين الأسارى ، وقد اختلفت في أيهما قتل

٣٤٩ - أوردته الميشتي في مجمع الزوائد (٩٠ / ٦) . وقال : رواه الطبراني ، ورجاله ثقات .

ما قالت : قالت قریش : لاتستعملوا بفداء أسراكم . يثارب بن : ثرب فلاناً وعليه : لاه وعيره بذنه .

أَوَّلًا عَلَى قَوْلَيْنِ وَأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَطْلَقَ جَمَاعَةً مِنَ الْأَسَارَى مَجَانًا بِلَا فِدَاءٍ ، مِنْهُمْ : أَبُو الْعَاصِ بْنُ الرَّيِّعِ الْأُمَوِيُّ ، وَالْمِطْلَبُ بْنُ خَنْطَبٍ بْنِ الْحَارِثِ الْخَزْرُمِيُّ ، وَصَيْفِيُّ بْنُ أَبِي رِفَاعَةَ ، وَأَبُو عَزَّةَ الشَّاعِرُ ، وَوَهْبُ بْنُ عَمِيرٍ بْنُ وَهْبِ الْجُمَحِيِّ ، وَفَادَى بَقِيَّتَهُمْ حَتَّى عَمَّه الْعَبَّاسُ أَخَذَ مِنْهُ أَكْثَرُ مَا أَخَذَ مِنْ سَائِرِ الْأَشْرَى لِئَلَّا يَحَابِيَهُ لَكُونُهُ عَمَّهُ ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ سَأَلَهُ الَّذِينَ أَسْرَوْهُ مِنَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَتْرَكُوا لَهُ فِدَاءَهُ فَأَبَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ، قَالَ لَا تَتْرَكُوا مِنْهُ دِرْهَمًا ، وَقَدْ كَانَ فِدَاؤُهُمْ مَتَفَاوِتًا فَأَقْلُ مَا أَخَذَ أَرْبَعُمِائَةٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَ مِنْهُ أَرْبَعُونَ أَوْ قِيَّةً مِنْ ذَهَبٍ . قَالَ مُوسَى بْنُ عَقْبَةَ وَأَخَذَ مِنَ الْعَبَّاسِ مِائَةَ أَوْ قِيَّةً مِنْ ذَهَبٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ اسْتَوْجَرَ عَلَى عَمَلٍ بِمِقْدَارِ فِدَائِهِ .

* * *

٦ - آيَاتُ بَدْرِيَّةٍ

٣٥٠ - * رَوَى الْحَاكِمُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : كَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ الرُّومُ عَلَى فَارِسٍ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ ، وَكَانَ الْمَشْرُكُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَرَ فَارِسٌ عَلَى الرُّومِ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ أَوْثَانٍ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ « أَمَّا أَنَّهُمْ سَيُهْزَمُونَ » فَذَكَرَ أَبُو بَكْرٍ لَهُمْ ذَلِكَ ، فَقَالُوا : اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَجَلًا فَإِنْ ظَهَرُوا كَانَ لَكَ كَذَا وَكَذَا وَإِنْ ظَهَرْنَا كَانَ لَنَا كَذَا وَكَذَا فَجَعَلَ بَيْنَهُمْ أَجَلَ خَمْسِ سِنِينَ فَلَمْ يَظْهَرُوا فَذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : « أَلَا جَعَلْتَهُ (أَرَاهُ قَالَ) دُونَ ، الْعَشْرَةِ » ، قَالَ : فَظَهَرَتِ الرُّومُ بَعْدَ ذَلِكَ فَذَكَرَ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ هَ الْهَمْ * غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ قَالَ : فَغَلَبَتِ الرُّومُ ثُمَّ غَلَبَتْ بَعْدَ هَ اللَّهُ الْأَمْرَ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴿ ^(١) قَالَ سَفِيَانُ : وَسَمِعْتُ أَنَّهُمْ ظَهَرُوا يَوْمَ بَدْرٍ .

٣٥١ - * وَرَوَى الْحَاكِمُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيَقُولُونَ

٣٥٠ - المستدرک (٢ / ٤١٠) ، کتاب التفسیر ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأقره الذهبي .

(١) الروم : ١ .

٣٥١ - المستدرک (٢ / ٤١٤) ، کتاب التفسیر ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي .

متى هذا الفتح إن كنتم صادقين * قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم يُنظرون ﴿^(١)﴾ قال : يوم بدرٍ فُتِحَ للنبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم فلم يُنفع الذين كفروا إيمانهم بعد الموت .

٣٥٢ - * روى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل : ﴿ إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ﴾ ^(٢) يعني بالفرقان يوم بدرٍ يوم فرق الله بين الحق والباطل .

٣٥٣ - * وروى الحاكم عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى : ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴾ ^(٣) قال : يوم بدر .

٣٥٤ - * وروى الحاكم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في هذه الآية : ﴿ ومن يؤلّهم يومئذ ذبرة ﴾ ^(٤) قال : نزلت فينا يوم بدرٍ .

٣٥٥ - * روى البخاري عن سعيد بن جبّير رحمه الله قال : قلت لابن عباس رضي الله عنها سورة الأنفال ؟ قال : نزلت في بدرٍ .

قال صاحب الرحيق المختوم : حول موضوع هذه المعركة نزلت سورة الأنفال ، وهذه السورة تعليق إلهي - إن صح هذا التعبير - على هذه المعركة ، يختلف كثيراً عن التعليقات التي ينطق بها الملوك والقواد بعد الفتح .

(١) السجدة : ٢٨ ، ٢٩ .

٣٥٢ - المستدرک (٢ / ٢٣) ، كتاب المغازي ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي .

(٢) الأنفال : ٤١ .

٣٥٣ - المستدرک (٢ / ٤١٤) ، كتاب التفسير ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وأقره الذهبي .

(٣) السجدة .

٣٥٤ - المستدرک (٢ / ٣٢٧) ، كتاب التفسير ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وأقره الذهبي .

(٤) الأنفال : ١٦ .

٣٥٥ - البخاري (٨ / ٣٠٦) ٦٥ - كتاب التفسير - ١ - باب : قوله : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴾ ، من سورة الأنفال .

ومسلم نحوه مطولاً (٤ / ٢٣٢٢) ٥٤ - كتاب التفسير ٥ - باب : في سورة براءة والأنفال والحشر .

إن الله تعالى لفت أنظار المسلمين - أولاً - إلى التقصيرات والتفريطات الأخلاقية التي كانت قد بقيت فيهم ، وصدر بعضها منهم ، ليسعوا في تكيل نفوسهم وتزكيتها عن هذه التفريطات .

ثم ثنى بما كان في هذا الفتح من تأييد الله وعونه ونصره بالغيث للمسلمين . ذكر لهم ذلك لئلا يغتروا بشجاعتهم ويسالطهم ، فتتنسور نفوسهم الفطرسه والكبرياء بل ليتوكلوا على الله ويطيعوه ويطيعوا رسوله عليه الصلاة والسلام .

ثم بين لهم الأهداف والأغراض النبيلة التي خاض الرسول ﷺ لأجلها هذه المعركة الدامية الرهيبة ، ودلهم على الصفات والأخلاق التي تسببت في الفتوح في الممارك .

ثم خاطب المشركين والمنافقين واليهود وأسارى المعركة ، ووعظهم موعظة بليغة ، تهديهم إلى الاستسلام للحق والتقيد به .

ثم خاطب المسلمين حول موضوع الغنائم ، وقن لهم مبادئ وأسس هذه المسألة .

ثم بين وشرع لهم من قوانين الحرب والسلم ما كانت الحاجة تمس إليها بعد دخول الدعوة الإسلامية في هذه المرحلة ، حتى تمتاز حروب المسلمين عن حروب أهل الجاهلية ، ويقوم لهم التفوق في الأخلاق والقيم والمثل ، ويتأكد للدنيا أن الإسلام ليس مجرد وجهة نظرية ، بل إنه يثقف أهله عملياً على الأسس والمبادئ التي يدعو إليها .

ثم قرر بنوداً من قوانين الدولة الإسلامية التي تقيم الفرق بين المسلمين الذين يسكنون داخل حدودها ، والذين يسكنون خارجها .

* * *

٧ - من فقه غزوة بدر

قال الدكتور البوطي :

١ - إن عامة ممتلكات الحريين تعتبر بالنسبة للمسلمين أموالاً غير محترمة ، فلمهم أن يستولوا عليها ويأخذوا ما امتدت إليه أيديهم منها ، وما وقع تحت يدهم من ذلك اعتبر

ملكاً لهم . وهو حكم متفق عليه عند عامة الفقهاء ، على أن للمهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأبنائهم في مكة عذراً آخر في القصد إلى أخذ عير قريش والاستيلاء عليها ، وهو محاولة التعويض - أو شيء من التعويض - عن ممتلكاتهم التي بقيت في مكة واستولى عليها المشركون من ورائهم .

إنه بالرغم من مشروعية هذا القصد ، فإن الله تعالى أراد لعباده المؤمنين قصداً أرفع من ذلك وأليق بوظيفتهم التي خلقوا من أجلها ، ألا وهي الدعوة إلى دين الله والجهاد في سبيل ذلك ، والتضحية بالروح والمال في سبيل إعلاء كلمة الله ، ومن هنا كان النصر العظيم لحليف أبي سفيان في النجاة بتجارته ، بمقدار ما كانت الهزيمة العظيمة لحليف قريش في ميدان الجهاد بينهم وبين المسلمين ، وإن هذه الترية الإلهية لنفوس المسلمين لتتجلى بأبرز صورها في قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ يَعِدُّ اللَّهُ أَحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

٢ - وعندما تتأمل كيف يجلس رسول الله ﷺ إلى أصحابه ليشاوهم في الأمر الذي فوجئوا به بعد أن أفلت منهم العير وطلع عليهم النفير العظيم المدجج بالسلاح الكامل ، نقف على دلالتين شرعيتين لكل منهما أهمية بالغة :

الدلالة الأولى : التزامه ﷺ مبدأ التشاور مع أصحابه ، وإذا استعرضنا حياته ﷺ ، وجدنا أنه كان يلتزم هذا المبدأ في كل أمر لا نص فيه من كلام الله تعالى ، مما له علاقة بالتدبير والسياسة الشرعية ، ومن أجل هذا أجمع المسلمون على أن الشورى في كل ما لم يثبت نص مُلْزِم فيه من كتاب أو سنة ، أساس تشريعي دائم لا يجوز إهماله . أما ما ثبت فيه نص من الكتاب أو حديث من السنة أبرم به الرسول ﷺ حكمه ، فلا شأن للشورى فيه ولا ينبغي أن يقضي عليه بأي سلطان .

الدلالة الثانية : خضوع حالات الغزو أو المعاهدات أو الصلح بين المسلمين وغيرهم لما

يسمى بالسياسة الشرعية أو ما يسميه بعضهم بـ (حكم الإمامة) . وبيان ذلك أن مشروعية فرض الجهاد من حيث الأصل ، حكم تبليغي لا يخضع لأي نسخ أو تبديل ، كما أن أصل مشروعية الصلح والمعاهدات ثابت لا يجوز إبطاله أو اجتثاثه من أحكام الشريعة الإسلامية ، غير أن جزئيات الصور التطبيقية المختلفة لذلك ، تخضع لظروف الزمان والمكان وحالة المسلمين وحالة أعدائهم ، والميزان المحكم في ذلك إنما هو بصيرة الإمام المتدين العادل وسياسة الحاكم المتبحر في أحكام الدين مع إخلاص في الدين وتجرد في القصد ، إلى جانب اعتماد دائم على مشاورة المسلمين والاستفادة من خبراتهم وآرائهم المختلفة .

فإذا رأى الحاكم أن من الخير للمسلمين أن لا يجاهوا أعداءهم بالحرب والقوة ، وتثبت من صلاحية رأيه بالتشاور والمذاكرة في ذلك ، فله أن يجنح إلى سلم معهم لا يصادم نصاً من النصوص الشرعية الثابتة ، ريثما يأتي الظرف المناسب والملائم للقتال والجهاد ، وله أن يحمل رعيته على القتال والدفع إذا ما رأى المصلحة والسياسة الشرعية السليمة في ذلك الجانب .

وهذا ما اتفق عليه عامة الفقهاء ودلت عليه مشاهد كثيرة من سيرته ﷺ اللهم إلا إذا دام العدو المسلمين في عقر دورهم وبلادهم ، فإن عليهم دفعه بالقوة مهما كانت الوسيلة والظروف ، ويعم الواجب في ذلك المسلمين والمسلمات كافة بشرط توفر مقومات التكليف اهـ .

* * *

٨ - في أعقاب بدر

٣٥٦ - * روى الحاكم عن أبي رافع مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال : كُنْتُ غَلَامًا لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَكُنْتُ قَدْ أَسْلَمْتُ وَأَسْلَمَتْ أُمُّ الْفَضْلِ وَأَسْلَمَ الْعَبَّاسُ وَكَانَ يَكْتُمُ إِسْلَامَهُ خِيفَةَ قَوْمِهِ ، وَكَانَ أَبُو لَهُبٍ قَدْ تَخَلَّفَ عَنْ بَدْرِ وَبَعَثَ مَكَانَهُ الْعَاصِ بْنَ هِشَامٍ وَكَانَ لَهُ عَلَيْهِ ذَيْنَ فَقَالَ لَهُ : أَكْفِنِي هَذَا الْغَزْوَ وَأَتْرِكَ لَكَ مَا عَلَيْكَ ، فَقَعَلَ فَلَمَّا جَاءَ الْخَبْرُ

٣٥٦ - المستدرك (٢ / ٢٢١) ، كتاب معرفة الصحابة . وسكت عنه الذهبي . وفي أحد رواياته خلاف فالرواية حسنة على رأي بعضهم .

= اكفني : كفاه الشيء كفاية : استغنى به عن غيره فهو كاف ، وكفىء .

وَكَبَتَ اللَّهُ أَبَا لَهَبٍ وَكُنْتُ رَجُلًا ضَعِيفًا أُنَحْتُ هَذِهِ الْأَقْدَاحَ فِي حَجْرَةٍ فَوَاللَّهِ إِنِّي لَجَالِسٌ فِي الْحَجْرَةِ أُنَحْتُ أَقْدَاحِي وَعِنْدِي أُمُّ الْفَضْلِ إِذْ أَقْبَلَ الْفَاسِقُ أَبُو لَهَبٍ يَجْرُ رَجُلِيهِ أَرَاهُ قَالَ عِنْدَ طُنْبِ الْحَجْرَةِ وَكَانَ ظَهْرُهُ إِلَى ظَهْرِي فَقَالَ النَّاسُ : هَذَا أَبُو سَفِيَانَ بْنُ الْحَارِثِ فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ : هَلُمُّ إِلَيَّ يَا ابْنَ أَخِي فَجَاءَ أَبُو سَفِيَانَ حَتَّى جَلَسَ عِنْدَهُ فَجَاءَ النَّاسُ فَقَامُوا عَلَيْهَا فَقَالَ : يَا ابْنَ أَخِي كَيْفَ كَانَ أَمْرُ النَّاسِ فَقَالَ لَا شَيْءَ فَوَاللَّهِ إِنْ لَقِينَاهُمْ فَنَحْنَاهُمْ أَكْثَفَانَا يَقْتُلُونَنَا كَيْفَ شَاءُوا وَيَأْسِرُونَنَا كَيْفَ شَاءُوا وَأَيُّمَ اللَّهِ مَا لُمْتُ النَّاسَ قَالَ : وَلَمْ ؟ قَالَ : رَأَيْتُ رَجُلًا بِيضًا عَلَى خَيْلٍ بُلْقَى لَا وَاللَّهِ مَا تَلْبِقُ شَيْئًا وَلَا يَقُومُ لَهَا شَيْءٌ قَالَ فَرَفَعْتُ طُنْبَ الْحَجْرَةِ فَقُلْتُ : وَاللَّهِ تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ ، فَرَفَعَ أَبُو لَهَبٍ يَدَهُ فَضْرَبَ وَجْهِي وَثَاوَزْتُهُ فَاحْتَمَلَنِي فَضْرَبَ بِي الْأَرْضَ حَتَّى بَرَكَ عَلَى صَدْرِي فَقَامَتْ أُمُّ الْفَضْلِ فَاحْتَجَزَتْ وَرَفَعَتْ عُمُودًا مِنْ عَمْدِ الْحَجْرَةِ فَضْرَبَتْهُ بِهَ فَلَعَتْ فِي رَأْسِهِ شَجَّةً مُنْكَرَةً وَقَالَتْ : يَا عَدُوَّ اللَّهِ اسْتَضَعَفْتَهُ إِنْ رَأَيْتَ سَيِّدَهُ غَائِبًا عَنْهُ فَقَامَ ذَلِيلًا فَوَاللَّهِ مَا عَاشَ إِلَّا سَبْعَ لَيَالٍ حَتَّى ضَرَبَهُ اللَّهُ بِالْعَدْسَةِ فَقَتَلْتَهُ فَلَقْدَ تَرَكَهُ ابْنَاهُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً مَا يَذْنَبَانِهِ حَتَّى أَتْنَتْ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ لِابْنِهِ : أَلَا تَسْتَحْيَانِ أَنْ أَبَاكَ قَدْ أَتْنَتْ فِي بَيْتِهِ فَقَالَا : إِنَّا نَخْشَى هَذِهِ الْقُرْحَةَ ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تَتَّقِي الْعَدْسَةَ كَمَا تَتَّقِي الطَّاعُونَ فَقَالَ رَجُلٌ : انْطَلِقَا فَاثْنَا مَعَكُمْ قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا غَسَلُوهُ إِلَّا قَذْفًا بِالمَاءِ عَلَيْهِ مِنْ بَعِيدٍ ثُمَّ احْتَمَلُوهُ فَقَذَفُوهُ فِي أَعْلَى مَكَّةَ إِلَى جِدَارٍ وَقَذَفُوا عَلَيْهِ الْحِجَارَةَ .

قال الشيخ الغزالي : شدة العرب قاطبة للنصر الحاسم الذي ناله المسلمون في بدر ، بل إن

= كبت : المكبوت : الممتلئ غمًا .

كبته : يكبته : صرعه وأخزاه وضربه وكسره ورة العدو بغيظه .

الأقداح : القدح : السهم قبل أن يراش وينصل ، ومغتها : برها ، وتأتي القدح بمعنى : السهم الذي كانوا يستقسمون به في الجاهلية .

الطنب : حبل طويل يشد به سرادق البيت أو الوتد .

بلق : جمع أبلق ، بلق الفرس ونحوه بلقًا وبلقةً كان فيه سواد وبياض فهو أبلق وهي بلقاء .

وثاورته : ثاوره مثاورة وثوارًا : واثبه .

فلعت : شققت .

العدسة : برة تخرج بالبدن فتقتل ، ربما الجذري .

أتنت : تئن تئنًا : خبثت رائحته ، فهو تئن .

أهل مكة استنكروا الحَبْرَ أول ما جاءهم ، وحسبوه هَذَيَانِ مجنون ، فلما استبان صدقه صَعَقَ نفر منهم فهلك لَتَوِّهِ ، وماج بعضهم في بعض من هول المصاب لا يدري ما يفعل ...

وكا استبعد أهل مكة الهزيمة على أنفسهم حتى جوبهوا بعارها ، استبعد مشركو المدينة ويهودها ما قرع آذانهم من بشريات الفوز ، وذهب بعضهم إلى حدّ اتهام المسلمين بأن ما يذاع عن نصرهم محض اختلاق ، وظلّوا يكابرون حتى رأوا الأسرى مقرنين في الأصفاد ، فسقطَ في أيديهم .

وقد اختلفت مسالك الأحزاب الكافرة بإزاء المسلمين بعد هذا الغلب الذي مكن للإسلام وأهله ، وجعل سلطانهم مهيباً في المدينة وما حولها ، ومد نفوذهم على طريق القوافل في شمال الجزيرة ، فأصبح لا يمر بها أحد إلا ياذنهم .

فأما أهل مكة فقد انطوا على أنفسهم ، يداوون جراحهم ، ويستعيدون قواهم ويستعدون لنيل ثأرهم ، ويعلنون أن يوم الانتقام قريب ، ولم تزدِهم الهزيمة إلا كرهاً للإسلام ، وتقمّة على محمد وصحبه ، واضطهاداً لمن يدخل في دينه ، فكان من ينشر صدره للإسلام يختفي به أو يعيش ذليلاً مستضعفاً. ذلك في مكة ، حيث كانت الدولة للكفر .

أما في المدينة حيث المسلمون كثرة مكينة ظاهرة ؛ فقد اتخذت العداوة للإسلام طريق الدس والنفاق والمخاتلة ، فأسلم فريق من المشركين واليهود ظاهراً وقلوبهم تغلي حقداً وكفراً ، وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أبي .

روى أسامة بن زَيْدٍ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ يَعْفُونَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ - كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى - وَيَصْبِرُونَ عَلَى الْأَذَى :

﴿ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ (١) .

فكان النبي ﷺ يتأول في العفو الذي أمره الله به - حتى أذن فيهم فلما غزا بدرًا ، وقتل

(١) البقرة ١٩٠ .

الله فيها من قتل من صناديد قريش ، وقفل رسول الله عليه الصلاة والسلام وأصحابه منصورين غانمين معهم أسارهم . قال « عبد الله بن أبي » ومن معه من المشركين عبدة الأوثان هذا أمر قد توجه (أي استقر فلا مطمع في إزالته) فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام فأسلموا ..

على أن هذا الخداع لاذ به فريق من الكفار في الوقت الذي عالن فيه فريق آخر من اليهود بسخطهم على محمد ، وألمهم للهزيمة التي أصابت قريشاً في « بدر » بل إن كعب بن الأشرف - من رجالات اليهود - أرسل القصائد في رثاء قتلاهم والمطالبة بثأرهم . !
ولقد اتسعت شقة العداوة بين المسلمين واليهود إثر هذا الموقف النابي .

ثم حاول اليهود أن يحرقوا من شأن النصر الذي حظي به الإسلام ، مما مهد للأحداث العنيفة التي وقعت بعد ، ودفع اليهود ثمنها من دمهم ، أفراداً وجماعات .

وعلق الدكتور السباعي على غزوة بدر فقال رحمه الله : إن النصر في المعارك لا يكون فقط بكثرة العدد ، ووفرة السلاح ، وإنما يكون بقوة الروح المعنوية لدى الجيش . وقد كان الجيش الإسلامي في هذه المعارك يمثل العقيدة النقية والإيمان المتقّد ، والفرح بالاستشهاد ، والرغبة في ثواب الله وجنته ، كما يمثل الفرحة من الانعتاق من الضلال ، والفرقة ، والفساد ، بينما كان جيش المشركين يمثل فساد العقيدة ، وتفسّخ الأخلاق ، وتفكّك الروابط الاجتماعية ، والانفماس في الملذات ، والعصبية العمياء للتقاليد البالية ، والآباء الماضين ، والآلهة المزيفة .

انظر إلى ما كان يفعله الجيشان قبل بدء القتال ، فقد حرص المشركون قبل بدء معركة بدر على أن يقيموا ثلاثة أيام ، يشربون فيها الخمر ، وتغني لهم القيان ، وتضرب لهم الدفوف ، وتشعل عندهم النيران لتسع العرب بما فعلوا فتهايمهم ، وكانوا يظنون ذلك سبيلاً إلى النصر ، بينما كان المسلمون قبل بدء المعركة يتجهون إلى الله بقلوبهم ، يسألونه النصر ، ويرجونه الشهادة ، ويشمون روائح الجنة ، ويخزّ الرسول ﷺ ساجداً مبتهلاً يسأل الله أن ينصر عباده المؤمنين ، وكانت النتيجة أن انتصر الأتقياء الخاشعون ، وانهزم اللاهون العابثون .

والذي يقارن بين أرقام المسلمين المحاربين ، وبين أرقام المشركين المحاربين في كل معركة . يجد أن المشركين أكثر من المسلمين أضعافاً مضاعفة . ومع ذلك فقد كان النصر للمسلمين ، حتى في معركتي أحد وحنين حيث انتصر فيهما المسلمون ، ولولا ما وقع من أخطاء المسلمين في هاتين المعركتين ومخالفتهم لأمر رسول الله ﷺ ، لما لقي المسلمون هزيمة قط .

- إن شدة عزائم الجيش واندفاعه في خوض المعركة ، وفرحه ببقاء عدوه يزيد القائد إقداماً في تنفيذ خطته ، وثقته بالنجاح والنصر . كما حدث في معركة بدر .

- إن على القائد ألا يكره جيشه على القتال ، وخوض المارك إذا كانوا غير راغبين ومتحمسين حتى يتأكد من رضاهم وتحمسهم ، كما فعل الرسول ﷺ من استشارة أصحابه يوم بدر قبل خوض المعركة .

- إن احتياط الجنود لحياة قائدهم أمر تحتمه الرغبة في نجاح المعركة والدعوة ، وعلى القائد أن يقبل ذلك ، لأن في حياته حياة الدعوة ، وفي فواتها خسارة المعركة .

وقد رأينا في معركة بدر كيف رضي صلى الله عليه وسلم ببناء العريش له ، ورأينا في بقية المارك : « أحد » و « حنين » ، كيف كان المؤمنون الصادقون وللمؤمنات الصادقات يلتفون جميعاً حول رسولهم ، ويحمونه من سهام الأعداء ، بتعريض أنفسهم لها ، ولم يعرف عنه ﷺ أنه أنكر ذلك مع شجاعته وتأيبه الله له ، بل أثنى على هؤلاء الملتفين حوله ، كما رأينا في ثنائه على نسبية أم عمارة ، ودعائه لها بأن تكون هي زوجها وأولادها رفقاءه في الجنة .

- إن الله تبارك وتعالى يحيط عباده المؤمنين الصادقين في معاركهم بجيش من عنده ، كما أنزل الملائكة يوم بدر ، وأرسل الريح يوم الأحزاب . وما دام هؤلاء المؤمنون يحاربون في سبيله ، فكيف يتخلل عنهم وهو الذي قال : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١)

وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ^(١) .

- إن من طبيعة الداعية الصادق أن يحرص على هداية أعدائه ، وأن يفسح لهم المجال لعل الله يلقي في قلوبهم الهداية ، ومن هنا نفهم سر ميل الرسول إلى فداء الأسرى يوم بدر ، فقد كان يرجو أن يهديهم الله ، وأن تكون لهم ذرية من بعدهم تعبد الله وتدعو إليه ، وإذا كان القرآن الكريم قد عاتب الرسول على ذلك ، فلأن هناك مصلحة أخرى للإسلام يومئذ ، وهو إرهاب أعداء الله والقضاء على رؤوس الفتنة والضلالة ، ولو قتل الأسرى يوم بدر لضعفت مقاومة قريش للقضاء على زعمائها ومؤججي نار الفتنة ضد المؤمنين .

ويلوح لي سر آخر في قبول الرسول أمر الفداء ، وهو أن العباس عم الرسول ﷺ كان من بين الأسرى ، وللعباس مواقف في نصرة الرسول قبل إعلان إسلامه ، فقد شهد معه بيعة العقبة الثانية سراً ، وكان يخبر الرسول عن كل تحركات قريش ، مما يؤكد عندي أنه كان مسلماً يكتّم إسلامه ، فكيف يقتله الرسول وهذا شأنه معه ؟ ولو استثناه الرسول من بين الأسرى لخالف شرعته في تحريم قتل المسلم إن كان العباس مسلماً . وإن كان مشركاً ، فشريعته لا تفرّق بين قريب وبعيد في الوقوف موقف الحزم والعداء من كل من يحارب الله ورسوله ، ولا غنمها المشركون والمنافقون فرصة للتشهير به ، ولإضعاف الثقة بعادته وتجرده عن الهوى في كل ما يصدر عنه ، وليس ذلك من مصلحة الدعوة في شيء .

فوائد من كتاب غزوة بدر للدكتور محمد أبو فارس

وما قاله الدكتور أبو فارس حول دروس بدر الكبرى :

- أهمية الشورى في الإسلام وفي مجال الحرب خصوصاً ، وإذا كان النبي ﷺ الموحى إليه من ربه يستشير أصحابه في القتال وغيره ، أفلا تكون الشورى في حق غيره أكد وأوجب .
- ضرورة تعرف القائد على مدى رغبة الجنود في القتال وهذا ما فعله رسول الله ﷺ في مشاورة أصحابه ، إذ إن المكره على القتال لا يمكن أن يقدم بنتيجة إيجابية .

- تتجلى في بدر صفات القائد الناجح ومن ذلك : التواضع وعدم التميز والسهر على راحة الجنود وبذل الحب لهم وتوثيق الصلة بالله والسرية في التحرك والإيثار ...

ومن نعم الله على المسلمين في غزوة بدر :

١ - النعاس والنوم : وفي ذلك راحة للجسم واطمئنان للنفوس وسكينة وهدوء وهمة متوثبة على عكس عدوهم الذي كان متوتراً هائجاً قلقاً مضطرباً .

٢ - إنزال المطر : يأخذون منه حاجتهم وناحية أخرى أن المطر في جانب المسلمين كان معتدلاً حتى تماسكت الأرض تحتهم ، أما في جانب المشركين فكان غزيراً فأوحلت الأرض .

٣ - إراءة الله المسلمين المشركين قلة .

٤ - إنزال الله الملائكة تؤيد المؤمنين وتقاتل معهم .

٥ - إلقاء الرعب في قلوب الكافرين .

٦ - أوحى الله إلى النبي ﷺ أن يرمي الحصباء فاستقبل قريشاً وربماها قائلاً : شأهت الوجوه ، فأوصل الله ذرات الرمل إلى أعين المقاتلين فانشغلوا بذلك عن القتال وكل ذلك بقدره الله ﷻ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى^(١) . اهـ بتصرف من كتاب غزوة بدر .

فائدة أخيرة : في كتاب فن الحرب لـ « صن تزو » - وهو مؤلف صيني قديم - ذكر أن قرار الحرب لا ينبغي أن يتخذ إلا إذا توافرت شروط :

١ - ثقة الشعب بحكومته .

٢ - ارتفاع معنويات الجنود .

٣ - وجود القائد الكفاء .

٤ - معرفة الأرض .

(١) الأنفال : ١٧ .

٥ - مراعاة الطقس وأن يتخذ قرار الحرب ينبغي أن يتخذ في المعبد لبياركة الله .
وهو كلام حكيم ولو أنك تأملت غزوة بدر لوجدت توجهها نحو الله ولرايت ثقة لا
مثيل لها ومعنويات لا مثيل لها وقيادة لا مثيل لها واختيار لأرض المعركة .
ولرايت مع هذا كله طقساً موافقاً لأهل الحق وذلك كله من التوفيقات الإلهية التي تجعل
أفعال رسول الله ﷺ على أعلى ما تصل إليه حكمة الحكماء مع احتمال خطئهم .

* * *

فصل : في إجلاء يهود بني قينقاع

٣٥٧ - * روى أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما أصاب رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَرْيُشًا يَوْمَ بَذْرِ ، وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ ، جَمَعَ الْيَهُودَ فِي سَوَاقِ بَنِي قَيْنَقَاعَ ، فَقَالَ : « يَا مَعْشَرَ يَهُودَ ، أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَرْيُشًا » قَالُوا : يَا مُحَمَّدُ ، لَا يَغْرُنُكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قَرْيُشٍ كَانُوا أَغْصَارًا لَا يَغْرُقُونَ الْقِتَالَ ، إِنَّكَ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ ، وَأَنَّكَ لَمْ تَلَقَ مِثْلَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَلِبُونَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ فُتَّةٌ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ بِبَذْرِ ﴿ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ﴾ (١) .

وقد فصل كتاب السير ما آل إليه أمر بني قينقاع فذكرها ابن هشام وابن سعد في طبقاته ويذكر المفسرون قصتهم عند قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَلِبُونَ وَتَحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَهَاد ﴾ . وعند قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ﴿ (٢) .

وهناك خلاف بين كتاب السير حول السنة التي حدثت فيها واقعة بني قينقاع ، والواقدي يرى أنها كانت في يوم السبت النصف من شوال سنة ثنتين من الهجرة .

قال ابن حجر العسقلاني في الفتح : ونون قينقاع مثلثة والأشهر فيها الضم ، وكانوا أول من أخرج من المدينة كما تقدم في أول الباب . وروى ابن إسحاق في المغازي عن أبيه عن

٣٥٧ - أبو داود (٣ / ١٥٤) ، كتاب الخراج والإمارة والفيء ، باب : كيف كان إخراج اليهود من المدينة ، وهو حديث حسن بشواهده .

أغصارًا : الأغصار : جمع عُمر بضم العين ، وهو الجاهل الغر الذي لم يجرب الأمور .

(١) آل عمران : ١٢ ، ١٣ .

(٢) المائدة : ٥١ ، ٥٢ .

عبادة بن الوليد عن عبادة بن الصامت قال : لما حاربت بنو قينقاع قام بأمرهم عبد الله بن أبي فشى عبادة بن الصامت وكان له من حلفهم مثل الذي لعبد الله بن أبي ، ففبرا عبادة منهم . قال : فنزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ إِلَى قَوْلِهِ ﴾ يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ﴿ وكان عبد الله بن أبي لما سأل النبي ﷺ أن يمن عليهم قال : يا محمد إنهم منعوني من الأسود والأحمر ، وإني امرؤ أخشى الدوائر ، فوهبهم له . وذكر الواقدي أن إجلاءهم كان في شوال سنة اثنتين ، يعني بعد بدر بشهر ، ويؤيده ما روى ابن إسحق بإسناد حسن عن ابن عباس قال : « لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر جمع يهود في سوق بني قينقاع فقال يا يهود : أسلموا قبل أن يصيبكم ما أصاب قريشاً يوم بدر ، فقالوا : إنهم كانوا لا يعرفون القتال ولو قاتلتنا لعرفت أننا الرجال . فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتْغْلِبُونَ ﴾ . - إلى قوله - ﴿ لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ وأغرب الحاكم فزعم أن إجلاء بني قينقاع وإجلاء بني النضير كان في زمن واحد ، ولم يوافق على ذلك . أ.هـ .

وقد قال ابن كثير في البداية والنهاية : قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا العهد وحاربوا فيما بين بدر وأحد . قال ابن هشام فذكر عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن المسور بن عخرمة عن أبي عون قال : كان أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بحلب لها فباعته بسوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ هناك منهم ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سواتها فضحكوا بها ، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهودياً فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فأغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع . قال ابن إسحاق : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلول حين أمكنه الله منهم فقال : يا محمد أحسن في موائى وكانوا حلفاء الخزرج قال : فأبطأ عليه رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أحسن في موائى فأعرض عنه ، قال : فأدخل يده في حيب دُرْع النبي ﷺ قال ابن هشام : وكان يقال لها

فاستوهم منه عبد الله بن أبيّ وكانوا حلفاء فوهمهم له ، وأخرجهم من المدينة إلى أذرعات . اهـ .

أقول : من أجل اعتداء على حجاب امرأة مسلمة واحدة فعل رسول الله ﷺ ما فعل ، وهذه القصة ذات دلالات كثيرة على طبيعة اليهود وطبيعة النفاق ، وكيف أنّ الحزم من ناحية وحسن السياسة من ناحية أخرى هما طريقا المسلمين في معالجة أمور الدولة .

* * *

تقويم الموقف في نهاية السنة الثانية للهجرة

في نهاية السنة الثانية للهجرة أخذت الهيبة العسكرية للمسلمين مداها الكبير في دائرة واسعة من الجزيرة العربية ، وأحس ضعفاء المشركين بالخطر وشعر أقويأؤهم بغلبة الإسلام ، وبدأت النفوس تتطلع إلى الإيمان ، فتوسّعت دائرة الدخول في الإسلام ، ورأى الكثيرون أن يدخلوا في الإسلام نفاقاً ضعفاً أو خديعة ، وبهذا كله أصبحت الدولة الجديدة أمام أوضاع جديدة من المكر والتآلب والتحالفات ، ولكن عين رسول الله ﷺ الساهرة وحكمته الباهرة وتأييد الله له أولاً وآخرأ دفع الأمور في غير الطريق التي يخطّط لها الأعداء :

﴿ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ ^(١)

﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون ﴾ ^(٢)

* * *

(١) الأنفال : ٣٠ .

(٢) الصف : ٨ .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الناشر	٥
مقدمة الأساس في السنة وفقهها	٩
أولاً : تعريف بهذا الكتاب	١١
تمهيد :	١١
ضخامة المكتبة الحديثية	١٧
منهج تأليف هذا الكتاب	٢٥
أقسام الكتاب	٣٢
ثانياً : التعريف بأصول هذا الكتاب ومصنفها	٣٥
١ - الإمام البخاري وصحيحه	٣٦
الجامع الصحيح	٣٧
الحامل له على تأليف الصحيح	٣٨
منهج البخاري في جمع الصحيح	٣٨
براعة البخاري في النقد	٣٩
شروط البخاري في التصحيح في القمة	٤٠
٢ - الإمام مسلم وصحيحه	٤٢
صحيح الإمام مسلم	٤٣
سباحة الإمام في البحث	٤٤
منهج مسلم في صحيحه	٤٤
خصائص صحيح مسلم	٤٥
٣ - الإمام أبو داود وسننه	٤٧
٤ - الإمام الترمذي وسننه	٥٠
٥ - الإمام النسائي وسننه	٥١

٥٣	٦ - ابن ماجه وسننه
٥٦	٧ - الدارمي وسننه
٦١	٨ - الإمام مالك وموطؤه
٦٤	٩ - الإمام أحمد ومسنده
٦٨	١٠ ، ١١ ، ١٢ - معاجم الطبراني الثلاثة
٧٠	١٣ - ابن حبان وصحيحه
٧٢	١٤ - ابن خزيمة وصحيحه
٧٥	١٥ - أبو يعلى ومسنده
٧٦	١٦ - أبو بكر البزار ومسنده
٧٧	١٧ - الحاكم ومستدركه
٨٠	١٨ - رزين وابن الأثير وابن الديبع الشيباني والأصول الستة
٨٥	١٩ - نور الدين الهيثمي ومجمع الزوائد
٨٨	٢٠ - محمد بن محمد بن سليمان المغربي وكتابه جمع الفوائد
٩١	القسم الأول : في السيرة النبوية :
٩٥	المقدمة :
٩٨	تصحيح مفاهيم حول السيرة
١٠٠	١ - حاجة البشرية إلى الدين
١٠٢	٢ - محمد الرسول الأكمل صلى الله عليه وسلم
١٠٦	الشروط الصحيحة لسيرة الهادي القدوة
١٠٦	٣ - شرط التاريخية
١١٣	٤ - شرط الكمال المطلق
١١٧	٥ - شرط الشمولية
١٢٢	٦ - واقعية السيرة المحمدية
١٢٤	٧ - عالمية السيرة المحمدية

- ٨ - حقيقة الرسالة الحمديّة وأيادها على البشريّة ١٢٦
- الباب الأول : من البدء حتى النبوة الشريفة ١٣٣
- هذه المرحلة في سطور ١٣٥
- فصل : في فضل النسب وفي فضل الجيل ١٣٨
- نسب الرسول صلى الله عليه وسلم ١٣٨
- اصطفاء نبينا من خير بني آدم ومن خير الأجيال ١٣٨
- تزكية الله لنبيه صلى الله عليه وسلم وللصحابة ١٤٠
- « هاجر » جدة رسولنا - عليها الصلاة والسلام - ١٤١
- تعليق حول صدق إبراهيم عليه السلام ١٤٢
- قصة إسماعيل الذبيح - عليه السلام - وبناء البيت ١٤٣
- فائدة : في التعريف بالقبائل العربيّة ١٤٧
- فصل : في بعض البشارات بنبينا صلى الله عليه وسلم ١٥١
- بشارات في الكتب السابقة ١٥١
- قصة تدل على أن الراسخين في العلم كانوا يعرفون علامات من شأنه ١٥٢
- قصة مجيراً وما بها من شاهد على أنه عليه الصلاة والسلام مبشر به ١٥٤
- فائدة حول موضوع الكشف للأولياء ١٥٥
- فصل : في الميلاد ١٥٦
- متى ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ١٥٦
- ولد يتيماً صلى الله عليه وسلم ١٥٧
- تعليق حول الحكمة من هذا اليتيم وذاك الفقر ١٥٨
- فصل : في أسمائه صلى الله عليه وسلم ١٥٩
- فائدة حول تنشئته صلى الله عليه وسلم في البادية ١٦٣
- فصل : في شق صدر النبي صلى الله عليه وسلم وتكرار هذه الحادثة ١٦٤

- ١٦٦ فوائد حول حادثة شق الصدر
- ١٦٧ فصل : في رعيه صلى الله عليه وسلم الغنم والحكمة من ذلك
- ١٦٩ فصل : في عصمته ﷺ مما يشينه حتى قبل البعثة
- ١٦٩ عصمته من فعل الجاهلية
- ١٧١ فصل : في حضوره حلف الفضول
- ١٧١ فوائد حول حادث حلف الفضول
- ١٧٣ فصل : في الإجارة عند خديجة ثم زواجه ﷺ منها
- ١٧٥ فصل : في راحة عقله ﷺ وتلقيبه بالأمين قبل البعثة
- ١٧٥ فائدة حول تحكيه ﷺ في وضع الحجر الأسود
- ١٧٦ بركته ومحبة الناس له وثقتهم به
- ١٧٧ فصل : في مقدمات بعثته صلى الله عليه وسلم
- ١٧٧ تطلعات إلى دين جديد صحيح
- ١٧٨ ضلال العرب في عقائدهم وفساد تصرفاتهم
- ١٨٠ نقل حول ما وصل إليه العرب من سوء الأحوال وحاجتهم إلى الدين الجديد
- ١٨١ الفترة التي بين عيسى ونبينا - عليها الصلاة والسلام
- ١٨٢ إرهاصات نبوته صلى الله عليه وسلم
- ١٨٣ خاتمة الباب
- ١٨٥ الباب الثاني : من البعثة حتى الاستقرار في المدينة
- ١٨٧ هذه المرحلة في سطور
- ١٩٠ من ملامح هذه المرحلة
- ١٩٣ فصل : في بدء الوحي وفترته واستثنائه
- ١٩٥ السر في الخلوة

١٩٥	حياته قبل النبوة
١٩٦	المراحل الأولى للوحي
٢٠٢	فصل : في ظاهرة الوحي
٢٠٧	أقسام الوحي
٢٠٨	حفظ أمر السماء بعد النبوة
٢١١	القرآن : معجزة الرسول ﷺ الخالدة
٢١٢	متى وكيف نزل القرآن
٢١٤	فصل : في الدعوة السرية
٢٣٣	بداية الدعوة في سريتها وفرديتها
٢٣٥	فصل : في الدعوة الجهرية
٢٣٩	أصناف خصوص الدعوة الجهرية
٢٤٦	فصل ووصل :
٢٤٨	فصل : في هجرتي الحبشة
٢٥٥	دروس من الهجرة إلى الحبشة
٢٥٨	فصل : في إسلام عمر وحزمة
٢٦٠	دروس من إسلام عمر وحزمة
٢٦٢	فصل : في حصار الشعب
٢٦٤	درس من الحصار
٢٦٥	جزاء المقاطعة
٢٦٧	فصل : في انشقاق القمر
٢٧١	فصل : الإيذاء مستتر والدعوة مستترة
٢٧٣	فصل : عام الحزن والشدة

٢٧٩	فصل : في رحلة الطائف
٢٨٣	فصل : في تبليغ الجن
٢٨٨	الفرج بعد الشدة
٢٨٩	فصل : في تكسير بعض الأصنام
٢٩١	فصل : في الإسراء والمعراج
٢٩٣	زمن الإسراء والمعراج
٢٩٣	الإيمان بالإسراء والمعراج
٢٩٤	الإسراء بالروح وبالجد
٣١٤	فصل : في بداية دخول الإسلام المدينة المنورة وفي بيعتي العقبة
٣٢٨	فصل : في الهجرة إلى المدينة المنورة
٣٢٩	الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام
٣٣٧	هجرة الرسول ﷺ
٣٤٥	فوائد من فتح الباري
٣٥٨	فوائد من كتاب الهجرة للدكتور محمد أبو فارس
٣٦٠	تأملات في العهد المكي وتصويبات
٣٦٣	الباب الثالث : من الاستقرار في المدينة حتى الوفاة
٣٦٥	هذه المرحلة في سطور
٣٦٥	من ملامح هذه المرحلة
٣٦٧	السنة الأولى للهجرة
٣٦٩	أحداث السنة الأولى في سطور
٣٧١	فصل : المدينة عند الهجرة
٣٧١	اليهود
٣٧٦	الأوس والخزرج

٥١٩

٢٧٨	الوضع الطبيعي
٢٧٩	الحالة الدينية والمكانة الاجتماعية
٢٨١	الحالة الاقتصادية والحضارية
٢٨٤	الوضع المعقد الذي واجهه الرسول ﷺ في مدينة يثرب
٢٨٥	فصل : في التأريخ بالهجرة
٢٨٧	فصل : في حسن الاستقبال وقوة الإقبال
٢٩١	فصل : المسجد أولاً
٣٩٧	فصل : المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار
٤٠١	أهداف المؤاخاة
٤٠٣	فصل : في الترتيبات الدستورية
٤٠٧	دروس من الصحيفة
٤١١	فصل : في البيعة
٤١٣	فصل : في الإذن بالقتال وبدء الحركة القتالية
٤١٧	فصل : في أمور متفرقة حدثت في السنة الأولى
٤١٧	١ - إسلام عبد الله بن سلام
٤١٩	٢ - خروج وباء المدينة منها
٤١٩	٣ - دخوله عليه الصلاة والسلام بعائشة
٤٢٠	٤ - تشريع الأذان وإكمال الصلاة
٤٢٢	٥ - حراسة الصحابة لرسول الله ﷺ
٤٢٤	تقويم الموقف في نهاية السنة الأولى
٤٢٥	السنة الثانية للهجرة
٤٢٧	هذه السنة في سطور
٤٢٧	١ - في تحالفات هذا العام

٤٢٨	٢ - في الحركة العسكرية
٤٣٣	فصل : في سرية عبد الله بن جحش
٤٣٤	دروس من هذه السرية
٢٣٦	الحكمة في السرايا
٤٢٨	فصل : في تحويل القبلة
٤٤٠	دروس من تحويل القبلة
٤٤١	عدد غزواته ﷺ
٤٤٣	فصل في غزوة بدر
٤٤٣	تمهيد
٤٤٥	١ - مقدمات الغزوة
٤٥٠	٢ - صور ومشاهد
٤٦٩	عوامل النصر
٤٨١	٣ - الأنفال
٤٨٧	٤ - فضل أهل بدر
٤٩٠	٥ - الأسارى
٤٩٧	٦ - آيات بدرية
٤٩٩	٧ - من فقه غزوة بدر
٥٠١	٨ - في أعقاب بدر
٥٠٦	فوائد من كتاب غزوة بدر للدكتور محمد أبو فارس
٥٠٧	ومن نعم الله على المسلمين في غزوة بدر
٥٠٩	فصل : في إجلاء يهود بني قينقاع
٥١٢	تقويم الموقف في نهاية السنة الثانية للهجرة

رقم الايداع : ٢٨٧٢ / ٨٩
التوقيع الدولي : ١ - ٢٤ - ١٤٧١ - ٩٧٧

